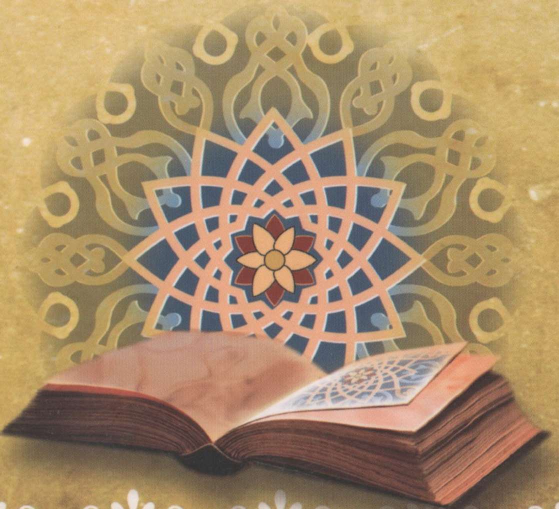
جولة في
صحيح البخاري

حوار بين العقل والنقل



عبد الحسين عبد الهادي العبيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

جولة في صحيح البخاري

حوار بين العقل والنقل

تأليف

عبد الحسين عبد الهادي العبيدي

جولة في صحيح البخاري

عبد الحسين عبدالهادي العبيدي

- الناشر: باقيات
- الكمية: ١٠٠٠ نسخة
- المطبعة: وفا
- الطبعة: الاولى
- تاريخ الطبع: ٢٠٠٩م - ١٤٣٠هـ.ق
- القطع وعدد الصفحات: وزيري - ٥٥٢ صفحة

شابك: ٨ - ٩٧ - ٦١٦٨ - ٩٦٤ - ٩٧٨

عنوان الناشر: ايران - قم - شارع معلم - رقم ٤٤ - تلفون: ٧٧٤٣٩٠٠

مركز التوزيع: ايران - قم - مجمع الإمام المهدي (عج) - الطابق الأرضي
رقم ١١٧، ١١٦ - تلفون: ٧٨٣٣٦٢٤

مكتبة فدك

الإهداء

إليك.. وصـــوتك أُصــغي إليـه   كــلحنٍ شــجيٍّ بــأحلى وتـرْ
إليك.. وهــذا دبــيبُ يــديكَ   يداعب شَعري.. يعيدُ الصـور
إليك.. وقــلبك لا زال يـنبضُ   ويــنفثُ دفــئاً كــضوء القـمر
إليك.. وثــغركَ أحــلى ربـيع   وفــيضُ حــنانك فـيضُ مـطر
إليك.. وتمضي بيَ الذكـرياتُ   وتمشي السنون وتُطوى السِـيَر
إليك.. وتـبقى الذي مـا سـواهُ   أنــارَ طــريقي بــأسنى العِــبَر
إليك.. ولولاكَ مـا قـد عـرفتُ   إلــٰـهي، وربّـي، ولا مَـنْ فـطَر
إليك.. ودونك كــان الضــياعُ   فكــنتَ الدليـلَ وكـنتَ البـصر
إليك.. ولولاك مـا كـنت أدري   على أيِّ دربٍ سـألقى القـدر،
فَقُدْتَ خُـطاي لحبّ النـبيّ   رســول الإلــٰـهِ وخـير البشـر
وقُدتَ خُطايَ لحبّ الوصيّ   وآلِ النـــبيّ الكِـــرام الدُّرر
إليك.. وقد كنتَ خيرَ الرجـالِ   حكيماً، جـريئاً، عـميقَ الفِكَـر
وعشت كريماً نبيلَ الطباعِ،   وغــادرتَ قَــرْماً عـظيمَ الأثـر
إليك.. أبي يا أبي مـا خـططْتُ   دفـاعاً عـن الحـقّ حـتّى ظـهر
وشـعّ كـصبحٍ بـهيّ جـليّ   أمــاط اللــثام فـصحّ الخـبر
وما كنتُ أبغي سوى نـصرةً   لخــيرِ الأنــامِ النــبيّ الأغـرّ

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمّد وآله الطيّبين الطاهرين، وصحبه الأبرار المنتجبين..

لقد كان حريّاً بالمسلمين الأوائل ـ وفي مقدّمتهم زعمائهم وقادتهم ـ أن يُظهروا اهتماماً كبيراً بالحديث النبويّ الشريف، وأن يتعاهدوه بالحفظ والتدوين والرعاية، باعتباره الرديف المترجم للكثير من آيات كتاب الله العزيز، والمَعين الوحيد للكثير من الأحكام والشرائع، ولكنّ المؤسف أنّ ما حصل هو عكس ذلك تماماً، إذ رأيناه قد تعرّض إلى سلسلة من الإجراءات ـ لا ندري الآن إن كان دافعها الجهل أو سوء النيّة ـ قيّدته ومنعت تداوله خلال مدّةٍ كانت كافية لتغيير معالم بعضه، ونسيان بعض آخر، وإيقاع الزيادة والنقصان في بعضٍ ثالثٍ، إضافة إلى توفير فرصة ذهبيّة لظهور ذلك الكمّ الهائل من الأحاديث الموضوعة..

وقد تظافر في مواجهة الحديث النبويّ العديد من العوامل والظروف التي تفاوتت حدّتها وشدّة تأثيرها بدرجةٍ تنسجم مع حدّة وشدّة النوازع والأهواء والميول والسياسات التي طبعت كلّ عصر بطابعها، وتحكّمت بزمام الأُمور ومجرى الأحداث فيه... فكانت أُولى تلك العقبات هي اعتقاله مدّة طويلةً ناهزت المائة عام، حين منع الخلفاءُ الناسَ من روايته وتدوينه، واحتجزوا الصحابة في المدينة خوفاً من نشره في البلدان والأماكن التي قد يذهبون إليها.. كما قاموا بحرق كلّ

ما لديهم منه، غير ناسين طبعاً الأمر بإحراق الموجود منه في مختلف الأمصار الخاضعة لدولتهم.

لقد امتدّت فترة الاعتقال هذه إلى بداية القرن الثاني الهجريّ، حتّى أطلقه من أسره الخليفة عمر بن عبدالعزيز عندما أمر محمّد بن حزم بجمع الحديث وتدوينه، فطفق الناس يبحثون عن حديث النبيّ ﷺ ليدوّنوه، تدفعهم غايات شتّى مختلفة:

منها: الصادق النبيل الذي يسعى إلى سدّ الفراغ التشريعيّ والثقافيّ الذي عانت منه الساحة الإسلاميّة، والاستعانة به على فهم القرآن الكريم وأحكامه الشرعيّة لمواجهة التطوّر الذي حصل في المجتمع..

ومنها: ما كان بهدف إرضاء السلطة والاستجابة لأمرها، فعمر بن عبدالعزيز هو خليفة المسلمين، وقد رغب وأمر، فلابدّ من تحقيق رغبته وتنفيذ أمره، تماماً كما استجابوا لرغبة الخلفاء قبله عندما منعوهم من التحديث والتدوين..

ومنها: ما كان بهدف تدعيم الأفكار والمتبنّيات التي استجدّت خلال القرن المنصرم الذي عصفت خلاله بالمسلمين تيّارات وأهواء مزّقت وحدتهم، وألقت كلّاً منهم في وادٍ..

لقد استعر الصراع بين التيّارات التي نشأت على ساحة الدولة الإسلاميّة من طوائف وتكتّلات سياسيّة، وخلفاء وسلاطين، وطغاة وظلمة، ورجال دين مزيّفين وقصّاصين ورواة مأجورين، وكلّ منهم كان يرجو من الحديث تحقيق مآرب يسعى إليها.. وكلّ منهم كان يبحث عن نوعيّة محدّدة من الأحاديث ليسخّرها لخدمة أغراضه ويستدلّ بها على صحّة منهجه، ويدعم بها سلوكه وتصرّفاته.. وكلّ طائفة من طوائف المسلمين بذلت من الجهد والعناء، وركبت الصعاب، وبذلت الأموال، واستحلّت حتّى المحرّمات، للحصول على أحاديث تمنح وجودها ما يفتقر إليه

من الشرعيّة، وما يحتاج إليه من نصوص تؤهّله للانتشار واجتذاب الأتباع والمريدين، إضافة إلى كلّ سدنة التكتّلات السياسيّة الذين تسابقوا لصناعة وترويج أحاديث تؤيّد خطّهم ونهجهم السياسي والعقائدي في مواجهة التيّارات الأُخرى.

ثمّ يأتي دور الخلفاء والسلاطين والولاة وهم يكرّسون الجهود وينفقون الأموال لشراء النصّ الشرعيّ المسند الذي يطلق أيديهم في رقاب الناس وأموالهم من خلال الأحاديث التي تدعو إلى الطاعة والولاء والصبر، وعدم الخروج على السلطان وإن كان جائراً، وإن كان فاسقاً، تجنّباً للفتنة والخروج عن الجماعة، وشقّ عصا الطاعة، وإضعاف صفّ الأُمّة!!

كما كان للنزعة الفرديّة والهوى الشخصيّ دورهما الخطير في هذا الخضمّ المتلاطم من أفواج الباحثين عن الحديث، ممّا ساعد القصّاصين ورواة السِير على لعب أخطر الأدوار في هذا المضمار، مدفوعين بطموحات مادّيّة وسعي وراء الثراء والمناصب، في زمن كانت فيه بضاعة الحديث أكثر رواجاً من أيّة بضاعة أُخرى، فراحوا يتجوّلون بين القبائل وتجمّعات الناس ليحدّثوها بما تأنس له، ويطيب لها سماعه، ممّا يتناغم مع انتماءاتها القبليّة وميولها الطائفيّة، ويحقّق رضاها الذي سيكون المفتاح إلى صندوق المال..

ومع كون الآيات المتشابهات كانت توفّر جانباً من حاجة كلّ هؤلاء من خلال تأويلها وفقاً لمتطلّبات مصالحم وتوجّهاتهم، إلّا أنّ عموم القرآن لم يكن ليعطيهم ما كانوا يحتاجون إليه من الدعم الشرعيّ، فكلام الله محفوظ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فحلاله بيّن، وحرامه بيّن، والعلاقة بين العبد وربّه، وبينه وبين أخيه واضحة، وتحدّث عن فرعون وأضرابه من الظالمين حتّى فضحهم وأخزاهم، وأطرى على المجاهدين والشهداء والصدّيقين ووعدهم بنعيم خالدين فيه، كما توعّد العصاة والمذنبين والكافرين بأن يوردهم بئس المصير، ويذيقهم حرّ السعير، وجعل لكلّ ذلك نصاباً وشروطاً دقيقة لا يمكن تجاوزها أو تأويلها..

لهذا السبب ،كان لا بدّ لهم من سبيل غير القرآن الذي سدّ بوجوههم كلّ الطرق ، وأغلق كلّ المنافذ ، ولم يترك لهم ثغرة يلجون منها إلى مآربهم .. فلا سبيل إذن غير هذا الحديث الذي لم يكتب ولم يوثّق بعد ، فكسر الكذّابون قيودهم ، وانتشروا في بلاد الله يحدّثون ويسندون أحاديثهم إلى أجلّاء الصحابة ليضفوا عليها من القدسيّة ما يحمل الناس على التصديق ، وهم البسطاء الذين يصدّقون كلّ شيء ، خصوصاً إذا كان فيه ما يداعب عواطفهم ويقودهم إلى السلامة ..

وقد راق الأمر للسلاطين ، فهم بحاجة إلى تدعيم زعاماتهم ، وتبرير سلوكهم ، وإطلاق أيديهم في استغلال الرعيّة دون خشية من خروجها عليهم ، فاتّصلوا بهؤلاء الرواة ، وأغدقوا عليهم الأموال ، وزوّدوهم بالمقاسات التي يريدون لها أحاديث وروايات ..

إنّ ما نسعى إلى تأكيده هو أنّ الصراعات بين الفِرق والطوائف الإسلاميّة والتيّارات السياسيّة والسلاطين والنزعات والأهواء والمنافع والمصالح الشخصيّة ؛ لعبت كلّها دوراً بارزاً في رسم صورة الكثير من الأحاديث النبويّة التي وصلت إلينا ، وكما أسلفنا ، فقد ساعد جميع هؤلاء عدم تدوين الحديث في حياة النبيّ ﷺ وخلفائه ، أو على الأقلّ في القرن الإسلاميّ الأوّل ، ممّا أدّى إلى جعل صدور الرجال الواسطة الوحيدة لحفظ ونقل الحديث ، وكما هو معلوم فإنّ هذه الواسطة غير مضمونة بأيّ شكل ، لتباين معارف هؤلاء الرجال وأرصدتهم العلميّة والدينيّة والثقافيّة والأخلاقيّة ، وقابليّاتهم على الحفظ والتركيز ، وقدرتهم على استذكار المواقف والحوادث والتواريخ ، ناهيك عن النزعة الشخصيّة لكلّ منهم ، التي قيّدته باتّجاه هدفه فقط ، وسيأتي في سياق البحث الدليل على كلّ ما قلناه ..

على أنّ هذا ينطبق على الأحاديث والروايات التي لها أساس حقيقيّ فقط ، أمّا الموضوعة أصلاً ، فهي لا تتقيّد بضوابط ولا أخلاقيّات ، وغاية ما فيها أنّها معنعنة ، وسندها متين (!) ورجالها قيل عنهم أنّهم ثقاة (!) ..

يقول الإمام عليّ عليه السلام في خطبة له، يبيّن فيها أنواع الأحاديث المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إِنَّ في أَيْدِي النّاسِ حَقّاً وَباطِلاً، وَصِدْقاً وَكَذِباً، وَناسِخاً وَمَنْسُوخاً، وَعامّاً وَخاصّاً، وَمُحْكَماً وَمُتَشابِهاً، وَحِفْظاً وَوَهْماً. وَلَقَدْ كُذِبَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ عَلَىٰ عَهْدِهِ، حَتَّىٰ قامَ خَطِيباً، فَقالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ.**

وَإِنَّما أَتاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجالٍ لَيْسَ لَهُمْ خامِسٌ:

رَجُلٌ مُنافِقٌ مُظْهِرٌ لِلْإِيمانِ، مُتَصَنِّعٌ بِالْإِسْلَامِ، لَا يَتَأَثَّمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ، يَكْذِبُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ مُتَعَمِّداً، فَلَوْ عَلِمَ النّاسُ أَنَّهُ مُنافِقٌ كاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَهُ، وَلٰكِنَّهُمْ قالُوا: صاحِبُ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ رَآهُ، وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِفَ عَنْهُ، فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللهُ عَنِ الْمُنافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ، فَتَقَرَّبُوا إِلَىٰ أَئِمَّةِ الضَّلَالَةِ، والدُّعاةِ إِلَى النّارِ بِالزُّورِ والْبُهْتانِ، فَوَلَّوْهُمُ الْأَعْمالَ، وَجَعَلُوهُمْ [حملوهم] حُكّاماً عَلَىٰ رِقابِ النّاسِ، فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا النّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ والدُّنيا، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ، فَهٰذا أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ.

وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَوَهِمَ فِيهِ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِباً، فَهُوَ في يَدَيْهِ، وَيَرْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَقُولُ: أَنا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهِمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذٰلِكَ لَرَفَضَهُ!

وَرَجُلٌ ثالِثٌ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَىٰ عَنْهُ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَىٰ عَنْ شَيْءٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ، وَلَمْ يَحْفَظِ النّاسِخَ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ، وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ

إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ.

وَآخَرُ رابِعٌ ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَىٰ اللهِ ، وَلَا عَلَىٰ رَسُولِهِ ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفاً مِنَ اللهِ ، وَتَعْظِيماً لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَهِمْ ، بَلْ حَفظَ ما سَمِعَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ، فَجاءَ بِهِ عَلَىٰ ما سَمِعَهُ ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ ، فَهُوَ حَفِظَ النّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ ، وَعَرَفَ الْخاصَّ والْعامَّ ، والْمُحْكَمَ والْمُتَشابِهَ ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ»[١].

لقد كان هذا هو ما وصف به الإمام أحوال الرواة الذين حدّثوا عن رسول الله ﷺ وهم لا زالوا في عصر بداية الإسلام ومعاصرة الرسول ، فكيف بنا إذن بعد هذه العصور التي مرّت ، وبعد أن دخلت الصراعات المذهبيّة والسياسيّة في كلّ زاوية من زوايا العقائد ، وفي كلّ شبر من أرض الإسلام ، وفي كلّ كلمة يقولها إنسان ؟!

إنّ بحثنا هذا سيحاول إلقاء بعض الأضواء على مجموعة من العوامل التي أثّرت على جمع وتدوين الحديث النبويّ الشريف ، والكيفيّة التي تمّت بها هذه العمليّة ، وسيقوم بعد ذلك بعرض الكثير من أحاديث البخاريّ على العقل والمنطق ، للتعرّف على مدى اقترابها أو ابتعادها عن الحقّ والصواب . .

---

(١) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ٣: ٢٠٢.

الباب الأوّل

منع تدوين السنّة

الفصل الأول

هل نهى النبيّ ﷺ عن تدوين أحاديثه ؟

احتجّ المدافعون عن صواب القرار الخاصّ بمنع كتابة أحاديث النبيّ ﷺ بما أسندوه إلى النبيّ من قولٍ لا يثبت أمام الكثير من المرويّات عنه ﷺ التي تدعو الناس إلى عكس ذلك، فقد ذكروا أنّ النبيّ قال: «**لا تكتبوا عنّي شيئاً، ومن كتب عنّي غير القرآن فليمحه**»(١).

ونحن الآن لا نعلم على وجه اليقين هل ظهر هذا القول في زمن عمر فأمر بالمنع، أو أنّه ظهر فيما بعد لتبرير ما فعله..؟

يقول الدكتور الفضليّ(٢): «فقد تكون فكرة المنع ـ منع الكتابة ـ جاءت متأثّرة بفكرة التلمود، وبإشارة من كعب الأحبار...».

ويقول السيّد الروحانيّ(٣): «إنّ من أعظم الآثار(٤) اليهوديّة في المسلمين هو عدم جواز كتابة أحاديث رسول الله ﷺ، ففي التلمود: «إنّ من الأُمور التي تُروى مشافهة ليس لك الحقّ في إثباتها بالكتابة)، ويلاحظ أنّ الحديث الذي أُورد

---

(١) صحيح مسلم ٨: ٢٢٩، ولم ترد فيه: «شيئاً». كنز العمّال ١: ١٩٩، الحديث ١٠٠٥، وفيه: «غير القرآن» بدل «شيئاً»، و ١٠: ٢٢١، الحديث ٢٩١٦٨.

(٢) تاريخ التشريع الإسلامي: ٤١.

(٣) بحوث مع أهل السنّة والسلفيّة: ٩٧.

(٤) في الأصل: «الآثام»، وما أثبتناه أقرب للصواب، والظاهر أنّه خطأ مطبعي.

في الصحاح: **لا تكتبوا عنّي غير القرآن، ومن كتب فليمحه** هو بمثابة ترجمة لطيفة لما في التلمود، وموافق لما كتبه عمر بن الخطّاب إلى الأمصار: (مَن كان عنده شيء منها -أي أحاديث رسول الله- فليمحه)[١]، ولا يبعد أن يكون هذا من إيحاءات كعب الأحبار، وإن جُعل بعد ذلك بصورة الحديث؛ إذ (أنّه) بعد إحراق الخليفة الثاني للأحاديث التي جمعها من أيدي الصحابة على مدى شهر، قال: (مثناة كمثناة أهل الكتاب)، وهذا يدلّ على اطّلاع كامل منه على مصطلح أهل الكتاب واليهود...»، انتهى.

وسواء أقبلنا بوجهة النظر هذه أو رفضناها، فإنّنا سنجد في مقابل رواية المنع التي وردت آنفاً، روايات كثيرة تدلّ على الإباحة، بل ذهب بعضها إلى أبعد من مجرّد الإباحة وتجاوزها إلى الندب.

فقد روي عن النبيّ ﷺ أقوال تتعارض بقوّة مع تلك الرواية،

منها: أنّه ﷺ رخّص لعبدالله بن عمرو بن العاص أن يكتب عنه ما يشاء[٢].

ومنها: قوله ﷺ لرجل من الأنصار: «**استعن على حفظك بيمينك**»[٣].

وكذلك قوله لأنس بن مالك: «**قيّدوا العلم بالكتابة**»[٤].

إضافة إلى روايات كثيرة بنفس المضمون، ممّا حدا بالكثير من المحدّثين إلى ترجيح كون النبيّ ﷺ قد نهى عن التدوين في فترة سابقة خشية اختلاط حديثه

---

(١) كتاب العلم، أبو خيثمة النسائي: ١١. كنز العمّال ١٠: ٢٩٢، الحديث ٢٩٤٧٦.

(٢) مسند أحمد ٢: ١٦٢، ١٩٢. سنن الدارمي ١: ١٢٥. سنن أبي داود ٢: ١٧٦، الحديث ٣٦٤٦.

(٣) سنن الترمذي ٤: ١٤٥، الحديث ٢٨٠٤. مجمع الزوائد ١: ١٥٢. تحفة الأحوذي ٧: ٣٥٧.

(٤) ذكر أخبار اصبهان ٢: ٢٢٨.

بالقرآن الكريم ، ولكن بعد أن تمكّن القرآن من نفوس المسلمين ، وأصبح بمقدورهم تمييزه عن غيره ، أباح لهم أن يكتبوا عنه ما يشاءون[١] .. وهذا الرأي طبعاً مرتبط بصحّة صدور المنع عن النبيّ الذي لم نجد ما يؤيّده مطلقاً حيث أنّ أغلب الأخبار التي بين أيدينا ، تشير بشكل واضح إلى أنّ المنع لم يكن بـأمر النـبيّ ﷺ ، وإنّـما كان بأمر الخلفاء من بعده لأسباب اعتقدوا هم بوجاهتها ، ولو كان الأمر قد صـدر من النبيّ لكانوا ذكروه واعتبروه حجّة على الناس ، ولم يتحمّلوا مغبّة إسناد المنع إلى أنفسهم ..

---

(١) دراسات في الكافي وصحيح البخاري ، هاشم معروف الحسني : ١٧ .

في عهد الخليفة أبي بكر

ذكر الذهبي بسنده عن أبي مليكة: «أنّ الصدّيق جمع الناس بعد وفاة نبيّهم، فقال: إنّكم تحدّثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشدّ اختلافاً، فلا تحدّثوا عن رسول الله شيئاً، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلّوا حلاله، وحرّموا حرامه»(١).

كما روي عن عائشة أنّها قالت: «جمع أبي الحديث عن رسول الله، فكانت خمسمائة حديث، فبات يتقلّب، ولمّا أصبح، قال: أي بنيّة، هلمّي الأحاديث التي عندك، فجئته بها، فأحرقها، وقال: خشيت أن أموت وهي عندك، فيكون فيها أحاديث عن رجل ائتمنته ووثقت به ولم يكن كما حدّثني، فأكون قد تقلّدت ذلك»(٢).

إنّ أُولى الروايتين تشير إلى أنّ الخليفة أبا بكر إنّما نهى عن التحديث عن رسول الله لأنّه رأى أنّ الصحابة يختلفون في رواية الحديث الواحد اختلافاً شديداً.

أمّا الرواية الثانية، فقد بيّنت أنّ الخليفة قد أحرق ما جمعه وكتبه بيده من الحديث، خوفاً من أن يكون قد وثق برجل لم يُصدِقه فيتحمّل هو تبعة ذلك، فكلّ ما في الأمر ـ إذن ـ أنّه أحبّ أن يحمي نفسه من مغبّة إسناد كلام إلى رسول الله لم يكن قد قاله، فيكون قد كذب عليه فيتبوأ مقعده من النار، حسب الحديث الشريف: «**مَن كذب علَيَّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار..**»(٣).

---

(١) تذكرة الحفّاظ ـ ترجمة أبي بكر: ٢.

(٢) المصدر السابق: ٥.

(٣) مسند أحمد ١: ٧٨، ١٣٠، ١٦٥، ١٦٧ و ٢: ١٧١. سنن الدارمي ١: ٧٦. ◀

إلّا أنّ هناك سؤالاً يفرض نفسه على التعقيب على هذه الرواية ، وهو : ألم يكن في تلك الخمسمائة حديث التي جمعها أبو بكر ما سمعه هو شخصيّاً من النبيّ مباشرة ودون واسطة بحيث يطمئنّ إلى صحّته ، فيُبقي عليه ولا يحرقه ؟ فإنّنا قد نفهم تحرّج الخليفة من إثبات أحاديث عن النبيّ سمعها من بعض الصحابة ، ولكنّنا لا نفهم عدم وثوقه بما يكون قد سمعته هو من النبيّ على وجه اليقين ، إلّا إذا قلنا : إنّ كلّ ما جمعه هو من سماع غيره وأنّه لم يسمع شيئاً بالمرّة يستطيع تدوينه دون خوف من الوقوع في شبهة الكذب على النبيّ صلى الله عليه وآله ..

على كلّ حال ، فإنّ غاية ما نلاحظه في هذا العهد هو أنّ الخليفة منع التحديث عن النبيّ وما يترتّب عليه من تدوين وغيره ، لوقوع اختلافات بين الناس في نقل الحديث الواحد ، وقد أدّى هذا الإجراء إلى ترك الرواية عن النبيّ ، ممّا سبّب في النتيجة عدم استفادة الصحابة أنفسهم من سنن النبيّ ، ناهيك عمّا جرّه ذلك على الأجيال اللاحقة من اختلاف وصراع ..

◆ صحيح البخاري ١ : ٣٥ و ٢ : ٨١ و ٤ : ١٤٥ . صحيح مسلم ١ : ٧ . سنن ابن ماجة ١ : ١٣ ، الحديث ٣٠ ـ ٣٣ .

في عهد الخليفة عمر

ابتدأ الخليفة عمر بن الخطّاب عهده بأن أخبر الناس أنّه يـريد جـمع الحـديث النبويّ في كتاب، ويصحّحه وينقّحه ليكون مرجعاً للمسلمين في معرفة الأحكـام والسنن، وناشدهم أن يأتوه بما في أيديهم من أقوال النبيّ لتحقيق هـذا الغـرض، فجلب الصحابة ما لديهم منها وسلّموه إلى الخليفة الذي واصل الجمع على مدى شهر كامل، فإذا ما اطمأنّ إلى كونه قد جمع كلّ ما في أيديهم، أمر بحرقه وإتلافه ومنع الصحابة من التحديث عن النبيّ ورواية سننه، مستخدماً كلّ وسائل المنع، بما فيها درّته التي كانت تعلو رأس مَن تسوّل له نفسه المخالفة..

يقول قرظة بن كعب: «خرجنا نريد العراق، فمشى معنا عمر إلى صرار ـ موضع قرب المدينة ـ ثمّ قال: أتدرون لِم مشيتُ معكم؟

قلنا: أردتَ أن تشيّعنا وتكرمنا.

قال: وإنّ مع ذلك لحاجة خرجتُ لها، إنّكم لتـأتون بـلدة لأهـلها دويّ كـدويّ النحل، فلا تصدّوهم بالأحاديث عن رسول الله، وأنا شريككم.

قال قرظة: فما حدّثت بعدها حديثاً عن رسول الله»[1].

وفي رواية: «إنّكم لتأتون قريةً لها دويّ كدويّ النحل، فلا تصدّوهم بالأحاديث لتشغلوهم، جوّدوا القرآن، وأقِلّوا الرواية عن رسول الله، وأنا شريككم، فلمّا قدم قرظة قالوا: حدّثنا، قال: نهانا عمر»[2].

---

(١) الطبقات الكبرى ٦: ٧. المستدرك على الصحيحين ١: ١٠٢. تهذيب الكمال ٢٣: ٥٦٥، الحديث ٤٨٦٤. تذكرة الحفّاظ ١: ٧.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢: ١٢١. كتاب المجروحين ١: ٣٦.

وعن عبدالله بن العلاء ، قال : « سألت القاسم يُملي علَيَّ أحاديث ، فقال : إنّ الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطّاب فأنشد الناس أن يأتوه بها ، فلمّا أتوه بها أمر بحرقها ، ثمّ قال : مثناة كمثناة أهل الكتاب .

قال : فمنعني القاسم يومئذٍ أن أكتب حديثاً »[١] .

والروايات كثيرة جدّاً في هذا الخصوص ، ولكن خلاصة القول هنا ما رواه يحيى بن جعدة ، وهو : « أنّ عمر بن الخطّاب أراد أن يكتب السنّة ، ثمّ بدا له أن لا يكتبها ، ثمّ كتب إلى الأمصار : مَن كان عنده شيء فليمحه »[٢] . وكان هذا احتياطاً من الخليفة وتطميناً لنفسه من أنّه لم يترك على الأرض رقعة تحوي من سنّة رسول الله وأحاديثه شيئاً . .

أمّا أبو هريرة ، فنسمعه يجيب أبا سلمة عندما سأله : أكنتَ تُحدّث في زمان عمر هكذا ؟

فقال : لو كنت أُحدّث في زمان عمر مثل ما أُحدّثكم لضربني بمخفقته . .[٣] .

ولا بدّ من الاعتراف الآن بأنّ الخليفة الثاني قد نجح في استبعاد سنّة الرسول استبعاداً تامّاً ، كما نجح بفرض ذلك على رعايا دولته ، حيث أصبح إبعاد السنّة النبويّة من واقع الحياة العمليّة والاحتفاظ بـ(القرآن) وحده هو الهدف المشترك للخليفة وولاته ، واحتذاءاً بهم تضاءل اهتمام الغالبيّة المسلمة بسنّة النبيّ ، وقلّت قيمتها ، وبدأ الناس يتناسونها إلّا في الحدود التي يراها الخليفة وولاته . . وصارت هذه السياسة أزاءها من المبادئ الكبرى التي حرص عليها كلّ الخلفاء والتزموا بها التزاماً حرفيّاً ، فسنّة الرسول هي ما يعترف به الخليفة ويجيزه ، وما سواه

---

(١) الطبقات الكبرى ٥ : ١٨٨ . سير أعلام النبلاء ٥ : ٥٩ . تاريخ الإسلام ٧ : ٢٢٠ .

(٢) أضواء على السنّة المحمّديّة : ٤٧ .

(٣) المصدر السابق : ٥٩ .

فإنّه ليس بسنّة..

وبالمناسبة، لننظر اليوم إلى عقائد الكثير من المسلمين، وبالأخصّ أتباع ابن تيميّة ومحمّد بن عبدالوهاب، والتي ليس فيها مكان لسنن النبيّ الكريم ﷺ، ولا يقيمون لها وزناً ولا اعتباراً، وحجّتهم «حسبنا كتاب الله» كما فعل الأسلاف..

في عهد الخليفة عثمان

روى ابن سعد عن محمّد بن لبيد أنّه قال: « سمعت عثمان بن عفّان على المنبر يقول: لا يحلّ لأحدٍ يروي حديثاً لم يُسمع به في عهد أبي بكر ولا في عهد عمر »[١].

كما روي عن السائب بن يزيد قوله: « أرسلني عثمان إلى أبي هريرة، فقال: قل له: يقول لك أمير المؤمنين: ما هذا الحديث عن رسول الله ؟ لقد أكثرت، لتنتهينّ أو لأُلحقنّك بجبال دوس، وائتِ كعباً ـ كعب الأحبار ـ فقل له: يقول لك أمير المؤمنين عثمان: ما هذا الحديث ؟ قد ملأتَ الدنيا حديثاً، لتنتهينّ أو لألحقنّك بجبال القردة »[٢].

وعموماً، فإنّ المعوّل عليه من السنّة في عهد عثمان هو ما كان منها مقبولاً من قِبل الشيخين، ومسموحاً بتداوله في عهديهما، أمّا ما لم يجيزاه، فإنّه ليس من السنّة في شيء.

---

(١) طبقات ابن سعد ٢: ٣٣٦. تاريخ دمشق ٣٩: ١٨٠. كنز العمّال ١٠: ٢٩٥، الحديث ٢٩٤٩٠.

(٢) الحدّ الفاصل، الرامهرمزي: ٥٥٤، الحديث ٧٤٦. السنّة قبل التدوين: ٤٥٩ و ٤٦٠. أضواء على السنّة المحمّديّة: ٥٤.

في عهد معاوية

كان معاوية حريصاً على منع تداول الحديث النبويّ، ويقول علانية ودون مؤاربة: «لا تحدّثوا عن رسول الله...»[(١)].

قال ابن عديّ: «إنّ معاوية نهى أن يُحدّث عن رسول الله بحديث إلّا حديثاً ذُكر على عهد عمر، فأقرّه»[(٢)].

وكان يقول على منبر دمشق: «إيّاكم والحديث عن رسول الله إلّا حديثاً كان في عهد عمر»[(٣)].

وكتب يزيد بن معاوية إلى أبيه: أنّ جبير بن نفير نشر في مصر حديثاً، فقد تركوا القرآن، فبعث معاوية إلى جبير، فجاءه، فقرأ عليه كتاب يزيد، فعرف بعضه وأنكر بعضه، فقال معاوية: لأضربنّك ضرباً أدعك لمن بعدك نكالاً[(٤)].

لقد شهد عهد معاوية تطوّرات كبيرة وخطيرة في مجال المنع والوضع، ممّا استوجب علينا بيانه بشيء من التفصيل، لذلك أحلنا الحديث عنه إلى الفصل الثاني (كيف جرى تدوين السنّة ؟).

---

(١) الفقيه والمتفقّه ١: ٧. تاريخ دمشق ٥٩: ١٦٧.

(٢) الكامل، ابن عدي ١: ١٩. وانظر: مسند أحمد ٤: ٩٩. تذكرة الحفّاظ ١: ٧.

(٣) مسند أحمد ٤: ٩٩. صحيح مسلم ٣: ٩٥. صحيح ابن حبّان ٨: ١٩٤. المعجم الكبير، الطبراني ١٩: ٢٧٠. مسند الشاميّين ٣: ١٢٨. تاريخ دمشق ٣: ١٦٠.

(٤) سير أعلام النبلاء ٤: ٧٧. تاريخ الإسلام ٥: ٣٨٢.

موقف الصحابة من الحديث

بعد هذا النهي المتواصل من قِبل الخلفاء وولاتهم على الأمصار عن رواية أحاديث النبيّ ﷺ ، والرقابة الشديدة التي وضعوها عليها ، أصبح الكثير من الصحابة يعزفون عن روايتها ، رائدهم في ذلك واحد أو أكثر من جملة أسباب ، فهم بين خائف من الرواية لأنّ الخليفة قد منع ، ومنع الخليفة أصبح هو السنّة بعد سنّة النبيّ ﷺ ، وربّما حلّ محلّها .. وبين متأثّم من الوقوع في الخطأ أو السهو فيكون كاذباً على رسول الله ، وامتناعه عن الرواية هو أقصر السبل إلى السلامة والعافية وراحة البال .. وبين ممتنع عنها لأنّ في طمرها وتضييعها استجابة لنوازع وأهواء شخصيّة تعتمل في صدره بدافع الحقد مرّة والحسد اُخرى ..

على كلّ ، فقد روي عن عمرو بن ميمون أنّه قال : « اختلفت إلى عبدالله بن مسعود سنة ، فما سمعته فيها يحدِّث عن رسول الله ، ولا يقول : قال رسول الله ، إلّا أنّه حدّث ذات يوم بحديث فجرى على لسانه : قال رسول الله ، فعلاه الكرب حتّى رأيت العرق ينحدر عن جبينه ، ثمّ قال : إن شاء الله إمّا فوق ذاك أو قريب من ذاك وإمّا دون ذاك »[(١)].

وقال السائب بن يزيد : « صحبت سعد بن أبي وقّاص سنة ، فما سمعته يُحدِّث عن رسول الله ﷺ إلّا حديثاً واحداً » .

وقال الشعبي : « جالست ابن عمر سنة ، فما سمعته يحدِّث عن رسول الله ﷺ » .

وروي عن أبي بردة أنّه قال : «كتبت عن أبي كتباً كثيرة ، فقال : ائتني بكتبك ،

---

(١) الطبقات الكبرى ٣ : ١٥٦.

فأتيته بها ، فغسلها »[١].

هذا بالإضافة إلى كثير من الروايات التي تحدّثت عن امتناع عموم الصحابة عن الرواية عن رسول الله ، وعن ذلك يقول ابن القيّم : « إنّ الصحابة كانوا يهابون الرواية عن رسول الله ويعظّمونها ويقلّلونها ـ خوف الزيادة والنقص ـ ويحدّثون بالشيء الذي سمعوه من النبيّ مراراً ، ولا يصرّحون بالسماع ، ولا يقولون : قال رسول الله »[٢].

ويقول الحافظ ابن حجر : « قال ابن بطّال وغيره : كان كثير من الصحابة لا يحدّثون عن رسول الله خشية المزيد والنقصان »[٣].

وسأل رجل أُبيّ بن كعب ، فقال : يا أبا المنذر ما تقول في كذا وكذا ؟

فقال : يا بنيّ ، أكان الذي سألتني عنه ؟

قال : لا .

فقال : أمّا لا ، فأجّلني حتّى يكون ، فنعالج أنفسنا فنخبرك »[٤].

وهذا يعني أنّ ابن كعب كان متحرّجاً أو متخوّفاً من الإجابة ، فاغتنم فرصة عدم وقوع ما سُئل عنه للتهرّب من الجواب إلى حين وقوعه ، فلعلّ الظروف تكون أفضل فلا يخاف منه .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١ : ٦٥.

(٢) أعلام الموقّعين ، ابن قيّم ٤ : ١٢٨.

(٣) فتح الباري ، ابن حجر العسقلاني ٦ : ٢٨.

(٤) سنن الدارمي ١ : ٥٦.

تبريرات المنع ومناقشتها

لعلّه من الغريب حقّاً تلك الاستجابة الصامتة والسهلة التي أظهرها الصحابة تجاه أوامر منع تداول وتدوين سنن النبيّ ﷺ، ومسارعتهم إلى محو صحفهم وإحراق كتبهم وامتناعهم عن التحديث، ممّا أتاح لعصر الخلافة أن يكون بديلاً لعصر النبوّة، ولسنّة الخلفاء أن تكون المعوّل عليه بدلاً من سنّة رسول الله ﷺ..

وقد كان من نتائج المنع وقوع الاضطراب في حياة المسلمين وتعرّضهم إلى مواقف وجدوا أنفسهم فيها عاجزين عن معرفة القرار الصحيح، حيث «أثبتت الأحداث بعد وفاة النبيّ ﷺ أنّ جيل المهاجرين والأنصار لم يكن يملك أيّة تعليمات محدّدة عن كثير من المشاكل الكبيرة.. حتّى أنّ مساحة هائلة من الأرض التي امتدّ إليها الفتح الإسلاميّ لم يكن لدى الخليفة والوسط الذي يسنده أيّ تصوّر محدّد عن حكمها الشرعيّ وعمّا إذا كانت تقسّم بين المقاتلين، أم تجعل وقفاً على المسلمين عموماً.

فهل يمكننا أن نتصوّر أنّ النبيّ ﷺ يؤكّد للمسلمين أنّهم سوف يفتحون أرض كسرى وقيصر، ويجعل من جيل المهاجرين والأنصار القيّم على الدعوة والمسؤول عن هذا الفتح، ثمّ لا يخبره بالحكم الشرعيّ الذي يجب أن يطبّق على تلك المساحة الهائلة من الدنيا التي سوف يمتدّ إليها الإسلام؟»[(١)].

ما هكذا أراد الله ورسوله، إنّما أرادا أن ينتشر الإسلام في أصقاع الأرض، وأن يكون المسلم عارفاً بدينه، متفقّهاً فيه، واعياً لكلّ تفاصيله، مدركاً لكلّ نواحيه، يعرف الحكم وعلّته، ويحفظ الآية وهو يعرف تفسيرها، فيستطيع مواجهة

---

(١) بحث حول الولاية: ٤٥.

الحياة وجديدها بوعي كامل وإيمان راسخ وثبات على الحقّ ، وإنّ الامتناع عن رواية الحديث ، وحرق السنن ومحوها ، لا يوفّران الحدّ الأدنى المطلوب من المسلم لكي يكون ثابتاً على عقيدته ، عارفاً بأحكامها وشرائعها . .

كما أنّ كتاب الله وحده لا يؤدّي هذا الغرض ، قال تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾(١) .

وقال : ﴿ **وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾(٢) . . وكتاب الله فيه المحكم والمتشابه ، ورسول الله هو المسؤول عن البيان للناس وتفصيل المجمل وتخصيص العامّ ، وتقييد المطلق وتفسير الغامض .

فكيف سيتسنّى ذلك وقد امتنع الصحابة عن الكلام ، ونهى الخلفاء عن الحديث ورواية سنن النبيّ ﷺ ؟!

وماذا سيكون الموقف إزاء أقوال النبيّ ﷺ التي دعت إلى ضرورة التعلّم ونشر العلم ، وجعلت من طلبه تكليفاً مؤكّداً للمسلمين ، والتي منها قوله ﷺ : « **ليبلّغ الشاهد الغائب عسى أن يبلّغ مَن هو اوعى له منه** »(٣) .

وقوله : « **نضّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وبلّغها مَن لم يسمعها ، فربّ حامل فقه إلى مَن هو أفقه منه** »(٤) .

وقوله : « **ألا إنّي أُوتيت القرآن ومثله معه** »(٥) .

---

(١) النحل ١٦ : ٤٤ .

(٢) النحل ١٦ : ٦٤ .

(٣) سنن الدارمي ٢ : ٦٨ . السنن الكبرى ، النسائي ٣ : ٤٣٣ .

(٤) مسند احمد ٤ : ٨٠ . سنن الدارمي ١ : ٧٥ . سنن ابن ماجة ١ : ٨٦ ، الحديث ٢٣٦ .

(٥) مسند أحمد ٤ : ١٣١ . مسند الشاميّين ٢ : ١٣٧ ، الحديث ١٠٦١ . كشف الخفاء ◄

فما مصير هذا المثل الذي أُوتيه النبيّ مع القرآن ؟ وكيف سنحصل عليه إذا سكت الأصحاب الذين سمعوه ؟ ولماذا منعوا عن روايته وهو المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله ؟ ولماذا أحرقوا ما دوّن منه ؟ !

وانطلاقاً من هذه المؤشّرات ، وجد المدافعون عن الخلافة وصحّة مناهجها ، أن لا سبيل لهم إلّا وضع مبرّرات لهؤلاء الخلفاء ، تُظهر ما اقترفوه بحقّ الإسلام والمسلمين بمنعهم سنّة رسول الله من تبوّء مكانها المناسب والضروريّ كمصدر مهمّ من مصادر الحكم والتشريع ، وكأنّ ذلك كان من مقتضيات مصلحة الدين والأُمّة ، وإنّه إجراء كان لا بدّ منه ، وإنّهم لم يكونوا مخطئين في اتّخاذه ، إضافةً إلى محاولة طمس الدوافع الحقيقيّة التي كانت وراء ذلك المنع . .

لقد وضعوا العديد من التبريرات التي يُخرجنا الحديث عنها كلّها عن الحدود التي رسمناها للبحث ، لذلك سنتناول أبرزها وأهمّها ، محاولين مناقشتها والردّ عليها بإيجاز واقتضاب . . فمن تلك التبريرات :

١ ـ إنّ الخليفة الأوّل إنّما منع الرواية ليس بهدف منعها ، وإنّما من أجل التثبّت منها ، والتحرّي عن صحّتها .

٢ ـ إنّ الخليفة الثاني كان متخوّفاً من اختلاط السنّة بالقرآن ، ولذلك بادر إلى المنع .

٣ ـ إنّ هذا الإجراء كان لوقاية المسلمين من الانشغال بالسنّة وترك القرآن .

٤ ـ قلّة الكتّاب وندرة أدوات الكتابة كانتا السبب المباشر في عدم التدوين .

٥ ـ إنّ جيل الصحابة كانوا يكرهون الكتابة ، لكي لا يعتمد العالم على الكتاب ، ويلتجئ إلى الحفظ .

◆ ٢ : ٤٢٣ . أضواء على السنّة المحمّديّة : ٥٢ .

وفي الردّ على هذه التبريرات ، نقول :

ردّ التبرير الأوّل

إذا أردنا اعتماد رأي الخليفة الأوّل بالتعامل مع السنّة ، ونعتبره أصلاً في التشريع ، فإنّنا سنقضي على السنّة النبويّة قضاءاً مبرماً ؛ وذلك لإمكان وقوع ما احتمله ودعاه إلى إحراق ما بين يديه منها في جميع الأخبار المعتمدة عند المسلمين . . . !

وقد كان لدى الخليفة وسائل عديدة للتحقّق من سلامة النصوص المدوّنة لديه أو عدمها قبل اللجوء إلى الحرق لو أراد ، ولكن يبدو أنّ القضيّة غير ذلك تماماً ؛ لذلك ما كان أمامه غير ما فعل . . وذلك أنّ من المزايا المعروفة عنه أنّه كان يعمل بالرأي ويفتي على أساسه ، ممّا أوقعه أحياناً تحت طائلة مخالفة النصوص ، فيبدو أنّه كان بين الأحاديث التي جمعها ما يتعارض مع بعض الإجراءات التي سبق له اتّخاذها ، ممّا سيجعله عرضة للنقد والاعتراض ، ويكون الدليل ضدّه ما كتبه هو بيده ، فكان التخلّص ممّا كتب أمراً لا مندوحة منه . .

وقد ترتّب على ذلك استمرار الخليفة بالتمسّك بعدم جواز التحديث عن رسول الله بأيّة كيفيّة « لأنّ التحديث سيتعارض مع اجتهاده »[١] ، فأحرق ما أحرق ، وصاح في الناس : « لا تحدّثوا عن رسول الله شيئاً » ، و : « رسم منهجاً يسير عليه الخلفاء وقسم من الصحابة من بعده .

قال الزهريّ : كنّا نكره التدوين حتّى أكرهنا السلطان على ذلك[٢] ، أي أنّ منع

---

(١) منع تدوين الحديث ، السيّد علي الشهرستاني : ١٢.

(٢) الطبقات الكبرى ، ابن سعد ٢ : ٣٨٩. سنن الدارمي ١ : ١١٠. البداية والنهاية ، ابن كثير ٩ : ٣٤١.

التحديث والتدوين كلاهما كان بيد السلطان، فالشيخان نهيا عنه فصار مكروهاً، والخليفة عمر بن عبدالعزيز أمر به فصار محبّذاً[١]..

ولا ينفع هذا ما ادّعاه الذهبي وغيره من «أنّ مراد الصدّيق التثبّت في الأخبار والتحرّي، لا سدّ باب الرواية»[٢]؛ لأنّ الإحراق ليس من أوجه التثبّت والتحرّي، بل هو من فصيلة الإبادة والإفناء.. ولو كان الخليفة ميّالاً إلى التثبّت، لوضع ضوابط ومعايير علميّة يجري من خلالها محاكمة وفحص وإقرار النصوص..

إنّ الخليفة نفسه لم يكن يرى أنّه فعل شيئاً يعتذر عنه، حتّى يقوم الذهبي وغيره بهذه المهمّة نيابة عنه، فما صرّح به الخليفة لا يحتمل مناورة أو تأويلاً بقدر ما يؤكّد الوعي التامّ والإرادة الصارمة في اتّخاذ مثل هذا القرار، وذلك واضح من سياق الكلام حين قال: «فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلّوا حلاله، وحرّموا حرامه» وليس بعد ذلك من نيّة أوضح في عدم إعطاء السنّة النبويّة أيّة فرصة أو دور..

ردّ التبرير الثاني

وهو ما ادّعوه من الخوف من اختلاط السنّة بالقرآن، وفي الردّ على ذلك نقول: إنّ القرآن هو معجزة الإسلام الخالدة على مرّ العصور، وقد تحدّى سبحانه وتعالى الناس أن يأتوا بمثله، وحكم مسبقاً أنّهم لن يستطيعوا ذلك ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**﴾[٣].

---

(١) منع تدوين الحديث: ١٤.

(٢) تذكرة الحفّاظ ١: ٣٢.

(٣) الإسراء ١٧: ٨٨.

ثمّ نزل لهم بالتحدّي إلى مطالبتهم بالإتيان بعشر سور مفتريات: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[١].

ثمّ وصل إلى قمّة التحدّي عندما طالبهم بتقديم سورة واحدة إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[٢]...

«وكان الجدير بالعرب ـ وفيهم الفصحاء النابغون في الفصاحة ـ أن يجيبوه إلى ما يريد، ويُسقطوا حجّته بالمعارضة لو كان ذلك ممكناً غير مستحيل.. فيُسقطوا حجّة هذا المدّعي الذي تحدّاهم في أبرع كمالاتهم وأظهر ميّزاتهم.. ولكنّ العرب فكّرت في بلاغة القرآن فأذعنت لإعجازه، وعلمت أنّها مهزومة إذا أرادت المعارضة»[٣].

ويكرّر القرآن التحدّي بالاستدلال بناحية أُخرى من نواحي الإعجاز، إذ يقول: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً** ﴾[٤]..

وهذه الآية تدلّ الناس على أمر يحسّونه بفطرتهم، ويدركونه بغريزتهم، وهو أنّ أيّ كلام غير كلام الله لا بدّ له من التهافت في القول والتناقض في البيان، وهذا شيء لم يقع في الكتاب العزيز..

وخلاصة الردّ: إنّ هذا التحدّي الإلهيّ لا يمكن أن يكون منطقيّاً إلّا إذا كان التحدّي قاصداً أُناساً يميّزون بين كلام الخالق وكلام المخلوق، واستخدامه

---

(١) هود ١١: ١٣.

(٢) البقرة ٢: ٢٣.

(٣) البيان في تفسير القرآن، السيّد الخوئي: ٤٩.

(٤) النساء ٤: ٨٢.

سبحانه وتعالى لهذا النوع من التحدّي مع هؤلاء الناس دليل على معرفته بمقدرتهم على هذا التمييز.

فكيف إذن يتصوّر امرؤ إمكانيّة اختلاط السنّة بالقرآن، أو يمنع السنّة خوفاً من اختلاطها بالقرآن؟ مع وجود هذا التحدّي وما يرمز إليه، وعليه فقد سقط التبرير الثاني..

ردّ التبرير الثالث

وهو أنّهم منعوا الرواية أو تداول السنّة حتّى لا ينشغل المسلمون بها ويتركون كتاب الله، ونقول في ردّ ذلك:

إنّ كتاب الله أمر، وسنّة نبيّه أمرٌ آخر، فلا نستطيع أن نفهم كيف سينشغل المسلمون بالسنّة عن القرآن، أو بالقرآن عن السنّة، أو كيف سيفهم المسلمون القرآن بعيداً عن السنّة التي تفسّره وتفصّل مجمله، وتخصّص العامّ، وتعمّم الخاصّ، وتبيّن المحكم والمتشابه، إلى غير ذلك ممّا اتّفق علماء المسلمين على وجوده في كتاب الله..

ولو كان هذا الادّعاء صحيحاً لبقيت ضرورة حجب السنّة قائمة إلى يومنا هذا، وحيث نجد بين أيدينا اليوم كلّ هذه الكتب المتعلّقة بالحديث والسنن، ولم ينشغل بها المسلمون عن القرآن، فسنعلم أنّ هذا التبرير ساقط هو أيضاً، ولا محلّ له في الصواب..

ردّ التبرير الرابع

وهو ما ذهب إليه ابن قتيبة الدينوري وابن حجر العسقلاني وآخرون، حين برّروا عدم تدوين السنّة بقلّة الكتّاب وندرة أدوات الكتابة عند العرب آنذاك..

وأوّل ما يرد عليهم، ما ادّعوه هم أنفسهم من أنّ النبيّ ﷺ قال: « لا تكتبوا عنّي

شيئاً سوى القرآن »[١]، وهذا قول دالّ لوحده على وجود كتّاب وأشخاص مؤهّلين للكتابة يومذاك، حيث لا يعقل أن يخاطب النبيّ جمعاً ليس لهم القدرة على الكتابة بقوله: « لا تكتبوا عنّي... »!! هذا **أوّلاً**.

وأمّا ثانياً: فإنّنا نعرف عدداً مناسباً من الصحابة كانوا يحسنون الكتابة، منهم عليّ عليه السلام وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وأبو بكر بن عمرو بن حزم، وغيرهم، وقد عدّ منهم بعض المحقّقين أربعاً وخمسين كاتباً، سوى نيّفٍ وثلاثين كان النبيّ يستخدم بعضهم في كتابة الوحي، وبعضهم في كتابة رسائله إلى الملوك والرؤساء..

وفيما يخصّ أدوات الكتابة نقول: إنّ كتابة الحديث لم تكن تتطلّب أدوات أكثر من تلك التي كانوا يستخدمونها في كتابة القرآن الكريم حتّى يتذرّعون بندرتها!!

ردّ التبرير الخامس

قال السمعانيّ: «كانوا يكرهون الكتابة.. لكي لا يعتمد العالم على الكتاب، بل يحفظه، فلمّا طالت الأسانيد وقصرت الهمم، رُخّصت الكتابة.

وقال القاضي عيّاض مثل ذلك، وقال غيرهم: إنّ رسول الله ـ وحفاظاً على ملكة الحفظ عند العرب ـ نهاهم عن الكتابة لأنّهم لو كتبوا لاتّكلوا على المكتوب وأهملوا الحفظ، فتضيع ملكاتهم بمرور الزمن »[٢].

إنّ هذا الكلام باطل من ثلاثة وجوه:

الأوّل: إنّ الصحابة وجميع البشر لا يمتلكون نفس المقدرة على الحفظ،

---

(١) مسند أحمد ٣: ١٢. جامع بيان العلم ١: ٦٣. المستدرك على الصحيحين ١: ١٢٧. تقييد العلم: ٢٩. تأويل مختلف الحديث: ٢٦٦. الكامل، ابن عدي ٣: ٥٧.

(٢) أدب الإملاء والاستملاء، السمعاني: ١٦٥ و ١٦٦. منع تدوين الحديث: ٣٠.

وأكثرهم لا يتمتّعون بها، وهؤلاء سعد بن أبي وقّاص وعبدالله بن مسعود وغيرهما، يتخوّفون ويتشدّدون ويمتنعون عن التحديث لأنهم لا يعتمدون، بل لا يثقون بسلامة قدرتهم على الحفظ، وهم يخشون إذا ما تحدّثوا، قد يزيدون أو ينقصون في كلام رسول الله.. وهذا زيد يقول: كبرنا ونسينا، والحديث عن رسول الله شديد[١].. وذلك عمر بن الخطّاب يحفظ سورة البقرة في إثني عشر عاماً، ولمّا حفظها نحر جزوراً لوجه الله[٢].

و**الثاني**: إنّ الأمر لا يتعلّق بالعرب وحدهم حتّى يخاف النبيّ أن تضيع ملكاتهم على الحفظ بمرور الزمن، فكيف سيكون الأمر مع الأمم الأُخرى التي دخلت الإسلام وهي لا تعرف من العربيّة شيئاً؟

وأمّا **الثالث**: فهو أنّ الله سبحانه وتعالى قد كلّف الملائكة أيضاً بالكتابة من خلال الإشارة القرآنيّة ﴿**كِرَاماً كَاتِبِينَ**﴾[٣]، ومعلوم أنّ الملائكة أكمل من البشر وأقدر منهم على كثير من المهمّات، منها الحفظ، ولو كان الأمر أمر مفاضلة بين الحفظ والكتابة لكان الأوْلى أن لا يكلّف الملائكة بالكتابة وهم القادرون على الحفظ.. على أنّ ذلك كلّه من سقط القول؛ لأنّ قضايا الدين والعبادة لا اعتبار فيها للشكليّات من كتابة أو حفظ، وإنّما الاعتبار كلّه للعمل وللتقيّد بمضامين ما يكتبه المسلمون أو ما يحفظوه..

الخلاصة

ممّا تقدّم توصّلنا إلى مجموعة من الحقائق، هي:

١ ـ إنّ النبيّ ﷺ كان يتحدّث مع المسلمين بقصد تربيتهم وتعليمهم أُصول

---

(١) مسند أحمد ٤: ٣٧٠. سنن ابن ماجة ١: ١١، الحديث ٢٥.

(٢) الدرّ المنثور ١: ٢١. سيرة عمر: ١٦٥.

(٣) الانفطار ٨٢: ١١.

وفروع ومفردات الدين الجديد، مفسّراً الآيات، موضّحاً الأحكام، مبيّناً الشرائع والسنن، وكلّ ما يتعلّق بالدين وبحياة الناس، وكان ينتظر منهم التمسّك بما يقول، والعمل بما يسنّ ويشرّع، تاركاً لهم ولقدراتهم تحديد الكيفيّة التي يتعاملون بها مع ما يسمعونه منه، فمنهم الأُمّي الجاهل الذي لا يكتب ولا يحفظ، ومنهم الأُمّي الذي يحفظ، ومنهم الكاتب الحافظ، ومنهم الكاتب فقط..

إنّه ﷺ يريد منهم التقيّد بأقواله، وتنفيذ أوامره وتوجيهاته، وفهم كلّ صغيرة وكبيرة في هذا الدين، وهو ﷺ يعرف إمكانيّاتهم وطاقاتهم، فلا يكلّفهم بأكثر ممّا يستطيعون، ولكنّه مارس معهم جميع الأساليب العلميّة في التربية والتوجيه والتعليم، فهو إذ يشجّعهم على الحفظ، يطلب منهم تعلّم القراءة والكتابة، ويحبّذ لهم رواية حديثه وتناقله وتدارسه بينهم، فـ« **ربّ ناقل علم إلى مَن هو أفقه منه، أو أوعى منه** ».

ويشير عليهم بكتابة ما يقول ويطمئنهم أنّه لا يصدر عنه إلّا الصواب، وهو في جميع حالاته لا ينطق إلّا حقّاً ولا يتفوّه إلّا صدقاً..

هكذا هي سياقات الحياة، وعلى هذا دلّت سيرته ﷺ وهو قائد الأُمّة والمجتمع الجديد، والمبعوث الخاتم بالدين الخاتم، حيث لا نبيّ بعده، ولا دين بعد دينه إلى يوم القيامة، ومهمّته أبعد من زمانه بكثير، ومساحتها أكبر من موطنه بكثير، وهو يعلم أنّ هذا الدين لن ينتقل عن طريق الحفظ والمشافهة، مثلما ينتقل عن طريق التدوين والتوثيق، لذلك بذل كلّ ما في وسعه لكي يعلّم المسلمين القراءة والكتابة مبتدئاً مشروعه بإطلاق سراح أسراه في بدر مقابل تعليم كلّ منهم لعشرة من المسلمين القراءة والكتابة، وما غايته إلّا ليكتب أصحابه ما تقرأه الأجيال اللاحقة من أُمور هذا الدين، فكان عليّ يكتب، وعبدالله بن مسعود يكتب، وغيرهم يكتبون والنبيّ يرى فلا ينهى ولا يعترض.

ولكن لمّا أحرق أبو بكر وعمر ما كتبه الأصحاب، أصبح الحرق هو الصواب

وتراكض القوم وتنادبوا لتبرير ما فعلاه، ممّا جلب الويل والثبور على هذه الأُمّة المنكوبة إلى اليوم..

لقد ابتدأ رسول الله حياته النبويّة وهو يستمع إلى كلام ربّه: ﴿ **اقْرَأْ**... ﴾[(١)]، وتوسّطها وهو يقول لأحد أصحابه: «**استعن على حفظك بيمينك**»، أي اكتب كي تحفظ[(٢)]، وختمها وهو يطالب: «**ائتوني بكتف ودواة أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعدي أبداً**»[(٣)].. وعندما تركوه، ولم يستجيبوا لطلبه، ولم يأتمروا بأمره، ولم يحقّقوا اُمنيته.. راحوا يدّعون أنّه هو الذي نهاهم عن الكتابة.. فإنّا لله وإنّا إليه راجعون..

٢ ـ بعد وفاة النبيّ ﷺ ساهمت عوامل عدّة، سيّاسيّة واجتماعيّة وشخصيّة، في صياغة منهج التعامل مع سنّة الرسول وأحاديثه، والذي كانت خلاصته العمل ما أمكن على حجب تلك الأحاديث، أو على الأقلّ الذي يضرّهم منها، وقد اتّضحت ملامح ذلك المنهج من خلال:

■ منع تداول أحاديث النبيّ ﷺ رسمياً، والطلب من المسلمين الاكتفاء بكتاب الله؛ لأنّ القبول بتداول تلك الأحاديث يعني تداول كمّ كبير منها غير مرغوب فيه لتناوله أمرين خطيرين:

أوّلهما: يعمّق مكانة وأهمّيّة دور آل البيت، ويعزّز فاعليّتهم في المجتمع الإسلاميّ، وخصوصاً عليّ عليه السلام.

وثانيهما: يؤدّي إلى التصادم مع العديد من الإجراءات والقرارات التي مورست وصدرت بعد وفاة النبيّ ﷺ.

---

(١) العلق ٩٦: ١.

(٢) تقدّم آنفاً.

(٣) المعجم الكبير، الطبراني ١١: ٣٠. اُسد الغابة ٣: ٣٠٥.

■ منع الصحابة من التحديث عن الرسول وتدوين سنّته، وتمثّل ذلك بحرق أبي بكر لما بين يديه من الأحاديث، ودعوة عمر الناس لجلب ما كتبوه منها للنظر فيه، ولكنّهم فوجئوا بإحراق ما جلبوه، وحجر عمر على كبار الصحابة، ووضعهم تحت الإقامة الجبريّة في المدينة منعاً لهم من التجوّل في البلدان، ونشر الأحاديث والسنن، ومتابعته لبعضهم إلى حدّ ضربهم بدرّته، أو تهديدهم بها..

■ صدور الأمر إلى الولاة في الأمصار الإسلاميّة بجمع ما في بلادهم من أحاديث وسنن، وإحراقها ومنع الناس من التحديث بها، وبذلك تمّ ضمان التخلّص من الأحاديث التي انتقلت إلى الأمصار المختلفة من خلال التجّار والوفود والحجّاج وغيرهم..

٣ ـ اطّلعنا على التبريرات التي اعتمدوها في منعهم لرواية أحاديث النبيّ ﷺ، وعرفنا من خلال المناقشة كم هي واهنة وضعيفة، ولكنّ المهمّ أن نعرف الآن أنّه مهما كانت نيّتهم وهدفهم من المنع، فإنّهم قد تسبّبوا بعواقب وخيمة طالت الإسلام والمسلمين، من يومهم إلى يومنا هذا..

وقد أصبح المجال واسعاً أمام الكذّابين والمنحرفين عن الإسلام، والمرتزقة ووعّاظ السلاطين، وفقهاء القصور، وقضاة الغلمان، والطامعين بالمناصب، لكي يضعوا من الأحاديث ما شاء لهم الهوى والسلطان، ولكي يؤسّسوا بين المسلمين فتنة لا زال أوارها يستعر ما دام على وجه الأرض أبناء بررة لهؤلاء الأفّاكين الوضّاعين على أنّ الذين يحاولون في الأمس واليوم إيجاد الأعذار والمبرّرات للخلفاء على فعلتهم هذه، تارة بالخوف من الخطأ والنسيان، وأُخرى بحماية القرآن من الاختلاط بالسنّة، إلى غير ذلك من المبرّرات الباردة العقيمة، لم يفعلوا شيئاً غير الإساءة إلى هؤلاء الخلفاء، وإظهارهم بمظهر المسلم الساذج قصير النظر، الذي لا يرى أبعد من أنفه.. إلّا اللّهمّ إذا اعتبرناهم جاهلين بأساليب البيان وبلاغة القول، لأنّهم لا بدّ أن يكونوا قد عرفوا أنّ القرآن كان قد استولى على نفوس

المسلمين وهيمن على مشاعرهم وخلب ألبابهم، فكان له الأثر البالغ في سير الدعوة إلى الإسلام وانتشارها في الآفاق، ممّا جعل الظنّ بإمكان اختلاطه بالسنّة، غاية في الوهم والابتعاد عن روح القرآن..

ولو تغاضينا عن جميع ذلك، فقد كان بالإمكان ـ لو كانت النوايا طيّبة ـ التفرّغ إلى جمع الحديث وتدوينه بعد تدوين القرآن الكريم، والتثبّت من إحصائه في مجموعة واحدة، عن طريق لجنة مختارة من المعروفين بالأمانة والوثاقة والمعرفة، ولو كانوا قد فعلوا ذلك، لقطعوا الطريق على كلّ أفّاك أثيم، وعلى المرتزقة الذين شوّهوا معالم السنّة، وطمسوا أضواءها، وألصقوا بها من الموضوعات التي جرّت على المسلمين أسوأ أنواع البلاء، وفرّقتهم كلّاً في سبيل..

ولو كانوا قد فعلوا ذلك لكان حالنا غير حال، ولوصل إلينا من أحاديث النبيّ ﷺ وسننه ما يجعلنا اُمّة من أكثر الأمم رقيّاً وحضارةً، وعلماً وتقدّماً.. ولكن هكذا شاءت لنا الأقدار..

الفصل الثاني

كيف جرى تدوين السنّة ؟

خرجنا فيما سبق بنتائج ، أهمّها تعرّض السنّة النبويّة إلى محاولات متكرّرة للاغتيال ، ولمّا كان هذا الاغتيال شبه مستحيل لوجود خطوط أُخرى كانت ترعى السنّة وتحتضنها وتغذّيها بعناصر الصمود والبقاء ، فقد تعرّضت إلى الاعتقال ، وكان هذا ممكناً بالقدر الذي يكفي للتطفّل عليها بمحو بعضها أو بإضافة بعضٍ آخر إليها . .

لم يكن من مخطّطنا لغاية هذه اللحظة ، مناقشة الدوافع الحقيقيّة التي كانت تختفي خلف الستار ، فهذا أمر لا نقصده ولا نرغب في إثارته ، فالذي يهمّنا أوّلاً وآخراً التوصّل إلى بعض الملامح التي تساعدنا على تلمّس السبل التي تحكّمت بعمليّة تدوين السنّة ، أو حتّى تدوين التاريخ الإسلامي برمّته . .

فقد انتقلت السنّة وانتقلت حوادث التاريخ طيلة أكثر من مائة عام عبر الرواة ، الرواة وحدهم يقصّون على الناس ما سمعوه ، ويحدّثونهم بما حفظوه ، وهؤلاء الرواة كانوا على مرّ العصور أبناء بررة لعصورهم وأزمنتهم ، تأثّروا بسياساتها ، وانقادوا لزعاماتها ، وخدموا قضيّتها من خلال توجيه الرواية لتكون موافقة لطبيعتها ، مبرّرة لنهجها وسلوكها .

« إنّ الراوي لم يكن ـ وهو يروي حادثة ما ـ يستقلّ بساطاً سحريّاً يقلّه فوق آفاق زمانه ومكانه . . إنّه يكتب من على الأرض ، وفي زمان ما ، ومكان ما . . وإنّه يكتب ما يسمع ، لا ما يرى . . وإنّما يحدّثه رجال لهم حيال الأحداث مواقف وميول ،

فهو لم يسمع حدثاً مجرّداً ، وإنّما سمع الحدث ممزوجاً به ، أو مضافاً إليه انفعالات الناقلين »[١].

وبذلك ابتعدت الرواية شيئاً فشيئاً عن الواقعة التي تدّعي أنّها ترويها ، فوصلت إلينا في النتيجة ممسوخة مشوّهة لا تمثّل الحقيقة ولو بأدنى صورة..

إنّ من أهمّ الأخطار التي تهدّد الحقيقة التاريخيّة وتقف حائلاً أمام نقلها بصدق للأجيال اللاحقة هي :

١ ـ إنّ الراوي بشر ، ويعيش في عصر معيّن ، وللبشر ميول ، ولكلّ عصر نغمة ولون تميّزانه عن بقيّة العصور ، وتنفّرانه من كلّ نغمة ولون لا تنسجم معهما ، وبذلك سيكون الراوي مسوقاً من حيث يدري أو لا يدري ، ومن حيث يريد أو لا يريد لمجاراة تلك النغمة أو مدارتها ، وعندئذٍ فإنّه سوف يقتطع من الحقيقة التاريخيّة أجزاء مساوية لمقدار ذلك الانسياق..

٢ ـ الانسياق التامّ وراء نغمات العصر وأهواء أهله ، والسير مع تيّاره الجارف الذي سيجرف معه أهمّ الحقائق التاريخيّة التي تعاكس اتّجاه سيره..

٣ ـ أن يكون الراوي نفسه من أصحاب الأهواء الذين لا يقبلون إلّا ما وافق أهواءهم ولا ينظرون إلى الأحداث والحقائق إلّا بمنظار الهوى[٢].

إنّ هذه الأخطار الثلاثة ستتظافر وتشترك في تأليف كتاب من كتب التاريخ أو الحديث ، وسيصبح هذا الكتاب مصدراً لثقافة الأجيال اللاحقة ، تستقي منه رؤيتها التي ستساهم في صياغة عقائدها ، وتوجيه أفكارها ، وشحن أذهانها برؤى مغايرة تماماً للحقيقة التاريخيّة..

ومن هنا تتسرّب العقائد الدخيلة إلى الأذهان ، فيعتقد الناس بأشياء ومفاهيم

---

(١) و (٢) حوار في العمق من أجل التقريب الحقيقي لصائب عبدالحميد : ٩٠.

ليست من الإسلام ومفاهيمه الحقّة ، وهم يظنّون أنّه الحقّ الذي لا مراء فيه ، ولا تشوبه شائبة لكثرة ما يرونه من تسطير المؤرّخين له ، وربّما دفاعهم عنه ، وسوف لا يكون العوامّ وحدهم ضحيّة هذه الخطيئة ، بل العلماء أيضاً سيقعون في ذلك حين يقصرون علومهم على هذا النوع من المصادر ، وحين يكونون هم أيضاً منفعلين بتلك المؤثّرات التي ذكرناها أو ببعضها [١].

وإذا ما أردنا تقصّي الأمثلة على ما أوردناه ، فإنّنا سنجد في طيّات التاريخ الإسلامي الكثير من المشاهد التي تدعم وجهة النظر هذه . وسنقف بلا عناء على صور وأحداث تجعلنا وجهاً لوجه أمام الحقائق التي لعبت دورها في تدوين التاريخ وتدوين السنن ، ولنأخذ المشاهد التالية دليلاً على ما قلناه :

١ - قال **الزبير بن بكّار**[٢]: « قدِم سليمان بن عبدالملك إلى مكّة حاجّاً سنة **٨٢**هـ ، فأمر أبان بن عثمان أن يكتب له سير النبيّ ﷺ ومغازيه .

فقال له أبان : هي عندي قد أخذتها مصحّحة ممّن أثق به .

فأمر سليمان عشرة من الكتّاب بنسخها ، فكتبوها في رقّ ، فلمّا صارت إليه نظر فإذا فيها ذكر الأنصار في العقبتين وفي بدر[٣].

فقال : ما كنت أرى لهؤلاء القوم هذا الفضل ، فإمّا أن يكون أهل بيتي غمصوا عليهم ، وإمّا أن يكونوا ليس هكذا !

فقال أبان : أيّها الأمير ، لا يمنعنا ما صنعوا بالشهيد المظلوم (يعني أباه الخليفة عثمان) من خذلانه أن نقول بالحقّ ، هم على ما وصفنا لك في كتابنا هذا .

---

(١) حوار في العمق من أجل التقريب الحقيقي لصائب عبدالحميد : ٩٠.

(٢) انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢: ٣١١.

(٣) يعني بيعة العقبة الأُولى والثانية ، حيث كان الأنصار يبايعون رسول الله ﷺ على الإسلام والنصرة.

فقال سليمان: وما حاجتي إلى أن أنسخ ذاك حتّى أذكره لأمير المؤمنين لعلّه يخالفه.

ثمّ أمر بالكتاب فخُرّق، ورجع فأخبر أباه عبدالملك بن مروان بذلك الكتاب.

فقال عبدالملك: وما حاجتك أن تقدم بكتاب ليس لنا فيه فضل، تُعرِّف أهل الشام أُموراً لا نريد أن يعرفوها؟

قال سليمان: فلذلك أمرتُ بتخريق ما نسخته»(١).

ومن هذه الواقعة نستخلص الملاحظات التالية:

■ بتخريق الكتاب جرى إعدام كتاب يحوي تاريخ حقبة مهمّة من حقب التاريخ الإسلاميّ.

■ وضوح الخطوط العريضة للمنهج الثقافي الذي حدّده الخليفة عبدالملك بن مروان لإخضاع الرعيّة له.

■ اختفاء أهمّ مناقب الأنصار، وخصوصاً في الوقائع المهمّة والحاسمة في تاريخ الإسلام: بيعتي العقبة الأُولى والثانية، ومعركة بدر.

■ إنّ هذه المناقب كانت غائبة عن شريحة كبيرة من المسلمين، وحتّى عن سليمان بن عبدالملك الذي سيصبح قريباً خليفة لهم.

لقد حصل كلّ هذا وما زال القرن الأوّل من عمر الإسلام لم ينقض بعد، فماذا سيحصل بعد انقضاء قرون، وبعد أن تنشب الزعامات السياسيّة أظفارها في كلّ كلمة وسطر من كلمات وسطور التاريخ؟

وإذا أردنا أن نعرف أسباب هذا الموقف الأمويّ من الأنصار، الذي دفع الأمويّين إلى غمص حقّهم والعمل على إخفاء مناقبهم، سنجد أنّ جنايتهم ـ وهم أنصار

---

(١) الموفقيّات: ٣٣٢، الحديث ١٨٤.

رسول الله ودين الله ـ هي أنّهم لم يكونوا فيما بعد أنصاراً لبني أُميّة ، وهذه وحدها كانت حجّة كافية في غلق أبواب الجدال فيهم وتخريق الكتاب .

ولعلّه ضروريّاً ـ ونحن نطّلع على هذا المشهد ـ أن نسأل : ماذا سيحصل لو أنّ سليمان بن عبدالملك قد وقف في صحف أبان تلك على مناقب ومواقف تتعلّق بعليّ بن أبي طالب أو ببني هاشم عموماً ؟ ؟

ألم يكن سيعترض عليها وينكرها أشدّ من إنكاره لمواقف الأنصار ؟

إنّ هذه الواقعة لتنطق بصوت مخنوق بأنّ تلك الصحف التي حفظت من حقّ الأنصار ما أثار انتباه الأمير ودهشته ، واستنكار الخليفة من بعده ، لم تكن تحفظ شيئاً من حقّ عليّ وبني هاشم الذين هم لبني أُميّة خصوم العقيدة والتاريخ . .

٢ ـ قال **المدائني** : « أخبرني ابن شهاب بن عبدالله ، قال : قال لي خالد القسري[١] : اكتب لي السيرة .

فقلت : إنّه يمرّ بي الشيء من سير عليّ بن أبي طالب ، فأذكره ؟

قال : لا ، إلّا أن تراه في قعر الجحيم »[٢] .

إنّ هذا القول الصريح برهان واضح على ما ادّعيناه قبل قليل من تحكّم السياسة أو الميول الشخصيّة في عمليّة التدوين بحيث تجعلها خاضعة لأهدافها ونزعاتها وتسخّرها لخدمة أغراضها ومخطّطاتها . .

٣ ـ قال **معمّر** : « كان عند الزهريّ حديثان عن عروة ، عن عائشة في عليّ عليه السلام ، فسألته عنهما يوماً ، فقال : ما تصنع بهما وبحديثهما ؟ الله أعلم بهما ، إنّي لأتّهمهما

---

(١) **خالد القسري الدمشقي** : والي مكّة للوليد بن عبدالملك ، ثمّ لسليمان بن عبدالملك ، ووالي العراق لهشام بن عبدالملك ، انظر سير أعلام النبلاء ٥ : ٤٢٥ ، الرقم ١٩١ .

(٢) الأغاني ٢٢ : ٢١ ، أخبار خالد بن عبدالله القسري .

في بني هاشم»[١]، مع العلم أنّ الزهريّ هذا كان منحرفاً عن عليّ ميّالاً إلى بني أُميّة، وقريباً جدّاً منهم.

٤ ـ قال **معمّر**: «سألت الزهريّ عن كاتب الكتاب يوم الحديبيّة، فضحك وقال: هو عليّ بن أبي طالب، ولو سألت هؤلاء ـ يعني بني أُميّة ـ لقالوا: عثمان»[٢].

وهذا يعني بوضوح أنّ الأمر لم يكن مقتصراً على كتمان مواقف عليّ وسيره، بل تجاوز ذلك إلى سلبها منه وإضافتها إلى غيره..

٥ ـ كان **الزهريّ** يوماً عند الخليفة الوليد بن عبدالملك، والخليفة يقرأ: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ** ـ إلى قوله تعالى: ـ **وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[٣]، فالتفت الوليد إلى الزهريّ وقال: ﴿ **تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ** ﴾ عليّ؟

قال الزهريّ: لا، لكنّه عبدالله بن أُبيّ[٤].

وتكرّرت هذه الحادثة نفسها مع هشام بن عبدالملك، إذ دخل عليه سليمان بن يسّار، فقال له هشام: ﴿ **وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ** ﴾ مَن هو؟

قال: ابن أُبيّ.

قال هشام: كذبت، إنّه عليّ..

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٦٤.

(٢) المصنّف، عبدالرزّاق الصنعاني ٥: ٣٤٣، الحديث ٩٧٢٢. فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل ٢: ٥٩١، الحديث ١٠٠٢.

(٣) النور ٢٤: ١١.

(٤) تفسير القرآن، الصنعاني ٣: ٥١. تاريخ المدينة، ابن شبة ١: ٣٣٧. المعجم الكبير، الطبراني ٢٣: ٩٧. مناقب عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام، ابن مردويه: ٧٩، الحديث ٦٢. تفسير القرطبي ١٢: ١٩٨. سير أعلام النبلاء ٢: ١٦٠. تاريخ الإسلام ٢: ٢٧٨. فتح الباري ٧: ٣٣٦. الدرّ المنثور ٥: ٣٢.

قال ابن يسّار: أمير المؤمنين أعلم بما يقول.

فدخل الزهريّ، فأعاد عليه هشام السؤال، فقال: هو ابن أُبيّ.

فزجره هشام ليقول هو عليّ، أو ينسلّ من الجواب انسلال ابن يسّار، لكنّ الزهريّ لم يرضخ ورفض أن يكذب لهشام[(١)].

لقد رأينا الزهريّ أميناً في نقل الوقائع الثلاثة التي ذكرناها، فهل استطاع أن يستمرّ على هذا النهج الأمين؟ أم اقتادته الظروف اللاحقة إلى انتهاج سبل أُخرى مغايرة؟

والجواب: هو إنّه لم يستطع الاستمرار على نهجه الأمين، فقد غيّرته الأيّام، وتفاعل مع المستجدّات، ولا نعلم هل كانت الرشوة سبباً في تغيّره، أم هو الإرهاب وضرورات السياسة؟!

فمن تتبّع رواية الزهريّ للسير والمغازي يجد أنّه على امتداد سيرة النبيّ ﷺ ومغازيه، ليس لعليّ بن أبي طالب ذكر، إلّا حين لا ينطوي ذكره على فضيلة تميّزه عن غيره[(٢)].. وحين سُئل عن فضيلة لعليّ، أنكرها!

ففي ذكر أوّل مَن أسلم، نقل عبدالرزّاق، ما نقله معمّر عن غير الزهريّ: «أنّ أوّل من أسلم هو عليّ بن أبي طالب».

أمّا الزهريّ فقد قال: «ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة»[(٣)]. في حين

---

(١) تاريخ دمشق ٥٥: ٣٧١. سير أعلام النبلاء ٥: ٣٣٩. تاريخ الإسلام ٨: ٢٤٦. الوافي بالوفيات ٥: ١٨. فتح الباري ٧: ٣٣٧. الدرّ المنثور ٥: ٣٣.

(٢) رواية الزهري لمغازي الرسول ﷺ جمعها عبدالرزّاق الصنعاني في المصنّف ـ كتاب المغازي ٥: ٣١٣ ـ ٣٣٩.

(٣) أجمعت المصادر على أنّ أوّل مَن أسلم هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام، انظر: المصنّف، عبدالرزّاق ١١: ٢٢٧. السيرة النبويّة، ابن هشام ١: ١٦١. مسند ابن الجعد: ٨٧. الطبقات الكبرى، ابن سعد ٣: ٢١. المصنّف، ابن أبي شيبة ٧: ٥٠٢ و ٨: ٤٤٩. مسند أحمد ◄

لا يكاد يعرف هذا عن أحد غير الزهريّ[1]، ثمّ يواصل الزهريّ ذكر مَن أسلم ولم يذكر إسلام عليّ، ولا أيّ واحد من بني هاشم، ولا تجد عليّاً في سيرته إلّا رجلاً غريباً ليس له في الإسلام خبر ولا أثر، لا في العهد المكّي، ولا في الهجرة، ولا في المؤاخاة، ولا في بدرٍ، ولا في أُحد، ولا في الخندق، ولا في خيبر، ولا في فتح مكّة، ولا في حنين، ولا في تبوك، ولا في غير ذلك.. ولعلّنا لا نستغرب هذا الموقف من ابن شهاب الزهريّ إذا ما عدنا إلى قوله هو نفسه حين ذكر أنّ خالد القسريّ حينما أمره بكتابة السيرة طلب منه ألّا يذكر عليّاً إلّا إذا رآه في قعر الجحيم، وحيث أنّه لم يجده هناك فقد أهمل ذكره ولم يورد له ذكراً في مغازيه!!

٦ ـ **سيرة ابن هشام** (المتوفّى سنة ٢١٣هـ):

قال ابن هشام في مقدّمته وهو يشير إلى ما حذفه من سيرة ابن إسحاق: «تركت ذكرها للاختصار»، ثمّ بيّن أنّ من تلك الأشياء التي قام بحذفها:

- أشياء بعضها يشنّع الحديث به!!
- وبعضٌ يسوء بعض الناس ذكره!!

٤: ٣٦٨. الأوائل، ابن أبي عاصم: ٣٥. الآحاد والمثاني ١: ١٤٨ و ١٤٩، ١٥١ و ١٥٢. السنن الكبرى، النسائي ٥: ٤٣، ١٠٥ و ١٠٦. خصائص أمير المؤمنين عليه السلام، النسائي: ٤٤. المعجم الكبير، الطبراني ١١: ٢١، ٢٢١. كتاب الأوائل، الطبراني: ٧٨. المستدرك على الصحيحين ٣: ١٣٦، ٤٦٥، ٥٠٠. السنن الكبرى، البيهقي ٦: ٣٦٩. الاستيعاب ٣: ١٠٩٢. المناقب، الخوارزمي: ٥٧. أُسد الغابة ٤: ١٧. مقدّمة ابن الصلاح: ١٧٨. شرح نهج البلاغة ٤: ١١٦، ١١٨، ١٢١ و ١٣: ٢٢٤، ٢٣٥. تاريخ الإسلام، الذهبي ٣: ٦٢٤. نظم درر السمطين: ٨١. السيرة النبويّة، ابن كثير ١: ١٦١. الإصابة في تمييز الصحابة ٤: ٤٦٤، وغيرها.

(١) المصنّف ٥: ٣٢٥.

■ وبعضٌ لم يقرّ لنا البكائيّ بروايته [(١)]!!

ولنا أن نسأل الآن: ماذا بقي إذن بعد أن حذف ابن هشام هذه الأنواع الثلاثة من سيرته؟ وسنجد أنّ ما تبقّى هو:

■ الأشياء التي لا يشنّع الحديث بها.

■ الأشياء التي لا يسوء بعض الناس ذكرها.

■ الأشياء التي لم يمنع البكائيّ روايتها.

وليست هذه النتيجة من عندنا، وإنّما هي قراءة من زاوية أُخرى لما كتبه ابن هشام نفسه، وعليه فأين ستكون الحقيقة بين هذه البقايا المسموح بروايتها؟ وكيف سنتعرّف على تلك الحقيقة؟ وأين سنجدها؟ وكيف سنتمكّن من رسم صورة لذلك العصر؟

٧ـ **تاريخ الطبريّ** الموسوم بـ«تاريخ الأُمم والملوك»:

■ قال الطبريّ في مقدّمته: «فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين، ممّا يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنّه لم يعرف له وجهاً في الصحّة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنّه لم يُؤتَ في ذلك من قِبلنا، وإنّما أُتيَ من قِبل بعض ناقليه إلينا»[(٢)].

وليس أمامنا ونحن نطّلع على اعتراف الطبري هذا إلّا أن نفهم ما يلي:

أوّلاً: اعترافه أنّ في تاريخه أُموراً غير صحيحة وغير حقيقيّة ممّا قد يستنكره القارئ.

ثانياً: إنّه حرص على الدفاع عن نفسه ولم يهتمّ بالدفاع عن الحقيقة التاريخيّة.

---

(١) السيرة النبويّة ١: ٢.

(٢) تاريخ الطبري ١: ٥.

ثالثاً: إنّه منحنا الدليل الذي يمكّننا من إدانة التاريخ واتّهامه بتزييف الحقائق.

رابعاً: إنّه برّأ نفسه ممّا جاء في بعض مرويّاته من تهافت وتناقض مع الحقيقة، وألقى بتبعة ذلك على مَن رواه له.

■ وحتّى يحرّر الطبريّ نفسه من تبعة المرويّات المتهافتة والمتناقضة، فقد ألزم نفسه بذكر أسانيدها بالتفصيل ليجعل ـ حسب رأيه ـ الطريق واضحاً أمام الدارسين لمعرفة الصحيح منه والضعيف والباطل المفترى، من خلال معرفة حال الرواة، ولكنّ الطبري لم ينتبه إلى ما سيسبّبه منهجه هذا من مشكلات كانت السبب في تشويه الحقائق وضياعها من خلال:

أوّلاً: إنّ القادرين على التمييز من القرّاء إنّما هم الخاصّة من أهل العلم الذين لديهم الباع الطويل في علوم الرواية والدراية بأحوال الرجال، وهؤلاء من أندر أصحاب الاختصاص في كلّ عصر ومصر، أمّا الكثرة الغالبة من الناس ومن أهل المعرفة والاطّلاع ـ وحتّى بعض المتخصّصين في التاريخ ـ جميعهم بعيدون عن معرفة ذلك.. فإنّهم يقرأون تاريخاً مسطوراً ومنظّماً تدعوهم هذه الأسانيد نفسها إلى تقبّل كلّ ما فيه والاطمئنان إليه، وبذلك يكون دور هذه الأسانيد قد انقلب ليأتي بالنتيجة المعكوسة تماماً عند الغالبيّة العظمى، بل عند عامّة الأُمّة وسائر طبقات المتعلّمين من أبنائها على مرّ العصور وتعاقب الأجيال..

ثانياً: إنّ كبار المؤرّخين الذين أخذوا عن الطبريّ، وقعوا في ذلك المحذور في كثير ممّا أخذوه عنه، حيث اعتمدوا أشدّ الروايات ضعفاً، وأكثرها تهافتاً وتناقضاً مع الواقع.. وتظهر هذه الحقيقة واضحة في تاريخ ابن الأثير «الكامل في التاريخ» وتاريخ ابن كثير «البداية والنهاية» وتاريخ ابن خلدون، بل وحتّى تاريخ المسعودي «مروج الذهب» الذى أثنى على تاريخ الطبريّ أشدّ الثناء، ولم يُشِر إلى روايته عن المتروكين والضعفاء كما لم يشر إلى التحفّظات التي أوردها

الطبريّ نفسه عن تاريخه ، بل لم يلتفت إليها أصلاً .

ولعلّ أبرز مثال على تلك الروايات المتهافتة ، الروايات التي ينتهي سندها إلى سيف بن عمرو [عمر] ، حيث لم يعرف في التاريخ روايات أضعف منها سنداً ، ولا أشدّ منها نكارة ، ناهيك عن أنّ (سيف بن عمرو [عمر]) معروف عند أهل الجرح والتعديل بلا خلاف بينهم : أنّه متروك ، كذّاب ، يضع الحديث ، متّهم بالزندقة(١) . .

أضف إلى ذلك : أنّ الرجل الوحيد الذي روى كتب سيف بن عمرو [عمر] وهو (شعيب بن إبراهيم) هو رجل مجهول لا يعرفه أحد(٢) .

والغريب أنّ هذه المعرفة بحال سيف بن عمرو [عمر] ، وراوي كتبه لم تمنع أكابر المؤرّخين من اعتماده بالدرجة الأُولى ، وخاصّة في أكثر مراحل التاريخ الإسلامي حسّاسيّة !!

■ لقد كشف الطبريّ عن بعض الأُطر التي جعل منهجه في كتابة التاريخ يتحرّك داخلها ، فكانت :

أوّلاً : انتقاؤه أخبار عاذري معاوية (السلطة) وترك ما سوى ذلك .

---

(١) راجع ترجمة سيف بن عمرو [عمر] في : تاريخ ابن معين ١ : ٣٣٦ ، الرقم ٢٢٦٢ . كتاب الضعفاء والمتروكين ، النسائي : ١٨٧ ، الرقم ٢٥٦ . الضعفاء الكبير ، العقيلي ٢ : ١٧٥ ، الرقم ٦٩٤ . الجرح والتعديل ٤ : ٢٧٨ ، الرقم ١١٩٨ . كتاب المجروحين ، ابن حبّان ١ : ٣٤٥ . الكامل ، ابن عدي ٣ : ٤٣٥ ، الرقم ١١٩ ، ٨٥١ . الضعفاء ، أبو نعيم : ١٩١ ، الرقم ٩٥ . ميزان الاعتدال ٢ : ٢٥٥ ، الرقم ٣٦٣٧ . الكشف الحثيث ، سبط ابن العجمي : ١٣١ ، الرقم ٣٣٥ . تقريب التهذيب ١ : ٤٠٨ ، الرقم ٢٧٢٢ لتعرف مَن هو هذا الرجل وما هي مكانته .

(٢) انظر : الكامل ، ابن عدي ٤ : ٤ ، الرقم ٨٨٥/٥ . ميزان الاعتدال ٢ : ٢٧٥ ، الرقم ٣٧٠٤ . لسان الميزان ٣ : ١٤٥ ، الرقم ٥١٧ .

ثانياً: انتقاؤه ما يرضي العامّة ويوافق أهواءها دون سواه.

ثالثاً: متابعة الأمر الواقع والتزام جانبه والذبّ عنه ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

رابعاً: التزامه برواية سيف بن عمرو [عمر] على امتداد مرحلة حسّاسة من تاريخ الإسلام، هي المرحلة المبتدئة بوفاة النبيّ ﷺ وانتهاءاً بمعركة الجمل، وسيف هو الراوي الذي نذر نفسه لهذا الغرض وصنع لأجله الأساطير، وزوّر الحقائق، وقلب الأخبار(١).

٨ ـ منذ ظهور الخلافات بين المسلمين بعد وفاة النبيّ ﷺ كانت هذه القضيّة هي المحور الأهمّ من محاور الخلاف وما زالت تنمو حتّى بلغت ذروتها في عهد معاوية بن أبي سفيان، ففي هذا العهد وضعت اللبنات الأُولى لهذه المرحلة من مراحل التدوين، فلم تشأ السياسة آنذاك أن تدع الثقافة تجري بعيداً عن سلطانها، بل بسطت عليها سلطانها كما بسطته على شؤون الإدارة والأجناد، فرسمت لها مساراً لا تتعدّاه، ولم تسمح لها بالمرور إلّا من خلال قنواتها..

وقد اتّخذ معاوية بعدما آل الحكم إليه، سلسلة من الخطوات لتحقيق أهدافه في تحديد مسارات الثقافة التي يريد أن يجعل منها ثقافة عصره والعصور اللاحقة، فكانت إجراءاته ـ كما وصفها المدائني في كتاب (الأحداث) الذي نقله عنه ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة ـ كما يلي:

الخطوة الأُولى: كتب معاوية إلى جميع عمّاله نسخة واحدة بعد العام الذي سمّاه (عام الجماعة): «أن برئت الذمّة ممّن يروي شيئاً في فضل أبي تراب

---

(١) ممّا يعرفه المحقّقون عن سيف بن عمرو أنّه قد اختلق لوحده ٣٩ صحابيّاً لم يكن لهم على الأرض أي واقع، وجعل منهم أبطالاً فاتحين، واخترع لهم ٣٩ واقعة لم تحدث عند غيره من الرواة في كلّ كتب التاريخ، راجع خمسون ومائة صحابي مختلق، مرتضى العسكري.

وأهل بيته »[١] ، والمراد واضح ، وهو منع التحدّث بسيرة عليّ وأهل بيته وفضائلهم لئلّا تنتقل إلى العامّة فتدخل في ثقافاتهم وعقائدهم .

قال المدائنيّ : « وعلى إثر هذه الخطوة قامت الخطباء في كلّ كورة وعلى كلّ منبر يلعنون عليّاً ويبرأون منه ، ويقعون فيه وفي أهل بيته[٢] ، فلم يعد عليّ وأهل بيته مجرّدين من الفضائل وغرباء عن السيرة فقط ، وإنّما هم هؤلاء الذين يلعنهم خطباء المسلمين ويبرأون منهم !

وهكذا ابتدأ المشروع الجديد بهدم ما في أذهان العامّة الذين يعلمون أنّ عليّاً هو أحد خلفاء المسلمين ، وأنّه صاحب السابقة والعلم والجهاد والزهد ، وأنّ أهل بيته هم أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله . .

الخطوة الثانية : قال المدائنيّ : « وكتب معاوية إلى عمّاله في الآفاق ألّا يجيزوا لأحد من شيعة عليّ وأهل بيته شهادة »[٣] . . فهدرت كرامة الذين لا يزالون على حبّهم لعليّ ، وعوملوا معاملة الفسّاق ، فلا تقبل لهم شهادة ، ومَن كانت شهادته مرفوضة فحتماً سيكون حديثه باطلاً ومردوداً بلا كلام ، فكيف تؤخذ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله ممّن لا تقبل شهادته ؟ !

وفعلاً رُدّت شهاداتهم ، وتُركت أحاديثهم ، وحينما جاء أهل الجرح والتعديل في فترة لاحقة علّلوا ترك أحاديثهم بأنّهم كانوا يتشيّعون لعليّ ، فصار تشيّعهم جرحاً في عدالتهم ، وصار كلّ حديث يرد عنهم ـ وهو مخالف لما ألفه الناس ـ يُعدّ حديثاً منكراً . .

الخطوة الثالثة : قال المدائنيّ : « وكتب معاوية إلى عمّاله : أن انظروا مَن قِبَلكم

---

(١) الاحتجاج ٢ : ١٧ . شرح نهج البلاغة ١١ : ٤٤ .

(٢) شرح نهج البلاغة ١١ : ٤٤ .

(٣) شرح نهج البلاغة ١١ : ٤٤ . مختصر البصائر : ١٤ .

من شيعة عثمان، ومحبّيه، وأهل بيته، والذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم، وقرّبوهم، واكتبوا لي بكلّ ما يروي كلّ رجل منهم، واسمه، واسم أبيه، وعشيرته..، ففعلوا ذلك حتّى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية ويفيضه عليهم، وكثر ذلك في كلّ مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فلبثوا بذلك حيناً»[١].

الخطوة الرابعة: قال المدائنيّ: «ثمّ كتب معاوية إلى عمّاله: إنّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كلّ مصر وفي كلّ وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلّا وتأتوني بمناقضٍ له في الصحابة، فإنّ هذا أحبّ إليَّ، وأقرّ لعيني، وأدحض لحجّة أبي تراب وشيعته، وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضائله».

ثمّ قال: «فقرئت كتبه على الناس، ورويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة، مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية هذا المجرى حتّى أشادوا بذكر ذلك على المنابر.. وألقى إلى معلّمي الكتاتيب، فعلّموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع.. حتّى رووه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن، وحتّى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله»[٢].

فظهر حديث كثير موضوع.. وبهتان منتشر.. ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة والقرّاء والمراؤون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند الأئمّة، يصيبوا به الأموال والضياع والمنازل، حتّى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى الديّانين الذين لا يستحلّون الكذب والبهتان،

---

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ٤٤ و ٤٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ١١: ٤٥.

فقبلوها ورووها وهم يظنّون أنّها حقّ ، ولو علموا أنّها باطلة لما رووها ولا تديّنوا بها . .

٩ ـ قال **الإمام محمّد الباقر** عليه السلام وهو يصف حال أهل البيت وشيعتهم في ذلك العهد : « **وحتّى صار الرجل الذي يُذكر بالخير ـ ولعلّه يكون ورعاً صدوقاً ـ يُحدِّث بأحاديث عظيمة عجيبة من تفضيل بعضِ مَن سلف من الولاة ، ولم يخلق الله شيئاً منها ، ولا كانت وقعت ، وهو يحسب أنّها حقّ لكثرة من رواها ممّن لم يُعرف بالكذب ولا بقلّة ورع** »(١).

١٠ ـ كذلك انتهى كلام **نفطويه في تاريخه** حيث يقول : « إنّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة اختلقت في أيّام بني أُميّة تقرّباً إليهم بما يظنّون إنّهم يرغمون به أُنوف بني هاشم »(٢).

هكذا إذن تمّت كتابة السير والسنن ، وعلى هذا المنوال جرت حياكة الروايات ، وعلى هذا النهج تمّ تدوين أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسنرى من خلال الفصول التالية إلى أيّ مدىً كان هذا الأمر صحيحاً وواقعيّاً . .

---

(١) كتاب سليم بن قيس : ١٨٩ . شرح نهج البلاغة ١١ : ٤٤ .

(٢) شرح نهج البلاغة ١١ : ٤٦ ، عن تاريخ نفطويه .

الفصل الثالث

أهمّيّة السنّة، وقولهم: «حسبنا كتاب الله»

ذكرنا فيما مضى أنّ الخلفاء أمروا الناس بأن يمتنعوا عن رواية الحديث والسنن، وأن يقولوا: «حسبنا كتاب الله» باعتباره المصدر الوحيد للتشريع وبيان الأحكام.. ونريد أن نعرف الآن إلى أيّ مدى يمكن الأخذ بهذا القول والاعتماد عليه، واعتباره إجراءاً صحيحاً يفي بالغرض، ويحقّق للمسلم ما يحتاجه في أُمور دينه ودنياه؟ وهل أنّ كتاب الله لوحده كافٍ لتحقيق ذلك الغرض، أم أنّ الكثير من آياته ومن الأحكام والتشريعات والعبادات لا يمكن معرفتها وفهمها إلّا من خلال أحاديث النبيّ ﷺ وسنّته وكلّ ما صدر عنه من أقوال وأفعال؟..

ولن نعتمد على ما نراه نحن بهذا الخصوص، وإنّما سننقل ما قاله عدد من العلماء السنّة أنفسهم كي لا تبقى حجّةٌ لمعارضٍ أو معاند..

١ ـ قال حسّان بن عطيّة: «كان جبريل ينزل على رسول الله بالسنّة كما ينزل عليه بالقرآن، ويعلّمه السنّة كما يعلّمه القرآن»[(١)].

٢ ـ وقال أحمد بن حنبل: «السنّة تفسّر الكتاب وتبيّنه، والسنّة عندنا آثار رسول الله، والسنّة تفسير القرآن، وهي دلائل القرآن»[(٢)].

---

(١) المراسيل، أبو داود السجستاني ٢: ٢٤٩. سنن الدارمي ١: ١٤٥. فتح الباري ١٣: ٢٤٨.

(٢) حجّيّة السنّة: ٣٣٢.

٣ ـ قال عبدالرحمن بن مهدي: «الرجل إلى الحديث أحوج منه إلى الأكل والشرب؛ لأنّ الحديث يفسّر القرآن»[(١)].

٤ ـ قال ابن حزم: «لمّا بيّنّا أنّ القرآن هو الأصل المرجوع إليه في الشرائع، نظرنا فوجدنا فيه إيجاب طاعة ما أمرنا به رسول الله، ووجدنا أنّ الله عزّ وجلّ يقول فيه واصفاً لرسوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[(٢)] أفصح لنا بذلك بأنّ الوحي ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: وحيٌ متلوّ مؤلّف تأليفاً، معجِزُ النظام، وهو القرآن..

والثاني: وحيٌ مرويّ منقول غير مؤلّف، ولا معجز النظام، ولا متلوّ، لكنّه مقروء وهو الخبر الوارد عن رسول الله وهو المبيّن عن الله عزّ وجلّ مراده»[(٣)].

٥ ـ قال الشيخ أبو زهرة: «السنّة هي أحد قسمي الوحي الإلٰهيّ الذي نزل به جبريل على النبيّ، والقسم الثاني هو القرآن الكريم»[(٤)].

وقال: «وقد وكل الله إلى نبيّه أن يبلّغ القرآن للناس، وأن يبيّن لهم بقوله وفعله ما يحتاج إلى البيان، والرسول إذ يبيّن للناس كتاب الله لا يصدر عن نفسه، ولكنّه يتّبع ما يوحى إليه من ربّه، فالسنّة النبويّة وظيفتها تفسير القرآن والكشف عن أسراره، وتوضيح مراد الله تعالى من أوامره وأحكامه»[(٥)].

٦ ـ وقال الشيخ عبدالغني عبدالخالق: «السنّة مع الكتاب في مرحلة واحدة من حيث الاعتبار والاحتجاج بهما على الأحكام الشرعيّة، ولا نزاع بأنّ الكتاب

---

(١) تاريخ بغداد ٢: ١٨٣. حجّيّة السنّة: ٣٣٢.

(٢) النجم ٥٣: ٣ و ٤.

(٣) الإحكام في أُصول الأحكام ١: ٨٧.

(٤) و (٥) الحديث والمحدّثون: ١١، ٣٧ و ٣٨.

يمتاز عن السنّة بأنّ لفظه منزل من عند الله ، متعبّد بتلاوته ، معجز ، بخلافها ، ولكنّ ذلك لا يوجب التفضيل بينهما من حيث الحجّيّة »[١].

٧ ـ وقال محمّد عجاج الخطيب : « كلّ ما جاء من الرسول سوى القرآن من بيان الأحكام وتفصيل لما في الكتاب الكريم وتطبيق له ، هو الحديث النبويّ أو السنّة .. وهي بوحي إلٰهيّ .. فكيف يؤدّي الاشتغال بالحديث إلى إهمال القرآن وتركه .. فهذا من أبْدَهِ الكلام الباطل ، لوضوح أنّ حديث رسول الله وما نطق به ، ليس إلّا حقّاً كما صرّح هو به في روايات إذنه لعبدالله بن عمرو في كتابة الحديث »[٢].

٨ ـ قال مكحول : « القرآن أحوج إلى السنّة من السنّة إلى القرآن »[٣].

٩ ـ قال ابن برجان : « ما قاله النبيّ من شيء فهو من القرآن ، وفيه أصله ، قرب أو بعد ، فهمه مَن فهمه ، وعَمِهَ عنه مَن عَمِه »[٤].

١٠ ـ قال الزركشيّ : « إعلم إنّ القرآن والحديث أبداً متعاضدان على استيفاء الحقّ وإخراجه من مدارج الحكمة ، حتّى أنّ كلّ واحد منهما يخصّص عموم الآخر ويبيّن إجماله »[٥].

١١ ـ قيل لعمران بن الحصين : ما هذه الأحاديث التي تحدّثونها وتركتم القرآن ، لا تحدّثوا إلّا بالقرآن .. فأجاب : أرأيتَ لو وكلت أنت وأصحابك إلى القرآن ،

---

(١) حجّيّة السنّة : ٤٨٥.

(٢) أُصول الحديث : ٣٤ ، ٤٣ ، ٨٩.

(٣) الكفاية في علم الرواية ، الخطيب البغدادي : ٣٠. جامع بيان العلم وفضله ٢ : ١٩١. تفسير القرطبي ١ : ٣٩.

(٤) البرهان ، الزركشي ٢ : ١٢٩. الاتقان في علوم القرآن ، السيوطي ٢ : ٣٣٢. أضواء البيان للشنقيطي ٢ : ٤٢٩ ، جميعاً عن ابن برجان.

(٥) البرهان ، الزركشي ٢ : ١٢٩.

أكنتَ تجد فيه صلاة الظهر أربعاً، وصلاة العصر أربعاً، والمغرب ثلاثاً؟ أرأيت لو وكلت أنت وأصحابك إلى القرآن، أكنتَ تجد الطواف بالبيت سبعاً، والطواف بالصفا والمروة؟

ثمّ قال: اتّبعوا ما حدّثناكم وخذوا عنّا وإلّا والله ضللتم[١].

١٢ ـ قال أيّوب السختيانيّ: «إذا حدّثت الرجل بالسنّة فقال: دعنا من هذا وحدّثنا عن القرآن، فاعلم أنّه ضالّ مُضِلّ»[٢].

١٣ ـ روى بعضهم عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وسنّتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً»، وهو تحريف لقوله ﷺ: «**كتاب الله وعترتي...**»، ولكن مع ذلك نسألهم: ماذا فعلوا بتلك السنّة التي أوصاهم بها وتركها فيهم مقرونة بكتاب الله؟ هل اهتمّوا بها والتزموا؟ أم أنّهم فهموا منه أنّه يدعوهم لإحراقها ومنع روايتها وتدوينها، وهو ما فعلوه بها بعده؟!

ولو شئنا نقل كلّ ما قيل حول أهمّيّة السنّة وعلاقتها الوثيقة بالقرآن، لخرجنا عن القصد، ولأطلنا في البحث، ولكنّنا إذ نكتفي بما ذكرناه فلأنّ خطّة البحث تعتمد أساساً على التنبيه والإشارة، ولمن يروم التوسّع، الرجوع إلى المصادر التي ذكرناها في الهوامش ليطّلع على المزيد.. والذي نريده هنا هو فقط التنبيه إلى خَطل رأي مَن قالوا: «حَسبُنا كتابُ الله» فإنّه لم يكن رأياً صحيحاً ولا مقبولاً، كما أنّه لم يكن إلّا شعاراً رفعوه لتمرير أهدافٍ أُخرى أرادوها وَسَعوا إليها، كما سيتّضح ذلك لاحقاً.

---

(١) و (٢) الكفاية في علم الرواية: ٣١.

الباب الثاني

نظرة عامة

إلى صحيح البخاري

الفصل الأول

بين يدي البحث

قال أبو هريرة: «حَفِظتُ من رسول الله ﷺ وعاءين، فأمّا أحدهما فبَثَثْتُه، وأمّا الآخر فلو بثثتُه قطع هذا البلعوم»[1].

من خلال ما نفهمه من هذا القول، نريد أن نسأل:

ما الذي كان يحويه هذا الوعاء الذي لو بثّه أبو هريرة لقُطِع بلعومه؟! فلو كان ما يحويه علماً إلٰهيّاً أو سرّاً نبويّاً لما كان هناك مبرّر لقطع البلعوم، لأنّ الناس سيكونون أشدّ حرصاً على معرفة ذلك السرّ، ولاعترفوا لأبي هريرة بالفضل ولدافعوا عن سلامة بلعومه أعظم دفاع!! مع استغرابهم لاختصاص أبي هريرة بهذا العلم أو ذلك السرّ وفي الصحابة مَن هو أجلّ منه، وأجدر بحمل العلوم الإلٰهيّة والأسرار النبويّة، ولظلّوا في حيرة من ذلك، لأنّهم لم يعرفوا لأبي هريرة في زمن النبوّة شأناً يؤهله للتفرّد بأيّة خصوصيّة كما سنقف على ذلك عندما سنتعرّض إلى سيرته!!

إنّ أقرب إجابة إلى الصواب هي أنّ ذلك الوعاء الذي امتنع أبو هريرة عن بثّه لم يكن وعاء علم وأسرار، وإنّما كان وعاء أخبار وأحاديث نبويّة تتعلّق بأمر لم تكن

---

(١) صحيح البخاري ١:٣٨. عمدة القاري ٢: ١٨٤. المحرّر الوجيز ١: ٢٣١. تفسير القرطبي ٢: ١٨٦. فتح القدير ١: ١٦١.

السلطة لتسمح بإذاعته بين المسلمين ، لأنّه سيفسد عليها دنياها التي خاض رجالها فيها حتّى آذانهم ، وهذا هو التفسير المنطقيّ الوحيد للخوف من قطع البلعوم.. فما هو ذلك الأمر ؟

هل هو أمر يتعلّق بالعبادات ؟

أم أنّه يخصّ بعض الأحكام والشرائع ؟

أو هو قصص عابرة عن أحداث غابرة ؟

إنّ الحديث عن هذه العناوين ليس فيه ما تُخشى مغبّته أو يستوجب قطع البلعوم ، فقد كان المسلمون حريصون على معرفة أدقّ التفاصيل فيما يتعلّق بالعبادة ، ممتنّون لمن يروي لهم حكماً أو تشريعاً لا يعرفوه ، متشوّقون لسماع قصص الأوّلين وأخبارهم ، فلا مجال إذن للقول إنّ أبا هريرة كان متخوّفاً من البوح بأحاديث تتعلّق بما ذكرناه..

إذن ، لا بدّ أن يكون عند أبي هريرة شيء يتعارض مع سياسة وسلوك السلطان ، وربّما لديه ما يضرّ بحُكمه ، ويسقط شرعيّته ، ويفضحه على الملأ.. والسلطان وحده قادر على قطع بلعوم أبي هريرة إذا تجاوز الحدود وتحدّث بما لديه..

لو أنصف الباحثون ، وفكّروا بعقولهم دون عواطفهم ، فإنّهم سيجدون أن ليس هناك أيّة قضيّة أُخرى يمكن أن يخاف منها أبو هريرة سوى قضيّة الخلافة وتداخلاتها مع أهل البيت عليهم السلام وما أفرزته على الساحة الإسلاميّة من مضاعفات..

فقضيّة الخلافة وعلاقتها بأهل البيت وعميدهم أبي الحسن عليه السلام ، ومناقبهم وفضائلهم ، وأحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله فيهم ، وتأكيداته على محبّتهم ، وموالاتهم وطاعتهم كانت من أشدّ ما يقلق الظالمين ، ويقضّ مضاجعهم ، ويهزّ عروشهم لو قُدّر لها أن تنتشر بين الناس وتتداولها ألسن المسلمين..

وعندما تكون المسألة خسارة عرش وضياع سلطان ، فإنّ بلعوم أبي هريرة ومئات

ممّن هم خير منه سيكون أهون بكثير ، ولو أهملنا هذا التفسير فلن نجد قضيّة واحدة فقط لو تحدّث بها أبو هريرة لقطع بلعومه . .

إذن : لا بدّ للباحث عن الحقيقة في كتب التاريخ والسيرة والحديث أن يتمتّع بحذر من يجوس في حقل من حقول الألغام ، أو يكون كغوّاص يبحث عن اللؤلؤ في أعماق البحر . . وأن يمتلك شجاعة كافية أمام نفسه ليرغمها على قبول الحقيقة ، وأمام الآخرين ليطلق تلك الحقيقة في وجوههم دون خوف ولا تردّد . .

لقد اعتمد فقهاء المسلمين في محاكمة الأحاديث المرويّة عن النبيّ ﷺ قاعدةً ذات شرطين :

أوّلهما : سند الرواية ، الذي يعني سلسلة الرجال رواة الحديث ، وفقاً لشروط كثيرة وضعوها ، منها : اتّصال حلقات السلسلة ، وصدق عناصرها ، وورعهم ، وأُمور كثيرة أُخرى . .

وثانيهما : متن الرواية أو الحديث ، وهو فحوى الحديث ومضامينه ، وصحّة انطباقه على قضيّة ما ، وانسجامه مع العقل ، وعدم تعارضه مع كتاب الله . .

ولو حرص علماء المسلمين وألزموا أنفسهم بهذين الشرطين لما وصل إلينا عن رسول الله ﷺ إلّا الصادق من الحديث والموثوق من السنن ، ولكنّ الذي حصل أنّ هذه القاعدة قد تعرّضت لأبشع صور التلاعب والتزوير ، ممّا أفقدها فعاليّتها وربّما جعلها وسيلة لنقل الأحاديث الموضوعة كما سنرى لاحقاً .

لقد تجاوز المختصّون بالحديث من علماء المسلمين دراسة متون الأحاديث وعرضها على كتاب الله وعلى العقل ، واكتفوا بالنظر إلى سندها فقط ، وأعطوه الدور الأوحد في تقييم صحّة الرواية والحديث انطلاقاً من فكرة تبنّوها وعقيدة اخترعوها هي (عدالة جميع الصحابة) ممّا جعل من الاعتقاد بكذب أحدهم أو بعضهم كفراً ومروقاً عن الدين ، فكلّهم صادقون ، وكلّ ما أُسند إليهم من حديث صحيح

لا يجوز الطعن فيه.. وبذلك أسقطوا الشرط الثاني، ولم يبق لسلامة المتن وعقلانيّته قيمة ولا اعتبار.. وأصبحت قيمة الحديث بسنده فقط دون متنه.. وحتّى الوثاقة التي اعتبروها في رجال السند لم يقفوا عندها، وإنّما جعلوها نسبيّة بحسب الظروف وعوامل السياسة.. فتدفّقت الأحاديث من كلّ حدب وصوب، وتصدّى للرواية كلّ من هبّ ودبّ، ولم يعد للحديث ضابط يضبطه، ولا قاعدة تحميه.. والأحاديث المتعارضة مع غيرها أو مع القرآن أو مع العقل يجب تأويلها بأيّ شكلٍ وبأيّ ثمن، وإذا استعصت على التأويل يجب ترك علمها إلى الله حفاظاً على كرامة الصحابيّ أو التابعيّ الذي رواها، ولو كانت تنطوي على العجائب والأباطيل..

نعم، لقد وضع علماء الجرح والتعديل كتباً تترجم لرجال السند من الصحابة وتابعيهم وتابعي تابعيهم.. ووصفوا حالهم، وصنّفوهم بحسب الوثاقة، فكان منهم الصدوق الثقة، والكذوب الوضّاع، والمدلّس.. وكان من أحاديثهم القويّ والحسن والضعيف والمنكر.. إلى غيرها من المصطلحات الحديثيّة وعناوين الرجال..

ولكن على أيّ أساس قام هذا التصنيف؟

وما هي الشروط التي يجب توفّرها في الراوي لكي يكون عدلاً وثقة فيقبل حديثه؟ أو كذوباً وضّاعاً فيُردّ؟

إنّ المشكلة الكبرى كانت في هذه الشروط، فعندما تراجع كتب الرجال تجد أن وراءها ما وراءها من التحكّمات والنزعات السياسيّة والشخصيّة والقبليّة والطائفيّة في التعامل مع الرجال وفي تصنيفهم، فالرجل العدل عند أحد العلماء قد يكون مجروحاً عند غيره، والعكس صحيح أيضاً، وسنضرب عدّة أمثلة على ذلك في مكان غير هذا، عدّهم البخاريّ من شيوخه ورجال سنده الموثوقين، في حين عدّهم غيره من الكذّابين أو المدلّسين، وهذا ينطبق على الكثير من العلماء غير البخاريّ..

وغالباً ما كانت درجة وثاقة الرجل تقاس بمقدار علاقته بالسلطة والحاكمين، فكلّما كان قريباً منها ومنهم، كان ثقة وصدوقاً، وكلّما ابتعد عنها وعنهم كان كذوباً ومنبوذاً ومنكر الحديث.. تماماً كما يحصل اليوم في البلدان العربيّة، فكلّ مَن يتعامل مع الحكّام ويؤازرهم فهو (شريف وطني مخلص)، وكلّ مَن يعارضهم ولا يسير في ركابهم فهو (خائن وعميل ووضيع)..

أمّا ما يتعلّق بالمتن، فتكفيك مراجعة أحد كتب تأويل الحديث، لكي تقف على مقدار التكلّف والتزّلف وليٍّ عنق الحقيقة للخروج بتأويل بارد ما أنزل الله به من سلطان، ليس من أجل الوصول إلى فهم منطقيّ للحديث، وإنّما من أجل إنقاذ الراوي من المأزق الذي وضع نفسه فيه، والحفاظ على سمعته وكرامته وتبرئته من تهمة الكذب على رسول الله ﷺ..

وبذلك لم يعد لديك معايير واضحة تزن بها الرجال وتطمئنّ إلى صدق ما وصفوهم به سلباً أو إيجاباً، كما لا تساعدك التأويلات التي خرّجوا بها بعض المتون على الاقتناع بها وقبولها، وسنختار لك بعد قليل نماذج من تلك الأحاديث، وكيف جرى تأويلها، واحكم بنفسك إن كنت تطمئنّ إلى صحّة تلك التأويلات، وهي موجودة في أحد الكتب المعتبرة هو كتاب «تأويل مختلف الحديث» ولمؤلّف معتبر هو (ابن قتيبة الدينوري)..

على كلّ حال، فقد حاول رسول الله ﷺ ـ وهو العارف بما سيحدث ـ أن يضع قاعدة من شأنها حماية المسلمين من الوقوع في المزالق والمهالك التي قد تنتج عن تحريف أحاديثه أو الكذب عليه، فصرّح قائلاً: **«إذا وَرَدَكُمْ عَنِّي حَدِيثٌ فاعرِضُوه عَلىٰ كِتابِ اللهِ، فَإِنْ وافَقَهُ فَخُذوهُ، وَإِنْ خالَفَهُ فَرُدّوهُ»**(١).

ثمّ حذّر الناس من الكذب عليه فقال: **«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّءْ مَقْعَدَهُ**

---

(١) عون المعبود ١٢: ٢٣٢. تفسير القرطبي ١: ٣٨، وفيهما: «جاءكم» بدل «وردكم».

مِنَ النّارِ»[١].

وهكذا نجده ﷺ قد حرص على وضع أساس متين، وميزان عدل يَزِنُ به المسلمون ما يرد إليهم من أحاديث منسوبة إليه، فهو ﷺ لا ينطِق عن الهوى، وحديثه امتداد لكتاب الله تعالى يوضّحه ويَجلي غوامِضَه ولا يخالفه أو يحيد عنه، فإذا ما وردنا عنه حديث يخالف كتاب الله، أو لا ينحو منحاه، فإنّنا سنرفضه حتّى لو رواهُ الإنس والجنّ، أمّا إذا وافق القرآن وجرى مجراه، فسنعتمده ونأخذ به حتّى لو لم يروه غير واحد..

وهناك أمر آخر، هو ضرورة موافقة الحديث للعقل والمنطق، وهو من البديهيّات التي لا ينبغي الجدال فيها، فالنبيّ ﷺ إنّما يخاطب بأحاديثه المؤمنين، من العلماء ومن السواد ومن سائر المسلمين، ولم يستعمل في خطابه ألغازاً أو يخضعهم إلى اختبارات في اللغة والنحو، وإنّما كلّمهم بلسان عربيّ مبين، وكلمات سهلة واضحة، أُريد منها إيصال المعنى إلى الجميع على اختلاف مداركهم ومستوياتهم العلميّة والثقافيّة، ولم يقصد به تعريضهم إلى امتحانات لاختبار مستوى ذهنيّاتهم حتّى يعبّر عن الفكرة بكلام غريب عنها دفعاً لهم إلى ميادين التأويل، ومَن سيضمن مطابقة التأويل لمراد النبيّ ﷺ ؟ وأين الحجّة التي ستقام على العصاة والمخالفين إذا لم يكن التأويل مطابقاً للمراد أصلاً ؟

إنّ هذا البحث يحاول أن ينتصر لرسول الله ﷺ من خلال محاولة تنقية الحديث المنسوب إليه ممّا لا يقبله عقل أو ذوق سليم، لا سيّما وقد استغلّ أعداء الإسلام الكثير من تلك الأحاديث والروايات المزيّفة للطعن بالدين الحنيف، وبشخص النبيّ ﷺ، والمساس بصدق نبوّته وشموليّة رسالته، وقد وفّر لهم عجز بعض علماء الإسلام، وجهل الكثير من أبنائه المادّة التي اعتمدوها في بثّ سمومهم وتمرير

---

(١) المحلّى، ابن حزم ٩: ١١١. سبل السلام ٣: ٢٢٣. نيل الأوطار ٨: ٨٥.

مخطّطاتهم الهدّامة . .

وتحقيقاً لهذا الهدف سنحاول مناقشة الأحاديث الواردة في أهمّ مصدرين من مصادر الحديث لدى أكبر شريحتين مسلمتين ، وهما « صحيح البخاري » لمحمّد ابن إسماعيل البخاريّ ، و « الكافي » للكليني ، وسيكون بحثنا هذا خاصّاً بصحيح البخاريّ على أن نلحقه بإذن الله بالبحث الخاصّ بالكافي ، وسيكون مخطّطنا في البحث كما يلي :

١ ـ سنترك كلّ حديث يُعتقد أنّ بالإمكان تأويله ، وسنقبل بالتأويل مهما كان تصادمه عنيفاً مع العقل والمنطق . .

٢ ـ سنناقش فقط الأحاديث التي لا تقبل أيّ تأويل ، وليس لها أيّ معنى باطن غير معناها الظاهر . .

٣ ـ سنترك محاورة الأسانيد لعدّة أسباب ، منها : أنّنا لسنا من أهل الاختصاص في علم الرجال ، ومنها أنّ هذا العلم لم ينفعنا عمليّاً بأيّ شيء ، وربّما أضرّ بنا كثيراً ، ناهيك عن أنّ كلّ ما هو موجود في كتب الحديث سمّوه (صحيحاً) ، وسمّوا كتبهم (صحاحاً) ، ولا أحد يسأل عن رجال السند ، وما على المسلمين إلّا القبول بذلك صاغرين . .

٤ ـ سيكون منهجنا هو عرض تلك الأحاديث على العقل والتفكير العلميّ الذي يجب أن يكون رائداً لكلّ مسلم يسعى إلى إحراز إيمان صادق وحقيقيّ مرتكز على أُسس رصينة تستطيع الصمود أمام الهجمات والتخرّصات الحاقدة . .

ومنه تعالى نستمدّ العون والسداد والتوفيق

قالوا عن صحيح البخاريّ

١ ـ لقد اتّفق المحدّثون من أهل السنّة على أنّ محمّد بن إسماعيل البخاريّ هو أوّل من تطوّع لتمييز الحديث الصحيح عن غيره بعد أن كانت الطبقة الأُولى التي دوّنت الحديث لا يعنيها من أمره إلّا جمع حديث الرسول وأقوال الصحابة وأقضيتهم من غير ترتيب وتبويب ، وجاءت الطبقة الثانية فوزّعته على الأبواب الفقهيّة ، ووضعت كلّ حديث في المحلّ المناسب له ، فكان البخاريّ مجدّداً في الطريقة التي سلكها ، ومهّد لمن ألّف بعده كمسلم بن الحجّاج (الإمام مسلم) ، وابن ماجة ، وأبي داود ، والترمذيّ ، والنسائيّ . .

٢ ـ كما جاء في التعليقة على الباعث الحثيث : إنّ أحاديث الصحيحين كلّها صحيحة ، ليس في واحد منها مطعن أو ضعف ، وإنّما انتقد الدارقطنيّ وغيره من الحفّاظ بعض الأحاديث على معنى أنّ ما انتقدوه لم يبلغ في الصحّة الدرجة العليا التي التزمها كلّ واحد منهم في كتابه ، وأمّا صحّة الحديث في نفسه فلم يخالف فيها أحد ، فلا يهولنّك إرجاف المرجفين وزعم الزاعمين أنّ في الصحيحين أحاديث غير صحيحة . .

٣ ـ قال ابن كثير في الباعث الحثيث : « أوّل من اعتنى بجمع الحديث الصحيح ، محمّد بن إسماعيل ، وتلاه تلميذه وصاحبه مسلم بن الحجّاج النيسابوريّ ، فهما أصحّ كتب الحديث ، والبخاريّ أرجح منه » .

٤ ـ وقال جماعة : « إنّ أصحّ الأحاديث هو ما في الصحيحين ، ثمّ ما انفرد به البخاريّ ، ثمّ ما انفرد به مسلم ، ثمّ ما روي على شرطيهما ، ثمّ ما روي على شرط البخاريّ ، ثمّ ما روي على شرط مسلم » .

٥ ـ لم ينتقد الحافظ أبو الفرج الجوزيّ في كتابه «الموضوعات» إلّا حديثاً واحداً رواه البخاريّ.

٦ ـ قال السيّد محمّدرشيد رضا: «إنّ أحاديث الجامع الصحيح للبخاريّ في جملتها أصحّ في صناعة الحديث، وتحرّي الصحيح من كلّ ما جمع في الدفاتر من كتب الحديث، ويليه في ذلك صحيح مسلم».

٧ ـ قال المقدسيّ: «كلّ مَن روى عنه البخاريّ فقد جاز القنطرة»، أي أنّ تزكية البخاريّ له بقبوله الرواية عنه هي الشهادة العليا له بالنزاهة والوثاقة بحيث لم تعد هنالك حاجة للبحث في أحواله أو الاطّلاع على سيرته، فقد اجتاز كلّ ذلك وعبر القنطرة..

٨ ـ روى عن البخاريّ نفسه أنّه قال: «الذي دفعني إلى تأليف الصحيح هو أنّي رأيت النبيّ ﷺ وكأنّي واقف بين يديه وبيدي مروحة أذبّ عنه، فسألت بعض الذين يتعاطون تفسير الأحلام عن تأويل ذلك، فقال: إنّك تذبّ عنه الكذب، فاتّجهت إلى اختيار الصحاح من المرويّات عنه ﷺ».

٩ ـ ونقل عن الغريري: أنّه سمع محمّد بن أبي حاتم البخاريّ الورّاق يقول: رأيت محمّد بن إسماعيل البخاريّ في المنام يمشي خلف النبيّ ﷺ، فكلّما رفع النبيّ ﷺ قدمه وضع البخاري قدمه في ذلك الموضع.

١٠ ـ جاء في مقدّمة فتح الباري: أنّ البخاريّ قد فقد بصره في حداثة سنّه، وذهبت عيناه، فرأت والدته إبراهيم الخليل في المنام فقال لها: يا هذه، قد ردّ الله على ابنك بصره، فأصبح وقد ردّ الله عليه بصره، وكان بعد ذلك يكتب في الليالي المقمرة.

١١ ـ كذلك ورد في مقدّمة فتح الباري في شرح صحيح البخاريّ: أنّ النبيّ قد أمر الناس بتدريس كتاب البخاريّ، وروي عن أبي زيد المروزيّ أنّ النبيّ ﷺ

جاءه وهو نائم بين الركن والمقام، فقال له: إلى متى تدرس كتاب الشافعي ولا تدرس كتابي؟

قلت: يا رسول الله، وما كتابك؟

قال: جامع محمّد بن إسماعيل..!!

١٢ ـ وأيضاً في مقدّمة فتح الباري: أنّ البخاريّ كان يحفظ كلّ ما يسمع وما يُتلى عليه لأوّل مرّة، ويمرّ بالكتاب مرّة واحدة من أوّله لآخره فيحفظه بالغاً ما بلغ، وإنّه وفد على البصرة وهو غلام ليسمع الحديث، فذهب مع جماعة من مشايخ البصرة ومحدّثيها، وكلّهم يكتب ما يُتلى عليه إلّا هو، فإنّه كان يسمع ولا يكتب، وفي خلال خمسة عشر يوماً دوّن أصحابه خمسة عشر ألف حديث، ولمّا لاموه على عدم الكتابة، أعاد عليهم كلّ ما سمعه وسمعوه ممّا اضطرّهم أن يعرضوا ما دوّنوه على محفوظاته(١).

بعد كلّ هذا، لم أجد ضرورة لتقصّي كلّ ما قيل في البخاري وفي صحيحه، وقد قيل فيهما ما لو جمع لأصبح كتاباً ضخماً لوحده، فإنّه من حيث القداسة عندهم يأتي بعد كتاب الله، ومن حيث الصحّة فإنّه أصحّ ما على وجه الأرض، يُقسم به عند التحليف، ويُخوّف به عند التخويف، ويرجى في مطالعته الثواب، ويُدرء باقتنائه العقاب، يُهدى إلى العروس للبركة ليلة الزفاف، تحدّثت به الركبان، ونظمت فيه القصائد والأشعار..

وإلى اليوم، فإنّ من أكبر الخطايا والذنوب أن يتجرّأ أحد فيدّعي عدم صحّة بعض

---

(١) دراسات في الكافي، هاشم معروف الحسني: ١٠٩ وما بعدها.

وأكثر هذه الآراء منقولة من: الباعث الحثيث، أحمد محمّد شاكر: ٢٥ ـ ٣٥. السنّة، السباعي: ١٤٠. أضواء على السنّة، الشيخ محمّدرشيد رضا: ٢٥٢. فتح الباري وهدي الساري ٢: ٢٥١ وما بعدها. شذرات الذهب ٢: ١٣٤ و ١٣٥.

ما فيه، فربّما اتّهموه بالزندقة والكفر، وحكموا عليه بالخروج من ملّة الإسلام..

ولو أنّهم تنازلوا قليلاً وأقرّوا أنّ فيه إلى جانب القويّ ضعيفاً، ومع الصدق كذباً، لما كانت هنالك مشكلة، ولا اضطرّوا إلى التجنّي على الحقيقة بالتأويلات الفارغة، ولكفى الله المؤمنين شرّ القتال..

ولكنّهم أصرّوا على أنّ كلّ ما فيه هو في قمّة الصحيح، وأنّه كالقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فتكلّفوا بذلك مغبّة النقد المستمرّ في كلّ حين، وتجشّموا عناء ابتداع الروايات وصياغة الرؤى والأحلام حين خانهم الواقع ولم يسعفهم الدليل..

وسنورد لك بعد قليل بعضاً ممّا قيل فيه، وهو نقيض ما ذكرناه آنفاً..

التعريف بالبخاريّ وصحيحه

مَن هو البخاريّ؟

هو محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن مغيرة الفارسيّ، ولد ببخارى سنة **١٩٤**هـ، وارتحل في طلب الحديث، ولبث في تصنيفه ستّ عشرة سنة، وقيل: ثمان عشرة سنة، بالبصرة وغيرها، حتّى أتمّه في بخارى. ومات بـ(خرتنك) قرب سمرقند سنة **٢٥٦**هـ، فكان عمره **٦٢** عاماً..

قال الحاكم في تاريخه: «قدم البخاريّ نيسابور في سنة **٢٥٠**هـ، فأقبل عليه الناس ليسمعوا منه، وفي أحد الأيّام سأله رجل عن (اللفظ بالقرآن) فقال: أفعالنا مخلوقة، وألفاظنا من أفعالنا، فوقع بذلك خلاف، ولم يلبث أن حرّض الناس عليه محمّد بن يحيى الذهلي، فقال: مَن قال ذلك فهو مبتدع ولا يُجالس ولا يُكلّم، فانقطع الناس عن البخاريّ إلّا مسلم ـ الإمام مسلم ـ وأحمد بن سلمة، وقد خشي البخاريّ على نفسه فسافر من نيسابور»[(١)].

وقد ذكره ابن حجر في «طبقات المدلّسين»، وسبط ابن العجميّ في «تبيين أسماء المدلّسين»[(٢)] فاعتبراه منهم..

وهناك مزاعم حول انتماء البخاريّ إلى المذهب الحنفيّ حتّى مجيئه إلى مكّة؛ لأنّ المذهب الحنفيّ كان المذهب السائد في بخارى ومرو وخراسان، والفقه الحنفي هو الفقه المعمول به في تلك الأقاليم، كما أنّ آباء البخاريّ كانوا أحنافاً

---

(١) هدي الساري (مقدّمة فتح الباري): ٤٩١.

(٢) طبقات المدلّسين: ٢٤، الرقم ٢٣. تبيين أسماء المدلّسين: ٤٨، الرقم ٦١.

باستثناء جدّه الثالث الذي كان أصله مجوسيّاً.. وعليه يكون مذهب البخاريّ في البداية حنفيّاً، ثمّ انتقل إلى مذهب الشافعيّ لدى وروده مكّة، وهو كما يقال تلقّاه عن شيوخه الذين منهم نعيم بن حمّاد المروزيّ بلا واسطة، ونعيم هذا وضّاع للحديث يفعل ذلك من أجل تعزيز موقع السنّة، فقد قال ابن حجر والذهبيّ: «أنّ نعيم المروزيّ وضّاع للحديث في تقوية السنّة»[١]، وقد وضع الأحاديث نكاية بأبي حنيفة، وهي أحاديث مزوّرة تفتقر إلى الصحّة، وإنّ مسألة تأثّر البخاريّ بشيوخه تصل إلى حدّ تأثيرها في بلورة عقائده وأفكاره.

وإضافة إلى نعيم فقد تأثّر البخاريّ بكلّ من حسين الكرابيسي وابن كلاب كما نصّ على ذلك ابن حجر في «فتح الباري»[٢] الذي ترجم لابن كلاب بأنّه كان نصرانيّاً[٣]، ورأساً لـ(الكلابيّة)[٤] التي هي فرقة من الفرق الكلاميّة، كما صرّح بأنّ البخاريّ أخذ عقائده من هذين الرجلين[٥]، وكلاهما مجروح لدى أرباب علم الرجال[٦].

ويظهر بأنّ انقلاب البخاريّ على مذهب أبي حنيفة كان قويّاً وعنيفاً، بحيث افتتح صحيحه بعبارة «حدّثنا الحميديّ»، ووصفه بأنّه شيخ كبير كثير الرواية، وله كتاب اسمه (مسند الحميدي) مطبوع، وهو من أبرز الثقات لدى البخاريّ.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠: ١٠٩، الرقم ٢٠٩. تهذيب التهذيب، ابن حجر ١٠: ٤١٢، الرقم ٨٣٣.

(٢) فتح الباري ١: ٢١٣.

(٣) لسان الميزان ٣: ٢٩١.

(٤) الفصل في الملل والنحل، ابن حزم ٥: ٧٧. المقالات، الأشعري ١: ١٥٤. سير أعلام النبلاء ١١: ١٧٤، الرقم ٧٦.

(٥) تقدّم في هامش فتح الباري.

(٦) راجع البخاري وصحيحه، الشيخ حسين غيب غلامي: ٣٠ و ٣١.

والحميديّ هذا هو عبدالله بن الزبير الحميديّ الذي هو أوّل من نهض ضدّ أبي حنيفة في مكّة، وذكر عنه الخطيب البغدادي في تاريخه، والذهبي في «تاريخ الإسلام» إنّه شيخ الحرم، وكان يجلس في المسجد الحرام ويحدّث، فإذا وصل إلى ذكر أبي حنيفة سمّاه (أبا جيفة)[1]، فيكون اعتماد البخاريّ عليه واستفتاحه لصحيحه باسمه بمثابة إعلان عن موقفه من أبي حنيفة، إضافة إلى قرائن أُخرى كثيرة تدلّ على هذا الاتّجاه، ليس أقلّها ابتداء صحيح البخاريّ برواية حديث «**إنّما الأعمال بالنيّات**»، وهو ضدّ ما يذهب إليه الأحناف من عدم شموليّته لأحكام العبادات والمعاملات، وقد كرّر البخاريّ هذا الحديث سبع مرّات لتأكيد نافذيّته في جميع المعاملات..

كيف جرى تدوين الصحيح؟

١ ـ يقول ابن حجر في «مقدّمة فتح الباري»: «إنّ أبا عليّ الغسّاني روى عن البخاري أنه قال: خرّجتُ الصحيح من **٦٠٠** ألف حديث، كما روى عنه قوله: لم أُخرّج في هذا الكتاب إلّا صحيحاً، وما تركت من الصحيح أكثر».

٢ ـ وعنه أيضاً قوله: «كنّا عند إسحاق بن راهويه ـ أُستاذه ـ فقال: لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنّة الله، فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع الجامع الصحيح وخرّجت الصحيح من **٦٠٠** ألف حديث».

٣ ـ كما ذكر في نفس المقدّمة قول أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد المستملي: «انتسخت كتاب البخاريّ من أصله الذي كان عند صاحبه محمّد بن يوسف الفربري فرأيت فيه أشياء لم تتمّ، وأشياء مبيضّة، منها تراجم لم يثبت بعدها شيئاً، ومنها أحاديث لم يترجم لها، فأضفنا بعض ذلك إلى بعض..».

---

(١) تاريخ بغداد ١٣: ٤٠٨، الرقم ٧١، ونقل عن الذهبي في البخاريّ وصحيحه: ٢٦.

قال أبو الوليد الباجي : « وممّا يدلّ على صحّة هذا القول أنّ رواية أبي إسحاق المستملي ، ورواية أبي محمّد السرخسيّ ، ورواية أبي الهيثم الكشميهي ، ورواية أبي زيد المروزيّ مختلفة بالتقديم والتأخير ، مع أنّهم انتسخوا من أصل واحد ، وإنّما ذلك بحسب ما قدّر كلّ واحد منهم في ما كان في طرّة أو رقعة مضافة ، إنّه من موضع ما فأضافه إليه ، ويبيّن ذلك أنّك تجد ترجمتين وأكثر من ذلك متّصلة ليس بينها أحاديث . . »(١).

٤ ـ وورد في الجزء السابع من « فتح الباري » شواهد أُخرى منها : أنّ البخاريّ ترك الكتاب مسودّة وتوفّي . . وقال : « أظنّ أنّ ذلك ـ أي الناقصة ـ من تصرّف الناقلين لكتاب البخاريّ »(٢).

٥ ـ كما نجد في الصحيح روايات يرد فيها اسم (محمّد بن إسماعيل البخاريّ) كحلقة في سلسلة الرواة والإسناد ، مثل قوله : « حدّثنا عبيدالله ، وأخبرنا محمّد بن يوسف الفربري ، وحدّثنا محمّد بن إسماعيل البخاري ، قال : حدّثنا عبيد الله بن موسى ، عن سفيان ، قال : إذا قرئ على المحدِّث . . . »(٣). وهذا يدلّ على أنّ من دوّن ذلك وأثبته في الصحيح ، هو شخص آخر غير البخاريّ .

٦ ـ أنّ البخاريّ كان ينقل الحديث بالمعنى ، أي أنّه لم يكن يهتمّ بألفاظ الحديث مع أهمّيتها ، وقد قال : « أحيد بن أبي جعفر ـ والي بخارى » : قال لي محمّد بن إسماعيل يوماً : رُبّ حديث سمعته بالبصرة كتبته بالشام ، ورُبّ حديث سمعته بالشام كتبته بمصر ، فقلت له : يا أبا عبدالله ، بتمامه ؟ فسكت »(٤).

---

(١) مقدّمة فتح الباري : ٥ و ٦.

(٢) فتح الباري ٧ : ٧٣.

(٣) صحيح البخاري ١ : ٢٢.

(٤) مقدّمة فتح الباري : ٤٨٨.

٧ ـ وعن محمّد بن الأزهر السجستاني، قال: «كنت في مجلس سليمان بن حرب والبخاريّ معنا يسمع ولا يكتب، فقيل لبعضهم: ما له لا يكتب؟

فقال: يرجع إلى بخارى ويكتب من حفظه..»[١].

انتقادات ومآخذ على الصحيح

لم تمنع شهرة البخاريّ ومكانته بين رجال الحديث، الكثير من المحقّقين إلى توجيه الانتقادات وتسجيل العديد من المآخذ على صحيحه، وقد كان من أهمّ ما وُجّه إليه من طعون:

١ ـ عن العسقلانيّ: «من نوادر ما وقع في البخاريّ أنّه يُخرّج الحديث تامّاً بإسناد واحد بلفظين..»[٢].

٢ ـ إنّ الذين انفرد البخاريّ بإخراج أحاديثهم دون مسلم، أربعمائة وبضعة وثلاثين رجلاً، المُتكلَّم فيه بالضعف منهم ثمانون رجلاً، والمطعون فيهم من رجاله أربعمائة..

٣ ـ يرى السيّد محمّدرشيد رضا أنّ المشكلة لا تختصّ بصناعة الفنّ ـ أي السند ـ فحسب، بل في المتون أيضاً، حيث قال: «إذا قرأت الشرح «فتح الباري» رأيت له في أحاديث كثيرة إشكالات في معانيها أو تعارضها مع غيرها»[٣].

٤ ـ يقول الدكتور أحمد أمين: «إنّ بعض الرجال الذين روى البخاريّ لهم، غير ثقات، وقد ضعّف الحفّاظ من رجال البخاريّ نحو الثمانين، وفي الواقع

---

(١) مقدّمة فتح الباري: ٤٧٩.

(٢) فتح الباري ١٠: ١٩٣.

(٣) المنار ٢٩: ٤١، عنه: أضواء على السنّة المحمّديّة، محمود أبو رية: ٣٠٢.

هذه مشكلة المشاكل، فالوقوف على أسرار الرجال محال..»[١].

إنّ أحكام الناس على الرجال تختلف كلّ الاختلاف، ولعلّ من أوضح المثل في ذلك عكرمة مولى ابن عبّاس، وقد ملأ الدنيا حديثاً وتفسيراً، فقد رماه بعضهم بالكذب، وبأنّه يرى رأي الخوارج، وبأنّه كان يقبل جوائز الأُمراء، ورووا عن كذبه شيئاً كثيراً، فرووا أنّ سعيد بن المسيّب قال لمولاه ـ برد ـ: لا تكذب عليَّ كما كذب عكرمة على ابن عبّاس، وكذلك أكذبه سعيد بن المسيّب في أحاديث كثيرة[٢].

وقال القاسم: «إنّ عكرمة كذّاب يحدّث غدوةً بحديث يخالفه عشيّةً..»[٣].

وقال ابن سعد: «كان عكرمة بحراً من البحور، وتكلّم الناس فيه، وليس يحتجّ بحديثه..»[٤].

هذا على حين أنّ آخرين يوثّقونه.. فالبخاريّ ترجّح عنده صدقه، فهو يروي له في صحيحه كثيراً، ومسلم ترجّح عنده كذبه فلم يرو له إلّا حديثاً واحداً في الحجّ، ولم يعتمد فيه عليه وحده، وإنّما ذكره تقوية لحديث سعيد بن جبير في الموضوع نفسه[٥].

٥ ـ ويقول محمّدرشيد رضا: «بل ما من مذهب من مذاهب المقلّدة إلّا وأهله يتركون العمل ببعض ما صحّ عند البخاريّ وعند مسلم أيضاً من أحاديث التشريع المرويّة عن كبار أئمّة الرواة، لعلل اجتهاديّة أو لمحض التقليد، وقد أورد المحقّق

---

(١) ضحى الإسلام ٢: ١١٧ و ١١٨.

(٢) الجوهر النقي ٨: ٢٣٤. عمدة القاري ١: ٨. وانظر: التمهيد، ابن عبدالبرّ ٢: ٢٧. العلل، أحمد ٢: ٧٠. التعديل والتجريح ١: ٢٥٤.

(٣) تاريخ دمشق ٤١: ١٠٦. تهذيب الكمال ٢٠: ٢٨٦. سير أعلام النبلاء ٥: ٢٨.

(٤) مقدّمة فتح الباري: ٤٢٥.

(٥) ضحى الإسلام ٢: ١١٧ و١١٨.

ابن القيّم أكثر من مائة شاهد على ذلك في كتابه (أعلام الموقّعين)»[١].

٦ ـ وعن «الانتصار» لابن الجوزي جملة أحاديث لم تأخذ بها الشافعيّة من أحاديث الصحيحين لما ترجّح عندهم ممّا يخالفها، وكذا في بقيّة المذاهب..[٢].

٧ ـ يقول السيّد عبدالصمد شاكر في كتابه «نظرة عابرة إلى الصحاح الستّة» بعد ذكره لعدد من الانتقادات لصحيح البخاريّ: «مَن وقف على المباحث الماضية لا يبقى له شكّ في عدم وجوب العمل بكلّ ما في الصحاح ومنها البخاريّ، بل يطمئنّ بكذب جملة منها، فلا يبقى للمحقّق سوى الاحتياط التامّ، وأمّا المقلّد والعامّي ومدّعي العلم، فله ما تخيّل، بل إنّ صحّة الرواية عند مؤلّف شيء، وصحّة المتن عن النبيّ الأكرم ﷺ شيء آخر، وبينهما بون بعيد، فلا تكن من المغرورين..»[٣].

ويقول: «والذي ظهر لي بالتعمّق في روايات البخاريّ وأحاديثه، أنّ فيه نواقص تضرّ باعتباره وبالاعتماد عليه، أو بحسن تأليفه، منها:

■ لا مناسبة في بعض المواضع بين عناوين الأبواب ورواياتها، كما في غالب كتاب العلم، وكتاب مواقيت الصلاة، وباب (إذا لم يجد ماءً ولا تراباً)، وأمثالها.

■ الأحاديث المكرّرة، سواء بلا مناسبة أو بمناسبة، جزئيّة في كتابه، بلغت حدّاً تشمئزّ منه النفس، ويتنفّر منه الطبع، ولعلّها من خصائص هذا الكتاب وحده، فإنّه ربّما كرّر فيه بعض الأحاديث ثلاث عشرة مرّة، وستّ عشرة مرّة، وتسع عشرة مرّة، بل إلى اثنتين وعشرين مرّة.. ويحتمل أنّ هذا التكرار المملّ المخالف للذوق السليم ليس من صنع المؤلّف، فإنّه مات قبل تدوين كتابه، فتركه مسوّداً، فتصرّف

---

(١) المنار ٢٩: ٥١.

(٢) أضواء على السنّة المحمّديّة: ٣٠٦.

(٣) نظرة عابرة إلى الصحاح الستّة: ٥٧.

فيه المتصرّفون بلا رويّة ، وعليه فيقلّ الاعتماد على الكتاب المذكور ، فإنّ أمانة البخاريّ ووثاقته لا توجدان ، أو لم تثبتا لهؤلاء المتصرّفين .

■ لا يوجد في كتاب التوحيد ـ مثلاً ـ حديث مفيد ، بل كثيراً ما لا يستفاد من روايات البخاريّ معنى مفيداً ، وهذا شيء عجيب ، وكيف يعقل أن تكون جملة كثيرة من أحاديث النبيّ الحكيم الفصيح ﷺ في أُمور تافهة غير مناسبة لمقام النبوّة ، وهو أفضل البشر عقلاً وعلماً وحكمة ؟ !

■ لا معنى لبعض كتب البخاري ، فلاحظ كتاب التمنّي تجد صدق ما قلنا . .

■ إنّ البخاريّ كما هو واضح من صحيحه ، يرى جواز الحذف والتغيير في متون الأحاديث بما يراه مناسباً ، وهذا أمر خطير يسقط اعتبار الكتاب إلى حدّ بعيد رغم اشتهاره واعتماد معظم أهل العلم عليه .

فمن باب المثال : يمكن أن يرجع المحقّق إلى روايات التيمّم الواردة في بحث عمر وعمّار ﵁ وروايات كتاب الأذان ، وقصّة إنكار عمر موت النبيّ ﷺ ، وقصّة منازعة العبّاس وعليّ ، وما قال عمر لهما ، وأمثال ذلك .

ومنه ما رواه عن أبي موسى حيث قال : « سئل النبيّ عن أشياء كرهها ، فلمّا أكثر عليه ، غضب ، ثمّ قال للنّاس : سلوني ما شئتم .

قال رجل : مَن أبي ؟

قال : أبوك حذافة .

فقام آخر فقال : مَن أبي ؟

فلمّا رأى عمر ما في وجهه قال : يا رسول الله ، إنّا نتوب إلى الله عزّ وجلّ » .

وفي رواية أُخرى : « فبرك عمر فقال : رضينا بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمّد نبيّاً ، فسكت » .

أقول : للحديث صدر في بعض الكتب لا أذكره احتراماً لعمر ، ولأجله حذفه

البخاريّ فصار الكلام مجملاً[١].

٨ ـ تعمّد البخاريّ بتر متون الأحاديث، حيث دأب على اقتطاع الجزء الذي يروقه ويتماشى مع توجّهاته، فيقوم بتثبيته وحده دون ذكر بقيّة الحديث، وهذا السلوك واضح في الكثير من المواضع، والأمثلة عليه كثيرة.. ولعلّ أحدها روايته لحديث التيمّم، حيث قال: «جاء رجل إلى عمر بن الخطّاب، فقال: إنّي أجنبت فلم أصب الماء، فقال عمّار بن ياسر لعمر: أما تذكر إنّا كنّا في سفر أنا وأنت، فأمّا أنت فلم تصلّ، وأمّا أنا فتمعّكت فصلّيت..»[٢].

بينما نجد نفس الحديث في «صحيح مسلم» كما يلي: «إنّ رجلاً أتى عمر فقال: إنّي أجنبت فلم أجد ماءً.

فقال: لا تصلّ.

فقال عمّار: أما تذكر يا أمير المؤمنين...»[٣].

فنجد أنّ البخاري قد حذف جواب عمر للسائل لأنه يطعن في علمه..!!

٩ ـ كما أنّ البخاري يكثر من رفع الأسماء من أحاديثه التي قد يكون فيها مطعن أو إساءة لتلك الأسماء، فيعبّر عنها بـ(فلان) أو (قال رجل) أو (جاء رجل)، أمّا إذا اضطرّ لذكر الاسم فإنّه يعمد إلى اقتطاع العبارة التي قد تسيء إليه، ويضع بدلها عبارة «كذا وكذا»، وقد أحصينا هذه الكلمات في الصحيح فوجدنا أنّه قد كرّرها كما يلي:

(فلان) ١٤٠ مرّة

---

(١) نظرة عابرة إلى الصحاح الستّة: ٥٨ ـ ٦٢.

(٢) صحيح البخاري ١: ٨٧.

(٣) صحيح مسلم ١: ١٩٣.

(كذا وكذا) ١٠٨ مرّة

(قال رجل) ٤٢ مرّة

(جاء رجل) ٤٩ مرّة

١٠ ـ إكثاره من رواية الإسرائيليّات والأحاديث التي تشير إلى أفضليّة موسى عليه السلام ويونس بن متّى على نبيّنا الكريم صلى الله عليه وآله.. وقد شكّل هذا الأمر إحراجاً شديداً لمن يعتقد بصحّة كلّ ما في البخاريّ، ممّا اضطرّ بعضهم إلى التعسّف في تأويل تلك الأحاديث أو إلى الإعلان صراحة عن معارضتها، لمخالفتها لما أجمع عليه المسلمون من أفضليّة رسول الله صلى الله عليه وآله على جميع الأنبياء، كما فعل ابن حجر في «فتح الباري» عند تعرّضه لحديث (الصعقة) يوم القيامة، وحديث (المعراج)..

والخلاصة:

فإنّ معرفة شخصيّة البخاريّ، وطبيعة أفكاره، واتّجاهاته العقائديّة، والعوامل التي تحكّمت بإخراج صحيحه بهذا الشكل، لا يمكن أن تتمّ إلّا بمعرفة طبيعته وعناصر شخصيّته، ودراسة شيوخه وعقائدهم وأفكارهم، ومدى نفوذهم أو علاقتهم بالخلفاء الذين عاصروهم، ومدى انسياقهم لمتبنّيات وسياسات أُولئك الخلفاء الفكريّة، وهذا لا يتعلّق بالبخاريّ وحده، وإنّما بجميع مَن ترك آثاراً فكريّة وعقائديّة، وبكلّ مَن كتب تاريخاً وسِيراً، حيث لا يمكن معرفتهم بدقّة ووضوح دون التحقيق والتدقيق في شكل علاقتهم بأجهزة الدولة والخلفاء..

إنّ البخاري وغيره ـ ولا نستثني أحداً من مدوّني الحديث وكتّاب السِّير ـ لم يكونوا إلّا نتاج ـ إن لم نقل أدوات ـ لأُولئك الخلفاء الذين تسلّطوا على رقاب الناس خلال العهدين الأمويّ والعبّاسيّ، والذين اتّسمت فترات حكمهم بالإرهاب والعنف، والاضطهاد الفكريّ، والعداء لعليّ عليه السلام وبنيه الذي وصل إلى حدود إجراميّة وغير معقولة في عهد العديد من هؤلاء الخلفاء ابتداءاً بمعاوية، ومروراً

بابنه الفاجر يزيد، وبالغلماء من آل مروان، وبالمعتوهين والشاذّين من أبناء بني العبّاس، وليس انتهاءاً بالمتوكّل الذي قاد بنفسه تيّاراً ناصبيّاً سخّر له كلّ قوّة وإمكانات الدولة، وعبّر عن أحقاد غير طبيعيّة عندما أقدم على هدم وتدمير قبر الحسين عليه السلام وتسويته بالتراب، وحراثة أرضه وغمرها بالمياه، وحصاره الشديد للمنطقة من أجل منع زيارته، وقتل الزوّار..

ومن المستحيل أن لا يكون لهذه الفترات السوداء المظلمة تأثيرها على شيوخ البخاريّ وعلى البخاريّ نفسه، وعلى طريقته في كتابة صحيحه الذي اعتمد فيه كثيراً على شخصيّات هي من انتاج تلك الفترات، أمثال محمّد بن أبي شيبة، وأخيه عثمان بن أبي شيبة، ومصعب الزبيري، والكثير غيرهم، إضافة إلى الشخصيّات التي أنتجتها الفترات السابقة كأبي هريرة، والمغيرة، والأشعث، وعمرو بن العاص، وبسر بن أرطأة، والكثير غيرهم أيضاً..

خلافاً لنظريّة عدالة جميع الصحابة:

صحيح البخاري
يؤكّد كذب بعضهم على رسول الله ﷺ

قبل الخوض في الأحاديث التي أردنا مناقشتها والتعليق عليها، من تلك التي استبعدنا صدورها عن النبيّ ﷺ لتصادمها مع العقل والواقع، وبرغم ما سقناه من أدلّة على رواج سوق الكذب على رسول الله ﷺ، فإنّنا سنطلب العون من البخاريّ نفسه في إثبات وتأكيد وقوع مثل هذا الكذب في الصدر الأوّل من تاريخ الإسلام، وفي مجتمع الصحابة نفسه الذي كان فيه الكثيرون ممّن لم يتورّعوا عن تزوير الحقيقة..

إنّنا إذ نؤمن بأنّ في صحابة رسول الله مَن كانوا قمماً شوامخ في مجالات العقيدة والجهاد والعلم والتقوى، فإنّنا نؤمن كذلك بأنّ فيهم مَن لم يتمكّن الإيمان من قلبه، ومَن لم يتورّع عن ارتكاب الكذب والآثام.. لأنّنا نرى أنّ الصحبة لوحدها لا تعصم الإنسان من الخطأ والانحراف، فلا نحمّل الصحبة أكثر من واقعها وحقيقتها، فالذي يعصم الإنسان عمق إيمانه وصدق عقيدته وصفاء نيّته وليس صحبته، وعندما يتوفّر لدينا الدليل على قيام أحد معاصري النبيّ ﷺ بالكذب عليه، فإنّنا سندينه ونرفض حديثه، وهذا لا يعني بأيّ حال من الأحوال الإساءة إلى بقيّة الصحابة أو إلى مجتمعهم المتميّز أو الطعن في قيمة الصحبة..

إنّنا نعتقد أنّ صاحب النبيّ هو مَن يلتزم نهجه فلا يحيد عنه، أمّا سواه فنقول عنه أنّه عاصر النبيّ، ولا نقول أنّه صاحبه، وقد كان حريّاً بنا أن نضع للصحبة شروطاً

وقواعد منطقيّة وصحيحة ونطبّقها على الجميع ، فمن انطبقت عليه فهو صاحبه ، ومَن لم تنطبق عليه فلا نبتلى به وبسلوكيّاته ، وبذلك نحمي الصحبة من أن تكون غطاءاً يعتمره البرّ والفاجر ، ونجعلها لا تعني إلّا النخبة من خيار المؤمنين الذين اهتدوا بهدي النبيّ وصانوا صحبتهم له ، وصدقوا العقيدة والدين . .

أمّا وقد وضعوا لها شرطاً سهلاً وغير منطقيّ ، ولا يصحّ اعتماده أو الأخذ به ، وهو أنّ كلّ مَن رآه أو كلّمه ولو لمرّة واحدة أصبح صحابيّاً لا يجوز الاقتراب من حماه أو نقده ، فذلك هو التكلّف والشطط بعينه ، وهو الذي أوقعنا في هذا الخضمّ المتلاطم من المشاكل والمنازعات ، والذي مرّ علينا أحاديث وروايات كان من الصواب رفضها أصلاً وعدم النظر فيها ، ولو كنّا قد فعلنا ذلك لما أُرغمنا على تأويل المنكرات لحفظ كرامة الصحابيّ الذي رواها . .

لقد ورد في صحيح البخاريّ الكثير من الروايات التي دلّت بوضوح على أنّ العديد من الصحابة ـ بالمفهوم السائد للصحبة وليس بمفهومنا لها ـ سوّلت لهم أنفسهم الكذب على رسول الله ﷺ ، وتحريف أقواله ، والإضافة إليها ، والحذف منها ، وفيما يلي نماذج من تلك الروايات ، لعلّها تعطينا صورة نفهم من خلالها كيف جرت الأُمور :

١ ـ قالت أُمّ المؤمنين عائشة : « إنّ النبيّ ﷺ كان يحدِّث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه »(١).

وقولها هذا كناية عن أنّ النبيّ ﷺ كان قليل الكلام ، بل إنّه لا يتكلّم إلّا وقت الضرورات في إيصال حكم ، أو أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر ، أو إرشاد للناس في أمر من أُمور الدين ، مستخدماً أقصر الطرق ، وأقلّ الكلمات في الوصول إلى هدفه ، وهذا ما سنراه جليّاً في الرواية التالية أيضاً .

---

(١) صحيح البخاري ٤ : ١٦٨.

٢ ـ وقالت ـ وهي تكلّم عروة بن الزبير: «ألا يعجبك أبو فلان، جاء فجلس إلى جانب حجرتي يُحدِّث عن رسول الله ﷺ يُسمعني ذلك، وكنت أُسبّح، فقام قبل أن أقضي سبحتي، ولو أدركته لرددت عليه، إنّ رسول الله لم يكن يسرد الحديث كسردكم»[١].

ولا ندري ماذا ستقول أُمّ المؤمنين لو سمعتهم يسردون أحاديث الإسراء والمعراج، وأحاديث الشفاعة، وغيرها من الأحاديث التي تخرج وبشكل كبير عن أُسلوب النبيّ ﷺ وطريقته في الكلام، ممّا سنقف عليه لاحقاً..

٣ ـ كان محمّد بن جبير بن مطعم يحدّث أنّه بلغ معاوية ـ وهو عنده في وفدٍ من قريش ـ أنّ عبدالله بن عمرو بن العاص يُحدِّث أنّه «سيكون ملك من قحطان»، فغضب معاوية «فقام وأثنى على الله بما هو أهله، ثمّ قال: أمّا بعد، فإنّه بلغني أنّ رجالاً منكم يتحدّثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ، فأُولئك جهّالكم. فإيّاكم والأمانيّ التي تُضلُّ أهلها، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ **هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلّا أكبّه الله على وجهه، ما أقاموا الدين**»[٢].

ومع شهادة معاوية هذه، نجد أنّ أبا هريرة ـ وهو صنو عبدالله بن عمرو بن العاص ـ يحدّث أيضاً أنّ النبيّ ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتّى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه**»[٣].

في حين نستمع إلى عبدالله بن عمر بن الخطّاب وهو يؤكّد ما قاله معاوية حين روى عن النبيّ ﷺ قوله: «**لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم إثنان**»[٤].

---

(١) صحيح البخاري ٤: ١٦٨.

(٢) صحيح البخاري ٤: ١٥٥.

(٣) صحيح البخاري ٤: ١٥٩.

(٤) صحيح البخاري ٤: ١٥٥ و ٨: ١٠٥.

ولا يخفى أنّه قد أصبح لدينا من خلال هذه النصوص فريقان متعارضان ، أحدهما فيه عبدالله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة ، والثاني فيه معاوية وعبدالله ابن عمر بن الخطّاب ، الفريق الأوّل يقول أنّ النبيّ أخبر بأنّ الأمر سيؤول إلى رجل من قحطان ، والفريق الثاني يؤكّد أنّ النبيّ أخبر بأنّ الأمر سيظلّ في قريش ، وحيث أنّ القولين متعارضان ، فلا بدّ أن يكون أحدهما صادقاً والآخر كاذباً .. ومن الطبيعيّ أن يكون صاحب القول الكاذب كاذباً على رسول الله بغضّ النظر عن اسمه وعنوانه ..

وبالمناسبة : فإنّنا وجدنا قبل قليل أنّ معاوية يكافئ على وضع الحديث على لسان النبيّ ﷺ في أُمور تخدم سلطته وتدعم سياسته ، بالمناصب والأموال والضياع ، وهنا وجدناه أيضاً ينتفض حميّةً في أمر مشابه ، ولنفس السبب الأوّل الذي هو حماية هذه السلطة وتلك السياسة ، لأنّه يخطّط لإبقاء الحكم في أيدي بنيه وأحفاده ، وحين يأتي مَن يروي له حديثاً بأنّ هذا الحكم سيذهب إلى أحد أبناء قحطان ، فلا بدّ له أن يغضب ويثور دفاعاً عن كرسيّه ، وليس عن السنّة والحديث النبويّ الشريف ..

أمّا بالنسبة إلينا كمسلمين ، فمن يخبرنا الآن أيّ الفريقين هو الصادق وأيّهما الكاذب .. ؟ ! وإذا كان صدقهما معاً ممتنعاً عقلاً ، فإنّ كذبهما معاً غير ممتنع وجائز .. فمن يدري ؟ ؟

٤ ـ وبقليل من الانتباه سنربط بين الرواية السابقة والرواية الآتية ، حيث سنتوصّل إلى نفس النتيجة التي نروم إثباتها :

قال معاوية : « سمعت النبيّ ﷺ يقول : **لا يزال من أُمّتي أُمّة قائمة بأمر الله ، لا يضرّهم مَن خذلهم ، ولا مَن خالفهم ، حتّى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك** .

قال عمير : فقال مالك بن يُخامر : قال معاذ : وهم بالشام .

فقال معاوية: هذا مالك يزعم أنّه سمع معاذاً يقول: وهم بالشام »[١].

فمعاوية هذا يسوق الحديث على افتراض صحّته إلى حيث يستفيد هو منه، مع كون مضمون الحديث لا يدلّ عليه بأيّ حال من الأحوال، فإنّه قد افترض نفسه وجماعته وأهل بيته هم الأمّة القائمة بأمر الله، ولن يضرّهم مَن خذلهم وخالفهم، ونحن نعلم الآن أن لا معاوية ولا حزبه ولا قومه قد قاموا بأمر الله، بل على عكس ذلك أنّهم عملوا على تقويض أمر الله وتشويه معالم دينه، ومع ذلك فإنّ خذلانهم ومخالفتهم ـ وهم أرباب السلطة ـ للأُمّة التي قامت حقّاً بأمر الله لم يضرّانها شيئاً..

وبصدد مداخلة عمير بأنّ معاذاً علّق عند سماعه الحديث بقوله: « وهم بالشام » أرى ـ وبقناعة كاملة ـ بأنّ معاذاً قالها على سبيل التهكّم والتلميح إلى وضع الحديث؛ لأنّه عرف حالاً المغزى منه، ولكنّه لكي يكتمل ويأتي أُكله لا بدّ من إضافة هذه الكلمة عليه ليصبح مفضوحاً ومكشوفاً.. ولذلك سارع معاوية إلى التغطية والتمويه بتأكيد ما قال معاذ وكأنّه كان جادّاً فيه..

٥ ـ ذكر عند عائشة أنّ ابن عمر حدّث عن النبيّ ﷺ أنّه قال: **إنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ في قَبْرِهِ بِبكاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ، فَقالَتْ: إِنَّما قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: إِنَّهُ لَيُعَذَّبُ بِخَطيئَتِهِ وَذَنْبِهِ، وَإِنَّ أَهْلَهُ لَيَبْكُونَ عَلَيْهِ. ثُمَّ قالَتْ: وَذاكَ مِثْلُ قَوْلِهِ: إِنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قامَ عَلَى الْقَليبِ وَفِيهِ قَتْلىٰ بَدْرٍ مِنَ الْمُشْرِكينَ، فَقالَ لَهُمْ ما قالَ: إِنَّهُمْ لَيَسْمَعُونَ ما أَقُولُ، وَهُوَ إِنَّما قالَ: إِنَّهُمْ الْآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ ما كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ حَقٌّ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ ﴾[٢] ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾[٣]**»[٤].

---

(١) صحيح البخاري ٤: ١٨٧ و ٨: ١٨٩.

(٢) النمل ٢٧: ٨٠.

(٣) فاطر ٣٥: ٢٢.

(٤) صحيح البخاري ٥: ٩.

٦ ـ وهذا سالم بن عبدالله بن عمر يتّهم رافعاً بالكذب على رسول الله ﷺ ، فقد روى الزهريّ عن سالم بن عبدالله أنّه أخبره : « إنّ رافع بن خديج أخبر عبدالله بن عمر أنّ عمّيه ـ وكانا شهدا بدراً ـ أخبراه : أنّ رسول الله ﷺ نهى عن كراء المزارع .

قلت لسالم : فتكريها أنت ؟

قال : نعم ، إنّ رافعاً أكثرَ على نفسه »(١) .

٧ ـ ويلمّح البخاريّ إلى كذب أبي هريرة على النبيّ ﷺ دون تصريح ، حين علّق على قوله : « صلّيت مع النبيّ في غزوة نجد صلاة الخوف » بقوله : « وإنّما جاء أبو هريرة إلى النبيّ ﷺ أيّام خيبر »(٢) ، أي أنّه كذب بادّعائه حضور صلاة الخوف مع النبيّ في نجد ، لأنّه أصلاً لم يكن قد ورد على النبيّ بعد ؛ لأنّ غزوة نجد كانت قبل خيبر . .

٨ ـ روى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال : « **لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامّة**(٣) ، ثمّ عاد فروى أنّ النبيّ ﷺ قال : **لا يوردنّ ممرض على مُصحّ** .

قال أبو سلمة : فقلنا له : ألم تُحدّث أنّه لا عدوى ؟ فرطن بالحبشيّة ! »(٤) .

٩ ـ روى عامر بن سعد بن أبي وقّاص ، عن أبيه قوله : « ما سمعت النبيّ ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض أنّه من أهل الجنّة إلّا لعبدالله بن سلام »(٥) .

ولكن بعد أربعة أجزاء من البخاريّ نجد الرواية التالية بسنده عن محمّد بن سيرين ، حيث قال : « قال قيس بن عبّاد : كنت في حلقة فيها سعد بن مالك

---

(١) صحيح البخاري ٥ : ١٨ .

(٢) صحيح البخاري ٥ : ٥٤ .

(٣) صحيح البخاري ٧ : ١٧ .

(٤) صحيح البخاري ٧ : ٣١ .

(٥) صحيح البخاري ٤ : ٢٢٩ و ٧ : ١٦٠ .

وابن عمر ، فمرّ عبدالله بن سلّام فقالوا : هـذا رجـل مـن أهـل الجـنّة .. فـقلت له : إنّهم يقولون كذا وكذا .

قال : سبحان الله ، ما كان ينبغي لهم أن يقولوا ما ليس لهم به عـلم ، إنّـما رأيت كأنّما عمود قد وضع في روضة خضراء فنُصب فيها وفي رأسها عروة ، وفي أسفلها منصف ، والمنصف وصيف ، فقيل : إرقه . فرقيت حتّى أخذت بالعروة ، فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال رسول الله : يموت عبدالله وهو آخذ بالعروة الوثقى »(١) .

وهكذا نلاحظ كيفيّة انقلاب حلم رآه عبدالله بن سلّام في منامه إلى حديث نبويّ يقرّر أنّه من أهل الجنّة .. وقس على ذلك ، فإنّك سترى عجباً ..

١٠ ـ قال أنس بن مالك : « ما أعرف شيئاً ممّا كان على عهد النبيّ ﷺ .

قيل : الصلاة ؟

قال : أليس ضيّعتم ما ضيّعتم فيها ؟ »(٢) .

١١ ـ سأل الزهري أنس بن مالك إذ وجده يبكي بدمشق : ما يبكيك ؟

فقال : لا أعرف شيئاً ممّا أدركت إلّا هذه الصلاة ، وهذه الصلاة قد ضيّعت »(٣) .

١٢ ـ قال الأعمش : « أنّه سمع سالماً يروي عن أُمّ الدرداء قولها : دخل علَيَّ أبو الدرداء وهو مغضب ، فقلت : ما أغضبك ؟

فقال : والله ما أعرف من أُمّة محمّد ﷺ شيئاً إلّا أنّهم يصلّون جماعة »(٤) .

١٣ ـ وهذه بعض الأقوال التي نقلها ابن قتيبة الدينوري ، نرى أنّ لها علاقة وثيقة بما نحن بصدده :

---

(١) صحيح البخاري ٨: ٧٥.

(٢) صحيح البخاري ١: ١٣٤.

(٣) صحيح البخاري ١: ١٣٤.

(٤) صحيح البخاري ١: ١٥٩.

قال ابن قتيبة : «كان مغيرة لا يعبأ بحديث سالم بن أبـي الجـعد ، ولا بـحديث خلّاس ، ولا بصحيفة عبدالله بن عمرو بن العاص ، وقال مغيرة : كانت لعبدالله بن عمرو صحيفة تسمّى الصادقة ، ما تسرّني أنّها لي بفلسين ، وقال شعبة : لأن أزنـي كذا وكذا زنية أحبّ إليّ من أن أُحدّث عن أبان بن أبي عيّاش »[١] .

وإليك صورة أُخرى أعـجب وأغـرب مـن كـلّ ذلك ، ولا نـدري كـيف قـبلوها وصدّقوا بها ، وهي مجرّد خدعة واضحة واحتيال صريح . . فقد يُحدّث الرجل منهم أصحابه بحديث عن رسول الله ﷺ ، ثمّ ينسى ذلك ، وعندما يعرض عليه ما كان رواه ، ينكره ، فيقال له : أنت رويته عن أبيك ، عن فلان ، وقد سمعناه منك ، فيتظاهر بالورع ويقبل الحديث ، ثمّ يعود فيرويه بإسناد جديد فيقول : « حدّثني فلان عنّي ، عن أبي ، عن فلان » ! ! فانظر واعجب فإنّ الذي تراه ما هو إلّا إحدى صور الانفصام .

وخذ هذا المثال لكي تصدّق : قال ابن قتيبة في معرض دفاعه عن المحدّثين : « وربّما نسي الرجل منهم الحديث قد حدّث به وحُفظ عنه ، فيُذاكر به فلا يعرفه ، ويُخبر بأنّه قد حدّث به ، فيرويه عمّن سمعه منه **ضنّاً بالحديث الجيّد ورغـبة فـي السنّة** ،كرواية ربيعة بن أبي عبدالرحمن ، عن سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة : أنّ رسول الله ﷺ قضى باليمين مع الشاهد .

قال ربيعة : ثمّ ذاكرت سهيلاً بهذا الحديث فلم يحفظه ، وكان بعد ذلك يـرويه عنّي عن نفسه ، عن أبيه ، عن أبي هريرة »[٢] .

ويسوق ابن قتيبة عدّة أمثلة أُخرى على ذلك ، فراجع وانـظر إلى تـبريره تـزدد يقيناً بتعمّد الكذب ، فهو يبرّر ذلك السلوك بأنّه « **ضنّاً بالحديث الجيّد ، ورغبة في السنّة** » ، وهذا معناه أنّ ذلك الحديث لم يروه أحد آخر ليتسنّى أخذه عن طريقه ،

---

(١) تأويل مختلف الحديث : ٧٤.

(٢) تأويل مختلف الحديث : ٧٣.

وأنّ هذا الذي رواه ثمّ نسيه هو الطريق الوحيد لإسناد الحديث، فإذا أصرّ على إنكاره فقد ضاع الحديث وخسروه، وإذا أعاد روايته فسيكون موضع شكّ لأنه صرّح بإنكاره، إذن فلا بدّ من حيلة للاحتفاظ به، فكانت هذه الحيلة هي الحلّ الأمثل..

وسنكتفي بهذا القدر، مع وجود كثير غيره يصلح للاستدلال على وقوع الكذب على رسول الله ﷺ منذ البداية، ومن قِبل أُناس يفترض فيهم الصدق والأمانة، لأنهم عاصروه وسمعوا منه مباشرة، وقد ظهرت خطورة ما فعلوه، وتأثيره في المجتمع الإسلاميّ فيما سمعته من شهادات على أنّ الدين لم يعد كما كان عليه أيّام الرسول الكريم، وأنّ السنّة المحمّديّة قد تعرّضت للتشويه والتحريف.

فأنس بن مالك لم يعد يعرف شيئاً ممّا يحدّث في زمانه غير الصلاة، وهي الأُخرى قد فعلوا بها ما فعلوا، وأبو الدرداء لم يعد يعرف من أُمّة محمّد إلّا أنّهم يصلّون جماعة.

ومن الواضح أنّ المقصود بكلامه هو (الجماعة) وليس (الصلاة)، وذلك تأكيد لقول أنس بتضييع الصلاة، مع أنّ العهد برسول الله قريب.. فإذا كان هؤلاء الأوّلون قد ضيّعوا كلّ شيء حتّى الصلاة، فقد عوّضهم الآخرون بإضافة أشياء كثيرة بدلاً من الذي ضاع، ولكن على سنّة السلطان لا سنّة رسول الله ﷺ..

نظرة سريعة على بعض رجال البخاريّ

لا بدّ من إلقاء نظرة سريعة على بعض رجال البخاريّ لغرض التعرّف على طريقته في انتقاء رجاله والتعامل معهم، والوقوف على المنهج الذي طبّقه عليهم، وهل كان دقيقاً وصادقاً في التعامل معهم حسب الشروط والضوابط التي اختطّها لنفسه، وتعهّد بالالتزام بها ؟

وهل فعلاً انتقى أوثقهم وأصدقهم وأكثرهم ورعاً وتقوى، أم أنّ الشروط التي اشترطها كانت مجرّد شعارات فضفاضة، وإنّه اعتمد على رجال فيهم عدد كبير ممّن لا تنطبق عليهم تلك الشروط ؟

لقد أُحيط صحيح البخاريّ بهالة من القدسيّة بلغت مراتب الغلوّ من قِبل آلاف ـ بل ملايين ـ العلماء والمحدّثين وعامّة الناس على امتداد العصور، ووضعت رواياته في أعلى مراتب الصحّة، واعتبر رجاله من أوثق وأصدق الرجال على وجه الأرض، حتّى قال فيهم الشيخ أبو الحسن المقدسي: «كلّ مَن روى عنه البخاريّ فقد جاز القنطرة»[(١)]..

ومع ذلك لم تستطع كلّ تلك القدسيّة أن تحمي الصحيح من توجيه الطعون إلى الكثير من أحاديثه من حيث المتن أو السند، فقد دوّن التاريخ للعديد من رجال البخاري سلوكاً ومواقف ستجعلهم غير قادرين على اجتياز القنطرة.. كما عجزت الكثير من أحاديثه عن اجتياز عقل المسلم الواعي العارف بدينه، وهذا ما سيجعله معرَّضاً بشكل دائم إلى النقد والانتقاد ما دام منطوياً على أمثال تلك النصوص، ومحمولاً على أكتاف أمثال هؤلاء الرجال..

---

(١) نقل عنه في الكشف الحثيث: ١١٢.

قال العراقي في شرح ألفيّته ـ في مقام الردّ على مَن قال: أنّ من شرط البخاريّ أنّه لا يُخرّج إلّا عن الثقة حتّى ينتهي إلى الصحابيّ ـ: «هذا القول ليس بجيّد، لأنّ النسائي ضعّف جماعة أخرج لهم الشيخان».

وقال البدر العيني: «في الصحيح جماعة جرّحهم بعض المتقدّمين».

وجاء في العلم الشامخ: «في رجال الصحيحين من صرّح كثير من الأئمّة بجرحهم، وتكلّم فيهم مَن تكلّم بالكلام الشديد».

وقال الشيخ أحمد محمّد شاكر في شرحه لألفيّة السيوطيّ: «وقد وقع في الصحيحين كثير من رواية بعض المدلّسين، والتدليس[١] في الرواية من الأسباب الموجبة لضعف الراوي وعدم وثاقته؛ لأنّ التدليس في واقعه يرجع إلى الكذب والإغراء».

وقد قال شعبة بن الحجّاج ـ إمام أهل الجرح والتعديل ـ: «لأن أزني أحبّ إليّ من أن أُدلّس، إنّ التدليس أضرّ من الكذب».

ونصّ الكثير من الفقهاء والمحدّثين ـ منهم الشافعي ـ على عدم قبول رواية المدلّس مطلقاً.. ومهما كان الحال، فقد روى البخاريّ عن جماعة من الخوارج والنواصب والقدريّة والمرجئة، وغيرهم ممّن وصفهم المحدّثون والفقهاء بالمبتدعة[٢].

وبعد كلّ هذا:

لا ندري كيف ستكون رواية البخاريّ عن بعض هؤلاء دليلاً أو سبباً لجوازهم

---

(١) التدليس في الرواية هو أن يروي الراوي عمّن عاصره وهو لم يسمع منه فعلاً، بقصد إيهام الغير أنّه قد سمع منه، كما لو روى بلفظ «سمعت فلاناً» أو «قال لي فلان» وهو لم يسمع منه أو يراه.

(٢) دراسات في الحديث والمحدّثين، هاشم معروف الحسني: ١٦٥.

على القنطرة ؟!

وكيف، ولماذا ستمحى ذنوبهم وأكاذيبهم بمجرّد اعتماد البخاريّ عليهم ؟

وما هي القوّة التشريعيّة للبخاريّ حتّى يصبح مَن يزكّيه غير خاضع لأحكام وتشريعات الإسلام فيما يتعلّق بالعمل والسلوك ؟

أليس في ذلك مبالغة غير مبرّرة ولا تستند إلى دليل ؟!

إنّ هذه المبالغات بالبخاريّ وبرجاله هي في مقدّمة ما اضطرّنا إلى العمل على استعراض بعضٍ منهم للوقوف على مدى واقعيّة تلك التهويلات والتهويشات، فإذا ما ثبت لدينا أنّ هؤلاء الرجال لا تنطبق عليهم شروط الوثاقة والأمانة، أصبح القول بجوازهم القنطرة قولاً فارغاً ولا يعتدّ به، وأصبحت الروايات التي نقلوها كريشة في ريح عاصف.. ولم يعد لصحيح البخاريّ تلك القوّة والمتانة التي قيلت عنه، ممّا يجعله كغيره من كتب الحديث لا يجوز إطلاق مصطلح (الصحيح) عليه؛ لأنّ ذلك يوهم بصحّته المطلقة وهو ليس كذلك..

١ ـ أبو هريرة

وهو أوّل راوية اتّهم في الإسلام[١]، ومن أوائل من اشتهر بالتدليس، وقد اعتمد عليه البخاريّ أكثر من جميع الصحابة، وروى عنه كلّ ما قاله مهما بلغت نكارته، وسنأتي على بعض ما رواه لاحقاً..

قال ابن قتيبة: «كان أبو هريرة يقول: قال رسول الله كذا، وإنّما سمعه من غيره».

ونقل عن النظّام أنّه «أكذبه عمر وعثمان وعليّ وعائشة»، وروى عنه عدداً من مناكيره[٢]

---

(١) أضواء على السنّة المحمّديّة: ١١٣.

(٢) تأويل مختلف الحديث: ٢٧.

وذكر الذهبي في «سير أعلام النبلاء»[١] أنّ شعبة بن الحجّاج قال: كان أبو هريرة مدلّساً.. وورد في «البداية والنهاية»[٢] أنّ يزيد بن هارون سمع شعبة يقول فيه: ويروي ما سمعه من كعب الأحبار ومن رسول الله ﷺ، ولا يميّز بين هذه وهذا، وعندما يتصدّى له أحد بالسؤال ويحقّق معه في الحديث الذي ينسبه لرسول الله ﷺ يتراجع أحياناً ويقول: أخبرني به مخبر، ولم أسمعه من رسول الله.

وبلغ عائشة أنّه يروي عن الرسول أنّه سمعه يقول: مَن أصبح جُنباً فلا صوم له، فأنكرت عليه وقالت له: متى سمعت رسول الله يقول ذلك؟

فقال لها ـ كما ورد في رواية البخاريّ وابن سعد وابن كثير ـ: لقد شغلك عن حديث رسول الله ﷺ المرآة والمكحلة والخضاب. فأصرّت على إنكارها عليه والتشهير به، وروت عن الرسول بأنّه كان يدركه الفجر وهو جنب من غير احتلامٍ، فيغتسل ويصوم، فتراجع أبو هريرة بعد ذلك، وقال: إنّها أعلم منّي، إنّي لم أسمعه من رسول الله وإنّما سمعته من الفضل بن العبّاس..

قال ابن قتيبة: «لقد استشهد أبو هريرة بالفضل بن العبّاس بعد موته، ونسب الحديث إليه ليوهم الناس بأنّه قد سمعه منه»[٣].

وقال: «إنّ أبا هريرة روى حديثاً في المشي في الخفّ الواحد، فبلغ عائشة، فمشت في خفّ واحد وقالت: لأُخالفنّ أبا هريرة».

وروى أنّ الكلب والمرآة والحمار تقطع الصلاة، فقالت عائشة (رضي الله عنها): ربّما رأيت رسول الله ﷺ يصلّي وسط السرير وأنا على السرير معترضة بينه وبين القبلة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢: ٦٠٨، وفيه: «يدلّس» بدل «مدلّساً».

(٢) البداية والنهاية ٨: ١١٧ و ١١٨.

(٣) دراسات في الحديث والمحدّثين: ١٦٦ و ١٦٧.

قال: وبلغ عليّاً أنّ أبا هريرة يبتدئ بميامنه في الوضوء وفي اللباس، فدعا فتوضّأ وبدأ بمياسره، وقال: لأُخالفنّ أبا هريرة، وكان من قوله: حدّثني خليلي، وقال خليلي، ورأيت خليلي، فقال له عليّ: متى كان النبيّ خليلك يا أبا هريرة؟![١]

ولم يجد الحافظ الذهبي ما يدافع به عن المدلّسين، فتعسّف محاولاً تخفيف التهمة بعد ثبوتها، إذ قال: «التدليس من الصحابة كثير، إلّا أنّه لا يضرّ، ولا عيب فيه»[٢]، وهذه مكابرة وعزّة بالإثم، لأنّ جميع علماء المسلمين اعتبروا التدليس من العيوب التي لا تقلّ خطراً عن الكذب، وربّما كانت أخطر منه، وقد عدّه علماء الجرح والتعديل سبباً كافياً لتضعيف الرواية وسقوطها عن درجة الاعتبار.. هذا بالإضافة إلى انفراد أبي هريرة برواية المناكير ممّا سنعرض له في هذا البحث..

والخلاصة: إنّ أبا هريرة أشهر من أن نتحدّث عنه، فقد أُلّفت فيه الكتب[٣]، وعقدت حوله البحوث، وقد أقصاه النبيّ ﷺ إلى البحرين، وضربه الخليفة عمر ونهاه عن رواية الحديث، وهدّده الخليفة عثمان بالنفي إلى (دوس) مسقط رأسه إذا سمعه يحدّث عن رسول الله ﷺ، وقال فيه الإمام عليّ عليه السلام: «**لم أرَ أكذب على رسول الله من هذا الدوسيّ**»[٤].

«كما ثبت أنّه لم يبدُ نجمه المنطفئ، ولم يظهر شخصه المختفي، إلّا في العهد الأمويّ، الذي استظلّ بظلّه، وبلغ رغد العيش من رفده، ولم تكثر أحاديثه

---

(١) تأويل مختلف الحديث: ٢٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢: ٦٠٨.

(٣) لم ينشغل الكتّاب بأحد من رواة الحديث مثلما انشغلوا بأبي هريرة، ولعلّ أبرز الكتب التي كشفت كوامن شخصيّته، وتحدّثت عنه بشكل علميّ وموثّق كتاب (أبو هريرة) للإمام عبدالحسين شرف الدين و (أبو هريرة في التيّار) للعلّامة الشيخ عبدالله السبيتي و (أضواء على السنّة المحمّديّة) و (شيخ المضيرة) للشيخ محمود أبو رية.

(٤) شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٤. الإيضاح، الفضل بن شاذان: ٥١٨.

إلّا بتأييده، وقد كان قبلها من المغمورين»[١].

وستجد في ثنايا البحث الكثير الكثير ممّا سيلقي الضوء على شخصيّة هذا الراوية العجيب الذي ابتلي به الإسلام والمسلمون، حيث ستعرف ما سبّبته رواياته وأحاديثه من اضطراب في حياة المسلمين وعقائدهم.. وقد أفردنا له فصلاً خاصّاً في نهاية البحث جعلناه فيه يتحدّث عن نفسه ممّا سيلقي الضوء بشكل أكبر عليه..

٢ـ عكرمة

هو مولى عبدالله بن العبّاس، وقد تعرّض إلى أسوأ الاتّهامات وأعنف الهجمات من المتقدّمين على البخاريّ، والمتأخّرين عنه، وقد كان من أهمّ ما اتّهم به:

■ الكذب: فقد اتّهموه بأنّه كان يكذب في الحديث، وينسب ذلك إلى عبدالله بن عبّاس، وقد ورد عن محمّد بن سيرين، وسعيد بن المسيّب، وعطاء، ويحيى بن سعيد الأنصاري، ومالك بن أنس، والقاسم بن محمّد، وغيرهم أنّه كان من الكذّابين المعروفين، وقد حبسه عليّ بن عبدالله بن عبّاس في بيت الخلاء لأنّه أسرف في الكذب على أبيه، وقال سعيد بن المسيّب لغلامه: لا تكذب علَيَّ كما كذب عكرمة على عبدالله..

■ إنّه كان يعتنق فكرة الخوارج، ويدعو إليها في أفريقيا وغيرها، وانتشرت في تلك البلاد بسببه، وقد روى الحاكم في «تاريخ نيسابور»، قال: «كنت قاعداً عند عكرمة فأقبل مقاتل بن حيّان وأخوه، فقال له مقاتل: يا أبا عبدالله، ما تقول في نبيذ الجرّ؟

فقال عكرمة: هو حرام.

قال: ما تقول فيمن شربه؟

---

(١) شيخ المضيرة أبو هريرة: ١١ و ١٢.

قال : أقول إنّه كافر ».

وقال أبو سعيد بن يونس في « تاريخ الغرباء » : وبالمغرب إلى وقتنا هذا قوم على مذهب الأباضيّة يعرفون بالصفريّة ، يزعمون أنّهم أخذوا عن عكرمة .

وأكّد حقيقة اعتناقه لفكرة الخوارج كلّ من : يحيى بن بكير ، وخالد بن أبي عمران الحصريّ ، ومصعب الزبيري ، وأحمد بن حنبل ، كما دافع عنه جماعة من المحدّثين كان من أشدّهم حماساً له ابن حجر في « مقدّمة فتح الباري » بدافع واحد فقط هو أنّ البخاريّ يعتمد عليه في الصحيح ويكثر من الرواية عنه(١) .

■ إنّه كان يساير الأُمراء ، ويقف على أبوابهم طمعاً في جوائزهم ، ومَن كانت هذه حاله يضطرّ إلى مجاراتهم وتفويض أعمالهم . .

ولا بدّ لنا من ملاحظة عابرة هنا ، فها نحن نرى الحفّاظ والمحدّثين وهم يطعنون فيمن كان يساير الحكّام ويطمع في جوائزهم ، ولكنّنا لا نراهم يطعنون في الحكّام أنفسهم أو فيمن كان يشاركهم في الحكم والظلم والبغي وقتل الأبرياء ، كعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، والأشعث بن قيس ، ومروان بن الحكم ، وبسر بن أرطأة ، وأمثالهم بالعشرات ممّن روى عنهم البخاريّ في صحيحه ، ولم يجرؤ أحد من النقّاد أن يتعرّض لهم بنقد أو تجريح . .(٢) .

٣ـ عروة بن الزبير

هو أحد الحاقدين على عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذين كانوا يروون فيه الأكاذيب إرضاءاً لسيّدهم معاوية بن أبي سفيان ، فقد روى عنه الزهريّ أنّ عروة بن الزبير حدّثه بأنّه سمع عائشة تقول : «كنت عند رسول الله صلى الله عليه وآله إذ أقبل عليّ والعبّاس ،

---

(١) دراسات في الكافي والصحيح للبخاري : ١٥٩ و ١٦٠ .

(٢) المصدر السابق : ١٦١ .

فقال النبيّ: يا عائشة، إنّ هذين يموتان على غير ملّتي ـ أو قال: ديني ـ».

وروى عنها أنّها قالت: «كنت عند رسول الله ﷺ فقال: يا عائشة، إنّ سرّك أن تنظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين، فنظرت وإذا بعليّ والعبّاس قد أقبلا علينا»[(١)]!!

وقد ذكر ابن أبي الحديد في «شرح النهج» عن جرير بن عبدالحميد، عن محمّد ابن شيبة، قال: «شهدت مسجد المدينة فإذا الزهريّ وعروة بن الزبير جالسان يذكران عليّاً عليه السلام، فنالا منه، فبلغ عليّ بن الحسين ذلك، فجاء حتّى وقف عليهما وقال: **أمّا أنت يا عروة فإنّ أبي حاكم أباك إلى الله فحكم لأبي على أبيك، وأمّا أنت يا زهريّ، فلو كنت بمكّة لأريتك بيت أبيك**..

وإنّ عاصم بن أبي عامر البجليّ حدّث عن يحيى بن عروة أنّه قال: «كان أبي إذا ذكر عليّاً نال منه»[(٢)].

وقد أكثر البخاريّ من الرواية عنه وعن ولده هشام بن عروة الذي روى عن أبيه، وورث عنه النصب والعداء الشديد لعليّ وأهل بيته.

وبالمناسبة: فإنّنا نلاحظ أنّ اتّهام أحد الرواة ببغض أحد الخلفاء الثلاثة يجعله كافراً وزنديقاً ومردود الرواية، أمّا إذا كان مبغضاً لعليّ فإنّ ذلك لن يقدح بإسلامه ولا بعدالته، وأنّ البخاريّ سيروي له وسيجعله يجتاز القنطرة!! وليس فيهم مَن يلتفت إلى قول رسول الله ﷺ الذي يرويه جميعهم: «**يا عليّ، لا يحبّك إلّا مؤمن، ولا يبغضك إلّا منافق**»[(٣)].

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٦٣ و ٦٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ٤: ١٠٢.

(٣) مسند أحمد ١: ٩٥. سنن الترمذي ٥: ٣٠٦، الحديث ٣٨١٩. سنن النسائي ٨: ١١٦. فتح الباري ١: ٦٠.

وهكذا فإنّ مَن يسميّه النبيّ منافقاً ، هو عندهم عدلاً ومن الثقات ، وما ذلك إلّا عناداً لله ورسوله . . وإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

٤ - حريز بن عثمان

هو أحد المتعصّبين والمبغضين لعليّ وبنيه عليهم السلام ، وجاء في المجلّد الأوّل من « شرح النهج » أنّ حريز بن عثمان هذا كان ينتقص عليّاً ويبغضه ، ويروي عنه أخباراً مكذوبة ، وقد قيل ليحيى بن صالح الوحاضي : لقد رويت عن مشايخ من نظراء حريز بن عثمان ، فما بالك لا تحمل عنه ؟

قال : أتيته فناولني كتاباً ، فإذا فيه : حدّثني فلان عن فلان أنّ النبيّ ﷺ لمّا حضرته الوفاة أوصى أن تقطع يد عليّ بن أبي طالب ، فرددت الكتاب ولم استحلّ أن أروي عنه شيئاً »[(١)].

وقد ذُكِر عنه أنّه كان إذا دخل المسجد ليصلّي فيه لا يخرج منه حتّى يلعن عليّاً سبعين مرّة[(٢)].

وورد عن إسماعيل بن عيّاش أنّه قال : « رافقت حريزاً من مصر إلى مكّة فجعل يسبّ عليّاً ويلعنه ، ثمّ قال لي : هذا الذي يرويه الناس أنّ النبيّ قال لعليّ : **أنت منّي بمنزلة هارون من موسى** حقّ ، ولكن أخطأ السامع .

قلت : فما هو ؟

قال : إنّما هو أنت منّي بمكان قارون من موسى »[(٣)].

وجاء عنه أنّه قال : « يا أهل العراق ، أنتم تحبّون عليّاً ونحن نبغضه ، ولمّا سألوه

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٧٠ و ٧١.

(٢) تاريخ دمشق ١٢: ٣٤٩.

(٣) تاريخ بغداد ٨: ٢٦٢. تاريخ دمشق ١٢: ٣٤٩. تهذيب الكمال ٥: ٥٧٧.

عن سبب ذلك قال: إنّه قتل أجدادي»[١].

وحريز هذا هو أحد المعتمدين الموثوقين لدى البخاريّ!!

٥ ـ أبو بردة بن أبي موسى الأشعري

وهو أحد المغالين في بغض عليّ عليه السلام، ورث بغضه عن أبيه، وقد ذكر عبدالرحمن بن جندب أنّ أبا بردة قال لزياد بن أبيه: أشهد أنّ حجر بن عديّ قد كفر بالله كفرة أصلع، يعني أنّه أخذ الكفر من عليّ.

وروى عبدالرحمن المسعوديّ عن ابن عيّاش المنتوف أنّه قال: «سمعت أبا بردة يقول لأبي العادية الجهني ـ قاتل عمّار بن ياسر ـ: أنت قتلت عمّاراً؟

قال: نعم. فتناول يده وقبّلها ثمّ قال له: لا تمسُّك النار أبداً»![٢].

وأبو بردة هذا من أهمّ وأبرز رجال البخاريّ!

٦ ـ محمّد بن شهاب الزهريّ

هو أحد علماء التابعين، توفّي سنة **١٢٢**هـ، كانت صِلاته بقصور الأمويّين وثيقة جدّاً، وتولّى لهم القضاء، فأغدقوا عليه من عطائهم وهباتهم، والتاريخ خير شاهد على أنّ الحكّام الأمويّين لم يقرّبوا منهم من رجال العلم إلّا مَن اشتروا دينه وذمّته، وكان مؤيّداً لهم، مدافعاً عن سلوكهم، مقرّاً بأنّهم خلفاء شرعيّين لرسول الله صلى الله عليه وآله..

وقد أورد اليعقوبي في تاريخه قضيّة لو كانت هي وحدها كلّ ما سُجّل على الزهريّ، لكانت قاصمة الظهر له ولمناصريه، فقد ذكر أنّ عبدالملك بن مروان لمّا منع الناس من الحجّ إلى مكّة إبّان سيطرة ابن الزبير على الحجاز، ضجّ الناس

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٧٠.

(٢) شرح نهج البلاغة ٤: ٩٩.

بسبب منعهم عن أداء فريضة الحجّ ، فاستنجد عبدالملك بالزهريّ ليجعل له مخرجاً من تلك الأزمة ، فسارع الزهريّ إلى وضع حديث عن رسول الله ﷺ ينصّ على أنّه : لا تُشدّ الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، ومسجد بيت المقدس ، وأنّ الصخرة التي وضع رسول الله قدمه عليها تقوم مقام الكعبة . فبنى عبدالملك على الصخرة قبّة وعلّق عليها ستور الديباج ، وأقام لها سدنة ، وأخذ على الناس أن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة[١] نكاية بخصومه السياسيّين ..

أمّا الذهبي فقد قال عن الزهريّ : « إنّه مدلّس »[٢].

٧ـ أحمد بن صالح المصريّ (أبو جعفر الخيّاط)

قال النسائي فيه : « ليس بثقة ولا مأمون » .

ووصفه ابن معين بالكذب .

وقال معاوية بن صالح : « سألت عنه يحيى بن معين فقال : كذّاب يتفلسف » .

أمّا محمّد بن يحيى فقد تركه[٣].

٨ـ داود بن الحصين المدنيّ

قال فيه الذهبيّ : « قد تفرّد بأشياء ، منها ولاؤه لعثمان وآله ، ومنها أنّه كان خارجيّاً يرى رأي الخوارج ، كما أنّه يروي الأحاديث المنكرة » .

وكان سفيان بن عيينة يتّقي حديثه ، وتوقّف فيه أبو حاتم .

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٦١.

(٢) ميزان الاعتدال ٤ : ٤٠ ، الرقم ٨١٧١.

(٣) ميزان الاعتدال ١ : ١٠٤ ، الرقم ٤٠٦.

وعن حديثه قال عليّ بن المديني : « مرسل الشعبيّ وسعيد بن المسيّب أحبّ إليّ من مسند داود ، عن عكرمة ، عن ابن عبّاس »[١].

٩ ـ زياد بن عبدالله بن الطفيل

ضعّفه عليّ بن المديني وابن سعد .

وقال فيه ابن حبّان : « لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد به » .

كما ضعّفه النسائيّ وجماعة آخرون .

ومن غرائب أحاديثه ما رواه عن عطاء بن السائب بسنده إلى ابن عبّاس : أنّ رجلاً قال : يا رسول الله ، أيصبغ ربُّك ؟

قال : نعم ، صبغاً لا ينفض ، أحمر وأصفر وأبيض » !![٢].

١٠ ـ هشيم بن بشير السلميّ

وقد اشتهر بالتدليس والكذب ، وقال الثوري : « لا تكتبوا عنه »[٣].

كما اتّفق جماعة من أصحابه على أن لا يأخذوا عنه شيئاً ممّا يحدّث به ، ففطن هو لذلك فأخذ يقول في كلّ حديث يذكره : حدّثنا حصين ومغيرة ، عن إبراهيم ، فلمّا فرغ قال لهم : هل دلّست اليوم ؟ قالوا : لا .

قال : والله لم أسمع من مغيرة ممّا ذكرته حرفاً واحداً »[٤].

إنّ هذا يؤيّد ما قلناه في بداية البحث من أنّ أغلب هذه الأسانيد صارت

---

(١) ميزان الاعتدال ٢ : ٥ ، الرقم ٢٦٠٠.

(٢) ميزان الاعتدال ٢ : ٩١ ، الرقم ٢٩٤٩.

(٣) الكامل في ضعفاء الرجال ، ابن عدي ٧ : ١٣٤ ، الرقم ٢٠٥١.

(٤) ميزان الاعتدال ٤ : ٣٠٨ ، الرقم ٩٢٥٠.

من العوامل المهمّة في تمرير الأكاذيب على الناس، إذ أنّهم ينخدعون بسهولة، ويثقون بصحّة الحديث بمجرّد رؤيته مسبوقاً بعنعنة، وهم لا يعلمون كم وضع لهم هشيم وأمثاله من عنعنات في أحاديث أسندوها إلى رسول الله ﷺ.

١١ ـ عمران بن حطّان السدوسيّ

قال الدارقطنيّ: «إنّه متروك الحديث، وخبيث في مذهبه».

وقال المبرّد في «الكامل»: «إنّه كان من رؤساء (الصفريّة) الخوارج وفقهائهم والدعاة إلى مذهبهم»[١].

وهو الذي امتدح ابن ملجم لقتله سيّد المؤمنين وإمامهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام بأبيات مشهورة، مطلعها:

إنّي لأذكره يوماً فأحسبه ... أوفى البريّة عند الله ميزانا
يا ضربةً مِن تقيٍّ ما أراد بها ... إلّا ليبلغ من ذي العرش رضوانا»[٢]

ولو شئنا ذكر جميع المجروحين الذين اعتمدهم البخاريّ في صحيحه، لخرجنا عن القصد، وقد عدّ منهم العلّامة هاشم معروف الحسني في كتابه «دراسات في الكافي وصحيح البخاري» ثلاث وستّين راوياً، استخرج كلّ ما قاله فيهم علماء الجرح والتعديل، وكان أكثرهم من مبغضي عليّ عليه السلام أو من الخوارج، وقد اكتفينا بمن ذكرناه لمعرفة نوعيّة الرجال الذين اعتمدهم البخاري ووثّقهم..

وعلى ضوء ذلك يبرز لدينا سؤال مهمّ، هو: لماذا يعتبر من يفضّل عليّاً ويعتبره الخليفة الشرعيّ بعد الرسول، أسوأ حالاً ـ في نظر البخاريّ وأمثاله ـ من هؤلاء المبغضين له والمصرّين على عداوته والذاكرين له بالسبّ والفحشاء، الذين أكثر

---

(١) ميزان الاعتدال ٣: ٢٣٥، الرقم ٦٢٧٧.

(٢) البداية والنهاية ٧: ٣٦٤.

البخاريّ من الرواية عنهم ؟!

ويجيب العلّامة الحسنيّ على هذا السؤال بقوله ـ بعد أن ذكر اقتصار البخاريّ على الرواية عن أمثال هؤلاء ـ : « مع العلم بأنّه ـ أي البخاريّ ـ قد عاصر الإمامين الهادي والعسكريّ عليهما السلام ، ولا بدّ وأن يكون قد أدرك الإمام الجواد عليه السلام ، ولم يرو عنهم شيئاً ، كما أنّه لم يرو عن الأئمّة الصادق والكاظم والحسن الزكيّ عليهم السلام ، ولا عن غيرهم من السادة العلويّين والرواة لأحاديث أهل البيت الذين عاصرهم وعرف عن نشاطهم في جمع الحديث وتدوينه وتصفيته في الفترة التي مرّ بها في معالجة هذه المواضيع ».

ومجمل القول أنّ الشيخ محمّد بن إسماعيل البخاريّ مع أنّه وُجد في عصر كانت مدارس الفقه والحديث في منتهى نشاطها عند جميع الفِرق والمذاهب الإسلاميّة ، ونشاط الشيعة كان بارزاً وملموساً في أوائل القرن الثالث الذي ظهر فيه البخاري في مختلف العواصم والمناطق الإسلاميّة ، لا سيّما الكوفة وبغداد وقم وغيرها من المدن الكبرى التي كانت تجمع العشرات ممّن تفرّغوا لدراسة الحديث وتدوينه ، ومع ذلك فلم يرو عن أحد منهم ، ولا عن الأئمّة الثلاثة الذين عاصرهم ، ولا عن الإمام الصادق عليه السلام مؤسّس مدرسة الفقه والحديث ، وولده الإمام موسى ابن جعفر عليه السلام ، ولا عن العلويّين كزيد بن عليّ وغيره ، مع العلم بأنّ زيد بن عليّ قد ترك أثراً في الفقه والحديث هو من أبرز مؤلّفات ذلك العصر ، وترك تلاميذ الأئمّة عليهم السلام آلاف المؤلّفات ، كما تدلّ على ذلك الفهارس المخصّصة لإحصاء مؤلّفات الشيعة(١).

هذه المؤلّفات على سعتها فإنّ أكثرها من مرويّات الإمامين الصادق وأبيه محمّد الباقر عليهما السلام ، وهي لا تتعدّى أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وأقضية عليّ عليه السلام وفتاويه خلال

---

(١) مثل : الفهرست في أسماء المؤلّفين ، ورجال النجّاشي ، وغيرهما .

ثلاثين عاماً قضاها بعد وفاة الرسول ﷺ في نشر العلم والآثار الإسلاميّة ، ومع ذلك فالبخاريّ لم يرو عنه في صحيحه سوى تسعة عشر حديثاً .

بينما روى عن أبي هريرة أكثر من أربعمائة وخمسين حديثاً ، وعن أنس بن مالك المعروف بعدائه لعليّ عليه السلام أكثر من مائتي حديث ، وقد تجاهل الحسن بن عليّ عليهما السلام الذي نشأ في أحضان الرسول ﷺ ، وتخرّج من مدرسة عليّ أمير المؤمنين عليه السلام ، وبقي بعد جدّه وأبيه منهلاً لروّاد العلم ومصدراً كريماً لكلّ مسترشد ، يروي لهم أحاديث جدّه ، ويعلّمهم أحكام الإسلام كما نزلت من عند الله ، ومع ذلك فلم يرو البخاريّ عنه شيئاً ، بينما روى عن عبدالله بن الزبير ، وعدّه صحابيّاً فوق الأهواء والشبهات ، مع أنّه والحسن بن عليّ عليهما السلام في سنّ واحدة تقريباً ، وهو الذي ترك الصلاة على النبيّ أربعين يوماً عداوة لعليّ وآل عليّ عليهم السلام .

هذه المواقف من البخاري مع الشيعة وأئمّة الشيعة ، من الصعب أن يجد لها الباحث تفسيراً مقبولاً ، سيّما وهو يروي عن الخوارج والنواصب وأمثالهما من المنحرفين والمسرفين في الشهوات والمنكرات وجميع الآثام[١] .

---

(١) دراسات في الكافي وصحيح البخاري : ١٦٥ و ١٦٦ .

الفصل الثاني

أحاديث غريبة.. وتأويلات أغرب!!

نظرة في كتاب «تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة الدينوري»

قلنا: إنّ الأسانيد قد أوقعت أصحاب الحديث في مآزق وإحراجات في مناسبات كثيرة، أهمّها عندما تكون لديهم روايات وأحاديث متناقضة، أو لا يقبلها العقل، أو تتعارض مع أحكام الله سبحانه، ولمّا كانت جميعها مسندة، وإسنادها قويّ حسب مقاساتهم، أو أنّهم لا يملكون الجرأة على تكذيب أيّ منها، فقد لجأ بعضهم إلى التعسّف في تأويلها وإعطائها معانٍ جديدة وإضافيّة تبدو في أغلب الأحيان معانٍ متكلّفة ومبالغ فيها..

وقد اخترنا أحد الكتب التي حاولت نفي التناقض والتعارض عن الكثير ممّا روي عن النبيّ ﷺ من أحاديث وهو كتاب «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة الدينوري الذي وعدنا بنقل مجموعة من تأويلاته وتبريراته للأحاديث غير المقبولة، ليس بهدف نقدها، وإنّما بهدف التعرّف على الكيفيّة التي تعامل بها الكثير من علماء المسلمين مع الحديث النبويّ الشريف، فأصبحت رغبتهم في الدفاع عن رجال السند إساءة للنبيّ ﷺ ولسنّته المباركة..

فلنأخذ عدداً من تلك التأويلات لنرى إن كنّا صادقين فيما ذهبنا إليه:

١ ـ روي أنّ النبيّ ﷺ قال: «**لا تستقبلوا القبلة بغائط ولا بول**»[١]، ثمّ روي عن عائشة قولها: ذكر لرسول الله ﷺ أنّ قوماً يكرهون أن يستقبلوا القبلة بغائط أو بول، فأمر النبيّ ﷺ بخلائه فاستقبل به القبلة»[٢]..

وقد ردّ ابن قتيبة على مَن ادّعى بأنّ هذين الحديثين متناقضان بأنّهما ليسا كذلك، وعالجهما من زاويتين:

■ إنّ هذا الحديث يجوز عليه النسخ لأنّه من الأمر والنهي، فكيف لم يذهبوا إلى أنّ أحدهما ناسخ والآخر منسوخ؟ ثمّ يقول: وليسا عندنا من الناسخ والمنسوخ.

■ إنّ لكلّ حديث منهما موضع، فالأوّل موضعه الصحارى والبراحات، والثاني موضعه البيوت والكنف المحتفرة[٣].

فأمّا تبريره الأوّل بأنّ الحديث يجوز عليه النسخ، فهو نفسه قد قرّر عدم صحّته بقوله: «وليسا عندنا من الناسخ والمنسوخ»، وليس له أن يلزم غيره بما لم يلزم به نفسه، ناهيك عن أنّ العلّة في عدم استقبال القبلة في هذه الحالات هي علّة أخلاقيّة كانت ولا زالت قائمة، والمعلوم أنّ المنسوخ إنّما يُنسخ لزوال علّته، والناسخ إنّما يُشرّع لعلّة جديدة، فأين محلّ الاثنين هنا؟

وأمّا التبرير الثاني بأنّ لكلّ حديث منهما موضعه، فيردّه أنّه كان بإمكان النبيّ ﷺ أن يصرّح للناس بأن يقول لهم: إذا كنتم في الصحراء فلا تستقبلوا القبلة، وإن كنتم في بيوتكم فلا حرج، وينتهي الأمر، ولا يكون بعدها مضطرّاً للتدريب العمليّ،

---

(١) مسند أحمد ٥: ٤٢١. صحيح البخاري ١: ١٠٣. سنن أبي داود ١: ١٠، الحديث ٩. سنن الترمذي ١: ٨، الحديث ٨.

(٢) مسند أحمد ٦: ١٨٣. المصنّف، ابن أبي شيبة ١: ١٧٧، الحديث ٢. مسند ابن راهويه ٢: ٥٠٦، الحديث ١٠٩٤.

(٣) تأويل مختلف الحديث: ٨٥.

فـ(يأمر بخلائه ويستقبل القبلة) ، وهذا ما لا نتصوّر صدوره من النبيّ ﷺ ، وعلى افتراض صدوره ، فإنّ ذلك يدلّ على نفاد صبر وقلّة حيلة ليس لهما ضرورة لو كان الحديث الأوّل صحيحاً ، وله موضعه كما يدّعي الدينوري ، ولكان الردّ بالبيان أقرب إلى الصواب من الردّ العمليّ ..

٢ ـ روى الزهريّ ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ أنّه قال : **« أنا أحقّ بالشكّ من أبي إبراهيم ، ولو دعيت إلى ما دُعي إليه يوسف لأجبت »**[١] .

يقرّر ابن قتيبة أنّ الحديث صحيح ، وليس فيه ما يعارض العقل كما ليس فيه أيّة إساءة لأيّ أحد ، ويؤوّل الحديث بأنّه تواضع من قِبل النبيّ وتقديم لإبراهيم على نفسه ، وأنّ معنى الحديث هو : إنّا لم نشكّ ونحن دونه ، فكيف يشكّ هو[٢] .

والصحيح هو أنّ هذا التأويل إذا كان منسجماً مع أخلاق نبيّنا الكريم ﷺ فإنّه لا ينسجم بالمرّة مع متن الحديث الذي وردت ضمن سياقه كلمة « أحقّ » ؛ لأنّها تعني تقرير حقيقة ، والحقيقة لا بدّ أن تستند إلى مقوّمات وواقع ، وهذا ما لا يمكن إثباته كما لا يمكن صدوره عن النبيّ ﷺ ، زد على ذلك أنّه ليس لنا أن نتصوّر أنّه كان بإمكان النبيّ إسناد الشكّ إلى نفسه حتّى ولو على سبيل التواضع ، لوجود أجوبة كثيرة لديه يستطيع بها تبرئة إبراهيم من الشكّ ، وتغنيه عن اتّهام نفسه به ..

ويقول ابن قتيبة : « أمّا قوله : (لو دعيت لما دُعي إليه يوسف لأجبت ..) ، يعني حين دعي للإطلاق من الحبس بعد الغمّ الطويل ، فقال للرسول : **﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾**[٣] ، ولم يخرج من الحبس

(١) صحيح البخاري ٥ : ٢١٧ . صحيح مسلم ١ : ٩٢ و ٧ : ٩٨ .

(٢) تأويل مختلف الحديث : ٩٢ .

(٣) يوسف ١٢ : ٥٠ .

في وقته ، يصفه بالأناة والصبر ، وقال : لو كنت مكانه ثمّ دعيت إلى ما دعي إليه من الخروج من الحبس لأجبت ولم أتلبّث ، وهذا أيضاً جنس من تواضعه لا أنّه كان عليه ـ لو كان مكان مكان يوسف فبادر وخرج ، أو على يوسف لو خرج من الحبس مع الرسول ـ نقص ولا إثم وإنّما أراد أنّه لم يكن يستثقل محنة الله عزّ وجلّ له فيبادر ويتعجّل ، ولكنّه كان صابراً محتسباً . . . » انتهى قول ابن قتيبة[١] .

ولا يخفى ما في هذا التأويل من تلاعب بالألفاظ ، فهل كان نبيّنا الكريم ﷺ مستثقلاً محنة الله عزّ وجلّ له ، غير صابر ولا محتسب عندما ضربوه وآذوه واتّهموه بالسحر والجنون وقتلوا أصحابه أمام ناظريه ، وحبسوه مع أهله في شِعب أبي طالب ثلاث سنين تحت وطأة الجوع والمرض والموت ؟!

وأين محنة يوسف من المحن العظيمة التي تعرّض لها رسول الله ﷺ الذي اجتمعت كلّ محن الأنبياء عليه ، ولم يجزع ، ولم يستثقل ، بل ما ازداد إلّا صبراً واحتساباً . .

إنّنا لا نقول أنّ يوسف عليه السلام أو أي نبيّ غيره ما كان سيصبر كما صبر نبيّنا الكريم لو كان قد لاقى ما لاقاه ، لأنّنا نعتقد أنّ أنبياء الله عليهم السلام حباهم الله بطاقات خارقة يتحمّلون بها الأذى والصعاب ، منبعها عمق إيمانهم ، ومعرفتهم بالله سبحانه ، وتثبيته لهم لأنّهم رسله إلى النّاس . . ولكنّنا نقول : إنّ ابن قتيبة قد ابتعد كثيراً في تأويله عن الصواب ، حيث لا علاقة لعدم مسارعة يوسف إلى الخروج من السجن بالصبر ، وعدم استثقال محنة الله له ، فلو كان الصبر وحده هو السبب ، فإنّ بقاءه في السجن لم يعد له أيّ مبرّر شرعيّ أو أخلاقيّ بمجرّد دعوته للخروج منه ، ولكنّ الحكمة والإلهام الإلـٰهيّ كانت تقتضي بقاءه فيه إلى حين ظهور الحقّ وثبوت براءته من التهمة التي وجّهت إليه ، فكان لا بدّ له أن يستغلّ حاجة الملك إليه في إثارة

---

(١) تأويل مختلف الحديث : ٩٣.

القضيّة من جديد بغية إعادة التحقيق فيها، وإظهار براءته التي بدونها لن يستطيع ممارسة واجباته كنبيّ بعد خروجه من السجن، أمّا لو كان قد خرج قبل ذلك، فإنّه كان سيرتكب خطأً كبيراً؛ لأنّ التهمة ستبقى عالقة به وسيكون الضرر في خروجه أكبر بكثير من ضرر بقائه، ولذلك بقي.

وهذا يعني أن ليس هناك قياسات جاهزة ومحسوبة لكي يقال: فلان أصبر من فلان، أو أقلّ صبراً منه، فلكلّ ظرف قياساته التي تحدّد كيفيّة معالجته والتعامل معه..

أمّا التواضع الذي يعتمد عليه في تأويل الحديث الموضوع، فهو ليس سبباً وجيهاً لاتّهام النفس بما لم ولن تُقدِم عليه، فليس من الحكمة لكي يُظهر شخص ما تواضعه أو لكي ينفي ـ مثلاً ـ تهمة السرقة أو الزنا عن شخص آخر، أن يقول: إنّني أقدر منه على فعلهما، لا سيّما وأنّ في البيان كلمات كثيرة تصلح للدفاع عنه وتأكيد براءته..

٣ ـ روي عن أبي سعيد الخدري، وجابر، وأنس أنّ النبيّ ﷺ قال وقد ذكر سنة مائة: «**إنّه لا يبقى على ظهرها يومئذٍ نفس منفوسة**»(١)..

ولمّا مرّت مئات السنين وبقي على الأرض الكثير من الأنفس المنفوسة، وانتقد المنتقدون هذا الحديث، أجاب ابن قتيبة عن ذلك بقوله: «إنّ هذا حديث قد أسقط الرواة منه حرفاً (أي كلمة) إمّا لأنّهم نسوه، أو لأنّ رسول الله ﷺ أخفاه فلم يسمعوه، ونراه، بل لا نشكّ أنّه قال: لا يبقى على الأرض (منكم) يومئذٍ نفس منفوسة، يعني ممّن حضره في ذلك المجلس أو يعني الصحابة، فأسقط الراوي (منكم)»(٢).

---

(١) صحيح مسلم ٧: ١٨٧. سنن الترمذي ٣: ٣٥٤. مستدرك الحاكم ٤: ٤٩٩.

(٢) تأويل مختلف الحديث: ٩٣.

وهذا مثل نقله عن ابن مسعود أنّه كان قد روى بأنّه قد شهد ليلة الجنّ مع رسول الله[١]، ثمّ عاد فروى: «إنّه ما شهدها أحد منّا»، فادّعى أنّ القولين غير متناقضين، وجزم بأنّ الراوي أسقط كلمة «غيري» بعد تلك الجملة، حيث قال: إنّ الأصل هو ما شهد ليلة الجنّ أحد منّا غيري[٢].

ومن الواضح ما في هذه العبارة من ركّة وضعف لجمعها بين «منّا» و«غيري» حيث أنّ الصحيح لا بدّ أن يكون في إحدى العبارتين التاليتين:

فأمّا أن يقول: ما شهد ليلة الجنّ مع رسول الله أحد منّا، أو يقول: ما شهد ليلة الجنّ مع رسول الله غيري؛ لأنّ إقحام كلمة «غيري» في الجملة يستدعي حذف كلمة «منّا»، ومع ذلك فإنّنا نرى ابن قتيبة يتقحّم المسالك الوعرة في إثبات غرضه وفرض وجهة نظره، فهو:

أوّلاً: يفتقر إلى الدليل على إسقاط كلمتي «منكم» و«غيري» من الحديثين، وليس لديه مصدراً واحداً يذكرهما حتّى نؤسّس عليه ونعتبرهما قد سقطتا في بقيّة المصادر، لذلك فليس له أن يلزمنا بما يراه.

وثانياً: إنّه اعترف ضمنيّاً بتناقض الروايتين، فلجأ إلى الإضافة عليهما للتخلّص من هذا التناقض. وهذا يكفينا في ردّ احتجاجه.

وثالثاً: إنّ ما جاء به لا يعتبر تأويلاً أو فهماً صحيحاً للمقصود، ولو كان كذلك لقبلناه، ولكنّه يعتبر إضافة على الأصل، وهذا ما لا تقوم به حجّة لأنّه لو كان يجوز الحذف والإضافة، لأصبح بالإمكان تدارك كلّ ما نقل إلينا من أحاديث، ولما عدنا قادرين على تمييز الصحيح عن غيره..

---

(١) مسند أحمد ١: ٢٩٨. سنن الترمذي ١: ١٥. مستدرك الحاكم ٢: ٥٠٣.

(٢) تأويل مختلف الحديث: ٣٦ و ٣٧.

٤ ـ روي أنّ النبيّ ﷺ قال: «**ترون ربّكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته**»[١]، بينما قال تعالى: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ**﴾[٢].

ويقول: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[٣].

وقال تعالى حكاية عن موسى: ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي**﴾[٤]، ويردّ ابن قتيبة على المعترضين بقوله: «إنّ هذا الحديث صحيح لا يجوز على مثله الكذب، لتتابع الروايات عن الثقات به من وجوه كثيرة، ولو جاز أن يكون مثله كذباً جاز أن يكون كلّ ما نحن عليه من أُمور ديننا في التشهّد الذي لم نعلمه إلّا بالخبر، وفي صدقة النعم. وزكاة الناضّ من الأموال والطلاق والعتاق وأشباه ذلك من الأُمور التي وصل إلينا علمها بالخبر ولم يأت لها بيان في الكتاب؛ باطلاً.

وأمّا قوله تعالى: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ**﴾، وقول موسى عليه السلام: ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي**﴾، فليس ناقضاً لقول رسول الله ﷺ: ترون ربّكم يوم القيامة.. لأنه أراد جلّ وعزّ بقوله: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ في الدنيا، وقال لموسى عليه السلام: ﴿**لَنْ تَرَانِي**﴾ يريد في الدنيا لأنه جلّ وعزّ احتجب عن جميع خلقه في الدنيا ويتجلّى لهم يوم الحساب ويوم الجزاء والقصاص، فيراه المؤمنون كما يرون القمر في ليلة البدر»[٥]، انتهى.

وهذه طريقة جديدة يتّبعونها في إثبات ما يدّعوه تعتمد أساساً على ممارسة

---

(١) مسند أحمد ٢: ٣٨٩. سنن الترمذي ٤: ٩٣، الحديث ٢٦٧٩.

(٢) الأنعام ٦: ١٠٣.

(٣) الشورى ٤٢: ١١.

(٤) الأعراف ٧: ١٤٣.

(٥) تأويل مختلف الحديث: ١٩١.

الضغط النفسيّ على السامع، وغلق الأبواب بوجهه لإجباره على التصديق بقضيّة لا طريق لإثباتها ولا دليل على صحّتها، فابن قتيبة عندما خذلته الحجّة وأعياه الدليل، لجأ إلى مطالبة المسلم بالتصديق العشوائيّ، لأنّه إن لم يصدّق بهذه فإنّه سيخسر نصف دينه ممّا ورده عن طريق النقل ! وكأنّ الإقرار برؤية الله هي من ضرورات الدين أو من مكمّلات الإيمان، ويجب أن نضعها مع بقيّة العقائد الدينيّة بنفس المستوى، فأمّا أن نقبلها جميعها أو أن نرفضها جميعها، وهذه سفسطة وكلام فارغ..

ثمّ يعود ابن قتيبة إلى منهجه السابق في التأويل، لكنّه بدلاً من تأويل الحديث قام بتأويل الآية، فأضاف إليها عبارة «في الدنيا» لتصبح آيات الله تعالى : «لا تدركه الأبصار في الدنيا» و «لن تراني في الدنيا»، وهذا أمر عجيب لا يدعمه دليل، ولا تقوم به حجّة، ولا تؤيّده قرينة، ولو أردنا تطبيق قاعدته في تأويل الآيات على الآية ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ لأصبحت «ليس كمثله شيء في الدنيا»، وهذا واضح البطلان وممّا لا يقرّه مؤمن..

وقد كان من الأوْلى به بدلاً من هذا اللفّ والدوران إهمال الحديث، لأنّه يتعارض مع كتاب الله ومع عقيدة المسلمين في نفي التشبيه والتجسيم عنه سبحانه وتعالى، ولا تأثير لذلك على بقيّة العقائد إذا ما ألزم المسلمون أنفسهم بقبول الصحيح الموثوق من الأخبار ونبذ الكاذب الموضوع منها..

٥ - روي أنّ النبيّ ﷺ قال : «**ضرس الكافر في النار مثل أُحُد، وكثافة جلده أربعون ذراعاً بذراع الجبّار**»(١).

يقول الدينوري : «إنّ لهذا الحديث مخرجاً حسناً، إن كان النبيّ ﷺ أراده، وهو أن يكون الجبّار هاهنا : الملك، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم**

---

(١) مسند أحمد ٢ : ٣٣٤، و ٢ : ٥٣٧.

﴿بِجَبَّارٍ﴾[١]، أي بملك مسلّط، والجبابرة: الملوك، وهذا كما يقول الناس: هو كذا وكذا ذراعاً بذراع الملك يريدون بالذراع الأكبر، وأحسبه ملكاً من ملوك العجم كان تامّ الذراع فنسب إليه»[٢]، انتهى.

لاحظ على أيّ شيء ركّز ابن قتيبة، فقد تغافل عن تشبيه ضرس الكافر بجبل أُحُد، وسمك جلده أربعين ذراعاً، وكأنّهما أمران طبيعيّان ومقبولان، وجعل اهتمامه منصبّاً على تأويل «ذراع الجبّار» الذي أقحمه في حديثه بلا مسوّغ، وحتّى لا يقال إنّ معناها هو «ذراع الله»، راح يتكلّم عن ذراع الملك والذراع الأكبر، و «أحسبه ملكاً من ملوك العجم كان تامّ الذراع»، وقد فاته أنّه حتّى لو كان الأمر كما يقول، فإنّ هذا الذراع إنّما نسب إلى الملك ليس على سبيل طول ذراعه الحقيقي، سواءاً كان تامّ الذراع أو لم يكن، وإنّما على أساس كون ذلك الذراع قد اعتمده الملك كوحدة قياس فنسب إليه..

أمّا فيما يتعلّق بضرس الكافر وجلده فنسأل: إذا كان ضرسه كجبل أُحُد فإنّ مجموع أضراسه تعني سلسلة من الجبال، فكم سيكون حجم الرأس الذي يستوعب تلك السلسلة؟ وكم سيكون حجم الجسد الذي سيحمل ذلك الرأس؟

وإذا كان سمك جلد الكافر أربعين ذراعاً حتّى ولو بذراع قرد، فكم سيكون حجم جسده لكي يتناسب مع ذلك الجلد؟

والسؤال الأخير هو: لماذا يتكلّف هؤلاء الناس كلّ هذا المجهود، فيتجنّون على الحقيقة، ويرسّخون الباطل، ويدفعون بالناس إلى متاهات الجهل والخرافة؟

ولماذا يتحمّلون أعباء ومغبّة الدفاع عن كرامة وضّاع كاذب، واستخدام كلّ الوسائل حتّى غير المشروعة لنفي التهمة عنه، وتجاوز كلّ الحقائق لحمل كلامه

---

(١) ق ٥٠: ٤٥.

(٢) تأويل مختلف الحديث: ٢٠٠.

على معانٍ لم يقصدها هو نفسه وربّما لم يعرفها حتّى مات ؟

إنّ حفظ كرامة مَن أحبّوه ورضوا عنه من الرجال ، أهمّ لديهم من الحقيقة ومن الدين نفسه !!

٦ - روي عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ أنّه قال : « **الشمس والقمر ثوران مكوّران في النار يوم القيامة** »(١).

قال ابن قتيبة : « روي الحديث على الحسن البصري ، فقال : ما ذنبهما ؟ ونحن نقول : إنّ الشمس والقمر لم يعذّبا بالنار حين أُدخلاها فيقال ما ذنبهما ، ولكنّهما خُلقا منها ثمّ رُدّا إليها ، وقد قال رسول الله ﷺ في الشمس حين غربت : « **في نار الله الحامية لولا ما يزعها عن أمر الله تعالى لأهلكت ما على الأرض** » ، وقال : « **ما ترتفع في الصمّاء قصمة إلّا فتح لها باب من أبواب النار ، فإذا قامت الظهيرة فتحت الأبواب كلّها** » ، وهذا يدلّك على أنّ شدّة حرّها من فوح جهنّم »(٢).

نستخلص من هذا الحديث وتأويله ثلاثة أُمور :

الأوّل : إنّ مصير الشمس والقمر إلى النار.

والثاني : أنّ حرارة الشمس تزداد بإزدياد عدد الأبواب المفتوحة عليها من جهنّم.

والثالث : أنّ الشمس والقمر سيظهران ثورين مكوّرين في النار.

فأمّا كونهما سيدخلان النار ، فهذه قضيّة تحتاج إلى تبرير وحكمة ومعرفة الجدوى من وراء ذلك ، وهل هما مخلوقان عاقلان حتّى يعذّبا ، وما الجرم الذي اقترفاه حتّى استحقّا به النار على رأي أبي الحسن البصريّ ؟ سيّما وأنّ الكون الفسيح يحتوي على الملايين ، بل المليارات ، من النجوم والأقمار والشموس ، فهل يكون

---

(١) مسند أبي داود الطيالسي : ٢٨١ ، عن أنس ، وفيه : « عقيران ».

(٢) تأويل مختلف الحديث : ٩٥.

حكمها جميعاً كحكم شمسنا وقمرنا أم أنّ هذا الحكم خاصّ ؟

وأمّا قوله : إنّهما خلقا منها وعادا إليها ، فهذا ما لا دليل عليه عقلاً أو نقلاً ، فمن الذي قال إنّهما خلقا من النار ؟ لا الله قال ذلك ولا رسوله .. وإذا كان قد ربط بينهما بالقياس ، فإنّ العلم يردّ ذلك ؛ لأنّ القمر بطبعه كوكب خامل لا يصدر نوراً ولا حرارة ، وإنّما يستمدّ ذلك من الشمس .. وأمّا الشمس فهي منتجة للنور والحرارة من خلال التفاعلات التي تجري عليها ولا تستوردهما لا من جهنّم ولا من أيّ مكان آخر ..

وإذا كانت هذه الأقوال قد انطلت على السابقين لجهلهم أو لعدم معرفتهم بحيثيّات الكون ، فإنّه لا يصحّ أن تنطلي علينا نحن أيضاً .. وعلى ذلك فإنّ عدم مطابقة الحديث للواقع لوحدها دليل على عدم صدوره عن النبيّ ﷺ ..

٧ ـ روي أنّ رسول الله ﷺ قال : « **ليؤمّكم خياركم ، فإنّهم وفدكم إلى الجنّة ، وصلاتكم قربانكم ولا تقدّموا بين أيديكم إلّا خياركم** » ، ثمّ روي عنه ﷺ أنّه قال : « **صلّوا خلف كلّ برّ وفاجر ، ولا بدّ من إمام برّ أو فاجر ..** » .

يقول ابن قتيبة في نفي تناقض هذه الأحاديث : « ليس هاهنا بنعمة الله اختلاف ، وللحديث الأوّل موضع ، وللثاني موضع ، وإذا وضع كلّ واحد منهما موضعه زال الاختلاف .. أمّا قوله : **ليؤمّكم خياركم** .. ، فإنّه أراد أئمّة المساجد في القبائل والمحالّ ، وأن لا تقدّموا منهم إلّا الخيّر التقيّ القارئ ولا تقدّموا الفاجر الأُمّي ..

وأمّا قوله : **صلّوا خلف كلّ بر وفاجر** ، فإنّه يريد السلطان الذي يجمع الناس ويؤمّهم في الجمع والأعياد ، يريد أن لا تخرجوا عليه ولا تشقّوا العصا ، ولا تفارقوا جماعة المسلمين وإن كان سلطانكم فاجراً ... »(١) .

---

(١) تأويل مختلف الحديث : ١٤٤ .

ونحن نقول : إنّ ابن قتيبة تجاوز الكثير من الخطوط الحمراء ، وتجنّى على الله ورسوله ودينه ، وانحرف كثيراً عن جادّة الصواب فيما حاوله من تأويل الجهل الصريح والكذب الواضح .. من خلال :

■ إضافته لكلمتي « القارئ » على الخيّر المتّقي و « الأُمّي » على الفاجر ، وهو ما لم ترد به أيّة إشارة في نصوص الأحاديث المذكورة ، وكأنّه أراد أن يخفّف من وطأة كلمة « الفاجر » فقرنها بـ « الأُمّي » مع كونها لفظة عامّة تستوعب الجميع ولا تقتصر على الأُميّين وحدهم ..

■ أنّ تلك النصوص مطلقة وتمثّل أحكاماً عامّة لا تقبل التخصيص من حيث المكان والزمان والظرف ، فهي موجّهة إلى عموم المسلمين أينما كانوا وتحت أيّ ظرف .. « **ليؤمّكم خياركم** .. » و « **صلّوا خلف كلّ برّ وفاجر** .. » ليس فيها بدو أوحضر أو قبيلة ولا سلطان ، ولعلّ الثانية أكّد في إرادة العموم وليس خصوص السلطان ، لاشتمالها على لفظة «كلّ » التي تعني الجميع بدون استثناء .. والأمر نفسه يقال بالنسبة لتوعية الصلاة المقصودة ، فهي كلّ صلاة ، ولست صلوات الجمع والأعياد فقط كما يدّعي ..

■ هل يرى ابن قتيبة أنّ أحكام الدين تختلف باختلاف مناصب الأئمّة ، فإذا لم يكن الإمام سلطاناً يجب أن يكون خيّراً وتقيّاً ، وإذا كان سلطاناً فلا بأس أن يكون برّاً أو فاجراً ؟

نعم ، إنّهم يرون ذلك ، ويجيزون للسلطان أن يفعل ما يشاء ، لأنّهم على امتداد العصور سائرون في ركابه منتظرون هداياه وأعطياته ..

■ إصرارهم على استخدام عبارات رنّانة طنّانة مثل « شقّ عصا الطاعة » و « مفارقة الجماعة » و « مخالفة الأُمّة » وغيرها من العبارات التي لا زال السياسيّون الطغاة يرهبون بها خصومهم ومعارضيهم ويرغمون بها أُنوفهم .

فأي شقّ لعصا الطاعة والنبيّ ﷺ يقول : «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[١].

و«**أفضل الجهاد عند الله كلمة حقّ عند سلطان جائر** ..»[٢] ؟ !

وأيّ مفارقة للجماعة .. وكتاب الله يصرّح : ﴿ **وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾[٣] ؟ ! !

وأيّ أُمّة لا يرضون بمخالفتها والله تعالى ينادي : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾[٤] ؟ ! ! فما قيمة أُمّة تنصاع لفاجر وتصلّي خلفه ؟ !

إنّ من أهمّ واجبات المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومحاربة الظلم ، ومقارعة الطغاة ، والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحقّ والعدالة .. وقد أمر الله بعدم الركون إلى الذين ظلموا ، وأباح الإسلام مقاتلتهم ، بل جعلها واجباً شرعيّاً ، فإذا كان السلطان فاجراً ظالماً ، فإنّ المسلمين ملزمون بالوقوف في وجهه والإطاحة به ، وليس الخنوع له والاقتداء به والصلاة خلفه لأنّ في ذلك تقوية لسلطانه ، وتأييد لسلوكه ، وإذعان لفجوره ، وإذا كان قتال الفاجر وفضحه واجباً ، فإنّ الأوجب منه ترك الصلاة خلفه ، وشقّ عصا طاعته ، ومفارقة جماعته ، والخروج عن أُمّته ..

أمّا هذه التأويلات الباردة ، والأحاديث المنكرة ، فإنّها ما وضعت إلّا لخدمة الفاجرين والظالمين من الولاة والسلاطين الذين دفعوا الأموال الطائلة للحصول على هكذا أحاديث تثبّط عنهم عزائم الناس وتدفعهم إلى السمع والطاعة ..

---

(١) مسند أحمد ١ : ١٣١ ، ٤٠٩ . المصنّف ، ابن أبي شيبة ٧ : ٧٣٧ .

(٢) مسند أحمد ٣ : ١٩ . مسند أبي يعلى ٢ : ٣٥٣ . المعجم الكبير ، الطبراني ٨ : ٢٨٢ .

(٣) المؤمنون ٢٣ : ٧٠ .

(٤) آل عمران ٣ : ١٠٤ .

٨ ـ روي عن النبيّ ﷺ قوله: «**كن حِلْسَ بيتك، فإن دُخِل عليك فادخل مخدعك، فإن دُخِلَ عليك فقل: بُؤْ بإثمي وإثمك، وكن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل**»[١].

ويفسّر ابن قتيبة هذا الحديث بقوله: «أي افعل هذا في زمن الفتنة واختلاف الناس على التأويل وتنازع سلطانين كلّ واحد منهما يطلب الأمر ويدّعيه لنفسه بحجّة، فكن حلس بيتك في هذا الوقت ولا تسلّ سيفاً ولا تقتل أحداً، فإنّك لا تدري مَن المحقّ من الفريقين ومن المبطل، واجعل دمك دون دينك»[٢].

وليس أمراً عسيراً أن نعرف أنّ هذا الحديث إنّما صنعته يد السياسة لتخذيل المسلمين وإبقائهم مع النساء والغلمان في البيوت، وترك الواجب الشرعيّ والإنسانيّ في الدفاع عن الحقّ ومحاربة البغي ونصرة المظلوم..

فإذا كان المسلم حلس بيته، فمن سيطبّق أمر الله: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ**﴾[٣]؟!

وإذا كان حلس بيته.. فمن سيغيّر المنكر إذا رآه بيده أو لسانه؟!

ومن سيأمر بالمعروف، ومن سينهى عن المنكر؟

ومن سيصرخ بوجوه المعتدين والظالمين، أو يخرج عليهم ليقوّمهم فإذا امتنعوا يقاتلهم؟

وما هو هذا الأمر العويص الغامض الذي أوقع المسلمين في حيرة من أمرهم، فلم يعودوا قادرين على التمييز بين الحقّ فينصروه وبين الباطل فيخذلوه؟!

---

(١) تأويل مختلف الحديث: ١٢، ١٤٦.

(٢) تأويل مختلف الحديث: ١٢، ١٤٦.

(٣) الحجرات ٤٩: ٩.

وكيف ارتبكت مقاييسهم فلم يعودوا يميّزون ؟ !

ولماذا اعتبرناهم أفضل الناس واعتبرنا قرنهم خير القرون (!) وهم غير قادرين على فهم ما يجري أمامهم ، وبين أيديهم كتاب الله وسنّة رسوله ، ولا زالت في ذاكرتهم كلّ خلفيّات الأحداث .. ؟ !

إنّ أبسط المسلمين اليوم قادر على تكوين فكرة أو اتّخاذ قرار أزاء الأحداث ، فكيف غاب ذلك عن مجتمع الصحابة أو التابعين لهم بإحسان (!) ففقدوا القدرة على التمييز وأصبحوا أحلاس بيوتهم ؟ ! !

إنّ الأمر برمّته ليس كذلك ، وسنؤخّر الحديث عنه لأنّ له مكاناً آخر في ثنايا البحث .. ومن الله نستمدّ العون والسداد ..

٩ ـ روي في أكثر من حديث أنّ رسول الله ﷺ كان يُقبّل وهو صائم[(١)]، ثمّ روي عن ميمونة بنت سعد مولاة النبيّ ﷺ أنّ النبيّ سُئل عن رجل قبّل امرأته وهو صائم فقال : « **قد أفطر** »[(٢)].

يقول ابن قتيبة : « ونحن نقول إنّ القبلة للصائم تفسد الصوم ، لأنّها تبعث الشهوة وتستدعي المذي ، وكذلك نقول في المباشرة ، فأمّا رسول الله فإنّه معصوم وتقبيله في الصوم أهله كتقبيل الوالد ولده والأخ أخاه ، ويدلّك على ذلك قول عائشة رضي الله عنها : وأيّكم يملك إربه كما كان رسول الله يملك إربه ... »[(٣)]، انتهى .

أمّا نحن فنقول : إنّ الحديث الأوّل كذب ، وإنّ ابن قتيبة لم يُحسن التأويل ، وأنّنا نستعيذ بالله من هؤلاء القوم الذين أولعوا بالإساءة إلى رسول الله ﷺ وراحوا يروون عنه المنكرات دون أن تطرف لهم عين أو يهتزّ منهم ضمير .. وسترد عليك

---

(١) مسند أحمد ٦ : ٤٢ . صحيح مسلم ١ : ٢٥ و ٣ : ١٣٥ . سنن ابن ماجة ١ : ٥٣٨ .

(٢) مسند أحمد ٦ : ٤٦٣ . المصنّف ، عبدالرزّاق الصنعاني ٤ : ١٨٦ ، الحديث ٨٤٢٢ .

(٣) تأويل مختلف الحديث : ٢٢٦ .

فيما بعد روايات كثيرة من هذا القبيل ، فقد صوّروه ـ وحاشاه ـ رجلاً شهوانيّاً لا يفكّر إلّا بالمرأة . . ! فمرّة يجعله أبو هريرة يطوف في الليلة الواحدة على تسع نسوة ، وجعله أُخرى يباشرهنّ وهنّ في المحيض ، وأُخرى . . ، وأُخرى . . أمّا هنا فقد جعلوه يُقبّل نساءه وهو صائم ! وابن قتيبة يُقرّ أنّ القبلة تفسد الصوم لأسباب ذكرها ، وكان حريّاً به أن يقول لهم : كذبتم على رسول الله فإنّه أسمى وأطهر من أن يأتي مثل هذا العمل وينهى الآخرين عنه . . ولكنّه لم يقل ذلك ، وإنّما سلك الطريق الأكثر وعورة ، فذهب يؤوّل ويا ليته قد أجاد التأويل . . فإنّ امتلاك الإرب يعني الامتناع عن الشيء ، وليس إتيانه مخالفاً للتشريع مستغلّاً العصمة الإلـٰهيّة التي وهبها الله إليه لتثبيت قلبه ، وترسيخ إيمانه ، وليس لتقبيل النساء أثناء الصيام . . وامتلاك النبيّ لإربه يعني هنا امتناعه عن التقبيل وهو صائم ، لا إتيانه بطريقة آليّة مجرّدة من العواطف الإنسانيّة ، ولا ينفع هنا ما ادّعاه الدينوري من أنّ قُبلته كانت كتقبيل الوالد لولده أو الأخ لأخيه ، لأنّ في القُبلة تعبير عن عاطفة لا يمكن أن تتحوّل لدى الزوج وهو يفعلها مع زوجته إلى عاطفة أب أو أخ متجاوزاً ما بينهما من رباط ومشاعر خاصّة بين الأزواج . .

كما لم نعرف حالة الضرورة أو الاضطرار التي تدفع النبيّ ـ وحاشاه ـ إلى ذلك وإنّ وقت الإفطار قريب . . وهو ما لا يفعله المؤمنون العاديّون ، فكيف به وهو رسول الله الذي ألزم نفسه بالامتناع عمّا هو أقلّ من التقبيل حتّى خاطبه عزّ وجلّ بقوله : ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾[1] .

إنّ الذين يعرفون قدر النبيّ وعظمته وسموّ شأنه يعلمون أنّه ﷺ كان يُلزم نفسه بتنفيذ أيّ تشريع مهما صغر قبل غيره ، ليكون القدوة الحسنة للآخرين ، وليلقي الحجّة عليهم ، ولم تكن له امتيازات خاصّة يُسمَح له من خلالها بممارسة

---

(١) طه ٢٠ : ١ و ٢ .

الممنوع عن غيره، بل الصحيح عكس ذلك؛ إذ أنّه كان مكلّفاً بواجبات خاصّة إضافيّة لم يكلّف بها غيره..

١٠ ـ روى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**إنّ موسى عليه السلام لطم عين ملك الموت فاعوره...**»(١).

يقول ابن قتيبة مدافعاً عن صحّة الحديث: «والذي نذهب إليه أنّ ملائكة الله روحانيّون.. فكأنّهم أرواح لا جثث لهم فتلحقها الأبصار، ولا عيون لها كعيوننا، ولا أبشار كأبشارنا، ولسنا نعلم كيف هيّأهم الله تعالى.. وقد جعل الله سبحانه للملائكة من الاستطاعة أن تتمثّل في صور مختلفة.. وليس ما تنتقل إليه من هذه الأمثلة على الحقائق، إنّما هي تمثيل وتخييل لتلحقها الأبصار.. ولما تمثّل ملك الموت عليه السلام وهذا ملك الله وهذا نبيّ الله وجاذبه، لطمه موسى لطمة أذهبت العين التي هي تخييل وتمثيل وليست حقيقة، وعاد ملك الموت عليه السلام إلى حقيقة خلقته الروحانيّة كما كان لم ينتقص منه شيء...»(٢)، انتهى.

إنّ مناقشة هذا الحديث ستأتي مفصّلة في موضعها من هذا البحث، ولكنّنا نسأل هنا: هل كان موسى عليه السلام وهو نبيّ الله ورسوله يكره لقاء ربّه إلى هذا الحدّ بحيث امتنع وتجاذب مع ملك الموت حتّى لطمه على عينه؟ وهل كان موسى فظّاً غليظاً إلى هذا الحدّ الذي تجرّأ فيه على ضرب الملك؟ وما هو ذنب ملك الموت، وما حضر إلّا لتنفيذ أمر ربّه وربّ موسى الذي يعرف هذه الحقيقة جيّداً؟

ولو تنازلنا لابن قتيبة وقبلنا رأيه في أنّ عين الملك إنّما هي «تخييل وتمثيل وليست حقيقة»، فكيف إذن أثّرت فيها لطمة موسى وأذهبتها، وكان المفروض أن تمرّ يد موسى خلالها في الهواء دون أن تحدث فيها ضرراً؛ لأنّها مجرّد صورة

---

(١) مسند أحمد ٢: ٢٦٩، ٥٣٣. صحيح مسلم ٧: ١٠٠. سنن النسائي ٤: ١١٨.

(٢) تأويل مختلف الحديث: ٢٥٦.

وهميّة خُيّلت لموسى ولم تكن حقيقيّة ؟ فهل يمكن إيقاع الأذى والضرر بشيء غير موجود ؟

إنّ في الإجابة على كلّ هذه التساؤلات يكمن الردّ العمليّ والواقعيّ على هذا الحديث ، وهي الدليل القويّ على كونه حديثاً موضوعاً لن تمنحه كلّ تأويلات الأرض ما يجعله مقبولاً أو مستساغاً من قِبل العقلاء . .

تلك عشرة أحاديث ممّا حاولوا تأويله ، ولم نجد في التأويل ما يحلّ العقدة أو يزيل الشكّ ، بل على العكس ، فتحت تلك التأويلات أبواباً واسعة للنقد ، وأثبتت عدم صحّة الأحاديث التي أرادت أن تؤكّد صحّتها . . وقد يكون ما تركناه من أحاديث وما ذهبوا إليه في تأويلها أشدّ ضعفاً ممّا ذكرناه ، كتوصية النبيّ ﷺ بالمعزى خيراً لأنّها من الجنّة ، والقردة التي رجمت في الجاهليّة لأنّها زنت ، وأكل الشيطان بيده الشمال ، واهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ ، وغير ذلك .

ولكنّنا اكتفينا بهذا القدر لأنّ هدفنا هو إعطاء صورة عن تلك التأويلات ، وليس مناقشة كلّ ما ورد في الكتاب ، ونعتقد بأنّنا وصلنا إلى الهدف . . ومن أراد المزيد فليراجع الكتاب المذكور وغيره ليرى بنفسه كيف يتعسّفون لإضفاء الصحّة على ما ليس بصحيح تزمّتاً وتعنّتاً وعناداً لله ورسوله ، وكان الأوْلى بهم أن يكونوا ممّن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه ، ويبرئون السنّة والحديث النبويّ من هذه التفاهات ، وليكون ما يتبقّى لديهم منسجماً مع روح الإسلام التي خاطبت العقول والضمائر قبل أيّ شيء آخر .

البَابُ الثَّالِثُ

نظرة عابرة

في أحاديث البخاري

ملاحظات مهمّة

١ ـ طبعة «صحيح البخاري» التي اعتمدناها هي:

صحيح البخاري ـ مشكول ـ كالمطبوع على النسخة الأميريّة المطبوعة سنة **١٣١٤** هجريّة ملتزم الطبع والنشر عثمان خليفات ـ مصر.

وهي من ثلاث مجلّدات، كلّ منها يحتوي على ثلاثة أجزاء..[١].

٢ ـ سنرمز عند نقل الأحاديث عن المجلّد والجزء والصفحة بالرقم فقط، مثلاً: **١٠/٢/١** تعني: المجلّد الأوّل/ الجزء الثاني / الصفحة العاشرة، وهكذا، ولن نكرّر تسمية الصحيح إلّا عندما نحتاج إليه في الهوامش.

٣ ـ ستكون طريقتنا في عرض الأحاديث ومناقشتها أن نجمع الأحاديث في بداية كلّ فصل ثمّ نناقشها بشكل إجماليّ، إلّا أنّ هذه الطريقة تصلح للأحاديث التي تتعلّق بموضوع واحد، وهناك أحاديث قد تدخل ضمن عنوان رئيسيّ واحد، ولكنّها تختلف من حيث العنوان الفرعيّ، لذلك سنعمد عند مناقشتها إلى وضع عنوان فرعيّ يستدلّ القارئ الكريم من خلاله على الحديث المتعلّق به والمعروض

---

(١) أمّا الطبعة التي اعتمدناها في التحقيق فهي طبعة دار الفكر ـ بيروت لسنة ١٤٠١هـ، اوفسيت عن طبعة دار الطباعة العامرة باسطنبول، وهي من ثمان مجلّدات. (مكتبة فدك).

في بداية كلّ فصل..

٤ ـ سنكتفي بذكر رأس السند فقط لكلّ حديث دون نقل كامل السلسلة، لأنّنا لن نلتفت إلى الأسانيد إلّا حينما نجد أنّ ذلك يدخل ضمن صلب الموضوع.

٥ ـ أكثر أحاديث الصحيح مكرّرة، ويبلغ تكرار بعضها أكثر من عشر مرّات، لذلك سنكتفي بذكر الرواية التي نرى أنّها قد جمعت كلّ أو أكثر ما في باقي الروايات، إلّا إذا كان هناك اختلاف كبير أو جوهريّ يستوجب نقل أكثر من رواية.

الفصل الأول

أحاديث الإسراء والمعراج

الأحاديث:

١ - <u>١ / ١ / ٧٤</u>

بسنده عن أنس بن مالك، قال: «**كانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ:**

فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتي وَأَنا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِماءِ زَمْزَمٍ، ثُمَّ جاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيماناً فَأَفْرَغَهُ في صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بي إِلَى السَّماءِ الدُّنْيا، فَلَمّا جِئْتُ إِلَى السَّماءِ الدُّنْيا قالَ جِبْرِيلُ لِخازِنِ السَّماءِ: افْتَحْ.

قالَ: مَنْ هٰذا؟ قالَ: هٰذا جِبْرِيلُ.

قالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟

قالَ: نَعَمْ، مَعِي مُحَمَّدٌ.

فَقالَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟

قالَ: نَعَمْ.

فَلَمّا فَتَحَ، عَلَوْنا السَّماءَ الدُّنْيا، فَإِذا رَجُلٌ قاعِدٌ عَلىٰ يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ، وَعَلىٰ يَسارِهِ أَسْوِدَةٌ، إِذا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذا نَظَرَ قِبَلَ يَسارِهِ بَكىٰ، فَقالَ: مَرْحباً بِالنَّبِيِّ

الصّالِحِ وَالْابْنِ الصّالِحِ.

قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هٰذا؟

قالَ: هٰذا آدَمُ، وَهٰذِهِ الْأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوِدَةُ الَّتي عَنْ شِمالِهِ أَهْلُ النّارِ، فَإِذا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذا نَظَرَ قِبَلَ شِمالِهِ بَكىٰ.

حَتّىٰ عَرَجَ بي إِلَى السَّماءِ الثّانِيَةِ، فَقالَ لِخازِنِها: افْتَحْ.

فَقالَ لَهُ خازِنِها مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُ، فَفَتَحَ.

قالَ أَنَسٌ: فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ في السَّماواتِ آدَمَ وَإِدْرِيسَ وَمُوسىٰ وَعِيسىٰ وَإِبْراهِيمَ، وَلَمْ يُثْبِتْ كَيْفَ مَنازِلَهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ في السَّماءِ الدُّنْيا، وَإِبْراهِيمَ في السَّماءِ السّادِسَةِ.

قالَ أَنَسٌ: فَلَمّا مَرَّ جِبْرِيلُ بِالنَّبِيِّ ﷺ بِإِدْرِيسَ، قالَ: مَرْحَباً بِالنَّبِيِّ الصّالِحِ وَالْأَخِ الصّالِحِ.

فَقُلْتُ: مَنْ هٰذا؟

قالَ: هٰذا إِدْرِيسُ.

ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسىٰ، فَقالَ: مَرْحَباً بِالنَّبِيِّ الصّالِحِ وَالْأَخِ الصّالِحِ.

قُلْتُ: مَنْ هٰذا؟

قالَ: هٰذا مُوسىٰ.

ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسىٰ، فَقالَ: مَرْحَباً بِالْأَخِ الصّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصّالِحِ.

قُلْتُ: مَنْ هٰذا؟

قالَ: هٰذا عِيسىٰ.

ثُمَّ مَرَرْتُ بِإبراهِيمَ ، فَقالَ: مَرْحَباً بِالنَّبِيِّ الصّالِحِ وَالْابنِ الصّالِحِ.

قُلْتُ: مَنْ هٰذا ؟

قالَ: هٰذا إبراهِيمُ.

قالَ ابْنُ شِهابٍ: فَأَخْبَرَني ابْنَ حَزْمٍ أَنَّ ابْنَ عَبّاسٍ وَأَبا حَبَّةَ الْأَنْصارِيَّ كانا يَقُولانِ: قالَ النَّبِيُّ: ثُمَّ عُرِجَ بي حَتّىٰ ظَهَرْتُ لِمُسْتَوىٰ أَسْمَعُ فيهِ صَرِيفَ الْأَقْلامِ.

قالَ ابْنُ حَزْمٍ وَأَنَسُ بْنُ مالِكٍ: قالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَفَرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلىٰ أُمَّتي خَمْسِينَ صَلاةً ، فَرَجَعْتُ بِذٰلِكَ حَتّىٰ مَرَرْتُ عَلىٰ مُوسىٰ ، فَقالَ: ما فَرَضَ اللهُ لَكَ عَلىٰ أُمَّتِكَ ؟

قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلاةً.

قالَ: فَارْجِعْ إِلىٰ رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذٰلِكَ.

فَراجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَها ، فَرَجَعْتُ إِلىٰ مُوسىٰ قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَها.

فَقالَ: راجِعْ رَبَّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ.

فَراجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَها ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقالَ: ارْجِعْ إِلىٰ رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذٰلِكَ.

فَراجَعْتُهُ فَقالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ.

فَرَجَعْتُ إِلىٰ مُوسىٰ فَقالَ: راجِعْ رَبَّكَ.

فَقُلْتُ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبّي ، ثُمَّ انْطَلَقَ بي حَتّىٰ انْتَهىٰ بي إِلىٰ سِدْرَةِ الْمُنْتَهىٰ وَغَشِيَها أَلْوانٌ لَا أَدْري ما هِيَ ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذا فيها حَبايِلُ اللُّؤْلُؤِ وَإِذا تُرابُها الْمِسْكُ».

٢ ـ ٢ / ٤ / ١٠٩

بسنده قال: حدّثنا أنس بن مالك ، عن مالك بن صعصعة ، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«بَيْنا أَنا عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النّائِمِ وَالْيَقْظانِ ، فَأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُلِئَ حِكْمَةً وَإِيماناً ، فَشُقَّ مِنَ النَّحْرِ إِلىٰ مَراقِّ الْبَطْنِ ، ثُمَّ غُسِلَ الْبَطْنُ بِماءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ مُلِئَ حِكْمَةً وَإِيماناً ، وَأُتِيتُ بِدابَّةٍ أَبْيَضَ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمارِ الْبُراقُ . . .» .

ويستمرّ بسرد نفس التفاصيل في الرواية الأُولى ما عدا أنّه في هذه الرواية يجد آدم في السماء الدنيا ، وعيسى ويحيى في الثانية ، ويجد يوسف في الثالثة ، وإدريس في الرابعة ، وهارون في الخامسة ، وموسى في السادسة ، وإبراهيم في السابعة ، وأنّ موسى لمّا جاوزه النبيّ **«بَكىٰ ، فَقِيلَ : ما أَبْكاكَ ؟**

قالَ : يا رَبِّ هـٰذَا الْغُلامُ الَّذي بُعِثَ بَعْدي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَفْضَلَ مِمّا يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتي . .» .

ثمّ يقول بعد أن ترك النبيّ ﷺ إبراهيم عليه السلام : **«فَرُفِعَ لِيَ الْبَيْتُ الْمَعْمورُ ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ ، فَقالَ : هـٰذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ ، يُصَلّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ، إِذا خَرَجوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ ما عَلَيْهِمْ .**

وَرُفِعَتْ لي سِدْرَةُ الْمُنْتَهىٰ ، وَنَهْرانِ باطِنانِ ، وَنَهْرانِ ظاهِرانِ ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ ، فَقالَ : أَمّا الْباطِنانِ فَفي الْجَنَّةِ ، وَأَمّا الظّاهِرانِ النِّيلُ وَالْفُراتُ .

ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلاةً ، فَأَقْبَلْتُ حَتّىٰ جِئْتُ مُوسىٰ فَقالَ : ما صَنَعْتَ ؟

قُلْتُ : فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلاةً .

قالَ : أَنا أَعْلَمُ بِالنّاسِ مِنْكَ ، عالَجْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ أَشَدَّ الْمُعالَجَةِ ، وَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطيقُ ، فَارْجِعْ إِلىٰ رَبِّكَ فَسَلْهُ ، فَرَجَعْتُ فَسَأَلْتُهُ فَجَعَلَها أَرْبَعينَ .

ثُمَّ مِثْلَهُ ثُمَّ ثَلاثِينَ ، ثُمَّ مِثْلَهُ فَجَعَلَ عِشْرينَ ، ثُمَّ مِثْلَهُ فَجَعَل عَشْراً .

فَأَتَيْتُ مُوسىٰ فَقالَ مِثْلَهُ ، فَجَعَلَها خَمْساً ، فَأَتَيْتُ مُوسىٰ فَقالَ : ما صَنَعْتَ ؟

قُلْتُ : جَعَلَها خَمْساً .

فَقالَ مِثْلَهُ.

قُلْتُ: سَلَّمْتُ بِخَيْرٍ، فَنُودِيَ إِنّي قَدْ أَمْضَيْتُ فَريضَتي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبادي، وَأَجْزِي الْحَسَنَةَ عَشْراً».

٣ ـ <u>٢ / ٤ / ١٩١</u>

بسنده عن شريك بن عبدالله بن أبي نمر، قال:

«سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مالِكٍ يُحَدِّثُنا عَنْ لَيْلَةِ اُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ مِنْ مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ: جاءَهُ ثَلاثَةُ نَفَرٍ قَبْلَ أَنْ يُوحىٰ إِلَيْهِ وَهُوَ نائِمٌ في مَسْجِدِ الْحَرامِ، فَقالَ أَوَّلُهُمْ: أَيُّهُمْ هُوَ؟

فَقالَ أَوْسَطُهُمْ: هُوَ خَيْرُهُمْ.

وَقالَ آخِرُهُمْ: خُذُوا خَيْرَهُمْ، فَكانَتْ تِلْكَ، فَلَمْ يَرَهُمْ حَتّىٰ جاءُوا لَيْلَةً اُخْرىٰ فِيما يَرىٰ قَلْبُهُ وَالنَّبِيُّ ﷺ نائِمَةٌ عَيْناهُ وَلا يَنامُ قَلْبُهُ، وَكَذلِكَ الْأَنْبِياءُ تَنامُ أَعْيُنُهُمْ وَلا تَنامُ قُلُوبُهُمْ، فَتَوَلّاهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّماءِ».

٤ ـ <u>٢ / ٥ / ٥٢</u>

بسنده عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة:

«أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ اُسْرِيَ بِهِ، فَقالَ: بَيْنا أَنا فِي الْحَطِيمِ ـ وَرُبَّما قالَ: فِي الْحِجْرِ ـ مُضْطَجِعاً إِذْ أَتاني آتٍ فَقَدَّ ما بَيْنَ هٰذِهِ إِلىٰ هٰذِهِ فَاسْتَخْرَجَ قَلْبي، ثُمَّ اُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلوءَةٍ إِيماناً، فَغُسِلَ قَلْبي، ثُمَّ حُشِيَ، ثُمَّ اُعِيدَ.

ثُمَّ اُتِيتُ بِدابَّةٍ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمارِ، أَبْيَضَ، يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أَقْصىٰ طَرْفِهِ، فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ، فَانْطَلَقَ بي جِبْرِيلُ حَتّىٰ أَتَى السَّماءَ الدُّنْيا».

ويستمرّ في السّرد كما في الرواية الثانية إلى أن يرفع إلى سدرة المنتهى:

«فَإِذا نَبْقُها مِثْلُ قِلالِ هَجَرَ، وَإِذا وَرَقُها مِثْلُ آذانِ الْفِيَلَةِ...».

وبعد أن يرى النهرين الباطنين والنهرين الظاهرين يقول:

« ثُمَّ أُتِيتُ بِإِناءٍ مِنْ خَمْرٍ ، وَإِناءٍ مِنْ لَبَنٍ ، وَإِناءٍ مِنْ عَسَلٍ ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ ، فَقالَ : هِيَ الْفِطْرَةُ الَّتي أَنْتَ عَلَيْها وَأُمَّتُكَ ، ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلواتُ خَمْسينَ صَلاةً كُلَّ يَوْمٍ..» ، وتبدأ المراجعات ويكمل السرد كما في الرواية الثانية..

المناقشة:

إنّ استيعاب مثل هذه الروايات يستدعي تجميد العقل وإغفال المنطق ، فقد تضمّنت إساءات لكلّ ما هو قيّم ومقدّس في عقيدة المسلم.. وقد اعترف بعض العقلاء من علماء العصور المتأخّرة أنّ هذه الروايات وأشباهها إنّما هي من الإسرائيليّات التي اُدخلت على عقائد المسلمين وتراثهم.. ولكن أليس من الغريب أن نجد هذه الإسرائيليّات في كتاب يعتبره الكثير من المسلمين في قمّة الصحاح ؟! وهل صحيحاً أن نعتبر كتاباً يحوي مثل هذه الروايات (صحيحاً) ؟!

إنّنا لم نكن بحاجة إلى نقل هذه الأحاديث ومناقشتها لو أنّ القوم لم يعطوا للبخاري وصحيحه كلّ هذه القدسيّة ، ويضعوه بعد كتاب الله من حيث الصحّة والوثاقة والطهارة ، ولو أنّهم قالوا : هذا هو أحد كتب الحديث عندنا ، وأنّ فيه الصحيح كما فيه السقيم ، لأغنونا عن هذا البحث.. أمّا وقد قالوا أنّ كلّ ما ورد فيه صحيح لا يرتقي إليه الشكّ ، وأنّ كلّ من أجاز البخاري روايته قد اجتاز القنطرة ، فقد دفعونا دفعاً إلى الحوار ، وفرضوا علينا المناقشة..

إنّ القراءة المتأنّية للروايات الأربعة آنفة الذكر ستدفع إلى السطح العديد من الملاحظات والتساؤلات التي ستكون بذاتها المعول الذى سيهدمها ويضعها في مهبّ الريح.. وإليك بعضها:

١ ـ دلّت الروايات على أنّ لجبريل عليه‌السلام جسم مادّي لأنّه لم يتمكّن من الدخول على النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله إلّا بعمل فتحة في سقف البيت « فرج عن سقف بيتي » ، وأنّ سيّد

الملائكة لا يروقه الحضور أمام النبيّ ﷺ إلّا بعمل خارق للعادة يلفت إليه أنظار النبيّ وهو هنا انفراج سقف البيت !!

فهل عجزت قدرة الجليل سبحانه عن تدبير وسيلة غير هذه يألفها النبيّ ويأنس إليها ؟ وهل يحتاج جبريل من الناحية العمليّة إلى تلك الفتحة لكي يصل إلى النبيّ ﷺ ، وقد تواترت الأخبار أنّ الملائكة مخلوقات روحانيّة شفّافة تستطيع النفاذ بإذن الله وقدرته إلى أيّ مكان دون الاحتياج إلى عمل فتحة هنا أو هناك ، مثلما ينفذ ملك الموت عليه السلام إلى كلّ مكان ، حتّى إلى الجنين في بطن اُمّه ، أوكسريان الشيطان مسرى الدم في جسد الإنسان ، وكلاهما لا يخرقان سقفاً أو جداراً ؟ !

٢ ـ دلّت الروايات على أنّ الحكمة والإيمان ليست اصطلاحات لحالات من الرقيّ والثراء الفكريّ والخزين العقائدي ، وإنّما هي حاجات مادّيّة توضع في « طست » وتفرغ في الصدر عن طريق فتحة يتمّ إحداثها فيه . .

٣ ـ تبيّن أنّ في السماوات أبواباً ذات مصاريع وأقفال . . وهذا يتطلّب وجود جدران ، حيث لا فائدة من الباب بلا جدار أو سياج ، وأنّ حرّاساً يقفون على تلك الأبواب ، لا يعرفون جبريل ولا النبيّ ولم يبلّغوا بالإسراء ، بدليل أنّهم يسألون ويجابون مثل الذي يحصل على الأرض تماماً في أيّة استعلامات : مَن الطارق ؟ ماذا تريد ؟ هل معك أحد ؟ هل تمّ استدعاؤه أم أنّه مراجع عاديّ ؟ وربّما طلبوا منه هويّة أو جواز سفر . . لا ندري !!

٤ ـ أظهرت الروايات أنّ أبانا آدم عليه السلام يتعرّض لعذاب مستمرّ وضغط نفسيّ وعاطفيّ شديد منذ وفاته وحتّى يوم القيامة ، فهو منشغل على طول الوقت بالضحك مرّة والبكاء اُخرى ، فإذا التفت يميناً ورأى أبناءه المؤمنين ضحك ، وإذا التفت شمالاً ونظر أبناءه العاصين بكى ، ولا ندري كيف جمع آدم كلّ أبنائه على جانبيه وعرف مصيرهم إلى الجنّة أو النار ، ويوم الحساب لم يحن موعده

بعد !! وكيف تسنّى له وهو نبيّ الله وخليفته على أرضه أن يتعاطف مع بنيه المحكومين بالنار ، فيتألّم من أجلهم ويواظب على البكاء عليهم في كلّ لحظة وفي كلّ حين ، وكان الحريّ به أن ينبذهم ويجحدهم لأنّهم عصوا الله وخالفوا شرائعه فاستحقّوا النار ؟!

٥ ـ تبيّن أنّ الأنبياء موزّعون كلّ في سماء ، عدا عيسى ويحيى قد أسكنا في سماء واحدة ، ربّما لأنّهما ابنا خالة ، على عهدة بعض الروايات ، وقد وجد النبيّ ﷺ ثمانية منهم فقط ، ولا ندري أين وضع الله الأنبياء الآخرين كداود ويعقوب ولوط وزكريّا ويونس وهود ولقمان وغيرهم ، أفي سماء ثامنة لم يصلنا خبرها ؟ أم في مكان آخر ، كما لم نعلم سبب استبعاد بعض الأنبياء من أُولي العزم كنوح وسليمان عن هذه السماوات السبع !!

٦ ـ نصّت الروايات على أنّ أوامر الله سبحانه وتعالى قابلة للمراجعة والمفاصلة حيث كان سبحانه قد فرض خمسين صلاة على أُمّة محمّد ﷺ ، ولكن انصياع النبيّ ﷺ لنصيحة موسى عليه السلام وإلحاحه في المراجعة والطلب نزل بها إلى خمس صلوات فقط ، كما تبيّن أنّ موسى أعرف من نبيّنا ﷺ بأمّته ، إذ قرّر أنّها لا تطيق ما فُرض عليها « إنّ أُمّتك لا تطيق ذلك » ، وأنّ تلك المعرفة لدى موسى قد حصل عليها من الخبرة التي اكتسبها من خلال معالجته « لبني إسرائيل أشدّ المعالجة » ، وإزاء اقتناع النبيّ ﷺ بخبرة موسى ، بقي منقاداً لتوجيهاته ، مواظباً على الذهاب والإياب ، مطالباً ربّه بالتخفيض ، وقد نستغرب هذا الحماس من موسى للتخفيف عن أُمّة محمّد ، وقد رأيناه في الرواية الثانية حاسداً لمحمّد ﷺ ولأُمّته إلى الحدّ الذي جعله يبكي ويقول : « يا ربّ ، هذا الغلام الذي بُعث بعدي يدخل الجنّة من أُمّته أفضل ممّا يدخل من أُمّتي » !!

٧ ـ لاحظنا أنّ موسى عندما كان ينصح النبيّ بمراجعة ربّه كان النبيّ « يذهب » ويراجعه ، ثمّ « يعود » ، فإلى أين كان يذهب ؟ هل كان الله تبارك ذكره موجوداً

في مكان محدّد يراجعه فيه ؟ أوَ لم يكن بمقدوره أن يناجيه وهو في مكانه لأنّه تعالى موجود في كلّ مكان ؟ أوَلم يفهموا أنّ وجوده سبحانه في مكان وخلوّ مكان آخر منه هو عين التجسيم الذي يدّعون أنّهم لا يعتقدوه ؟

٨ ـ كما رأينا أنّ الله سبحانه كان يضع من الصلاة بعد كلّ مراجعة شطرها ، أي نصفها ، وبذلك يصبح عدد الصلوات بعد المراجعة الأُولى **٢٥** صلاة ، وبعد الثانية **١٢** ونصف وبعد الثالثة ٦ وربع ، فهل فكّروا كيف سيقيمون نصف وربع الصلاة لو أنّ الله لم يستجب لطلب النبيّ في المراجعة الثانية أو الثالثة لو أنّ النبيّ قد كفّ عن الطلب ؟ !

٩ ـ من الغريب أنّ يصوّروا النبيّ ﷺ وهو أعلم الخلق بعظمة الله وحكمته في تقدير الأُمور ، ونفوذ مقاديره في الأشياء ، ورأفته ورحمته بعباده ، وهو الذي وصفه ربّه : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[1] ، وهو القائل : « **أدّبني ربّي فأحسن تأديبي** »[2] ، نقول : إنّه من الغريب أن نجد هذا النبيّ لم يستحِ من ربّه إلّا في المراجعة الخامسة ، فإذا كان الأمر متعلّقاً بالحياء فإنّه لممّا يتناسب مع خلق النبيّ وحيائه أن يحصل هذا منذ المراجعة الأُولى ، وحاشا رسول الله أن يكون كذلك .

١٠ ـ ومن الغريب أيضاً ما ورد في الروايتين الأُولى والثانية ، ففي الأُولى أنّ الله سبحانه قال في آخر مراجعة للنبيّ : « هي خمس وهي خمسون ، ولا يُبَدَّل القول لديّ » ، فما معنى هي خمس وهي خمسون ؟ وكيف يقول لا يبدّل القول لديّ وقد بُدّل أكثر من مرّة وأصبحت الصلوات خمساً بعد أن كانت خمسين ؟ ! وفي الثانية : قول النبيّ ﷺ عندما رفض المراجعة الأخيرة : « سلّمت بخير » ، ومعناها أنّه سلّم على الله وودّعه فلا يتسنّى له العودة بعد ذلك ! ! نستغفر الله ، كيف يتجرّأون ؟

---

(١) القلم ٦٨: ٤.

(٢) الجامع الصغير ١ : ٥١ ، الحديث ٣١٠. كنز العمّال ١١ : ٤٠٦ ، الحديث ٣١٨٩٥.

١١ ـ دلّت الرواية الرابعة على أنّ أُمّة محمّد ﷺ قد تعرّضت إلى امتحان عسير وقاها الله شرّه ، فماذا سيكون مصيرها لو أنّ النبيّ ﷺ قد تناول قدح الخمر بدل قدح اللبن وهو لا يدري ؟ ولم يكن مطلوباً منه أن يدري . . كما لم يُطلب منّا الآن أن ندري ما هي علاقة الفطرة باختيار أحد الأقداح ، فأُمّة محمّد لم تمنعها الفطرة عن شرب الخمر ، وهي التي كانت تشربه في جاهليّتها ، وإنّما منعها تحريمه في شريعة الإسلام ، كما أنّ الفطرة لم تمنع من لا زالوا يشربونه من تلك الأُمّة . .

ولعلّه من الجهل والحمق أن يتصوّر أحد أنّ الأُمور كانت تجري على هذه الشاكلة ، فإنّ الله جلّ شأنه لم يترك الأُمور للمصادفات وضربات الحظّ ، وإنّما جعل كلّ شيء مقدّراً بمقدار ومحكوماً بضوابط وشرائع وقوانين أنزلها على أنبيائه ورسله ، كما أنّه لا توجد أيّة حكمة في هذا الاختبار الذي تعرّض له النبيّ ﷺ حين قدّموا له مع الأقداح قدحاً من خمر !!

١٢ ـ كما وقعت تلك الروايات في هفوات كثيرة نكتفي بالإشارة إلى بعضها :

منها : أنّ الأنبياء الذين مرّ بهم النبيّ الكريم كانوا يلقون التحيّة عليه ويرحّبون به ، فلا يردّ عليهم ولا يكلّمهم ، ويكتفي بسؤال جبرئيل عليه السلام عن أسمائهم .

ومنها : أنّ الملائكة الكتبة كانوا مثلنا يكتبون بأقلام على ورق ، وأنّ كثرة تلك الأقلام وحركتها على الورق كانت تُحدِث « صريفاً » سمعه النبيّ ﷺ .

ومنها : أنّ أبواب السماوات لم تكن تفتح للنبيّ وجبرئيل معه إلّا بعد استجواب طويل ، ولكن عندما كان النبيّ يراجع ربّه لتقليل عدد الصلوات كان يتحرّك بسهولة ويسر ويذهب ويعود بكامل حرّيّته .

ومنها : أنّ موسى عليه السلام كان يعرف سبب استدعاء النبيّ ﷺ حيث أنّه بمجرّد أن رآه سأله : ما فرض الله لك على أُمّتك ؟ في حين لم يسأله أيّ نبيّ آخر ، ولم نعرف سبب اختصاص موسى بذلك ؟

ومنها: تحديد الأنهر الظاهرة بالنيل والفرات فقط في حين توجد على الأرض أنهار ضخمة وعملاقة كنهر الأمازون والمسيسيبي ونهر السين وغيرها لم تظهر للنبيّ، ولو كان الراوي قد سمع بهذه الأنهر لما خلت روايته منها!

والخلاصة: فإنّ ما عرضته علينا تلك الروايات وما غاب عنّا إدراكه من نقاط الضعف فيها، يجعل من قبولها وتصديقها ضرباً من ضروب الحماقة، فاعتقاد صحّتها مغامرة بالعقيدة وأُصول الدين، وتحدٍّ للعقل، وتسفيه لكلّ القيم الأخلاقيّة التي نؤمن بها..

إنّ الإسلام هو دين العقل والعلم، لذلك فإنّ معجزته الكبرى التي أرغم بها أُنوف المعاندين هي القرآن الكريم الذي خاطب العقول والضمائر قبل كلّ شيء؛ لأنّه تعالى قدّر لهذه الرسالة الخاتمة أن تكون صالحة إلى يوم القيامة، فلن يكون مفيداً إحياء ميّت، أو إبراء أبرص، أو إنزال مائدة من السماء أو غيرها من المعاجز الظرفيّة التي حدثت على أيدي الأنبياء والرسل السالفين.

فكان القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة المتجدّدة على مرّ العصور لمخاطبته العقل الذي لا زال الكثيرون منّا مصرّين على إلغائه وتعطيله، جانحين إلى تصديق الغرائب والترّهات والأحلام، معرضين عن حقيقة أنّ الذي خلق الكون والإنسان، ووضع لهما هذا النظام الدقيق، وأرسل الأنبياء والرسل بالشرائع والقوانين ليس بتاركٍ شؤون عباده للمزايدات والمناقصات، والرؤى والأحلام..

وعليه: فإنّنا نرفض هذه الروايات وأمثالها، ونقول: إنّها مجرّد أساطير وأوهام لا تنطلي على عقولنا كما كانت تنطلي على عجائز الأحقاب السالفة، فمسلم اليوم لا يصدّق أنّ الحكمة والإيمان يوضعان في طست ويُعبّئان في جوف الإنسان كما تعبّأ الماكنة بالوقود لكي يصبح حكيماً ومؤمناً، ولا نصدّق أنّ آدم عليه السلام جالس منذ آلاف السنين إلى ما شاء الله ليضحك أو يبكي كلّما نظر إلى ذرّيّته، ولا نصدّق كلمة واحدة ممّا ورد في هذه الروايات..

ولكنّنا نصدّق ونؤمن بأنّ الله سبحانه عندما أرسل الأنبياء بالأديان قدّرها في أروع تقدير، وجعلها في أبدع صورة، وأدقّ نظام، وختمها جميعاً بخير الأديان وأكملها، الإسلام الذي أتمّه وارتضاه للناس ديناً، وعزّزه بخير الأنبياء وسيّدهم محمّد بن عبدالله ﷺ، وبخير الكتب السماويّة، القرآن الكريم، ليقودهم نحو السعادة في الدنيا والآخرة، وأنّه سبحانه لم يترك شريعته وأحكامه لأحلام الحالمين، وآراء المتفيقهين، ولا للظروف والمفاجآت، وأنّ كلّ قضيّة من قضايا هذا الدين القيّم، كبرت أم صغرت، هي من عند الله، بوحيه وتنزيله وأمره وحكمته، وأنّ موسى عليه السلام ونبيّنا الكريم ﷺ وباقي الأنبياء والرسل ليسوا قادرين على تغيير مشيئة الله، بل هم بعض وسائله في إمضائها على خلقه، ولا تسمح لهم معرفتهم بالله وعظمته وحكمته وإقرارهم بالعبوديّة المطلقة لسلطانه، بمراجعته ومناقشته في أيّ قرار من قراراته أو تشريع من تشريعاته، سيّما في الفرائض التي يعلم هو وحده مغزاها والغاية منها، فعندما أراد أن يُعبد، حدّد نوع العبادة التي يرتضيها، ووضع لها أشكالها وأوقاتها وتفاصيلها، وبما يتلاءم مع أدنى طاقة يستطيعها الإنسان تيسيراً له، وإلقاءاً للحجّة عليه..

أحاديث الوحي والتنزيل

الأحاديث:

١ ـ <u>١ / ١ / ٣</u>

بسنده عن عائشة قالت:

«وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ في الْيَوْمِ الشَّديدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقاً».

٢ ـ <u>٢ / ٤ / ١١٢</u>

بسنده عن عائشة، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«.. أَحْياناً يَأْتِيني مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ ما قالَ، وَأَحْياناً يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُني فَأَعي ما يَقولُ».

٣ ـ <u>٢ / ٦ / ١٧٣</u> و <u>٣ / ٩ / ٢٩</u>

بسنده عن عائشة، قالت:

«فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ في غارِ حِراءٍ، فَجاءَهُ الْمَلَكُ فيهِ، فَقالَ: اقْرَأْ.

فَقالَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: ما أَنا بِقارِئٍ.

قالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتّىٰ بَلَغَ مِنّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فقالَ: اقْرَأْ.

قُلْتُ: ما أَنا بِقارِئٍ، فَأَخَذَني فَغَطَّنِي الثّانِيَةَ حَتّىٰ بَلَغَ مِنّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقالَ: اقْرَأْ.

قُلْتُ: ما أنا بِقارِئٍ، فَأَخَذني فَغَطَّنِي الثّالِثَةَ حَتّىٰ بَلَغَ مِنّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقالَ: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ الآيَة[١]، فَرَجَعَ بِها رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤادُهُ حَتّىٰ دَخَلَ عَلىٰ خَدِيجَةَ فَقالَ: زَمِّلوني زَمِّلوني، فَزَمَّلُوهُ حَتّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، قالَ لِخَدِيجَة: أَي خَدِيجَة ما لِي؟ لَقَدْ خَشِيتُ عَلىٰ نَفْسي، فَأَخْبَرَها الْخَبَرَ.

قالَتْ خَدِيجَةُ: أَبْشِرْ فَوَاللهِ لا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلىٰ نَوائِبِ الْحَقِ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتّىٰ أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخُو أَبِيها، وَكانَ امْرَءاً تَنَصَّرَ في الْجاهِلِيَّةِ، وَكانَ يَكْتُبُ الْكِتابَ الْعَرَبِيَّ، وَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ ما شاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكانَ شَيْخاً كَبِيراً قَدْ عَمِيَ، فَقالَتْ خَدِيجَةُ: يا عَمِّ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ.

قالَ وَرَقَةُ: يابْنَ أَخي، ماذا تَرىٰ؟

فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ خَبَرَ ما رَأىٰ.

فَقالَ وَرَقَةُ: هٰذَا النّاموسُ الَّذي أُنْزِلَ عَلىٰ مُوسىٰ يا لَيْتَنِي فِيها جَذَعاً لَيْتَنِي أَكُونُ حَيّاً ذَكَرَ حَرْفاً.

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟

قالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بِمِثْلِ ما جِئْتَ بِهِ إِلّا أُوذِي، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ حَيّاً أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً، حَتّىٰ حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ فِيما بَلَغَنا حُزْناً غَدا مِنْهُ مِراراً كَيْ يَتَرَدّىٰ مِنْ رُؤُوسِ شَواهِقِ الْجِبالِ، فَكُلَّما أَوْفىٰ بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ تَبَدّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ فَقالَ: يا مُحَمَّدُ،

---

(١) العلق ٩٦: ١.

إنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقّاً فَيَسْكُنُ لِذلِكَ جَأْشُهُ، وَتَقِرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ، فَإِذا طالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدا لِمِثْلِ ذلِكَ، فَإِذا أَوْفىٰ بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ فَقالَ لَهُ مِثْلَ ذلِكَ».

٤ ـ ٢ / ٤ / ١١٦

بسنده عن جابر بن عبدالله أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«ثُمَّ فَتَرَ عَنّي الْوَحْيُ فَتْرَةً، فَبَيْنا أَنا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّماءِ، فَرَفَعْتُ بَصَري قِبَلَ السَّماءِ، فَإِذا الْمَلَكُ الَّذي جاءَني بِحِراءَ قاعِدٌ عَلىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ حَتّىٰ هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمِّلوني زَمِّلوني، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالىٰ: ﴿ يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ إلى قوله: **﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾[1]».**

٥ ـ ٢ / ٦ / ١٦١

بسنده عن يحيى بن أبي كثير، قال:

«سَأَلْتُ أَبا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِالرَّحْمنِ عَنْ أَوَّلِ ما نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ.

قالَ: ﴿ يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾.

قُلْتُ: يَقُولُونَ: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾.

فَقالَ أَبُو سَلَمَةَ: سَأَلْتُ جابِرَ بْنَ عَبْدِاللهِ رضي الله عنه عَنْ ذلِكَ، وَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ الَّذي قُلْتَ، فَقالَ جابِرٌ: لَا أُحَدِّثُكَ إِلّا ما حَدَّثَنا رَسُولُ اللهِ ﷺ، قالَ: جاوَرْتُ بِحِراءٍ، فَلَمّا قَضَيْتُ جِواري هَبَطْتُ، فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ عَنْ يَميني فَلَمْ أَرَ شَيْئاً، وَنَظَرْتُ عَنْ شِمالي فَلَمْ أَرَ شَيْئاً، وَنَظَرْتُ أَمامي فَلَمْ أَرَ شَيْئاً، وَنَظَرْتُ خَلْفي فَلَمْ أَرَ شَيْئاً، فَرَفَعْتُ رَأْسي فَرَأَيْتُ شَيْئاً، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُوني وَصُبُّوا عَلَيَّ ماءً بارِداً.

---

(١) المدّثّر ٧٤: ١ ـ ٥.

قالَ: فَدَثَّرُوني وَصَبُّوا عَلَيّ ماءً بارداً.

قالَ: فَنَزَلَتْ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ .

المناقشة:

إنّ ما تدعونا إليه هذه الروايات من مفاهيم يلفّها الوهم والخرافة والتلفيق، لا نتوقّف لحظة في رفضها وعدم قبولها لتصادمها الصارخ مع العقل والوجدان.. إنّ القراءة الصائبة لأيّ حدثٍ أو حديثٍ هي تلك القراءة الواعية التي تعتمد العقل والتحليل العلميّ كوسائل ضروريّة من وسائل الفهم والإدراك.. وقد أظهرت هذه الأحاديث:

١ ـ أنّ جبرئيل عليه السلام كان يجلس على كرسيّ معلّق في السماء وينادي على النبيّ صلى الله عليه وآله، والنبيّ يتلفّت يميناً وشمالاً دون أن يرى شيئاً، فيرفع رأسه فيرى في السماء شيئاً يمتلئ من منظره رعباً، فيسرع إلى بيته مرتاعاً مرتجفاً ويقول: زمّلوني.. زمّلوني.. فيزمّلوه، فهل يقبل العقل أن تكون هذه هي الطريقة التي يتّصل بها الخالق العظيم برجلٍ من عباده اختاره لرسالته، وأراده لخلافته على أرضه، واصطفاه لنبوّته؟ فيكون أوّل اتّصاله به إرسال مَن يقعد له على كرسيّ معلّق بين الأرض والسماء، ثمّ يناديه وكأنّه يتعمّد ترويعه!! فما كان من النبيّ ـ كردّ فعل لمّا رأى ـ إلّا أن ارتاع وخاف وانصرف إلى بيته دون أن يكون قد عرف شيئاً ودون أن يسأل ذلك المعلّق في السماء مَن يكون؟ أو ماذا يريد؟! وما أن وصل بيته حتّى طلب منهم أن يزمّلوه لأنّه كان يرتجف من شدّة الخوف!!

٢ ـ وبعد أن زمّلوه، وذهب عنه الروع، وجدناه مستغرباً ما حلّ به، ولا يعرف جواباً لتساؤلاته، فيلجأ إلى زوجته ليقول لها: ما لي؟ لقد خشيت على نفسي.. فكانت زوجته أكثر منه دراية وحكمة، وأعرف منه بما رأى! فأجابته فوراً أنّ ما به هو خير من الله، وقالت له: أبشر فوالله لن يخزيك الله أبداً.. إلى آخر حديثها..

أمّا هو، المختار للنبوّة، والمرتقب لحمل الرسالة، وقيادة البشريّة، وبناء دولة الله في الأرض، والمنفرد دون قومه بمعرفة ربّه، والمتفرّغ لعبادته في مغاور الجبال، نقول: أمّا هو، فلا يتبادر إلى ذهنه غير الخشية على نفسه من أن يكون قد حدث له مكروه، فيسارع إلى سؤال زوجته عمّا حلّ به!! فهل هذا ممّا يقبله العقل القويم والمنطق السليم؟! وهل هذا هو مستوى رسول الله في أعينهم؟!

٣ ـ إنّنا لا نستوعب احتياج رجل اختاره الله سبحانه للنبوّة، وبدأ بتهيئته لهذا الدور العظيم، وهذا المنصب الخطير.. إلى مشورة أيٍّ كان، فمهما كانت منزلة ورقة بن نوفل، ومهما كان مقدار اطّلاعه على الديانات السابقة، فإنّ ما عند محمّد ﷺ خيرٌ ممّا عنده، والرواية نصّت على أنّ ورقة كان نصرانيّاً، بينما نعلم أنّ نبيّنا الكريم ﷺ هو درّة القلادة الإبراهيميّة التي عبدت الله جلّ شأنه خارج أُطر اليهوديّة والنصرانيّة اللتين كانتا قد وصلتا إلى ذروة التحريف آنذاك.. فالنبيّ لم يكن منطلقاً من فراغ في معرفته لله وإيمانه به، وإنّما كان خلاصة فذّة لإيمان جيلٍ كامل من أبناء إبراهيم عليه السلام: **﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَـكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾**(١).

وعليه: فإنّه من المستبعد أن يذهب هذا الحنيفي المسلم وهو في دور التهيئة لمنصب النبوّة إلى رجل نصرانيّ يشتغل بالكهانة والتنجيم ليعرف منه ما أصابه وما رآه!!

٤ ـ الطريقة التي ظهر بها المَلَك في غار حراء، وقوله للنبيّ ﷺ: «اقرأ» ثلاث مرّات بعد كلٍّ منها يأخذه فيغطّه حتّى يبلغ منه الجهد مبلغه فيطلقه، سنقف أمامها حائرين إذا ما علمنا أنّ معنى «غطّه» هو «عَصَرَهُ بشدّة» لأنّنا سنطّلع على ما عاناه النبيّ ﷺ من عذاب وألم لم يكن لهما أيّ مبرّر أو تفسير معقول.. فما الذي كان

---

(١) آل عمران ٣: ٦٧.

مطلوباً من النبيّ ﷺ أن يقرأ ؟! وما سبب هذا الترويع الملائكيّ لرجل اختاره الله لنبوّته وتبليغ رسالته ؟! ألم يكن الأنسب معاملته برفق ولين وأناة لأنّ الموقف كان يتطلّب الرأفة به وتسكين خوفه وتهدئة روعه ، لا أن يفاجئه الملك بطلب متكرّر : اقرأ .. اقرأ .. ويعصره بشدّة كلّما اعتذر !!

٥ ـ نصّت إحدى الروايات على أنّ النبيّ ﷺ كان كلّما تأخّر عنه الوحي يذهب إلى شواهق الجبال محاولاً الانتحار ، وكلّما اقترب من التنفيذ يظهر له الملَك ، ويقول له : إنّك رسول الله حقّاً ، فيسكن روعه وينزل ! فماذا يعني هذا ؟ هل تركه ربّه متخبّطاً في الأوهام فلا يقرّ له قرار ، ولا يدري ماذا يحدث له فاضطربت نفسه ، واختلط عليه تفكيره ويئس من الحياة فحاول الانتحار ؟!! وإذا كان كذلك ، أفلم تكفه محاولة الانتحار الأُولى وظهور الملَك أمامه وتهدئته وتثبيته ، فلا يكرّرها مرّة أُخرى ؟!! تعالى الله وتنزّه رسوله عمّا يصفون ..

٦ ـ عدم منطقيّة الحوار المزعوم الذي دار بين النبيّ وورقة بن نوفل ، فسياق الرواية يدلّ على أنّ ورقة قد عرف فوراً أنّ ما رآه النبيّ هو الناموس الأكبر ، مع أنّ النبيّ لم يكن قد رأى بعد غير شخص جالس على كرسيّ معلّق بين السماء والأرض ، فخاف منه وهرع إلى بيته ليزمّلوه .. ثمّ عندما قال له ورقة : « هذا الناموس الذي أُنزل على موسى ليتني أكون جذعاً ، ليتني أكون حيّاً » يجيبه النبيّ : « أوَ مُخرجيّ هم ؟ » فيردّ ورقة : نعم ، لم يأت رجل بما جئت به إلّا أُوذي » .. ومعلوم أنّ النبيّ لم يكن قد جاء قومه بشيء جديد بعدُ .. وكلّ ما في الأمر أنّه رأى شيئاً وجاء ليعرف سرّه ..!!

إنّنا لعلى يقين أنّ كلّ ذلك لم يحصل ، وما هو إلّا أكاذيب لفّقوها ، وأوهام سطّروها ، وأنّ رسول الله ﷺ أعظم شأناً ، وأعلى جناباً من أن يذهب إلى رهبان النصارى وعرّافي العربان ليعرض عليهم ما رآه ويعرف منهم ما حلّ به ، أو يتوهّم شيئاً ممّا ورد في هذه الروايات التي كنّا ولا نزال ندفع ثمنها إساءات إلى ديننا الحنيف ونبيّنا الكريم وهجمات عليهما وطعون فيهما من أعداء الإسلام الذين

عرفوا كيف يوظّفون تلك الروايات الغبيّة لخدمة أغراضهم الدنيئة ومخطّطاتهم اللئيمة..

إنّ الله جلّت قدرته، يعرف خلقه، ويعلم ردود أفعالهم أزاء الأحداث، ومستوى قدراتهم على مواجهة المواقف، وإذا ما اختار منهم عبداً واصطفاه نبيّاً ورسولاً فلن يعرّضه لاختبارات غير مبرّرة ويتركه في حيرة من أمره إلى الحدّ الذي يوصله إلى محاولة الانتحار، أو يذهب به إلى الكهنة والعرّافين ليستشيرهم!! ولكن المناسب لعظمة الله وحكمته ورحمته أن يمُنّ على الذي اصطفاه بالأمن والطمأنينة والاستقرار النفسيّ والوجداني، ويعصمه من الخطأ والزلل، وينزل سكينته عليه، ويُعلّمه ويُربّيه، ويدعم قدراته، ويُعينه على الصبر في الشدائد والمحن، ويؤازره بالوحي، وينصره بالملائكة، ليتسنّى له نشر رسالته بهدوء نفس وطمأنينة بال، تضمن له النجاح في مهمّته والنصر على أعدائه ومعارضيه..

ومن هنا يكون من الجهل والسذاجة أن يتصوّر أحد أن يكون أوّل اللقاء بين النبيّ ومبعوث ربّه إليه مشحوناً بالتخويف والترويع، والعصر الشديد، والغموض، والفعاليّات اللا مبرّرة..

نعوذ بالله من وسوسة الشياطين، ونسأله السداد والتوفيق في معرفة الحقّ واتّباعه، وكشف الباطل واجتنابه، والوقوف على الصحيح من سنّة نبيّه الكريم التي هي رديف كتابه المبين، وتنقيتها من الشوائب التي علقت بها على مرّ العصور..

أحاديث القرآن الكريم

الأحاديث:

١ - ١ / ٣ / ١٢٢

بسنده عن عبدالرحمن بن عبدالقاري أنّه قال:

«سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ ﷺ يَقولُ: سَمِعْتُ هِشامَ بْنَ حَكِيم بْنِ حِزامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقانِ عَلىٰ غَيْرِ ما أَقْرأُها، وَكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَقْرَأَنِيها وَكِدْتُ أَنْ أَعْجَلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمْهَلْتُهُ حَتَّى انصَرَفَ، ثُمَّ لَبَّبْتُهُ بِرِدائِهِ فَجِئْتُ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: إِنّي سَمِعْتُ هٰذا يَقْرَأُ عَلىٰ غَيْرِ ما أَقْرَأْتَنِيها؟

فَقالَ لي: أَرْسِلْهُ.

ثُمَّ قالَ لَهُ: اقْرَأْ، فَقَرَأَ.

قالَ: هٰكَذا أُنْزِلَتْ.

ثُمَّ قالَ لي: اقْرَأْ، فَقَرَأْتُ.

فَقالَ: هٰكَذا أُنْزِلَتْ، إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا مِنْهُ ما تَيَسَّرَ».

٢ - ١ / ٣ / ١٩٢

بسند طويل بعد أن ذكر قصّة موسى والخضر وذكر الآية، قال: **«قَرَأَها ابْنُ عَبّاسٍ (وَكانَ أَمامَهُمْ مَلِكٌ)».**

٣ - ٢ / ٤ / ١٧٥

بسنده عن ابن مسعود، قال:

«سَمِعْتُ رَجُلاً قَرَأَ وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ خِلافَها، فَجِئْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَعَرَفْتُ في وَجْهِهِ الْكراهِيَةَ وَقالَ: كِلاكُما مُحْسِنٌ، وَلا تَخْتَلِفوا، فَإِنَّ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَأُهْلِكُوا».

٤ ـ ٢ / ٤ / ١٨٠

بسنده عن أنس، قال:

«إِنَّ عُثْمانَ دَعا زَيْدَ بْنَ ثابِتٍ وَعَبْدَاللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ الْعاصِ وَعَبْدَالرَّحْمٰنِ بْنَ الْحارِثِ بْنِ هِشامٍ فَنَسَخُوها في الْمَصاحِفِ، وَقالَ عُثْمانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلاثَةِ: إِذا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثابِتٍ في شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّما نَزَلَ بِلِسانِهِمْ، فَفَعَلُوا ذلِكَ».

٥ ـ ٢ / ٦ / ١٨٤

بسنده عن ابن عبّاس، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«أَقْرَأَني جِبْرِيلُ عَلىٰ حَرْفٍ، فَراجَعْتُهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ وَيَزِيدُني حَتّٰى انْتَهىٰ إِلىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ».

٦ ـ ٢ / ٤ / ٢١

بسنده عن أنس بن مالك، قال:

«أُنْزِلَ في الَّذينَ قُتِلُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ قُرْآنٌ قَرَأْناهُ، ثُمَّ نُسِخَ بَعْدُ: (بَلِّغُوا قَوْمَنا أَنْ قَدْ لَقِينا رَبَّنا، فَرَضِيَ عَنّا وَرَضِينا عَنْهُ)».

٧ ـ ٢ / ٦ / ٩٣

بسنده عن أنس بن مالك، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«لَوْ أَنَّ لابْنِ آدَمَ وادِياً مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وادِيانِ، وَلَنْ يَمْلأَ فاهُ إِلَّا التُّرابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلىٰ مَنْ تابَ».

وقال أُبيٌّ بن كعب: «كُنّا نرىٰ هٰذا مِنَ الْقُرْآنِ حَتّىٰ نَزَلَتْ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾[1]».

٨ - ١ / ٣ / ١٧٢

بسنده عن عائشة أنّها قالت:

«سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً يَقْرَأُ في الْمَسْجِدِ فَقالَ: رَحِمَهُ اللهُ، لَقَدْ أَذْكَرَني كَذا وَكَذا آيَةً أَسْقَطْتُهُنَّ مِنْ سُورَةِ كَذا وَكَذا».

٩ - ٢ / ٥ / ٢٥

بسنده عن علقمة:

«أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى الشّامِ فَلَقِيَ أَبا الدَّرْداءِ، فَقالَ لَهُ أَبُو الدَّرْداءِ: كَيْفَ كانَ عَبْدُاللهِ يَقْرَأُ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾[2].

قُلْتُ: وَالذَّكَرِ وَالأُنْثىٰ؟

قالَ: ما زالَ بِي هٰؤُلاءِ حَتّىٰ كانوا يَسْتَنْزِلُوني عَنْ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ».

١٠ - ٢ / ٦ / ٢٥

بسنده عن عمرو بن دينار:

«أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبّاسٍ يَقْرَأُ: (وَعَلَى الَّذينِ يُطَوَّقُونَهُ فَلا يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ)».

---

(١) التكاثر ١٠٢: ١.

(٢) الليل ٩٢: ١ و ٢.

وبسنده عن نافع :

«أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عُمَرٍ يَقْرَأُ : (فِدْيَةٌ طَعامُ مَساكِينَ)» .

١١ـ ٢ / ٦ / ٨٩

بسنده عن سعيد بن جبير ، قال :

«كانَ ابْنُ عَبّاسٍ يَقْرَأُ : (وَكانَ أَمامَهَمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صالِحَةٍ غَصْباً) .

وَكانَ يَقْرَأُ : (وَأَمّا الْغُلامُ فَكانَ كافِراً وَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ)» .

١٢ـ ٣ / ٩ / ٦٩

بسنده عن عكرمة ، قال :

«قالَ عُمَرُ : لَوْلا أَنْ يَقُولَ النّاسُ زادَ عُمَرُ في كِتابِ اللهِ لَكَتَبْتُ آيَةَ الرَّجْمِ بِيَدِي» .

١٣ـ ٣ / ٩ / ١٣٧

بسنده عن ابن مسعود :

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُوْحِيَ إِلَيْهِ : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتُوا مِنَ الْعِلْمِ إِلّا قَلِيلاً) .

قالَ الْأَعْمَشُ : هٰذِهِ قِراءَتُنا» .

١٤ـ ٢ / ٦ / ١٧٩

بسنده عن ابن عبّاس :

«أَنَّهُ قَرَأَ : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) ، وَقَدْ تَبَّ» ، وقد قرأها الأعمش هكذا .

١٥ـ ٣ / ٨ / ١٦٨

بسنده عن ابن عبّاس :

«أنَّ عُمَرَ بْنَ الْخطّابِ قالَ: إنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداًﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتابَ، فَكانَ مِمّا أَنْزَل اللهُ آيَةَ الرَّجْمِ، فَقَرَأْناها وَعَقِلْناها وَوَعَيْناها، رَجَمَ رَسُولُ اللهِﷺ وَرَجَمْنا بَعْدَهُ، فَأَخْشىٰ إنْ طالَ بِالنّاسِ زَمانٌ أَنْ يَقولَ قائِلٌ: وَاللهِ ما نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ في كِتابِ اللهِ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَريضَةٍ أَنْزَلَها اللهُ، وَالرَّجْمُ في كِتابِ اللهِ حَقٌّ عَلىٰ مَنْ زَنىٰ إذا أُحْصِنَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ، ثُمَّ إنّا كُنّا نَقْرَأُ فِيما نَقْرَأُ مِنْ كِتابِ اللهِ أَنْ (لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبائِكُمْ فَإِنَّهُ كُفْرٌ بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبائِكُمْ) أَوْ (إنْ كُفْراً بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبائِكُمْ)».

المناقشة:

ممّا لا يخفى أنّ جميع المسلمين، سيّما أكبر طائفتين منهم تشكّلان العالم الإسلاميّ اليوم، يعتقدون بالضرورة أنّ كتاب الله الحقّ الذي أنزله على نبيّه الكريم ﷺ هو ما بين الدفّتين، والمتداول بين عموم المسلمين، ولا كتاب لله غيره، وهو الذي لا ريب فيه ولا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، وأنّ الله سبحانه قد حفظه من التحريف وصانه من وقوع الزيادة أو النقص فيه، وحكموا جميعهم بالكفر على مَن يعتقد خلاف ذلك، وانبرى علماء الفريقين لإثبات عدم امتداد يد العبث إليه ببحوث ودراسات فاقت الوصف والحصر..

وعلى ذلك، فإنّ مناقشتنا للأحاديث والروايات المتعلّقة بهذا الأمر، ليست مناقشة لبعض طوائف المسلمين بقدر ما هي ردّ على ما ورد في «صحيح البخاري» ممّا يوهم بوقوع التحريف والزيادة والنقصان في كتاب الله، والتي منها ما ذكرناه في مستهلّ هذا الموضوع.. فنقول:

١ ـ نزول القرآن على سبعة أحرف

إنّ الحديث المتعلّق بنزول القرآن على سبعة أحرف أدخل المسلمين في متاهات كثيرة، وأوقع علماءهم في إرباك شديد جعلهم يتعسّفون التأويلات، ويبتكرون

التبريرات لإضفاء بعض الواقعيّة على الحديث وجعله قابلاً للفهم والتطبيق . . إلّا أنّه وبرغم الجهود المضنية التي بذولها ، ظلّت النتائج التي توصّلوا إليها مجرّد تمحّلات لم تنفعهم بشيء . . فلقد كان ممّا توصّلوا له واعتبروه جواباً مقنعاً يحلّ لغز (الأحرف السبعة) التفسيرات التالية :

- الأحرف السبعة هي المعاني المتقاربة .
- الأحرف السبعة هي الأبواب السبعة .
- الأحرف السبعة هي اللغات الفصيحة .
- الأحرف السبعة هي لغات مضر .
- الأحرف السبعة هي القراءات السبع .
- الأحرف السبعة هي الكثرة في الآحاد .
- الأحرف السبعة هي اللهجات المختلفة .

والجدير بالذكر أنّ كلّ هذه التفسيرات ظلّت مجرّد افتراضات غير قابلة للإثبات ، بل أنّ فيها من الضعف والتكلّف ما يجعلها تنهار بكلّ بساطة أمام التحقيق العلميّ الرصين . . وسنناقش بعض هذه الوجوه أو المهمّ منها بهدف تكوين فكرة مناسبة عمّا نحن فيه ، ومَن رغب بالمزيد فليراجعها في مظانّها .

■ الأحرف السبعة هي المعاني المتقاربة

وقد اختار هذا التأويل الطبري وجماعة آخرون[١] ، حيث قالوا : « إنّ المقصود بالأحرف السبعة هو سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة » .

مثل : أسرع ، عجّل ، إسعَ ، وقالوا : « إنّ هذه الأحرف كانت باقية إلى زمن عثمان ، فحصرها بحرف واحد وأمر بإحراق المصاحف التي كتبت بالأحرف الستّة

---

(١) تفسير الطبري ١ : ١٥. تفسير القرطبي ١ : ٤٢.

الأُخرى..» واستدلّوا على ذلك بعدّة روايات اعتمدوها، منها:

أوّلاً: قراءة أنس: (إنّ ناشئة الليل هي أشدّ وطأً وأصوب قيلاً) وحين قيل له: إنّما هي ﴿ **وَأَقْوَمُ قِيلاً** ﴾[١] قال: «أقوم، وأصوب، وأهدى واحد».

ثانياً: قراءة ابن مسعود (إن كانت إلّا زقية واحدة) بدلاً من ﴿ **إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً** ﴾[٢].

ثالثاً: أنّ أبا الدرداء كان يُقرئ رجلاً: ﴿ **إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ** ﴾[٣]، فأخذ الرجل يقول: إنّ شجرة الزقوم طعام اليتيم، ولمّا عجز أبو الدرداء عن تقويم قراءته ورآه لا يفهم، قال: إنّ شجرة الزقوم طعام الفاجر»[٤].

وهناك روايات أُخر اعتمدوا عليها لتدعيم رأيهم بأنّ الأحرف السبعة هي المعاني المتقاربة للكلمة الواحدة ولكن بألفاظ مختلفة، وقد اكتفينا بما أوردناه، وسنردّ عليه بالآتي:

١ - إنّ القليل من كلمات القرآن الكريم يمكن التعبير عنها بألفاظ مختلفة، أمّا أكثرها فلا يمكن فيه ذلك.

٢ - إنّ القرآن هو المعجزة الأبديّة والحجّة الإلـهيّة على خلقه، وإنّ الزعم بأنّ النبيّ ﷺ قد جوز تبديل كلمات القرآن بكلمات أُخرى تقاربها في المعنى يؤدّي إلى الاستغناء عن القرآن المنزل وعدم الاهتمام به، حيث سيكون بالإمكان -كما يقول الإمام الخوئي ؒ- استبدال قوله تعالى في سورة يس -مثلاً-: ﴿ **يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ** *

---

(١) المزمّل ٧٣: ٦.

(٢) يس ٣٦: ٢٩، ٥٣.

(٣) الدخان ٤٤: ٤٣ و ٤٤.

(٤) تفسير الطبري ٢٥: ٧٨.

لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾(١).

وجعله كما يلي: «يس ❊ والذكر العظيم، إنّك لمن الأنبياء ❊ على طريق سويّ ❊ إنزال الحميد الكريم ❊ لتخوّف قوماً ما خُوّف أسلافهم فهم ساهون»..

يقول الخوئي: «هل يتوهّم عاقل ترخيص النبيّ ﷺ بذلك! فلتقرّ عيون المجوّزين لذلك، سبحانك اللّهمّ إن هذا إلّا بهتان عظيم، وقد قال تعالى: **﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾**(٢).. فإذا كان لا يجوز للنبيّ أن يبدّله من تلقاء نفسه، فكيف جوّز هو ذلك لغيره؟ ثمّ كيف يظنّون أنّه ﷺ يرضى عن تبديل كلمات القرآن وهو لم يرض عن تبديل كلمة في دعاء، حيث روي أنّ النبيّ علّم البراء بن عازب دعاءً كان فيه: ونبيّك الذي أرسلت، فقرأ البراء: ورسولك الذي أرسلت، فأمره النبيّ ﷺ أن لا يضع الرسول موضع النبيّ(٣)، فإذا كان هذا في الدعاء، فماذا سيكون الشأن في القرآن؟»(٤).

٣ ـ بيّنت الروايات أنّ الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف هي للتوسعة على الأُمّة؛ لأنهم لا يستطيعون القراءة على حرف واحد، ولكنّنا وجدنا أنّ العكس قد حصل، فقد أصبح اختلاف القراءات نقمة على الأُمّة، كفّر بعضهم بعضاً بسببها..

كما وجدنا أنّ هذا الحرف الواحد كان العامل الأساسيّ في حفظ القرآن من التحريف، والعامل المساعد الأوّل في تمكين غالبيّة المسلمين الذين هم ليسوا عرباً أصلاً من حفظ القرآن وفهمه..

---

(١) يس ٣٦: ١ ـ ٦.

(٢) يونس ١٠: ١٥.

(٣) صحيح البخاري ١: ٦٧ و ٧: ١٤٧. سنن الترمذي ٥: ٢٢٧، الحديث ٣٦٤٥.

(٤) البيان في تفسير القرآن: ١٨١.

■ الأحرف السبعة هي الأبواب السبعة

وهي أنّ القرآن قد نزل على سبعة أبواب هي: «زجر، أمر، حلال، حرام، محكم، متشابه، أمثال» وقد استدلّوا على ذلك بما رواه ابن مسعود عن النبيّ ﷺ من أنّه قال: «**كان الكتاب الأوّل نزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب وعلى سبعة أحرف: زجر وأمر، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال**»[١].

وفي الردّ على هذا الرأي نقول:

أوّلاً: إنّ هذه الرواية معارضة برواية أبي كريب، عن ابن مسعود، إذ قال: «إنّ الله أنزل القرآن على خمسة أحرف: حلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال»[٢].. وعند التعارض يضعف الدليل كما هو معروف عند أهل العلم والدراية.

ثانياً: اضطراب الرواية من حيث المعنى، فالأمر والحلال معناهما واحد، والزجر والحرام معناهما واحد، فلا تكون الأبواب سبعة..

ثالثاً: اشتمال القرآن على أبواب أُخر لم تدخل ضمن هذه الأبواب السبعة التي ذكروها، مثل: ذكر المبدأ والمعاد، والقصص، والاحتجاجات، والمعارف، وغير ذلك، وإذا قال قائل بأنّ هذه الأُمور مندرجة ضمن المحكم والمتشابه نقول له: إنّ أبوابك السبعة هي أيضاً من المحكم والمتشابه، وإنّ جميع ما في القرآن لا يخلو من أحدهما[٣].

---

(١) تفسير الطبري ١: ٢٣. صحيح ابن حبّان ٣: ٢٠. التمهيد، ابن عبدالبرّ ٨: ٢٧٥. موارد الظمآن ٦: ٤. كنز العمّال ١: ٥٣٠، الحديث ٢٣٧١.

(٢) تفسير الطبري (جامع البيان) ١: ٥٠.

(٣) البيان في تفسير القرآن: ١٨٤.

■ الأحرف السبعة هي اللغات الفصيحة

ويراد به أنّ القرآن نزل بسبع لغات من لغات العرب الفصيحة: لغة قريش، ولغة هذيل، ولغة هوازن، ولغة اليمن، ولغة كنانة، ولغة تميم، ولغة ثقيف. ونسب هذا القول إلى جماعة منهم: البيهقي والأبهري وصاحب القاموس[(١)].

وفي الردّ على ذلك نقول:

أوّلاً: قول عمر: «نزل القرآن بلغة مضر»، وكتابته إلى ابن مسعود: «إنّ القرآن لم ينزل بلغة هذيل فأقرئ الناس بلغة قريش»[(٢)].

ثانياً: قول عثمان للرهط القرشيّين الثلاثة: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنّما نزل بلسانهم»[(٣)].

ثالثاً: إنّ نزول القرآن بسبعة لغات تعقيد وتعجيز للأُمّة وليس تسهيلاً عليها، ناهيك عن كون لغة قريش كانت هي المهيمنة على الجزيرة باعتبارها أفصح اللغات والمعوّل عليها في قواعد اللغة..

■ الأحرف السبعة هي القراءات السبع

وتشمل:

أوّلاً: ما تتغيّر حركته، ولا يزول معناه ولا صورته.

ثانياً: ما تتغيّر صورته، ويتغيّر معناه.

ثالثاً: ما تبقى صورته، ويتغيّر معناه.

---

(١) البيان في تفسير القرآن: ١٨٥.

(٢) البيان في تفسير القرآن: ١٨٥، وانظر: تفسير الكشّاف ٢: ٣١٩. الدرّ المنثور ٤: ١٨.

(٣) صحيح البخاري ٤: ١٥٦ و ٦: ٩٩. سنن الترمذي ٤: ٣٤٨. السنن الكبرى، البيهقي ٢: ٣٨٥.

رابعاً: ما تتغيّر صورته، ويبقى معناه.

خامساً: ما تتغيّر صورته ومعناه.

سادساً: التقديم والتأخير.

سابعاً: الزيادة والنقصان.

وفي الردّ على ذلك نقول:

١ - قالوا: إنّ النبيّ ﷺ هو الذي كان يستزيد جبرئيل عليه السلام ويطلب منه إقراءه على حروف أكثر، واعتبروا ذلك تيسيراً على الأُمّة، في حين ثبت أنّ هذا الاختلاف أصبح نقمة عليها لا تيسيراً، وقد ظهر ذلك في عهد عثمان، ولا يعقل أن يطلب النبيّ ﷺ من الله تعالى ما فيه فساد الأُمّة، كما لا يعقل أن يجيبه الله على ذلك، كما أنّ موضوع طلب النبيّ ﷺ للزيادة في الحروف أصلاً غير مقبول؛ لأنّه لم يكن له الرأي أو الخيرة فيما يوحى إليه، فكان متلقّياً لأوامر ربّه، صادعاً بتبليغها إلى الناس بكلّ دقّة وأمانة، لأنّه مؤمن بحكمته تعالى، فلا يحاوره ولا يطلب منه ما لم يأمره به..

٢ - إنّ استطاعة الأُمّة بعد عثمان على قراءة القرآن على حرف واحد برغم اختلاف لغاتها ولهجاتها، يكذّب الرواية التي نسبوها إلى النبيّ ﷺ والتي قال فيها: «**إنّ أُمّتي لا تستطيع القراءة على حرف واحد**»(١)، فكيف كان عسيراً عليها الاجتماع على حرف في زمن النبيّ، ويسيراً عليها الاجتماع عليه بعده؟

٣ - إنّ ما ظهر في عهد عثمان من اختلاف القراءة كان قد ظهر قبله في زمن النبيّ ﷺ ولم يقم النبيّ بما قام به عثمان من حصر القراءات.

«وهذه هي العمدة في رفض المتأخّرين من علماء أهل السنّة لهذا القول،

---

(١) جامع البيان ١: ٢٢. الدرّ المنثور ٤: ١١٠.

ولأجل ذلك قد التجأ بعضهم كأبي جعفر محمّد بن السعدان النحويّ والحافظ جلال الدين السيوطيّ إلى القول بأنّ هذه الروايات من المشكل والمتشابه ، وليس يُدرى ما هو مفادها »[١].

٢ ـ نسخ التلاوة

كان ينبغي بالمسلمين معالجة الروايات التي تضمّنت الإشارة إلى وجود زيادة أو نقص أو تحريف في القرآن ، برفضها وتكذيبها فوراً ، وغلق هذا الباب بكلّ طمأنينة وراحة بال ، ثقة بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾[٢] ، ولكن عدم جرأتهم على تكذيب بعض الرواة من الصحابة كان السبب الأكبر في تمرير تلك الروايات ، ومن ثمّ التورّط بها ، وتحمّل أعبائها ، والسعي إلى إيجاد المخرج منها . .

فآية الرجم التي تقدّم حديث الخليفة عمر عنها ، والتي ذكرها السيوطيّ بسنده عن الليث بن سعد بقوله : « أوّل مَن جمع القرآن أبو بكر ، وكتبه زيد . . وإنّ عمر أُتي بآية الرجم فلم يكتبها ، لأنّه كان وحده »[٣] ، والتي قال عنها عمر نفسه : « لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدي »[٤] . . قد ذكروا لها عدّة نصوص باختلاف بسيط نصّت على أنّه : « إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتّة نكالاً من الله والله عزيز حكيم » .

فإذا قلنا بصحّة الرواية ، فهذا يعني أنّ آية الرجم قد أُسقطت من كتاب الله ، وحيث أنّ الاعتقاد بسلامة القرآن من أيّ تلاعب هو من ضرورات الإيمان ،

---

(١) البيان في تفسير القرآن : ١٨٣.

(٢) الحجر ١٥ : ٩.

(٣) الاتقان في علوم القرآن : ١٦٣.

(٤) صحيح البخاري ٨ : ١١٣.

فقد ذهبنا إلى رفض الرواية وعدم الأخذ بها أو تصديقها ؛ لأنّ اعتقاد صحّتها طعن غير مباشر بكتاب الله لا يقرّه عقل ولا دين ، ولكنّ المؤسف أنّ بعض المسلمين ـ وحفاظاً على كرامة الراوي ـ ابتكروا طريقة غريبة تمكّنهم من تصديق الرواية ، وعدم الطعن براويها ، وعدم إلجائهم إلى القول بوجود نقص في القرآن .. فطلعوا علينا بنظريّة (نسخ التلاوة) التي كيّفوا معناها ليعبّر عن رفع الآية من القرآن ، والإبقاء على حكمها في الواقع . وهذا ممّا لا يتسنّى للعقل استيعابه ولا للمنطق استساغته ، إذ لم تُفهم ، ـ ولحدّ الآن ـ الحكمة من نسخ النصّ والإبقاء على مضمونه !!

وما قلنا يصحّ أيضاً على الشطر الثاني من خطبة عمر الذي جاء فيه : « ثمّ إنّا كنّا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله : أن لا ترغبوا عن آبائكم ، فإنّه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم ، أو أنّ كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم »(١) .

وتوجد في «صحيح مسلم» و «مسند أحمد» و «الإتقان» و «كنز العمّال» روايات كثيرة على هذه الشاكلة لم نتطرّق إليها ؛ لأنّ بحثنا متعلّق بصحيح البخاريّ وحده ..

إنّ القول بـ(نسخ التلاوة) هو اعتقاد مبطّن بتحريف القرآن وإسقاط بعضه ، حيث أنّ نسخ التلاوة هذا إمّا أن يكون قد وقع من قِبل النبيّ ﷺ ، أو من قِبل خلفائه ، فإذا قيل أنّه كان من قِبل النبيّ طالبناهم بالدليل ، وسيعجزون عن الإتيان به ، فهو ممّا لم يقله أحد ، إضافة إلى امتناع نسخ القرآن بالسنّة ، كما نصّ عليه أكثر علماء المسلمين ، ومنهم الشافعي وأحمد بن حنبل . وإذا قيل أنّه وقع من قِبل أحد الخلفاء بعد رسول الله ، فهذا هو عين القول بالتحريف ، وهو أيضاً ممّا لا يقرّه أحد من علماء المسلمين ..

وعليه : فلا بدّ من ردّ تلك الروايات واتّهامها وعدم الأخذ بها ، وحيث أنّ موضوعنا هو ليس دراسة شبهة تحريف القرآن ، فسنكتفي بهذا المقدار ..

والله وليّ التوفيق

---

(١) مسند أحمد ١ : ٤٧ . صحيح البخاري ٨ : ٢٦ .

أحاديث ليلة القدر

الأحاديث:

١ ـ ١ / ١ / ١٥

بسنده عن أنس، قال:

«أَخْبَرَني عُبادَةُ بْنُ الصّامِتِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ يُخْبِرُ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتَلاحىٰ رَجُلانِ مِنَ الْمُسْلِمينَ.

فَقالَ: إِنّي خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَإِنَّهُ تَلاحىٰ فُلانٌ وَفُلانٌ، فَرُفِعَتْ، وَعَسىٰ أَنْ يَكُونَ خَيْراً لَكُمْ. الْتَمِسُوها في السَّبْعِ وَالتِّسْعِ وَالْخَمْسِ».

٢ ـ ١ / ٢ / ٤٦

بسنده عن عبدالله بن عمر، قال:

«إِنَّ رِجالاً مِنْ أَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ أُرُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ في الْمَنامِ في السَّبْعِ الْأَواخِرِ فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَرىٰ رُؤْياكُمْ قَدْ تَواطَأَتْ في السَّبْعِ الْأَواخِرِ، فَمَنْ كانَ مُتَحَرِّيها فَلْيَتَحَرَّها في السَّبْعِ الْأَواخِرِ».

٣ ـ ١ / ٢ / ٤٦

بسنده عن أبي سلمة، قال:

«سَأَلْتُ أَبا سَعِيد ـ وَكانَ لي صَدِيقاً ـ فَقالَ: اعْتَكَفْنا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ مِنْ رَمَضانَ، فَخَرَجَ صَبِيحَةَ عِشْرِينَ فَخَطَبَنا وَقالَ: إِنّي أُرِيتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ ثُمَّ أُنْسِيتُها ـ أَوْ نُسِّيتُها ـ فَالْتَمِسُوها في الْعَشْرِ الْأَواخِرِ في الْوَتْرِ..».

٤ - ١ / ٢ / ٤٧

بسنده عن ابن عبّاس ، قال :

«قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : هِيَ في الْعَشْرِ (الأَواخِرِ) هِيَ في تِسْعٍ يَمْضينَ أَوْ سَبْعٍ يَبْقينَ - يعني ليلة القدر -» .

٥ - ١ / ٢ / ٤٧

بسنده عن ابن عبّاس ، قال :

«قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : الْتَمِسُوها في الْعَشْرِ الأَواخِرِ مِنْ رَمَضانَ ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ في تاسِعَةٍ تَبْقىٰ ، في سابِعَةٍ تَبْقىٰ ، في خامِسَةٍ تَبْقىٰ» .

٦ - ١ / ٢ / ٤٧

بسنده عن ابن عبّاس ، قال :

«الْتَمِسُوا في أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ» .

٧ - ٣ / ٩ / ٣١

بسنده عن عبدالله بن عمر ، قال :

«إِنَّ أُناساً أُرُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ في السَّبْعِ الأَواخِرِ ، وَإِنَّ أُناساً أُرُوا أَنَّها في الْعَشْرِ الأَواخِرِ ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : الْتَمِسُوها في السَّبْعِ الأَواخِرِ» .

المناقشة :

هذه هي أهمّ الروايات في « صحيح البخاري » عن ليلة القدر ، وقد أعرضنا عن الكثير منها رغم ما فيها من اختلافات في صياغة المتن ، لأنّها تتحدّث عن نفس الأيّام والليالي المذكورة في الروايات التي نقلناها ..

قال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾

صدق الله العليّ العظيم

هذه الليلة العظيمة المباركة التي جعل الله إدراك فضلها فوق إدراك البشر ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾، والتي جعلها ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾، أي خير من ستّين ألف ليلة ونهار، وأخبرنا أنّ الملائكة تتنزّل فيها بمعيّة الروح الأمين وهي تحمل من أوامر الجليل ما لا يعلمه إلّا هو سبحانه، وجعلها سلاماً حتّى مطلع الفجر..

هذه الليلة تشاء إرادة الخالق جلّ شأنه ـ حسب الرواية الأُولى ـ الكشف عنها للمسلمين تكرّماً منه عليهم وفضلاً يسديه إليهم، فيرسل جبرئيل الأمين عليه السلام ليبلّغ النبيّ صلى الله عليه وآله بموعدها.. فيقوم بتبليغه.. ويخرج إلى الناس ليبشّرهم بها.. ولكن فجأة «يتلاحى رجلان من المسلمين».. وإذا بالأمر الإلـهي يتبدّل.. وإذا بمشيئة الله تتعطّل.. وإذا بالمسلمين على مرّ العصور يُعاقبون بحجب موعد هذه الليلة عنهم.. ولماذا؟ لأنّ رجلين من المسلمين تلاحيا (أي تشاتما أو تخاصما)..

أليس هذا هو مضمون الرواية؟!

فهل يعقل أن يكون تخاصم رجلين من المسلمين سبباً مقبولاً ومنطقيّاً لتغيير مسار الأمر الإلـهيّ، ومؤاخذة الأُمّة الإسلاميّة جمعاء وإلى يوم القيامة على جريرة رجلين قد يكونان من جهّالها أو من سفهائها!! تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً..

ومع ذلك فلنا ملاحظات، هي:

١ ـ لم تنصّ أيّ من الروايات على أنّ المواعيد المحتملة لتلك الليلة صادرة عن وحي إلـهيّ، أو عن أمر نبويّ، بل كان كلّ ما فيها أحلام، قالوا: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أو بعض الصحابة قد رأوها في المنام، وقد أصبحنا في ريبة شديدة من هذه الأحلام

التي دخلت بشكل واسع ومؤثّر في عقائد المسلمين.. فقد أصبح من النوادر أن نجد أمراً من أُمور الدين لم يكن لأحد الصحابة أو الصالحين حلم بخصوصه، ممّا يعطي الدليل لذوي الأغراض المنحرفة لاتّهام الدين بأنّه ما قام إلّا على الأحلام، وهو ما لا يتناسب مع عظمة ديننا الحنيف وأهمّيته الكونيّة باعتباره خاتم الأديان والرسالات السماويّة.

والحقّ هو أنّه ليس في الإسلام قضيّة، صغرت أم كبرت، قد قامت على رؤيا أو حلم لأحدٍ كائناً مَن كان، وإنّما اعتمد كلّ ما فيه على التبليغ الإلٰهيّ، ورسمت كلّ خطوطه بريشة خلّاق عظيم، قدّر الأُمور بأحسن تقدير، وأرسى أُسسها ودعائمها بحكمته البالغة، وعلمه الذي أحاط بكلّ شيء..

وعليه: فإنّنا نرفض كلّ رواية حاولت إرجاع الأوامر والأحكام الشرعيّة إلى الرؤى والأحلام ولو رواها كلّ الصحابة..

٢ - إذا قيل أنّ رؤيا النبيّ ﷺ هي إحدى طرق الوحي، وأنّ ما يراه النبيّ في نومه ملزم للمسلمين حسب قواعد الشريعة، نقول: بشرط ثبوت صحّة صدور الرواية عن النبيّ ﷺ، وهذا لم يثبت لأنّ كلّ ما أسندوه إليه يختلف بعضه عن بعض، ولو كان قد قاله فعلاً لما وجدنا فيه كلّ ذلك الاختلاف، ولو كان وحياً لكان حاسماً وصريحاً..

٣ - تناقض الروايات الخاصّة باحتجاب هذه الليلة، فمنها ما أشار إلى أنها قد «رُفعت»، ومنها أنّ النبيّ «أنسيها»، ومنها أنّه «نسيها»!!

فإذا قلنا أنّها «رُفعت» فقد أجبنا على ذلك وبيّنّا استحالته، سيّما وأنّه في هذه الحالة يكون من (النسخ قبل حضور وقت العمل)، وهذا ما اتّفق الفقهاء على عدم جوازه على الشارع جلّ شأنه.

وإذا قلنا: إنّه قد «أُنسيها» فهذا مرفوض لافتقاره للحكمة، وأقلّ ما يقال فيه هو:

لماذا حصل الإخبار أصلاً إذا كانت الحكمة تقتضي الإنساء ؟ !

أمّا إذا قلنا : إنّ النبيّ قد نسيها فذلك ممّا لا يجوز على النبيّ ﷺ الأمين المؤتمن ، قائد الأمّة ، ومبلّغ رسالة ربّه الذي اصطفاه من خلقه ليبلّغهم أوامره ونواهيه . .

إنّ النبيّ الذي أُريد منه أن يواجه هذه المهمّة العظيمة ، لا ينبغي أن يكون معرّضاً للنسيان ، ولا يتركه ربّه دون أن يعصمه من السهو والنسيان في كلّ أفعاله وأقواله ، لأنّه خليفته على أرضه ، ولأنّه مأمور بالتبليغ عن ربّه ، ولأنّه حجّة الله على خلقه ، ولأنّه القدوة الملزمة قولاً وفعلاً للناس الذين آمنوا به ، حيث سيكون في كلّ لحظة من حياته موضع اقتداء ، فإذا كان ممّن ينسى ، فلن يكون هناك تبليغ أكيد ، ولا أمر موثوق ، فتبطل الحجّة ، وتضطرب المقاييس ، وتضيع الشريعة . .

إنّ ثقة المسلم بعصمة النبيّ في كلّ شيء ، هي ضمانته الوحيدة لترسيخ عقيدته ، وتثبيت إيمانه ، وتمكينه من الدفاع عنهما ، فلو كان النسيان وارداً على النبيّ في موضع ، فإنّه وارد عله في كل المواضع حتماً ، لأنّ المسألة ليست انتقائيّة كما هي عند بعض المسلمين الذين يعتبرون النبيّ معصوماً في تبليغ القرآن فقط ، وفيما عدا ذلك فهو بشر يجوز عليه ما يجوز عليهم ! ! وفي هذه الحالة من أين سنأتي باليقين والاطمئنان إلى صحّة ما بين أيدينا من أحكام وشرائع وسنن وقد يكون النسيان قد طالها هي أيضاً ؟

الفصل الثاني

أحاديث الشفاعة يوم القيامة

الأحاديث:

١ - <u>٢ / ٤ / ١٣٤</u>

عن أبي زرعة، عن أبي هريرة، قال:

«كُنّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في دَعْوَةٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّراعُ -وَكانَتْ تُعْجِبُهُ- فَنَهَسَ مِنْها نَهْسَةً، وَقالَ: أَنا سَيِّدُ الْقَوْمِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، هَلْ تَدْرُونَ بِمَ يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ في صَعِيدٍ واحِدٍ فَيُبْصِرُهُمُ النّاظِرُ وَيُسْمِعُهُمُ الدّاعي، وَتَدْنو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، فَيَقولُ بَعْضُ النّاسِ: أَلا تَرَوْنَ إِلىٰ ما أَنْتُمْ فيهِ إِلىٰ ما بَلَغَكُمْ؟ أَلا تَنْظُرُونَ إِلىٰ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلىٰ رَبِّكُمْ؟

فَيَقولُ بَعْضُ النّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْـمَلائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنَكَ الْـجَنَّةَ. أَلا تَشْفَعُ لَنا إِلىٰ رَبِّكَ؟ أَلا تَرىٰ ما نَحْنُ فيهِ وَما بَلَغْنا؟

فَيَقولُ: رَبِّي غَضِبَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَنَهاني عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ. نَفْسي نَفْسي، اذْهَبوا إِلىٰ غَيْري، اذْهَبوا إِلىٰ نُوحٍ.

فَيَأْتونَ نُوحاً فَيَقولونَ: يا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمّاكَ اللهُ عَبْداً شَكوراً، أَما تَرىٰ إِلى ما نَحْنُ فِيهِ؟ أَلا تَرىٰ إِلىٰ ما بَلَغْنا؟ أَلا تَشْفَعْ لَنا إِلىٰ رَبِّكَ؟

فَيَقولُ: رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ. نَفْسي نَفْسي، ائْتوا النَّبِيَّ ﷺ.

فَيَأْتُوني، فَأَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَيُقالُ: يا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهُ».

ويكرّر الحديث ص ١٤١ عن أبي هريرة أيضاً، ولكنّه يضيف إليه:

«فَيَأْتونَ إِبراهِيمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ، وَخَلِيلُهُ في الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنا إِلىٰ رَبِّكَ؟ فَيَقولُ ـ وَقَدْ ذَكَرَ كِذْبانَهُ ـ: نَفْسي نَفْسي، اذْهَبوا إِلىٰ مُوسىٰ..».

٢ ـ <u>٢ / ٦ / ١٧</u>

عن أنس، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَيَقولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنا إِلىٰ رَبِّنا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النّاسِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهِ، وَعَلَّمَكَ أَسْماءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنا عِنْدَ رَبِّكَ حَتّىٰ يُريحَنا مِنْ مَكانِنا هٰذا؟

فَيَقولُ: لَسْتُ هُناكُمْ ـ وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحِي ـ. ائْتُوا نُوحاً فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ.

فَيَأْتُونَهُ فَيَقولُ: لَسْتُ هُناكُمْ ـ وَيَذْكُرُ سُؤالَهُ رَبَّهُ ما لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ فَيَسْتَحِي، فَيَقولُ: ـ ائْتُوا خَليلَ الرَّحْمٰنِ.

فَيَأْتُونَهُ فَيَقولُ: لَسْتُ هُناكُمْ. ائْتُوا مُوسىٰ، عَبْداً كَلَّمَهُ اللهُ، وَأَعْطاهُ التَّوْراةَ.

فَيَأْتُونَهُ فَيَقولُ: لَسْتُ هُناكُمْ ـ وَيَذْكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ فَيَسْتَحِي مِنْ رَبِّهِ، فَيَقولُ: ـ ائْتُوا عِيسىٰ، عَبْدَ اللهِ وَرَسولَهُ، وَكَلِمَةَ اللهِ وَرُوحَهُ.

فَيَأْتُونَهُ فَيَقولُ: لَسْتُ هُناكُمْ. ائْتُوا مُحَمَّداً، عَبْداً غَفَرَ اللهُ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ

وَما تَأَخَّرَ.

فَيَأْتُوني ، فَأَنْطَلِقُ حَتّىٰ اسْتَأْذِنَ عَلىٰ رَبّي ، فَيُؤْذَنَ لي ، فَإِذا رَأَيْتُ رَبّي وَقَعْتُ ساجِداً ، فَيَدَعُني ما شاءَ اللهُ ، ثُمَّ يُقالُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَسَلْ تُعْطَهُ ، وَقُلْ يُسْمَعْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ.

فَأَرْفَعُ رَأْسي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لي حَدّاً ، فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ، ثُمَّ أَعُودُ الثّالِثَةَ ، ثُمَّ أَعُودُ الرّابِعَةَ ، فَأَقُولُ ما بَقِيَ فِي النّارِ إِلّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ ، وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلودُ».

٣ - ٢ / ٦ / ٨٤

بسنده عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ يذكر نفس الرواية الأُولى باختلاف بسيط عدا أنّ الناس في الأُولى يذهبون إلى آدم ، ثمّ نوح ، ثمّ محمّد ﷺ ، أمّا في هذه فإنّهم يذهبون إلى آدم ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ثمّ إلى محمّد ﷺ ، ثمّ يكمل الرواية فيقول:

«فَأَنْطَلِقُ فَآتي تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَأَقَعُ ساجِداً لِرَبّي عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحامِدِهِ ، وَحُسْنِ الثَّناءِ عَلَيْهِ ، شَيْئاً لَمْ يَفْتَحْهُ عَلىٰ أَحَدٍ قَبْلي ، ثُمَّ يُقالُ: يا مُحَمَّدُ ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، سَلْ تُعْطَهُ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ.

فَأَرْفَعُ رَأْسي فَأَقولُ: أُمَّتي يا رَبِّ ، أُمَّتي يا رَبِّ ، أُمَّتي يا رَبِّ.

فَيُقالُ: يا مُحَمَّدُ ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوابِ الْجَنَّةِ ، وَهُمْ شُرَكاءُ النّاسِ فِيما سِوىٰ ذٰلِكَ مِنَ الْأَبْوابِ.

ثُمَّ قالَ: وَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ ، إِنَّ ما بَيْنَ الْمِصْراعَيْنِ مِنْ مَصاريعِ الْجَنَّةِ كَما بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ ـ أَوْ كَما بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرىٰ ـ».

ملاحظة: هنالك روايات كثيرة بهذا المضمون ، لكنّنا أخذنا الروايات الجامعة

لما ورد في البقيّة لأنها تفي بالغرض، وما تركناه غير مؤثّر..

المناقشة:

لقد اعتمدت هذه الروايات كسابقاتها على الأُسطورة والخرافة، شأنها شأن أيّة مقطوعة من أدب الأساطير المبنيّ على مفردات الإثارة والتشويق، ومخالفة طبائع الأشياء ليتمكّن من لبّ السامع ويستحوذ عليه.. كقصص ألف ليلة وليلة، وسيرة بني هلال، وغيرها من الأساطير المتداولة بين الناس، وهي تتحدّث عن الإسم والمكان والزمان بكلّ ثقة واطمئنان.. ولا زال هنا وهناك من يظنّ واقعيّتها وصدقها، ولا نتجنّى على أحد إذا ما قلنا أنّ هؤلاء هم وحدهم القادرون على تصديق روايات الشفاعة آنفة الذكر التي رواها أبو هريرة..

وكأيّ راوية ضليع، فقد قدّم أبو هريرة بين يدي روايته توطئة يُلفت بها أنظار وأسماع الحاضرين، حين أشار إلى أنّه كان مدعوّاً مع رسول الله ﷺ على وليمة، ورُفع للنبيّ الذراع، وكان يحبّه (!) ونهس منه نهسة، ثمّ قال: أنا سيّد القوم يوم القيامة.. الخ (!)

إنّ هذه التوطئة وحدها كافية لإظهار مقدار التكلّف والتصنّع في الرواية، فأبو هريرة أراد أن يضفي على حديثه مفردة واقعيّة تعطيه قدراً من المتانة، وقوّة التأثير في السامعين، ولكنّ المؤسف أنّ هذه المفردة حملت من النشاز ما جعلها إحدى صور الضعف في روايته، فأصبحت كلوحة لفنّان أساء استخدام ألوانها أو وضع لها خلفيّة غير متجانسة معها، فصارت اللوحة كلّها نشازاً وصادمة لأعين الناظرين..

إنّ الطريقة المثلى في دراسة النصوص التاريخيّة، هي مقدرة الدارس على قراءة ما بين السطور، والوثوب ذهنيّاً إلى موقع الحدث لرؤية الصورة الحقيقيّة، والنظر في إمكانيّة حدوثه بالطريقة التي نقلها لنا التاريخ من عدمها. وفيما يتعلّق بموضوعنا وعلى فرض صدق أبي هريرة في حضوره تلك الدعوة مع النبيّ ﷺ فلنا أن نتصوّر

جماعة من المسلمين تمّت دعوتهم على وليمة يحضرها رسول الله ﷺ .. وعند حضور الطعام قُدِّم الذراع للنبيّ « لأنّه يحبّه » حسب ادّعاء أبي هريرة ، فتناوله النبيّ « ونهس منه نهسة » ، ثمّ قال : « أنا سيّد القوم يوم القيامة » واستمرّ يتحدّث عن الشفاعة حسب ما مرّ بنا ..

فهل هناك من يحتمل وقوع ذلك وبهذه الكيفيّة ؟ وهل ينسجم ذلك مع سلوك النبيّ ﷺ وطريقته في الحديث مع الناس ؟ وهل تمسح اللحظة التي همّ فيها بالإنصات إلى هكذا حديث ؟

أضف إلى ذلك ما اشتملت عليه الروايات من اضطراب ، وخلط ، وتعارض عجيب ممّا يجعلها كلّها بلا أدنى قيمة .. وسنحاول إيضاح ذلك من خلال النقاط التالية :

١ ـ إنّ هذه الروايات تتحدّث عن يوم القيامة : ﴿ **يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾ (١) ، ثمّ تأتي هذه الروايات لتقول إنّهم مجتمعون للتداول والتشاور فيمن سيلجأون إليه من الأنبياء ليشفع لهم عند ربّهم ، ويخلّصهم من العذاب ،كما تصوّرهم يمتلكون من حرّيّة الإرادة في التنقّل من نبيّ إلى نبيّ ، وكأنّهم ليسوا في ذلك اليوم الموعود الذي قال عنه تعالى ما قال ..

٢ ـ لعلّه من الغريب أن تفكّر أُمّة محمّد ﷺ وعلى رأسها قادتها وخلفاؤها ومؤمنوها باللجوء إلى آدم ونوح وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء تاركين خلف ظهورهم نبيّهم وإمامهم رسول الرحمة وخاتم الأنبياء !! فيا تُرى هل اعتقدوا بنبوّته وعظمته في الدنيا فقط وجحدوها في الآخرة ؟! أوَلم يكن من الصواب أن يلجأوا إليه وهو الذي لولاه ما عرفوا ربّهم ولا عبدوه ؟! أم أنّهم عملوا بالمثل القائل :

---

(١) الحجّ ٢٢ : ٢.

«حشرٌ مع الناس عيد»، فهرولوا مع المهرولين؟ أم أنّ أئمّتهم وخلفاءهم وصالحيهم عجزوا عن إرشادهم لأنّهم ولهوا مع الوالهين؟!

٣ ـ نصّت الروايات على أنّ بعض الأنبياء رفضوا الشفاعة لسببين هما: «أنّ الله غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله» فهم لا يستطيعون تكليمه ورجاءه.. وأنّهم يذكرون ذنوبهم ومعاصيهم فيخجلون ويمتنعون..

فأمّا بالنسبة للسبب الأوّل، فنقول: إنّ الغضب نوعان: غضب الانفعال والثورة الذي يؤدّي إلى منع التفاهم والحوار، وهو لا يصحّ إلّا على الإنسان، أمّا الغضب المنسوب إلى الله سبحانه فلا يعني غير عذابه وانتقامه، ولا رابطة بين الغضبين، وتعالى الله عن أن يغضب بمعنى الثورة والانفعال فيتحاشى الأنبياء مخاطبته والشفاعة لديه.. ثمّ كيف علم الأنبياء أنّ غضبته اليوم لم يغضب مثلها سابقاً، فهل سبق منه الغضب بحضورهم؟ ومن أين لهم العلم بأنّه لن يغضب مثلها مستقبلاً؟ تعالى الله عمّا يصفون، ربّنا لا تؤاخذنا بما يقوله السفهاء منّا..

أمّا السبب الثاني الذي منع الأنبياء وهو ذكرهم لذنوبهم ومعاصيهم، فهذه تصوّرات سقيمة لا يدعمها القرآن ولا السنّة النبويّة الصحيحة.. وقد تساهل بعض المسلمين في اتّهام الأنبياء عليهم السلام بارتكاب المعاصي والذنب، إمّا لعدم الاعتقاد بعصمتهم، أو لعدم الإحاطة بالتطبيقات الميدانيّة لتلك العصمة، أو عدم فهمها فهماً صحيحاً..

ولكنّ الذين يعرفون خطورة وأهمّيّة دور الأنبياء، وعظم مسؤوليّاتهم، ينظرون إلى قضيّة العصمة من زاوية مختلفة تماماً عن الزاوية التي ينظر منها غيرهم.. وحيث ورد في «صحيح البخاري» أحاديث كثيرة تتعلّق بهذا الموضوع ـ موضوع ارتكاب الأنبياء لبعض المعاصي ـ فقد أفردنا له فصلاً خاصّاً..

٤ ـ ظهرت في الروايات مفارقة أخلاقيّة تتّهم الأنبياء بالأنانيّة واللاجدّيّة،

فقد ورد أنّ النبيّ الذي يذهب إليه الناس لطلب الشفاعة يجيبهم: نفسي.. نفسي.. اذهبوا إلى فلان.. فهو مرّة يظهر أنانيّاً مشغولاً بنفسه، مع أنّ كلّ الأخبار التي بين أيدي المسلمين تشير إلى أنّ الأنبياء والرسل سيحظون بمعاملة خاصّة تليق بمكانتهم وبإيمانهم وبالمسؤوليّات الجسام التي تحمّلوا أعباءها في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، حتّى أنّ الله سبحانه وتعالى قد بشّر الطائعين بأنّهم سيكونون معهم في النعيم: **﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً﴾**(١).. فكيف نجمع هذه بتلك؟

والملاحظة الثانية: هي أنّ هذا النبيّ الذي يذهبون إليه يحيلهم على غيره ويقول لهم: اذهبوا إلى فلان.. ومعلوم أنّ هذا يقتضي أحد أمرين: إمّا إنّه يعرف قدرة النبيّ الآخر على فعل ما يريدون، وهذا ما نفاه الدليل، لأنّ النبيّ الآخر طردهم أيضاً.. وإمّا إنّه أراد مجرّد التخلّص منهم وإبعادهم عنه، وهذا ما لا ينسجم مع أخلاق الأنبياء وسلوكهم..

٥ ـ وردت في هذه الروايات ـ وسترد في غيرها لاحقاً ـ عبارات فيها تضخيم لا معقول، وتهويل غير منطقيّ في وصف بعض المفردات، مثل: «بين كلّ مصراع ومصراع من مصاريع أبواب الجنّة كما بين مكّة وحمير، أو مكّة وبصرى» و «في الجنّة شجرة يمشي الراكب في ظلّها مائة عام» و «ضرس الكافر في النار كجبل أُحُد»، إلى غير ذلك.

وتعليقاً على ذلك نقول: إنّ من أروع ما أبدعته يد الخلّاق العظيم، هذا التناسب والتجانس الدقيق بين أحجام المخلوقات الموجودة في كلّ محيط مع بعضها.. فالتناسب بين الأشياء هو الذي يعطيها قيمتها العمليّة، ومبرّر وأهمّيّة وجودها،

---

(١) النساء ٤: ٦٩.

وإذا ما انعدم هذا التناسب فقدت تلك الأشياء قيمتها، وانسلخت من حكمة خلقها.. فالزهرة التي يشمّ الإنسان عطرها، ويتمتّع بالنظر إليها، وربّما يتجمّل فيضعها على صدره، هي بالنسبة إلى الحيوان مادّة يأكلها، وللنحلة مستودع رحيق، وللنملة جسماً عملاقاً لا تفهم منه شيئاً..

وإذا كانت المسافة بين مصاريع أبواب الجنّة كالمسافة بين مكّة وحمير أو بصرى، فإنّها حتماً ستكون قد رُكّبت على أبواب يبلغ حجمها مئات وربّما آلاف الكيلومترات، وفي هذه الحالة ستفقد تلك الأبواب قيمتها والحكمة من وجودها؛ لأنّنا سنسأل: لمن وضعت مثل هذه الأبواب؟ مع أنّنا نعتقد بأنّ رواة هذا الحديث يتمنّون وجود هكذا أبواب لكي يتسنّى لهم الولوج خلسة من تحتها أو من خلال أيّ ثقب فيها!!

وطبعاً لا مجال لحمل تلك الروايات على محمل المجاز لاستغراقها بالتفاصيل والمفردات..

٦ ـ من المؤكّد أنّ لأنبياء الله سبحانه ولرسله منازل كريمة، ومقاعد رضوان عند ربّهم يوم القيامة.. وسيكون لكلّ منهم دوره في الشهادة على عصره والشفاعة لمن يستحقّها من قومه.. ومن الطبيعيّ والمنطقيّ أن لا يكون مطلوباً من نوح عليه السلام الشفاعة لقوم موسى أو عيسى عليهما السلام.. وهكذا بالنسبة للجميع، حيث ستحشر كلّ أُمّة بإمامها، فيجري حسابها وفقاً لأحكام الشريعة التي أُنزلت على نبيّها.. وإذا ما شفع نوح أو موسى أو عيسى لأقوامهم فهذا لا يقدح بأفضليّة نبيّنا الكريم ومكانته المتميّزة بين الأنبياء، كما أنّه صلى الله عليه وآله بحكم أفضليّته ليس مطلوباً منه الشفاعة لجميع الأُمم ولا إلغاء دور باقي الأنبياء وتعطيل كراماتهم..

٧ ـ ورد في الرواية الثانية أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد كرّر الذهاب للسجود تحت العرش مصرّاً على إنقاذ كلّ الناس من النار، فيحدّ له حدّ فيشفع لهم ويخرجهم حتّى لا يبقى في النار إلّا من حبسه القرآن.. ومعنى ذلك أنّه لن يبقى في النار إلّا المخلّدون

بحكم القرآن ، وذلك أمر بعيد عن الصواب ، ليس نفياً للشفاعة ، لأنّنا نعتقدها ونرجو أن تشملنا بعون الله تعالى ، ولكن لأنّ كلّ مَن سيدخل النار سيكون القرآن هو الذي أدخله فيها ، وأنّه لن يدخلها إلّا بعد الانتهاء من حسابه وتسوية متعلّقاته ، حيث سيزفّ إلى الجنّة أو يساق إلى النار ، ولن يكون الأمر عشوائيّاً ومرتبطاً بسجود النبيّ ، حيث يحدّون له حدّاً كلّما سُجد ؛ لأنّ ذلك ممّا لا يفعله النبيّ وهو العارف بعدالة ربّه ورحمته ، المذعن لمشيئته وأحكامه . .

٨ ـ عندنا : أنّ هذه الروايات وأشباهها لا تهدف إلّا إلى أمرٍ مقصودٍ واحد ، هو تهوين ارتكاب الجرائم والمحرّمات ، وظلم الناس في أعين أصحاب السلطة ، وإعطاءهم الأمل في النجاة من النار بشفاعة النبيّ ﷺ ، وأنّه لن يدخلها إلّا مَن كتب عليه الخلود فيها ، فافعل أيّها السلطان ما شئت . . ارتكب من الآثام ما استطعت . . تمتّع بالدنيا . . اغرق في الملذّات . . اظلم العباد . . مارس المحرّمات . . فهنالك الكثير ممّا رواه لك أبو هريرة وأمثاله يؤكّد أنّك ستنجو من العذاب . .

سيكفيك أن تؤمن بأنّ لا إلـه إلّا الله ، محمّداً رسول الله . . فلن تدخل النار . .

وإذا كان في قلبك مقدار حبّة من خردل من إيمان . . فلن تدخل النار . .

وإذا سقيت كلباً عطشاناً وأنت منغمس في الموبقات . . فلن تدخل النار . .

وإذا عرفت أنّ لك ربّاً يغفر الذنوب وارتكبت كلّ ذنوب الأرض . . فلن تدخل النار . . وحتّى إذا لم تكن أحد هؤلاء ، فأيضاً لا تخف ولا تحزن . . لأنّهم حتماً سيحدّون حدّاً للنبيّ ﷺ تكون أنت فيه فيخرجك من النار . .

نعوذ بالله وبه نستجير ، فهذه ليست الشفاعة التي أقرّها الله ورسوله ، وجميعنا إلى لطف الله وشفاعة رسوله وأهل بيته الأطهار والصالحين من عباده محتاجون ، للتجاوز عمّا نرتكبه من معاصٍ سببها الجهل والنسيان ، أو غلبة الدنيا ، وغواية الشيطان . . وبدونها جميعنا في ميزان العدالة خاسرون . .

أحاديث الحساب يوم القيامة

الأحاديث:

١ ـ ١ / ١ / ٩

بسنده عن أبي سعيد الخدري، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النّارِ النّارَ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعالىٰ: أَخْرِجُوا مِنَ النّارِ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمانٍ، فَيَخرجُونَ مِنْها قَدْ اسْوَدُّوا فَيُلْقَوْنَ في نَهرِ الْحَيا (أَوْ الْحَياةِ) ـ شَكَّ مالِكٌ ـ فَيَنْبُتُونَ كَما تَنْبُتُ الْحَبَّةُ في جانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّها تَخْرُجُ صَفْراءَ مُلْتَوِيَةً».

٢ ـ ١ / ١ / ١٥٦

«حَتّىٰ إِذا أَرادَ اللهُ رَحْمَةَ مَنْ أَرادَ مِنْ أَهْلِ النّارِ أَمَرَ اللهُ الْمَلائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كانَ يَعْبُدُ اللهَ، فَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثارِ السُّجودِ، وَحَرَّمَ اللهُ عَلَى النّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النّارُ إِلّا أَثَرَ السُّجودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النّارِ قَدْ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ ماءُ الْحَياةِ، فَيَنْبُتُونَ كَما تَنْبُتُ الْحَبَّةُ في حَميلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرَغُ اللهُ مِنَ الْقَضاءِ بَيْنَ الْعِبادِ، وَيَبْقىٰ رَجُلٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنّارِ، وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النّارِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ قِبَلَ النّارِ، فَيَقولُ: يا رَبِّ، اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النّارِ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُها، وَأَحْرَقَنِي ذَكاؤُها؟

فَيَقولُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فُعِلَ ذٰلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَ ذٰلِكَ؟

فَيَقولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، فَيُعْطِي اللهَ ما يَشاءُ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثاقٍ، فَيَصْرِفُ اللهُ وَجْهَهُ

عَنِ النّارِ.

فَإِذا أَقْبَلَ بِهِ عَلَى الْجَنَّةِ وَرَأىٰ بَهْجَتَها سَكَتَ ما شاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ قالَ: يا رَبُّ، قَدِّمْنِي عِنْدَ بابِ الْجَنَّةِ؟

فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ الْعُهُودِ وَالْمِيثاقَ أَنْ لا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذي كُنْتَ سَأَلْتَ؟

فَيَقولُ: يا رَبُّ، لَا أَكُونُ أَشْقىٰ خَلْقِكَ؟

فَيَقولُ: فَما عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذٰلِكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟

فَيَقولُ: لَا وَعِزَّتَكَ لَا أَسْأَلُ غَيْرَ ذٰلِكَ، فَيُعْطِي رَبَّهُ ما شاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثاقٍ، فَيُقَدِّمُهُ إِلىٰ بابِ الْجَنَّةِ.

فَإِذا بَلَغَ بابَها فَرَأىٰ زَهْرَتَها وَما فِيها مِنَ النَّضْرَةِ وَالسُّرورِ، فَيَسْكُتُ ما شاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ فَيَقولُ: يا رَبُّ، أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ؟

فَيَقولُ اللهُ: وَيْحَكَ ـ يابْنَ آدَمَ ـ ما أَغْدَرَكَ، أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ الْعُهودَ وَالْـمِيثاقَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذي أُعْطِيتَ؟

فَيَقولُ: يا رَبُّ، لَا تَجْعَلْنِي أَشْقىٰ خَلْقِكَ، فَيَضْحَكُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ، ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُ في دُخولِ الْجَنَّةِ، فَيَقولُ: تَمَنَّ، فَيَتَمَنّىٰ حَتّىٰ إِذا انْقَطَعَ أُمْنِيَّتُهُ قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ كَذا وَكَذا أَقْبَلَ يُذَكِّرُهُ رَبُّهُ، حَتّىٰ إِذا انْتَهَتْ بِهِ الْأَمانِيّ قالَ اللهُ تَعالىٰ: لَكَ ذٰلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ».

٣ ـ ١ / ٢ / ٣٧

بسنده عن ابن عبّاس، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ فَتَناوَلْتُ عُنْقُوداً وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ ما بَقِيَتِ الدُّنْيا، وَأُرِيتُ النّارَ فَلَمْ أَرَ مَنْظَراً كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِها النِّساءَ، قالُوا: بِمَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: بِكُفْرِهِنَّ.

قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِاللهِ ؟

قالَ: يَكْفُرْنَ الْعَشيرَ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلىٰ إِحْداهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئاً قالَتْ: ما رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْراً قَطُّ».

٤ ـ ١ / ٢ / ١٠٦

بسنده عن أبي هريرة: «قال النبيّ ﷺ:

تَأْتي الْإِبِلُ عَلىٰ صاحِبِها عَلىٰ خَيْرِ ما كانَتْ، إِذا هُوَ لَمْ يُعْطِ فِيها حَقَّها، تَطَؤُهُ بِأَخْفافِها.

وَتَأْتي الْغَنَمُ عَلىٰ صاحِبِها عَلىٰ خَيْرِ ما كانَتْ، إِذا لَمْ يُعْطِ فِيها حَقَّها، تَطَؤُهُ بِأَظْلافِها، وَتَنْطَحُهُ بِقُرونِها.

وَلَا يَأْتي أَحَدُكُم يَوْمَ الْقِيامَةِ بِشاةٍ يَحْمِلُها عَلىٰ رَقَبَتِهِ لَها ثُغاءٌ، فَيَقولُ: يا مُحَمَّدُ ؟

فَأَقولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً، قَدْ بَلَّغْتُ.

وَلَا يَأْتي بِبَعيرٍ يَحْمِلُهُ عَلىٰ رَقَبَتِهِ لَهُ رُغاءٌ، فَيَقولُ: يا مُحَمَّدُ ؟

فَأَقولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً، قَدْ بَلَّغْتُ».

وعن أبي هريرة أيضاً: «أنّ النبيّ ﷺ قال:

«مَنْ آتاهُ اللهُ مالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مالُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ شُجاعاً أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ ـ يَعْني بِشِدْقَيْهِ ـ ثُمَّ يَقُولُ: أَنا مالُكَ، أَنا كَنْزُكَ».

٥ ـ ١ / ٣ / ٢٥

بسنده عن أبي هريرة: «أنّ رسول الله ﷺ قال:

مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ في سَبِيلِ اللهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوابِ الْجَنَّةِ: يا عَبْدَ اللهِ، هٰذا خَيْرٌ،

فَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بابِ الصَّلاةِ، وَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهادِ دُعِيَ مِنْ بابِ الْجِهادِ، وَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيامِ دُعِيَ مِنْ بابِ الرَّيّانِ، وَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بابِ الصَّدَقَةِ.

فَقالَ أَبُو بَكْرٍ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي يا رَسُولَ اللهِ، ما عَلىٰ مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعىٰ أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوابِ كُلِّها؟

قالَ: نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ».

٦ - ١ / ٣ / ١٢٠

بسنده عن أبي هريرة، قال: «قال النبيّ ﷺ:

لَا تُخَيِّرُوني عَلىٰ مُوسىٰ، فَإِنَّ النّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأُصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذا مُوسىٰ باطِشٌ جانِبَ الْعَرْشِ، فَلَاأَدْري أَكانَ فِيمَنْ صُعِقَ فَأَفاقَ قَبْلي، أَوْ كانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ».

٧ - ١ / ٣ / ١٢٨

بسنده عن أبي سعيد الخدريّ، عن رسول الله ﷺ أنّه قال:

«إِذا خَلَصَ الْمُؤْمِنونَ مِنَ النّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنّارِ، فَيَتقاصُّون مَظالِمَ كانَتْ بَيْنَهُمْ في الدُّنْيا، حَتّىٰ إِذا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ. فَوَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ في الْجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كانَ في الدُّنْيا».

٨ - ٢ / ٤ / ١٧٤

بسنده عن أبي سعيد الخدريّ، عن النبيّ ﷺ، قال:

«كانَ في بَني إِسْرائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنساناً، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتىٰ راهِباً

فَسَأَلَهُ، فَقالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟

قالَ: لا. فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقالَ لَهُ رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذا وَكَذا، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَناءَ بِصَدْرِهِ نَحْوها، فَاخْتَصَمَتْ فيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذابِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلىٰ هٰذِهِ أَنْ تَقَرَّبي، وَأَوْحَى اللهُ إِلىٰ هٰذِهِ أَنْ تَباعَدِي، وَقالَ: قيسُوا ما بَيْنَهُما، فَوُجِدَ إِلىٰ هٰذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ، فَغُفِرَ لَهُ».

٩ ـ ٣ / ٨ / ١١٧

بسنده عن عبيدة بن عبدالله، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«إِنّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النّارِ خُروجاً مِنْها، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخولاً.

رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النّارِ كَبْواً فَيَقُولُ اللهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيها فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّها مَلأىٰ، فَيَرْجِعُ فَيَقولُ: يا رَبُّ، وَجَدْتُها مَلأىٰ؟

فَيَقولُ: **اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيها فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّها مَلأىٰ، فَيَرْجِعُ فَيَقولُ: يا رَبُّ، وَجَدْتُها مَلأىٰ؟**

فَيَقولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةِ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيا وَعَشَرَةَ أَمْثالِها ـ أَوْ إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثالِ الدُّنْيا ـ.

فَيَقولُ: تَسْخَرُ مِنّي ـ أَوْ تَضْحَكُ مِنّي ـ وَأَنْتَ الْمَلِكُ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتّىٰ بَدَتْ نَواجِذُهُ وَكانَ يَقولُ: ذاكَ أَدْنىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً».

١٠ ـ ٣ / ٩ / ١١٠

بسنده عن أبي هريرة: **«أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ:**

أَوَّلُ مَنْ يُدْعىٰ يَوْمَ الْقِيامَةِ آدَمُ، فَتَراءىٰ ذُرِّيَّتُهُ، فَيُقالُ: هٰذا أَبوكُمْ آدَمُ.

فَيَقولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ.

فَيَقولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِك ؟

فَيَقولُ: يا رَبِّ، كَمْ أُخْرِجُ ؟

فَيَقولُ: أَخْرِجْ مِنْ كُلِّ مائَةٍ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ.

فَقالوا: يا رَسُولَ اللهِ، إِذا أُخِذَ مِنّا مِنْ كُلِّ مائَةٍ تِسْعَةً وَتِسْعونَ فَماذا يَبْقى مِنّا ؟

قالَ: إِنَّ أُمَّتي في الْأُمَمِ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضاءِ في الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ».

-١١ **٢ / ٦ / ٩٧**

بسنده عن أبي سعيد الخدريّ، عن النبيّ ﷺ، وذكر نفس الرواية أعلاه، إلّا أنّ فيها: «أنّه سيخرج من كلِّ ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعين، وأنّ النبيّ قال: **وَإِنّي لَأَرْجو أَنْ تَكونوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنا.**

ثُمَّ قالَ: ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنا.

ثُمَّ قالَ: شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنا».

-١٢ **٣ / ٩ / ١١١**

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ، قال:

«يَعْرَقُ النّاسُ يَوْمَ الْقِيامَةِ حَتّىٰ يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ في الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِراعاً، وَيُلْجِمُهُمْ حَتّىٰ يَبْلُغَ آذانَهُمْ».

-١٣ **٢ / ٦ / ١٦٧**

بسنده عن عبدالله بن عمر: **«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: يَقُومُ النّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ، حَتّىٰ يَغِيبَ أَحَدُهُمْ في رَشْحِهِ إِلىٰ أَنْصافِ أُذُنَيْهِ».**

المناقشة:

مثقال حبّة من خردل

إنّ الإيمان باتّفاق الجميع هو: إقرار باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان، وإذا ما سقط أحدها ثُلم ذلك الإيمان، وتحوّل إلى هيئة أُخرى، فيصبح عندها الفرد مسلماً حاملاً لهويّة الإسلام لا أكثر.. قال تعالى: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾(١).

وعدا هذه الشروط توجد شروط كثيرة هي من مكمّلات الإيمان ولوازمه، كقول رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه**»(٢).

وقوله: «**لا يؤمن أحدكم يبيت شبعاناً وجاره جائع**»(٣).

إلى الكثير من الآيات والأحاديث التي تحدّد معالم الإيمان وملامح المؤمنين. فالصدق، والنظافة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعفاف، والعدالة، والأمانة، وعدم ارتكاب المحارم، والرحمة، وحبّ الخير والسعي فيه، وإصلاح ذات البين، والجهاد في سبيل الله، كلّها مفردات وعناوين مكمّلة للإيمان.. إضافة إلى عشرات الصفات الأُخرى المتعلّقة بالعبادات، والالتزام بالأحكام، واجتناب النواهي..

---

(١) الحجرات ٤٩: ١٤.

(٢) مسند أحمد ٣: ١٧٦، ٢٧٨. سنن الدارمي ٢: ٣٠٧. صحيح البخاري ١: ٩. صحيح مسلم ١: ٤٩. سنن ابن ماجة ١: ٢٦، الحديث ٦٦. سنن الترمذي ٤: ٧٦.

(٣) المعجم الكبير، الطبراني ١: ٢٥٩، الحديث ٧٥١. المستدرك على الصحيحين ٢: ١٢. السنن الكبرى، البيهقي ١٠: ٣. مجمع الزوائد ٨: ١٦٧. كنز العمّال ٩: ٥٣، الحديث ٢٤٩٠٤، ٢٤٩٠٦، و ٥٧، الحديث ٢٤٩٢٩.

فأيّ « مثقال حبّة من خردل » من كلّ ما ذكرناه ستكون كافية لدخول الجنّة ؟.. ثمّ إنّ الإيمان ليس عنصراً مادّيّاً فنحدّد له حجماً فنقول : إنّه بحجم الرمّانة أو الفيل أو حبّة الخردل ، إنّه قضيّة معنويّة تتمكّن من ذات الإنسان ، وتسكن جوارحه ، وتمتلك ضميره ، وتنقّي نفسه ، وتهذّب طباعه ، وهو سلسلة من الشروط والصفات مترابطة لا تنفكّ عراها ، ولا تنفرط حلقاتها ، ويكمّل بعضها بعضاً..

فالإيمان بالله خالقاً فرداً صمداً ـ كمثال ـ هو قمّة الهرم للضرورات والمقدّمات اللازمة لتقرير صدق ذلك الإيمان ، كالإيمان بنبوّة محمّد ﷺ وكتاب الله وشرائعه ، وتطبيق أوامره ، واجتناب نواهيه ، إضافة إلى ما يترتّب على تلك الشروط من التزامات.. فماذا تمثّل « حبّة الخردل » من كلّ ذلك يا تُرى ؟

قد يردّ البعض : أنّ الله سبحانه استخدم مثالاً كهذا عندما قال : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ** ﴾[١].

والجواب : هو أنّ الفرق بين المثلين كبير جدّاً ، بل ليس هناك وجه للمقارنة بينهما ، فالعمل شيء والإيمان شيء آخر ، وأنّ الله سبحانه وتعالى لم يقصد أنّه سيزن أعمال الخلق بالميزان ، وإنّما قصد تأكيد عدالته في عدم تضييع عمل العاملين ، وإن كان ذلك العمل بقدر ﴿ **مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** ﴾ الذي هو أصلاً بلا وزن ولا حجم بحسب أدوات القياس المتاحة.. وإذا أمكن وصف العمل بأنّه صغير أو كبير على سبيل المجاز ، فإنّ ذلك غير ممكن على صعيد الإيمان ، فقد نتصوّر إيماناً قويّاً وإيماناً ضعيفاً مصداقاً للحديث النبويّ الشريف : « **مَن رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان** »[٢]..

---

(١) الزلزلة ٩٩ : ٧ و ٨.

(٢) مسند أحمد ٣ : ١٠ ، ٢٠ ، ٤٩ ، ٥٤. صحيح مسلم ١ : ٥٠. سنن ابن ماجة ١ : ٤٠٦ ، الحديث ١٢٧٥. سنن أبي داود ١ : ٢٥٤ ، الحديث ١١٤٠ و ٢ : ٣٢٣ ، الحديث ٤٣٤٠.

وهذا وصف للمرء الذي يؤمن بكلّ الضروريّات ولكنّه يعجز أحياناً عن تطبيق بعض متطلّبات الإيمان بدافع الخوف أو التردّد أو الضعف، لذلك وصف النبيّ ﷺ إيمانه بالضعف.. وعلى عكسه يكون إيمان مَن نذر نفسه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقارعة الظلم، فيباشر التنفيذ بيده دون أن تأخذه في الله لومة لائم.. وهذا النوع من الإيمان يصفه النبيّ بالقوّة..

أمّا مسألة الحجوم، فهي التي نتوقّف عندها، لعدم إمكانيّة تصوّر حجم الإيمان.. سواءاً كان كحجم حبّة خردل أو كحجم جبل.. حتّى على سبيل المجاز..

إنّ أمثال هذه الأحاديث ـ بقصد أو بدون قصد ـ تؤدّي إلى تثبيط الهمم، وتقليل الحرص على امتثال أوامر الله، وأداء العبادات، والالتزام بالتشريعات، لأنّها تستبدل كلّ ذلك بـ« مثقال حبّة من خردل » لأنّها وحدها ستكون كافية لدخول الجنّة !!

إنّ هذا إلّا إفك عظيم

آخر الخارجين من النار

إنّ أوّل ملاحظة نؤشّرها على الحديث الثاني هي أنّ الملائكة سيقومون بإخراج من كان يعبد الله من النار، ويعرفونهم بآثار السجود؛ لأنّ « النار تأكل كلّ جسد ابن آدم عدا أثر السجود » !!

فما معنى أن يؤكل الجسد كلّه ما عدا قطعة صغيرة من جبهته ؟!

إنّ الإنسان الذي ارتكب من المعاصي والآثام ما جعله أهلاً لدخول النار لن يكون سجوده أصلاً ذا قيمة، ناهيك عن أثر ذلك السجود.. لأنّ قبول الصلاة مقترن بقبول ما سواها، وكذلك سائر العبادات حيث يكون الأصل فيها صدق التوجّه والإقرار بالعبوديّة لله والالتزام بأوامره ونواهيه.. فارتكاب المرء ما يفضي به إلى النار،

◆ سنن النسائي ٨: ١١١.

يعني أنّه لم يكن مؤمناً بالله إيماناً كافياً وحقيقيّاً، وهذا يجرّ إلى الطعن بصحّة صلاته، ناهيك عن قبولها..

إنّ هذا الحديث يتعارض مع معنى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً** ﴾[1]، والذي فيه دلالة على أنّ النار لن تتلف جسد الإنسان ولا جلده حتّى يقال إنّهم سيتعرّفون عليه من «آثار السجود»؛ لأنّ مهمّة النار ستكون إنضاج الجلد إلى درجة يقترب معها من التلف، فيجري تبديلها، ومعلوم ما في ذلك من حكمة تستهدف المحافظة على استمرار الشعور بالألم؛ لأنّ الأعصاب الناقلة لإيعازات الإحساس بالألم من وإلى الدماغ تتخلّل جلد الإنسان، وإنّ تلفها يعني توقّف الشعور بالألم ممّا لن يبقي تأثيراً محسوساً للاستمرار في تعريض الجسد إلى النار..

وقد ذكرت الرواية أنّ الذين يتمّ إخراجهم من النار «يُلقون في ماء الحياة» أو «نهر الحياة»، فـ«ينبتون كما تنبت الحبّة في جانب السيل»، وهذا لا يصحّ مع ما ذكرناه من دلالات للآية آنفة الذكر، يضاف إليه أنّ ماء أو نهر الحياة لم نسمع بهما إلّا في هذا الموضع..

أمّا الحوار المزعوم الذي دار بين الباري عزّ وجلّ وبين العاصي الأخير المزمع إخراجه من النار، فنقول فيه: إنّ الله لو شاء أن يغفر لعبد فلا رادّ لمشيئته، ولا رقيب عليها، فلماذا هذه التجزئة وما هي حكمتها؟! ولماذا هذه السلسلة من الإجراءات:

يُخرجه من النار..

ثمّ يلقيه في نهر الحياة..

ثمّ يضعه بين الجنّة والنار.. ولكنّ وجهه يقابل النار..

---

(١) النساء ٤: ٥٦.

ثمّ يصرف وجهه عنها..

ثمّ يقرّبه من الجنّة..

ثمّ يدخله فيها..

وفي كلّ هذه المراحل يستخدم العبد العاصي مختلف وسائل الحيلة واللباقة، ويعطي العهود والمواثيق.. ولكنّه يغدر ولا يلتزم بها.. ويستمرّ في سوء الأدب إلى نهاية المطاف حين يكون جوابه على ذلك اللطف الإلـٰهيّ المضروب بعشرة أمثاله: «هل تسخر منّي أو تضحك علَيَّ وأنت الملك؟»!! كما نصّت على ذلك الرواية التاسعة..

فهل يتقبّل العقل والضمير الحيّ حدوث مثل هذا الحوار؟

النساء أكثر أهل النار!

إنّ ما ورد في الرواية الثالثة كلّه غريب..

فمتى رأى النبيّ ﷺ الجنّة ومدّ يده ليقطف من ثمارها؟

لا بدّ أن يكون قد رآها عندما أُسري به، أو في المنام..

فإذا قيل: عندما أُسري به، قلنا: إنّ أكثر روايات الإسراء والمعراج موضوعة وليس هناك ما يؤيّدها في كتاب الله أو في الحديث الصحيح.. وعلى افتراض صحّة هذه الرواية، فلماذا عجز النبيّ عن قطف العنقود وقد حاول ذلك ومدّ يده؟

وإذا قيل: إنّما كان ذلك في المنام.. فلن يبقى أيّ معنى لقوله: «**لو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا**»؛ لأنّ ما يحصل في المنام لا يمكن أن يمتدّ إلى الواقع..

أمّا موضوع كون أكثر أهل النار من النساء، فمع كونه من سقط القول، فإنّ تبريره بهذا التبرير ليس منطقيّاً ولا معقولاً، لأنّ الراوي ربط ذلك بـ«كفرهنّ بالعشير، ونكرانهنّ إحسانه»، وهذا مجرّد لغو وكلام فارغ ننزّه رسول الله ﷺ من قوله..

الإبل والغنم تُحمَل على الرقاب يوم القيامة

قد نعجز عن مناقشة الحديث الرابع وأشباهه بأُسلوب علميّ جادّ ، لأنّ ما ورد فيه لا يمكن قياسه بأيّ مقياس علميّ ، وأنّ قبوله أو رفضه أمر متعلّق بالضمير والذوق السليم ، ومقدار الوعي الثقافيّ والحضاريّ للمسلم ، فما كنّا نعلم أنّ الإبل والأغنام سيكون لها دور في تنفيذ العقوبات يوم القيامة بالذين لم يدفعوا زكاتها في الدنيا !!

فكم من العَضّ والنطح سيواجهون بعد أن ناءوا بحملها على أكتافهم ؟ نحن لا ندري . ويظهر أنّ أبا هريرة يدري ، ممّا يجعلنا نعتب على معاصريه أنّهم لم يسألوه عن القوّة التي سيمنحها الله للرجل لكي يستطيع أن يحمل الإبل التي لم يدفع زكاتها على رقبته .. ونقول : ماذا يتصوّر مَن يعتقد صحّة هذا الحديث ؟ أو كيف ينظر إلى يوم القيامة ومجريات وطريقة الحساب فيه ؟ لا بدّ أن تصوّراتهم لم تتجاوز بدائيّتهم في التفكير ، المتأثّرة بواقع الحياة التي عاشوها والتي تملأ فيها الصحراء ، والإبل والغنم الجزء الأكبر من مساحات المعرفة لديهم ..

وقد انسحبت هذه الطريقة في التفكير على تصوّراتهم للمستقبل ، ثمّ على تصوّرهم ليوم القيامة ، فلم تستطع عقولهم أن تستوعب أيّ شكل من أشكال الحساب والعقاب والثواب خارج الأُطر التي يعرفونها ويمارسونها ، ولم تستطع قرائحهم أن تنتج كلاماً لا تألفه مجتمعاتهم ولا يألفوه هم أصلاً ، ولم يستطيعوا السكوت لأنّهم (علماء !) و (فقهاء !) ولا بدّ أن يكونوا عارفين بكلّ شيء حتّى تروج بضاعتهم ، فخرجت إلينا أحاديث غريبة كان هذا أحدها ..

وربّما لم يكن الكذب المتعمّد غاية أغلبهم بقدر ما كانوا مدفوعين للظهور بمظهر العارف بكلّ شيء للحفاظ على مكانتهم المرموقة في المجتمع ، ولو أنّهم قد تناولوا مثل هذه الأفكار في قصصهم وأساطيرهم لما كان لنا معهم كلام ، ولكنّهم أسندوا

ذلك إلى رسول الله ﷺ واتّهموه بما لم يقله، فحقّ علينا ردّهم والاعتراض عليهم..

أبواب الجنّة

إنّ موضوع الجنّة والنار من المواضيع التي لا يعلمها إلّا الله تعالى، ولسنا مكلّفين بمعرفة أو الاعتقاد بغير ما ذكره كتاب الله عنهما.. ولكن وضعنا أبو هريرة وغيره من الرواة قسراً في موضع المناقشة والجدال عندما نقلوا لنا روايات عجيبة وغريبة أسندوها إلى النبيّ ﷺ، مثل الرواية الخامسة آنفة الذكر.. وإنّنا إذ نقوم بمناقشة الرواية فإنّنا نؤكّد أنّه لا يسعنا ولا يسع غيرنا تقرير أيّة قضيّة واعتبارها من الحقائق المتعلّقة بالجنّة أو النار، عدا ما ورد في كتاب الله، لذلك ستبقى المناقشة ضمن حدود تصادم الرواية مع البديهيّات، والواقع الذي يفرضه العقل والمنطق وتتحمّله طبائع الأشياء، فنقول:

١ ـ إذا كان للجنّة أبواب، فهذا يعني أمرين:

■ وجود جدران، أو سياج، لأنّ الأبواب لا تركّب في الفراغ.

■ وجود حيّز خارج الجنّة، أي خارج تلك الجدران، ليس من ضمن الجنّة، وقد أكّدت الرواية السابعة هذا المعنى، وسمّت هذا الحيّز (قنطرة) وجعلته منطقة (محايدة) بين الجنّة والنار يتجمّع فيها الناس «**ليتاقضوا مظالم كانت بينهم**» بعيداً عن أيّ تدخّل إلٰهيّ، فإذا ما «**نُقّوا وهُذِّبوا أُذن لهم بدخول الجنّة**».

فأمّا الجدران والأبواب فقد سبق لنا الحديث عنها، وأوضحنا عدم صحّة ما وصفوه، وعدم جدواه بالشكل الذي ذكروه، وخصوصاً فيما يتعلّق بمصاريع الأبواب التي بين كلّ منها مثل ما بين مكّة وحمير، أو مكّة وبصرى.

وأمّا الحيّز الموجود بين الجنّة والنار، فهذا يعني وجودهما في موقع واحد متقابلتين أو متجاورتين، وهو ما لا دليل عليه، فلا يعلم أحد أين هما، هل في عالم واحد أو في عالمين مختلفين..

وأمّا حبسهم في ذلك الحيّز «القنطرة» لغرض تقاضي مظالم كانت بينهم، فقد رأينا أنّهم جميعاً «قد نُقّوا وهُذِّبوا ودخلوا الجنّة» وليس فيهم من تخلّف فدخل النار.. فكيف تمّ التقاضي؟ هل عاتب بعضهم بعضاً، وعفا كلّ عن صاحبه، وانتهى الأمر؟ وإذا كانوا قد تساووا بالحسنات، فأين ذهبت السيّئات والمظالم والجرائم؟

إنّ أقلّ ما يقال في ذلك: إنّه مخالف لما نعرفه من أنّ الحكم يومئذٍ لله الواحد القهّار ﴿**يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾[1]، يوم تكون كلّ نفس بما كسبت رهينة ﴿**الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾[2]، يوم لا يُسئلون عمّا كانوا يفعلون ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[3]، وسيحاسبون وفق كتاب قال عنه تعالى: ﴿**وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً**﴾[4]..

٢ ـ لم نتمكّن أن نفهم عمليّاً ـ أو حتّى نظريّاً ـ كيفيّة تخصيص أبواب الجنّة لأهل الأعمال حسب أعمالهم..

فالصائم هو مصلّي بالضرورة.. وإلّا فلن تُقبل صلاته..

والمجاهد هو حتماً من الصائمين والمصلّين.. وإلّا فلا اعتبار لجهاده..

والمتصدّق كذلك، وإلّا لرُدّت صدقته..

إذن، فإنّ الذي سيدخل الجنّة هو المؤمن الحقيقيّ الذي يصوم ويصلّي ويتصدّق

---

(١) غافر ٤٠: ١٦.

(٢) غافر ٤٠: ١٧.

(٣) النور ٢٤: ٢٤.

(٤) الكهف ١٨: ٤٩.

ويجاهد في سبيل الله، وهذا هو ما تدعمه النصوص الإلٰهيّة..

فإذا كان للصلاة باب ودخلها المصلّون، وهم أنفسهم الصائمون، المجاهدون، المتصدّقون، فمن سيدخل من الأبواب الأُخرى؟ ولمن وُضِعَت؟

وعلى ذلك سيكون السؤال الذي وضعوه على لسان أبي بكر وجواب النبيّ ﷺ عليه منافٍ للمنطق ومخالف للواقع.. لأنّه عمليّاً لا يمكن دخول نفس الشخص من ثمانية أبواب في نفس الوقت.. نعم، يمكن حدوث ذلك إذا قلنا إنّ عمليّات الدخول والخروج ستكون متعاقبة، أي سيجري إدخال أبي بكر من باب الصلاة، ثمّ يخرجوه ليعيدوه من باب الصيام «الريّان»، ثمّ يخرجوه ثمّ يعيدوه، وهكذا إلى أن يتمّ إدخاله من الأبواب الثمانية.. وعندها سيكون من حقّنا أن نسأل: لِمَ كلّ هذا؟ أليس الدخول إلى الجنّة قد تحقّق منذ المرّة الأُولى؟ فعلام هذا التكرار، وما هو مبرّره، وما هي الحكمة منه؟

أليست الجنّة هي الهدف النهائي الذي يسعى إليه الخلق جميعاً بما فيهم الأنبياء والرسل؟ أم أنّ الأبواب هي الهدف؟

قرب المسافة ينقذ من النار

لاحظنا في الحديث الثامن كيف أنّ أدوات القياس قد أنقذت مجرماً قتل مائة إنسان بدون ذنب، وأدخلته الجنّة بعد أن تنازعت عليه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ممّا استوجب تدخّلاً إلٰهيّاً لحسم ذلك النزاع، وإجراء بعض التعديلات على أنظمة الكون وقوانين الطبيعة بالوحي إلى القريتين أن تبتعد إحداهما وتقترب الأُخرى، وصدور الأمر إلى الملائكة لقياس المسافة بين المجرم الميّت وبين القريتين، ولمّا وُجِد أنّه أقرب بشبرٍ إلى (الحدود البلديّة) للقرية التي قصدها قبل موته، من حدود القرية التي خرج منها، غفر الله له وعفا عنه..!!

فيا ليتهم قالوا: إنّما غفر له لما علمه من صدق توبته، وحقيقة ندامته على

ما اقترفه من جرائم .. ولو قالوها لسكتنا على مضض ، لعدم اعتقادنا أصلاً بأنّ الأُمور ستجري على هذا المنوال الخرافيّ الذي ساقته الرواية ، والتي جعلت الأُمور تبدو وكأنّها لا تخضع لضوابط ولا حدود ولا شرائع ، وأنّ الملائكة تتصرّف وفقاً لاجتهادها وهواها ، فتتنازع على تقرير مصيره ، ولولا التدخّل الإلٰهيّ لكانت الحرب قد وقعت بين ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، وربّما كانت العواقب جدّ وخيمة !!

لنرجع إلى الرواية وننظر إليها من زاوية المتفرّج ، فسنرى النزاع مستعراً بين الملائكة .. والحرب بينها على وشك الوقوع .. فيقوم الله سبحانه بتغيير مواقع القريتين .. ويُقرّ ميزاناً جديداً لتقرير مصير العبد ، وهو قياس المسافات .. ولماذا كلّ ذلك ؟ لكي يجري إنقاذ رقبة عبدٍ مجرمٍ استباح حرمة الدماء البريئة للخلق ، وقتل منهم مائة رجل بلا ذنب ولا جريرة ، من النار .. !!

أيّ منطق هذا ؟ وأيّ عقل يقبله ؟ وأيّ شريعة ترضى به ؟

ومن الغريب ـ ونحن نلاحظ كلّ هذا الحرص على رقاب المجرمين ، واختلاق الأحاديث التي تمنحهم الأمل بدخول الجنّة مع كلّ ما ارتكبوه من جرائم وآثام ـ فإنّ القوم عندما يلتفتون صوب أبي طالب ، مؤمن قريش ، ومربّي رسول الله ، وحاميه ، والذابّ عنه ، والمضحّي بنفسه وأهله وبنيه وماله في سبيله ، ومن أجل حماية دينه ، ونشر رسالته ، نقول : أمّا أبو طالب هذا في منطقهم ورواياتهم فإنّ الله سيضعه في ضحضاح من نار يفور منه دماغه ، ولا حيلة في حصوله على المغفرة ، ولن تنفعه لا مواقفه المؤكّدة لإسلامه وإيمانه ، ولا رحمة الله ولطفه ، ولا شفاعة رسول الله ومحبّته في إخراجه من النار !! مع أنّه لم يكن مجرماً ولا قاتلاً ولا ظالماً ، وليست له أيّة جريرة سوى أنّه والد عليّ عليه السلام الذي اصطبغ سيفه بدماء المشركين وأعداء الله والدّين ..

تهافتات

أمّا الأحاديث الأُخرى فهي لا تبتعد كثيراً عمّا أوردناه، وقد أُجيب على أكثرها ضمنيّاً من خلال الفقرات السابقة، ولا يحتاج المسلم لكي يرفضها إلّا إلى القليل من الرغبة في تحرير عقله من الجمود، وحينها سيكتشف ما فيها من ثغرات ومكامن ضعف..

فالروايتان **١٠** و **١١** متعارضتان، حيث نصّت إحداهما على نجاة واحد بالمائة من النار، في حين نصّت الأُخرى على نجاة واحد بالألف..

كما أنّهما أظهرتا أنّ الدخول إلى النار سيكون بالعدد والاختيار، وليس بالعمل والاختبار، حيث سيسأل أبونا آدم عن العدد الذي يُخرجه منهم ليبعثوه إلى جهنّم، فيقال له: تسع وتسعون أو تسعمائة وتسع وتسعون!! وهذه طريقة يأباها العقل ولا يؤيّدها النقل..

والحديث **١٢** جعل عرق الناس يصل إلى سبعين ذراعاً في باطن الأرض، ثمّ يفيض حتّى يصل آذانهم، ولم نجد لذلك تخريجاً علميّاً أو وجهاً منطقيّاً، وهو نفس ما ينطبق على الحديث **١٣**.

وإنّا لله وإنّا إليه راجعون

أحاديث رؤية الله تعالى يوم القيامة

الأحاديث:

١ - ١ / ١ / ١٥٦

بسنده عن أبي هريرة ، قال:

«إِنَّ النّاسَ قالُوا: يا رَسولَ اللهِ ، هَلْ نَرىٰ رَبَّنا يَوْمَ الْقِيامَةِ ؟

قالَ: هَلْ تُمارُونَ في الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحابٌ ؟

قالُوا: لَا يا رَسولَ اللهِ.

قالَ: فَهَلْ تُمارُونَ في الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَها سَحابٌ ؟

قالُوا: لا.

قالَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذلِكَ ، يُحْشَرُ النّاسُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَيَقولُ: مَنْ كانَ يَعْبُدُ شَيْئاً فَلْيَتَّبِعْ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الْقَمَرَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الطَّواغِيتَ ، وَتَبْقىٰ هٰذِهِ الْأُمَّةُ فيها مُنافِقُوها ، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فَيَقولُ: أَنا رَبُّكُمْ.

فَيَقُولُونَ: هٰذا مَكانُنا حَتّىٰ يَأْتِيَنا رَبُّنا ، فَإِذا جاءَ رَبُّنا عَرَفْناهُ.

فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فَيَقولُ: أَنا رَبُّكُمْ.

فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنا ، فَيَدْعُوهُمْ فَيُضْرَبُ الصِّراطُ بَيْنَ ظَهْرانَيْ جَهَنَّمَ ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلّا الرُّسُلُ ، وَكَلامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ ، وَفي جَهَنَّمَ كَلالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدانِ ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدانِ ؟

قالُوا: نَعَمْ.

قالَ: فَإِنَّها مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِها إِلَّا اللهُ، تَخْطَفُ النّاسَ بِأَعْمالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو».

٢ ـ ١ / ٢ / ٥٣

بسنده عن أبي هريرة: «أنّ رسول الله ﷺ قال:

يَنْزِلُ رَبُّنا تَبارَكَ وَتَعالىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّماءِ الدُّنْيا حِينَ يَبْقىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُوني فَأَسْتَجِيبُ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُني فَأُعْطِيهِ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُني فَأَغْفِرَ لَهُ».

٣ ـ ٢ / ٦ / ٤٤

بسنده عن أبي سعيد الخدريّ، عن النبيّ ﷺ، ويسرد نفس الرواية الأُولى مع بعض الاختلاف البسيط إلى أن يقول:

«حَتّىٰ إِذا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فاجِرٍ أَتاهُمْ رَبُّ الْعالَمِينَ في أَدْنىٰ صُورَةٍ مِنَ الَّتي رَأَوْهُ فِيها، فَيُقالُ: ماذا تَنْتَظِرونَ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ ما كانَتْ تَعْبُدُ.

قالُوا: نَحْنُ نَنْتَظِرُ رَبَّنا الَّذي كُنّا نَعْبُدُ.

فَيَقولُ: أَنا رَبُّكُمْ.

فَيَقُولُونَ: لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئاً، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً».

٤ ـ ٢ / ٦ / ١٣٨

بسنده عن قتادة، عن أنس، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«يُلْقىٰ في النّارِ وَتَقولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتّىٰ يَضَعَ قَدَمَهُ فَتَقولُ: قطْ قطْ».

وفي ٢ / ٦ / ١٣٨ أيضاً:

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ، قال:

«يُقالُ لِجَهَنَّمَ: هَلِ امْتَلأْتِ؟

وَتَقولُ: هَلْ مِنْ مَزيدٍ، فَيَضَعُ الرَّبُّ تَبارَكَ وَتَعالىٰ قَدَمَهُ عَلَيْها فَتَقُولُ: قطْ قطْ».

وفي ٣ / ٨ / ١٣٥

بسنده عن أنس بن مالك: قال النبيّ ﷺ:

«لَا تَزالُ جَهَنَّمُ تَقولُ: هَلْ مِنْ مَزيدٍ، حَتّىٰ يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيها قَدَمَهُ فَتَقولُ: قطْ قطْ وَعِزَّتِك، وَيُزْوىٰ بَعْضُها إِلىٰ بَعْضٍ».

وفي ٣ / ٩ / ١١٧

بسنده عن أنس ـ أيضاً ـ:

«إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: لَا يَزالُ يُلْقىٰ في النّارِ وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزيدٍ، حَتّىٰ يَضَعَ فِيها رَبُّ الْعالَمِينَ قَدَمَهُ، فَيَنْزَوي بَعْضُها إِلىٰ بَعْضٍ، ثُمَّ تَقولُ: قدْ قدْ بِعِزَّتِك وَكَرَمِك وَلَا تَزالُ الْجَنَّةُ تَفْضُلُ حَتّىٰ يُنْشِئَ اللهُ لَها خَلْقاً فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ».

٥ ـ ٢ / ٦ / ١٣٩

بسنده عن جرير بن عبدالله، قال:

«كُنّا جُلوساً لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشَرَةَ فَقالَ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَما تَرَوْنَ هٰذا، لَا تُضامونَ في رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلىٰ صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها فَافْعَلوا».

٦ ـ ٢ / ٦ / ١٤٥

بسنده عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس، عن أبيه:

«أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: ما بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظرُوا إِلىٰ رَبِّهِمْ، إِلّا رِداءُ الْكِبْرِ عَلىٰ

وَجْهِهِ في جَنَّةِ عَدْنٍ».

٧ ـ ٢ / ٦ / ١٥٩

بسنده عن أبي سعيد الخدريّ، قال:

«سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: يَكْشِفُ رَبُّنا عَنْ ساقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، فَيَبْقىٰ كُلُّ مَنْ كانَ يَسْجُدُ في الدُّنْيا رِياءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقاً واحِداً».

٨ ـ ٣ / ٩ / ١٢٧

بسنده عن جرير بن عبدالله، قال:

«قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَياناً».

٩ ـ ٣ / ٩ / ١٣٢

بسنده عن عديّ بن حاتم، قال:

«قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: ما مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمانٌ وَلَا حِجابٌ يَحْجِبُهُ».

المناقشة:

قبل مناقشة هذه الأحاديث ينبغي الإشارة إلى أنّها قد اُهملت من قِبل غالبيّة الفرق الإسلاميّة من خلال رفضها لعقيدة التجسيم، ولو كان لها أيّة قيمة عندهم لاختلف الأمر، حيث يعتقد أكثر علماء المسلمين بأنّ مَن اعتقد بتجسيم الخالق فقد كفر، في حين تؤكّد هذه الأحاديث على رؤية الله سبحانه يوم القيامة بالعين الباصرة **«ليس بينهم وبينه حجاب»**، ولوجود مثل هذه الأحاديث في الكثير من الصحاح، سيّما صحيح البخاريّ، فقد وقع علماء بعض الفرق التي ترى صحّة

كلّ ما في تلك الصحاح في مأزق وحرج ، لأنّ القرآن الكريم والسنّة الصحيحة والعلم والعقل والمنطق ، تنفيها كلّها ، وحيث أنّهم يعتقدون بأنّ رواة هذه الأحاديث ثقات لأنّهم صحابة .. فقد اضطرّوا للبحث عن حلٍّ ، ولا حلّ إلّا في الطريقة السحريّة للتخلّص من المآزق ، وهي التأويل .. فقالوا : إنّ لله يداً ولكنّها ليست كالأيدي ، ورجلاً ولكنّها ليست كالأرجل ، وعيناً ووجهاً ولكنّهما ليسا كالعيون والوجوه ، وإنّه يضحك ولكن ليس كما نضحك .. إلى آخر هذه المفردات والصفات .. ومن الواضح أنّ التأويل قد خانهم هنا أيضاً ؛ إذ أنّهم لم يفعلوا شيئاً سوى تفسير الماء بعد الجهد بالماء ..

رؤية الله لم تكن الأُولى

وهو ما نصّت عليه الروايتان الأُولى والثالثة ، حيث ورد في الأُولى أنّ الله يأتيهم : « **فيقول : أنا ربّكم ، فيقولون : هذا مكاننا حتّى يأتينا ربّنا ، فإذا جاء ربّنا عرفناه ، فيأتيهم الله فيقول : أنا ربّكم ، فيقولون : أنت ربّنا ..** » !! وورد في الثالثة : « **أتاهم ربّ العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها ..** » !!

إنّ هذين النصّين يقتضيان أنّهم قد سبق لهم رؤيته ، لأنّهم لم يتعرّفوا عليه حين ظهر لهم أوّل مرّة ، إنّما حصل ذلك في ظهوره الثاني .. فمتى رأوه ، وبمَ ميّزوه ؟

تقول الرواية السابعة : « **يكشف ربّنا عن ساقه فيسجد له كلّ مؤمن ومؤمنة** » .. فالعلّة هنا إذن في الساق ، ولا بدّ أن تكون لديهم علامة فيها ميّزوه بها وتأكّدوا من أنّه هو ، فخرّوا له ساجدين !!

أفتكون تلك العلامة المميّزة هي أثر ضربة سهم النمرود التي تتحدّث عنها روايات بني إسرائيل ؟ فلمّا رأوها اقتنعوا !!

فهل بعد هذا اللغو من كلام ؟ إلّا أن نستغفره تعالى ونعوذ به من شرّ ما يدّعي الجاهلون .

الصراط هو جسر للعبور

كما نصّت الرواية الأُولى على أنّ الصراط إنّما هو جسم مادّي حقيقيّ يعبر فوقه العباد « **فيضرب الصراط بين ظهرانيّ جهنّم فأكون أوّل من يجوز من الرسل بأُمّته ..** » ، والصحيح هو أنّ الصراط ليس جسماً مادّيّاً ، بل هو اصطلاح يراد به الطريق الصحيح القويم الذي يوصل إلى الله تعالى ، وإلى تنفيذ شرائعه وأحكامه بما يضمن رضاه والفوز بنعيمه ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ** ﴾[1] ، ولم يرد في معاجم اللغة ولا كتب التفسير المعتبرة أيّ معنى للصراط يقترب من المعنى الذي تداولته الرواية ، وإنّ التصوّر بأنّه جسر يضرب ليعبر عليه الناجون من خلق الله ، ما هو إلّا تصوّر ساذج يدفع إليه الفهم السطحيّ لتعابير كتاب الله التي طالما اعتمدت المجاز في إيصال الفكرة بأُسلوب بلاغيّ تميّز به القرآن الكريم ..

إثبات الرؤية والحركة والأعضاء

إنّ كافّة الأحاديث المتبقّية تتعلّق بتقرير رؤية الناس لله تعالى يوم القيامة رؤية العين ، كما يرون القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ، وكما يرون الشمس ليس دونها سحاب ، وما بينهم وبينه إلّا « **رداء الكبر !! على وجهه في جنّة عدن ، وسيكلّمهم ويكلّمونه دون ترجمان ولا حجاب يحجبه ..** » !!

إنّ جميع هذه الأحاديث تتعارض مع قوله تعالى : ﴿ **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾[2] ، ومع كثير ممّا ورد في كتاب الله مثل قوله ـ حكاية عن لسان موسى عليه السلام ـ : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ**

---

(١) الفاتحة ١ : ٦ و ٧.

(٢) الأنعام ٦ : ١٠٣.

إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسىٰ صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١]..

وكما هو معروف ، فإنّ أحاديث الرؤية هي نفسها أحاديث التجسيم ، لتعلّق الرؤية بالأجسام المادّيّة ، وهذا ما اتّفق العلم والعقل على رفضه ، حتّى عدّه الكثير من العلماء إشراكاً بالله تعالى على أساس أنّ مَن ادّعى رؤيته فقد حدّه ، ومن حدّه فقد عدّه ، ومن عدّه فقد جعل له أنداداً..

وقد نصّت الرواية الثانية على نزوله تعالى إلى السماء الدنيا كلّ ليلة ، وهذا أيضاً من القول بالتجسيم ؛ لأنّ الحركة من صفات الأجسام ، كما تعني أنّه عندما يكون في مكان فإنّ مكاناً آخر سيخلو منه ، وهو مخالف لوجوده سبحانه في كلّ مكان وزمان ، لا تحدّه حدود ، ولا تمنعه حواجز ، يسمع الداعي إذا دعاه آناء الليل وأطراف النهار دون احتياجه إلى النزول والصعود ، لأنّه لا يخلو منه مكان..

أمّا الأحاديث الواردة في الفقرة الرابعة ، فهي من العجائب التي انفرد بها أبو هريرة وأنس ، فهي تستعصي على أيّ فهم أو تأويل ، فإنّها بعد أن جعلت لله رِجلاً ، جعلته عاجزاً عن تلبية مطالبة جهنّم بالمزيد ، فاضطرّ إلى وضع تلك الرِّجل فيها لتكفّ عن الطلب والمناداة ، وفاتهم أنّه تعالى هو خالق الجنّة والنّار ، وهو المُقدّر والمقرّر لكلّ ما يتعلّق بهما ، وإذا كانت النار تستوعب أكثر ممّا سيُلقى فيها ، فإنّ ذلك هو المقصود الوحيد من قوله تعالى : **﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَزِيدٍ﴾**[٢] ، فإنّه تعالى أراد أن يوضّح من باب التهديد والوعيد أنّ النار لن تمتلئ ، وهي قادرة على استيعاب كلّ الخلق إذا عصوا وكفروا ، ولم يقصد بأنّها

---

(١) الأعراف ٧: ١٤٣.

(٢) ق ٥٠: ٣٠.

ستتكلّم فعلاً وتطلب المزيد، واسمع قوله تعالى: ﴿**قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾(١)، وفي ذلك نصّ على أنّ جهنّم ستمتلئ ﴿**مِنكَ**﴾، أي من جنس الشياطين؛ لأنّ الخطاب للشيطان ﴿**وَمِمَّن تَبِعَكَ**﴾ من الناس الذين ستغويهم.. وكما هو واضح فإنّه ليس هنالك رِجلٌ ولا يدٌ ولا أيّ شيء آخر..

وإذا ما جارينا الراوي وسألناه: هل سيُبقي الله رِجله في النار أم سيرفعها؟ ولا نخاله يقول إنّه سيبقيها، بل أنّه سيرفعها، فنجيبه: إنّ المشكلة ستكرّر إلى ما لا نهاية..!! فما هو حلّه الجديد..؟

أمّا فيما يخصّ الجنّة فقد نصّت الرواية الرابعة على أنّها ستبقى غير ممتلئة إلى أن يخلق الله لها خلقاً جديداً «**فيسكنهم فضل الجنّة**»، وأنّ أبسط ما يقال في الردّ على ذلك هو: بِمَ استحقّ هذا الخلق الجديد دخول جنّةٍ أعدّها الله للمؤمنين العاملين من خلقه بعد أن يختبرهم ويبتليهم؟

إنّ مشكلة القوم التي تدفعهم إلى هذه المجاهل والمزالق لا تعدو أن تكون وليدة جهل غلّف عقولهم، وقتل قدرتهم على التفكير وفهم الأُمور، فلم يستطيعوا تجاوز المعاني الظاهريّة للكلمات ودلالاتها الحرفيّة، فتصوّروا أنّ قوله تعالى: ﴿**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾(٢) يعني أن تمتلئ النار تماماً بحيث لا يبقى فيها أيّ فراغ، وهذا ينسحب على الجنّة أيضاً، في حين أنّ المقصود هو ليس المعنى الحرفيّ للامتلاء، وإنّما لإشعار الناس وإنذارهم بأنّ النار قادرة على استيعاب أيّ عدد من الكافرين والمجرمين والعصاة مهما كثر وبلغ، أي أنّ معنى «الامتلاء» سيكون مبالغة بلاغيّة بقدرة النار على الاستيعاب، وليس بمعنى

---

(١) ص ٣٨: ٨٤ و ٨٥.

(٢) هود ١١: ١١٩.

استغراق كلّ حيّزها المكانيّ..

وبعد التأمّل في هذه الروايات فقد سجّلنا عدداً من الملاحظات منها:

١ - إنّ جميع الروايات تحتوي على ثوابت ومتغيّرات، فأمّا الثوابت فهي: «أنّ الله جسم، وأنّه سيُرى يوم القيامة»، وأمّا المتغيّرات فهي خلفيّة المشهد أو الإطار الخارجيّ للصورة الذي من شأنه أن يخدم الرواية ولكنّه لا يمسّ جوهر القضيّة التي تبحثها..

فالرواية الخامسة -مثلاً- الثابت فيها هو ما أراد الراوي إيصاله إلى السامع وهو «**أنّكم سترون ربّكم كما ترون القمر، لا تضامون في رؤيته**»، أمّا المتغيّر فهو الحواشي التي أُطّر بها ذلك الثابت، فوضع له خلفيّة دراميّة تضفي عليه قدراً من الواقعيّة وشيئاً من التشويق، إذ جعل نفسه جالساً مع النبيّ ﷺ في ليلة كان القمر فيها ابن أربعة عشر ونظر إليه ثمّ تكلّم، وبذلك يكون قد وضع لمسة واقعيّة على روايته.

ثمّ التفت إلى التشويق فأضاف: «**فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**».. وهذه إضافة غريبه تماماً عن سياق الموضوع وصلبه، فلا توجد أيّة علاقة بين القولين: «**إنّكم سترون ربّكم**..» و «**إن استطعتم أن لا تُغلبوا**..» فالراوي هنا لم يكن موفّقاً في اختيار فقرات موضوعه الذي يظهر بأنّه لم يكن مستعدّاً له مسبقاً..

٢ - إنّ تلك الروايات اختصّ كلّ منها بإثبات صفة أو عضو أو حالة محدّدة، فمنها ما أشار إلى أنّ الله سيتكلّم بصوت يسمعه البشر، ومنها ما ذكر أنّه يغيّر مكانه ويتحرّك، ومنها ما أثبت له صورة، ثمّ قدم، ثمّ ساق، ثمّ وجه يغطّيه بـ«**رداء الكِبر**»!! ومنها ما نصّ على أنّه يُرى بالعين المجرّدة، وأنّه يرى بعينه، ويسمع بأُذنه، ويتكلّم بلسانه.. ثمّ يستعينون بعد ذلك بفهمهم الخاطئ لبعض آيات القرآن الكريم التي يوحي ظاهرها بوجود تلك الأعضاء، كقوله تعالى: ﴿**يَدُ اللهِ**

فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1].

وقوله: **﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾**[2].

وقوله: **﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾**[3].

وبذلك تمّت لديهم الصورة، وأثبتوا لله تعالى كلّ الأعضاء والصفات والفعّاليات التي يريدون..

٣ ـ من كلّ ذلك تأكّدت ثقتنا بأنّ هذه الروايات إنّما وُضعت وفقاً لخطّة وحسابات دقيقة رجّحت لدينا فكرة حدوث الوضع في زمن متأخّر عن زمن الصحابة، ولعلّه تحديداً عند ظهور مذاهب المجسّمة الذين وضعوها بدهاء ومكر جعلها تنطلي على الكثير من سواد المسلمين.. فقد أكثروا من طرق إسناد تلك الروايات ووضعوا على رأس السند أسماء لامعة لديهم، كأبي هريرة وأنس بن مالك وأبي سعيد الخدريّ، والويل لمن يكذّب حديثاً يقع أحد هؤلاء على رأس سنده..

٤ ـ إنّ ما نأسف له حقّاً هو غفلة رجال الحديث وتساهلهم في قبول الحديث من كلّ من هبّ ودبّ دون دراسة أو تمحيص، وكان المفروض بالبخاريّ وغيره ممّن تصدّوا لرواية الحديث، الاحتماء من هذا المنزلق، بدراسة تلك الروايات دراسة موضوعيّة، ومحاكمتها وفقاً لكتاب الله، ولو أنّهم تدبّروا قليلاً لانتهوا إلى نبذها وطرحها جميعاً لأنّها ممّا لا يقرّه عقل ولا يقبله وجدان..

---

(١) الفتح ٤٨: ١٠.

(٢) البقرة ٢: ١١٥.

(٣) القيامة ٧٥: ٢٢ و ٢٣.

أحاديث الجنّة والنار

الأحاديث:

١ - ١ / ٢ / ٥٣

بسنده عن أبي هريرة، قال:

«قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ لِبِلالٍ عِنْدَ صَلاةِ الْفَجْرِ: سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ في الْجَنَّةِ».

٢ - ١ / ٣ / ١١٢

بسنده عن عبدالله بن عمر:

«أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ في هِرَّةٍ حَبَسَتْها حَتّىٰ ماتَتْ جُوعاً، فَدَخَلَتْ فِيها النّارَ. قالَ: فَقالَ -وَاللهُ أَعْلَمُ-: **لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِيها وَلَا سَقَيْتِيها حِينَ حَبَسْتِيها، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِيها فَأَكَلَتْ مِنْ خَشاشِ الأَرْضِ»**.

٣ - ٢ / ٤ / ٢٤

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ، قال:

«يَضْحَكُ اللهُ إِلىٰ رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُما الآخَرَ يَدْخُلان الْجَنَّةَ، يُقاتِلُ هٰذا في سَبِيلِ اللهِ، فَيُقْتَلُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى الْقاتِلِ فَيُسْتَشْهَدُ».

٤٠ - ٢ / ٤ / ١٨٨

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلىٰ صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيها، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ فِيها الذَّهَبُ، أَمْشاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَمَجامِرُهُمُ الْأَلُوَّةُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتانِ يُرىٰ مُخُّ سُوقِهِما مِن وَراءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَباغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ واحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيّاً».

وبسنده عن سهل بن سعد، عن النبيّ ﷺ، قال:

«لَيَدْخُلَنَّ مِنْ أُمَّتي سَبْعُونَ أَلْفاً ـ أَوْ سَبْعُمائَةِ أَلْفٍ ـ لَا يَدْخُلُ أَوَّلُهُمْ حَتّىٰ يَدْخُلَ آخِرُهُمْ، وُجُوهُهُمْ عَلىٰ صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ».

وفي: <u>٢ / ٤ / ١٣٢</u>

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ، قال:

«إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ عَلىٰ صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذينَ يَلونَهُمْ عَلىٰ أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ في السَّماءِ إِضاءَةً، لَا يَبولُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَتْفِلُونَ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، أَمْشاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَمَجامِرُهُمُ الْأَلُوَّةُ الْأَنْجُوجُ عُودُ الطِّيبِ، وَأَزْواجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ، عَلىٰ خَلْقِ رَجُلٍ واحِدٍ، عَلىٰ صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِراعاً في السَّماءِ».

٥ ـ <u>٢ / ٥ / ٣٥</u>

بسنده عن البراء بن عازب، قال:

«أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ حُلَّةُ حَرِيرٍ، فَجَعَلَ أَصْحابُهُ يَمَسُّونَها وَيَعْجَبُونَ مِنْ لِينِها، فَقالَ: أَتَعْجَبونَ مِنْ لِينِ هٰذِهِ! لَمَنادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعاذٍ خَيْرٌ مِنْها أَوْ أَلْيَنُ».

٦ ـ <u>٢ / ٤ / ١٢٠</u>

بسنده عن سهل بن سعد، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«فِي الْجَنَّةِ ثَمانِيَةُ أَبْوابٍ، فِيها بابٌ يُسَمَّى الرَّيّانَ، لا يَدْخُلُهُ إِلّا الصّائِمُونَ».

٧ - <u>٢ / ٤ / ١٢٠</u>

بسنده عن أبي هريرة: «أنّ النبيّ ﷺ قال:

اشْتَكَتِ النّارُ إِلىٰ رَبِّها فَقالَتْ: رَبِّ أَكَلَ بَعْضي بَعْضاً، فَأَذِنَ لَها بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ في الشِّتاءِ وَنَفَسٍ في الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ ما تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ ما تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ».

٨ - <u>٢ / ٤ / ١٢١</u>

بسنده عن أبي هريرة: «أنّ النبيّ ﷺ قال:

نارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نارِ جَهَنَّمَ.

قِيلَ: يا رَسولَ اللهِ، إِنْ كانَتْ لَكافِيَةً؟

قالَ: فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءاً كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّها».

٩ - <u>٢ / ٥ / ٣٧</u>

بسنده عن سعد بن أبي وقّاص، قال:

«ما سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقولُ لِأَحَدٍ يَمْشي عَلَى الْأَرْضِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلّا لِعَبْدِاللهِ ابْنِ سَلامٍ».

١٠ - <u>٢ / ٦ / ١٣٨</u>

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«تَحاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنّارُ، فَقالَتِ النّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ.

وَقالَتِ الْجَنَّةُ: ما لي لا يَدْخُلُنِي إِلّا ضُعَفاءُ النّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟

قالَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالىٰ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشاءُ مِنْ عِبادِي.

وَقالَ لِلنّارِ: إِنَّما أَنْتِ عَذابي، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشاءُ مِنْ عِبادي، وَلِكُلٍّ واحِدَةٍ مِنْهُما مِلْؤُها.

فَأَمّا النّارُ فَلا تَمْتَلِئُ حَتّىٰ يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، فَهُنالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزْوىٰ بَعْضُها إِلىٰ بَعْضٍ، وَلا يَظْلِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَداً، وَأَمّا الْجَنَّةُ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَها خَلْقاً».

١١ـ ٣ / ٧ / ٣٠

بسنده عن أُسامة، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«قُمْتُ عَلىٰ بابِ الْجَنَّةِ، فَكانَ عامَّةُ مَنْ دَخَلَها الْمَساكِينُ، وَأَصْحابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُونَ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحابَ النّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النّارِ.

وَقُمْتُ عَلىٰ بابِ النّارِ فَإِذا عامَّةُ مَنْ دَخَلَها النِّساءُ».

١٢ـ ٣ / ٧ / ١١٦

بسنده عن ابن عبّاس:

«أَنَّهُ كانَ يُحَدِّثُ عَطاءَ بْنَ أَبي رَباحٍ وَيَقولُ لَهُ: أَلا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟

قُلْتُ: بَلىٰ.

قالَ: هٰذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْداءُ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقالَتْ: إِنّي أُصْرَعُ وَإِنّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لي.

قالَ: إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعافِيَكِ.

فَقالَتْ: أَصْبِرُ.

فَقالَتْ: إِنّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ لي أَنْ لا أَتَكَشَّفَ، فَدَعا لَها».

المناقشة :

١ ـ دفّ نعلي بلال في الجنّة

إنّ بلالاً رجل صالح ، عاصر رسول الله ﷺ ، وخدمه ، ورفع الأذان بين يديه ، شأنه شأن الكثير من الصحابة الأجلّاء الذين عاصروا النبيّ ﷺ وصحبوه وخدموه وتولّوا له بعض الأعمال ، ويكفيه فخراً وزلفى أنّه نال هذا الشرف الرفيع . .

وقد امتدح الله في كتابه العزيز المؤمنين والمجاهدين ، ووعدهم بجنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وبشّرهم بالمنازل الرفيعة ، والمراتب السامقة إن هم أوفوا بالعهد الذي عاهدوا الله ورسوله عليه ، وأخبرهم بأنّ درجاتهم في الآخرة ستتفاوت بحسب أعمالهم في الدنيا وبلائهم فيها ، دون استثناء ، وأنّ مصداقيّة تلك الأعمال ستكون الفيصل في ردّها أو قبولها . .

لذلك فإنّنا نجد الأنبياء والرسل ، وهم أقرب خلق الله إليه ، وأعرفهم به ، أكثر خوفاً ورهبة وخشية له من غيرهم ، فلا يفوّتون فرصة للإكثار من العبادة والدعاء والتضرّع وطلب العفو والمغفرة على أفعال لم يقترفوها وذنوب لم يرتكبوها ، في حين تقتضي البديهة أن يكونوا أكثر أماناً وثقة بمصيرهم ، وقد وصفهم الله بقوله : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾(١) .

ولا أدلّ على ما قلناه ولا أقوى من قول النبيّ ﷺ الذي رواه البخاري في صحيحه : « **والله لا أدري وأنا رسول الله ماذا سيُفعل بي** »(٢) . .

إنّ كلمة رسول الله هذه تسدّ الطريق أمام كلّ الروايات والأحاديث التي حاول الرواة بواسطتها أن يحجزوا مقاعد في الجنّة لزيد أو لعمرو ، أو تحديد مراتبهم

---

(١) فاطر ٣٥ : ٢٨ .

(٢) صحيح البخاري ٣ : ١٦٤ و ٨ : ٧٤ .

ودرجاتهم فيها.. فقد تسابق هؤلاء الرواة في استخراج أحاديث كثيرة غير معقولة من واقعة الإسراء والمعراج التي اتّخذت منها متّكئاً وكيساً يستخرجون منه ما يشاؤون ساعة يشاؤون، ممّا أفسد عقائد الناس، ودفعهم إلى متاهات الجهالة والضلال، سيّما وأنّ غالبيّة علماء المسلمين لم يقفوا موقفاً منسجماً مع مسؤوليّاتهم الجسيمة أمام خلق الله، فمنهم من آثر السلامة وصدّق بكلّ شيء، وألقى بالتبعة على ذمّة مَن كان قبله، ومنهم مَن تحرّج وتوقّف ولم يُبد رأياً، وأوكل الأمر إلى الله، مع أنّ الحقّ بيِّن والباطل بيّن، وبإمكان كلّ مسلم مؤمن يعرف ربّه ونبيّه ودينه جيّداً أن يجزم بصحّة أو بطلان أيّة قضيّة تصادفه.. ومنهم من يعرف ولكنّه يخشى الناس أو السلطان، فارتأى أن يسكت ويتمتّع بكلّ ملذّات السكوت..

وفيما يتعلّق بالحديث الذي بين أيدينا، وهو سماع النبيّ ﷺ لخفق نعال بلال في الجنّة، فإنّ هناك العديد من التساؤلات التي تجعل تصديقه أمراً مستحيلاً..

فمتى سمع النبيّ دفّ نعلي بلال في الجنّة؟

وماذا كان يفعل فيها؟ ومتى دخلها وهو لا يزال حيّاً يرزق، ويوم الحساب لم يحن بعد؟

قد يقولون: إنّه لم يكن بلحمه ودمه، وإنّما هي روحه كانت في الجنّة، فنقول: إنّ روحه لا زالت معه في الدنيا ولم نسمع أنّ للشخص روحان، كما لم نسمع أنّ الأرواح ترتدي نعلاً تخفق به أو تدفّ..

ولماذا يسمع النبيّ ﷺ دفّ نعليه فقط، وكان المناسب إتمام المعجزة برؤيته له؟

وهل يوجد أيّ دليل في كتاب أو سنّة أنّ هناك من سيسكن في الجنّة أو في النار قبل قيام الساعة وإنجاز الحساب؟ أم سيقولون أنّ هناك نسخة أُخرى لكلّ فرد ستسبقه لتحجز مقعداً في الجنّة أو في النار، للنسخة الأصليّة؟!!

إنّ هناك من أصحاب رسول الله ﷺ مَن هو خير من بلال عملاً وعلماً وجهاداً في سبيل الله ، فما هو وجه اختصاص بلال بهذه الكرامة ؟

إنّنا نحتاج إلى إجابات منطقيّة معقولة مدعومة بالبرهان والدليل لكي نستطيع تصديق أمثال هذه الروايات ..

وكان الله يحبّ المحسنين

٢ ـ امرأة تدخل النار بسبب هرّة

مرّ علينا وسيمرّ ، مجموعة من الأحاديث نصّت على أنّ مَن قال : لا إلـه إلّا الله دخل الجنّة حتّى إذا كان قد سرق أو زنى .. وأحاديث تجعل أكبر الجبابرة والعتاة يتفاءلون ويأملون دخول الجنّة .. ولكنّنا نجد في هذا الحديث أنّ أيّ شيء لم يستطع تخليص المرأة التي عذّبت الهرّة وأجاعتها ، من دخول النار ..

حقّاً ، إنّ تعذيب الحيوان أمر يتنافى مع شريعة الإسلام التـي دعت إلى الرأفة والرحمة بجميع مخلوقات الله ، ولكن هل يكفي تعذيب هرّة ليكون سبباً لدخول النار .. ؟

لقد حسمت السيّدة أمّ المؤمنين عائشة الأمر للذين يعقلون ، حيث أنّها عند سماعها لهذا الحديث قالت لأبي هريرة : « إنّ المؤمن أكرم على الله من أن يعذّبه في هرّة ، فإذا حدّثت عن رسول الله فانظر كيف تحدّث »[(١)] ..

إنّ قول السيّدة عائشة هذا يكفينا للجزم بعدم صحّة الحديث الذي رواه أبو هريرة ، لأنّها أعلم وأفقه منه ، ولأنّ قولها أقرب إلى العقل وروح الشريعة .. نعم ، إنّ تعذيب الحيوان بلا مبرّر لن يمرّ دون حساب في ميزان العدل الإلـهيّ ، ولكن هناك من الأعمال والاستغفار والصدقات والتوبة ما يكفي لكي يكون كفّارة عن إتيان

---

(١) مسند أحمد ٢ : ٥١٩ . مجمع الزوائد ١ : ١١٦ و ١٠ : ١٩٠ .

المرء لمثل هذا الفعل..

٣ ـ الله يضحك

إنّ الذي تعنينا مناقشته في الحديث الثالث هو أمران:

أوّلهما: الحكم الشرعيّ الذي يمكن تطبيقه في هذه الحالة..

وثانيهما: مدى صحّة إثبات صفة الضحك لله سبحانه وتعالى..

فأمّا الأولى، فقد قال عزّ مَن قائل: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ** ﴾[١].

وقال: ﴿ **مِن أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً** ﴾[٢].

وقال: ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾[٣].

وكثير من الآيات التي توعّدت مقترفي الجرائم والذنوب والآثام وأخبرتهم أنّهم سيلاقون نتائج ما اقترفوا..

أمّا قضيّة التوبة الصادقة إذا حدثت، والمغفرة الإلـٰهيّة إذا حصلت، فهما سيغيّران بالتأكيد من نوع الحكم ومصير العبد، ولكن بالشروط والحدود المسموح بهما.. فقد تنفع التوبة في التخلّص من أحكام بعض المخالفات والمعاصي، وخصوصاً

---

(١) الزلزلة ٩٩: ٧ و ٨.

(٢) المائدة ٥: ٣٢.

(٣) المائدة ٥: ٤٥.

تلك التي لا تترك وراءها سلسلة لا تنتهي من الآثار والنتائج.. ولكنّها لا تنفع في درء أحكام العديد من الجرائم والآثام التي تترك خلفها آثاراً قد تترتّب عليها نتائج فرديّة أو جماعيّة إلى مدى معيّن، أو إلى أبد الآبدين..

إنّ التفكير بهذه الطريقة هو طريقنا الوحيد لفهم قول النبيّ ﷺ: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرَها وَأَجْرَ مَنْ عَمِلَ بِها إلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُها وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِها إلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ**»(١)..

فإذا افترضنا أنّ ذلك الذي سَنّ سنّة سيّئة قد اكتشف خطأه فتاب، فكيف سيقع عليه وزر مَن عمل بها بعده، وكيف سيفلت من العقاب؟

وكذلك القاتل إذا قتل نفساً بغير ذنب أو قصاص، ثمّ صحا ضميره بعدها وتاب، فهل ستكون تلك التوبة كافية لسلب حقوق المقتول وحرمانه، وإلغاء حقوق أهله في القصاص أو الدية أو من ثواب العفو، ومصادرة حقوق أطفاله الذين حُرموا من ابوّته وربّما تغيّر مصير حياتهم بشكل لا يعمله إلّا الله؟

إذن للتوبة حدود ومديات معيّنة، ولا يمكن أن تكون مطلقة وشاملة لكلّ الأحوال والظروف..

وهكذا الأمر بالنسبة للمغفرة، فإنّ الله سبحانه قادر على إطلاق مغفرته ليجعلها تشمل الجميع، إلّا أنّ عدالته اقتضت تحديد تلك المغفرة بحدودها الطبيعيّة المنسجمة مع الأحكام والشرائع التي وضعها لخلقه، وأنزل بها كتبه ورسالاته، وبلّغها إلى رسله وأنبيائه، فإذا شاء تعالى أن يغفر للعبد ذنوباً ارتكبها تتعلّق بذاته القدسيّة، فإنّه جلّ جلاله لن يتجاوز على حقوق عباده الذين وقع الذنب عليهم من ظلم أو قتل أو اعتداء أو هضم حقوق، وهو الذي وعدهم باستخلاص تلك الحقوق والانتقام لهم من ظالميهم..

---

(١) سنن النسائي ٥: ٧٧. كنز العمّال ١٥: ٧٨٠، الحديث ٤٣٠٧٨.

لقد ظنّ راوي الحديث أنّ استشهاد الرجل في سبيل الله سيعفيه من تبعات قتله للشهيد الأوّل، وأنّهما سيدخلان الجنّة يداً بيد وعلى قدم المساواة.. وهذا غير صحيح.. ولا ندري على وجه التحقيق كيف سيكون الحال؛ لأنّ علم ذلك عند الله وحده، ولكنّنا نثق بصدق الآيات التي ذكرناها آنفاً، وما لم نذكره مثل قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [١].

وقوله: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [٢].

وقوله: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [٣].

وقوله: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [٤].

حيث يجب أن توضع الأشياء في نصابها وسياقها الصحيح، وتأخذ أحكام الله مجراها المحتوم، فيحاسب ويعاقب على الشرّ والجريمة والمعصية، ويثيب ويكرم على الخير والإحسان والإيمان، وهذا هو الأقرب إلى العدالة التي هي من صفات الله سبحانه وتعالى..

وأمّا الثانية ـ وهي الضحك ـ فإنّه من صفات البشر المقترنة بخلفيّات وانفعالات نفسيّة وعاطفيّة، وبمجموعة من المشاعر والأحاسيس التي تترك تأثيرها على الإنسان، فيضحك لهذه، ويبكي لتلك، ويبتسم لأُخرى.. وما يصحّ على البشر لا يصحّ على الخالق العظيم بأيّ حال من الأحوال..

فتعالى الله عمّا يصفون علوّاً كبيراً

---

(١) المدّثّر ٧٤: ٣٨.

(٢) الإسراء ١٧: ١٤.

(٣) مريم ١٩: ٣٨.

(٤) غافر ٤٠: ١٧.

٤ ـ عدد الداخلين إلى الجنّة

لدينا في أحاديث الفقرة **٤** قضيّتان :

الأُولى : تتعلّق بصفات أهل الجنّة . .

والثانية : عدد الداخلين إليها . .

ونسأل أوّلاً : هل أنّ الصفات التي ذكرها الراوي ، عامّة لكلّ مَن يدخل الجنّة ، أم هي خاصّة فقط بأوّل زمرة تلجها كما هو مفهوم من الحديث ؟

فإذا قيل : إنّها صفات عامّة .

قلنا : ما وجه تخصيصها بالزمرة الأُولى ؟ وكيف ستكون كرامة لهم وحدهم وهي عامّة للجميع ؟

وإذا قيل : إنّما هي خاصّة بالزمرة الأُولى .

قلنا : لقد أثبتّم العكس على بقيّة أهل الجنّة ، أي أنّهم « سيبصقون ، ويتمخّطون ، ويتغوّطون » وغير ذلك . . فما هو دليلكم ؟

ولماذا لم يستثنهم من « الرشح » أيضاً ، فاضطرّ إلى جعله « **رشحاً من مسك** » ، ولم يجعل البول ـ مثلاً ـ « بولاً من عنبر » فتنتهي المشكلة ؟ **! !**

ثمّ ورد في الحديث : « **ولكلّ واحد منهم زوجتان ، يُرى مخّ سوقهما من وراء اللحم من الحُسن** » ، وهذا وصف غريب لا يمتّ إلى الحُسن بأيّة صلة ، فأيّ جمال في امرأة يُرى هيكلها العظميّ من وراء اللحم ، وربّما العكس هو الصحيح ؛ إذ لن يُرى إلّا شكل قبيح لا يشبه ما أودعه الله سبحانه من تمام الخلقة وحسن التصوير لدى خلقه ، ولا يقولنّ أحد : إنّه « المجاز » لأنّ هذا الوصف لا يحلّه مجاز ولا مبالغة . .

أمّا حديث سهل بن سعد : « **ليدخلنّ من أُمّتي سبعون ألف أو سبعمائة ألف . .** » ، فهو من أحاديث الآحاد التي لعلماء الحديث رأيهم الفقهيّ فيها ، أمّا نحن فلا بدّ أن

نعرضها على منهجنا في المناقشة ، فنقول : لقد شكّ الراوي في العدد ، فتردّد بين السبعين ألفاً أو السبعمائة ألفاً ، وهو تردّد فاحش سنتحدّث عنه ، ولكن بعد أن نعرف هل أنّ هذا التردّد كان من قِبل النبيّ ﷺ أو من قِبل الراوي ؟

قطعاً إنّه لم يكن من قِبل النبيّ ، لأنه ﷺ ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾[(١)]..

فلا بدّ إذن أن يكون الراوي هو منشأ ذلك التردّد ، ولكن لا هو ولا البخاري أشارا إلى ذلك.. وعليه ، حقّ لنا أن نسأل : هل أنّ النبيّ ﷺ قد أسرّ هذا الحديث للصحابيّ المذكور فقط وخصّه به دون غيره ؟ أم أنّه قد تحدّث به بحضور جمع من الصحابة ؟ !

فإذا قيل : إنّه قد خصّه به ، فإنّنا سنأخذ على الراوي عدم حضوره ذهنيّاً ووجدانيّاً مع النبيّ ﷺ تلك الساعة في أمر أحبّ أن يسرّه إليه ، فخرج من عنده وهو لا يدري ماذا قال ! !

ويا ليته شكّ بين الاثنين والثلاثة ، أو بين المائة والمائتين ، أو بين الستّين ألفاً والسبعين.. ، ولكنّه كان بين السبعين ألفاً والسبعمائة ألفاً.. وبين الرقمين فارق كبير جدّاً لا يمكن الخطأ فيه ، وخصوصاً في قضيّة مثل هذه كانت الشغل الشاغل لعامّة المسلمين..

وإن قيل : إنّ الراوي كان ضمن مجموعة من الصحابة حدّثهم النبيّ ﷺ بهذا الحديث ، فالعجب سيكون أكبر ، إذ لم يروه أحد غيره من الذين سمعوه ، كما أنّه لم يسأل منهم أحداً لتصحيح الرقم الذي سمعه ! ! هذا أمر.

أمّا الأمر الثاني : فهو أنّ الراوي عندما حدّد هذا العدد لم يضع في حسابه امتداد

---

(١) النجم ٥٣ : ٣ و ٤.

أمّة محمّد ﷺ إلى يومنا هذا، ثمّ إلى ما شاء الله، فقد بلغت الأُمّة عشرات أو مئات المليارات من المسلمين لحدّ الآن، ودخول هذا العدد منهم إلى الجنّة فقط أمر ينذر بالويل والثبور، سيّما وأنّ صحيح البخاري يروي عشرات الأحاديث التي نصّت على أنّه من قال: لا إلـه إلّا الله دخل الجنّة، ومَن سقى كلباً ظمآناً دخل الجنّة، ومَن عرف أنّ له ربّاً يغفر الذنوب يدخلها كذلك، ولو كان محمّلاً بالجرائم والذنوب.. إلى كثير من أمثال هذه الأحاديث.. والله أعلم.

٥ـ مناديل سعد بن معاذ

مع ما في هذا الحديث من إشكالات، فإنّه ليس من المنطق المقارنة بين موجودات الحياة الدنيا وموجودات الآخرة، كما إنّه ليس متصوّراً أنّ الله سبحانه قد أوحى إلى النبيّ ﷺ ليخبره بمواصفات مناديل سعد التي سيتمّ تخصيصها له في الجنّة، فقد ذكر تعالى في كتابه العزيز ما أعدّه للمؤمنين من نِعم وخيرات بشكل إجماليّ من حور عين، وولدان مخلّدين، وثياب من حرير واستبرق، دون الدخول في التفاصيل، لأنّ العموم يدلّ على الخصوص من حيث الذات لا من حيث الكيفيّة..

ثمّ إنّه إذا كانت هناك مناديل في الجنّة، فمن المؤكّد أنّها ستكون في متناول جميع الداخلين إليها، لأنّها ليست من الهبات العظيمة أو المميّزات الرفيعة لتشمل أحداً دون أحد، وإذا ما كانت هنالك مراتب لأهل الجنّة، فإنّها حتماً لن تكون متعلّقة بالمناديل.. ولو كانت متعلّقة بها، لأصبح عدد أنواع المناديل كبيراً، كمناديل الخلفاء الراشدين، ومناديل الأنبياء، ومناديل الرسل.. ومناديل أُخرى، وفي هذه الحالة سيكون ضرب المثل بمناديل الأنبياء أو الخلفاء أليق بالمقام من ضربه بمناديل سعد..

على أنّنا وقعنا على حديث في «صحيح البخاري» أيضاً يوضّح الأساس الذي

قامت عليه هذه الرواية ودوافعها، وسنذكره في فصل الأحاديث المتناقضة عند مناقشتنا لحديث «**اهتزّ العرش لموت سعد بن معاذ**».. فراجع.

٦ـ أبواب الجنّة

جرت مناقشة هذا الحديث ضمن (أحاديث الحساب يوم القيامة)، ونضيف هنا أنّ أمثال هذه الأحاديث لا يمكن حملها على المجاز لأنّها تتضمّن أسماء وحركات لا بدّ أن تكون ممثّلة لواقع معيّن ملموس، فعندما نقول: إنّ للجنّة ثمانية أبواب، وذكرنا إسماً لكلّ منها، وحدّدنا مَن سيدخل من كلّ منها، فهذه أمور خارجة عن مجال المجاز، ولا بدّ أن تمثّل واقعاً يقصده المتحدّث، فقد يصحّ المجاز في مثل قولنا في الدعاء: «**إلٰهي قرعت باب رحمتك بيدي رجائي**»[1]، حيث سيكون معلوماً ومفهوماً لدى السامع أنّه ليس هناك لرحمة الله باب تُطرق، ولا للرجاء أيدٍ تَطرق، وإنّما المقصود هو أنّني أرجو نيل رحمة الله.. وهذه مثل تلك..

٧ـ نار جهنّم

سنتناول تحت هذا العنوان الأحاديث الواردة في الفقرات **٧** و **٨** و **١٠** و **١١** فقد ورد في السابع: «**اشتكت النار إلى ربّها فقالت: ربّ أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشدّ ما تجدون من الحرّ، وأشدّ ما تجدون من الزمهرير**»، وهذا كلام غريب لا يفهم منه السامع شيئاً، وليس فيه غير الغموض ومخالفة البديهيّات العقليّة والعلميّة..

فما هو معنى قول النار أنّ بعضها أكل بعضاً؟

هل يعني أنّها بدأت تضعف وتنقص، وهو ما نفهمه من السياق..؟ وإذا كان

---

(١) بحار الأنوار ٨٤: ٣٤٠ و ٩١: ٢٤٤.

كذلك فكيف خلقها سبحانه وأعدّها ليوم الحساب ، ثمّ غفل عنها وتركها يأكل بعضها بعضاً حتّى اضطرّت للشكوى ؟

وما معنى النفسين الصيفيّ والشتويّ ، وكيف كان فيهما حلٌّ لمشكلة النار ؟

ولماذا كان نفسها الصيفيّ حرّاً ، والشتويّ زمهريراً ؟ وكيف امتدّ تأثيرهما إلى عالمنا الأرضي ؟

إنّ هذا الحديث يقلب كلّ النظريّات العلميّة التي يستند عليها نظام الكون ، ثمّ لا يقدّم عنها بديلاً . .

أمّا الحديث الثامن ، فقد أكّد الشبه بين نارنا ونار جهنّم ، سوى أنّ الثانية أقوى من الأُولى بسبعين مرّة ، وأنّها فُضّلت عليها بتسع وستّين جزءاً كلّهنّ مثل حرّها . .

ومهما كان ردّنا على هذا الحديث ، فإنّه سيبقى رجماً بغيب لا يعلمه إلّا الله ، فلا ندّعي أنّنا نعرف حقيقة نار جهنّم ، ولكنّنا ندّعي أنّ الراوي قد جازف في ركوب الأوهام ، وبالغ في اقتحام عالم المجهول ، وأسند كلّ ذلك إلى رسول الله ﷺ ، وهو منه بريء . .

إنّنا لا نرى أنّ نار جهنّم هي كالنار التى نعرفها مهما كان الفرق بينهما في القوّة ، وإذا كان الراوي قد قاسها بنار الحطب التي عرفها زمانه ، فإنّنا اليوم نعرف أنواعاً كثيرة من النار تفوقها بآلاف أو حتّى ملايين المرّات . . ولكنّ القضيّة هي أنّ الفرق بين نار جهنّم ونيران الأرض لا يتعلّق بالقوّة ، وإنّما بالنوعيّة والخواصّ ، فمن خاصّيّة هذه النيران حرق الأشياء وإتلافها فوراً ، أمّا الخاصّيّة التي تميّزت بها نار جهنّم فهي ما يشير إليها كتاب الله العزيز في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً** ﴾(١) ، وهذا معناه أنّ نار جهنّم لن تتلف أجساد الناس ،

(١) النساء ٤ : ٥٦ .

وإنّما تقوم بإنضاج جلودهم.

وكلّما نضجت بُدّلوا جلوداً غيرها، وحكمة ذلك ﴿**لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**﴾، أي ليستمرّ لديهم الألم عن طريق بقاء الأعصاب المسؤولة عن نقل إيعازات الإحساس بالألم إلى المخّ، والموجودة في ثنايا الجلد صالحة وعاملة.. ولو احترق الجلد، وطالت النار تلك الأعصاب وأتلفتها فلن يشعر الإنسان بعدها بأيّ ألم، وستتوقّف عمليّة العذاب الذي أعدّه الله للكافرين والمجرمين والعاصين..

وخلاصة ذلك أنّ نار جهنّم تتميّز بالقدرة على إنضاج الجلود دون التسبّب في إتلاف أعصاب الحسّ، بينما تتميّز النيران التي نعرفها بالقدرة على التهام ما يلقى فيها وإتلافه فوراً..

لقد أودع الله تعالى في الكون أسراراً عظيمة وعلوماً جمّة لم يتوصّل الإنسان إلّا لليسير منها، وبقيت قدراته قاصرة عن اكتشاف أو معرفة الكثير: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً**﴾(١)، ومن هذا القليل الذي عرفوه صنعوا أفراناً مايكروويفيّة تطلق موجاتٍ غير مرئيّة تقوم بإنضاج اللحوم وتحميصها دون نار، ولا ندري ماذا سيكتشفون غداً ممّا أودعه الله في هذا الكون..

إنّه ليس من الضرورة أن تتشابه موجودات الآخرة مع موجودات الدنيا، والأرجح أنّ كلّ شيء هناك سيكون مختلفاً عن كلّ شيء هنا.. لذلك لا ينبغي تفسير الأُمور وفقاً للمألوف لدينا تفسيراً حرفيّاً، وقد يكون المقصود فقط إيصال الفكرة إلى أفهامنا بالإشارة إلى ما نألفه ونعرفه.. كما لا ينبغي البناء على ذلك المألوف والتمادي في وصف شيء لا نعرفه ولم يخبرنا الله به..

أمّا الحديث العاشر، فقد تضمّن مشادّة ومزايدات كلاميّة بين الجنّة والنار، فالجنّة تندب حظّها العاثر لأنّها لا يدخلها غير ضعفاء الناس وسقطهم، والنار تزهو

---

(١) الإسراء ١٧: ٨٥.

بأنّها أُوثرت بالمتكبّرين والمتجبّرين ، فيحسم الباري عزّ وجلّ النزاع فيخبر الجنّة أنّها رحمته ، والنار أنّها عذابه ، وطمأنهما بأنّهما ستمتلئان .. فأمّا النار فإنّها لن تمتلئ حتّى يضع فيها رِجله فتقول : قطّ قطّ ، وأمّا الجنّة فسيخلق الله لها خلقاً جديداً حتّى تمتلئ !!

فهل هذا كلام يقبله عقل أو يستسيغه ذوق ؟ وهل يصدّق مؤمن يعرف عظمة الله ، ودقيق حكمته ، وبديع خلقته ، ولطيف صنعته ، مثل هذا الحديث ؟

ماذا نفعل وقد ابتلينا بأُناس عطّلوا عقولهم ، ونبذوا خلف ظهورهم كلّ ما في ديننا العظيم من أفكار عملاقة ، وشرائع جبّارة ، وسنن خلّاقة ، وآيات خارقة ، ومبادئ سامية ، ومعارف راقية ، وراحوا يلهثون وراء كلّ ناعق لينشغلوا بالقشور والتفاهات والروايات الباطلة التي لا تصلح إلّا حكاياتٍ للأطفال .. وعندما يعترض عليهم معترض ينبرون للدفاع ويناضلون من أجل التأويل ، وليتهم يستطيعون ..

ونقول في الردّ على هذا الحديث :

١ ـ يا تُرى بأيّ لسان تكلّمت الجنّة والنار ؟ وبأيّ عقل فكّرتا ؟ وبأيّ عين شاهدتا ؟ وبأيّ حسٍّ انفعلتا ؟ ومن أيّ مبدأ انطلقتا وهما تتحاوران ذلك الحوار الساذج ؟ وكيف استطاعت النار أن تعلم أنّها أُوثرت بالمتكبّرين والجبابرة ولم تستطع أن تعلم أنّها دار عذاب ؟وكيف عرفت أنّهم من المتكبّرين والجبابرة ، أمن سابق لقاء ، أم من واقع حال ؟

ونفس الكلام نقوله عن الجنّة ، وكان الحريّ بها لو كانت تحسّ وتعقل وتتأثّر وتتكلّم أن تعرف أنّ هؤلاء الضعفاء والمساكين الذين دخلوها ما هم إلّا أنبياء الله ورسله والصالحون والمؤمنون من عباده ؟

٢ ـ أو لم يروِ أبو هريرة نفسه ـ كما سيمرّ في فصل لاحق ـ أنّ جبل أُحد ارتجف عندما صعده النبيّ وأبو بكر وعمر وعثمان ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله : اثبت أُحُد ،

إنّما عليك نبيّ وصدّيق وشهيدان.. فلماذا عرف الجبل مَن صعده فارتجف، وجهلت الجنّة آلاف الأنبياء والرسل والصالحين الداخلين إليها، فراحت تصفهم بالضعفاء وسقط الناس؟

٣ ـ ماذا يضير الجنّة أو النار إن امتلأتا أم لا؟ أليستا مخلوقتين لله يفعل بهما ما يشاء، ويدخل فيهما مَن يشاء؟

وما هي ضرورة امتلائهما التي ألجأت الجليل سبحانه وتعالى إلى وضع رِجله أو قدمه في النار، وإيجاد خلق جديد يُدخِله الجنّة بلا عمل، لكي تمتلئا؟!!

إنّ الذي جرّهم إلى هذه التأويلات هو وجود كلمة «الامتلاء» في قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾[1]

وقوله: ﴿ **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾[2]، ولو علموا أنّ الإمتلاء المقصود يتعلّق بمن سيدخل الجنّة والنار وليس بذات الجنّة والنار، لما تكلّفوا كلّ هذه المسالك الوعرة..

أمّا الحديث الحادي عشر فيرد عليه ما أوردناه، يضاف إليه أنّ كلّ ما نصّ عليه سابق لأوانه ويستحيل وقوعه، لأنّ القيامة لم تقم بعد، ويوم الحساب لم يحن موعده، فكيف رأى النبيّ ﷺ ما رآه؟!!

٨ ـ البشارة بالجنّة

سنتناول هنا الحديثين التاسع والثاني عشر، وهما آخر ما بقي من هذا الفصل، ففي الحديث التاسع قول سعد بن أبي وقّاص أنّه ما سمع النبيّ يقول لأحد يمشي على الأرض أنّه من أهل الجنّة إلّا لعبدالله بن سلام..

---

(١) ق ٥٠: ٣٠.

(٢) ص ٣٨: ٨٥.

وفي الردّ عليه سنعتمد على ما رواه البخاري نفسه بسنده عن خارجة بن زيد بن ثابت، الذي روى: «أنّ أمّ العلاء أخبرته أنّ عثمان بن مظعون لمّا مات قالت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك لقد أكرمك الله.

فقال النبيّ ﷺ: **وما يدريك أنّ الله أكرمه؟ والله إنّي لأرجو له الخير، ولا أدري والله ـ وأنا رسول الله ـ ما يُفعل بي**. قالت: فوالله لا أُزكّي أحداً بعده»[(١)].

إنّ هذا الحديث يتناقض تماماً مع الحديث الأوّل، بل ينسفه نسفاً، فإذا كان النبيّ ﷺ لا يدري وهو رسول الله ماذا سيُفعل به، فكيف درى أنّ عبدالله بن سلام من أهل الجنّة؟

ثمّ ما مصير العشرة المبشّرة والحديثان السالفان ينقضانه كما هو واضح؟! كما ينقضه حديث سماع النبيّ لدفّ نعلي بلال في الجنّة، وحديث مناديل سعد بن معاذ، وحديث امرأة يوم الوشاح، وحديث المرأة السوداء، وأحاديث غيرها كثيرة تعلّقت بأناس ليسوا من العشرة المبشّرة ممّا لن يبقيها عشرة، لأنّ المبشّرين بالجنّة أكثر من ذلك بكثير حسب تلك الروايات..

أمّا الحديث الثاني عشر، فإنّنا نستغرب امتناع النبيّ ﷺ عن الدعاء لتلك المرأة السوداء المصابة بالصرع التي تتكشّف أمام الناس، وهو الذي كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[(٢)] يحنو عليهم، ويتفقّدهم، ويعود مرضاهم، ويدعو لهم بالخير، ويواسي ضعيفهم، ناذراً نفسه الكريمة لرعايتهم، وتدبير شؤونهم، وهو القائل: «**إنما بُعثت رحمة...**»[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري ٢: ٧١ و ٣: ١٦٤.

(٢) التوبة ٩: ١٢٨.

(٣) مسند أبي يعلى الموصلي ١١: ٣٥، الحديث ٦١٧٤. المعجم الأوسط، الطبراني ◄

كما نستغرب جوابه المزعوم لتلك المرأة: «**إن شئت صبرت ولك الجنّة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك**»، ممّا يوحي بأنّ بقاء مرضها كان شرطاً لدخولها الجنّة، بينما المعروف بالضرورة أنّ دخول الجنّة يكون بالعمل وليس بالمرض..!!

إنّ الله سبحانه يجزي المريض الصابر المحتسب ثواب صبره واحتسابه، وقد يُخفّف عنه العذاب بما لاقاه من آلام صبر عليها وحمد ربّه وشكره، ولكنّه تعالى لم يمنعه من الدعاء لنفسه بالشفاء أو دعاء الآخرين له، ولم يطلب منه تفضيل المرض على العافية، لأنّ الإنسان بطبعه ميّال للعافية، ومثاب إذا شكر الله وحمده عليها..

وعلى ذلك فإنّ تخيير النبيّ ﷺ لتلك المسكينة ـ وهي الباحثة عن الستر ـ بين الجنّة وبين استمرار مرضها، أمرٌ لا يتناسب لا مع عدالة الله سبحانه ولا مع رحمة النبيّ وإنسانيّته ورقّة قلبه وسموّ خلقه..

قد يكون قصد الراوي تهدئة خواطر المرضى، وبثّ الأمل، وبعث الطمأنينة في نفوسهم، ورفدهم بمبرّر للصبر على بلواهم، وهذا أمر جميل، ولكن يصبح في غاية القبح عندما يتضمّن كذباً على رسول الله ﷺ، واتّهامه بما لم يقل وما لم يفعل..

◆ ٣: ٢٢٣. شرح نهج البلاغة ١١: ٢٢١. الجامع الصغير، السيوطي ١: ٣٩٥، الحديث ٢٥٨٥. كنز العمّال ١١: ٤٢٦، الحديث ٣١٩٩٧.

أحاديث التوبة والمغفرة والرجاء

الأحاديث:

١ - ١ / ١ / ١٠٨

بسنده عن أبي هريرة، قال:

« سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: **أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهراً بِبابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْساً ما تَقُولُ، ذلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ ؟**

قالوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئاً.

قالَ: فَذلِكَ مِثْلُ الصَّلواتِ الْخَمْسِ يَمْحو اللهُ بِهِ الْخَطايا ».

٢ - ١ / ٢ / ٧١

بسنده عن أبي ذرّ، قال:

« قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: **أَتاني آتٍ مِنْ رَبِّي فَأَخْبَرَني - أَوْ قالَ: بَشَّرَني - أَنَّهُ مَنْ ماتَ مِنْ أُمَّتي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئاً دَخَلَ الْجَنَّةَ.**

قُلْتُ: وَإِنْ زَنىٰ وَإِنْ سَرَقَ ؟

قالَ: وَإِنْ زَنىٰ وَإِنْ سَرَقَ ».

٣ - ١ / ٢ / ٩٧

بسنده عن أنس بن مالك، قال:

« مَرُّوا بِجَنازَةٍ فَأَثْنَوا عَلَيْها خَيْراً، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: **وَجَبَتْ، ثُمَّ مَرُّوا بِأُخرىٰ فَأَثْنَوا**

عَلَيْها شَرّاً، فَقالَ: وَجَبَتْ.

فَقالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ: ما وَجَبَتْ؟

قالَ: هٰذا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْراً فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهٰذا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرّاً فَوَجَبَتْ لَهُ النّارُ، أَنْتُمْ شُهَداءُ اللهِ في الْأَرْضِ».

وفي نفس الصفحة بسنده عن أبي الأسود، قال:

«قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ وَقَدْ وَقَعَ بِها مَرَضٌ، فَجَلَسْتُ إِلىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطّابِ، فَمَرَّتْ بِهِمْ جَنازَةٌ فَأُثْنِيَ عَلىٰ صاحِبِها خَيْراً، فَقالَ عُمَرُ: وَجَبَتْ، ثُمَّ مُرَّ بِأُخْرىٰ فَأُثْنِيَ عَلىٰ صاحِبِها خَيْراً، فَقالَ عُمَرُ: وَجَبَتْ، ثُمَّ مُرَّ بِالثّالِثَةِ فَأُثْنِيَ عَلىٰ صاحِبِها شَرّاً، فَقالَ: وَجَبَتْ.

فَقالَ أَبو الْأَسْوَدُ: فَقُلْتُ: وَما وَجَبَتْ يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ؟

قالَ: قُلْتُ كَما قالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّما مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ.

فَقُلْنا: وَثَلاثَةٌ؟

قالَ: وَثَلاثَةٌ.

فَقُلْنا: وَاثْنانِ؟

قالَ: وَاثْنانِ، ثُمَّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنِ الْواحِدِ».

٤ ـ <u>١ / ٣ / ١٢٨</u>

بسنده عن صفوان بن محرز المازنيّ، قال:

«بَيْنَما أَنا أَمْشي مَعَ ابْنِ عُمَرَ آخِذٌ بِيَدِهِ إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ فَقالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ في النَّجْوىٰ؟

فَقالَ: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: إِنَّ اللهَ يُدْني الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذا؟

فَيَقولُ: نَعَمْ، أَي رَبِّ، حَتّىٰ إذا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأىٰ في نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قالَ: سَتَرْتُها عَلَيْكَ في الدُّنيا وَأَنا أَغْفِرُها لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطى كِتابَ حَسَناتِهِ، وَأَمّا الْكافِرُ وَالْمُنافِقُونَ فَيَقولُ الْأَشْهادُ: ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾(١)».

٥ - ١ / ٣ / ١٩٨

بسنده عن أبي هريرة:

«أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً، مائةً إِلّا واحِداً، مَنْ أَحْصاها دَخَلَ الْجَنَّةَ».

٦ - ٢ / ٤ / ١١٣

بسنده عن أبي هريرة:

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: إِذا قالَ أَحَدُكُمْ: آمِينَ، وَقالَتِ الْمَلائِكَةُ في السَّماءِ: آمينَ، فَوافَقَتْ إِحْداهُما الْأُخْرىٰ، غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

٧ - ٢ / ٤ / ١١٣

بسنده عن أنس بن مالك، عن النبيّ ﷺ:

«وَكَّلَ اللهُ بِالرَّحِمِ مَلَكاً فَيَقولُ: أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ، أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ، أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذا أَرادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَها قالَ: أَيْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثىٰ، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَما الرِّزْقُ، فَما الْأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ كَذلِكَ في بَطْنِ أُمِّهِ».

٨ - ١ / ٣ / ١٢٨

بسنده عن أبي سعيد الخدريّ، عن رسول الله ﷺ، قال:

---

(١) هود ١١: ١٨.

«إذا خَلَصَ الْمُؤْمِنونَ مِنَ النّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنّارِ، فَيَتقاصُّون مَظالِمَ كانَتْ بَيْنَهُمْ في الدُّنْيا، حَتّىٰ إذا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ. فَوَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كانَ في الدُّنْيا».

٩ ـ ٢ / ٤ / ١٣٠

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ قال:

«غُفِرَ لامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلىٰ رَأْسِ رَكِيٍّ يَلْهَثُ ـ قالَ ـ كادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، فَنَزَعَتْ خُفَّها فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمارِها، فَنَزَعَتْ لَهُ مِنَ الْماءِ، فَغُفِرَ لَها بِذٰلِكِ».

وفي ٢ / ٤ / ١٧٣

عن أبي هريرة أيضاً، عن النبيّ ﷺ:

«بَيْنَما كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغايا بَني إِسْرائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَها فَسَقَتْهُ، فَغُفِرَ لَها بِهِ».

وفي ٣ / ٨ / ٩

عن أبي هريرة كذلك:

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: **بَيْنا رَجُلٌ يَمْشي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْراً فَشَرِبَ مِنْها، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرىٰ مِنَ الْعَطَشِ، فَقالَ: لَقَدْ بَلَغَ هٰذا مِثْلُ الَّذي بَلَغَ بي، فَمَلأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِىٰ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ.**

قالوا: يا رَسولَ اللهِ، وَإِنَّ لَنا في الْبَهائِمِ أَجْراً؟

قالَ: في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ».

١٠ ـ ٢ / ٤ / ١٧٦

بسنده عن أبي سعيد الخدري، عن النبيّ ﷺ:

«أَنَّ رَجُلاً كانَ قَبْلَكُمْ رَغَسَهُ اللهُ مالاً ، فَقالَ لِبَنِيهِ لَما حُضِرَ : أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ ؟

قالوا : خَيْرَ أَبٍ .

قالَ : فَإِنّي لَمْ أَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ ، فَإِذا مُتُّ فَاحْرِقُوني ، ثُمَّ اسْحَقُوني ، ثُمَّ ذَرُّوني في يَوْمٍ عاصِفٍ ، فَفَعَلوا ، فَجَمَعَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقالَ : ما حَمَلَكَ ؟

قالَ : مَخافَتَكَ ، فَتَلَقّاهُ بِرَحْمَتِهِ» .

١١ـ ٣ / ٨ / ١٦٧

بسنده عن أنس بن مالك ، قال :

«كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَجاءَهُ رَجُلٌ فَقالَ : يا رَسولَ اللهِ ، إِنّي أَصَبْتُ حَدّاً فَأَقِمْهُ عَلَيَّ .

قالَ : وَلَمْ يَسْأَلْهُ عَنْهُ .

قالَ : وَحَضَرَتِ الصَّلاةُ فَصَلّىٰ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمّا قَضى النَّبِيُّ ﷺ الصَّلاةَ قامَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فقالَ : يا رَسولَ اللهِ ، إِنّي أَصَبْتُ حَدّاً فَأَقِمْ فِيَّ كِتابَ اللهِ ؟

قالَ : أَلَيْسَ قَدْ صَلَّيْتَ مَعَنا ؟

قالَ : نَعَمْ .

قال : فَإِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ ـ أَوْ قالَ : حَدَّكَ » .

١٢ـ ٣ / ٩ / ١٤٥

بسنده عن أبي هريرة ، قال :

« سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قالَ : إِنَّ عَبْداً أَصابَ ذَنْباً ـ وَرُبَّما قالَ : أَذْنَبَ ذَنْباً ـ فقالَ : رَبِّ أَذْنَبْتُ ـ وَرُبَّما قالَ : أَصَبْتُ ـ فَاغْفِرْ لي ؟

فَقالَ رَبُّهُ : عَلِمَ[١] عَبْدي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِهِ ، غَفَرْتُ لِعَبْدي .

---

(١) في صحيح البخاري : «أعلم» ، وفي صحيح مسلم ٨ : ٩٩ : «أذنب عبدي ذنباً فعلم» .

ثُمَّ مَكَثَ ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ أصابَ ذَنْباً ـ أَوْ أَذْنَبَ ذَنْباً ـ فَقالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ ـ أَوْ أَصَبْتُ ـ آخَرَ فَاغْفِرْهُ؟

فَقالَ: عَلِمَ عَبْدي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدي.

ثُمَّ مَكَثَ ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْباً ـ وَرُبَّما قالَ: أصابَ ذَنْباً ـ قالَ: رَبِّ أَصَبْتُ ـ أَوْ قالَ: أَذْنَبْتُ ـ آخَرَ فَاغْفِرْهُ لي؟

فَقالَ: عَلِمَ عَبْدي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدي ـ ثَلاثاً ـ فَلْيَعْمَلْ ما شاءَ».

١٣ـ ٣ / ٩ / ١٥٦

بسنده عن أنس بن مالك، عن النبيّ ﷺ يرويه عن ربّه، قال:

«إذا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِراعاً، وَإِذا تَقَرَّبَ مِنّي ذِراعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ باعاً، وَإِذا أَتاني مَشْياً أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً».

المناقشة:

الصلاة تمحو الخطايا

إنّ الصلوات الخمس هي فرائض وعبادات سنّها تعالى وأوجبها على عباده لعلل كثيرة اقتضتها إرادته وحكمته، فهي إقرار بالعبوديّة له وحده، وتطهير للقلب، وحصن من الزلل وارتكاب الفواحش، وتهذيب للطباع والسلوك، واستقرار للنفس، وقتل للغرور والاستعلاء.. إلى الكثير من النتائج الحميدة التي ستترتّب على التزام الإنسان بتلك العبادات..

◆ وما أثبتناه مطابق لما في مسند أحمد ٢: ٢٩٦، ٤٠٥، والمستدرك ٤: ٤٤٢، وهو الصحيح لاقتضاء السياق، وكذا في المواضع الآتية.

كما أنّ الخطايا أفعال لا يرتكبها الإنسان إلّا عصياناً لأوامر الله، وجفاءً لشرائعه، واستحلالاً لمحرّماته، واستكباراً على ذاته، وجحوداً لأفضاله ونعمائه..

وقد اقتضت عدالة الله سبحانه أن يعامل الناس حسب ما قدّموه من أعمال، فيثيب المحسنين بإحسانهم، ويعاقب المسيئين بإساءاتهم..

وبكلمة: فإنّ هناك خيراً وشرّاً، وحقّاً وباطلاً، إحساناً وإساءة، طاعة لله وعصياناً له.. والله تعالى يقول: ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾[1]، ولكلّ عمل من أعمال الخير أو الشرّ نصاب وملاكات يجري التعامل معه بموجبها.

فالصلاة لا تمحو الذنوب والخطايا، ولكنّها إن كانت صادقة وقُبلت فسيجزى العبد عنها ثواباً وحسنات، وسيحاسب على ما اقترفه من خطايا وآثام، وإنّ ما نصّت عليه الرواية الأُولى من أنّ الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا، وأنّها كالنهر في باب المذنب يغتسل فيه خمس مرّات في اليوم فيذهب درنه، لا يبتعد كثيراً عن طقوس الاعتراف الكنسيّة، حيث يفعل المرء ما يحلو له ويذهب كلّ يوم أحد إلى الكنيسة ليعترف للكاهن بما جناه فيغفر له..

الجميع إلى الجنّة عدا المشركين

إنّ الله سبحانه وتعالى غفور رحيم، وقد اقترن اسمه بالرحمة، وألزم ذاته باللطف، وهو القادر على أن يغفر لمن يشاء ويتوب عمّن يشاء، ويعذّب من يشاء دون أن يكون من ورائه رقيب يحاسبه، أو مخلوق يعاتبه.. وقد اقتضت حكمته أن يضع ضوابط تتحكّم بالعلاقة بين العبد وربّه، وبينه وبين أخيه، وأرسى لذلك أُسساً وقواعد، ورسم له أُطراً وحدوداً، وأنزل الأديان وأرسل الأنبياء ليقيم الحجّة

---

(١) البقرة ٢: ٢٨٦.

على خلقه ، فمن آمن فإنّما آمن عن بيّنة ، ومَن كفر فقد كفر عن بيّنة ، فالعبد مختار لأفعاله ، مسؤول عنها ، ومحاسب عليها . .

وقد توعّد الله العاصين من خلقه ، المخالفين لشرائعه ، المتجاوزين لسننه وحدوده أن يقتصّ منهم على ما جنته أيديهم ، واقترفته ألسنتهم ، واشتملت عليه قلوبهم . .

وكلّ ذنب يقترفه الإنسان لا بدّ أن يكون فيه إمّا معصية للخالق أو ظلم للمخلوق ، فإن كان من المعاصي ، فقد توعّد الله العصاة بالقصاص يوم الحساب ، وله أن يعذّب أو أن يتوب ، فالأمر منوط به وحده لا ينازعه فيه منازع ، ولا يعترض عليه معترض . . وأمّا إن كان من الظلم ، فإنّ الله سبحانه لن يبادر إلى المغفرة لأنّ الأمر متعلّق بغيره ، وهو تعالى وكيله في الانتصاف من ظالمه . .

أمّا الحديث الثاني : فإنّه ينصّ على أنّ مَن مات ولم يشرك بالله شيئاً فقد دخل الجنّة ، وإن زنى أو سرق ، ولنا في ذلك كلام :

فالشرك قضيّة بين العبد وربّه ، أمّا الزنى والسرقة ـ وطبعاً هما هنا عنوان لكلّ جرائم البشر ـ فمع ما فيهما من تجاوز على حدود الله وعصيان له ، فإنّ فيهما ظلم واعتداء على الناس ، فإذا ما شاء الله تعالى أن يغفر فإنّه سيغفر بالمقدار المتعلّق به فقط ، أمّا ما يتعلّق بالناس ، فلا بدّ من تطبيق العدالة فيه ، والانتصاف من الظالم للمظلوم . .

وبعبارة أُخرى : فإزاء كلّ جريمة هنالك حقّان : عامّ وخاصّ ، فإذا شاء تعالى أن يغفر لعبد فإنّه سيرفع عنه الحقّ العامّ ، ويبقى الحقّ الخاصّ ملكاً لصاحبه ، ولن يتدخّل الله فيه . .

إنّ افتراض صحّة هذا الحديث يعني إلغاء كافّة الأحكام والتشريعات التي سنّها الله تعالى لضمان حقوق عباده ، واختزالها بحكم واحد مفاده : « لا تشرك بالله

وافعل ما شئت ، فسوف تدخل الجنّة »!! وذلك لا يتناسب مع العدالة الإلـهيّة ، ومع ما نصّت عليه أحكام الدين..

ولماذا نستغرب والحديث الثاني عشر أكثر وضوحاً في تأكيد إلغاء تلك الأحكام عندما ادّعى أنّ الله قد غفر للعبد رغم إصراره على ارتكاب الذنوب كمكافأة له على أنّه «**عرف أنّ له ربّاً يغفر الذنوب**»! وكأنّ الله محتاج ومفتقر إلى هذه المعرفة ، أمّا ما هي تلك الذنوب ؟ وعلى مَن وقعت.. وحقوق الناس.. فتلك أُمور لا قيمة لها ولا اعتبار..

تعالى الله علوّاً كبيراً عمّا يظنّون به ، فعدالة الله لا تضيّع حقوق المظلومين من عباده أو تتجاوز عن جرائم العتاة الظالمين من خلقه وتجعلها تمرّ دون حساب..

إنّ هذا الخلط الذي وقعوا فيه كان ناتجاً عن عدم فهمهم للمراد من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً** ﴾(١) ، فهذه الآية تختصّ بالتزامات العبد تجاه ربّه فقط ولا علاقة لها بما بينه وبين الناس ، وإذا كان الله لا يغفر لمن يشرك به ، فلأنّ في الإشراك قطع لكلّ علاقة بينهما ، وتمرّد على الله ، وجحود له ، وعدم الإقرار بوحدانيّته التي هي من ضرورات تلك العلاقة ، أمّا ما دون ذلك ، مثل تساهل العبد في أداء بعض حقوق الله عليه ، أو تقصيره في بعض واجباته ، أو تجاوزه بعض الحدود ، تحت ضغط عوامل الحياة المختلفة دون أن يكون قاصداً التمرّد والعصيان والإنكار ، فقد يتكرّم الله عليه بلطفه ورحمته ، فيغفر له..

ولا يجوز التوهّم بأنّ هذه الآية تشمل كلّ ذنوب العبد وجرائمه ومعاصيه ، فالقتل ، والزنى ، والسرقة ، وارتكاب الآثام ، وظلم الناس ، وغصب حقوقهم ، ذنوب لا يمكن الإفلات من تبعاتها بحجّة أنّ مرتكبها لم يكن مشركاً بالله.. كما لا ينبغي

---

(١) النساء ٤ : ٤٨.

التوهّم بأنّ الإشراك بالله يعني فقط عدم الإقرار بوحدانيّته أو الاعتقاد بإله غيره، فالقاتل إنّما أشرك نفسه مع الله في التصرّف بأرواح الناس وإنهاء حياتهم، وبذلك فهو مشرك بقلبه ووجدانه وعمله، وإن أقرّ لسانه بالوحدانيّة..

وسائل جديدة للإفلات من النار

لقد نصّت بقيّة الروايات على وجود وسائل إضافيّة وطرق مبتكرة يستطيع الإنسان بواسطتها الإفلات من العقاب، بل حتّى الدخول إلى الجنّة، منها:

١ ـ ما تضمّنته الروايتان في الفقرة الثالثة، وهو أنّه مَن استطاع أن يضمن وجود «أربعة شهود» أو «ثلاثة» أو «شاهدين» «يشهدون له بالخير، دخل الجنّة».. ونحن لا ندري كيف يصحّ ذلك، والناس أسرار وأبواب موصدة، ولا يعلم ما في ضمائرهم غير الله سبحانه وتعالى، فكم من كافر ومنافق ومجرم لا يرى الناس منهم إلّا الخير والصلاح؟ وكم من مؤمن عالم عامل يقوم الليل ويصوم النهار ولا يعرف عنه أحد من الناس شيئاً؟

فلو مات المرائي وهو يُظهر خلاف ما يُبطن، وشهد له حسب ظاهره ألف شاهد بالخير، فهل سيحاسبه الله وفقاً لما عَلِمَهُ هو عنه، أو وفقاً لما عَلِمَهُ الناس؟

٢ ـ نصّت الرواية على أنّ النبيّ ﷺ حدّد عدد الشهود بأربعة، وأنّ عمر أضاف من عنده الثلاثة والاثنين، ولم يسألوه عن الواحد، ولو سألوه لقال: نعم، فإذا كان عمر قد سمع ذلك من النبيّ ﷺ، فلماذا لم يفصح عنه إلّا بعد السؤال، وإذا كان من عنده فكيف تسنّى له أن يقرّر ما ليس له به علم؟!!

٣ ـ الرواية الخامسة تسهّل الأُمور كثيراً، إذ يكفي العبد أن يحفظ أسماء الله التسعة والتسعين لكي يضمن الجنّة!! وعلى الإسلام السلام..

٤ ـ أمّا الرواية السادسة: فإنّها تجعل الأمر يبدو وكأنّه ضربة حظّ، ولحظة سعد، فإذا وافق قول العبد «آمين» لقول الملائكة في السماء «آمين» فقد غفر الله له ما تقدّم

من ذنبه !! ولا ندري ما العلاقة بين الإثنين ؟..

٥ ـ والروايات الثلاث في الفقرة التاسعة تجعل سقاية كلب عطشان كافية للحصول على مغفرة الله ودخول الجنّة مهما كانت ذنوب العبد.. ولا يفوتنا أنّ الروايات الثلاث هي ممّا جادت به قريحة أبي هريرة، وأنّ موضوعها واحد، ولكنّ تفاصيلها مختلفة.

ففي الأُولى: مومس نزعت خفّها وعلّقته بخمارها، وملأته من البئر.

وفي الثانية: بغيّ من بني إسرائيل، نزعت موقها فسقته.

وفي الثالثة: رجل نزع خفّه ونزل إلى البئر وملأه ثمّ أمسكه بفمه وخرج فسقاه..

وهذا الاختلاف وحده كافٍ لتكذيب الروايات، ورحم الله القائل: « لا حافظة لكذوب »..

٦ ـ وهكذا بالنسبة لباقي الروايات، فهي تنسج على نفس المنوال، فتهوّن الذنوب، وتبشّر بعفو شامل ومغفرة مطلقة دون قيود ولا شروط، وتقلّل من خطورة الخطايا والآثام، وتجعل المسلم محلّقاً في جوّ مليء بالأوهام، فليفعل ما يشاء، فإنّ الله سيستره في الآخرة ويتوب عليه، وأنّه يكفيه أن يؤمن بأنّ « له ربّ يغفر الذنب » حتّى يحظى بالمغفرة والرضوان، وليأت ربّه مشياً فإنّ ربّه سيأتيه « هرولة » !!

فلماذا كلّ هذا ؟

إنّ إمعان النظر في تلك الأحاديث ودراستها برويّة تدلّنا على الأسباب الخفيّة وراء وضعها وابتكارها.. فلقد عرفنا أنّ غالبية الساسة قد اشتروا ذمم الكثير من رواة الحديث والقصّاصين، ودفعوا لهم بسخاء للإتيان بأحاديث تخدم تطلّعاتهم السياسيّة، وترسّخ أقدامهم في السلطة، وتُخضع لهم رقاب الناس، ولعلّ القارئ يعرف الأسباب التي ساهمت في تأسيس تيّار « الإرجاء » ونشوء حركة « المرجئة »

التي كانت السبب الرئيس في تجبّر وطغيان الولاة والسلاطين، وإطلاق أيديهم وسلطانهم، والتي جعلت من الخروج عليهم عصياناً لله ولرسوله..

فلا يجوز انتقاد الخليفة والوالي والأمير، ولا الاعتراض على سلوكهم وتصرّفاتهم، فمن يدري، قد يتوب الله عنهم ويغفر لهم ويدخلهم الجنّة، وقد رأينا مغفرته تطال الجميع ولأتفه الأسباب!! فماذا سيكون موقفك إذا لعنت فلاناً القاتل والظالم وغفر الله له فيما بعد؟! فلا تتسرّع ودع الأُمور تجري على هواها، ولا تعترض، ولا تنتقد، ولا تخرج على السلطان، ففي خروجك عليه خروج على «الأُمّة وهي جميع» و«شقّ لعصا الطاعة» و«مفارقة الجماعة»!!

إنّ هذه الأحاديث إنّما كانت وليدة تلك الفترة.. وهي تستند إلى تلك الفكرة التي دفعت باتّجاهها المواقف الشخصيّة لبعض الصحابة الذين اختاروا الحياد أزاء الكثير من القضايا والأحداث المهمّة التي طبعت القرون اللاحقة بسلبيّاتها، فقد ابتدعوا فكرة «اعتزال الفتنة» والركون إلى السلامة والعافية، إرضاء لنزعاتهم الشخصيّة، ولم يعلموا أنّهم قد اختطّوا سبيلاً سيكون فيما بعد وبالاً على الإسلام والمسلمين..

على كلّ حال، فإنّ المنطق الذي نُسجت عليه تلك الأحاديث كان هو موطن الانحراف ومكمن الفساد..

نعم، إنّ الله قادر على أن يأتي بالشمس من مغربها، ولكنّه جلّ شأنه لن يفعل ذلك؛ لأنّه أرسى للكون نظاماً وأحكمه بقوانين ونواميس لا يحيد عنها، وربط الأشياء بأسبابها، لذلك فإنّه لن يغفر للمجرمين الذين استحلّوا حرماته، وارتكبوا المجازر، واقترفوا المعاصي، ومارسوا الموبقات، وظلموا واعتدوا على العباد.. ولن تنفعهم هذه الأحاديث الموضوعة المخالفة لكتاب الله الخالد الذي ﴿ **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾[1].

---

(١) فصّلت ٤١: ٤٢.

والذي قال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً﴾[١].

وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[٢].

---

(١) الكهف ١٨: ٨٧.

(٢) غافر ٤٠: ١٧.

أحاديث عذاب القبر

١ ـ **١ / ١ / ٤٩**

بسنده عن ابن عبّاس، قال:

«مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِحائِطٍ مِنْ حِيطانِ الْمَدِينَةِ ـ أَوْ مَكَّةَ ـ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسانَيْنِ يُعَذَّبانِ فِي قُبُورِهِما، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: يُعَذَّبان وَما يُعَذَّبان فِي كَبِيرٍ.

ثُمَّ قالَ: بَلىٰ، كانَ أَحَدُهما لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكانَ الْآخَرُ يَمْشي بِالنَّمِيمَةِ.

ثُمَّ دَعا بِجَرِيدَةٍ فَكَسَرَها كِسْرَتَيْنِ، فَوَضَعَ عَلىٰ كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُما كِسْرَةً، فَقِيلَ لَهُ: يا رَسولَ اللهِ، لِمَ فَعَلْتَ هٰذا؟

قالَ: لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُما ما لَمْ تَيْبَسا ـ أَوْ إِلىٰ أَنْ يَيْبَسا ـ».

٢ ـ **١ / ٢ / ٩٨**

بسنده عن السيّدة عائشة، قالت:

«إِنَّ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْها فَذَكَرَتْ عَذابَ الْقَبْرِ، فَقالَتْ لَها: أَعاذَكِ اللهُ مِنْ عَذابِ الْقَبْرِ، فَسَأَلَتْ عائِشَةُ رَسولَ اللهِ ﷺ عَنْ عَذابِ الْقَبْرِ، فَقالَ: نَعَمْ، عَذابُ الْقَبْرِ.

قالَتْ عائِشَةُ: فَما رَأَيْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ بَعْدُ صَلّىٰ صَلاةً إِلّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذابِ الْقَبْرِ».

٣ ـ **٣ / ٨ / ٧٨**

بسنده عن السيّدة عائشة أيضاً، قالت:

«دَخَلَتْ عَلَيَّ عَجُوزانِ مِنْ عُجُزِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، فَقالَتا لي: إِنَّ أَهْلَ الْقُبورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَكَذَّبْتُهُما وَلَمْ أُنْعِمْ أَنْ أُصَدِّقَهُما، فَخَرَجَتا وَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ

فَقُلْتُ لَهُ: يا رَسولَ اللهِ، إِنَّ عَجُوزَيْنِ.. وَذَكَرْتُ لَهُ، فَقالَ: صَدَقَتا إِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَذاباً تَسْمَعُهُ الْبَهائِمُ كُلُّها، فَما رَأَيْتُهُ بَعْدُ في صَلاةٍ إِلّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذابِ الْقَبْرِ».

٤ - ١ / ٣ / ٩٨

بسنده عن قتادة، عن أنس بن مالك:

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: إِنَّ الْعَبْدَ إِذا وُضِعَ في قَبْرِهِ وَتَوَلّىٰ عَنْهُ أَصْحابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعالِهِمْ، أَتاهُ مَلَكانِ فَيُقْعِدانِهِ فَيَقولانِ: ما كُنْتَ تَقولُ في هٰذَا الرَّجُلِ -لِمُحَمَّدٍ ﷺ- فَأَمّا الْمُؤْمِنُ فَيَقولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسولُهُ.

فَيُقالَ لَهُ: انْظُرْ إِلىٰ مَقْعَدِكَ مِنَ النّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَداً مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَراهُما جَميعاً.

قالَ قَتادَةُ: وَذُكِرَ لَنا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ في قَبْرِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلى حَديثِ أَنَسٍ، قال: وَأَمّا الْمُنافِقُ وَالْكافِرُ فَيُقالُ لَهُ: ما كُنْتَ تَقولُ فى هٰذَا الرَّجُلِ؟

فَيَقولُ: لَا أَدْري، كُنْتُ أَقولُ ما يَقولُ النّاسُ.

فَيُقالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمَطارِقَ مِنْ حَديدٍ ضَرْبَةً فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُها مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ».

٥ - ١ / ٣ / ٩

بسنده عن البراء بن عازب، عن أبي أيّوب، قال:

«خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ وَجَبَتِ الشَّمْسُ، فَسَمِعَ صَوْتاً فَقالَ: يَهودُ تُعَذَّبُ في قُبُورِها».

٦ - ١ / ٣ / ٩٩

بسنده عن أبي هريرة، قال:

«كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَدْعو وَيَقولُ: اللّٰهُمَّ إِنّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ عَذابِ

النّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيا وَالْمَماتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسيحِ الدَّجّالِ».

٧ - ١ / ٣ / ٩٩

بسنده عن عبدالله بن عمر:

«أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذا ماتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كانَ مِنْ أَهْلِ النّارِ فَمِنْ أَهْلِ النّارِ، فَيُقالُ: هٰذا مَقْعَدُكَ حَتّىٰ يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ».

تمهيد:

١ - بغضّ النظر عمّا ورد في «صحيح البخاري» من أخبار وروايات عن عذاب القبر، فإنّ لدينا رأياً خاصّاً في هذه القضيّة، لا نجزم بصحّته، ولكنّنا نجده أقرب إلى العقل والصواب ممّا عداه.. ومع ذلك يبقى علمه عند الله وحده، وربّما أنبيائه والراسخين في العلم.. فقد خلاكتاب الله من تفصيل ذلك، ولم نجد فيما نسب إلى رسول الله ﷺ غير هذه الأحاديث، وأخرى لا تختلف عنها كثيراً، وكلّها يعجز عن تشخيص القضيّة أو الصمود أمام النقد والاحتجاج.. ولكنّ علماء المسلمين ذكروا (عالم البرزخ)، وتكلّموا عنه طويلاً، وهذا ممّا لا اعتراض عليه، لأنّه أمر لا بدّ من وجوده، بل إنّ وجوده من ضرورات العقل والمنطق، فليكن (البرزخ) هو المكان الذي تتجمّع فيه الأرواح بعد قبضها، فالاسم لا يغيّر من الأمر شيئاً، وبه تصبح الحقائق التي نعتقدها بعد موت الإنسان أربعة، هي: الجسد الذي سيدفن ويفنى، والروح التي ستفارق الجسد ونجهل طبيعتها، والبرزخ الذي ستنطلق الروح لتستقرّ فيه، وحياة الآخرة المتمثّلة بالجنّة والنار..

٢ - لا شكّ أنّ هنالك الكثير من الحقائق التي لا يمكن إثباتها بالطرق العلميّة، إلّا أنّنا نؤمن بها كأركان أساسيّة للبناء العقائدي الذي ننتمي إليه كمسليمن،

ولأنها أصلاً تتحدّى قدراتنا العلميّة ، ووسائلنا المختبريّة .. فلم يكن أمامنا ـ والحال هذه ـ غير الاعتراف بالعجز والإذعان للقدرة الإلـٰهيّة المطلقة .. وهذا هو المرتكز الأساس والطبيعيّ للاعتقاد بالدين السماويّ الذي يتعامل مع الغيبيّات كحقائق عقائديّة لا مناص من الإيمان بها .. ومن تلك الحقائق (الروح) التي ينتج الإيمان بوجودها عن طريق آثارها في جسد الإنسان وفي كلّ شيء حوله ، ولكنّ ماهيّة تلك الروح تبقى من الأسرار الكونيّة الغامضة التي لا يعرفها إلّا الله تعالى الذي خلقها وأوجدها ، والقبول بهذا الأمر ليس قضيّة اختياريّة للإنسان وإنّما هي اعتراف بالعجز أمام قدرة الله التي عبّر عنها بقوله تعالى : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً** ﴾[1] .

فلا يسعنا إذن إلّا أن نؤمن بحقيقة الروح والقبول باستحالة معرفتها تصديقاً لله تعالى .. أمّا الاعتقاد بحياة القبر وعذابه ، فإنّه ليس من ضروريّات الدين ، ومن حقّنا الخوض في بحث الأخبار المتعلّقة به للوصول إلى قناعة محدّدة تجعلنا على بيّنة ممّا نؤمن به ونتبنّاه من أفكار وعقائد ، أو على الأقل لنكون على الطريق الصحيح لفهم ما يطلب منّا تصديقه والإقرار به .

٣ ـ لا بدّ لنا قبل الشروع بمناقشة الأحاديث التي أوردناها ، من استذكار بعض الحقائق والبديهيّات .. فالمعروف أنّ أفعال الإنسان وأنشطة جسده هي حصيلة فعّاليّة كيانين متداخلين هما : الروح والجسد ، فالجسد هو منظومة الأعضاء المؤدّية لتلك الأفعال ، والروح هي الطاقة المشغّلة لتلك المنظومة .. وكلاهما فاقد للأهليّة بغياب الآخر ، فالروح تعبّر عن نفسها باتّحادها مع الجسد ، حيث تمدّه بالحياة والحركة .. والجسد يعبّر عن نفسه بحلول الروح فيه وتشغيل منظوماته .. وإنّ اختلاف الفعّاليّات والنشاطات التي يؤدّيها الجسد يكمن في اختلاف التراكيب

---

(١) الإسراء ١٧ : ٨٥.

التشريحيّة والوظيفيّة لتلك المنظومات ، ودور الروح هو تشغيلها فحسب ، شأنها شأن الطاقة الكهربائيّة التي تدخل إلى أجهزةمختلفة فتعطي نتائج مختلفة حسب وظيفة كلّ جهاز ، فهي مرّة تعطي حرارة ، وأُخرى دوراناً ، أو صوتاً ، أو صورة ، أو غير ذلك .. وكذلك الروح ، وهكذا بالنسبة لبقيّة منظومات وأجهزة الجسم الأُخرى .. فكما أنّ الصورة في التلفاز هي فعّاليّة لتراكيب الجهاز وليست للكهرباء ، فإنّ الإبصار في العين هو فعّاليّة لتراكيب العين وليس للروح ..

والخلاصة هي : أنّنا ندّعي بأنّ الروح لا ترى ولا تسمع من غير وجود أداتي الرؤية والسمع ، وهما العين والأُذن ، كما أنّها لا تعقل بدون عقل ، ولا تحسّ بدون منظومة الإحساس المتمثّلة بالجهاز العصبيّ المتكامل ..

٤ ـ عند مفارقة الروح للجسد ، تنطلق الروح إلى خالقها ، ويدفن الجسد في التراب ، فيتحلّل ويتلاشى بعد حين ..

فمن أين .. وكيف .. سيكون عذاب القبر ؟

أهو عذاب لجسدٍ جامدٍ فقد روحه وتوقّفت أجهزته ومنظوماته عن العمل ؟

أم هو عذاب لروح ليست في القبر ولا تمتلك أدوات الإحساس ؟

أم يدّعون أنّ الروح تعود إلى الجسد في قبره ، فتعمل أجهزته من جديد فيشعر بالعذاب ؟

هذه الأسئلة ينبغي الإجابة عليها أجوبة مقنعة لكي نستوعب : هل يوجد عذاب في القبر أم لا ؟

إنّنا كمسلمين نعتقد أنّ عمليّة عودة الروح إلى الجسد إنّما تحصل يوم القيامة (أو قبله) حيث سينشر مَن في القبور ، ويقوم الناس للحساب بين يدي الرحمن الرحيم ، وتكون كلّ نفس بما كسبت رهينة ..

فأين سيكون موضع عذاب القبر ؟ وما هدفه وغايته ؟

فهل هو عذاب قبل الحساب وصدور الأحكام ؟

أم استعجل الشارع المقدّس أمراً هو فيه صاحب القدرة المطلقة والعظمة اللامتناهية والرحمة التي ما بعدها رحمة ، أزاء عبد حقير ضعيف سيوقف بعد حين بين يديه للحساب حيث لا ينفعه مال ولا بنون ، وحيث لا يستطيع كذباً ولا يتمكّن من فرار ؟

ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ،

ربّنا واجعلنا ممّن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه ،

وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين

المناقشة :

الرواية الأُولى ، وعليها عدّة مآخذ ، أهمّها :

١ ـ إنّ مثل هذه القضيّة (سماع الأموات يصرخون في القبور) ليست بالحدث العابر أو الأمر المعتاد ، حتّى ينسى مَن سمعه مكان حدوثه أكان في مكّة أو في المدينة .. وكان المفروض أن يكون حديث الساعة عند جميع المسلمين بحيث يتواتر خبره عن جميع من حضروه ، ولمّا لم يحصل ذلك ، فقد علمنا أنّ وراء الأكمة ما وراءها ..

٢ ـ إنّ صراخ الموتى يتطلّب إثبات عكس ما قلناه من ضرورة عودة الروح إلى الجسد ، ليتمكّن من القيام بأيّة فعّاليّة ، سيّما الصراخ ..

٣ ـ إنّ سبب التعذيب الوارد في الرواية هو أنّ أحدهما (مشى بالنميمة) ، والثاني (لم يستتر من بوله) ، فما بال الظالمين والقتلة والطواغيت والمنافقين والمشركين لا يصرخون ، وهم أوْلى بالعذاب من هذين ..

٤ ـ إذا كان هناك تعذيب فعلاً ، فيقتضي أنّه حصل بأمر إلٰهيّ وعلى مَن

يستحقّه ، والنبيّ ﷺ يعلم أنّ ربّه لا يظلم أحداً من عباده ، فماذا تعني محاولته ﷺ تخفيف العذاب عنهما ؟ هل هي إعاقة تنفيذ أمر الله فيهما ؟ أم أنّه ﷺ أرحم بعباد الله من خالقهم ؟ وإذا قيل إنّ ذلك كان من الشفاعة .

قلنا : إنّ الشفاعة إنّما تصحّ بعد الوقوف للحساب وعرض الاتّهام . .

٥ ـ ما هي علاقة السعف الرطب بتخفيف العذاب مع اشتراط بقائه رطباً لحصول التخفيف واستمراره ، ثمّ ألم يكن بمقدور النبيّ ﷺ أن يدعو لهما والله لا يردّ دعوته ، فيحصل التخفيف كرامة للنبيّ وليس للسعف الرطب ؟

الروايتان الثانية والثالثة ، وفيهما :

١ ـ إنّ أُمّ المؤمنين عائشة لم تكن قد سمعت بعذاب القبر إلّا بعد أن كلّمتها عنه العجوز اليهوديّة ، أو العجوزان المدنيّتان ، ولا ندري لماذا لم تسمع به حين سمع الناس صراخ الأموات في القبور ، أو عندما سمع النبيّ ﷺ صوت اليهود الذين يعذّبون في قبورهم ؟ !

٢ ـ إنّ النبيّ ﷺ لم يكن يتعوّذ من عذاب القبر في صلواته إلّا بعد أن أخبرته عائشة بما سمعته من العجائز ، فهل كان ﷺ ناسياً فتذكّر ؟ أم كان لا مبالياً فتأثّر ؟

٣ ـ لا معنى في قوله بأنّهم يعذّبون « **عذاباً تسمعه البهائم كلّها** » فهل للعذاب صوت يُسمع ؟ أم أنّه صراخ المعذّبين ؟ أو أنّه صدى مطارق الحديد تقع على رؤوسهم ؟ أو هو ضجيج القائمين بالتعذيب ؟ والغريب أنّ البهائم هي وحدها التي تسمع ذلك الصوت ، ممّا يدلّ على أنّه من نفس طبقة السمع لديها ! ! وحتّى هذا مردود لأنّ بإمكان البهائم سماع صوت الإنسان وتمييزه ! !

٤ ـ في الرواية الثانية كان المخبر (**عجوز يهوديّة**) ،وفي الثالثة كانتا (**عجوزان من عجز المدينة**) ، وكلاهما من رواية السيّدة عائشة ، فتكون وحدة الراوي واختلاف الروايتين دليل ضعفهما ، وقد دأب المحدّثون عند حصول مثل هذا

الاختلاف أن يدّعوا أنّه ناتج عن تكرار وقوع الحادثة ، وهذا ما لا يصحّ في هذا الموضع ، بدليل أنّ الثانية لو كانت تكراراً للأُولى ، لما كان هناك داعٍ لإخبار النبيّ مرّة أُخرى . .

الرواية الرابعة أوضحت أنّ تحديد مصير الميّت إلى الجنّة أو إلى النار متعلّق بإقراره بأنّ « محمّداً عبد الله ورسوله » ، فإذا قالها أبدل مقعده من النار إلى الجنّة ، ولا ندري ما ضرورة حسابه يوم القيامة ما دام أمره قد حسم وهو بعد في قبره ؟ ! أمّا الشتائم التي تكال على الكافر والمنافق وضربه بمطارق الحديد على رأسه ، فلا نستطيع معها إلّا أن نتصوّر أنّنا في محلّ حدادة وليس في قبر !

من فمك أُدينك

روى البخاري بسنده عن هشام بن عروة بن الزبير ، عن أبيه ، ما نصّه :

« ذُكِرَ عِنْدَ عائِشَةَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَفَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ : إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِبكاءِ أَهْلِهِ ، فَقالَتْ : إِنَّما قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : إِنَّهُ لَيُعَذَّبُ بِخَطِيئَتِهِ وَذَنْبِهِ ، وَإِنَّ أَهْلَهُ لَيَبْكُونَ عَلَيْهِ الآنَ .

ثُمَّ قالَتْ : وَذاكَ مِثْلُ قَوْلِهِ : إِنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قامَ عَلَى الْقَلِيبِ وَفِيهِ قَتْلَىٰ بَدْرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَقالَ لَهُمْ ما قالَ : إِنَّهُمْ لَيَسْمَعُونَ ما أَقُولُ ، إِنَّما قالَ : إِنَّهُمُ الآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ ما كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ حَقٌّ ، ثُمَّ قَرَأَتْ : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ ﴾[1] ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾[2] »[3] .

---

(١) النمل ٢٧ : ٨٠ .

(٢) فاطر ٣٥ : ٢٢ .

(٣) صحيح البخاري ٥ : ٩ .

ثمّ روى بسنده عن ابن عبّاس ما نصّه:

«لَمّا أُصِيبَ عُمَرُ دَخَلَ صُهَيْبٌ يَبْكِي يَقُولُ: وا أخاهُ، وا صاحِباهُ.

فَقالَ عُمَرُ: يا صُهَيْبُ، أتَبْكِي عَلَيَّ وَقَدْ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: إنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبَعْضِ بُكاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ؟

قالَ ابْنُ عَبّاس: فَلَمّا ماتَ عُمَرُ ذَكَرْتُ ذلِكَ لِعائِشَةَ، فَقالَتْ: رَحِمَ اللهُ عُمَرَ، وَاللهِ ما حَدَّثَ رَسولُ اللهِ إنَّ اللهَ لَيُعَذِّبُ الْمُؤْمِنَ بِبُكاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ، وَلٰكِنَّ رَسولَ اللهِ قالَ: إنَّ اللهَ لَيَزِيدُ الْكافِرَ عَذاباً بِبُكاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ، وَقالَتْ: حَسْبُكُمُ الْقُرْآنُ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[١].

قالَ ابنُ عَبّاسٍ عِنْدَ ذلِكَ: وَاللهِ ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾[٢]»[٣].

نستطيع أن نستخلص من هاتين الروايتين ما يلي:

١ ـ إنّ النبيّ ﷺ لم يقل: «إنّ الميّت ليعذّب في قبره ببكاء أهله عليه»، وإنّما قال: «إنّه ليعذّب بخطيئته وذنبه وأهله يبكون عليه».. وإنّه لم يقل: «إنّهم يسمعون الآن ما أقول»، وإنّما قال: «إنّهم الآن يعلمون أنّ ما كنت أقوله هو الحقّ»، وشتّان ما بين القولين..

٢ ـ إنّ التصحيحات التي أجرتها أُمّ المؤمنين للأقوال المنسوبة إلى النبيّ ﷺ ليست فيها أيّة إشارة إلى عذاب القبر، ولا إلى قدرة الموتى على السماع، وإنّ ذلك لم يكن له ذكر إلّا في الأقوال التي أنكرتها..

٣ ـ إذا كان الخطأ قد وقع في قولين أحدهما لخليفة المسلمين عمر بن

---

(١) الأنعام ٦: ١٦٤. الإسراء ١٧: ١٥. فاطر ٣٥: ١٨. الزمر ٣٩: ٧.

(٢) النجم ٥٣: ٤٣.

(٣) صحيح البخاري ٢: ٨١.

الخطّاب، وثانيهما لولده عبدالله، وهما هما، فكيف سيكون حال ما رواه من لا يصل إلى كعبيهما كأبي هريرة وغيره..؟

٤ - إنّ هذه التصحيحات تساهم في إعادة بناء ثقة المسلم بعقيدته بعد أن حاولت الروايات الأُولى هدمها ونقلها إلى عالم الأوهام والأساطير، فالعقل لا يحتمل فكرة تعذيب الله لعبد من عباده لأنّ أهله يبكون عليه، ولماذا لا يبكون وقد فقدوا عزيزاً عليهم وفارقوه بقيّة حياتهم؟ ولكنّه يحتمل أن يؤكّد النبيّ ﷺ حقيقة موضوعيّة هي أنّ أهل الميّت المذنب العاصي يبكون عليه وهم لا يعلمون بما سيلاقيه من عذاب بما ارتكبه من آثام..كما لا يحتمل العقل إيقاع العذاب على جيفةٍ في قبر لا تعي ولا تحسّ ولم يجر حسابها بعد، ولكنّه يحتمل أن يقع ذلك العذاب بعد قيام الساعة وإدانة العصاة.

إنّنا إذا حكّمنا العقل وتحاكمنا إلى كتاب الله، وأعدنا تلك الروايات إلى أُصولها الصحيحة، ورفضنا ما بُني منها على أساس باطل، فسوف نعيد إلى الحديث النبويّ الشريف رونقه ونقاءه وبريقه، باعتباره أحد أهمّ منابع الدين والتشريع ومقوّمات العقيدة والإيمان التي لا غنى للمسلمين عن استلهام معانيها، والاقتباس من أنوارها البهيّة..

وإذا ما فعلنا ذلك فسندفع عن ديننا تُهم الأعداء والحاقدين والمأجورين بأنّه دين أوهام وخرافات وأساطير، وسنذبّ عن نبيّنا الكريم بتبرئة ساحته القدسيّة ممّا أُسند إليه من أحاديث لا يقبلها عقل ولا يرتضيها وجدان..

الفصل الثالث

أحاديث الأنبياء والصحابة

الإساءة للأنبياء والرسل عليهم السلام

الأحاديث:

١ - ١ / ١ / ٦٠

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ:

«كانَتْ بَنُو إِسْرائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُراةً، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ، وَكانَ مُوسىٰ يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ، فَقالُوا: وَاللهِ ما يَمْنَعُ مُوسىٰ أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنا إِلّا أَنَّهُ آدَرُ.

فَذَهَبَ مَرَّةً يَغْتَسِلُ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلىٰ حَجَرٍ، فَفَرَّ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ، فَخَرَج مُوسىٰ فـي إِثْرِهِ يَقولُ: ثَوْبي يا حَجَرُ، حَتّىٰ نَظَرَتْ بَنُو إِسْرائِيلَ إِلىٰ مُوسىٰ، فَقالوا: وَاللهِ ما بِمُوسىٰ مِنْ بَأْسٍ، وَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْباً.

فَقالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: **وَاللهِ إِنَّهُ لَنَدَبٌ بِالْحَجَرِ سِتَّةٌ أَوْ سَبْعَةٌ ضَرْباً بِالْحَجَر»**.

٢ - ٢ / ٤ / ١٥٦

بسنده عن أبي هريرة أيضاً يذكر نفس الرواية باختلاف بسيط -إلى أن يقول:-

«وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدا بِثَوْبِهِ فَأَخَذَ مُوسىٰ عَصاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ، فَـجَعَلَ يَـقُولُ: ثَـوْبي حَجَرُ، ثَوْبي حَجَرُ، حَتّى انْتَهىٰ إِلىٰ مَلَأٍ مِنْ بَني إِسْرائِيلَ فَرَأَوهُ عُرْياناً أَحْسَنَ ما خَلَقَ

اللهُ ، وَأَبْرَأَهُ مِمّا يَقُولُونَ ، وَقامَ الْحَجَرُ ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْباً بِعَصاهُ ، فَوَاللهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَباً مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلاثاً أَوْ أَرْبَعاً أَوْ خَمْساً».

٣ - ١ / ١ / ٦٠

بسنده عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ أنّه قال :

«بَيْنَما أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عَرْياناً خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرادٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فَجَعَلَ يَحْثِي في ثَوْبِهِ ، فَناداهُ رَبُّهُ : يا أَيُّوبَ ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمّا تَرىٰ ؟

قالَ : بَلىٰ يا رَبِّ ، وَلٰكِنْ لا غِنىٰ لي عَنْ بَرَكَتِكِ».

وفي ١ / ٢ / ٩٠

بسنده عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ ، قال :

«أَرْسَلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلىٰ مُوسىٰ عليه السلام ، فَلَمّا جاءَهُ صَكَّهُ ، فَرَجَعَ إِلىٰ رَبِّهِ ، فَقالَ : أَرْسَلْتَنِي إِلىٰ عَبْدٍ لا يُرِيدُ الْمَوْتَ .

قالَ : ارْجِعْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ يَضَعُ يَدَهُ عَلىٰ مَتْنِ ثَوْرٍ فَلَهُ بِما غَطَّتْ يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ .

قالَ : أَيْ رَبِّ ، ثُمَّ ماذا ؟

قالَ : ثُمَّ الْمَوْتُ .

قال : فَالْآنَ ؟

قالَ : فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ .

قالَ أَبُو هُرَيْرَةُ : فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : لَوْ كُنْتُ ثَمَّ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلىٰ جانِبِ الطَّرِيقِ تَحْتَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ».

وفي ١ / ٦ / ٨٠ و ٨١

بسنده عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ قال :

«هاجَرَ إبْراهِيمُ ﷺ بِسارَةَ فَدَخَلَ بِها قَرْيَةً فِيها مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ ـ أَوْ جَبّارٌ مِنَ الْجَبابِرَةِ ـ ، فَقِيلَ : دَخَلَ إبْراهِيمُ بِامْرَأَةٍ هِيَ مِنْ أَحْسَنِ النِّساءِ ، فَأَرْسَلَ إلَيْهِ : أَنْ يا إبْراهِيمُ مَنْ هٰذِهِ الَّتِي مَعَكَ ؟

قالَ : أُخْتِي ، ثُمَّ رَجَعَ إلَيْها فَقالَ : لا تُكَذِّبِي حَدِيثِي ، فَإنِّي أَخْبَرْتُهُمْ أَنَّكِ أُخْتِي ، وَاللهِ إنَّ عَلَى الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ .

فَأَرْسَلَ بِها إلَيْهِ ، فَقامَ إلَيْها ، فَقامَتْ تَوَضَّأُ وَتُصَلِّي ، فَقالَتْ : اللّٰهُمَّ إنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسولِكَ ، وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إلّا عَلىٰ زَوْجِي ، فَلا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكافِرَ ، فَغُطَّ حَتّىٰ رَكَضَ بِرِجْلِهِ .

فَقالَتْ : اللّٰهُمَّ إن يَمُتْ يُقالُ هِيَ قَتَلَتْهُ .

فَأَرْسَلَ ثُمَّ قامَ إلَيْها ، فَقامَتْ تَوَضَّأُ وَتُصَلِّي ، فَقالَتْ : اللّٰهُمَّ إنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسولِكَ ، وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إلّا عَلىٰ زَوْجِي ، فَلا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكافِرَ ، فَغُطَّ حَتّىٰ رَكَضَ بِرِجْلِهِ .

فَقالَتْ : اللّٰهُمَّ إن يَمُتْ يُقالُ هِيَ قَتَلَتْهُ .

فَأَرْسَلَ فِي الثّانِيَةِ أَوْ فِي الثّالِثَةِ فَقالَ : وَاللهِ ما أَرْسَلْتُمْ إلَيَّ إلّا شَيْطاناً ، أَرْجِعُوها إلىٰ إبْراهِيمَ وَاعْطُوها أَجْراً ، فَرَجَعَتْ إلىٰ إبْراهِيمَ ﷺ فَقالَتْ : أَشَعَرْتَ أَنَّ اللهَ كَبَتَ الْكافِرَ وَأَخْدَمَ وَلِيدَةً» .

٤ ـ ٢ / ٤ / ١٤٠

بسنده عن أبي هريرة أيضاً ، عن النبيّ ﷺ أنّه قال :

«لَمْ يَكْذِبْ إبْراهِيمُ ﷺ إلّا ثَلاثَ كِذْباتٍ ؛ ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾[١] ، وقوله : **﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا ﴾**[٢] ، **وَبَيْنا هُوَ ذاتَ يَوْمٍ وَسارَةُ إذ أَتىٰ عَلىٰ جَبّارٍ مِنَ الْجَبابِرَةِ.**

ويستمرّ بسرد الرواية السابقة باختلاف بسيط إلى أن يقول :

فَدَعا بَعْضَ حَجَبَتِهِ فَقالَ: إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُوني بِإِنْسانٍ إِنَّما أَتَيْتُموني بِشَيْطانٍ ، فَأَخْدَمَها هاجَرَ ، فَأَتَتْهُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلّي ، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ مَهْيا ، قالَتْ: رَدَّ اللهُ كَيْدَ الْكافِرِ أَوِ الْفاجِرِ في نَحْرِهِ ، وَأَخْدَمَ هاجَرَ.

قالَ أَبو هُرَيْرَةَ : **تِلْكَ أُمُّكُمْ يا بَني ماءِ السَّماءِ** » .

٥ - ١ / ٦ / ١١٢

بسنده عن ابن عبّاس ، عن النبيّ ﷺ ، قال :

« **يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْماعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ ـ أَوْ قالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْماءِ ـ لَكانَتْ زَمْزَمُ ماءً مَعِيناً** » .

٦ - ٢ / ٤ / ٢٢

بسنده عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ أنّه قال :

« **قالَ سُلَيْمانُ بْنُ داودَ عليه السلام : لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلىٰ مائَةِ امْرَأَةٍ ـ أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعينَ ـ كُلُّهُنَّ يَأْتي بِفارِسٍ يُجاهِدُ في سَبِيلِ اللهِ.**

فَقالَ لَهُ صاحِبُهُ: قُلْ إِنْ شاءَ اللهُ ، فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شاءَ اللهُ ، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلّا امْرَأَةٌ واحِدَةٌ جاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ ، وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوْ قالَ إِنْ شاءَ اللهُ لَجاهَدُوا

---

(١) الصافّات ٣٧ : ٨٩.

(٢) الأنبياء ٢١ : ٦٣.

في سَبيلِ اللهِ فُرْساناً أَجْمَعونَ» .

٧ ـ ٢ / ٤ / ١٦٢

عن أبي هريرة أيضاً :

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ : قالَ سُلَيمانُ بْنُ داودَ : لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلىٰ سَبْعِينَ امْرَأَةً...» .

٨ ـ ٣ / ٤ / ١٤٦

عن أبي هريرة كذلك ، عن النبيّ ﷺ أنّه قال :

«قالَ سُلَيْمانُ : لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلىٰ تِسْعِينَ امْرَأَةً...» .

٩ ـ ٣ / ٩ / ١٣٨

عن أبي هريرة أيضاً :

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : أَنَّ نَبِيَّ اللهِ سُلَيْمانَ عليه السلام كانَ لَهُ سِتُّونَ امْرَأَةً ، فَقالَ : لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلىٰ نِسَائِي...» .

١٠ـ ٢ / ٤ / ٦٢

بسنده عن أبي هريرة ، قال :

«سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ : قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيّاً مِنَ الْأَنْبِياءِ ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ : أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ» .

١١ـ ٢ / ٤ / ١٣٠

عن أبي هريرة أيضاً ، عن النبيّ ﷺ أنّه قال :

«نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِياءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ ، فَأَمَرَ بِجِهازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِها ، ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْتِها فَأُحْرِقَ بِالنّارِ ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ فَهَلّا نَمْلَةً واحِدَةً» .

١٢- ٢ / ٤ / ١٣٤

بسنده عن أبي سعيد الخدريّ، عن النبيّ ﷺ، قال:

«يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ فَيَقولُ اللهُ تَعالىٰ: هَلْ بَلَّغْتَ؟

فَيَقولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ.

فَيَقولُ لأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟

فَيَقولُونَ: لَا ما جاءَنا مِنْ نَبِيٍّ.

فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟

فَيَقولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[(١)]».

وفي ٢ / ٤ / ١٣٩

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ، قال:

«يَلْقَىٰ إِبْراهِيمُ أَباهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَعَلىٰ وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقولُ لَهُ إِبْراهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي!

فَيَقولُ أَبوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ.

فَيَقُولُ إِبْراهِيمُ: يا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزىٰ مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ.

فَيَقُولُ اللهُ تَعالىٰ: إِنّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكافِرِينَ.

ثُمَّ يُقالُ: يا إِبْراهِيمُ، ما تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟

فَيَنْظُرُ، فَإِذا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوائِمِهِ فَيُلْقىٰ فِي النّارِ».

---

(١) البقرة ٢: ١٤٣.

١٣ـ ٢ / ٤ / ١٤٧

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ، قال:

«نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْراهِيمَ، إِذْ قالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1].

وَيَرْحَمُ اللهُ لُوطاً لَقَدْ كانَ يَأْوِي إِلىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ في السِّجْنِ طُولَ ما لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدّاعي».

١٤ـ ٢ / ٤ / ١٥٨

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ، قال:

«احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسىٰ، فَقالَ لَهُ مُوسىٰ: أَنْتَ آدَمُ الَّذي أَخْرَجَتْك خَطِيئَتُك مِنَ الْجَنَّةِ!

فَقالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذي اصْطَفاكَ اللهُ بِرِسالاتِهِ وَبِكَلامِهِ، ثُمَّ تَلُومُني عَلىٰ أَمْرٍ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ!

فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسىٰ مَرَّتَيْنِ».

١٥ـ ٢ / ٤ / ١٦٢

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«كانَتِ امْرَأَتانِ مَعَهُما ابْناهُما جاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْداهُما، فَقالَتْ صاحِبَتُها: إِنَّما ذَهَبَ بابْنِكِ، وَقالَتِ الأُخْرىٰ: إِنَّما ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحاكَمَتا إِلىٰ داودَ فَقَضىٰ بِهِ لِلْكُبْرىٰ، فَخَرَجَتا عَلىٰ سُلَيْمانَ بْنِ داودَ، فَأَخْبَرَتاهُ، فَقالَ: ائْتُوني بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُما.

---

(١) البقرة ٢: ٢٦٠.

فَقالَتِ الصُّغْرىٰ: لَا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللهُ هُوَ ابْنُها، فَقَضىٰ بِهِ لِلصُّغْرىٰ.

قالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاللهِ إِنْ سَمِعْتُ بِالسِّكِّينِ إِلّا يَوْمَئِذٍ، وَما كُنّا نَقولُ إِلّا الْمُدْيَةَ».

١٦- ٢ / ٤ / ١٣٣

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ، قال:

«لَوْلَا بَنُو إِسْرائِيلَ لَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ، وَلَوْلَا حَوّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثىٰ زَوْجَها».

١٧- ٢ / ٤ / ١٥٨

بسنده عن ابن عبّاس، قال:

«خَرَجَ عَلَيْنا النَّبِيُّ ﷺ يَوْماً قالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، وَرَأَيْتُ سَواداً كَثيراً سَدَّ الْأُفُقَ، فَقِيلَ: هٰذا مُوسىٰ في قَوْمِهِ».

١٨- ٢ / ٤ / ١٦١

بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص، قال:

«قالَ لي رَسولُ اللهِ ﷺ: أَحَبُّ الصِّيامِ إِلَى اللهِ صِيامُ داودَ، كانَ يَصُومُ يَوْماً وَيُفْطِرُ يَوْماً، وَأَحَبُّ الصَّلاةِ إِلَى اللهِ صَلاةُ داودَ كانَ يَنامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقومُ ثُلُثَهُ وَيَنامُ سُدُسَهُ».

١٩- ٢ / ٤ / ١٦٧

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«رَأىٰ عِيسىٰ بْنُ مَرْيَمَ رَجُلاً يَسْرِقُ فَقالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟

قالَ: كَلّا وَاللهِ الَّذي لَا إِلٰـهَ إِلّا هُوَ.

فَقالَ عِيسىٰ: آمَنْتُ بِاللهِ وَكَذَّبْتُ عَيْني».

المناقشة:

موسى والحجر

١ ـ لو صحّ هروب الحجر بثياب موسى لكان ذلك من المعجزات الإلـهيّة الخارقة للعادة، ولكان آيةً من آيات الله أراد إظهارها كرامة لنبيّه موسى عليه السلام، وقد علمنا أنّ المعجزة لا تحدث عبثاً في كلّ ظرفٍ ولأيّ حالٍ، وإنّما يقيمها الله تعالى إمّا حجّةً على خلقه، أو تحدّياً لهم وإرغامهم على اليقين، فهل كان مبرّر إقامة هذه المعجزة لموسى موجوداً أو منطقيّاً؟ وهل كان الأمر من الخطورة بحيث استدعى تدخّلاً إلـهيّاً لإظهار الحقّ عن طريق الإعجاز؟

والجواب هو حتماً: كلّا.. لأنّ الأمر ـ على افتراض صحّة الرواية ـ لا يعدو اتّهام بني إسرائيل لموسى بأنّه آدر، وهذه ليست قضيّة مهمّة ولا أمراً عويصاً، ويكفي في ردّها قيام زوجته بإخبار النساء بأنّه ليس كذلك، وكان الله يحبّ المحسنين..

٢ ـ وأيُّ معجزةٍ هذه؟! وقد أفضت إلى فضيحة نبيّ الله وكشف عورته على رؤوس الأشهاد، ولك أن تتصوّره عارياً يحمل عصاه راكضاً وراء الحجر، ضارباً له، صارخاً: ثوبي حجر.. ثوبي حجر، فهل هكذا يفعل الله بأنبيائه ورسله؟!

٣ ـ إنّ هروب الحجر بثيابه لم يكن مبرّراً كافياً لظهوره عارياً أمام الناس، وقد كان بإمكانه أن يستتر إلى أن يؤتى له بها، وهو ما يليق بالعقلاء فضلاً عن الأنبياء..

٤ ـ ما الذنب الذي اقترفه الحجر؟! وما كان إلّا مأموراً من قِبل الله بسرقة (!) ثياب موسى لإثبات سلامته، فطفق يضربه حتّى أحدث فيه ندباً سبعة في رواية، وثلاثة إلى خمسة ندب في رواية أُخرى، وكلاهما عن أبي هريرة!!

٥ ـ ما خطورة ادّعائهم أنّ موسى آدر، وطبيعيّ أن يمرض الأنبياء، ويموتوا، ويُبتلوا حسبما تقتضيه حكمة الخالق عزّ وجلّ؟ ألم يُصَب أيّوب عليه السلام بمرض عضال، وشعيب بفقدان البصر، ونبيّنا الكريم صلى الله عليه وآله مات مريضاً.. وللعلم لا بدّ

من الإشـارة إلى أنّ (أدرة مـوسى) هـذه لم يـتحدّث عـنها غـير أبـي هـريرة عـلى مرّ التاريخ..

٦ ـ ومن الطريف أنّ البخاري يعتبر هذه الواقعة من فضائل موسى عليه السلام ومناقبه! ولا ندري أيّة منقبة في إبداء العورة عـلى المـلأ، وإظـهار مـوسى بـمظهر لا يـليق حتّى برجل عاديّ، وهو نبيّ الله وكليمه ونجيّه، ويكفيه ما خصّه الله به في كـتابه من خصائص حسنى..

والأطرف من ذلك أنّهم جعلوا هذه الواقعة مورداً للآية الكريمة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهاً** ﴾[1]، وقد كان بإمكانهم أن يستغنوا عن هذه السخافات بالاعتماد على روايات أُخرى، كالتي رويت عن الإمام عليّ عليه السلام وابن عبّاس بهذا الخصوص حيث نـقلا: أنّ بـني إسرائيل آذوا موسى إذ اتّهموه بقتل هارون، وهو ما اختاره الجبّائي[2]، كما قيل: إنّهم آذوه عندما اتّهموه بالسحر والكذب والجـنون، فـبرّأه الله[3].. أوَليست هـذه الروايات أليق بالمقام وأقرب إلى العقل والمنطق من رواية أبي هريرة التي جعلت الحجر يفرّ بثياب موسى...؟

أيّوب وجراد الذهب

١ ـ إنّ خلق الجراد من ذهب، هو كذلك من المعاجز الخـارقة للـعادة، وآيـة من آيات الله جلّ شأنه، لا يفعلها لهواً ولا عبثاً، وإسقاطه على أيّوب وهو يغتسل عرياناً، دون أن يكون هنالك ما يتطلّب الإعجاز، أمر فيه نظر لمـخالفته للـمعهود

---

(١) الأحزاب ٣٣: ٦٩.

(٢) مجمع البيان ٨: ١٨٤.

(٣) مجمع البيان ٨: ١٨٥.

في ظهور المعجزات..

٢ ـ ولو كان صحيحاً أنّ جراد الذهب خرّ على أيّوب فجعل يحتثي منه في ثوبه لكان ذلك تصرّفاً سليماً من أيّوب؛ لأنها نعمة من الله خارقة لم يحتسبها، فيقتضي شكرها بتعظيم شأنها وتلقّيها بكلّ قبول، ولا يحسن منه الإعراض عنها والاستخفاف بها، وقد اختصّه الله بها، وإنّ في إهمالها كفران للنعمة، ما يجب تنزيه الأنبياء عنه[1].

فلا مبرّر ـ والحالة هذه ـ لامتناع أيّوب عن جمع الجراد الذهبيّ، كما أنّه لا مبرّر لمعاتبة الله له على قبول أمر هو الذي كرّمه به..

موسى وملك الموت

لقد امتلأ هذا الحديث بالثغرات والتجاوز على ذات الله سبحانه وأنبيائه المرسلين وملائكته المقرّبين، وهو لا يحتاج إلى كثير عناء للوقوف على ما فيه من تهافتات يمجّها الذوق السليم، ويأنفها العقل القويم، منها:

١ ـ إنّ الله جلّ شأنه كان يصطفي للنبوّة وتبليغ الرسالة خيرة خلقه، وأفضلهم، وأشدّهم نبلاً، وأكثرهم رحمة، وأرفعهم خلقاً، فلم يكن بينهم مَن يغضب بلا مبرّر، ويبطش بلا سبب، ويؤذي حتّى ملائكة الله المقرّبين، ويتمرّد على أوامر ربّه، ويكره الموت كراهة الجاهلين العاصين.. فكيف جاز لموسى ﷺ وهو نبيّ الله ورسوله وكليمه وأمينه على وحيه أن يكره القرب من ربّه والفوز بلقائه فيفعل بملك الموت ما فعل؟!

وما الذي جناه ملك الموت ﷺ وما هو إلّا رسول الله إليه، صدع بأمره، ونزل في طاعته، حتّى يضربه ويقلع عينه، وهو لم يقل له سوى: أجب ربّك؟! ومتى جاز

---

(١) أبو هريرة، الإمام عبدالحسين شرف الدين: ٨٤.

لأنبياء الله ورسله إهانة مبعوثيه من الملائكة وضربهم وقلع عيونهم حين يبلّغونهم أوامر ربّهم جلّ شأنه ؟!

٢ - كيف تمكّن موسى عليه السلام من ملك الموت بهذا الشكل ، ومن المعروف أنّ قوّة جميع مخلوقات الله منذ بدء الخليقة إلى يوم الدين لا تثبت أمام قوّة ملك الموت ؟! وحيث كان ملك الموت قادراً على إزهاق روح موسى ، أفلم يكن قادراً على الدفاع عن نفسه ، وإنقاذ عينه على أقلّ تقدير ؟!.. وهل لملك الموت جسد يمكن أن يقع عليه الأذى ، وعين يمكن أن تُفقأ حتّى حصل معه ما حصل ؟!

٣ - لماذا ضيّع الله حقّ ملك الموت فلم يأمره بالاقتصاص لنفسه من موسى تنفيذاً لشريعته « النفس بالنفس ، والعين بالعين » ؟ ولماذا اكتفى بأنّ ردّ عليه عينه حتّى دون أن يرُدّ على موسى ولو بكلمة عتاب أو لوم ، بل على عكس ذلك ، كافأه وخيّره بين الموت أو الحياة بما تواريه يده من شعر الثور سنيناً إضافيّة يحياها بكلّ شعرةٍ سنة ؟! ولم نعلم الحكمة في أن يكون عدد السنين المضافة إلى عمره بقدر عدد شعرات الثور المقبوضة ، ولا الحكمة من اختياره للثور دون غيره ؟!..

كلّ هذه الأسئلة ينبغي على أنصار أبي هريرة الإجابة عليها جواباً مقبولاً لكي يكون حديثه مقبولاً .. إن كانوا قادرين ..

إبراهيم عليه السلام يكذب ، ويشتم أباه ، ويشكّ !!

ورد في الحديث الرابع : أنّ إبراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات ، اثنتين في ذات الله ، وواحدة لنفسه .

وفي التاسع : قوله لربّه : « **فأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد** » .

وفي العاشر : أنّه كان شاكّاً عندما قال : ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ** ﴾ .

١ ـ يكذب

حاشا أنبياء الله ورسله من ارتكاب أيّة معصية ، سيّما الكذب ، وهم أصفياء الله وأُمناؤه ، وخلفاؤه على أرضه ، وحملة شرائعه وكتبه ورسالاته ، وهم الذين بشّروا بمكارم الأخلاق ومحامد الصفات ، وأرسوا قواعد الآداب ، وهم الذين تبوّأوا منزلة ملأت الصدور هيبة وإجلالاً ، وعنت لها الجباه بخوعاً ، وأذعنت لها رقاب الجبّارين مهابة وخشوعاً .. فكيف يصحّ اتّهامهم بالعصيان مرّة ، وبالتمرّد أُخرى ، وبالكذب ثالثةٍ ؟ وكيف يجوز اتّهام إبراهيم خليل الله وصفيّه بالكذب ؟ وهل كان كاذباً حقّاً في قوله : ﴿ **إِنِّي سَقِيمٌ** ﴾ ، أو : ﴿ **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ** ﴾ ؟ أم أنّ ما قاله كان من الحكمة البالغة التي أودعها الله فيه لإقامة الحجّة وتقديم الدليل على عجز آلهتهم عن أيّ نفع أو ضرّ ؟ !

أمّا قوله عن سارة أنّها أُخته ، فلم نسمع ذلك إلّا من أبي هريرة ، ولم نعرف له وجهاً من حكمة أو حسن تدبير ، زائداً افتقاره إلى أدنى مقوّمات الرجولة والنخوة .. وحاشا نبيّ الله أن يسفّ هذا الإسفاف ، ويخنع هذا الخنوع ، ويسلّم زوجته فريسة سهلة بيد جبّارٍ عنيد ، يعرف جيّداً ماذا يبتغيه منها ..

أضف إلى ذلك : أنّ الحديث برمّته متهافت متهالك ، ولا يقوى على مقارعة النقد والحجّة .. ولتوضيح ما ندّعيه نقول :

أوّلاً : لقد كان تكليف إبراهيم عليه السلام وواجبه الشرعيّ الدفاع عن زوجته وصيانة شرفها ، وأن يموت قبل أن تمتدّ إليها يد الطاغية بسوء ، لا أن يستسلم ذلك الاستسلام الغريب ويسلّمها إليه بسهولة ويسر ..

ثانياً : ادّعاؤه أنّها أُخته يفتقر إلى الحكمة والهدف الواضح ، وقد ظهر من خلال السياق أنّ هذا الادّعاء كان سبباً في رغبة الملك فيها ، وكان من المعقول وفقاً لنفس السياق أنّ الملك سيتركها لو علم أنّها زوجته ! !

ثالثاً: لم نعرف معنىً لقول إبراهيم لسارة: « **لا تكذّبي حديثي، فقد أخبرتهم أنّك أُختي، والله إنّ على الأرض مؤمن غيري وغيرك** »، فما هي علاقة كونها أُخته أو زوجته بعدم وجود مؤمن على الأرض غيرهما ؟

رابعاً: ظهر أنّ سارة عندما كان الله يصرع الملك كلّما دنا منها لينجيها منه، كانت تسارع للدعاء والتضرّع إلى الله ليكفّ انتقامه، بحجّة أنّه لو مات لقالوا: إنّها قتلته، فهل كان هناك فتح ونصر مبين ترتجيه سارة أكبر من موته وإراحة عباد الله من ظلمه وجبروته وإنقاذ شرف نسائهم من عبثه ومجونه ؟

خامساً: أوضحت الرواية أنّ سارة كانت كلّما اقترب منها الملك كانت تقوم فتتوضّأ وتصلّي وتدعو الله، وممّا لا شكّ فيه أنّ الوضوء هو من تشريعات الإسلام المستحدثة، ولكن على فرض تشريعه لديهم أيضاً، فإنّنا لم نفهم سبب إعادتها للوضوء مع كلّ مرّة تقوم فيها للصلاة !!

ألم يكن مطلوباً من البخاري وغيره من (علماء) الحديث أن يلتفتوا إلى هذه الثغرات في روايات أبي هريرة التي ما تركت حرمة لشيء إلّا مزّقتها، ولا كرامة لنبيّ إلّا شوّهتها..

ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم..

٢ ـ يشتم أباه

وفيه: أنّه كان حريّاً بإبراهيم عليه السلام أن يترك أمر أبيه إلى خالقه ليقضي فيه أمره، وينفّذ فيه حكمه، لا أن يعاتبه ويوبّخه ويشتمه في حضرة الجليل بقوله: « **أبي الأبعد** »، وذلك ما لا ينسجم مع أخلاق الأنبياء وأدبهم. كما كان بإمكانه أن يتوسّل إلى الله لإنفاذ وعده له بعدم تعريضه (للخزي) بسبب أبيه، دون أن يتعرّض هو لأبيه بهذه الكيفيّة.. وكيف سيكون خزي إبراهيم ـ وهو نبيّ الله وخليله ـ ومقامه محفوظ بين الأنبياء والرسل في أعلى علّيّين ؟!

وإذا كان إبراهيم يعلم أنّ الله وعده أن لا يخزيه يوم يبعثون، فكيف اعتقد أنّ موقف أبيه سيكون فيه خزي عليه؟

وما هي الحكمة من تحويل الله لآزر إلى صورة ذئب (ذيخ) ملتطخ تحت قدمي إبراهيم قبل سحبه إلى النار؟ هل هو إمعان في إذلاله وترويعه واستفزازه، أم إنّه بهدف قطع أمله نهائيّاً في حصول المغفرة لأبيه؟

إنّ كلّ ذلك ما هو إلّا رجم بالغيب، وسخافات ما أنزل الله بها من سلطان، سيّما ونحن نعلم أنّ آزر ليس أبا إبراهيم بل عمّه، كما سيتّضح لنا في مكان آخر.. وإذا كانت عقول بعض المسلمين تستجيب لأمثال هذه الروايات فلسنا مضطرّين أن نحتذي بهم..

٣ـ يشكّ

لقد أثبت أبو هريرة في روايته الشكّ لخليل الله إبراهيم عليه السلام، وهذا يتناقض مع قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ** ﴾[١].

وقوله: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ** ﴾[٢]، واليقين هو أسمى مراتب العلم، والموقن بالشيء لا يمكن أن يكون شاكّاً فيه، والعقل يمنع وقوع الشكّ من الأنبياء عليهم السلام كافّة؛ لأنّ ذلك من البديهيّات، ولأنّه كافٍ لأن لا يكونوا أنبياء أصلاً..

أمّا قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ** ﴾[٣]، فإنّه سؤال

---

(١) الأنعام ٦: ٧٥.

(٢) الأنبياء ٢١: ٥١.

(٣) البقرة ٢: ٢٦٠.

عن كيفيّة الإحياء لا عن ذاته ، فعندما نستفهم بـ(كيف) فإنّنا نستفهم عن حقيقة موجودة ونعترف بوجودها ، ولكنّنا نريد أن نعرف (كيف) حصلت ، وهذا ليس من فصيلة الشكوك ، فلمّا كانت حقيقة (الإحياء) معلومة لدى إبراهيم حصل سؤاله عن (كيفيّتها) . .

ونتعجّب أنّهم اتّهموا إبراهيم بالشكّ وقد برّأه الله تعالى منه في نفس الآية ؛ إذ قال له : ﴿ **أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ** ﴾ ، وبلى هذه تعني أنّه كان مؤمناً بجوهر الفعل الذي هو (إحياء الموتى) .

ثمّ قال : ﴿ **وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ ، أي بمعرفة الكيفيّة التي تحيي بها الموتى بعد أن تكون أشلاؤهم قد توزّعت على كلّ شبر في الأرض ، وحيث أنّ الله يعلم مراده فقد قال له : ﴿ **فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[(١)] .

وفي هذا الجواب دليل قاطع على ما قلناه ، حيث رأينا أنّ الله سبحانه وتعالى قد أطلعه على (كيفيّة الإحياء) وليس على (جوهره) على قدر سؤاله وطلبه . .

والحمد لله ربّ العالمين

النبيّ ﷺ وسجن يوسف

وهو ما نسبه أبو هريرة أيضاً إلى النبيّ ﷺ من أنّه قال : « **لو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي** » ، أي الذي دعاه إلى الخروج منه فرفض . . وفي هذا عدّة أُمور إضافة إلى ما ذكرناه عند مناقشتنا لبعض أحاديث كتاب « تأويل مختلف الحديث » لابن قتيبة الدينوري في الصفحة **٨٤** و **٨٥**:

١ ـ في الحديث دلالة ضمنيّة على أفضليّة يوسف عليه السلام على نبيّنا الكريم ﷺ ،

---

(١) البقرة ٢ : ٢٦٠ .

وهذا مخالف لما أجمعت عليه الأُمّة، وتواترت به الصحاح، وثبت بحكم الضرورة من أنّ النبيّ ﷺ هو سيّد الأنبياء وخيرهم قاطبة..

٢ ـ وفيه أنّ النبيّ ﷺ لو كان قد ابتلي بمثل ما ابتلي به يوسف لكان أسرع منه إلى الاستجابة، وهذا معنى باطل وغير صحيح، لأنّ رسول الله ﷺ أكثر صبراً وأشدّ حزماً وجلداً من يوسف، فلم يكن سجن يوسف ولا محنته فيه، أشدّ ضرراً وأذى من سجن النبيّ ﷺ وأهل بيته في شِعْبِ أبي طالب عدّة سنين لاقوا فيها ما لاقوا من العذاب والضيق والمرض، حتّى الموت، ولم نجد رسول الله ﷺ إلّا صابراً محتسباً.. مجيباً لهم بأنّهم لو وضعوا الشمس في يمينه، والقمر في شماله على أن يترك هذا الأمر ما تركه، ردّاً على دعوتهم له ـ ليس بإنهاء حصارهم وسجنهم في الشِّعب فقط ـ وإنّما بمنحه السيادة والزعامة عليهم..

٣ ـ إنّ النبيّ ﷺ من الحكمة بحيث لا يفوته هدف يوسف عليه السلام من عدم الإسراع بالخروج من السجن عندما قال: ﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ** ﴾ (١)، فإنّه كان يريد إثبات براءته، وكشف الحقّ قبل خروجه من السجن، وفعلاً تمّ له ما أراد؛ إذ قال لهنّ الملك: ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ (٢)..

إذن كيف ظنّ أبو هريرة ومَن تبعه، أنّ النبيّ ﷺ سيفوّت هذه الفرصة، وهذه الحكمة التي عرفها يوسف عليه السلام، فيخرج من السجن بمجرّد دعوة الداعي؟

---

(١) يوسف ١٢: ٥٠.

(٢) يوسف ١٢: ٥١.

أُمّ إسماعيل وزمزم

وفحواه أنّ أُمّ إسماعيل لو لم تغرف من بئر زمزم لبقي ماؤه عيناً معيناً إلى يوم القيامة ، ولا نعلم إن كانت هذه نظريّة جديدة تخصّ مياه الآبار وشروط الاستفادة منها ، أم هي أمر آخر ؟ ! ومع ذلك لا بدّ من معرفة فائدة هذه البئر إذا لم يكن بإمكان أُمّ إسماعيل ـ وغيرها من الناس ـ ريّ ظمأهم وإسقاء أبنائهم . .

ولا زلنا لا ندري سرّ تلك اللمسة السحريّة التي غاض بسببها ماء البئر ، ومدى علاقة ذلك السرّ بغرفة أُمّ إسماعيل . .

ولعلّ الردّ القاطع على هذا الحديث وإثبات عدم صحّته هو أنّ هذه البئر قد أُعيد فتحها ولا زال ماؤها معيناً إلى اليوم . .

سليمان وطوافه على النساء

١ ـ قبل كلّ شيء روى أبو هريرة بخصوص هذه الواقعة أربع روايات مختلفة كلّها موجودة في « صحيح البخاري » ، وسنعيد الإشارة إليها للتذكرة :

- في ٢٢/٤/٢ : « لأطوفنّ الليلة على ماءة امرأة أو تسع وتسعين . . » .
- في ١٦٢/٤/٢ : « لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة . . » .
- في ١٤٦/٨/٣ : « لأطوفنّ الليلة على تسعين امرأة . . » .
- في ١٣٨/٩/٣ : « لأطوفنّ الليلة على ستّين امرأة . . » .

فلو كان للحقيقة قيمة لديهم لكان اختلاف هذه الروايات دليلاً قاطعاً على كذبها جميعاً . . ولعلّنا نستغرب عدم انتباه القوم إلى هذه المفارقات عندما يقرأون ، فنضطرّ إلى بحثها ومناقشتها . .

٢ ـ هل تسمح قوّة البشر بالطواف على هذا العدد من النساء في ليلة واحدة . . ؟ وهل يسمح الوقت بذلك ؟ . . إنّ نواميس الطبيعة وسنّة الله في خلقه لا تؤيّد إمكانيّة

وقوع ذلك ، فلا طاقة الإنسان تتحمّل مثل هذا الجهد ، ولا الوقت يستوعب هذه الفعّاليّة ، ولا نرغب تفصيل ذلك بالأرقام لأنّ اللبيب من الإشارة يفهم ..

٣ ـ إنّ سليمان عليه السلام رسول الله ونبيّه ، وقد أعطاه الله مُلكاً لم يعطه لغيره ، وهو يعلم أنّ كلّ شيء في الوجود متعلّق بالمشيئة الإلـهيّة ، وأنّ جوهر عمله وواجبه كنبيّ هو إقناع الناس بذلك ، فهل يصحّ أن يترك هو التعليق على تلك المشيئة في طلب أمر أراده أصلاً لتأكيد سلطان الله وربوبيّته ، وهو الحصول على « **أبناء كلّهم يجاهد في سبيل الله** » إذا صحّت الرواية .. ولكن كيف تصحّ وكلّ ما فيها من سقط القول ..

أجارنا الله من خطل الرأي وعطل العقل

النبيّ المقروص

يذكر البخاري هذه الرواية عدّة مرّات ، ولكنّه لا يذكر اسم النبيّ الذي قرصته النملة ، ولكنّ الترمذيّ كما ذكر العسقلانيّ في شرح هذا الحديث[1] نصّ على أنّه موسى بن عمران ..

يقول الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في خطبة له : « **واللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقالِيمَ السَّبْعَةَ بِما تَحْتَ أَفْلَاكِها ، عَلَىٰ أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُها جُلْبَ شَعِيرَةٍ ما فَعَلْتُهُ** » .. وعليّ عليه السلام لم يكن نبيّاً ولا مرسلاً ، وإنّما هو وصيّ نبيّ ، فكيف يتسنّى إذن تصديق رواية أبي هريرة المولع بالأنبياء عليهم السلام ، الهائم بكلّ مصيبة غريبة ليعلّقها في رقبة نبيّ ، وإنّ أنبياء الله لأعظم صبراً ، وأوسع صدراً ، وأعلى قدراً ممّا يحدّث به المخرّفون ..

لقد ذكروا في مناقب السيّد أحمد الرفاعي[2] أنّه توضّأ في يوم بارد ومدّ يده زماناً

---

(١) إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري ٦ : ٢٨٨.

(٢) نور الأبصار ، الشبلنجي : ٢٠٨.

طويلاً لا يحرّكها ، فتقدّم يعقوب مؤذّن المنارة ليُقبّل يده ، فقال : إي يعقوب ، شوّشت على هذه الضعيفة . .

فقال يعقوب : ما هي ؟

قال : بعوضة كانت تأكل رزقها من يدي فهربت منك . .

وبهذا يكون السيّد أحمد الرفاعي أكثر رحمةً وحلماً وتسامحاً من نبيّ الله موسى ، فهو إذ ينزعج من مؤذّنه لأنّه (شوّش) على البعوضة فلم تكمل ارتواءها من دمه ، نرى نبيّاً كموسى يحرق قرية نمل بكاملها لأنّ نملة قرصته ، فلم يكتف بمعاقبة النملة ، بل عاقب كلّ أُمّة النمل معها . . فاقرأ واعجب . .

نوح يستنجد بمحمّد صلى الله عليه وآله وأُمّته

إنّ من أبرز النتائج التي تترتّب على تصديق الحديث الثامن هي :

١ ـ إنّ الله جلّ شأنه لا يدري هل بلّغ نوح أُمّته برسالته أم لا ؟ فهو يسأله : هل بلّغت ؟ وعندما يجيب بنعم ، يسأل أُمّته : هل بلّغكم ؟ فيقولون : لا ، فيطلب من نوح شهوداً ، فينبري محمّد صلى الله عليه وآله وأُمّته ـ التي نحن منها وأبو هريرة منها ـ فنشهد لصالح نوح . . وهذا يخالف كلّ ما ورد في كتاب الله بخصوص طبيعة الحساب يوم القيامة ، والذي ذكرناه في مواضعه من هذا البحث ، ولا داعي لإعادة ذكره هنا ، وإنّ المسلم العاقل يعرف خطل هذا الادّعاء بالضرورة . .

٢ ـ ثمّ كيف سيشهد النبيّ صلى الله عليه وآله وأُمّته في قضيّة لم يشهدوها ، ولا يعرفون عنها إلّا ما ذكره لهم الله في كتابه من قصص حدثت قبلهم بآلاف السنين ؟ !

٣ ـ كالمعتاد فإنّ تفسيرهم الخاطئ لآيات الله ، وسماعهم الرواية من كلّ مَن هبّ ودبّ ، وتركهم المعين الذي لا ينضب من علوم ومعارف آل البيت عليهم السلام ، هو ما ورّطهم في تبنّي مثل هذه الأفكار السمجة ، وقد ورّطهم هنا تفسيرهم لقوله تعالى :

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[1]، والآيات الأُخرى التي تضمّنت شهادة الأنبياء والأُمم فيما بينهم أو بعضهم على بعض، والتي دلّت معانيها عند العلماء على أنماط من الشهادة لا تدلّ بأيّ حال من الأحوال على مبنى هذه الرواية التي جعلت الأمر يبدو وكأنّه شهادات عادية من قبيل السؤال والجواب، ومَن أراد التوسّع فليراجع التفاسير المعتبرة بهذا الشأن.

آدم وموسى

لم يخبرنا الحديث الحادي عشر متى وقعت هذه المشادّة بين آدم وابنه موسى عليهما السلام، ولماذا؟ وما هو مبرّر تلك المزايدات بينهما؟ وعلى ماذا اختلفا فتشاجرا؟

لم يكن واضع الحديث موفّقاً في اختيار مفردات الحوار، فقد صاغ عباراته وفقاً لما يعتقده هو في كيفيّة حصول الأحداث، وليس كما هو الواقع، فجاءت عباراته غريبة ومفكّكة..

إنّ ما نعرفه عن علوّ شأن الأنبياء عليهم السلام، وسموّ مقامهم، ورفعة خلقهم، وفهمهم العميق لقضيّة الخلق والوجود والحياة تنفي حدوث هذا الحوار بين موسى وآدم عليهما السلام نفياً قاطعاً، فنبيّ الله موسى عليه السلام يعرف مقام أبيه آدم عليه السلام، أوّل خلق الله، نفخ فيه من روحه، وأسجَدَ له الملائكة، وغضب على إبليس من أجله وطرده من رحمته، ويعرف أنّه لا يعصي ربّه بارتكاب محارمه، كما لم يعصه بالأكل من الشجرة لأنّ النهي عنها ـ كما يقول العلماء ـ كان نهي تنزيه وإرشاد لا نهي تحريم.. كذلك كان اعتذار آدم بعيداً عن حقيقة مقامه الرفيع ومعرفته بربّه، حين وضعوا على لسانه

---

(١) البقرة ٢: ١٤٣.

أنّه يعتبر نفسه ضحيّة لقضاء الله وقدره، وأنّ القدر وحده الذى ساقه للأكل من الشجرة.. وهذا ما لا يمكن صدوره عنه..

داود وسليمان والغلام

في كثير من الأحيان تختفي بين السطور وخارج الكلمات أُمور مهمّة لو انتبه لها القارئ لحلّ الكثير من المعضلات، ولكانت الصورة أكثر جلاءاً ووضوحاً.. فقد نصّت الرواية الثانية عشر على أنّ امرأتين لدى كلّ منهما طفل، قد أكل الذئب ابن إحداهما، فادّعت أنّه أكل ابن الأُخرى، وأنّ الطفل الموجود هو ابنها هي.. هذا هو كلّ الموضوع، فهل نجده ممكناً على ضوء اعتباراتنا مكبشر؟

لقد شاهدنا العنصر المادّي من الحدث، فأين هو عنصره الإنسانيّ؟ وأين ذهبت عاطفة الأُمومة عند تلك المرأة؟ هل يستطيع أحد أن يتصوّر أُمّاً قد أكل الذئب ابنها الصغير بإمكانها أن تتجاوز ثكلها ومحنتها ولوعتها عليه، وفقدها إيّاه بهذه الطريقة البشعة، فتحافظ على صلابتها، وتتجاوز همومها، فلا تبكي ولا تحزن ولا تأسى ولا تضطرب، بل تسارع إلى الادّعاء بأُمومتها للطفل الآخر، وتعتبره بديلاً ممتازاً لابنها المأكول، وكأنّها لا يعنيها من الأمر كلّه سوى الحصول على بديل.. وكأنّ المفقود أداة أو بضاعة، وليس طفلاً حملته، وأرضعته، وحنّت عليه، وربّته، وارتبطت به وجدانيّاً وعاطفيّاً..

إنّ العارف بطبيعة النفس الإنسانيّة وما تختلج به من مشاعر وعواطف يستطيع أن يجزم بكذب هذه الرواية وعدم وقوعها أصلاً.. ولكنّنا مع ذلك سنناقشها بعيداً عن العواطف، لنتعرّف على ما فيها من نقاط ضعف..

١ ـ قال تعالى في نبيّه داود عليه السلام:

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ

وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾[1].

﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾[2].

﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾[3].

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾[4].

إنّ داود ﷺ خليفة الله في أرضه، وقد أمره أن يحكم بين الناس بالعدل والحقّ، وإنّه أوّاب، وقد آتاه الحكمة وفصل الخطاب، وإنّ له عند الله المنزلة المقرّبة وحسن المآب، وإنّه قد فضّله على بعض أنبيائه، فآتاه زبوراً.. وبناءاً على كلّ ذلك، فإنّ داود كان معصوماً من الخطأ سيّما في الحكم والقضاء..

٢ ـ إنّ سليمان ﷺ ولده ووارث علمه وحكمه، وهو نبيّ معصوم أيضاً، وقال تعالى عنه وعن أبيه: **﴿ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾**[5]، فكيف تسنّى لسليمان نقض حكم أبيه وهو يعلم حكمته وعصمته؟

فلا يجوز لسليمان ـ وهو من أنبياء الله ـ أن ينقض حكم أبيه الذي ارتضاه الله رسولاً لعباده وحاكماً بينهم؛ لأنّ نقضه ردّ على الله وسوء أدب مع أبيه، بل عقوق له..

٣ ـ الحديث ينصّ على أنّ حكم سليمان كان نقيض حكم أبيه داود، فلا بدّ إذن أن يكون أحدهما قد أخطأ، ولمّا كان كلاهما نبيّ، والخطأ محال على الأنبياء

---

(١) ص ٣٨: ١٧ ـ ٢٠.

(٢) ص ٣٨: ٢٦.

(٣) ص ٣٨: ٢٥.

(٤) الإسراء ١٧: ٥٥.

(٥) الأنبياء ٢١: ٧٩.

بحكم الله : ﴿ **وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[(١)] علمنا أنّ هذه الرواية كاذبة . .

٤ ـ وفقاً لظاهر الحديث ، فإنّ النبيّين سليمان وداود عليهما السلام لم يحكما بالعدل ، فداود قضى بالولد للكبرى دون بيّنة ولا دليل ، وسليمان حكم به للصغرى لمجرّد إشفاقها عليه من الشقّ بالسكّين ، وهذا أيضاً لا يرقى أن يكون دليلاً على عائديّة الولد إليها ، سيّما وقد أصبح بين يدي سليمان عنصران مهمّان يلزمان حكمه ، وهما : حكم أبيه أوّلاً ، وإقرار الصغرى أمامه بأنّ الولد للكبرى ثانياً .

٥ ـ يدّعي أبو هريرة أنّه لم يسمع بالسكّين إلّا يومئذٍ ، فإذا كان صادقاً فهذا يعني أنّه لم يسمع قرآناً منذ دخل الإسلام ، ودليل ذلك سورة يوسف وهي مكّيّة حيث فيها : ﴿ **وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً** ﴾[(٢)] ، وزيادة في تكذيبنا لأبي هريرة نذكّره بالحديث الذي رواه هو نفسه عن النبيّ صلى الله عليه وآله : « **مَن جُعل قاضياً بين الناس فقد ذُبح بغير سكّين** »[(٣)] .

لماذا يخنز اللحم ؟

انطوى الحديث الثالث عشر على نظريّتين عجيبتين لم يعرف لهما العلم أصلاً لحدّ اليوم ، وهما :

النظريّة الأُولى : أنّ اللحم لم ينتن (يخنز) لولا بني إسرائيل . .

النظريّة الثانية : لولا حوّاء لم تخن أُنثى زوجها . .

---

(١) المائدة ٥ : ٤٧.

(٢) يوسف ١٢ : ٣١.

(٣) مسند أحمد ٢ : ٢٣٠. سنن ابن ماجة ٢ : ٧٧٤ ، الحديث ٢٣٠٨. سنن أبي داود ٢ : ١٥٨ ، الحديث ٣٥٧٢. سنن الترمذي ٢ : ٣٩٣ ، الحديث ١٣٣٩.

وبالرغم من كلّ ما يمكن أن يقال في الردّ على هاتين النظريّتين ، رأينا أنّ في الإعراض عنهما ، إعراضاً عن الجاهلين ، ولكن لا بدّ من تنزيه رسول الله ﷺ من مثل هذا الكلام ، لأنّ نتانة اللحم لها ظروفها وأسبابها العلميّة والكيمياويّة والبيئيّة ، ولا علاقة لبني إسرائيل أو غيرهم بذلك ، كما أنّ اُمّنا حوّاء أطهر وأكرم من أن تكون سبباً ـ ولا ندري كيف ـ في خيانة بعض الإناث لأزواجهنّ .. وما هذه الادّعاءات إلّا كلام فارغ وتهريج لا معنى له .

موسى عليه السلام في قومه

مع ضرورة معرفة متى وأين عُرضت الأُمم على النبيّ ﷺ كما ورد في الحديث الرابع عشر ، إلّا أنّنا سنتجاوز ذلك لنسأل : هل كان موسى ـ حسب الرواية ـ قائماً في قومه الذين عاصروه ، أم في كلّ قومه إلى حين ظهور نبيّنا الكريم ، أم في جميعهم إلى يوم القيامة ؟

فإنّ الذين عاصروه ليسوا بالكثرة التي تسدّ الأُفق ، وإنّ الذين أتوا بعده سواءاً إلى عصر نبيّنا الكريم أو إلى يوم القيامة ، قد غيّروا وبدّلوا وحرّفوا وقالوا : العزير ابن الله ، وأقاموا لأنفسهم ديناً غير دين موسى ، وهذا كتاب الله يغنينا كي نعرف ما فعل اليهود ، ممّا يجعل من قيادة موسى لهم بذلك الشكل الذي سدّ الأُفق أمراً غير مفهوم ، إلّا إذا اُريد من الرواية القطع بنجاة كلّ اليهود يوم القيامة ودخولهم الجنّة مع موسى !!

ولن نبتعد عن الموضوع ونحن ننقل ما رواه البخاري عن أبي هريرة أيضاً أنّ النبيّ ﷺ قال : « **لا تفضّلوا بين أنبياء الله ، فإنّه ينفخ في الصور فيُصعق مَن في السماوات ومَن في الأرض إلّا من شاء الله ، ثمّ ينفخ فيه اُخرى فأكون أوّل مَن يبعث ، فإذا موسى أخذ بالعرش .**

فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أم بعث قبلي ، ولا أقول إنّ أحداً أفضل

من يونس بن متّي »[١].

وكما هو واضح فإنّ هاتين الصعقتين هما اللتان أُشير لهما في قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[٢].

ولكنّ هذه الآية تتحدّث عن الموت والنشور، فالصعقة الأُولى هي صعقة الموت، والثانية هي صعقة الإحياء حيث يقوم الناس للحساب، إلّا أنّ سياق الرواية يدلّ على أنّ كلّ الخلق مجتمعون فيُصعقون، وهذا خلاف المقصود..

ثمّ أيّ عرش ذلك الذي يفيق النبيّ فيجد موسى آخذاً به ؟ وقد علمنا عقلاً ونقلاً أنّ كلمة العرش لا تعني كرسيّاً لله يجلس عليه، لأنّ ذلك من أقوال المجسّمة الذين يفسّرون ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾[٣] أنّه سيجلس على عرشه ويحاسب الخلق !! وقد ردّ العلماء على ذلك وبيّنوا أنّ عرش الله هو ملكوته وقدرته المحيطة بالكون: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾[٤]..

وكيف يشكّ النبيّ ﷺ بأفضليّته على أنبياء الله ؟ ولماذا يمنع المفاضلة بينهم، وقد قال عزّ مَن قائل: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[٥]، ونحن نحمد الله على أنّ الأُمّة الإسلاميّة جمعاء وعلماءها قاطبة قد اتّحدت كلمتهم على أنّ نبيّنا ﷺ هو خير الأنبياء وسيّدهم وأفضلهم وخاتمهم، وأنّ هذا الاعتقاد أصبح من ضرورات الدين، ولو أنّهم رأوا وجهاً لتصديق حديث أبي هريرة هذا أو حديثه الآخر الذي

---

(١) صحيح البخاري ٤: ١٣٣.

(٢) الزمر ٣٩: ٦٨.

(٣) طه ٢٠: ٥.

(٤) البقرة ٢: ٢٥٥.

(٥) الإسراء ١٧: ٥٥.

رواه البخاري عنه أيضاً: «**مَن قال أنا خير من يونس بن متّي فقد كذب!**»، نقول: لو أنّ علماء المسلمين وجدوا قيمة لهذه الأحاديث لما أجمعوا على أفضليّة النبيّ ﷺ..

صيام داود عليه السلام وصلاته

إنّ الحديث الخامس عشر لا يخرج عن دائرة حديث أبي هريرة المتعلّق بإنجاز داود لقراءة القرآن في وقت لا يتجاوز وقت إسراج دابّته، وقد قلنا في مناقشته أنّ القرآن هو من مختصّات الإسلام ونبيّه الكريم ﷺ، وأنّ داود لم يكن لديه قرآن يقرأه، وإنّما هي مزامير يُدعى مجموعها (زبور)، ولايعلم أحد كم هي أو كم من الوقت تتطلّب قراءتها، وكذلك نقول بالنسبة لصيام وصلاة داود، فلم ترد إشارة لا في كتاب الله ولا في سنّة نبيّه توضّح كيفيّتهما في عهد داود أو غيره من الأنبياء، فالصلاة والصيام على الكيفيّة التي يمارسها المسلمون هي من مختصّات دين محمّد ﷺ، ولا دليل على عكس ذلك، فتكون مقارنتها بما كان يفعله داود ضرباً من الوهم والرجم بالغيب..

ثمّ إنّ أحبّ العبادات إلى الله هي تلك التي شرّعها وعلّمها لأنبيائه، فهي مجزية للمقدار الذي يريده من قوله: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[1]، وهي كافية لتحقيق الأسرار والمصالح الخفيّة التي أودعها الله فيها، ولم نسمع منه جلّ شأنه أنّها تمثّل أضعف الإيمان أو أدنى صور العبادة، ومن نافلة القول أن نذكر أنّ مناط قبول العبادات هو صدقها وصفاء النيّة وسلامة التوجّه فيها، وليس كثرتها وإطالتها والمبالغة فيها.. وعلى ذلك فإنّ المعيار لن يكون في كثرة العبادة بقدر ما يكون في مدى مصداقيّتها، فربّ ركعة صادقة واحدة خالصة لوجه الله خير

---

(١) الذاريات ٥١: ٥٦.

من ألف ركعة يتخلّلها رياء أو يخالطها انشغال بأُمور الدنيا..

والأهمّ من كلّ ذلك أنّ النبيّ ﷺ هو قدوة المسلمين، لأنّه نبيّهم ورسول الله إليهم، فتحرّي ما كان يفعل، والاقتداء به، هو السلوك الشرعيّ والأخلاقيّ الذي كان ينبغي عليهم مراعاته، لا التفتيش عمّن يقتدون به من أنبياء الأمم الأُخرى.. ولم يردنا عن النبيّ ﷺ أنّه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولو كان يرى في ذلك فضلاً لفعله، ولكنّ الذي وردنا هو أنّه ﷺ عندما أجهد نفسه في العبادة وقيام الليل، أوحى الله إليه: ﴿ **طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ** ﴾(١)..

وإذا ما رجعنا إلى الحديث، فسنجد أنّ راويه هو عبدالله بن عمرو بن العاص ولم يروه غيره، وقد أورده البخاري عنه بصيغ كثيرة تختلف في الصياغة، ولكنّها تتّفق في المعنى، وما لاحظناه فيها أنّ عبدالله هذا كان في جميعها متحدّثاً عن نفسه وعن كثرة صيامه وصلاته هو، وليس عن ذات الصيام أو الصلاة، ولنورد لك إحدى تلك الروايات لتكتمل لديك الصورة:

روى البخاري عنه قوله: **«أُخْبِرَ رَسولُ اللهِ ﷺ أنّي أَقُولُ: وَاللهِ لَأَصُومَنَّ النّهارَ، وَلَأَقُومَنَّ اللّيْلَ ما عِشْتُ.**

فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: أَنْتَ الّذي تَقولُ وَاللهِ لَأَصُومَنَّ النّهارَ، وَلَأَقُومَنَّ اللّيْلَ ما عِشْتُ؟ قُلْتُ: قَدْ قُلْتُهُ.

قالَ: إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعَ ذلِكَ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلاثَةَ أَيّامٍ، فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثالِها، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيامِ الدَّهْرِ.

فَقُلْتُ: إِنّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذلِكَ يا رَسولَ اللهِ؟

قالَ: فَصُمْ يَوْماً وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ. قُلْتُ: إِنّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذلِكَ؟

---

(١) طه ٢٠: ١ و ٢.

قالَ : فَصُمْ يَوْماً وَأَفْطِرْ يَوْماً وَذلِكَ صِيامُ داودَ وَهُوَ أَعْدَلُ الصِّيامِ. قُلْتُ : إنّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْهُ يا رَسولَ اللهِ ؟

قالَ : لَا أَفْضَلَ مِنْ ذلِكَ»[1].

وهكذا نجد أنّ الحديث قد صيغ أساساً لوضع تقييم لصيام راويه بحيث يجعله كصيام أحد الأنبياء مع قدرته على الإتيان بأفضل منه لولا نهي النبيّ ﷺ ، وطالما أنّ الحديث قد وُضع فليكن مشتملاً على الصلاة أيضاً ولتكن صلاته كصلاة داود مستغرقة لثلث الليل (وزيادة الخير خيرين) !!

عيسى عليه السلام والسارق

لقد ظنّ أبو هريرة وهو يضع هذا الحديث أنّ تصديق عيسى لليمين العظيم الذي حلف به السارق للتملّص من جريمته ، إنّما هو دليل على إيمان عيسى المطلق بالله وتعظيمه له ، ممّا حدا به إلى تكذيب عينيه اللتين رأتا السارق وهو يسرق .. وهو لهذا الغرض صاغ الحديث على أنّه فضيلة ومنقبة من مناقب عيسى عليه السلام ..

والحقيقة هي أنّ عيسى نبيّ مسؤول عن بناء مجتمع وإرساء قواعد دين ، فلا ينبغي له أن يشكّ بنفسه تحت أي ظرف ، حيث أنّ تكذيبه لعينيه لا يعني تصديقه لقوّة اليمين بقدر ما يعني تسرّب الشكّ إلى نفسه بما رآه ، وإلّا فانّ إيمانه ليس موضع اختبار حتّى يأتي بعمل من أوّل نتائجه تعطيل حدود الله بعدم إقامة الشرع على السارق ، بل المتوقّع منه معاقبة السارق مرّتين : مرّة عن السرقة ، ومرّة عن حلفه بالله كذباً ، وعلى ذلك فإنّ ما أراده أبو هريرة والبخاري فضيلة لعيسى عليه السلام انقلب ذمّاً له ، وحاشاه وهو نبيّ الله ورسوله ..

---

(١) صحيح البخاري ٢ : ٢٤٥ و ٤ : ١٣٤.

الإساءة للنبيّ الكريم ﷺ

الأحاديث:

١ - ١ / ١ / ٥٠

بسنده عن أمّ المؤمنين عائشة:

«كُنْتُ أَغْسِلُ الْجَنابَةَ مِنْ ثَوْبِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَخْرُجُ إِلَى الصَّلاةِ وَإِنَّ بُقَعَ الْماءِ فِي ثَوْبِهِ».

٢ - ١ / ١ / ٥٢

بسنده عن عائشة أيضاً:

«أَنَّها كانَتْ تَغْسِلُ الْمَنِيَّ مِنْ ثَوْبِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ أَراهُ[١] فِيهِ بُقْعَةً أَوْ بُقَعاً».

٣ - ٣ / ٩ / ١٥٨

وعنها أيضاً:

«كانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَرَأْسُهُ في حِجْري وَأَنا حائِضٌ».

٤ - ١ / ١ / ٦٣

وعنها أيضاً:

«كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنا وَالنَّبِيُّ ﷺ مِنْ إِناءٍ واحِدٍ كِلانا جُنُبٌ، وَكانَ يَأْمُرُني

---

(١) هكذا، والظاهر أنّه قالت: «ثمّ أرى»، كما في سنن أبي داود ١: ٩٢، الحديث ٣٧٣.

فَأَتَّزِرُ فَيُباشِرُني وَأَنا حائِضٌ، وَكانَ يُخرِجُ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فَأَغْسِلُهُ وَأَنا حائِضٌ».

٥ - ١ / ١ / ٦٣

وعنها: **«كانَتْ إِحْدانا إِذا كانَتْ حائِضاً فَأَرادَ رَسولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُباشِرَها أَمَرَها أَنْ تَتَّزِرَ في فَوْرِ حَيْضَتِها، ثُمَّ يُباشِرُها.**

قالَتْ: وَأَيُّكُمْ يَمْلِكُ إِرْبَهُ كما كانَ النَّبِيُّ يَمْلِكُ إِرْبَهُ».

٦ - ١ / ٣ / ٥٠

وعنها:

«اعْتَكَفَتْ مَعَ رَسولُ اللهِ ﷺ امْرَأَةٌ مِنْ أَزْواجِهِ مُسْتَحاضَةٌ، فَكانَتْ تَرَى الْحُمْرَةَ وَالصُّفْرَةَ، فَرُبَّما وَضَعْنا الطَّسْتَ تَحْتَها وَهِيَ تُصَلِّي».

٧ - ١ / ٣ / ٣٠

وعنها:

«إِنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كانَ يُدْرِكُهُ الْفَجْرُ وَهُوَ جُنُبٌ مِنْ أَهْلِهِ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ وَيَصومُ».

٨ - ١ / ٣ / ٣٠

وعنها:

«كانَ النَّبِيُّ ﷺ يُقَبِّلُ وَيُباشِرُ وَهُوَ صائِمٌ، وَكانَ أَمْلَكَكُمْ لإِرْبِهِ».

٩ - ١ / ٣ / ٣٠

وعنها:

«كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ لَيُقَبِّلُ بَعْضَ أَزْواجِهِ وَهُوَ صائِمٌ، ثُمَّ ضَحِكَتْ».

١٠- ١ / ٣ / ٣٠

وعنها:

«أَشْهَدُ عَلىٰ رَسولِ اللهِ ﷺ إنْ كانَ لَيُصْبِحُ جُنُباً مِنْ جِماعٍ غَيْرِ احْتِلامٍ، ثُمَّ يَصومُهُ».

١١- ١ / ١ / ٨٢

وعنها:

«كُنْتُ أَنامُ بَيْنَ يَدَيْ رَسولِ اللهِ ﷺ وَرِجْلايَ في قِبْلَتِهِ، فَإِذا سَجَدَ غَمَزَني، فَقَبَضْتُ رِجْلي، فَإِذا قامَ بَسَطْتُهُما».

١٢- ١ / ١ / ٦١

عن أنس بن مالك، قال:

«إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يَطوفُ عَلىٰ نِسائِهِ في اللَّيْلَةِ الْواحِدَةِ وَلَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعُ نِسْوَةٍ».

وعن أنس أيضاً:

«كانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدورُ عَلىٰ نِسائِهِ في السّاعَةِ الْواحِدَةِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُنَّ إِحْدىٰ عَشْرَةَ.

قالَ: قُلْتُ لأَنَسٍ: أَوَكانَ يُطيقُهُ؟

قالَ: كُنّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ أُعْطِيَ قُوَّةَ ثَلاثِينَ».

١٣- ١ / ١ / ١٢٦

عن أبي هريرة، قال:

«أُقيمَتِ الصَّلاةُ فَسَوّى النّاسُ صُفوفَهُمْ، فَخَرَجَ رَسولُ اللهِ ﷺ فَتَقَدَّمَ وَهُوَ جُنُبٌ، ثُمَّ قالَ: عَلىٰ مَكانِكُمْ، فَرَجَعَ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ خَرَجَ وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ ماءً فَصَلّىٰ بِهِمْ».

١٤ـ ١ / ١ / ٥١

بسنده عن حذيفة ، قال :

«رأيْتُنِي أنا وَالنَّبِيُّ ﷺ نَتَماشىٰ ، فَأتىٰ سُباطَةَ قَوْمٍ خَلْفَ حائِطٍ ، فَقامَ كَما يَقُومُ أَحَدُكُمْ ، فَبالَ فَانْتَبَذْتُ مِنْهُ فَأَشارَ إِلَيَّ ، فَجِئْتُهُ فَقُمْتُ عِنْدَ عَقِبِهِ حَتّىٰ فَرَغَ» .

١٥ـ ١ / ١ / ٥٢

بسنده عن أنس بن مالك ، قال :

«كانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي قَبْلَ أَنْ يُبْنَى الْمَسْجِدُ في مَرابِضِ الْغَنَمِ» .

١٦ـ ١ / ١ / ٨٢

بسنده عن عروة بن الزبير ، قال :

«إنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يُصَلِّي وَعائِشَةُ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ عَلَى الْفِراشِ الَّذي يَنامانِ عَلَيْهِ» .

١٧ـ ١ / ١ / ١٢٦

بسنده عن أنس ، قال :

«أُقِيمَتِ الصَّلاةُ وَالنَّبِيُّ ﷺ يُناجي رَجُلاً في جانِبِ الْمَسْجِدِ ، فَما قامَ إِلَى الصَّلاةِ حَتّىٰ نامَ الْقَوْمُ» .

١٨ـ ٢ / ٤ / ٣٨

بسنده عن أبي هريرة ، قال :

«بَيْنا الْحَبَشَةُ يَلْعَبونَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِحِرابِهِمْ دَخَلَ عُمَرُ فَأَهْوىٰ إِلَى الْحَصىٰ فَحَصَبَهُمْ بِها .

فَقالَ: دَعْهُمْ يا عُمَرُ».

١٩- ٢ / ٤ / ١٠١

بسنده عن عائشة، قالت:

«إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُحِرَ حَتّىٰ كانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ صَنَعَ شَيْئاً وَلَمْ يَصْنَعْهُ».

٢٠- ٢ / ٦ / ١٩٤

بسنده عن عائشة، قالت:

«سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً يَقْرَأُ في سَورَةٍ بِاللَّيْلِ، فَقالَ: يَرْحَمُهُ اللهُ، لَقَدْ أَذْكَرَني كَذا وَكَذا آيَةً كُنْتُ أُنْسيتُها مِنْ سُورَةِ كَذا وَكَذا»

٢١- ٢ / ٤ / ٦٢

بسنده عن أنس بن مالك، قال:

«إِنَّ رَهْطاً مِنْ عُكْلٍ ثَمانِيَةً قَدِموا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاجْتَوَوُا الْمَدينَةِ، فَقالوا: يا رَسولَ اللهِ، ابْغِنا رُسُلاً؟

قالَ: ما أَجِدُ لَكُمْ إِلّا أَنْ تَلْحَقُوا بِالذَّوْدِ، فَانْطَلَقُوا فَشَرِبوا مِنْ أَبْوالِها وَأَلْبانِها، حَتّىٰ صَحُّوا وَسَمِنُوا، وَقَتَلُوا الرّاعِيَ، وَاسْتاقوا الذَّوْدَ، وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ، فَأَتَى الصَّريخُ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ الطَّلَبَ، فَما تَرَجَّلَ النَّهارُ حَتّىٰ أُتِيَ بِهِمْ، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، ثُمَّ أَمَرَ بِمَسامِيرَ فَأُحْمِيَتْ فَكَحَّلَهُمْ بِها، وَطَرَحَهُمْ بِالْحَرَّةِ يَسْتَسْقُونَ فَما يُسْقَوْنَ حَتّىٰ ماتُوا».

٢٢- ٣ / ٨ / ١٣٦

بسنده عن ابن مسعود، قال:

«إنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ صَلّىٰ بِهِمْ صَلاةَ الظُّهرِ فَزادَ أَوْ نَقَصَ مِنْها.

قِيلَ : يا رَسولَ اللهِ ، أَقَصرْتَ الصَّلاةَ أَمْ نَسِيتَ ؟

قالَ : وَما ذاكَ ؟

قالُوا : صَلَّيْتَ كَذا وَكَذا.

قالَ : فَسَجَدَ بِهِمْ سَجْدَتَيْنِ ، ثُمَّ قالَ : هاتانِ السَّجْدَتانِ لِمَنْ لَا يَدْري زادَ في صَلاتِهِ أَمْ نَقَصَ ، فَيَتَحرَّى الصَّوابَ فَيُتِمُّ ما بَقِيَ ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَتَيْنِ».

٢٣ـ ٢ / ٤ / ١٦١

بسنده عن عمران بن حصين ، قال :

«أَنَّهُمْ كانُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في مَسِيرٍ ، فَأَدْلَجُوا لَيْلَتَهُمْ حَتّىٰ إذا كانَ وَجْهَ الصُّبْحِ عَرَّسُوا ، فَغَلَبَتْهُمْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ ، فَكانَ أَوَّلَ مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنْ مَنامِهِ أَبو بَكْرٍ ، وَكانَ لَا يُوقِظُ رَسولَ اللهِ ﷺ مِنْ مَنامِهِ حَتّىٰ يَسْتَيْقِظَ ، فَاسْتَيْقَظَ عُمَرُ ، فَقَعَدَ أَبو بَكْرٍ عِنْدَ رَأْسِهِ فَجَعَلَ يُكَبِّرُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ حَتَّى اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ ، فَنَزَلَ وَصَلّىٰ بِنا الْغَداةَ».

٢٤ـ ١ / ١ / ١٢٦

بسنده عن يحيى ، عن أبي سلمة ، عن جابر ، قال :

«إنَّ النَّبِيَّ ﷺ جاءَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ ، فَقالَ : يا رَسولَ اللهِ ، وَاللهِ ما كِدْتُ أَنْ أُصَلِّي حَتّىٰ كادَتِ الشَّمْسُ تَغْرُبُ ، وَذلِكَ بَعْدَ ما أَفْطَرَ الصّائِمُ.

فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : وَاللهِ ما صَلَّيْتُها ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ إلىٰ بُطْحانَ وَأَنا مَعَهُ ، فَتَوَضَّأَ ، ثُمَّ صَلّىٰ ـ يَعْني الْعَصْرَ ـ بَعْدَ ما غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، ثُمَّ صَلّىٰ بَعْدَها الْمَغْرِبَ».

٢٥ـ ٢ / ٤ / ٤٨

بسنده عن أنس، قال:

«كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا غَزا قَوماً لَمْ يَغزُ حَتّىٰ يُصْبِحَ، فَإنْ سَمِعَ أذاناً أمْسَكَ، وَإنْ لَمْ يَسْمَعْ أذاناً أغارَ بَعْدَ ما أصْبَح».

٢٦- <u>٢ / ٦ / ١٧٢</u>

بسنده عن جندب بن سفيان، قال:

«اشْتَكىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيلَتَيْنِ أوْ ثَلاثاً، فَجاءَتِ امْرَأةٌ فَقالَتْ: يا مُحَمَّدُ، إنّي لأرْجُو أنْ يَكُونَ شَيْطانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيلَتَيْنِ أوْ ثَلاثَةٍ، فَأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[1]».

ملاحظة: هناك الكثير من الروايات في المجلّد الأوّل من صفحة **٦٤** إلى صفحة **٦٩**، وفي المجلّد الثاني ـ الجزء الرابع ـ من الصفحة **١٩١** إلى الصفحة **٢٠٠**، أعرضنا عن نقلها إكراماً لرسول الله ﷺ، فليراجعها مَن يرغب، في أماكنها.

المناقشة:

يمكن تصنيف هذه الأحاديث إلى طائفتين:

الأولى: ما يتناول حياة النبيّ ﷺ الخاصّة، وعلاقاته البيتيّة بزوجاته، وهي **١٤** حديثاً ينتهي سند **١١** منها إلى أمّ المؤمنين عائشة..

والثانية: أحاديث تتعلّق بجوانب أُخرى من حياة النبيّ، وهي **١٢** حديثاً..

فبالنسبة لأحاديث الطائفة الأُولى نقول:

١ ـ إنّ أهمّ ما نؤشّره على هذه الأحاديث هو غموض الهدف من روايتها،

---

(١) الضحى ٩٣: ١ ـ ٣.

فما الذي يريد راويها أن يقول للمسلمين ؟

هل يريد أن يبرهن على قوّة النبيّ الجسديّة ؟

أم أنّه يريد أن يقول بأنّه ﷺ يمتلك قوّة خارقة تفوق طاقة البشر ؟

أو أنّه يعتقد أنّ ذلك هو من دلائل النبوّة وإعجازها ؟

أو أنّه يتعمّد الإساءة للنبيّ والمسّ بشخصه الكريم ؟

وقد كان حريّاً بنا طرح هذه الأحاديث، وعدم تجشّم عناء نقلها ومناقشتها، لولا أنّ حجم إساءتها لشخص النبيّ الأكرم ونبوّته، ورغبة البعض في اقتحام بيته المبارك، والتعرّض لخصوصيّاته ممّا لا يمكن تجاوزه، وإهمال الردّ عليه.. فهم يعملون على إظهار النبيّ ﷺ كرجل تأثّر جنسيّاً، غير مكتفٍ بالحدود الطبيعيّة للعلاقة بالمرأة، فهو يطوف على تسعة نسوة أو إحدى عشرة في ليلة واحدة، بل على مدار الساعة كما نصّت رواية أنس، وهو لا يكتفي بكلّ ذلك، فيلجأ إلى مباشرتهنّ وهنّ في المحيض !!.. وبدلاً من أن يسهر الليل للعبادة والصلاة ومناجاة ربّه، لا نراه إلّا طائفاً على نسائه لإشباع رغباته !! ولنا أن نتصوّر بعد طول المدّة في إتيان مثل هذا العمل وبهذا الحجم كيف سيكون نهار النبيّ، فلا بدّ أنّه سيقضيه بالنوم والاسترخاء بعد العناء والجهد والسهر، وعلى ذلك فلا دينٌ يُبلّغ، ولا صلاة تُقام، ولا دولة تُقاد، ولا رعيّة تُساس..!!

٢ ـ إنّ هذه الروايات تتعارض مع ما أمر الله به في كتابه العزيز حين قال: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾**[1]، ورسول الله هو القرآن الناطق، وتستحيل مخالفته لأوامر الله تعالى

---

(١) البقرة ٢: ٢٢٢.

وتشريعاته ، وعندنا أنّ تلك الآية لوحدها كافية للطعن بصحّة تلك الروايات ونسفها جملة وتفصيلاً . .

إنّ أضعف المسلمين إيماناً لا يأتي مثل هذا العمل ، فإن لم يكن امتناعه عنه لحرمته ، فعلى الأقلّ لتقذّره منه ، وأنّ رسول الله ﷺ لأعظم شأناً ، وأطهر نفساً من أن يفعل ذلك ، خاصّة وأنّه لم يكن مضطرّاً إليه لوجود أكثر من زوجة لديه . . وإنّه ﷺ هو الذي كان لا يرقد من الليل إلّا قليلاً ، متفرّغاً للعبادة والصلاة والدعاء والمناجاة ، باكياً منصهراً في ذات الله جلّ شأنه ، محلّقاً في ملكوته الأعلى ، فإذا ما وجد فسحة من وقت فهو مسؤول عن بناء مجتمع جديد ، وتبليغ رسالة سماويّة هي خاتمة الرسالات ، وتأسيس دولة تتصارع مع الكثير من قوى الكفر والضلال والظلّام من أجل السيادة والبقاء ، وقد ألزم نفسه الكريمة بعبادات فاقت قدرته وطاقته حتّى خاطبه تعالى بقوله : ﴿ **طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ** ﴾ ، يحمله على التخفيف عن نفسه والاحتفاظ بقدر مناسب من القوّة لأداء مهامّ النبوّة الكثيرة الأُخرى . .

٣ ـ سوف نمتنع عن مناقشة هذه الروايات بشكل تفصيليّ ، متّكلين على شرف المسلم الغيور الذي يطّلع عليها ، الحريص على دينه ، المؤمن بقدسيّة النبيّ ﷺ وعظمته ، ويعلم أنّ وراء تلك الروايات ما وراءها من أحقاد يهوديّة ، وثارات أمويّة ، أُريد بها الانتقاص من شخص النبيّ الكريم والانتقام منه ، كما أُريد إضافة قدر من المصداقيّة عليها ، فقرنوا أكثرها بأُمّ المؤمنين عائشة التي نعتقد براءتها منها لأنّها أسمى خُلُقاً ، وأرفع شأناً من أن تجلس بين الرجال لكي تتحدّث عمّا كان يجري في سريرها وتحت سقف بيتها . .

ولا يقول قائل : إنّ هذه أحكام شرعيّة ، و « لا حياء في الدين » ، لأنّنا سنقول له : إنّ بيان الأحكام لا يستدعي التكلّم عن حياة النبيّ الخاصّة ، واقتحام بيته ، والتعرّض لزوجاته ، والتسوّر على مقامه الشريف ، ثمّ أين هم أصحابه وما أكثرهم ، حتّى تضطرّ زوجته للحديث عن أُمور قد يخجل الرجل من تداولها بهذه الكيفيّة

الفاضحة، وحتّى يأتي بعد ذلك مَن يدّعي أنّ النبيّ قال: «**خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء**»[(١)] ؟! وإذا ما علمنا بأنّ أمّ المؤمنين إنّما بدأت تتحدّث في زمن عثمان، أصبح من حقّنا أن نعرف كيف كان المسلمون قبل ذلك يتعاملون مع هذه القضايا!!

أمّا بالنسبة لأحاديث الطائفة الثانية

فإنّه من الغريب أن نجد القوم مولعين كلّ هذا الولع في إسناد الكثير من الأفعال غير المستساغة والقبيحة إلى رسول الله ﷺ، ولسبب تافه ومكشوف هو افتقارهم إلى المسوّغ الشرعيّ وهم يمارسون مثل تلك الأفعال..

فمن أجل التخفيف من وطأة وقوع بعض أئمّتهم في متاهات النسيان، والإيحاء بأنّ ذلك لا يقدح بإمامتهم، جعلوا من النبيّ ﷺ يخرج إلى الصلاة، ويقف في مقدّمة الصفوف، وتقام الصلاة، وتُسوّى الصفوف، فيتذكّر عندها فقط أنّه كان جُنُباً، فيطلب من المصلّين بكلّ بساطة البقاء في أماكنهم، ويذهب فيغتسل ثمّ يعود إليهم ورأسه يقطر ماءً، فيصلّي بهم!!

فهل يقبل ضمير حيّ، يعرف قدر رسول الله ﷺ ومكانته السامية، وأخلاقه الكريمة، وسجاياه العظيمة، وعلوّ مقامه، وعناية الله به، وعصمته له.. أن يكون حاله هكذا؟

وهل يمكن لرجل عاديّ أن يفوته مثل هذا الأمر، حتّى يدّعون أنّه فات على نبيّ الله ورسوله ومصطفاه؟

ولماذا لم يروِ هذه الواقعة غير أبي هريرة، وكان المفروض أنّ شهودها كلّ الحاضرين؟

---

(١) أضواء على السنّة المحمّديّة: ١٢٧.

ومن أجل أن يخلقوا مسوّغاً لمن (يبول) قائماً ، جعلوا رسول الله يفعلها « **خلف سباطة قوم** » ، وعلى قارعة الطريق ، دون أن يذكروا الظرف الذي ألجأه إلى ذلك وبيته قريب وبإمكانه الذهاب إليه ، سيّما وأنّهم أكثروا من أشباه هذه الرواية بما يوحي أنّ النبيّ كان مواظباً على هذا الفعل تحت كلّ الظروف !!

وجعلوه يقيم الصلاة في مرابض الغنم ، وأرض الله واسعة ، والأماكن النظيفة الطاهرة أكثر من أن تحصى .. ومن الغريب أن لا يكترث النبيّ ﷺ بطهارة أماكن سجوده !! كما صوّروه « **يصلّي وعائشة معترضة بينه وبين القبلة على الفراش الذي يناممان عليه** » في رواية ، وفي أُخرى : « **رجلاها في قبلته ، فإذا سجد غمزها فقبضت رجليها ، وإذا قام بسطتهما** » .. !! فكيف يصحّ هذا .. وأيّ صلاة هذه ؟

وأُخرى قالوا : إنّه ﷺ ترك الصلاة وقد حانت وأُقيمت ، وذهب يناجي رجلاً في أحد جوانب المسجد ، ويترك المصلّين حتّى ناموا في الصفوف .. !! كما ادّعوا أنّه سمح للحبشة بالرقص والغناء في المسجد وهو ينظر إليهم لولا أنّ العناية الإلهيّة أرسلت عمر ليحصبهم بالحصى .

ولم يفطن أحد منهم أنّ رسول الله كان أبعد خلق الله عن اللعب ، وأرفعهم عن البعث ، وأعرفهم بحرمات الله ، وإنّه لم يكن ليوسع للجهّال مجالاً للّهو في المسجد ، وحاشاه أن يُشغل مسجده الشريف بعبث أو لهو أو لغو !!

ثمّ ما هي هذه الآية « كذا وكذا » من سورة « كذا وكذا » التي قد نسيها ولم يتذكّرها إلّا حين سمع رجلاً يقرأها في الليل ؟ أوَلَمْ يعصمه قول الله تعالى : ﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ** ﴾[1] من النسيان ؟ ! كما لم نعرف سبباً لإصرارهم على الاعتقاد بإمكانيّة وقوع النسيان من قِبل النبيّ ، مع أنّ الواقع يؤكّد غير ذلك لأنّ عصمة النبيّ منه هي الأساس الذي تقوم عليه رسالته ، وبدونه سوف يتسرّب الشكّ إلى كلّ السنن

---

(١) الأعلى ٨٧ : ٦.

والتشريعات والآيات حيث يمكن أن يكون النسيان قد طالها هي أيضاً ، فإذا كان النبيّ قد تذكّر آية كذا وكذا من سورة كذا وكذا لأنّ رجلاً تلاها ، فما أدرانا بغيرها الذي لم يتله أحد ليتذكّره !!

نعوذ بالله من وسوسة الشياطين

ونفس القول بالنسبة لوقوع النبيّ ﷺ فريسة للسحر ، هل يجوز أن يترك الله سبحانه أنبياءه عرضة لمثل هذا الأذى بحيث يخرجون عن وعيهم وإدراكهم فيتوهّمون أنّهم فعلوا أشياء لم يفعلوها فتسقط بذلك حجّيّة أفعالهم وأقوالهم ، أو على الأقلّ تكون موضع شكّ مستمرّ لاحتمال كونهم كانوا تحت تأثير السحر مع كلّ فعل فعلوه أو كلام قالوه ؟!

وكيف جاز لرسول الله أن يعاقب « رهط عكل » بما لم يشرّعه تعالى حين فعل بهم ما فعل ، فقطّع أيديهم وأرجلهم وكحّلهم بمسامير محميّة ، وطرحهم بالحرّة يستسقون فلا يسقيهم حتّى ماتوا عطشاً ؟ ومن أين جاء بهذا التشريع وقد كان أقصى حكم يستحقّوه هو قتلهم بدم الراعي الذي قتلوه ؟

أمّا ما تبقّى من الروايات ـ وهو الرواية **٢٢** وما بعدها ـ فإنّ كلّاً منها يحتاج إلى بعض التفصيل ، وكما سنوضّحه :

سهو النبيّ عن صلاة الظهر

ورد في الرواية الثانية والعشرين أنّ النبيّ ﷺ صلّى بهم صلاة الظهر فزاد أو نقص منها ، فقيل له : يا رسول الله ، أقصرت الصلاة أو نسيت ؟

فقال : **وما ذاك ؟**

فقالوا : صلّيت كذا وكذا ، فسجد بهم سجدتين ثمّ قال : **هاتان السجدتان لمن لا يدري زاد في صلاته أم نقص ، فيتحرّى الصواب فيتمّ ما بقي ثمّ يسجد سجدتين** ..

كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قوله: «صلّى النبيّ إحدى صلاتي العشيّ ـ وأكثر ظنّي العصر ـ ركعتين، ثمّ قام إلى خشبة في مقدّم المسجد فوضع يده عليها وفيهم أبو بكر وعمر، فهابا أن يكلّماه وخرج سرعان الناس فقالوا: أقصرت الصلاة؟ ورجل يدعوه النبيّ ذو اليدين، فقال: أنسيت أم قصرت؟ فقال: لم أنس ولم تقصر.

قال: بلى نسيت، فصلّى ركعتين، ثمّ سلّم، ثمّ كبّر، فسجد»[١].

وسنردّ على هذه الرواية بما ردّها به الإمام عبدالحسين شرف الدين، فنقول: إنّ أبرز ما فيها من نقاط ضعف تقضي بعدم صحّتها هو:

١ ـ لا يمكن أن يحدث مثل هذا السهو الفاحش من قِبل رجل أفرغ للصلاة شيئاً من قلبه، أو أقبل عليها بشيء من لبّه، ولا يمكن حدوثه إلّا من قِبل الساهين عن صلاتهم، اللّاهين عن مناجاتهم، وحاشا أنبياء الله من أحوال الغافلين، وتقدّسوا عن أقوال الجاهلين، فإنّ أنبياء الله سيّما سيّدهم وخاتمهم أفضل ممّا يظنّون، ثمّ إنّه لم يبلغنا مثل هذا السهو عن أحد من عامّة الناس، وهو قطعاً لا يجوز على أنبياء الله أبداً..

٢ ـ إنّ الحديث قد اشتمل على أنّ النبيّ ﷺ قال جازماً: لم أنس ولم تقصر، فكيف إذن جاز أن يكون قد نسي بعد هذا؟ ولو فرضنا عدم وجوب عصمته عن مثل هذا السهو، فإنّ عصمته عن المكابرة والتسرّع بالأقوال المخالفة للواقع ممّا لا بدّ منه عند جميع المسلمين..

٣ ـ إنّ أبا هريرة قد اضطرب في هذا الحديث، وتعارضت أقواله، فتارة يقول: صلّى بنا إحدى صلاتي العشيّ أمّا الظهر وأمّا العصر ـ على سبيل الشكّ ـ وأُخرى يقول: صلّى بنا صلاة العصر ـ على سبيل القطع بأنّها العصر ـ وثالثة يقول: بينا أنا

---

(١) صحيح البخاري ٢: ١٦.

أُصلّي مع رسول الله صلاة الظهر ـ على سبيل القطع بأنّها الظهر ـ وهذه الروايات كلّها ثابتة في صحيحي البخاري ومسلم ، ممّا جعل شارحي الصحيحين يرتبكون فيها ارتباكاً دعاهم إلى التعسّف والتكلّف .

٤ ـ إنّ ما اشتمل عليه هذا الحديث من قيام النبيّ ﷺ عن مصلّاه ، ووضع يده على الخشبة ، وخروج سرعان الناس من المسجد ، وقولهم : أقصرت الصلاة ؟ وقول ذي اليدين : أنسيت أم قصرت ؟ وقول النبيّ ﷺ : لم أنس ولم تقصر ، وقولهم له : قد نسيت ، وقول النبيّ لأصحابه : أحقّ ما يقول ؟ وقولهم : بلى ، وغير ذلك ممّا نقله أبو هريرة .. كلّ ذلك هو ممّا يمحو صورة الصلاة أصلاً ، والمعلوم من الشريعة المقدّسة بطلان الصلاة بكلّ ماحٍ لصورتها ، فلا يمكن بعد هذا بناؤه ﷺ على الركعتين الأُوليين لأنّ ذلك يناقض الحكم المقطوع بثبوته عنه ﷺ ..

٥ ـ إنّ ذا اليدين المذكور في الحديث إنّما هو ذو الشمالين ابن عبد عمرو حليف بني زُهرة الذي استشهد في بدر كما هو ثابت في « الاستيعاب » و « الإصابة » وشروح الصحيحين كافّة ، وهو ما صرّح به الثوري وأبو حنيفة حين تركوا العمل بهذا الحديث وأفتوا بخلاف مفاده .

كما أنّ هنالك أحاديث وقرائن عديدة تؤكّد جميعها أنّ ذا اليدين إنّما هو ذو الشمالين المستشهد في بدر قبل إسلام أبي هريرة بأكثر من خمس سنين ، وإنّ قاتله هو أُسامة الجشمي ، وقد نصّ على ذلك ابن عبدالبرّ في « الاستيعاب » وسائر أهل الأخبار ، فكيف يمكن أن يجتمع مع أبي هريرة في الصلاة خلف رسول الله ﷺ ؟

وقد حاول البعض الاعتذار عن أبي هريرة مرّة بأنّه يجوز للصحابي أن يروي ما لم يحضره فقد يكون قد سمعه من صحابيّ آخر ، ومرّة بحملهم قول أبي هريرة « صلّى بنا » على سبيل المجاز ، وأنّ المراد هو « صلّى بالمسلمين » ..

وكلا الاعتذارين باطلان؛ لأنّ أبا هريرة سبقهم فرفع عن كلامه أيّ لبس أو شبهة، وأفشل أيّ محاولة للاعتذار لأنّه ادّعى بشكل صريح وواضح وموثّق، حضوره تلك الصلاة بما لا يقبل التأويل مطلقاً..

نوم النبيّ ﷺ عن صلاة الصبح

ورد في الرواية الثالثة والعشرين أنّ النبيّ ﷺ نام وجميع أصحابه الذين معه عن صلاة الصبح، ولم يستيقظ من القوم غير أبي بكر أوّلاً، وعمر ثانياً، أمّا النبيّ فلم يستيقظ إلّا بعد طلوع الشمس، فنزل وصلّى بهم الغداة..

هذا ما قاله أبو هريرة عن صلاة النبيّ، فلنقرأ ما قاله تعالى عنها في كتابه المجيد: **﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾**[1].

إلى أن قال وهو أصدق القائلين: **﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ ﴾**[2]

وخاطبه في مقام آخر بقوله: **﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾**[3]، أي ومن الليل فصلّ بالقرآن زيادة لك على الفرائض الخمس التي أوجبتها الآية الأُولى، وبيّنت أوقاتها، وذلك أنّ الفرائض الخمس واجبة على جميع المكلّفين، أمّا صلاة الليل فإنّما كانت فريضة عليه ﷺ خاصّة ولم تكتب على غيره.

---

(١) المزّمّل ٧٣: ١ ـ ٤.

(٢) المزّمّل ٧٣: ٢٠.

(٣) الإسراء ١٧: ٧٨ و ٧٩.

وقال مخاطباً له في مقام ثالث: ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ** ﴾(١)، أي يراك إذ تقوم لعبادته في الليل حين لا يطّلع عليك أحد، ويرى تصرّفك في المصلّين بالقيام والقعود والركوع والسجود والذكر والقراءة والدعاء والابتهال إذا صلّيت في جماعة.

وقال مخاطباً له في مقام رابع: ﴿ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ** ﴾(٢).

وفي مقام خامس: ﴿ **فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ** ﴾(٣).

فكان ﷺ يصلّي الليل كلّه، ويعلّق صدره بحبل حتّى لا يغلبه النوم، فيظلّ قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً، حتّى تورّمت قدماه، فأوحى الله إليه: ﴿ **طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَىٰ** ﴾(٤)..

وقد عقد البخاري في صحيحه باباً لتهجّده ﷺ في الليل، وباباً لطول سجوده في صلاة الليل، وباباً لطول قيامه فيها، وباباً لقيامه حتّى تورّمت ساقاه وتفطّرت قدماه(٥).

هذا دأبه ﷺ في قيام الليل، فما ظنّك به في إقامة الفرائض الخمس وهي أحد الأركان التي بني الإسلام عليها، أيجوز عليه أن ينام عنها، معاذ الله وحاشاه وهو الذي أهاب بأهل الأرض يتلو عليهم من ربّهم جلّ وعلا: ﴿ **حَافِظُوا عَلَى**

(١) الشعراء ٢٦: ٢١٧ ـ ٢١٩.

(٢) ق ٥٠: ٣٩ و ٤٠.

(٣) طه ٢٠: ١٣٠.

(٤) طه ٢٠: ١ ـ ٣.

(٥) صحيح البخاري ـ المجلّد الأول: ٢: ٥٠.

الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾(١).

ونادى في الناس: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴾(٢) إلى أن قال في وصفهم: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾(٣).

وصاح في بني آدم: ﴿ **فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً** ﴾(٤).

وأذّن فأسمع العالم: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ** ﴾(٥).

والقرآن الحكيم مشحون بمثل هذه الآيات البيّنات التي كان رسول الله ﷺ يحوط الناس بحكمتها وموعظتها الحسنة، وكم وخز الساهين عن عبادة ربّهم بقوله: ﴿ **فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ** ﴾(٦).

وفضح المنافقين بما أوحى الله إليه من صفاتهم بقوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ** ﴾(٧).

وإذا ما رجعنا إلى الحديث فسنجد العديد من القرائن الدالّة على بطلانه، منها:

١ - إنّهم ذكروا في خصائص النبيّ ﷺ أنّه كان لا ينام قلبه إذا نامت عيناه،

---

(١) البقرة ٢: ٢٣٨.

(٢) المؤمنون ٢٣: ١ و ٢.

(٣) المؤمنون ٩ - ١١.

(٤) النساء ٤: ١٠٣.

(٥) الأعلى ٨٧: ١٤ و ١٥.

(٦) الماعون ١٠٧: ٤ و ٥.

(٧) التوبة ٩: ٥٤.

وصحاحهم صريحة بذلك ، سيّما « صحيح البخاري » نفسه ، وهذا من أعلام النبوّة وآيات الإسلام ، فلا يمكن والحال هذه أن تفوته صلاة الصبح بنومه عنها ، حيث أنّه لو نامت عيناه فسيبقى قلبه في مأمن من الغفلة ، وقد صلّى مرّة صلاة الليل فنام قبل أن يوتر ، فقالت له إحدى زوجاته : يا رسول الله ، تنام قبل أن توتر ؟

فقال لها : **تنام عيني ولا ينام قلبي** ، كما ورد في « صحيح البخاري » و « مسند أحمد »[١] ، فإذا كانت هذه حاله في نومه قبل صلاة الوتر ، فما ظنّك به إذا نام قبل صلاة الصبح ؟

٢ ـ إنّ أبا هريرة صرّح كما في « صحيح مسلم »[٢] بأنّ هذه الواقعة قد اتّفقت لرسول الله ﷺ وهو قافل من غزوة خيبر ، فكيف يدّعي أبو هريرة حضوره فيها ؟ وأين هو من غزوة خيبر ؟ وإنّما أسلم بعد خروج النبيّ ﷺ إليها باتّفاق أهل العلم **!!**

٣ ـ إنّ أبا هريرة يقول في هذا الحديث : « قال النبيّ ﷺ : **ليأخذ كلّ رجل منكم برأس راحلته ، فإنّ هذا منزل حضرنا فيه الشيطان** . قال : ففعلنا »[٣] .

وقد علمنا في مكان آخر من هذا البحث أنّ الشيطان لا يدنو من النبيّ أبداً ، كما علم الناس كافّة أنّ أبا هريرة كان في تلك الأوقات لا يملك شبع بطنه ، فمن أين له الراحلة ليأخذ برأسها كما زعم ، إذ قال : « ففعلنا » **؟ !!**

٤ ـ إنّه قال في هذا الحديث : **« ثمّ دعا بالماء فتوضّأ ، ثمّ سجد سجدتين ، ثمّ صلّى صلاة الغداة »** ، أمّا صلاة الغداة فواضح أنّها قضاءً لما فات ، لكنّ السجدتين لم نعرف لهما وجهاً ولا محلاًّ من الإعراب ، والفاضل النووي طفر عنهما في شرحه . .

---

(١) صحيح البخاري ٤ : ١٦٨ . مسند أحمد ٢ : ٤٣٨ .

(٢) صحيح مسلم ١ : ٢٥٤ .

(٣) مسند أحمد ٢ : ٤٣٩ . صحيح مسلم ٢ : ١٣٨ . سنن النسائي ١ : ٢٩٨ .

٥ ـ إنّ من عادة الجيش وقوّاده أن يكون لهم حرس يقوم عليهم إذا ناموا ، لا سيّما إذا كان فيهم الملِك أو نحوه ، وكان له من الأعداء الألدّاء الموتورين مَن لا يؤمن معرّتهم ، وكان في جيشه من المنافقين مَن يتربّص به الدوائر ويعضّون الأنامل من الغيظ ، وقد مردوا على النفاق ، ورسول الله كان حريصاً على نفسه وعلى جيشه ، ولا ينام في تلك الفلاة المحاطة بذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب من أعدائه الذين وترهم وسفك دماءهم إلّا والحرس قائم بوظيفته من مراقبة العدوّ الخارجيّ والمنافق الداخليّ ، وحاشا رسول الله أن يغفل عن هذه المهمّة وهو سيّد الحكماء قبل أن يكون سيّد الأنبياء ، فهل نام جميع الحرس أيضاً كما نام المؤذّنون ؟ !

٦ ـ إنّ النبيّ ﷺ كان يومئذٍ في جيش مؤلّف من ألف وستّمائة رجل ، فيهم مائتا فارس ، والعادة تأبى أن يناموا بأجمعهم فلا ينتبه منهم أحد أصلاً ، وعلى فرض عدم انتباههم من أنفسهم فلا بدّ بحكم العادة المألوفة أن ينتبهوا بصهيل مائتي فرس وضربها الأرض بحوافرها طلباً للعلف عند حضور وقته من الصبح ، فما هذا السبات العميق الشامل لجميع مَن كان من إنسان وحيوان ؟ ! ولعلّ هذا من خوارق أبي هريرة . .

صلاة العصر تفوت النبيّ ﷺ

وهو ما نصّت عليه الرواية الرابعة والعشرين ، ولعلّ مناقشتنا للحديث السابق فيها غناء يدفعنا إلى الإعراض عن هذه الرواية ، إلّا أنّنا نريد التأكيد على استغرابنا لولع هؤلاء الناس بالإساءة إلى رسول الله ﷺ ، فقد أظهوره بمظهر المستهين بصلاته ، اللّاهي عنها ، وكأنّه لا يعتبرها من أركان الدين الذي يحمل رايته ويقاتل من أجله ، فمرّة يروون أنّه صلّى الظهر أو العصر ركعتين ، وأُخرى يقولون إنّه نام عن صلاة

الصبح ولم يؤدّها إلّا بعدما ارتفعت الشمس ، والآن يتحدّثون عن نسيانه لصلاة العصر وما تذكّرها إلّا بعد ذكرها من قبل عمر فصلّاها بعد غروب الشمس ، ومن يدري فلربّما لم يكن ليصلّيها لولا عمر !

وقد ظهر أنّ عمر كان أحرص من النبيّ ﷺ على أداء الصلاة ، فقد صلّاها قبل أن تغرب الشمس ، ومع ذلك فهو محنق ، أمّا النبيّ فإنّه كان في عالم آخر لا يعنيه أفاتته أم لا ؟!!

وكلّ ذلك غير مقبول ، فالنبيّ لم يكن لوحده ـ حسب الرواية ـ فما هو حال مَن كانوا معه ؟

أصلّوها وتركها النبيّ ؟ أم أنّهم جميعاً قد انشغلوا عنها ، فما صلّاها أحد ذلك اليوم ؟!

إن ذلك إلّا بهتان عظيم ، يؤكّده ما رواه البخاري نفسه في صحيحه[١] حين ذكر أنّ النبيّ ﷺ قال : « **مَن ترك صلاة العصر حبط عمله** » ، كما يؤكّده ما نصّت عليه روايات معركة بدر من إقامة النبيّ ﷺ للصلاة بأصحابه في ميدان القتال يحميهم صفّ منهم يقونهم السهام بصدورهم الطاهرة ، فالذي لا ينسى الصلاة وهو في خضمّ معركة ضروس ، حريّ به أن لا ينساها وهو خلف خندق يفصله عن العدوّ .. وهذا هو ما حصل بالضبط لأنّ رسول الله ﷺ أحرص خلق الله على أداء الواجبات والفرائض وهو ليس بحاجة إلى مَن يذكّره بها ..

النبيّ ﷺ يُغِير على مَن لا يعرفهم

وهو ما ورد في رواية أنس ـ الخامسة والعشرين ـ والذي يوحي أنّ النبيّ ﷺ كان يغزو الأقوام بشكل عشوائيّ دون معرفة مسبقة بحالهم وهويّتهم أو عقيدتهم ،

---

(١) صحيح البخاري ١ : ١٤٧.

فـإذا سـمعهم يـقيمون الأذان كـفّ عـنهم وأحـجم ، وإن لم يـسـمع أغـار عـليهم وهجم . . ! !

فهل يتصوّر مؤمن عاقل أنّ النـبيّ المـبعوث رحـمة للـعالمين بـرسالة الإسـلام السمحاء التي قوامها : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ (١) ، والتي وصفت النبيّ باللين والرحمة والمروءة ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِن حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾ (٢) ، والتي اعتمدت الدليل العقليّ والبرهان الأخلاقيّ في تبشير الناس بالدين الجديد ، نقول : هل يتصوّر عاقل يعرف خلق النبيّ وتسامحه ورحمته أنّ بإمكانه أن يتصرّف بهذه الطريقة كقطّاع الطرق ، فيقف على تجمّعات الناس وقراهم دون أن يعرف مَن هم ، وما يعبدون ، وكم عددهم ، وما إمكانيّاتهم ؟ ويكتفي بسماع الأذان لتحديد موقفه مـنهم ويُـغير عليهم دون إنذار ودون إلقاء الحجّة ، متجاوزاً وجوب الأمر بالمعروف والإعذار إلى الله من دمائهم ؟ ! فيلجأ إلى السيف دفعة واحدة ، فمتى فرض رسول الله الإسلام بقوّة السيف على الناس مخالفاً ما نصّت عليه آيات الله وسيرته ﷺ ؟

ثمّ إن كان هؤلاء القوم ممّن يقيمون الصلاة ، فكيف لا يعرفهم وهم على ذلك مسلمون ؟ وكيف لا يعرف مواطنهم وهم رعيّته وبعض مـن أُمّـته ؟ ! . . وإن كـانوا ممّن لم يسمع لهم أذاناً ، فهل سبق إليهم بالدعوة إلى الإسـلام ؟ أوَ لا يـحتمل أن يكون فيهم مَن أسلم وآمن بالله ؟ فهل سيكون مصيره كمصيرهم ؟

إنّ هذا الحديث وأمثاله هو ما أساء إلى الإسلام ونبيّه الكريم ، وأعطى أعـداءه الحجّة لمحاربته وطعنه في الصـميم ، ومكّـنهم مـن اتّـهامه بـأنّه ديـن قـتل وغـزو

---

(١) النحل ١٦ : ١٢٥ .

(٢) آل عمران ٣ : ١٥٩ .

وإرهاب .. في حين علمنا كم لاقى ﷺ من الأذى والظلم والعنت من قومه ، وما كان يفكّر حتّى بالدعاء عليهم ، بل كان يقول : « **اللّهمّ اهدِ قومي إنّهم لا يعلمون** »[1] صابراً محتسباً مواظباً على دعوتهم بكلّ رفق ولين لكي تكون استجابتهم طوعيّة مفعمة بالقناعة والقبول ، وإيمانهم صادقاً وحقيقيّاً لا رهبةً وخشيةً وخوفاً .. وهاهو عندما دخل مكّة فاتحاً ظافراً مقتدراً يحرص على حقن الدماء فيطلب منهم أن لا يشهروا سيوفهم وأن يدخلوا بيوتهم أو بيت الله أو بيت أبي سفيان عدوّه اللدود حفاظاً على كرامته وتألّفاً لقلبه ، ثمّ يطلق أسراهم مكتفياً بالقول : **اذهبوا فأنتم الطلقاء**[2] ..

فهل يعقل ممّن كان هذا حلمه وهذه رأفته أن يُغير على قوم لم يسبقه إليهم البشير ، أو على الأقلّ لم يُعذر فيهم بالنذير ؟ !

كلّا والله ، فإنّ رسول الله لأكرم من ذلك ، ولكنّها بقايا أحقاد جاهليّة ، ونعرات أمويّة ، حفظها القوم في نفوسهم فأطلقوها بعد حين ثأراً منه وإساءة إليه ، فخاب سعيهم أنّى يؤفكون ..

شيطانك تركك ! !

في الردّ على هذه الرواية وهي السادسة والعشرين والأخيرة ممّا نقلناه ، نقول :

١ ـ أظهرت الرواية أنّ هذه المرأة كانت شديدة القرب من النبيّ ﷺ وتراه يوميّاً ، وأنّها كانت ترى جبرئيل عليه‌السلام كما يراه النبيّ بشكل يوميّ لأنّ تلك المرأة قد افتقدته خلال يومين أو ثلاثة ، ولكنّنا لا ندري ماذا كانت ترى لكي تسمّيه شيطاناً !

---

(١) مجمع البيان ١ : ٣٨٦.

(٢) الكافي ٣ : ٥١٣ ، الحديث ٢.

٢ ـ إنّ امرأة كان باستطاعتها أن تتحدّث بهذه الطريقة إلى النبيّ وتعرف تفاصيل حياته اليوميّة ، كان لا بدّ أن لا تكون مجرّد (امرأة) في أعين الرواة ، وإنّما يفرض الحال معرفة مَن هي بالضبط !!

٣ ـ روى البخاري حديثاً عن عائشة قال لها النبيّ فيه : «**إنّ جبريل يُقرئك السلام** ، فقالت : إنّك ترى ما لا نرى»(١) ، فإذا كانت عائشة لم تدّع أنّها ترى جبرئيل ولا ادّعى ذلك أحد من الصحابة ، فكيف كانت تلك المرأة المجهولة تراه ؟

٤ ـ ما الذي جرّأ هذه المرأة على رسول الله ﷺ لكي تقول له : «**إنّي لأرجو أن يكون شيطانك تركك ؟ !**» وماذا صدر عنه حتّى اعتقدت أنّ شيطاناً كان يزوره ؟ ! وهو لم يعلن على الملأ غير أنّه نبيّ الله ورسوله ، وأنّ جبرئيل يأتيه بالوحي ، ويقرأ عليهم ما يوحى إليه ، ولم يصدر عنه ـ وحاشاه ـ ما يشير إلى شعوذة أو سحر أو جنون .. فمن أين أتت هذه الفكرة وتكوّن هذا الانطباع لدى تلك المرأة ؟ !

٥ ـ أوحت الرواية بأنّ تأثير قول المرأة كان كبيراً على النبيّ ﷺ ، وربّما خلق لديه ردّة فعل عنيفة ، وتملّكه اليأس والقنوط إلى الحدّ الذي جعل الله يتداركه مقسماً له بالضحى والليل إذا سجى أنّه ما تركه ولا نسيه !!

فهل هذا هو ما يريده من اختلق هذه الرواية ومن صدّقها فأتى بها صحيحةً في صحيحهِ وهو غافل عمّا فيها من تجريح برسول الله ﷺ وإساءة لمقامه وعلاقته بربّه ؟ !

فإنّا لله وإنّا إليه راجعون

---

(١) صحيح البخاري ٤ : ٢٢٠ و ٧ : ١١٩ .

فضائل الصحابة

خليل رسول الله

٢ / ٥ / ٤

بسنده عن أبي سعيد الخدري، قال:

«خَطَبَ رَسولُ اللهِ ﷺ النّاسَ، فَقالَ: إنَّ اللهَ خَيَّرَ عَبْداً بَيْنَ الدُّنْيا وَبَيْنَ ما عِنْدَهُ، فَاخْتارَ ذلِكَ الْعَبْدُ ما عِنْدَ اللهِ.

قالَ: فَبَكى أَبو بَكْرٍ، فَعَجِبْنا لِبُكائِهِ أَنْ يُخْبِرَ رَسولُ اللهِ ﷺ عَنْ عَبْدٍ خُيِّرَ فَكانَ رَسولُ اللهِ ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرَ، وَكانَ أَبو بَكْرٍ أَعْلَمَنا فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: إنَّ مَنْ آمَنِ النّاسَ عَلَيَّ في صُحْبَتِهِ وَمالِهِ أَبا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَليلاً غَيْرَ رَبّي لاتَّخَذْتُ أَبا بَكْرٍ، وَلـكِنْ اخُوَّةُ الْإسْلامِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَيَنْ في الْمَسْجِدِ بابٌ إلّا سُدَّ إلّا بابَ أَبي بَكْرٍ».

لا غرو أن يقع الراوي في خطأ فاحش يفضحه ويؤكّد عدم صدور مثل هذا الحديث عن النبيّ ﷺ، والعلّة تكمن في الفارق البلاغيّ والثقافيّ والأخلاقيّ بين رسول الله وبين الراوي، فمدار الحديث يرتكز على ما أسنده إلى النبيّ من أنّه قال: «**لو كنت متّخذاً خليلاً غير ربّي لاتّخذت أبا بكر**»، وهذا ما لا يمكن صدوره عن النبيّ ﷺ مطلقاً؛ لأنّ فيه من التجاوز على مقام الله وعظمته ما ننزّه النبيّ عنه، فالنبيّ لم يتّخذ ربّه خليلاً وإنّما العكس هو الصحيح، فإنّ الله سبحانه هو الذي يتّخذ مَن يشاء من عباده خليلاً: ﴿**وَاتَّخَذَ اللهُ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾[1].

---

(١) النساء ٤: ١٢٥.

أمّا العبد فليس له إلّا أن يتّخذ من الله ربّاً ومولى وإلـهاً وسيّداً ومعبوداً.. فإذا كان جائزاً أن يكون العبد مصدراً للإقرار بالعبوديّة لله، فإنّه لا يجوز أن يكون كذلك فيتّخذ من ربّه خليلاً.

وبتعبير أدقّ: فإنّنا لا نقول: إنّ الله خليل محمّد أو خليل إبراهيم، ولكنّنا لا نتحرّج من القول: محمّد خليل الله، وإبراهيم خليل الله.

ناهيك عن معنى الخلّة الذي لا ينسجم مع ما قلناه، فهي تعني المودّة والصداقة، وهي على هذا الأساس لا يمكن أن تتّخذ من الأدنى الضعيف المخلوق تجاه الأعلى القويّ الخالق، ولكنّها تصحّ بعكس ذلك.. ولو أنّ النبيّ ﷺ قد اتّخذ من أبي بكر خليلاً لقلنا إنّ أبا بكر خليل محمّد، ولن نقول: إنّ محمّداً خليل أبي بكر، لأنّ النبيّ أعلى مقاماً وأرفع شأناً من أبي بكر..

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّ كون النبيّ ﷺ خليلاً لله، لا يمنع ولا يتعارض مع اتّخاذه أبا بكر لو أراد ذلك، لعدم تشابه الخلّتين، إلّا أن يكون هناك مانع جوهريّ منها..

ومن الطريف أنّ البخاريّ قد غفل عن هذا الحديث وهو يروي عن أبي هريرة في أماكن عدّة من صحيحه قوله: حدّثني خليلي، وسمعت خليلي، وقلت لخليلي رسول الله، أفمن اللائق أن يتّخذ النبيّ أبا هريرة خليلاً ويرفض خلّة أبي بكر..؟!

وعلى كلّ حال، فقد روى مسلم عن جندب أنّه سمع النبيّ ﷺ يقول قبل أن يموت بخمس: «إنّي أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل»[١]، وهذا هو ما نعوّل عليه..

أمّا السبب الذي نراه وراء وضع هذا الحديث فهو أمران:

---

(١) صحيح مسلم ٢: ٦٨. فتح الباري ٧: ١٥.

الأوّل : تأكيد (اخوّة الإسلام) بين النبيّ وبين أبي بكر ، في مقابل مؤاخاة النبيّ ﷺ بين نفسه الكريمة وبين عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام ، والمؤاخاة بين أبي بكر وخارجة بن زهير بن الخزرج[1] ، وحتّى في هذه لم يفلح واضع الحديث ، لأنّ اخوّة الإسلام لا تشمل أبا بكر وحده ، وإنّما هي عامّة لسائر المؤمنين : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾[2] ، فلم تعد تلك ميزة له .

والثاني : تثبيت قيام النبيّ بسدّ كلّ الأبواب المطلّة على المسجد إلّا باب أبي بكر لمعارضة الروايات الكثيرة التي نصّت على أنّ النبيّ ﷺ سدّ كلّ الأبواب عدا باب عليّ عليه‌السلام ، فكان هذا الحديث ترجمة فعليّة واستجابة فوريّة لما أمر به معاوية ، وقد ذكرناه في المقدّمة ، وهو : « لا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلّا وتأتوني بمناقض له في الصحابة » ..

ألا خاب ما يفترون ..

لا تسبّوا أصحابي

٢ / ٥ / ٨

بسنده عن أبي سعيد الخدري ، عن النبيّ ﷺ :

« لَا تَسُبُّوا أَصْحابِي ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً ما بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ، وَلَا نِصيفَهُ » .

ونحن نقول ذلك أيضاً ، ولكنّنا لا نسنده إلى رسول الله بهذه الصيغة ، وإنّما نلتزم به باعتبار أنّ النبيّ ﷺ قد نهى عن السبّ مطلقاً ، ولتعارض هذا الفعل مع أخلاق الإسلام وآداب الدين ، وقد نقلوا عنه ﷺ قوله : « **سباب المسلم فسوق** »[3] ، وقوله :

---

(١) السيرة النبويّة ، ابن هشام ٢ : ٥٠٥ .

(٢) الحجرات ٤٩ : ١٠ .

(٣) صحيح البخاري ١ : ١٧ و ٧ : ٨٤ . صحيح مسلم ١ : ٥٨ . سنن ابن ماجة ١ : ٢٧ ، ◄

« ليس المسلم بسبّاب ، ولا لعّان ، ولا فاحش ، ولا بذيء »[١] ، وإنّنا عندما نناقش هذا الحديث فلا نبتغي إثبات عكسه ، ولا ندعو إلى مخالفة جوهره ، وإنّما فقط لمعرفة صدور مثل هذا القول من النبيّ أم لا .

نريد أوّلاً أن نعرف مع مَن كان النبيّ ﷺ يتحدّث عندما قال : « **لا تسبّوا أصحابي** .. » ، ولمَن كان يأمر ؟

أوَلَم يزعموا أنّ كلّ مَن رأى النبيّ أو سمعه أو كلّمه هو صحابيّ ؟

أوَلم يقل البخاري : « مَن صحب النبيّ ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه »[٢] .

ألا يعني هذا أنّ قول النبيّ لأصحابه : « **لا تسبّوا أصحابي** » لم يكن في محلّه ، حيث يفترض أن يكون هذا القول موجّهاً إلى غير الصحابة ، لدعم وتأكيد حرمة الصحابة ؟

كما أنّ أساس المفاضلة الذي تبنّته الرواية بين الصحابة وبين مَن أُمروا بعدم سبّهم هو أساس هشّ لا يعكس القيمة الحقيقيّة لصحابة النبيّ ، وذلك هو قوله : « **فلو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه** » ، وهذا غير لائق في مجال المقارنة؛ لأنّ قيمة الصحابة لم تكن وليدة الإنفاق ، وإنّما هي إحدى ثمار عملهم المتميّز وعلمهم وجهادهم في سبيل الله ، وقربهم من رسوله ، وقد كان مناسباً أن تعتمد المفاضلة على غير الذهب كأن يقول لهم : « فلو أنّ أحدكم قام الليل ، وصام النهار طوال عمره .. أو .. لو أنّكم جاهدتم في سبيل الله كلّ حياتكم .. أو .. لو قمتم بنشر الدين على نصف الأرض ، لما بلغتم مُدّ أحدهم ولا نصيفه » لكان في هذا

◆ الحديث ٦٩.

(١) مسند أحمد ١ : ٤٠٥ ، وفيه : « بطعّان » بدل « بسبّاب » .

(٢) صحيح البخاري ٤ : ١٨٨ .

القول ما يجعلهم متميّزين بالإيمان والعبادة والجهاد ، أمّا أن يكون الأمر مجرّد إنفاق جبل من ذهب فذلك ما لا يعطي للصحابة حقّهم من التقدير ، لأنه ليس أمراً مستحيلاً وقد يتسنّى لرجل ما ذلك ، ولكنّ المستحيل هو أن يستطيع ذلك الرجل الارتقاء إلى المستوى الإيمانيّ والروحيّ والعقائديّ للصحابة الأطهار.. وحيث أنّ النبيّ ﷺ هو سيّد الحكماء والبلغاء ، فإنّه لا يعقد مثل تلك المفاضلة ، وعلى ذلك فإنّ الحديث ليس من كلامه..

الشيطان لا يسلك فجّاً يسلكه عمر

٢ / ٥ / ١٠

بسنده عن سعد بن أبي وقّاص :

«أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ : إيهاً يابْنَ الْخَطّابِ ، وَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ ما لَقِيَكَ الشَّيْطانُ سالِكاً فَجّاً قَطُّ إلّا سَلَكَ فَجّاً غَيْرَ فَجِّكَ».

لقد ناقشنا في مكان آخر ما رواه البخاري من تعرّض الشيطان للنبيّ ﷺ ليقطع عليه صلاته ، كما نقلنا ما رواه عن النبيّ من طعن الشيطان في جنب كلّ الأنبياء عدا عيسى بن مريم ، وبذلك فإنّ رجلين فقط من بين جميع خلق الله قد عصمهما الله من الشيطان ، هما عيسى بن مريم وعمر بن الخطّاب ، أمّا رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء والرسل وجميع الخلق فقد تركهم الله عرضة لنزواته ، فراح يقطع عليهم صلاتهم ، ويتقافز أمامهم في كلّ فجّ سلكوه..

ألا تبّاً لقوم يهون عليهم الاعتقاد أنّ بإمكان الشيطان اعتراض صلاة نبيّهم المعصوم والطعن في جنبه عند ولادته.. ولا يهون عليهم مجرّد التصديق بأنّ الشيطان يستطيع سلوك فجّ يسلكه أحد أصحابه الذين ما شرّفهم إلّا صحبتهم له..

إنّ معنى ما يدّعوه هو أنّ عصمة عمر أعمّ وأشمل من عصمة النبيّ ﷺ ، وذلك تلفيق وكذب صريح لا تقوم به حجّة عند أضعف المسلمين عقلاً ومعرفة وإيماناً ،

ولو كان عمر حيّاً لأوجع ظهورهم بدرّته..

عزّة المسلمين مقرونة بإسلام عمر

٢ / ٥ / ٤٨

«ما زِلْنا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ».

ونحن إذ نحمد لأبي حفص مواقفه العظيمة التي تركت بصماتها على تاريخ الإسلام والمسلمين إلى يومنا هذا، ونؤمن أنّ في دخول أيّ رجل في دين الله في بداية الدعوة كان إعزازاً للدين واستجابة محمودة لله ولرسوله، وأنّ الإسلام ما قام لولا عظمة الرجال الذين آمنوا به وسعوا وجدّوا في نشره، وجاهدوا في سبيل إعلاء كلمته، فإنّنا لا نحمد لبعض الذين يحاولون إعطاء فكرة عن بعض الصحابة ما كانوا هم أنفسهم يعرفونها، ولا ادّعوها يوماً ولا احتجّوا بها في موقف أو حوار..

فعمر قد عاش في مجتمع مكّة كباقي الرجال، له ما له، وعليه ما عليه، تردّد كثيراً في قبول الإسلام حتّى أنّه لم يعتنقه إلّا بعد البعثة بأكثر من خمس سنين، شأنه شأن الكثيرين من العرب في مواجهة الدعوة إلى الدين الجديد.. على كلٍّ فقد شرح الله صدره للإيمان، وصحب النبيّ ﷺ حتّى مات، وأصبح وزيراً لأوّل خليفة للمسلمين، ثمّ أصبح ثاني خلفاء الإسلام، وقاد الدولة الإسلاميّة من نصر إلى نصر في فتوحاتها التي طبقت الآفاق..

وليس مهمّاً بعد ذلك تاريخه قبل الإسلام حتّى يأتينا مَن يحاول أن يضع له تاريخاً مزيّفاً من الأمجاد التي لا يحتاج إليها ولا تغيّر من مكانته شيئاً، فيدّعي ـ مثلاً ـ أنّ دخوله في الإسلام أعزّ الإسلام والمسلمين، وأنّهم ما زالوا أعزّة منذ أسلم.. وهذا كلام لا تؤيّده الحقائق المعروفة ولا الوقائع التي حفظها لنا التاريخ..

فأيّ عزّة تلك التي يتحدّثون عنها، وهؤلاء هم المسلمون الأوائل يستترون

بالظلام ويهربون إلى المدينة المنوّرة للنجاة بأرواحهم ، ثمّ يلحق بهم النبيّ ﷺ مطارداً يختبئ في مغاور الجبال ؟

وأي عزّة يدّعونها وقد تركوا العيال والذراري والأوطان خوفاً من أذى المشركين وبطشهم ؟

أوَلم يُسلم عمر قبل الهجرة ؟ فإذا كان إسلامه قد أعزّهم فلِمَ هاجروا ؟ !

أليست العزّة هي حصيلة طبيعيّة للقوّة والمنعة والشجاعة أو الارتكان إلى العشيرة والنفوذ ؟ !

فأمّا عن القوّة والشجاعة ، فإنّ التاريخ لم يخبرنا أنّ عمر كان من خوّاض غمار المعارك والحروب ، ولم نسمع أنّه قارع الأبطال أو جندل الصناديد ، اللّهمّ إلّا ما ظهر من استعماله لدرّته في ضرب الصحابة والمسلمين أيّام خلافته..

وأمّا عن العشيرة والنفوذ ، فلم نعرف لبني عدي نفوذاً أو مَنَعَة أكبر من نفوذ ومنعة بني هاشم..

إنّ عزّة الإسلام والمسلمين إنّما كانت برعاية الله لدينه ونصرته لنبيّه ، وبتضحيات رسوله ، وتحمّله الأذى ، وصبره أمام الخطوب والدواهي ، وبمؤازرة أهله من بني هاشم الذين ذاقوا معه أشدّ العذاب وهم محاصرون في شِعب أبي طالب ، وبسيف عليّ الذي أهان صناديدهم ، وفضح شجعانهم ، فأصبح بذلك مثار سخط الظالمين على امتداد العصور ، وبجهاد صحابته النجباء الأتقياء الذين افتدوه بأرواحهم في الملمّات..

وإذا لم تجد في هذا الكلام ما يقنعك فاستمع إذن إلى واقعة إسلام عمر كما رواها حفيده زيد بن عبدالله بن عمر ، نقلاً عن أبيه ، وقد أوردها البخاري في صحيحه ، فقال : « بينما هو ـ عمر ـ في الدار خائفاً ، إذ جاءه العاص بن وائل السهمي أبو عمرو ، عليه حلّة حبرة وقميص مكفوف بحرير ، وهو من بني سهم ، وهم حلفاؤنا

في الجاهليّة ، فقال له : ما بالك ؟

قال : زعم قومك أنّهم سيقتلوني إن أسلمت .

قال : لا سبيل إليك ، بعد أن قالها أمنت .

فخرج العاص فلقي الناس قد سال بهم الوادي فقال : أين تريدون ؟

فقالوا : نريد هذا ابن الخطّاب الذي صبأ .

قال : لا سبيل إليه ، فكرّ الناس »[١] .

كما ورد في رواية ثانية عن عمرو بن دينار ، عن عبدالله بن عمر ما نصّه :

« لمّا أسلم عمر اجتمع الناس عند داره وقالوا : صبأ عمر ، وأنا غلام فوق ظهر بيتي ، فجاء رجل عليه قباء من ديباج ، فقال : قد صبأ عمر ، فما ذاك ؟ فأنا جار له ، فرأيت الناس تصدّعوا عنه ، فقلت : مَن هذا ؟ قالوا : العاص بن وائل »[٢] .

فهل بعد هذا لقائل أن يقول : « ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر » ، وقد رأينا عمر كان خائفاً وبحاجة إلى مَن يحميه بعد دخوله في الإسلام ، ولم يخرج من بيته إلّا بعد أن أجاره العاص بن وائل !

ونضيف لك رواية اُخرى وردت كذلك في « صحيح البخاري » لتعرف هل كان لإسلام عمر فعلاً تلك الأهمّيّة أو ذلك الخطر ليكون فيه عزّة للإسلام ، فقد روى البخاري عن صخر ، عن نافع قوله :

« إنّ الناس يتحدّثون أنّ ابن عمر أسلم قبل عمر ، وليس كذلك ، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبدالله إلى فرس له عند رجل من الأنصار يأتي به ليقاتل عليه ، ورسول الله ﷺ يُبايع عند الشجرة ، وعمر لا يدري بذلك ، فبايعه عبدالله ، ثمّ ذهب

---

(١) صحيح البخاري ٤ : ٢٤٢.

(٢) صحيح البخاري ٤ : ٢٤٤.

إلى الفرس فجاء به إلى عمر، وعمر يستلئم للقتال (!) فأخبره أنّ رسول الله ﷺ يُبايع تحت الشجرة، فانطلق فذهب معه حتّى بايع رسول الله، فهي التي يتحدّث الناس أنّ ابن عمر أسلم قبل عمر»(١).

ومن هذه الرواية نلمس أنّ إسلامه لم يكن ذلك الحدث الجلل الذي تدور به الألسن وتتحدّث به المجالس، بل أنّ الناس لا تدري متى أسلم، وهل أسلم قبل ابنه أم ابنه أسلم قبله.. وفي هذا كفاية..

أبو بكر أخو النبيّ

٣ / ٧ / ٥

بسنده عن عروة، قال:

«إنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ عائِشَةَ إلىٰ أَبِي بَكْر فَقالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّما أَنا أَخُوكَ. فَقالَ: أَنْتَ أَخِي في دِينِ اللهِ وَكِتابِهِ، وَهِيَ لي حَلالٌ».

كان الهدف من هذه الرواية تثبيت اخوّة النبيّ لأبي بكر أيضاً وتوثيقها من خلال نصّ يحفظه المسلمون، ولكنّ الراوي أخطأ في اختيار الموضوع، وقد كان قادراً على تفادي هذا الخطأ لو أنّه جعل الأمور تأخذ مجرى طبيعيّاً فيجعل اختيار النبيّ لعائشة زوجة له لكونها ابنة صاحبه وأخيه في الدين وفي كتاب الله فيكون ذلك مقبولاً ولا غبار عليه، ولكنّه أخطأ عندما أظهر أبا بكر رافضاً أو متردّداً في القبول على أساس أنّ النبيّ أخوه فلا تحلّ ابنته له، فيردّ النبيّ: أنت أخي في الدين، وإنّها تحلُّ لي. فأصبح ما أراده الراوي فضلاً لأبي بكر وثناءً عليه، إساءة صارخة له، لأنّه أظهره (وحاشاه) جاهلاً بالأحكام الشرعيّة المتعلّقة بالزواج، وما يحلّ وما لا يحلّ منه، فأبو بكر يعلم أنّه ليس أخاً للنبيّ لا بالنسب ولا بالرضاعة، ومن المستحيل أن

---

(١) صحيح البخاري ٥: ٦٩.

يعتقد أنّ ابنته لا تحلّ للنبيّ ، سيّما وأنّ أحكام الزواج كانت حينها مشرّعة ، ولو كانت لا تحلّ له لما طلبها أصلاً ، فكيف يفوت على أبي بكر مثل هذا الأمر..

غيرة سعد بن عبادة

٣ / ٧ / ٣٥

بسنده عن المغيرة بن شعبة ، قال :

« قالَ سَعْدُ بْنُ عُبادَةَ : لَوْ رَأَيْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأَتي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفِحٍ . فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَتَعْجَبونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ ، لَأَنا أَغْيَرُ مِنْهُ ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنّي » .

لقد وقع المغيرة وهو يضع هذا الحديث في نفس الخطأ الذي وقع فيه أبو هريرة وهو يضع حديث الشفاعة ، فتصوّر أنّ غضب الله جلّ شأنه هو كغضب البشر ، بمعنى الانفعال والثورة والخروج عن الطور ، وهو أمر لا يجوز تصوّره عن الباري عزّ وجلّ ، حيث أنّ المقصود بغضب الله هو عقابه وانتقامه والخروج عن رحمته ، وكلّ ما يدخل ضمن هذا المعنى .

والآن يدّعي المغيرة أنّ النبيّ أغير من سعد ، وأنّ الله أغير من النبيّ ، فصاغ حديثه على أساس تصوّره أنّ لله غيرة من جنس غيرة البشر ، لكنّها أشدّ منها وأعظم .. وهذا أيضاً ممّا لا يجوز تصوّره عن الذات الإلٰهيّة؛ لأنّ جميع المعاني التي تندرج تحت أيٍّ من تسميات الصفات البشريّة لا يمكن إطلاقها كصفات لله تعالى ، لتفرّده في الصفات ليس من ناحية الكمّ والحجم ، وإنّما من حيث النوع والماهيّة ..

عمر وحجاب نساء النبيّ

١ / ١ / ٣٧

بسنده عن عائشة ، أنّها قالت :

« إِنَّ أَزْواجَ النَّبِيِّ ﷺ كُنَّ يَخْرُجْنَ بِاللَّيْلِ إِذا تَبَرَّزْنَ إِلَى الْمَناصِعِ ، وَهُوَ صَعيدٌ أَفْيَحُ ،

فَكانَ عُمَرُ يَقُولُ لِلنَّبِيِّ ﷺ : احْجُبْ نِساءَكَ ، فَلَمْ يَكُنْ رَسولُ اللهِ ﷺ يَفْعَلُ ، فَخَرَجَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً مِنَ اللَّيالي عِشاءً ، وَكانَتِ امْرَأَةً طَويلَةً ، فَناداها عُمَرُ : أَلا قَدْ عَرَفْناكِ يا سَوْدَةُ ، حِرْصاً عَلىٰ أَنْ يَنْزِلَ الْحِجابُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ الْحِجابِ » .

١ ـ لقد أكثر البخاريّ من نقل أمثال هذه الرواية ، وأعرضنا عن الكثير منها احتراماً لأُمّهات المؤمنين وصوناً لكرامتهنّ من تداول شؤونهنّ بهذا الشكل ، فهل فعلاً كنّ يخرجن من بيوتهنّ ليلاً لقضاء حاجتهنّ في مكانٍ منعزل ؟ وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لزوجات النبيّ فما حال بقيّة نساء المسلمين ، هل كنّ جميعهنّ يخرجن من بيوتهنّ لهذا الغرض ؟ ألم يعرف مجتمع المدينة حلاًّ لهذا الأمر ؟ ثمّ إلى أين سيذهبن إذا اقتضت الضرورة خروجهنّ نهاراً لقضاء تلك الحاجة ؟

٢ ـ إذا كنّ مضطرّات للخروج ولم يضع لهنّ الرجال الحلّ المناسب لهذه المشكلة ، فما بال عمر يترصّدهنّ وينشغل بمتابعتهنّ دون سائر المسلمين ، وكان واجبه الشرعيّ كبقيّة الرجال أن يغضّ بصره وحسب ؟

٣ ـ إنّ هدف الرواية هو التدليل على عفّة عمر وحرصه ، وهذا ما لا نشكّ فيه ، ولكنّ جهالة الراوي جعلتها مسيئة للنبيّ ﷺ وزوجاته وعمر نفسه .. وسنوضّح :

■ أظهرت الرواية النبيّ ﷺ رجلاً ضعيفاً يتجرّأ عليه أصحابه ويأمره أحدهم بقوله : « احجب نساءك ، وهو لا يفعل » ، فلاحظ قوّة هذه العبارة الآمريّة التي تظهر بوضوح قوّة عمر وضعف النبيّ ﷺ أمامه .

■ ظهر أنّ عمر كان أحرص من النبيّ على حجاب زوجاته ، ولم نفهم الحكمة في تجاهل النبيّ لأمره ، أهو العجز عن إلزام زوجاته بالحجاب ؟ أو هو تساهله في أمر حجابهنّ ؟ أم هو إعراض عن متطفّل ؟

■ هل كان لائقاً بعمر أن يتعقّب زوجة النبيّ ليلاً ويصيح من خلفها : « عرفناك يا سودة ؟ » فهل كانت متهتّكة ـ حاشاها ـ وغير مبالية بحجابها حتّى يبذل عمر كلّ هذا

الجهد في مراقبتها وتوجيهها ؟ وهل فكّر في أمر الضرورة التي خرجت لها وهي قد تنثني راجعة بعد أن فضحها ؟

٤ ـ ظهر في أكثر من مناسبة توقّف نزول الوحي على صدور موقف أو رأي لعمر، وسنناقش هذا الأمر في مكان آخر.

٥ ـ لنتلو الآن هذه الرواية التي ننقلها من « صحيح البخاري » لنقف على مدى حرص النبيّ ﷺ على حرمة بيته وحجاب زوجاته، وانتباهه الشديد والدقيق لهذا الجانب، وبما يتلاءم مع قناعاته هو وما يؤمن به من تشريعات لا يحتاج معها إلى آمرٍ أو ناصح.. قالت عائشة:

«كان عتبة بن أبي وقّاص (قد) عهد إلى أخيه سعد بن أبي وقّاص: إنّ ابن وليدة زمعة منّي، فاقبضه إليك، فلمّا كان عام الفتح أخذه سعد فقال: ابن أخي، قد كان عهد إليّ فيه.

فقام عبد بن زمعة فقال: أخي وابن أمَةِ أبي وُلِدَ على فراشه. فتساوقا إلى رسول الله ﷺ، فقال سعد: يا رسول الله، ابن أخي كان عَهَدَ إليّ فيه.

فقال عبد بن زمعة: أخي وابن وليدة أبي.

فقال رسول الله ﷺ: **هو لك يا عبد بن زمعة، الولد للفراش وللعاهر الحجر**.

ثمّ قال لسودة بنت زمعة: **احتجبي منه**، لما رأى من شبهه بعتبة، فما رآها حتّى لقي الله »[1].

فهل ترى كم كان النبيّ ﷺ حريصاً ودقيقاً في حجاب نسائه ؟ فقد حكم بالولد إلى عبد بن زمعة وهو حكم الشرع، فأصبح بذلك أخاً لزوجة النبيّ سودة بنت زمعة، ولكنّه عندما وجد شبهاً بين الولد وبين عتبة بن أبي وقّاص أمر زوجته أن تحتجب

---

(١) صحيح البخاري ٣: ١٢٠ و ٥: ٩٦.

منه لحصول الشبهة بأنّه قد لا يكون ولداً لأبيها ، فما رآها حتّى مات .

إننا نستغفر الله تعالى ، ونعتذر إلى نبيّه الكريم لاستدلالنا على سجاياه بالروايات ، مع أنّ الحقّ هو أن نستدلّ على صحّة الرواية من كذبها بما نعرفه وما ينبغي أن نعرفه من سجاياه الكريمة وشمائله العظيمة . .

الصحبة تحقّق النصر دون قتال

٢ / ٤ / ٣٧

بسنده عن أبي سعيد الخدري :

« أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ : يَأْتِي زَمانٌ يَغْزو فِئامٌ مِنَ النّاسِ فَيُقالُ : فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ ، فَيُقالُ ﷺ : نَعَمْ ، فَيُفْتَحُ عَلَيْهِ .

ثُمَّ يَأْتِي زَمانٌ فَيُقالُ : فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ أَصْحابَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَيُقالُ : نَعَمْ ، فَيُفْتَحُ .

ثُمَّ يَأْتِي زَمانٌ فَيُقالُ : فيكُمْ مَنْ صَحِبَ صاحِبَ أَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَيُقالُ : نَعَمْ ، فَيُفْتَحُ » .

وهكذا نرى أنّ النبيّ ﷺ قد بشّر بزمانٍ يغزو فيه المسلمون الديار فيكون مجرّد وجود رجل من أصحابه ، أو من أصحاب أصحابه ، أو من أصحاب أصحاب أصحابه سبباً في فتح الديار لهم دون حرب أو قتال ! !

وسؤالنا هو : إذا كان أهل الديار التي سيقوم المسلمون بغزوها يقدّسون أصحاب أصحاب أصحاب النبيّ ، فهذا يعني أنّهم مسلمون ، فما وجه غزوهم إذن ؟

ثمّ إنّنا قد علمنا أنّ أصحاب النبيّ والجيلين اللاحقين وعشرات الأجيال بعدهم قد فنوا ولم يحدث ما نصّ عليه الحديث ، وهذا ما دفعنا إلى الطعن بصحّته ؛ لأنّ النبيّ ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى ، فلو كان قد قاله حقّاً لوقعت مصاديقه فعلاً . .

هيبة عمر أكبر من هيبة النبيّ

٢ / ٤ / ١٢٦

بسنده عن سعد بن أبي وقّاص، قال:

«اسْتَأْذَنَ عُمَرُ عَلىٰ رَسولِ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ نِساءٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُكَلِّمْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَهُ، عالِيَةً أَصْواتُهُنَّ، فَلَمّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ قُمْنَ يَبْتَدِرْنَ الْحِجابَ، فَأَذِنَ لَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ وَرَسولُ اللهِ يَضْحَكُ، فَقالَ عُمَرُ: أَضْحَكَ اللهُ سِنَّكَ يا رَسولَ اللهِ.

قالَ: عَجِبْتُ مِنْ هٰؤلاءِ اللاتي كُنَّ عِنْدي، فَلَمّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الْحِجابَ.

قالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ يا رَسولَ اللهِ كُنْتَ أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ.

ثُمَّ قالَ: أَيْ عَدُوّاتِ أَنْفُسِهِنَّ، أَتَهَبْنَنِي وَلَا تَهَبْنَ رَسولَ اللهِ؟

قُلْنَ: نَعَمْ، أَنْتَ أَفَظُّ وَأَغْلَظُ مِنْ رَسولِ اللهِ.

قالَ رَسولُ اللهِ: وَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ، ما لَقِيَكَ الشَّيْطانُ قَطُّ سالِكاً فَجّاً إِلّا سَلَكَ فَجّاً غَيْرَ فَجِّكَ».

دعونا نتصوّر الوضعيّة التي كان عليها النسوة وهنّ جالسات عند النبيّ ﷺ قبل مجيء عمر، هل كنّ متبرّجات، أو كنّ على هيئة تثير الاعتراض وتستدعي التغيير بحضور عمر؟ ومهما كان ذلك الوضع فإنّ الرواية أوحت بأنّه لم يكن طبيعيّاً.. فكيف إذن سمح به النبيّ وارتضاه؟

وإذا كانت الرواية قد علّقت مبادرة النساء إلى الحجاب حال حضور عمر بالهيبة، وبرّرته بقول النسوة: «أنت أفظّ وأغلظ»، فهذا ربط غير موفّق، لأنّ الفضاضة والغلظة تستدعيان الخوف والرهبة وليس الهيبة، ولا يشكّ أحد بما كان لرسول الله من هيبة في قلوب الناس لم تكن لعمر أو لغيره من الصحابة..

إنّ استحضار النسوة لقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا**

مِن حَوْلِكَ﴾[1] في أذهانهنّ عندما قلن : « أنت أفظّ وأغلظ » مستخدمات نفس لفظ وترادف الآية ، أمر نشكّ فيه ، بل نرفضه . ونعتقد بأنّ الحديث قد وُضع برمّته لغرض إيراد هاتين اللفظتين وربطهما بـ(الهيبة) ردّاً على ما شاع بأنّ هذه الآية قد نزلت في عمر ، فأُريد من الرواية جعل تلك الفضاضة والغلظة صفات لعمر يستخدمها في محلّها المباح شرعاً وفي مرضاة الله ، وليستا طبعاً فيه ، أو ميزة لخُلقه . .

وحتّى لو افترضنا صحّة ذلك ، فإنّنا سنتساءل عن حجم دور النبيّ في حياة الصحابة ، ولماذا لم يحقّق لهنّ وجودهنّ معه الأمان من فضاضة وغلظة عمر ؟ فإنّ من جلس مع الملك لا يخشى الوزير ، فكيف به وهو جالس مع رسول الله ، والذي حضر ما هو إلّا رجل من أصحابه ؟ إلّا إذا قلنا إنّهنّ كنّ يعرفنّ أنّ وجودهنّ مع النبيّ لن يحميهنّ ممّا قد يحدث !

وهذا ما لا نراه ، لأنّ أبا حفص لم يكن ليخرق حرمة رسول الله ، ولا يتجاوز حدوده في مجلسه . .

أمّا بقيّة الحديث فقد ناقشناه في مكان آخر . .

---

(١) آل عمران ٣ : ١٥٩.

صلاة أبي بكر بالناس في مرض النبيّ ﷺ

الأحاديث:

[الصورة الأولى:]

١ / ١ / ١٣٠ بسنده عن عائشة، قالت:

«لَمّا مَرِضَ رَسولُ اللهِ ﷺ مَرَضَهُ الَّذي ماتَ فيهِ فَحَضَرَتِ الصَّلاةُ، فَأَذَّنَ، فَقالَ: مُرُوا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنّاسِ.

فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ أَبا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ إِذا قامَ في مَقامِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنّاسِ، وَأَعادَ فَأَعادُوا لَهُ، فَأَعادَ الثّالِثَةَ.

فَقالَ: إِنَّكُنَّ صَواحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنّاسِ، فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ فَصَلّىٰ.

فَوَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً فَخَرَجَ يُهادىٰ بَيْنَ رَجُلَيْنِ، كَأَنّي أَنْظُرُ رِجْلَيْهِ تَخُطّانِ مِنَ الْوَجَعِ، فَأَرادَ أَبو بَكْرٍ أَنْ يَتَأَخَّرَ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ أَنْ مَكانَكَ، ثُمَّ أُتِيَ بِهِ حَتّىٰ جَلَسَ إِلىٰ جَنْبِهِ.

قِيلَ لِلْأَعْمَشِ: وَكانَ النَّبِيُّ يُصَلِّي وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِصَلاتِهِ، وَالنّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاةِ أَبي بَكْرٍ؟

فَقالَ ـ بِرَأْسِهِ ـ: نَعَمْ».

[الصورة الثانية:]

١ / ١ / ١٣٢ بسنده عن أبي موسى الأشعريّ، قال:

«مَرِضَ النَّبِيُّ ﷺ فَاشْتَدَّ مَرَضُهُ، فَقالَ: مُرُوا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنّاسِ.

قالَتْ عائِشَةُ: إنَّهُ رَجُلٌ رَقيقٌ إذا قامَ مَقامَكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يُصَلِّيَ بِالنّاسِ.

قالَ: مُرُوا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنّاسِ، فَعادَتْ.

فَقالَ: مُري أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنّاسِ، فَإِنَّكُنَّ صَواحِبُ يُوسُفَ، فَأَتاهُ الرَّسولُ فَصَلّىٰ بِالنّاسِ في حَياةِ النَّبِيِّ ﷺ».

[الصورة الثالثة:]

١ / ١ / ١٣٢ بسنده عن عروة، عن عائشة، قالت:

«إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ في مَرَضِهِ: مُرُوا أَبا بَكْرٍ يُصَلّي بِالنّاسِ.

قالَتْ عائِشَةُ: قُلْتُ: إنَّ أَبا بَكْرٍ إذا قامَ في مَقامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النّاسَ مِنَ الْبُكاءِ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ بِالنّاسِ.

فَقالَتْ عائِشَةُ: فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ: قُولي لَهُ إنَّ أَبا بَكْرٍ إذا قامَ في مَقامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النّاسَ مِنَ الْبُكاءِ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ بِالنّاسِ، فَفَعَلَتْ حَفْصَةُ.

فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: مَهْ إنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَواحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنّاسِ.

فَقالَتْ حَفْصَةُ لِعائِشَةَ: ما كُنْتُ لأُصِيبَ مِنْكِ خَيْراً».

[الصورة الرابعة:]

١ / ١ / ١٣٣ بسنده عن أنس بن مالك، قال:

«إنَّ أَبا بَكْرٍ كانَ يُصَلّي لَهُمْ في وَجَعِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذي تُوفِّيَ فِيهِ، حَتّىٰ إذا كانَ يَوْمُ الاثْنَيْنِ وَهُمْ صُفُوفٌ في الصَّلاةِ، فَكَشَفَ النَّبِيُّ ﷺ سِتْرَ الْحُجْرَةِ يَنْظُرُ إلَيْنا وَهُوَ قائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ، ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ، فَهَمَمْنا أنْ نَفْتَتِنَ مِنَ الْفَرَحِ بِرُؤْيَةِ النَّبِيِّ، فَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلىٰ عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ وَظَنَّ أنَّ النَّبِيَّ خارِجٌ إلَى الصَّلاةِ، فَأَشارَ إلَيْنا النَّبِيُّ ﷺ أنْ أَتِمُّوا صَلاتَكُمْ، وَأَرْخَى السِّتْرَ، فَتُوفِّيَ مِنْ يَوْمِهِ».

[الصورة الخامسة:]

١ / ١ / ١٣٣ بسنده عن أنس بن مالك، قال:

«لَمْ يَخْرُجِ النَّبِيُّ ﷺ ثَلاثاً، فَأُقِيمَتِ الصَّلاةُ، فَذَهَبَ أبو بَكْرٍ يَتَقَدَّمُ، فَقامَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْحِجابِ فَرَفَعَهُ، فَلَمّا وَضَحَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ ما نَظَرْنا مَنْظَراً كانَ أَعْجَبَ إِلَيْنا مِنْ وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ وَضَحَ لَنا، فَأَوْمأَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ إِلىٰ أَبِي بَكْرٍ أَنْ يَتَقَدَّمَ وَأَرْخَى النَّبِيُّ الْحِجابَ، فَلَمْ يُقْدَرْ عَلَيْهِ حَتّىٰ ماتَ».

[الصورة السادسة:]

١ / ١ / ١٣٣ بسنده عن حمزة بن عبدالله، عن أبيه، قال:

«لَمّا اشْتَدَّ بِرَسولِ اللهِ ﷺ وَجَعُهُ قِيلَ لَهُ في الصَّلاةِ، فَقالَ: مُرُوا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنّاسِ.

قالَتْ عائِشَةُ: إِنَّ أَبا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقيقٌ إِذا قَرَأَ غَلَبَهُ الْبُكاءُ.

قالَ: مُرُوهُ فَيُصَلِّي، فَعاوَدَتْهُ.

قالَ: مُرُوهُ فَيُصَلِّي، إِنَّكُنَّ صَواحِبُ يُوسُفَ».

[الصورة السابعة:]

١ / ١ / ١٣٣ بسنده عن عروة، عن عائشة، قالت:

«أَمَرَ رَسولُ اللهِ ﷺ أَبا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنّاسِ في مَرَضِهِ، فَكانَ يُصَلِّي بِهِمْ.

قالَ عُرْوَةُ: فَوَجَدَ رَسولُ اللهِ ﷺ في نَفْسِهِ خِفَّةً فَخَرَجَ، فَإِذا أَبُو بَكْرٍ يَؤُمُّ النّاسَ، فَلَمّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ اسْتَأْخَرَ، فَأَشارَ إِلَيْهِ أَنْ كَما أَنْتَ، فَجَلَسَ رَسولُ اللهِ حِذاءَ أَبِي بَكْرٍ إِلىٰ جَنْبِهِ، فَكانَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِصَلاةِ رَسولِ اللهِ ﷺ، وَالنّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاةِ أَبِي بَكْرٍ».

[الصورة الثامنة:]

١ / ١ / ١٣٤ باب (إنّما جُعِلَ الإمامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ) قال:

«وَصَلَّى النَّبِيُّ ﷺ في مَرَضِهِ الَّذي تُوُفِّيَ فِيهِ بِالنّاسِ وَهُوَ جالِسٌ».

[الصورة التاسعة:]

١ / ١ / ١٣٥ بسنده عن عبيدالله بن عتبة، قال:

«دَخَلْتُ عَلىٰ عائِشَةَ فَقُلْتُ: أَلا تُحَدِّثِيني عَنْ مَرَضِ رَسولِ اللهِ ﷺ؟

قالَتْ: بَلىٰ، ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ فَقالَ: أَصَلّىٰ النّاسُ؟

قُلْنا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ.

قالَ: ضَعُوا لي ماءً في الْمِخْضَبِ.

قالَتْ: فَفَعَلْنا، فَاغْتَسَلَ فَذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ.

ثُمَّ أَفاقَ، فَقالَ ﷺ: أَصَلّىٰ النّاسُ؟

قُلْنا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يا رَسولَ اللهِ.

قالَ: ضَعُوا لي ماءً في الْمِخْضَبِ.

قالَتْ: فَقَعَدَ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ.

ثُمَّ أَفاقَ فَقالَ: أَصَلّىٰ النّاسُ؟

قُلْنا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يا رَسولَ اللهِ.

قالَ: ضَعُوا لي ماءً في الْمِخْضَبِ، فَقَعَدَ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ.

ثُمَّ أَفاقَ فَقالَ: أَصَلّىٰ النّاسُ؟

قُلْنا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يا رَسولَ اللهِ، وَالنّاسُ عُكُوفٌ في الْمَسْجِدِ يَنْتَظِرُونَ النَّبِيَّ

لِصَلاةِ الْعِشاءِ الآخِرَةِ.

فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلىٰ أَبي بَكْرٍ بِأَنْ يُصَلِّيَ بِالنّاسِ.

فَأَتاهُ الرَّسولُ فَقالَ: إِنَّ رَسولَ اللهِ يَأْمُرُكَ أَنْ تُصَلِّيَ بِالنّاسِ.

فَقالَ أَبو بَكْرٍ ـ وَكانَ رَجُلاً رَقيقاً ـ: يا عُمَرُ، صَلِّ بِالنّاسِ.

فَقالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ أَحَقُّ بِذٰلِكَ.

فَصَلّىٰ أَبو بَكْرٍ تِلْكَ الأَيّامِ.

ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً، فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما الْعَبّاسُ لِصَلاةِ الظُّهْرِ وَأَبو بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنّاسِ، فَلَمّا رَآهُ أَبو بَكْرٍ ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ بِأَنْ لا يَتَأَخَّرَ.

قالَ: أَجْلِساني إِلىٰ جَنْبِهِ، فَأَجْلَساهُ إِلىٰ جَنْبِ أَبي بَكْرٍ.

قالَ: فَجَعَلَ أَبو بَكْرٍ يُصَلِّي وَهُوَ يَأْتَمُّ بِصَلاةِ النَّبِيِّ، وَالنّاسُ بِصَلاةِ أَبي بَكْرٍ، وَالنَّبِيُّ قاعِدٌ.

قالَ عُبَيْدُاللهِ: فَدَخَلْتُ عَلىٰ عَبْدِاللهِ بْنَ عَبّاسٍ فَقُلْتُ لَهُ: أَلا أَعْرِضُ عَلَيْكَ ما حَدَّثَتْني عائِشَةُ عَنْ مَرَضِ النَّبِيِّ؟

قالَ: هاتِ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَديثَها، فَما أَنْكَرَ مِنْهُ شَيْئاً غَيْرَ أَنَّهُ قالَ: أَسَمَّتْ لَكَ الرَّجُلَ الَّذي كانَ مَعَ الْعَبّاسِ؟

قُلْتُ: لا.

قالَ: هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبي طالِبٍ رضي الله عنه».

[الصورة العاشرة:]

<u>١ / ١ / ١٤٠</u> بسنده عن الأسود، عن عائشة، قالت:

«لَمّا مَرِضَ النَّبِيُّ ﷺ مَرَضَهُ الَّذي ماتَ فِيهِ أَتاهُ بِلالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلاةِ.

فَقالَ: مُرُوا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ.

قُلْتُ: إِنَّ أَبا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ إِنْ يَقُمْ مَقامَكَ يَبْكي فَلا يَقْدِرُ عَلَى الْقِراءَةِ.

فَقالَ: مُرُوا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ.

فَقُلْتُ مِثْلَهُ.

فَقالَ في الثّالِثَةِ أَوْ الرّابِعَةِ: إِنَّكُنَّ صَواحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ، فَصَلّىٰ وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ يُهادىٰ بَيْنَ رَجُلَيْنِ كَأَنّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَخُطُّ بِرِجْلَيْهِ الْأَرْضَ، فَلَمّا رآهُ أَبو بَكْرٍ ذَهَبَ يَتَأَخَّرُ، فَأَشارَ إِلَيْهِ أَنْ صَلِّ، فَتَأَخَّرَ أَبو بَكْرٍ ﷺ وَقَعَدَ النَّبِيُّ إِلىٰ جَنْبِهِ وَأَبو بَكْرٍ يُسْمِعُ النّاسَ التَّكْبيرَ».

[أمّا الصورة الفصل فقد وردت:]

٣ / ٧ / ١٢٧ بسنده عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة، عن عائشة، قالت:

«لَمّا ثَقُلَ رَسولُ اللهِ ﷺ وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ اسْتَأْذَنَ أَزْواجَهُ أَنْ يُمَرَّضَ في بَيْتي، فَأَذِنَّ لَهُ، فَخَرَجَ وَهُوَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، تَخُطُّ رِجْلاهُ في الْأَرْضِ، بَيْنَ عَبّاسِ بْنِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ وَبَيْنَ رَجُلٍ آخَرَ.

قالَ عُبَيْدُاللهِ: فَأَخْبَرْتُ عَبْدَاللهِ بِالَّذي قالَتْ عائِشَةُ.

فَقالَ لي عَبْدُاللهِ بْنُ عَبّاس: هَلْ تَدْري مَنِ الرَّجُلُ الْآخَرُ الَّذي لَمْ تُسَمِّ عائِشَةُ؟

قالَ: قُلْتُ: لا.

قال ابْنُ عَبّاسٍ: هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبي طالِبٍ، وَكانَتْ عائِشَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ تُحَدِّثُ أَنَّ رَسولَ اللهِ لَمّا دَخَلَ بَيْتي وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ، قالَ: هَرِيقُوا عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُنَّ

لَعَلّي أَعْهَدُ إِلَى النّاسِ ، فَأَجْلَسْناهُ في مِخْضَبٍ لِحَفْصَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ، ثُمَّ طَفِقْنا نَصُبُّ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْقِرَبِ حَتّى طَفِقَ يُشِيرُ إِلَيْنا بِيَدِهِ أَنْ قَدْ فَعَلْتُنَّ.

قالَتْ : ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النّاسِ فَصَلّىٰ بِهِمْ وَخَطَبَهُمْ» .

٣ / ٧ / ١١٨

بسنده عن الحميدي ، قال :

«آخِرَ ما صَلّىٰ ـ النَّبِيُّ ﷺ ـ **صَلّىٰ قاعِداً وَالنّاسُ خَلْفَهُ قِيامٌ»** .

١ / ١ / ١٣٣

بسنده عن عائشة :

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : مَنْ دَخَلَ لِيَؤُمَّ النّاسَ ، فَجاءَ الْإِمامُ الْأَوَّلُ فَتَأَخَّرَ الْأَوَّلُ ، أَوْ لَمْ يَتَأَخَّرْ ، جازَتْ صَلاتُهُ» .

المناقشة :

قبل مناقشة هذه الروايات ، ليفهم من يقرأ هذه السطور أنّنا لسنا بصدد التعرّض لشخص الخليفة أبي بكر ، ولا التقليل من شأنه الرفيع ، فذلك أمر نتبرّأ منه لأنّنا نرى في الخليفة صاحباً لرسول الله وخليفة له على المسلمين ، وكذلك بالنسبة لجميع الصحابة الكرام ، وأنّ كلّ ما يعنينا هو النظر في مصداقيّة روايات « صحيح البخاري » المنسوبة إلى رسول الله ﷺ ، وبذلك تكون مناقشتها هي مناقشة لرواتها وناقليها ، وليس للصحابة الأجلّاء الذين قد ترد أسماؤهم ضمن تلك الروايات .. فقد عرفنا في الفصل الأوّل من البحث أنّ أغلب هذه الأحاديث والروايات كانت من نتاج الفترة التي ابتدأت بحكم معاوية حين بدأت عائشة وأبو هريرة وأنس وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عمرو بن العاص وغيرهم يتحدّثون بعد أن كان الخلفاء الراشدون قد منعوهم من الحديث ، ولولا بعض الإشارات والقرائن هنا وهناك لشككنا حتّى

في صحّة صدور أكثر تلك الأحاديث عن السيّدة أُمّ المؤمنين عائشة.

وعلى كلّ حال، فإنّنا نتقرّب إلى الله بمحبّة أصحاب رسول الله واحترامهم والاقتداء بالصالح من أعمالهم، سيّما زوجاته أُمّهات المؤمنين اللاتي نعتقد أنّ في المحافظة على حرمتهنّ وكرامتهنّ حفظاً لحرمة وكرامة رسول الله ﷺ..

التهافت في الروايات

إنّ أبرز ما لاحظناه في هذه الروايات تهافتها وتعارض بعضها مع بعض:

١ ـ في كيفيّة صدور الأمر لأبي بكر بإقامة تلك الصلاة

ففي بعضها: أنّ النبيّ ﷺ قال: « **مروا أبا بكر** »، وكرّر ذلك.

وفي بعضها: « أنّ أبا بكر كان يصلّي بالناس أصلاً في وجع النبيّ ».

وفي البعض الآخر: « أنّ رسول الله أمر أبا بكر مباشرة بذلك ».

٢ ـ في وقت صدور الأمر

فقد ورد مرّة: « أنّ الصلاة كانت مقامة وأبو بكر في الصفّ، وأنّ النبيّ أشار له بالتقدّم ».

وورد في أُخرى: أنّهم آذنوا النبيّ بحضور وقت الصلاة، فقال: مروا أبا بكر ».

وفي الثالثة: « أنّه ﷺ لم يقلها إلّا بعد أن حاول الخروج ثلاث مرّات، وكان يغمى عليه، فقالها مضطرّاً ».

٣ ـ في مكان النبيّ بعد إقامة الصلاة

نصّت رواية: على أنّه ﷺ كان ينظر إلى المصلّين من وراء الحجاب.

ونصّت الأُخرى على أنّه خرج إليهم يحمله رجلان وتخطّ رجلاه الأرض حتّى أجلساه إلى جانب أبي بكر..

٤ ـ في كيفيّة أداء أبي بكر للصلاة

فمرّة قالوا: إنّ أبا بكر صلّى بالناس وحده.

ومرّة: إنّه صلّى بصلاة النبيّ وصلّى الناس بصلاته.

ومرّة: إنّه إنّما كان يرفع صوته بالتكبير ليسمع الناس.

وأُخرى: أنّه ﷺ صلّى بهم وخطبهم وأبو بكر في الصفوف.

٥ ـ دور عمر في تلك الصلاة

قالت رواية: إنّ عائشة طلبت من حفصة أن تقول لرسول الله: مُرْ عمر ليصلّي بالناس.

وذكرت أُخرى: أنّ أبا بكر قال لعمر: تقدّم فصلِّ بالناس، فأجابه عمر: أنت أحقّ بها.

٦ ـ في موقع تلك الصلاة من وفاة النبيّ ﷺ

ورد في بعضها: أنّ النبيّ ﷺ أشار لهم بيده أن أتمّوا صلاتكم، ثمّ أرخى الستر وتوفّي من يومه ولم يصلِّ بهم.

وفي بعضها: أنّه ﷺ خرج ليؤمّهم، فأمّهم جالساً، وخطبهم، ثمّ توفّي من يومه.

وهكذا وجدنا أنّه لم تتّفق روايتان على أيّ شيء، فجميعها قد اختلفت في كلّ التفاصيل، وذلك وحده كافٍ لتضعيف جميع الروايات حسب سياقات علوم الحديث.

نقد الروايات

من خلال دراستنا لنصوص الروايات استخلصنا العديد من الملاحظات، منها:

١ ـ ذكرت الروايات إصرار النبيّ ﷺ وبشدّة على تكليف أبي بكر بالصلاة بالناس، حتّى أصبح لا يردّ على المعترضين إلّا أن يكرّر قوله: « **مروا أبا بكر** »

كلّما راجعوه، مستنكراً تلكّأهم في تنفيذ أمره، وتقريعه لعائشة ومن معها بقوله: «**إنّكنّ صواحب يوسف**»..

ولكن عندما تهيّأ أبو بكر للصلاة ووقف في مقدّمة الصفوف، نرى فجأة أنّ النبيّ قد بدّل رأيه وخرج خروج المضطرّ، يحمله رجلان، ورجلاه تخطّان الأرض، ليباشر الصلاة بنفسه، وذلك لا ينسجم مع الأمر الأوّل لو كان صحيحاً..

بيّنت إحدى الروايات: أنّه وجد في نفسه خفّة فخرج، فأيّة خفّة هذه وهو محمول ورجلاه تخطّان الأرض؟ وكم توفّر له من الوقت لكي يشعر بالخفّة والناس واقفون في الصفوف والصلاة قد أُقيمت تنفيذاً لآخر أمر صدر عنه؟..

وعليه: فإنّ خروجه بهذه الهيئة وعلى هذا الحال، لا بدّ أن يكون له ما يبرّره، سيّما وأنّه لو كان فعلاً قد أمر بما أمر لاستقرّت نفسه، وسكن روعه، ولم يخرج خروج المضطرّين..

٢ ـ قول النبيّ ﷺ لعائشة: «**إنّكن صواحب يوسف**» قول غريب عن سياق النصّ، فهي لم تفعل ما تستحقّ عليه هذا التقريع القاسي الذي جعلها كصواحب يوسف اللائي كِدْنَ له ومَكَرْنَ به..

فالأمر إذن لا يخلو من أحد وجهين: فإمّا أن يكون النبيّ ﷺ قد أساء إيراد المثل فوضعه في غير محلّه، وحاشاه أن يكون كذلك، لأنّه سيّد الحكماء والبلغاء..

وإمّا أن تكون هناك حلقة مفقودة أو منتزعة من سياق الروايات جعلت المثَلَ يبدو وكأنّه غريبٌ عن النصّ.. وهناك روايات لدى غير البخاريّ تحلّ هذا الإشكال لا نرغب بإيرادها لأنّها ستخرجنا عن القصد..

٣ ـ نصّت الرواية التي أسميناها «الرواية الفصل» على أنّ النبيّ ﷺ أمرهم بصبّ الماء عليه وخرج إلى الناس فصلّى بهم وخطبهم، دون أيّة إشارة الى أيّ من حوارات وتفاصيل بقيّة الروايات، التي ربّما قيلت في ظروف أُخرى مختلفة..

٤ ـ يظهر من السياق العامّ للروايات أنّ النبيّ ﷺ عندما خرج وجد أبا بكر مستعدّاً لإقامتها، فنحّاه، أو هو تنحّى له، فصلّى بهم.. وهذا هو كلّ شيء، ولكنّ الذين جاءوا فيما بعد، ساءهم هذا الموقف وظنّوا أنّ فيه مساساً بكرامة أبي بكر، فراحوا يضعون من الروايات ما طاب لهم، وما أسّس لهذا الاختلاف في التفاصيل..

وعدا الاختلافات، هنالك ثغرات لم ينتبهوا لها مع ما فيها من أهـمّيّة.. فإنّهم عندما قالوا إنّ النبيّ ﷺ قد جلس إلى جانب أبي بكر ولم يتقدّم عليه، جعلوا بذلك للصلاة إمامين وهو ممّا لا يجوز شرعاً.. وحينما قالوا: إنّه صلّى بصلاة النبيّ والناس صلّوا بصلاته، جاءوا بصيغة غريبة لم تعرفها الصلاة منذ شُرّعت وإلى اليوم.. لكنّ السياق الوحيد المقبول هو ما نصّت عليه رواية الصورة العاشرة التي وصفت الدور الحقيقي الذي تبوّءه أبو بكر في تلك الصلاة، وهو أنّه كان «يُسمع الناس التكبير»، وهذا هو الذي حدث بالضبط..

٥ ـ إنّ هذه لم تكن المرّة الأُولى التي يتعرّض فيها أبو بكر لمثل هذا الموقف، فقد روى البخاريّ بسنده عن سهل بن سعد الساعدي قوله: «خرج النبيّ ﷺ يُصلح بين بني عمرو بن عوف، وحانت الصلاة، فجاء بلال أبا بكر رضي الله عنه فقال: حُبِسَ النبيّ فتؤُمّ الناس؟

قال: نعم إن شئتم.

فأقام بلال الصلاة فتقدّم أبو بكر رضي الله عنه فصلّى، فجاء النبيّ ﷺ يمشي في الصفوف يشقّها شقّاً حتّى قام في الصف الأوّل، فأخذ الناس بالتصفيح، وكان أبو بكر رضي الله عنه لا يلتفت في صلاته، فلمّا أكثروا، التفت، فإذا النبيّ ﷺ في الصفّ، فأشار إليه مكانك، فرفع أبو بكر يديه فحمد الله، ثمّ رجع القهقرى وراءه، وتقدّم النبيّ ﷺ فصلّى»[١].

---

(١) صحيح البخاري ٢: ٥٩.

٦ ـ الروايات ينقض بعضها بعضاً، فمثلاً: تضمّنت رواية الصورة السابعة قول عائشة: إنّ النبيّ ﷺ أمر أبا بكر أن يصلّي بالناس في مرضه، فكان يصلّي بهم»، تنقضها الصورة التاسعة التي نصّت على أنّ الناس كانوا ينتظرون النبيّ ليخرج للصلاة بهم، حتّى طال بهم الانتظار، وحتّى أُغمي عليه ثلاث مرّات، ولو كان أبو بكر قد صلّى بهم قبلها لصلّى بهم اليوم أيضاً، ولم ينتظروا النبيّ أو صدور أمر منه كلّ هذا الانتظار..

كما ينقضها قول أبي بكر لعمر: يا عمر، صلِّ بالناس، فأجابه عمر: أنت أحقّ بذلك، وهذا يعني وقوع الأمر لأوّل مرّة، مع أنّ هذه الرواية لم تخل من الضرب على وتر السياسة؛ إذ جعلت أبا بكر أحقّ من غيره بالصلاة وعلى لسان عمر، مع أنّ مدار الأمر كلّه ليس على الأحقّيّة، وإنّما على التكليف من قِبل النبيّ، فلا يصحّ والحال هذه قيام عمر بالصلاة لأنّ التلكيف كان لأبي بكر..

نصّت أغلب الروايات على أنّ عائشة إنّما اعتذرت لأبيها عن الصلاة بدلاً عن النبيّ لأنّه كان «رجل أسيف»، «رجل رقيق»، «ولا يسمع الناس من البكاء إذا قام مقام النبيّ..»، ولكن قد ظهر لنا مبلغ رقّته وأسفه بعد موت النبيّ بدقائق معدودات إذ قام في الناس خطيباً ليقول لهم: «من كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات..» في حين وجدنا عمر أكثر رقّة منه عندما أخذ يبكي ويذكر موت النبيّ ويهدّد بالقتل مَن يدّعي ذلك..

٨ ـ ظهر أنّ هذه الواقعة كانت مداراً للجدل في مجتمع الصحابة نفسه، ولا أدلّ على ذلك من قول عبيدالله بن عبدالله في آخر الرواية التاسعة أنّه أخبر عبدالله بن عبّاس بحديث عائشة المتضمّن هذه الرواية: «فما أنكر منه شيئاً»، وهذا يعني أنّه كان يتوقّع منه الإنكار، كما نلمس في آخر الرواية الأُولى عندما سئل الأعمش عن صحّة هذا الموضوع فأجاب برأسه بما يوحي بالإيجاب ولم يجب بلسانه..

إمارة أبي بكر للحجّ ، وإرساله أبا هريرة ببراءة

الأحاديث:

١ - ٢ / ٤ / ١٠١

بسنده عن أبي هريرة ، قال:

«بَعَثَني أَبو بَكْرٍ ﷺ فِيمَنْ يُؤَذِّنُ يَوْمَ النَّحْرِ بِمِنىٰ: لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعامِ مُشْرِكٌ ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيانٌ».

٢ - ٢ / ٦ / ٦٤

بسنده عن أبي هريرة أيضاً ، قال:

«بَعَثَنِي أَبو بَكْرٍ في تِلْكَ الْحَجَّةِ في مُؤَذِّنِينَ يَوْمَ النَّحْرِ نُؤَذِّنُ بِمِنىٰ: أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعامِ مُشْرِكٌ ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيانٌ.

قالَ حَميدُ بْنُ عَبْدِالرَّحْمٰنِ: ثُمَّ أَرْدَفَ رَسولُ اللهِ ﷺ بِعَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ وَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَراءَةٍ.

قالَ أَبو هُرَيْرَةَ: فَأَذَّنَ مَعَنا عَلِيٌّ يَوْمَ النَّحْرِ في أَهْلِ مِنىٰ بِبَراءَةَ ، وَأَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعامِ مُشْرِكٌ ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيانٌ».

٣ - ٢ / ٦ / ٦٥

بسنده عن ابن شهاب:

«أَنَّ حَميدَ بْنَ عَبْدِالرَّحْمٰنِ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبا بَكْرٍ ﷺ بَعَثَهُ في الْحَجَّةِ

الَّتي أَمَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْها قَبْلَ حِجَّةِ الْوَداعِ في رَهْطٍ يُؤَذِّنُونَ في النّاسِ: أَنْ لَا يَحُجَّنَّ بَعْدَ الْعامِ مُشْرِكٌ ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيانٌ».

المناقشة :

١ ـ لم ترد هذه الرواية عن أحد غير أبي هريرة ، ولم ينقلها عنه غير حميد بن عبدالرحمن ، فأمّا أبو هريرة فإنّنا نعرفه وسنتعرّف عليه أكثر في الفصل الأخير من هذا البحث ، وأمّا حميد فهو مشهور بالانحراف عن عليّ بن أبي طالب ، وبكونه أحد رجال العهد الأمويّ أيّام معاوية ، وأحد الذين مهّدوا له السبيل لخداع الناس البسطاء ، والتأثير عليهم برواية الأحاديث الموضوعة ، وإظهار العبادة والتقشّف كذباً ورياءً . .

وقد كان حميد هذا من رواة الحديث عن معاوية ، وحديثه عنه معتبر في « صحيح البخاري » ، وروى كذلك عن النعمان بن بشير ، وحديثه عنه معتبر في « صحيح مسلم » ،كما روى عن المغيرة بن شعبة وابن الزبير ومروان وغيره من أعداء عليّ عليه السلام الألدّاء . .

وقد كان من أشدّ وألدّ الأمويّين خصومة لعليّ ، ولا غرو فأُمّه أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط بن ذكوان بن أُميّة بن عبد شمس ، فهي أُخت الوليد بن عقبة لأبيه وأُمّه ، وأُمّ أُمّه هي أمّ عثمان بن عفّان ، واسمها أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، أمّا أبوه فهو عبدالرحمن بن عوف الذي عُرف بميله وانحرافه عن عليّ ، واستغلاله ذلك في أوّل فرصة سنحت له ، فآثر عليه عثمان يوم الشورى[1] . . فلا غرابة أن يتواطأ أبو هريرة وحميد على هذا الباطل في تلك الظروف السانحة

---

(١) كان عبدالرحمن بن عوف زوج أمّ كلثوم بنت عقبة ، وهي أُخت عثمان لأمّه ، وأُخت الوليد لأُمّه وأبيه .

التي بزغ فيها نجمهما فتلقّفته منهما وسائل الإعلام الأمويّة ، فطبّق الآفاق[١]، حيث كانت الشام درّة التاج الأمويّ وسوقاً نافقة لما يعرضه أبو هريرة وحميد من سلع الرواية والحديث ضدّ عليّ وآل النبيّ المختار..

٢ ـ لقد ثبت أنّ أبا هريرة قبل أن يتّصل بالأمويّين وينعم في ظلّ دولتهم وتصبح له المكانة المرموقة لديهم ،كان يقول : «كنت في البعث الذين بعثهم رسول الله ﷺ مع عليّ ببراءة ، فقال له ولده المحرّر : فيم كنتم تنادون ؟

قال :كنّا نقول : لا يدخل الجنّة إلّا مؤمن ، ولا يحجّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومَن كان بينه وبين رسول الله عهد فأجله إلى أربعة أشهر[٢]، فناديت حتّى صحل صوتي »[٣].. وهكذا فإنّه لم يذكر أبا بكر إطلاقاً ، وإنّما ذكر فيه أنّ البعث الذين بعثهم رسول الله ﷺ تلك السنة إلى مكّة وهم الحجّاج إنّما بعثهم مع عليّ ، وهذه هي الإمرة التي أسندها في رواية البخاريّ إلى أبي بكر ، فلم يعد هنالك معنى لقوله : « بعثني أبو بكر في تلك الحجّة في مؤذنين بعثهم يوم النحر... » ، كما لم يعد صحيحاً قوله : « ثمّ أردف النبيّ بعليّ فأذّن معنا »؛ لأنّ أبا بكر لم يكن أميراً على الحجّ ذلك العام ، وأنّ عليّاً كان هو المكلّف بالمهمّة .

٣ ـ وردت نصوص قويّة في كثير من كتب الحديث والتاريخ تكذّب ما ادّعاه

---

(١) أبو هريرة ، السيّد شرف الدين : ١١٧ .

(٢) قال الإمام شرف الدين : «أنكر العلماء قوله : فأجله إلى أربعة أشهر؛ لأنّ الذي كان في خطبة أمير المؤمنين يومئذٍ : **وَمَن كانَ لَهُ عَهْدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَجَله إلى أمده بالغاً ما بلغ ، ومَن ليس له أمد فأجله إلى أربعة أشهر** ، والظاهر أنّ أبا هريرة لم يكن ممّن حضر الموسم ليعي الأذان بكنهه وحقيقته ، ولا عجب فإنّه كثيراً ما يدّعي الحضور في وقائع لم يحضرها فينقلها على غير وجهها » .

(٣) مسند أحمد ٢ : ٢٩٩ . المستدرك على الصحيحين ٢ : ٣٣١ ، وصرّح بصحّته ، أمّا لفظه في المسند فهو : «كنت مع عليّ حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكّة ببراءة » .

أبو هريرة ورواه له البخاريّ الذي هو شريك لأبي هريرة ولحميد بن عبدالرحمن وأضرابهما في الانحراف عن عليّ وفي الالتزام بخطّة عصره السياسيّة، فجاء صحيحه خالياً من ذكر أيّ فضيلة لعليّ أو لأهل بيت النبوّة الأطهار، وإذا اضطرّ لذكره فإنّه لا يذكره إلّاكواحد من المسلمين ليس له أيّ شأن يذكر.. وهو ما جعل صحيحه المورد الرسميّ للحديث الذي تعترف به السلطات والحكومات التي تعاقبت على رقاب المسلمين..

فقد أخرج الإمام أحمد بن حنبل نقلاً عن أبي بكر أنّه قال: «إنّ النبيّ ﷺ بعثني ببراءة لأهل مكّة، لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنّة إلّا نفس مسلمة، ومَن كان بينه وبين رسول الله مدّة فأجله إلى مدّته، والله بريء من المشركين ورسوله ـ قال ـ فسرت بها ثلاثاً، ثمّ قال رسول الله ﷺ لعليّ: **إلحق أبا بكر فردّه علَيَّ وبلّغها أنت**، ففعل عليّ ذلك، ورجعت إلى المدينة، فلمّا قدمت على النبيّ ﷺ بكيت إليه، وقلت: يا رسول الله، حدث فيَّ شيء؟

قال: **ما حدث فيك إلّا خير، ولكنّي أُمرت أن لا يُبلّغها إلّا أنا أو رجل منّي**»(١).

ومثل ذلك ما أورده الإمام أحمد عن عليّ من أنّه قال: «**لمّا نزلت عشر آيات من سورة براءة دعا النبيّ ﷺ أبا بكر فبعثه ليقرأها على أهل مكّة، ثمّ دعاني فقال لي: أدرك أبا بكر، فحيثما لحقته خذ الكتاب منه فاذهب به إلى أهل مكّة فاقرأه عليهم، فلحقته فأخذت الكتاب منه، فرجع إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، أنزل فيَّ شيء؟**

قال: لا، ولكنّ جبرئيل جاءني فقال: لن يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك؟»(٢).

ومثله حديث ابن عبّاس في أحد احتجاجاته دفاعاً عن عليّ حيث قال: «ثمّ بعث رسول الله ﷺ أبا بكر بسورة التوبة، فبعث عليّاً خلفه فأخذها منه، وقال ﷺ:

---

(١) مسند أحمد ١: ٣.

(٢) مسند أحمد ١: ١٥١.

لا يذهب بها إلّا رجل هو منّي وأنا منه»[١]، ولم يرد على ابن عبّاس أحد من الحاضرين، ولو كان أبو بكر أميراً على الحجّ ذلك العام ما سكتوا عنه ولا استكانوا له..

وحديث آخر لابن عبّاس قال فيه: «إنّي لأُماشي عمر بن الخطّاب في سكّة من سكك المدينة إذ قال لي: يابن عبّاس، ما أرى صاحبك إلّا مظلوماً.

فقلت في نفسي: والله لا يسبقني بها.

فقلت له: يا أمير المؤمنين، فاردد إليه ظلامته.

فانتزع يده من يدي ومضى يهمهم ساعة، ثمّ وقف، فلحقته فقال: يابن عبّاس، ما أظنّهم منعهم عنه إلّا أنّهم استصغروه.

فقلت: والله ما استصغره الله ورسوله حين أمراه أن يأخذ براءة من صاحبك، فأعرض عنّي وأسرع»[٢].

ولم يعترض الخليفة عمر على ما قاله ابن عبّاس، وهو قد كان مع أبي بكر في ذلك الركب العائد إلى المدينة، وهو أعرف الناس بما جرى..

وقال الحسن البصريّ عن عليّ: «ما أقول فيمن جمع الخصال الأربع: انتماءه إلى براءة.. و..» وعدّد باقي الأربع[٣].

ولو عدنا إلى عهد الصحابة لسمعنا سعد بن أبي وقّاص يقول: «بعث رسول

---

(١) المستدرك، الحاكم النيسابوري ٣: ٣٢. تلخيص المستدرك، الذهبي، واعترف بصحّته. الخصائص العلويّة، النسائي: ٦، كما أخرجه ابن حنبل في مسنده من حديث ابن عبّاس ١: ٣٣١.

(٢) رواه الزبير بن بكّار في تاريخه «الموفّقيات» الذي ألّفه للموفّق بالله ابن المتوكّل الخليفة العبّاسي نقلناه عن كتاب الإمام شرف الدين، أبو هريرة: ١٢٢.

(٣) شرح نهج البلاغة ٤: ٩٥.

الله ﷺ أبا بكر ببراءة حتّى إذا كان ببعض الطريق أرسل عليّاً فأخذها منه ، ثمّ سار بها فوجد أبو بكر في نفسه ، فقال رسول الله ﷺ : لا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو رجل منّي »[١].

ولسمعنا أنس بن مالك يقول : « بعث النبيّ ﷺ براءة مع أبي بكر ، ثمّ دعاه فقال : لا ينبغي أن يبلّغ هذا إلّا رجل من أهلي ، فدعا عليّاً فأعطاها إيّاه »[٢].

وكذلك ما أجاب به عبدالله بن عمر عندما سأله جُمَيع بن عمير الليثي عن عليّ ، فقال : « ألا اُحدّثك عن عليّ ، هذا بيت رسول الله ﷺ في المسجد ، وهذا بيت عليّ ، إنّ رسول الله بعث أبا بكر وعمر ببراءة إلى أهل مكّة ، فانطلقا ، فإذا هما براكب ، فقالا : مَن هذا ؟

قال : **أنا عليّ يا أبا بكر** ، هات الكتاب الذي معك .

قال : ما لي ؟

قال : **والله ما علمت إلّا خيراً** ، فأخذ عليّ الكتاب فذهب ، ورجع أبو بكر وعمر إلى المدينة فقالا : ما لنا يا رسول الله ؟

قال : ما لكما إلّا خير ، ولكن قيل لي : لا يبلّغ عنك إلّا أنت أو رجل منك »[٣].

ثمّ ما أخرجه الإمام أحمد وصحّحه من أنّ النبيّ ﷺ قال لعليّ حين بعثه ليأخذ براءة من أبي بكر ويذهب بها إلى مكّة : « **لا بدّ أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت** .

قال عليّ : **فإن كان ولا بدّ فسأذهب بها أنا** .

قال رسول الله ﷺ : **فانطلق ، فإنّ الله يثبّت لسانك ، ويهدي قلبك** »[٤].

---

(١) خصائص أمير المؤمنين عليه السلام ، النسائي : ٩٢ . السنن الكبرى ، النسائي ٥ : ١٢٩ .
(٢) السنن الكبرى ، النسائي ٥ : ١٢٨ . أحكام القرآن ، ابن عربي ٢ : ٤٥١ .
(٣) المستدرك على الصحيحين ٣ : ٥١ .
(٤) مسند أحمد ١ : ١٥٠ .

٤ ـ ونريد أن نختم هذا الموضوع بما قاله الإمام عبدالحسين شرف الدين في معرض حديثه عمّا لفّقوه من الأسانيد تثبيتاً لحديث حميد عن أبي هريرة الذي ذكرناه، حيث قال: «كان وضع الحديث على عهد معاوية حرفة منمّقة يتّجر بها كلّ متزلّف إلى تلك الدولة وعمّالها، وكان لأُولئك المتزلّفين المتّجرين لباقة في تزويق تجارتهم وترويجها لا يشعر بها على عهدهم إلّا أُولو البصائر النافذة والأحلام الراسخة، وقليل ما هم، وكان من ورائهم مَن يرفع ذكرهم من الخاصّة، ويروّج حديثهم من حفظة السنن المستأجرين، وحملة العلم المتزلّفين، ومن المرائين بالعبادة والتقشّف، كحميد بن عبدالرحمن ومحمّد بن كعب القرظي وأمثالهما، ومن زعماء القبائل في الحواضر وشيوخ العشائر في البوادي، وكان هؤلاء كلّهم إذا سمعوا ما يحدّث به أُولئك الدجّالون، روّجوه عند العامّة، وأذاعوه في رعاع الناس (من مسلمي الفتوحات بعد النبيّ) وخطبوا به على المنابر، واتّخذوه حجّة، واعتدّوه أصلاً من الأُصول المتّبعة.

وكان الثقات الأثبات من سدنة الآثار النبويّة، لا يسعهم في ذلك العهد إلّا السكوت عن معارضة أُولئك المتزلّفين المؤيّدين برعاية أُولي الأمر وعناية أهل الحول والطول، فكان المساكين إذا سئلوا عمّا يحدّث به أُولئك الدجّالون يخافون من مبادءة العامّة بغير ما عندهم.. أن تقع فتنة عمياء بكماء صمّاء، سيّما إذا كان الحديث موضوعاً في فضل الصدّيق أو الفاروق، فكانوا يضطرّون في الجواب إلى اللواذ بالمعاريض من القول خوفاً من تألّب أُولئك المتزلّفين ومروّجيهم من الخاصّة، وتألّب من ينعق معهم من العامّة، ورعاع الناس، فضاعت بذلك حقائق، وحفظت أباطيل.

وكان هذا الباطل ـ أعني حديث حميد عن أبي هريرة ـ أوفرها حظّاً من كلّ عدوّ لأهل البيت، اختلقوا في سبيل تأييده أحاديث ترادفه في معناه، فركّبوها على أسانيد رفعوا أحدها إلى عليّ نفسه، ورفعوا الثاني إلى ابن عمّه وخرّيج مدرسته

عبدالله بن عبّاس، والثالث إلى وليّه وخصيصه جابر بن عبدالله الأنصاري، والرابع إلى حفيده، ووارث علمه الإمام أبي جعفر الباقر، وهذه مكيدة اعتادها خصوم عليّ، فاستمرّت عليها سيرتهم في مكابرة أهل البيت، ونكاية أوليائهم من حيث لا تشعر عامّة الناس، وجاء بعدهم قوم ممّن جمعوا الأخبار على علّاتها فاغترّوا بهم فأثبتوها فيما جمعوه وهم غافلون..

والآفة فيما أسندوه من هذا الباطل إلى عليّ، أبو زرعة وهب بن راشد، وكان مفرطاً في النصب، أخذ عداوة بني هاشم وبغض عليّ بالخصوص عن شيخه أبي يزيد يونس بن يزيد بن النجاد الأبلّي، مولى معاوية بن أبي سفيان.

وآفة ما أسندوه إلى ابن عبّاس، أبو القاسم مقسم بن مجزأة الذي كان لا يكتم عداوة أمير المؤمنين (وقد نصّ على ضعفه كلّ من البخاري وابن حزم وابن سعد..).

وآفة ما رفعوه إلى جابر بن عبدالله الأنصاري، أبو إسحاق بن نجيح الملطي، فإنّه رجل سوء خبيث مفرط في الكذب، جريء في وضع الحديث، ساقط بإجماع أهل الجرح والتعديل، وقد ترجمه الذهبي في ميزانه فأورد ما قاله الأئمّة في خبثه وكذبه ودجله.

وآفة ما أسندوه من هذا الباطل إلى الإمام أبي جعفر الباقر، محمّد بن إسحاق، إذ أورده في سيرته التي شحنها بأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان..»[1].

ولعلّ في هذا كفاية، والحمد لله ربّ العالمين..

---

(١) ميزان الاعتدال: ٤: ١٧٦، الرقم ٨٧٤٥، نقل عن ابن حزم والبخاري.

أحاديث ضدّ عليّ عليه السلام

الأحاديث

١ - ١ / ٢ / ٥٠

بسنده عن الزهريّ ، قال :

«أَخْبَرني عَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ أَنَّ حُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ (!) أَخْبَرَهُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبي طالِبٍ أَخْبَرَهُ : أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السلامُ لَيْلَةً ، فَقالَ : أَلا تُصَلِّيانِ ؟

فَقُلْتُ : يا رَسولَ اللهِ ، أَنْفُسُنا بِيَدِ اللهِ ، فَإِذا شاءَ أَنْ يَبْعَثَنا بَعَثَنا . فَانْصَرَفَ حينَ قُلْنا ذلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئاً ، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَهُوَ يَقُولُ : ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾(١)» .

٢ - ١ / ٣ / ١٠٨

بسنده عن نافع ، قال :

«أَنَّ ابْنَ عُمَرَ كانَ يُكْري مَزارِعَهُ عَلىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمانَ وَصَدْراً مِنْ إمارَةِ مُعاوِيَةَ» .

٣ - ١ / ١ / ٤٨

باب (هل يعدّ الأكل من مبطلات الوضوء) ، قال :

---

(١) الكهف ١٨ : ٥٤.

«وَأَكَلَ أَبو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَلَمْ يَتَوَضَّأُوا».

٣ ـ ٢ / ٤ / ٣

بسنده عن إبراهيم، عن زرارة، قال:

«ذَكَرُوا عِنْدَ عائِشَةَ أَنَّ عَلِيّاً عليه السلام كانَ وَصِيّاً، فَقالَتْ: مَتىٰ أَوْصىٰ إِلَيْهِ وَقَدْ كُنْتُ مُسْنِدَتَهُ إِلىٰ صَدْري ـ أَوْ قالَتْ: حِجْري ـ فَدَعا بِالطَّسْتِ، فَلَقَدِ انْخَنَثَ في حِجْري فَما شَعَرْتُ أَنَّهُ قَدْ ماتَ، فَمَتىٰ أَوْصىٰ إِلَيْهِ».

٤ ـ ٢ / ٤ / ٢٧

بسنده عن محمّد بن المنكدر، قال:

«سَمِعْتُ جابِرَ بْنَ عَبْدِاللهِ يَقولُ: قالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله يَوْمَ الْأَحْزابِ: مَنْ يَأْتيني بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟

قالَ الزُّبَيْرُ: أَنا.

ثُمَّ قالَ: مَنْ يَأْتِيني بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟

قالَ الزُّبَيْرُ: أَنا.

فَقالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوارِيّاً وَحَوارِيَّ الزُّبَيْرُ».

وفي ٢ / ٤ / ٥٧

بنفس السند:

«نَدَبَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله النّاسَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ.

قالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوارِيّاً وَحَوارِيَّ الزُّبَيْرُ».

٥ ـ ٢ / ٤ / ٨٣

بسنده عن ابن شهاب (الزهريّ):

«أَنَّ عَلِيَّ بْنَ حُسَيْنٍ (!) حَدَّثَهُ: أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طالِبٍ خَطَبَ ابْنَةَ أَبي جَهْلٍ عَلىٰ فاطِمَةَ عليها السلام، فَخَطَبَ رَسولُ اللهِ ﷺ النّاسَ مِنْ عَلىٰ مَنْبَرِهِ فَقالَ: إِنَّ فاطِمَةَ مِنّي، وَأَنا أَتَخَوَّفُ أَنْ تُفْتَنَ في دِينها.

ثُمَّ ذَكَرَ صِهْراً لَهُ مِنْ بَني عَبْدِ شَمْسٍ، فَأَثْنىٰ عَلَيْهِ في مُصاهَرَتِهِ إِيّاهُ، قالَ: حَدَّثَني فَصَدَقَني، وَوَعَدَني فَوَفىٰ لي، وَإِنّي لَسْتُ أُحَرِّمُ حَلالاً، وَلَا أُحِلُّ حَراماً، وَلٰكِنْ وَاللهِ لَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسولِ اللهِ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللهِ أَبَداً».

وفي ٢ / ٥ / ٢٢

بسنده عن عليّ بن حسين (!):

«إِنَّ المسوّر بن مخرمة، قالَ: إِنَّ عَلِيّاً خَطَبَ بِنْتَ أَبي جَهْلٍ، فَسَمِعَتْ بِذٰلِكَ فاطِمَةُ فَأَتَتْ رَسولَ اللهِ ﷺ فَقالَتْ: يَزْعَمُ قَوْمُكَ أَنَّكَ لَا تَغْضَبُ لِبَناتِكَ، وَهٰذا عَلِيٌّ ناكِحٌ بِنْتَ أَبي جَهْلٍ.

فَقامَ رَسولُ اللهِ ﷺ فَسَمِعْتُهُ حِينَ تَشَهَّدَ يَقُولُ: أَمّا بَعْدُ، أَنْكَحْتُ أَبا الْعاصِ بْنَ الرَّبيعِ، فَحَدَّثَني وَصَدَقَني، وَإِنَّ فاطِمَةَ بَضْعَةٌ مِنّي، وَإِنّي أَكْرَهُ أَنْ يَسُوءَها، وَاللهِ لَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسولِ اللهِ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللهِ عِنْدَ رَجُلٍ واحِدٍ، فَتَرَكَ عَلِيٌّ الْخُطْبَةَ».

وفي ٣ / ٧ / ٣٧

بسنده عن المسور بن مخرمة، قال:

«سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: إِنَّ بَني هِشامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنوا في أَنْ يُنْكِحوا ابْنَتَهُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبي طالِبٍ، فَلَا آذَنُ، ثُمَّ لَا آذَنُ، ثُمَّ لَا آذَنُ، إِلّا أَنْ يُريدَ

ابنُ أبي طالِبٍ أنْ يُطَلِّقَ ابْنَتي وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ ، فإنَّما هي بَضْعَةٌ مِنّي ، يُرِيبُني ما أرابَها ، وَيُؤْذِيني ما آذاها ، هٰكَذا قالَ».

٦ - ٢ / ٤ / ١٠٢

بسنده عن إبراهيم التيميّ ، قال :

«خَطَبَنا عَلِيٌّ عليه السلام فَقالَ: ما كَتَبْنا عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله إلّا القُرْآنَ ، وَما في هٰذِهِ الصَّحِيفَةِ.

قالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله : الْمَدِينَةُ حَرامٌ ما بَيْنَ عائِرٍ إلىٰ كَذا ، فَمَنْ أحْدَثَ حَدَثاً ، أوْ آوىٰ مُحْدِثاً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنّاسِ أجْمَعينَ ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ عَدْلٌ وَلَا صَرْفٌ ، وَذِمَّةُ الْمُسْلِمينَ واحِدَةٌ يَسْعىٰ بِها أدْناهُمْ ، فَمَنْ أخْفَرَ مُسْلِماً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنّاسِ أجْمَعينَ ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ ، وَمَنْ والىٰ قَوْماً بِغَيْرِ إذْنِ مَوالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنّاسِ أجْمَعينَ ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ».

وفي ٢ / ٤ / ١٠٠

بنفس السند ، قال :

«خَطَبَنا عَلِيٌّ فَقالَ: ما عِنْدَنا كِتابٌ نَقْرَؤُهُ إلّا كِتابَ اللهِ تَعالىٰ وَما في هٰذِهِ الصَّحِيفَةِ ، فيها الْجِراحاتُ ، وَأسْنانُ الْإبِلِ ، وَالْمَدِينَةُ حَرَمٌ ما بَيْنَ عَيْرٍ إلىٰ كَذا ، فَمَنْ أحْدَثَ فيها حَدَثاً أوْ آوىٰ فيها مُحْدِثاً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنّاسِ أجْمَعينَ ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ ، وَمَنْ تَوَلّىٰ غَيْرَ مَوالِيهِ فَعَلَيْهِ مِثْلُ ذلِكَ وَذِمَّةُ الْمُسْلِمينَ واحِدَةٌ ، فَمَنْ أخْفَرَ مُسْلِماً فَعَلَيْهِ مِثْلُ ذلِكَ».

المناقشة :

عليّ وفاطمة لا يقومان للصلاة

إذا أردنا التعرّف على أحوال الصحابة والمقرّبين من النبيّ صلى الله عليه وآله ، والخلفاء وعلماء

وفقهاء الأُمّة الأوائل من خلال الآثار التي تركوها ، أو من خلال التراث الفكريّ الذي طبع حياتهم ، وظلّ خالداً عبر العصور.. فإننا لن نجد ذلك إلّا عند عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، حيث ترك خلفه تراثاً ضخماً لم يترك مثله أحد ممّن سبقوه أو عاصروه أو جاءوا بعده.. فقد تكلّم بأُمور وقضايا سبق بها عصره ، وتجاوز بها حدود زمانه..

يقول ابن أبي الحديد : «لم تحصل العدالة الكاملة لأحد من البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا لهذا الرجل ـ عليّ بن أبي طالب ـ ومَن أنصف علم صحّة ذلك ، فإنّ شجاعته وجوده وعفّته وقناعته وزهده تضرب بها الأمثال ، وأمّا الحكمة والبحث في الأُمور الإلٰهيّة فلم يكن من فنّ أحد من العرب ، ولا نُقِل في جهاز أكابرهم وأصاغرهم شيء من ذلك أصلاً ، وهذا فنٌّ كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به ، وأوّل مَن خاض فيه من العرب عليّ عليه السلام ، ولهذا تجد المباحث الدقيقة في التوحيد والعدل مبثوثة عنه في فرش كلامه وخطبه ، ولا تجد في كلام أحدٍ من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك ولا يتصوّرونه ، ولو فهموه لم يفهموه ، وأنّى للعرب ذلك...»[١].

وقال أيضاً في معرض حديثه عن خطبة للإمام عليه السلام يتحدّث فيها عن الملائكة : «هذا موضع المثل : (إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل) إذا جاء هذا الكلام الربّاني واللفظ القدسيّ بطلت فصاحة العرب وكانت نسبة الفصيح من كلامها إليه نسبة التراب إلى النضار الخالص ، ولو فرضنا أنّ العرب تقدر على الألفاظ الفصيحة المناسبة أو المقاربة لهذه الألفاظ ، فمن أين لهم المادّة التي عبّرت هذه الألفاظ عنها ؟ ومن أين تعرف الجاهليّة بل الصحابة المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وآله هذه المعاني الغامضة السمائيّة ليتهيّأ لها التعبير عنها»[٢].

---

(١) شرح نهج البلاغة ٦ : ٣٧.

(٢) شرح نهج البلاغة ٦ : ٤٢٥.

لقد سقنا هذين القولين لكي نتعرّف على نوعيّة الإيمان الذي كان يعتلج صدر عليّ عليه السلام ويملك عليه قلبه ولبّه، فهو لم يكن إيمان رجل من المسلمين ألزمته الأسباب لكي يؤمن، وإنّما كان إيمان العلماء الذين قال عنهم سبحانه وتعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾(١)، وقال: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾(٢)..

وقد تلقّى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام معرفته بالله من ينبوعها الصافي ومعينها الذي لا ينضب، محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله، غذّاه بها وهو طفل صغير، فما سجد لصنم، ولا عبد وثناً، ولا خالف الله ورسوله طرفة عين، وهو القائل: « **وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحابِ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَىٰ اللهِ وَلَا عَلَىٰ رَسُولِهِ ساعَةً قَطُّ. وَلَقَدْ واسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَواطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيها الْأَبْطالُ، وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا** »(٣).

وهناك الكثير الكثير من أمثال هذه الأقوال تجدها مبثوثة في خطب الإمام عليه السلام، فقد كان يغتنم كلّ فرصة لكي يتحدّث عن وحدانيّة الله وعظمته وجبروته، ويحثّ على الجدّ في عبادته، والصدق في التزام أوامره واجتناب معاصيه، والترغيب في عبادته والتضرّع إليه، والقارئ لخطبه وأدعيته عليه السلام يحسّ بأنفاسه المتفرّدة السابحة في ملكوت الله، العارفة به، المؤمنة بربوبيّته، الوالهة بحبّه، القانعة بقضائه وقدره، المطمئنّة إلى عدالته ورحمته.. وهذا واحد منها وهو الدعاء الذي علّمه لصاحبه كميل بن زياد والذي أصبح معروفاً باسمه (دعاء كميل)، فيه كلام غريب

---

(١) الزمر ٣٩: ٩.

(٢) فاطر ٣٥: ٢٨.

(٣) نهج البلاغة، محمّد عبدة ٢: ١٧١، الخطبة ١٩٧. شرح نهج البلاغة ١٠: ١٧٩، الخطبة ١٩٠.

عن ثقافة عصره ، جديد على بلاغة العرب ، تمتزج فيه الكلمة بالروح لتخلق عبارة تنتقل بالمؤمن من حدود هذا العالم وتنفذ به هائماً في عظمة الله وملكوته . .

ولنستمع إلى ضرار بن ضمرة وهو يصفه في مجلس معاوية ، حيث قال : « فأشهد الله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، ويقول : **« يا دُنْيا غُرِّي غَيْرِي ، أَبي تَعَرَّضْتِ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ ؟ هَيْهاتَ هَيْهاتَ ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاثاً لَا رَجْعَةَ فِيها ، فَعُمْرُكِ قَصِيرٌ ، وَخَطَرُكِ كَبِيرٌ ، وَعَيْشُكِ حَقِيرٌ ، آهٍ ! مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ ، وَبُعْدِ السَّفَرِ ، وَوَحْشَةِ الطَّرِيقِ »**[(١)].

ولو عدنا إلى مجتمع الصحابة ، فلن نجد نظيراً لعليّ عليه السلام بينهم في جميع ملكاته وخصائصه ، فهو بينهم الأعلم والأفقه والأورع والأزهد والأعدل والأتقى والأنقى . .

وبالجملة : فإنّ قياسهم به هو قياس بين الدرّ والذهب المصفّى وبين التراب . . فهل تستوي الكفّتان ؟

إنّ تميّز أبي الحسن عليه السلام في كلّ شؤونه وصفاته وسجاياه ، خلق له خصوماً حاسدين وأعداءً حاقدين ، انحدروا إلى قعر الباطل لكي يأتون بما يسيئون به إليه ، فكان الله سبحانه لهم بالمرصاد ، فهذا هو عليّ عليه السلام في دنيا الإسلام والمسلمين ، وهؤلاء هم أعداؤه ومبغضوه تتعقّبهم اللعنات على مدى التاريخ . .

إنّ في هذه الرواية وأمثالها من التفاهة والسذاجة ما يدعونا إلى عدم الردّ لولا النهج الذي اخترناه في تفنيد كلّ باطل ورد في الصحيح ، ولذلك نريد أن نخاطب العقلاء ـ العقلاء فقط ـ من المسلمين ونسألهم :

هل أنّهم يجدون في أنفسهم متّسعاً لتصديق هذه الرواية ، إذا ما استحضروا

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨ : ٢٢٥.

في أذهانهم أنّ عليّاً هو نتاج تربية النبيّ صلى الله عليه وآله وموضع اهتمامه الوحيد ؟ فلا يمكنه أن يتخلّف أو يتكاسل عن الصلاة ، ولا يمكنه أن يردّ على النبيّ ذلك الردّ الخشن وهو الذي ربّاه وعلّمه وأدّبه.. كما لا يمكن لفاطمة عليها السلام وهي بضعة النبوّة أن تكون كذلك..

إلّا أنّ النظر إلى سند الرواية يكفينا لمعرفة سبب وضعها الذي لم يخرج عن إطار الحقد والنزعة الشخصيّة التي تملّكت لبّ راويها (ابن شهاب الزهريّ) المعروف بانحرافه وبغضه لعليّ عليه السلام وأهل بيته ، وهو الذي روى فيهم الطامّات ، تلبية لأحقاده ولنداء سيّده معاوية ، وقد مرّ علينا في مقدّمة البحث انتزاع الزهريّ لكلّ ذكرٍ لعليّ من سيرته التي كتبها للحاكم الأمويّ ، وسَلْبِهِ لكلّ فضائله وسجاياه ، حتّى أنّه لم يذكره فيمن أسلم من الناس..!! فلا غرابة أن يروي الآن مثل هذه الرواية.. ولكنّ الغرابة أن يرويها عن عليّ بن الحسين عليه السلام معتقداً أنّه سيضفي عليها مقداراً من المصداقيّة ، ولكنّه أفسدها من حيث لا يدري ، وكان الله له بالمرصاد ، فكيف يحدّث عليّ بن الحسين رجلاً يعلم جيّداً مقدار بغضه لأبيه وآل بيته بهذا الحديث ؟ وهل كان يرى فيه فضيلة لجدّه عليّ وجدّته الزهراء عليها السلام وما فيه إلّا عصيانهما لله ولرسوله ، وحاشاهما ؟

لقد أصبحنا نشكّ كثيراً في أنّ أغلب أحاديث « صحيح البخاري » هي الأحاديث التي دعا معاوية الناس لوضعها كما ورد في بداية البحث ، لأنّها فعلاً ما وُضِعت إلّا لمعارضة كلّ ما يتّصل بعليّ عليه السلام من أفعال وأقوال النبيّ صلى الله عليه وآله ، وأنّ هذا الحديث ما هو إلّا لمعارضة ما عرفه كلّ المسلمين من وقوف النبيّ صلى الله عليه وآله يوميّاً على باب عليّ وفاطمة عند خروجه للصلاة ، منادياً : الصلاة يا آل بيت النبوّة ، ويتلو : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾[1].

---

(١) الأحزاب ٣٣: ٣٣.

فهل تتناسب رواية الزهريّ الحائزة على جائزة البخاريّ ، مع أهل بيتٍ أراد الله أن يُذهب عنهم الرجس ويطهّرهم تطهيراً . . ؟

والجواب نتركه لضمير القارئ الحيّ . .

العبور فوق خلافة عليّ وكأنّها لم تكن !

لكي تعرف مدى كراهية القوم لعليّ عليه السلام وانحرافهم عنه ، وعدم قبولهم حتّى ذكر اسمه ، سقنا الروايتين في الفقرة ٢ ، فهم حتّى في موضع الاستشهاد لا يروقهم ذكره ، فأين ذهبت أرض ابن عمر خلال خلافة عليّ ؟ هل قام بزراعتها بنفسه ولم يُكرِها لأحد ؟ أم تراه تركها تبور أربع سنين ؟ أم أنّها صعدت إلى السماء بعد وفاة عثمان ولم تنزل إلّا بتسلّط معاوية ؟

أمّا عدم بطلان الوضوء بالأكل فهو ليس من الأُمور الفقهيّة العويصة ، بل هو من البديهيّات التي يعرفها حتّى أطفال المسلمين ، وإنّ قيام الخلفاء الثلاثة بالصلاة بعد الأكل بوضوء سابق ليس دليلاً على الجواز ، كما أنّ إتيانهم بعكس ذلك ليس دليلاً على الحرمة؛ لأنهم ليسوا من شرّع الأحكام وسنّ قوانين الإسلام ، وأنّ المعوّل عليه في كلّ ذلك ماكان رسول الله صلى الله عليه وآله يفعله ، وماكان يفعله هو وحده يصلح للاستدلال لأنّ « **حلال محمّد حلال إلى يوم القيامة ، وحرامه حرام إلى يوم القيامة** »[1].

انخنث في حجرها فما شعرت أنّه مات !

لم نجد في كلّ قواميس اللغة معنىً لكلمة « انخنث » ، غير أنّها ومصدرها وجميع تصريفاتها تتعلّق بـ (الخنث) والـ (تخنّث) ، فإذا قلنا : « انخنث الرجل » فمعناه أنّه « كان فيه لين وتكسُّر وتثنٍّ ، فكان على صورة الرجال وأحوال النساء »[2] ،

(١) الكافي ١ : ٥٨ ، الحديث ١٩.

(٢) المنجد ، لويس معلوف . المختار من صحاح اللغة ، محمّد محيي الدين عبدالحميد .

كما لم نجد أيّ معنى لها يمكن أن يصف تلك اللحظة، سواءً بخصوص الواقعة أو بشكل عامّ..

فإذا كانت الرواية صحيحة فإنّ السيّدة عائشة قد أساءت وصفها بشكل كبير لم نكن ننتظره منها..

فمن هو الموصوف؟

إنّه رسول الله، ونبيّه، وخاتم الأنبياء، وسيّد البشر..

وما هي اللحظات الموصوفة؟

إنّها اللحظات التي يلفظ فيها النبيّ صلى الله عليه وآله أنفاسه الأخيرة.. ذاهباً إلى ربّه.. تاركاً خلفه أُمّة كان هو قائدها ورمزها ومنقذها من الضلال والظلام.. وكان صلتها بالسماء، وقدوتها، ومثلها الأعلى، وملاذها الذي تجد عنده الأمن والطمأنينة والحنوّ والرفق والمحبّة والعون..

وفجأة ينتهي كلّ ذلك، ويغيب شخص النبيّ، ويخفت صوته، وتختفي صورته..

ولعلّ أبلغ الكلمات تعجز عن وصف ما تضمّنته تلك اللحظات من ألم ومرارة وبؤس.. ولكنّ البخاريّ يأتينا برواية عن إحدى زوجاته تصف ذلك الموقف الرهيب واللحظات الحاسمة في تاريخ الإسلام والمسلمين لتقول: إنّه (انخنث) في حجرها، فما شعرت أنّه مات!!

أمّا نحن، فنقول للبخاريّ: حاشا رسول الله أن لا يكون مستعدّاً لهذا الموقف بما يتناسب وعظمة اللقاء مع ربّه، والانضمام إلى قافلة الأنبياء والرسل والصدّيقين..

صحيح أنّه لم يخبرنا أحد عن التفاصيل الدقيقة لذلك الموقف، ولكنّنا نستطيع

◆ لسان العرب: مادّة «خنث».

تلمّس الحقيقة من خلال ما يفترضه المنطق ممّا هو مناسب لمقام النبيّ ﷺ وأهل بيته وعشيرته، وملائم لفداحة الخطب، ولائق بلحظات تستعدّ فيها روح سيّد الأنبياء وخاتمهم للانطلاق إلى خالقها في رحلة أبديّة.. لحظات تستعدّ فيها السماء وسكّانها لاستقبال روح هذا الوافد العظيم والصعود بها إلى ملكوت الرحمن الأعلى محفوفة بالملائكة المطهّرين من كلّ جانب..

نقول: إنّ الذي يناسب ذلك الموقف هو أن يكون النبيّ ﷺ مسجّىً بكلّ هدوء ورضىً وطمأنينة على فراشه، وهو يعلم أنّها هي اللحظة التي كان ينتظرها منذ جعله جبرئيل عليه السلام يعيد عليه تلاوة القرآن مرّتين حيث علم أنّ أجله قد حان..

وإنّ الهاشميّين من أهل بيته لا بدّ لهم من حضور تلك الساعة والإحاطة بالنبيّ إحاطة السوار بالمعصم.. ولا بدّ أن يكون ربيبه ووزيره ووصيّه عليّ بن أبي طالب أقرب ذلك الجمع إليه، ينظر إلى وجهه الكريم، يحصي أنفاسه، مترقّباً متهيّباً وجلاً من دنوّ الفراق.. ولا بدّ أن تكون بضعته الزهراء منكبّة عليه، تمسك بيديه.. وتنظر في عينيه لعلّها ترى فيهما إشارة أو ومضة من حياة..

أمّا أن يكون النبيّ في مثل هذه اللحظات منطرحاً في حجر إحدى زوجاته و(ينخنث) (!) وهي لا تدري أنّه مات، فذلك أمر تأبى النفس تصديقه، ويمتنع الضمير عن قبوله، خاصّة إذا ما علمنا بأنّ الصحابة كانوا مقيمين خارج الدار يتسقّطون الأخبار، وذلك دليل على أنّ الدار كانت تعجّ ببني هاشم الذين لن يتركوه حتماً ضجيع حجر زوجته..

على أنّنا سمعنا عليّاً عليه السلام يصف تلك اللحظات وصفاً مغايراً تماماً لما وصفته به عائشة، حيث قال: **«وَلَقَدْ قُبِضَ رَسولُ اللهِ ﷺ وَإنَّ رَأْسَهُ لَعَلىٰ صَدْري، وَلَقَدْ سالَتْ نَفْسَهُ في كفّي، فَأَمْرَرْتها عَلىٰ وَجْهي، وَلَقَدْ وَلَيْتُ غُسْلَهُ ﷺ وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوانِي، فَضَجَّتِ الدّارُ وَالْأَفْنِيَةُ، مَلَأٌ يَهْبِطُ وَمَلَأٌ يَعْرُجُ، وَما فارَقَتْ سَمْعِي هَيْنمةٌ مِنْهُمْ يُصَلُّونَ**

عَلَيْهِ حَتّىٰ وارَيْناهُ في ضَرِيحِهِ ، فَمَنْ ذا أَحَقُّ بِهِ مِنّي حَيّاً وَمَيّتاً»[١].

والخلاصة : فإنّ صياغة الخبر المرويّ عن عائشة فيه من قلّة الذوق ، وعدم المبالاة ما يدعونا إلى تنزيه اُمّ المؤمنين من صدوره عنها ، وإلى اليقين بأنّه ما اُريد منه إلّا معارضة قول عليّ الذي ذكرناه مع تضمينه عبارة تشير إلى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يوص أيّة وصيّة تخصّ عليّاً ، فها هو يموت في حجر زوجته ، وهي لم تسمع منه شيئاً .. ومن جهلهم فاتَهم أنّ الوصيّة ليست هي ما يقال أو يكتب ساعة الموت أو الاحتضار فقط ، وإنّما قد تكون في أيّ وقت آخر يسبق الموت ..

معركة الخندق

لقد كانت معركة الخندق إحدى المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلاميّ ، ممّا جعل أخبارها وتفاصيل ما جرى فيها من القضايا التي طفحت بها التواريخ والسير ، وتحدّث عنها الشعراء وخلّدوها في أشعار ظلّ أريجها يعطّر أجواء الجهاد في سبيل العقيدة والمبدأ على مرّ التاريخ ..

وكان مصرع عمرو بن عبد ودّ ، بطل قريش ، وفارسها المعدود بألف ، على يد عليّ بن أبي طالب ، من أبرز أحداث تلك المعركة ، لأنّه كان العامل الرئيس في هزيمة جيش الكفر وانتصار المسلمين ، كما أنّ إحجام كافّة الصحابة عن الاستجابة لدعوة عمرو للمبارزة ـ برغم استفزازه المتكرّر لهم ـ باستثناء عليّ عليه السلام حدث لا ينكره إلّا مكابر معاند لئيم ، لاستفاضة ذكره في مصادر التاريخ دون خلاف ..

وقد خلّد رسول الله صلى الله عليه وآله صنيع عليّ ، وقلّده وساماً من الفخار لا ترقى إليه كلّ أوسمة الدنيا ، عندما قال وعليّ خارجٌ لملاقاة عمر : « **بَرَزَ الإيمانُ كُلُّهُ إِلَى الشِّرْكِ**

---

(١) نهج البلاغة ، محمّد عبدة ٢ : ١٧٢ ، الخطبة ١٩٧ . شرح نهج البلاغة ١٠ : ١٧٩ ، الخطبة ١٩٠ .

كُلِّهِ»[١]، وعندما قال: «**ضَرْبَةُ عَلِيٍّ يَوْمَ الخَنْدَقِ تَعْدِل عِبادَةَ الثَّقَلينِ**»[٢]..

كلّ ذلك تجده في كلّ مكان، عدا «صحيح البخاريّ»، الذي تجاهل أيّ ذكر لعليّ عليه السلام وقتله لعمرو، وكأنّ الواقعة لم تقع[٣]..

ولكنّ البخاريّ كان حريصاً جدّاً على رواية انتداب الزبير لاستطلاع أخبار القوم، وقول النبيّ: «**لكلّ نبيّ حواريّاً وحواريّ الزبير**» (الحديث في الفقرة ٤)، مع الحرص على تكراره عدّة مرّات وبعدّة طرق، وكأنّ انتداب الزبير للقيام بمهمّة الاستطلاع ـ لو صحّ ـ أكثر خطورة وأشدّ وقعاً وتأثيراً على سير الأحداث وحسم المعركة من قيام عليّ بتلك الصولة النجلاء التي أخرجت عمرو من المعركة مقتولاً، ومرّغت راية قريش وشرفها في التراب، في وقت لا نرى فيه أيّة قيمة للاستطلاع في تلك المعركة بالذات لأنّ المسلمين كانوا قد قطعوا ساحة القتال بخندق تمركزوا خلفه فانحصرت مهمّاتهم العسكريّة بالدفاع عنه..

على أنّ هذه الرواية ستفتح أمامنا صفحة أُخرى من صفحات بطولة (!) الصحابة وإقدامهم في المعارك، واندفاعهم في نصرة الدين، وطاعة النبيّ (!).. فنحن إذ وجدنا لهم العذر في النكوص عن مواجهة عمرو بن عبد ودّ على اعتبار أنّه من مقاتلي العرب المشهورين، فما بالهم يحجمون عن تنفيذ واجب بسيط كالاستطلاع بحيث ما كان ينتدب لدعوة النبيّ غير الزبير؟!

ولا يقتصر الأمر عند البخاريّ على معركة الخندق وحدها، بل تراه يسلب عليّاً عليه السلام كلّ بطولاته المتميّزة وأدواره المتفرّدة في كلّ وقائع الإسلام.. ولا ندري إن كان يصدر في سلوكه هذا عن نزعة شخصيّة مجافية وحاقدة على عليّ، أو إنّه أيضاً

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦١ و ١٩: ٦١.

(٢) المواقف، الايجي ٣: ٦٢٨. الدر النظيم: ٢٧١.

(٣) راجع الصفحة ٤٥ وما بعدها من الجزء الخامس من الصحيح لتقف على ما قلناه.

كان من الأقلام السلطويّة المأجورة !!

ففي معركة بدر التي خسر فيها المشركون سبعين مقاتلاً نصفهم قُتِلوا بسيف عليّ ، لا يروي البخاري إلّا روايتين فيهما ذكر لعليّ ، إحداهما : « إنّ عليّاً قال : **أنا أوّل مَن يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة** »[١] ، ويفسّره البخاري بأنّه : إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **هَـٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ** ﴾[٢] ، وهم الذين تبارزوا يوم بدر : حمزة وعليّ وعبيدة أو أبو عبيدة بن الحرث وشيبة بن ربيعة وعتبة والوليد بن عتبة[٣] ، وحتماً سيكون عليّ (متّهماً) لأنّه القاتل وليس المقتول ! ولا ندري كيف تنطبق هذه الآية على هذا الموقف ولم يكن فيه خصام (في الربّ) ، وإنّما كان خصاماً (على الربّ) ، فعليّ يخاصم عن ربّه الذي هو الله الواحد الأحد ، وهؤلاء كانوا يخاصمون عن أربابهم ودّ ويغوث وسواع وهبل والعزّى ومناة .. وأبي سفيان !!

ولا يكتفي البخاريّ بذلك ، فنراه يعمل على تقليل وتهميش دور عليّ المتميّز فى بدر ، فيجعل دوره موضع تساؤل إن لم نقل دوراً مجهولاً ، إذ يروي عن أبي إسحاق قوله : « سأل رجل البراء وأنا أسمع ، قال : أشَهِدَ عليٌّ بدراً ؟

قال : بارز وظاهر »[٤] في حين أنّ كلّ ما أصاب عليّاً وآله وبنيه من مصائب ومحن وثارات أمويّة جاهليّة ، ما هو إلّا من جرّاء دوره في معركة بدر ، الذي ترك فيها نائحة في كلّ بيت من بيوت المشركين ، جعلتهم يبغضوه ويحاربوه ويغمطوه حقّه ، ويتجاهلون فضله ..

ونفس الأُسلوب مارسه البخاريّ في معركة أُحُد ، حيث جعل دور عليّ فيها

---

(١) تفسير البغوي ٣ : ٢٧٩ . تفسير ابن كثير ٣ : ٢٢٢ . الدرّ المنثور ٤ : ٣٤٨ .

(٢) الحجّ ٢٢ : ١٩ .

(٣) صحيح البخاري ٥ : ٦ ، ٢٤٢ .

(٤) صحيح البخاري ٥ : ٧ .

مقتصراً على جلب الماء إلى فاطمة لكي تغسل وجه النبيّ ﷺ بعد إصابته بجروح في المعركة، ولم نجد لعليّ ذكراً في غير هذا الموضع على طول أحداث أُحُد..!!

﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾[1]

عليّ ومحاولاته الزواج على فاطمة

كثيرة هي الروايات التي رواها البخاريّ عن محاولات عليّ عليه السلام الزواج على فاطمة بنت النبيّ ﷺ، أو محاولات البعض تزويجه بناتهم عليها، اقتصرنا منها على الروايات الثلاث التي نقلناها في الفقرة **٥** والتي نقول في الردّ عليها:

١ ـ إنّ مصدر هذه الروايات هو (ابن شهاب الزهريّ) الذي بيّنّا حاله قبل عدّة صفحات، وعرفنا نزعاته المعادية لعليّ وأهل بيته، ووقفنا على نهجه في وضع السند لرواياته، فكلّ رواية يضعها للمساس بعليّ يسندها دون تردّد إلى عليّ بن الحسين ليعطيها بعض المصداقيّة، ونضيف هنا أنّه يجعل عليّ بن الحسين في كلّ رواياته راوية للمسور بن مخرمة في قضايا هي من صلب الشأن العائليّ لعليّ بن الحسين، ويفترض به أن يرويها عن أحد أفراد عائلته وليس عن رجل غريب!!

ناهيك عمّا ذكرناه من معرفته لبغض الزهريّ وعداوته لهم، فلا يصحّ أن يروي له ما يتعلّق بشأنهم العائليّ الخاصّ..

٢ ـ الاختلاف بين الروايات واضح وجليّ، حيث نصّ بعضها على أنّ عليّاً هو الذي خطب ابنة أبي جهل، وبعضها نصّ على أنّ بني (أبي جهل) هم الذين استأذنوا النبيّ ﷺ لتزويج ابنتهم من عليّ، وفي بعضها أنّ فاطمة هي التي أخبرت النبيّ واستنهضته بقولها: «**يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك**..»، وفي بعضها:

---

(١) التوبة ٩: ٣٢.

أنّ الإخبار كان مباشراً للنبيّ، فصعد المنبر ولم يأذن.. وهذه الاختلافات تضعف جميع الروايات، وتدعو إلى إهمالها..

٣ ـ لم نعرف سبباً لردّة الفعل العنيفة هذه من قِبل النبيّ باندفاعه لإعلان رفضه لذلك الزواج على الملأ ومن فوق المنبر.. وقد كان يكفيه أن يأمر عليّاً فينصاع له، أو ينهى القوم فينتهوا، سيّما وأنّ القضيّة شخصيّة جدّاً، وتتعلّق بأهل بيته فقط، لا ضرورة لإقحام المسلمين فيها..

٤ ـ حدّدت الروايات تحفّظات النبيّ صلى الله عليه وآله ورفضه ذلك الزواج المزعوم بثلاثة أسباب، هي:

■ تخوّفه أن تُفتن فاطمة في دينها

ولم نفهم كيف سيكون ذلك الزواج فتنة لها في دينها، فإن كان ذلك في عموم الزواج من امرأة ثانية، فهو غير صحيح؛ لأنّ فاطمة عليها السلام عايشت أباها صلى الله عليه وآله وهو متزوّج بأكثر من واحدة ولم تفتن إحداهنّ في دينها، كما أنّ محيطها كان زاخراً بهذه الحالة.. أمّا إذا كانت فتنتها ستأتي من خصوصيّة زواج عليّ من ابنة أبي جهل، فذلك مردود أيضاً؛ لأنّه ما يعني بقاء ابنة أبي جهل على كفرها وشركها، وهذا لوحده سبباً مانعاً لزواج عليّ منها لتحريم الزواج من المشركات، أو يعني الخوف من تأثيرها على دين فاطمة وعقيدتها، وهذا أيضاً غير ممكن لأنّ فاطمة بضعة النبيّ وسيّدة نساء العالمين أو سيّدة نساء المؤمنين ـ حسب روايات البخاريّ نفسه[1] ـ ربّاها النبيّ في حجره، وغذّاها من علمه، واقتبست منه أنوار النبوّة والإيمان..

■ إنّ فاطمة بضعة منه وهو يكره أن يسوءها ذلك

لا نعتقد أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان ليجهر بمثل هذا الرفض وهو الذي يتلو على الناس

---

(١) صحيح البخاري ٤: ٢١٠، ٢١٢ و ٦: ١٥٨ و ٧: ١٤١ و ٤: ١٨٣ و ٧: ١٤٢.

قرآناً يجيز لهم الزواج بأربع نساء ، ففي رفضه ردّ على الله سبحانه ، وحاشاه أن يفعل ذلك ، وهو الحريص على نفاذ حكم الله وشريعته . والمسارع إلى جعل نفسه قدوة للمسلمين في كلّ مجالات الحياة . .

ولنا بعد ذلك أن نسأل : إذا كان الزواج من ثانية إساءة للأُولى فلماذا شرّعه الله للناس ؟ ولماذا تزوّج النبيّ على عائشة ، وهي كما يقولون أحبّ نسائه إليه ؟ إلّا إذا كان يقصد الإساءة إليها ؟

■ إنّها ابنة رسول الله ولا يجوز اجتماعها مع ابنة عدوّ الله

وقد رأينا أنّ هذا الشرط لم يمنع النبيّ ﷺ من الزواج من أُمّ حبيبة بنت أبي سفيان ، وأبو سفيان وأبو جهل توأمان في العداوة لله ولرسوله ، سيّما وأنّ زواج النبيّ منها حصل وأبوها مشرك وعدوّ لله . .

فكيف صلحت ابنة عدوّ الله زوجة لرسول الله ، ولم تصلح زوجة لزوج ابنته ؟

٥ ـ إنّ القول المزعوم على لسان النبيّ ﷺ في المقارنة بين عليّ وأبي العاص بن الربيع ليس من جنس الموضوع ، إلّا إذا أراد الراوي اتّهام عليّ عليه السلام بأنّه حدّث النبيّ فكذب عليه ووعده فأخلف ، وهذا ما لا تقوم به حجّة ولا دليل . .

٦ ـ في رأينا إنّه قد تظافرت لخلق هذه الرواية عدّة عوامل وأهداف ، فقد اشتهر بين المسلمين قول النبيّ ﷺ : « **فاطمة بضعة منّي ، فمن آذاها فقد آذاني ، ومن أغضبها فقد أغضبني** »[١] ، وقد أُوذيت وأُغضبت بعد وفاة رسول الله باغتصاب إرثها من أبيها في فدك وغيرها ، والمغتصب معروف ، والمحرّض معروف ، وكان من غضبها عليهما أنّها أوصت أن لا يحضرا جنازتها ولا دفنها ، فكان لها ذلك ، وهذه قضيّة لم ينكرها أحد حتّى البخاريّ نفسه[٢] ، وعلى ذلك فإنّ غضبها وما أفاده

---

(١) مسند أحمد ٤ : ٢٢٨ . صحيح البخاري ٤ : ٢١٠ ، ٢١٩ . صحيح مسلم ٧ : ١٤١ .

(٢) راجع صحيح البخاري : ٥ : ٨٢ و : ٨ : ٢ .

قول النبيّ عنه سيبقى متلازماً مع ما فعله الشيخان ، ممّا سيترك آثاراً غير محمودة .. فكان لا بدّ من إنشاء قضيّة وهميّة يساق فيها غضب فاطمة ووصيّة النبيّ فيها باتّجاه آخر ، فكانت هذه الرواية هي الحلّ المنشود ، وما داموا قد وضعوها ، فلتكن أكثر فائدة ونفعاً بجعلها تتعلّق بعليّ بن أبي طالب .. وبذلك سيحصلون على عدّة ثمار ، أهمّها :

تبرئة الخليفتين من إغضاب فاطمة وأذاها ..

إلقاء تبعة ذلك الغضب على عليّ عليه السلام ..

الطعن بعدالة عليّ وصدقه ووفائه ..

تلطيف صورة أبي سفيان وفصلها عن صورة أبي جهل ..

ورحم الله القائل :

خلا لكِ الجوُّ فَبيضي واصفري ونَقِّري ما شِئتِ أن تُنقِّري[1]

الصحيفة التي عند عليّ

في الرواية السادسة ، زعم الراوي أنّ عليّاً قال : « **ما كتبنا عن النبيّ صلى الله عليه وآله إلّا القرآن وما في هذه الصحيفة ...** » ، وأوضح أنّه ليس فيها سوى قول النبيّ صلى الله عليه وآله :

« **المدينة حرام ..** » .

« **ذمّة المسلمين واحدة ..** » .

عدم جواز موالاة المولى لغير مواليه إلّا بإذنهم ..

من خالف ذلك فلعنة الله والملائكة عليه ، ولا يقبل منه عدل ولا صرف ..

ونجيب :

١ ـ إذا لم يكن في تلك الصحيفة غير تلك الأقوال فإنّها لا تستحقّ أن يقرن

(١) البيت لطرفة بن العبد . انظر : الصحاح : ٢ : ٧٨٤ . لسان العرب : ٥ : ٦٩ .

ذكرها بذكر القرآن ، إذا لم نقل إنّها لا تستحقّ أصلاً أن تكتب ، فما قيمة هذه البنود الثلاثة قياساً إلى أهمّيّة وخطورة التشريعات الإلٰهيّة والنبويّة التي تتعلّق بالأحكام والعبادات ومسائل الحلال والحرام ؟ وأيّها كان جديراً بالكتابة ؟ . .

ولن يؤثّر فيما قلناه ما ورد في الرواية الأُخرى التي ادّعت أنّ في الصحيفة : « الجراحات ، وأسنان الإبل ، والمدينة حرم . . » فالنتيجة واحدة . .

٢ ـ دلّت الأخبار والقرائن المتواترة على أنّ تلك الصحيفة كانت تحتوي على كلّ ما يتعلّق بآيات القرآن الكريم من تفسير وبيان للعامّ والخاصّ ، والمحكم والمتشابه ، وتعليقات النبيّ ﷺ عليها وتقريراته بشأنها ، وقد اعترف نفس البخاريّ بجانب من ذلك حين أورد في صحيحه بسنده عن منذر الثوريّ عن محمّد بن الحنفيّة أنّ أُناساً أتوا عثمان وشكوا إليه تعسّف سعاته المكلّفين بجمع الصدقة ، فقال له أبوه (عليّ بن أبي طالب): خذ هذا الكتاب فاذهب به إلى عثمان وأخبره أنّ فيه أمر النبيّ ﷺ في الصدقة ، فمُرْ سعاتك يعملون فيها .

يقول محمّد : فأتيته بها ، فقال : اغنها عنّا ، فأتيت بها عليّاً فأخبرته ، فقال : ضعها حيث أخذتها »(١) .

أوَليس في ذلك دليل على أنّ الصحيفة لم تكن مقتصرة على ما ورد في الروايات ، بل كان فيها أحكام رسول الله وأوامره ؟ وإذا كان في هذا الجزء الذي أرسله عليّ إلى عثمان منها ما يتعلّق بأحكام الصدقة ، فإنّ في غيره من الأجزاء ما هو أهمّ وأكبر . .

ولا يغرب عنّا سبب وضع هذه الأحاديث حيث أُريد منها إقناع الناس أن ليس لدى عليّ شيء مهمّ أخذه عن رسول الله ، وأنّ كلّ ما كتبه هو هذا الذي لا يسمن ولا يغني من جوع . .

---

(١) صحيح البخاري : ٤ : ٤٨.

الفصل الرابع

أحاديث الأساطير

أوهام وخرافات

١ - <u>٢ / ٤ / ١٧٤</u>

بسنده عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ أنّه قال :

«بَيْنا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذ رَكِبَها فَضَرَبَها ، فَقالَتْ : إنّا لَمْ نُخْلَقْ لِهـٰذا ، إنّما خُـلِقْنا لِلْحَرْثِ .

فَقالَ النّاسُ : سُبْحانَ اللهِ بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ !

فَقالَ : فإنّي أُومِنُ بِهـٰذا أَنا وَأَبو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَما هُما ، ثَمَّ .

وَبَيْنَما رَجُلٌ في غَنَمِهِ إِذْ عَدا الذِّئْبُ فَذَهَبَ مِنْها بِشاةٍ ، فَطَلَبَ حَتّىٰ كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَها مِنْهُ ، فَقالَ لَهُ الذِّئْبُ : هـٰذا اسْتَنْقَذْتَها مِنّي فَمَنْ لَها يَوْمَ السَّبُعِ يَوْمَ لا راعِيَ لَها غَيْري ، فَقالَ النّاسُ : سُبْحانَ اللهِ ، ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ ؟

قالَ : فَإِنّي أُومِنُ بِهـٰذا أَنا وَأَبو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَما هُما ، ثَمَّ» .

(ملاحظة : وما هما : يعني أنّهما لم يكونا حاضرين في ذلك المجلس) .

٢ - <u>٢ / ٤ / ١٦٥</u>

بسنده عن أبي هريرة :

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: لَمْ يَتَكَلَّمْ في الْمَهْدِ إِلّا ثَلاثَةٌ: عِيسىٰ، وَكانَ في بَنِي إِسْرائِيلَ رَجُلٌ يُقالُ لَهُ جُرَيْجٌ كانَ يُصَلِّي، جاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ، فَقالَ: أُجِيبُها أَوْ أُصَلِّي؟

فَقالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتّىٰ تُرِيَهُ وُجُوهَ الْمُومِساتِ، وَكانَ جُرَيْجٌ في صَوْمَعَتِهِ فَتَعَرَّضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ وَكَلَّمَتْهُ، فَأَبىٰ، فَأَتَتْ راعِياً فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِها. فَوَلَدَتْ غُلاماً فَقالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَكَسَروا صَوْمَعَتَهُ، وَأَنْزَلُوهُ، وَسَبُّوهُ، فَتَوَضَّأَ وَصَلّىٰ.

ثُمَّ أَتَى الْغُلامَ فَقالَ: مَنْ أَبُوكَ يا غُلامُ؟

قالَ: الرّاعي.

قالُوا: نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ.

قالَ: لَا إِلّا مِنْ طِينٍ.

وَكانَتِ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْناً لَها مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ، فَمَرَّ بِها رَجُلٌ راكِبٌ ذُو شارَةٍ، فَقالَتْ: اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ، فَتَرَكَ ثَدْيَها وَأَقْبَلَ عَلَى الرّاكِبِ، فَقالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلىٰ ثَدْيِها يَمَصُّهُ.

قالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَمَصُّ إِصْبَعَهُ، ثُمَّ مُرَّ بِأَمَةٍ، فَقالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هٰذِهِ، فَتَرَكَ ثَدْيَها، فَقالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَها.

فَقالَتْ: لِمَ ذاكَ؟

فَقالَ الرّاكِبُ: جَبّارٌ مِنَ الْجَبابِرَةِ، وَهٰذِهِ الْأَمَةُ يَقُولُونَ: سَرَقْتِ، زَنَيْتِ، وَلَمْ تَفْعَلْ».

٣ - ١ / ٣ / ١٠٨

بسنده عن أبي هريرة، قال:

«إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يَوْماً يُحَدِّثُ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبادِيَةِ، أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ في الزَّرْعِ، فَقالَ لَهُ: أَلَسْتَ فِيما شِئْتَ؟

قالَ: بَلىٰ وَلٰكِنّي أُحِبُّ أنْ أَزْرَعَ.

قالَ: فَبَذَرَ فَبادَرَ الطَّرفَ نَباتُهُ وَاسْتِواؤُهُ وَاسْتِحْصادُهُ، فَكانَ أَمْثالَ الْجِبالِ، فَيَقولُ اللهُ: دُونَكَ يابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ.

فَقالَ الْأَعْرابِيُّ: وَاللهِ لَا تَجِدُهُ إِلّا قُرَشِيّاً أَوْ أَنْصارِيّاً، فَإِنَّهُمْ أَصْحابُ زَرْعٍ، وَأَمّا نَحْنُ فَلَسْنا بِأَصْحابِ زَرْعٍ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ».

٤ ـ ٢ / ٤ / ٨٦

بسنده عن أبي هريرة، قال:

«قالَ النَّبِيُّ ﷺ: غَزا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِياءِ فَقالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُريدُ أَنْ يَبْنِيَ بِها وَلَمّا يَبْنِ بِها.

وَلَا أَحَدٌ بَنىٰ بُيُوتاً وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَها.

وَلَا أَحَدٌ اشْتَرىٰ غَنَماً أَوْ خَلِفاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلادَها.

فَغَزا فَدَنا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلاةَ الْعَصْرِ أَوْ قَريباً مِنْ ذٰلِكَ، فَقالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنا مَأْمُورٌ، اللّٰهُمَّ احْبِسْها عَلَيْنا، فَحُبِسَتْ حَتّىٰ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الْغَنائِمَ، فَجاءَتْ ـ يَعْني النّارَ ـ لِتَأْكُلَها، فَلَمْ تَطْعَمْها، فَقالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولاً فَلْيُبايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ، فَلْيُبايِعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ بِيَدِهِ، فَقالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ، فَجاءُوا بِرَأْسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ فَوَضَعُوها فَجاءَتِ النّارُ فَأَكَلَتْها، ثُمَّ أَحَلَّ اللهُ لَنا الْغَنائِمَ، رَأىٰ ضَعْفَنا وَعَجْزَنا فَأَحَلَّها لَنا».

٥ ـ ٢ / ٤ / ١٠٨

بسنده عن أبي ذرّ:

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ لَهُ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟

قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قالَ: فَإِنَّها تَذْهَبُ حَتّىٰ تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَها وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلا يُقْبَلَ مِنْها وَتَسْتَأْذِنَ فَلا يُؤْذَنَ لَها، يُقالُ لَها: ارْجِعي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِها، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعالىٰ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[(١)]».

٦ ـ ٢ / ٤ / ١٣١

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنه قال:

«خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِراعاً، ثُمَّ قالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلىٰ أُولٰئِكَ مِنَ الْمَلائِكَةِ فَاسْتَمِعْ ما يُحَيُّونَكَ تَحِيَّتَكَ وَتَحِيَّةَ ذُرِّيَّتِكَ، فَقالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ.

فَقالوا: السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَزادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلىٰ صُورَةِ آدَمَ فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتّىٰ الآنَ».

٧ ـ ٢ / ٤ / ١٤١

بسنده عن سعيد بن المسيّب، عن أُمّ شريك، قالت:

«أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ أَمَرَ بِقَتْلِ الْوَزَغِ وَقالَ: كانَ يَنْفُخُ عَلىٰ إِبْراهِيمَ عليه السلام».

٨ ـ ٢ / ٤ / ١٦٠

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ، قال:

«خُفِّفَ عَلىٰ داود عليه السلام الْقُرْآنُ، فَكانَ يَأْمُرُ بِدَوابِّهِ فَتُسْرَجُ، فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوابُّهُ وَلا يَأْكُلُ إِلّا مِنْ عَمَلِ».

---

(١) يس ٣٦: ٣٨.

٩ ـ ٢ / ٥ / ٩

بسنده عن أنس بن مالك أنّه حدّثهم ، فقال :

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ أُحُداً وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمانُ ، فَرَجَفَ بِهِمْ ، فَقالَ : اثْبُتْ أُحُدُ قائِماً عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدانِ» .

١٠ـ ٢ / ٥ / ٤٣

بسنده عن عائشة قالت :

«أَسْلَمَتِ امْرَأَةٌ سَوْداءُ لِبَعْضِ الْعَرَبِ وَكانَ لَها حِفْشٌ فِي الْمَسْجِدِ قالَتْ : فَكانَتْ تَأْتِينا فَتَحَدَّثُ عِنْدَنا ، فَإِذا فَرَغَتْ مِنْ حَدِيثِها قالَتْ : وَيَوْمُ الْوِشاحِ مِنْ تَعاجِيبِ رَبِّنا أَلا إِنَّهُ مِنْ بَلْدَةِ الْكُفْرِ أَنْجانِي .

فَلَمّا أَكْثَرَتْ قالَتْ لَها عائِشَةُ : وَما يَوْمُ الْوِشاحِ ؟

قالَتْ : خَرَجَتْ جُوَيْرِيَةٌ لِبَعْضِ أَهْلِي وَعَلَيْها وِشاحٌ مِنْ أَدَمٍ فَسَقَطَ مِنْها ، فَانْحَطَّتْ عَلَيْهِ الْحُدَيّا وَهِيَ تَحْسِبُهُ لَحْماً فَأَخَذَتْهُ ، فَاتَّهَمُونِي بِهِ ، فَعَذَّبُونِي حَتّىٰ بَلَغَ مِنْ أَمْرِي أَنَّهُمْ طَلَبُوا فِي قُبُلِي ، فَبَيْنا هُمْ حَوْلِي وَأَنا فِي كَرْبِي إِذْ أَقْبَلَتِ الْحُدَيّا حَتّىٰ وازَتْ بِرُءُوسِنا ، ثُمَّ أَلْقَتْهُ فَأَخَذُوهُ ، فَقُلْتُ لَهُمْ : هٰذَا الَّذِي اتَّهَمْتُمُونِي بِهِ وَأَنا مِنْهُ بَرِيئَةٌ» .

١١ـ ٢ / ٥ / ٤٤

بسنده عن عمرو بن ميمون ، قال :

«رَأَيْتُ فِي الْجاهِلِيَّةِ قِرْدَةً اجْتَمَعَ عَلَيْها قِرَدَةٌ ، قَدْ زَنَتْ ، فَرَجَمُوها فَرَجَمْتُها مَعَهُمْ» .

١٢ـ ٢ / ٥ / ٤٦-٤٧

بسنده عن أبي هريرة ، قال :

«إِنَّهُ كانَ يَحْمِلُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِداوَةً لِوَضُوئِهِ وَحاجَتِهِ، فَبَيْنَما هُوَ يَتْبَعُهُ بِها، فَقالَ: مَنْ هٰذا؟

فَقالَ: أَنا أَبُو هُرَيْرَةَ.

فَقالَ: ابْغِنِي أَحْجاراً أَسْتَنْفِضْ بِها وَلَا تَأْتِينِي بِعَظْمٍ وَلَا بِرَوْثَةٍ، فَأَتَيْتُهُ بِأَحْجارٍ أَحْمِلُها في طَرَفِ ثَوْبِي حَتّىٰ وَضَعْتُها إِلىٰ جَنْبِهِ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ حَتّىٰ إِذا فَرَغَ مَشَيْتُ، فَقُلْتُ: ما بالُ الْعَظْمِ وَالرَّوْثَةِ؟

قالَ: هُما مِنْ طَعامِ الْجِنِّ، وَإِنَّهُ أَتاني وَفْدُ جِنِّ نَصِيبِينَ وَنِعْمَ الْجِنُّ. فَسَأَلُونِي الزّادَ فَدَعَوْتُ اللهُ لَهُمْ أَنْ لَا يَمُرُّوا بِعَظْمٍ وَلَا بِرَوْثَةٍ إِلّا وَجَدُوا عَلَيْها طَعاماً».

١٣- ٢ / ٦ / ٩٣

بسنده عن أبي سعيد الخدري، عن النبيّ ﷺ، قال:

«يُؤْتىٰ بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنادِي مُنادٍ: يا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هٰذا؟

فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هٰذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رآهُ.

ثُمَّ يُنادي: يا أَهْلَ النّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هٰذا؟

فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هٰذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَامَوْتَ، وَيا أَهْلَ النّارِ خُلُودٌ فَلَامَوْتَ».

١٤- ٢ / ٦ / ١٢٦

بسنده عن عبيدة عن عبدالله، قال:

«جاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبارِ إِلىٰ رَسولِ اللهِ ﷺ فَقالَ: يا مُحَمَّدُ، إِنّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّماواتِ عَلىٰ إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلىٰ إِصْبَعٍ، وَالْماءَ وَالثَّرىٰ

عَلىٰ إِصْبَعٍ ، وَسائِرَ الْخَلائِقِ عَلىٰ إِصْبَعٍ ، فَيَقُولُ : أَنا الْمَلِكُ .

فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتّىٰ بَدَتْ نَواجِذُهُ تَصْديقاً لِقَوْلِ الْحَبْرِ . ثُمَّ قَرَأَ رَسولُ اللهِ ﷺ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] » .

١٥ـ ٢ / ٦ / ١٣٣

بسنده عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ أنّه قال :

« قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : يُؤْذِيني ابْنُ آدَمَ ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنا الدَّهْرُ ، بِيَدِي الْأَمْرُ ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ » .

١٦ـ ٢ / ٦ / ١٣٤

بسنده عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ أنّه قال :

« خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ ، فَلَمّا فَرَغَ مِنْهُ قامَتِ الرَّحِمُ فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمٰنِ ، فَقالَ لَهُ : مَهْ .

قالَتْ : هٰذا مَقامُ الْعائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطيعَةِ .

قالَ : أَلا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ ؟

قالَتْ : بَلىٰ يا رَبِّ .

قالَ : فَذاكِ » .

١٧ـ ٢ / ٦ / ١٨٨

بسنده عن البراء بن عازب ، قال :

« كانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ وَإِلىٰ جانِبِهِ حِصانٌ مَرْبُوط ، فَتَغَشَّتْهُ سَحابَةٌ فَجَعَلَتْ

---

(١) الزمر ٣٩ : ٦٧.

تَدْنو وَتَدْنو ، وَجَعَلَ حِصانُهُ يَنفِرُ ، فَلَمّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذلِكَ لَهُ ، فَقالَ: تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالْقُرْآنِ».

١٨- ٢ / ٦ / ١٩٠

بسنده عن أسيد بن حضير ، قال :

«بَيْنَما هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ ، إِذْ جالَتِ الْفَرَسُ فَسَكَتَ ، فَسَكَتَتْ. فَقَرَأَ فَجالَتِ الْفَرَسُ ، فَسَكَتَ ، وَسَكَتَتِ الْفَرَسُ ، ثُمَّ قَرَأَ فَجالَتِ الْفَرَسُ ، فَانْصَرَفَ وَكانَ ابْنُهُ يَحْيىٰ قَرِيباً مِنها ، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ ، فَلَمّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّماءِ حَتّىٰ ما يَراها ، فَلَمّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقالَ: اقْرَأْ يابْنَ حُضَيْرٍ ، اقْرَأْ يابْنَ حُضَيْرٍ ؟

قالَ : فَأَشْفَقْتُ يا رَسولَ اللهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيىٰ وَكانَ مِنها قَرِيباً ، فَرَفَعْتُ رَأْسي ، فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسي إِلَى السَّماءِ ، فَإِذا مِثْلُ الظُّلَّةِ فيها أَمْثالُ الْمَصابِيحِ ، فَخَرَجَتْ حَتّىٰ لَا أَراها.

قالَ : وَتَدْرِي ما ذاكَ ؟

قالَ : لا.

قالَ : تِلْكَ الْمَلائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النّاسُ إِلَيْها لا تَتَوارىٰ مِنْهُمْ».

١٩- ٢ / ٦ / ١٤٥

بسنده عن عبدالله بن قيس ، عن رسول الله ﷺ ، قال :

«إِنَّ في الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ عَرْضُها سِتُّونَ مِيلاً ، في كُلِّ زاوِيَةٍ مِنْها أَهْلٌ ما يَرَوْنَ الْآخَرِينَ ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنونَ ، وَجَنَّتانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُما وَما فِيهِما ،

وَجَنَّتانِ مِنْ كَذا آنِيَتُهُما وَما فِيهِما ، وَما بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُروا إِلىٰ رَبِّـهِمْ إِلّا رِداءُ الْكِبْرِ عَلىٰ وَجْهِهِ في جَنَّةِ عَدْنٍ » .

٢٠ـ ٣ / ٨ / ١١٤

بسنده عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ قال :

« ما بَيْنَ مَنْكِبَي الْكافِرِ مَسِيرَةُ ثَلاثَةِ أَيّامٍ لِلْراكِبِ الْمُسْرِعِ » .

٢١ـ ٢ / ٤ / ١١٩

بسنده عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ ، قال :

« إِنَّ في الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسيرُ الرّاكِبُ في ظِلِّها مائَةَ عامٍ لَا يَقْطَعُها » .

المناقشة :

بقرة وذئب يتكلّمان !

لعلّ المعجزة التي أقامها الله تعالى لنبيّه سليمان عليه السلام في قدرته على التفاهم مع الحيوانات والطيور ، هي التي شجّعت أبا هريرة على وضع هذه الرواية ، ولكنّه قد فاته أنّ تلك القدرة كانت خاصّة بسليمان وحده ، وليست بتلك الحيوانات والطيور .. وبعبارة أُخرى : فإنّ سليمان كان يعرف لغتها فيتفاهم معها بها ، وليس بالعكس ، أي أنّها لم تكن تعرف لغة سليمان ولا أُصولها ولا قواعدها ..

وإنّنا لا نعرف الآن ، هل لتلك المخلوقات لغة ذات كلمات ومعانٍ ، أم نغمات وأصوات ، أو إشارات ، أو أيّ شيء آخر .. ولا نعرف بأيّة طريقة أنذرت النملة قومها من سليمان وجنده ، وكيف أبلغ الهدهد سليمان بأمر بلقيس وعرشها ، فقد بقي ذلك سرّاً من أسرار الله في خلقه ..

ولكنّ البديهي والمعروف من خلال الملاحظة ، أنّ طرق التخاطب لدى

الحيوانات مختلفة من نوع إلى آخر، ومن فصيلة إلى أُخرى، وتتراوح بين صوت البقرة الهادر، وصياح الذئب العاوي، وزقزقة العصافير الناعسة..

ومن المهمّ أن نذكر بأنّ لغات البشر هي من نتاج الحضارات، وأنّ مفرداتها تنشأ من الحاجة إليها، وتكتسب فيما بعد بالتعلّم والممارسة، والأُمم هي التي تصنع لغاتها وتطوّرها مع مرور الزمن، وتضع لها الأُسس والقواعد الكفيلة بفهمها وتداولها..

وعلى ضوء ما ذكرناه، فإنّنا سنجد أنّ كلام البقرة والذئب المزعومان في الرواية يثير أكثر من تساؤل، ويضع أكثر من علامة استفهام، وكما يلي:

١ ـ لا ينكر أحد أنّ كلام البقرة والذئب يجب أن يؤخذ ضمن إطار المعجزات التي يجب أن يكون لها مبرّرها وحكمتها وضرورتها؛ لأنّ المعاجز لا تقع جزافاً حتّى لا تكون عملاً عبثيّاً.. فما هي الحكمة من كلام البقرة والذئب؟

وما هي الضرورة التي دعت إلى ذلك؟

وما هو الدرس الذي توخّاه الله من ذلك لعباده؟..

ولو أمعنّا النظر في هذه الحادثة (المعجزة) فسنجد أنّها اقتصرت على إثبات الكلام للبقرة والذئب فقط، دون أن يكون لهذه المعجزة أيّة قيمة أو تأثير، فقد قالت البقرة: إنّها إنّما خُلقت للحراثة وليس للركوب، وذهب كلامها هذا أدراج الرياح، حيث روى البخاريّ عن النبيّ ﷺ أنّه «رأى رجلاً يسوق بدنة ـ بقرة ـ فقال: اركبها، قال: إنّها بدنة! قال: اركبها، قال: إنّها بدنة! قال: اركبها ويلك».

ولم نعرف سبباً لإلحاح النبيّ ـ إن صحّت الرواية ـ على ركوب هذه البدنة، إلّا إذا اعتبرناه محاولة لتكذيب ادّعاء البقرة بأنّها لم تخلق للركوب، أو تكذيب هذه الرواية برمّتها، وهو الأَوْلى..

وما قلناه عن البقرة سنقوله عن الذئب بالتمام والكمال، مع إظهار الإعجاب

بما تمتّع به الذئب من علم غزير ، ومعرفة بيوم السبع الذي لم يعرفه أحد لحدّ الآن ، حيث سيكون هو راعيها الوحيد !!

٢ ـ إنّ الادّعاء بأنّ النبيّ ﷺ وأبا بكر وعمر صدّقوا وقوع هذه الحادثة لا يخرجها عن إطارها الخرافيّ الأُسطوريّ ، ولا يعطيها قوّة الإقناع والقبول ، ولا يُرغم العقل والمنطق على تصديقها ، ولا يُغيّر مجريات سنّة الله في خلقه ، بل على عكس ذلك ، فإنّ تصديقهم بها ـ وهذا محال ـ يسيء إليهم ، ويتّهمهم بمخالفة طبائع الأشياء ونواميس الكون ، وسنن الخليقة ..

٣ ـ إنّ إقحام أبي هريرة لأبي بكر وعمر في روايته كان وسيلته التي تذرّع بها لتمرير روايته على سواد الناس الذي سيتقبّلها برحابة صدر باعتبارها فضيلة للخليفتين ، ولم يلتفت إلى أنّ تصديق النبيّ كان كافياً لوحده دون الحاجة إلى تصديق الآخرين ..

المتكلّمون في المهد

حسب الرواية ، فإنّ الذين تكلّموا في المهد ثلاثة : عيسى عليه السلام ، والطفل المنسوب لجريج (!) ، والرضيع على ثدي أُمّه ..

إنّ هذه الرواية هي امتداد لولع أبي هريرة بالأساطير الصادمة للعقل والبديهة ، وقد نلتمس له عذراً ممّا رواه عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبيّ ﷺ من أنّه قال : **« بلّغوا عنّي ولو آية ، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج »**[1] ، حيث طفق الإثنان يؤلّفان القصص ويصوغان الأساطير عن بني إسرائيل ، ويستفيدان ممّا سمعاه من كعب الأحبار وعكرمة ووهب بن منبّه ، وينسبان كلّ ذلك إلى رسول الله ﷺ ..

وقد وضع عبدالله المذكور صحيفة أسماها (الصادقة) أخذها من الكتب التي

---

(١) صحيح البخاري : ٤ : ١٤٥.

استولى عليها المسلمون في معركة اليرموك، وكان يحدّث عن تلك الكتب وينسبها إلى النبيّ الكريم، وقد جمع طائفة من الأحاديث وادّعى أنّه أخذها من الرسول ﷺ(١)..

وفي الردّ على هذه الرواية نقول: إنّنا نصدّق أن يكون عيسى ﷺ قد تكلّم في المهد؛ لأنّ الله تعالى هو المخبر، ولوضوح الهدف والغاية من المعجزة، فعيسى هو روح الله ونبيّه المرتقب، حملت به العذراء ﷺ بمعجزة إلـهيّة، فكان لا بدّ من معجزة أُخرى تبرّئ ساحتها، وتُعلن عن ظهور النبيّ الجديد وتدعمه..

ولكن ما هي الحكمة المتوخّاة من وقوع مثل هذه المعجزة لجريج؟ ومن هو جريج أصلاً؟

إنّنا لم نجد لجريج ذكراً إلّا في أحاديث أبي هريرة، وعلى افتراض صحّة وجوده، فما هو الذنب الذي اقترفه لكي يُستجاب دعاء أُمّه المنكر بحقّه؟

فإذا كانت هذه الرواية الساذجة قد اعتبرت عدم إجابته لنداء أُمّه عقوقاً لها، فاستحقّ ما أصابه، فإنّ الأمر ليس كذلك، لأنّه لم يمتنع عنها بدافع العقوق، بل لانشغاله وتفرّغه للعبادة حسب الرواية، ولم يشأ أن يقطع صلاته إجلالاً لله، وهل يمكن أن يستجيب الله لدعاء الأُمّ مع ما فيه من باطل ومنكر واقتراف للحرام؟ تعالى الله عمّا يصفون.

أمّا المتكلّم الثالث، وهو الطفل الرضيع على صدر أُمّه، فقد وجدنا في قصّته عدّة أُمور غريبة هي:

١ ـ إنّ الرضيع لم يكن متكلّماً فقط، وإنّما كانت الحكمة تنساب من على شفتيه، والعلم بالغيب ينحدر من بين شدقيه، فيرفض أن يكون مصيره مصير الفارس فيصبح جبّاراً من الجبابرة، ويقبل أن يكون كالجارية المظلومة التي ينول

---

(١) دراسات في الحديث والمحدّثين: ٢٠.

الناس عنها أنّها سرقت وزنت وهي لم تفعل ، فسيكون لها الثواب العظيم . . ! !

٢ ـ كما رأينا الأُمّ تتقبّل بكلّ هدوء وسكينة وهي تستمع إلى رضيعها وهو يتكلّم بالحكمة والموعظة ، وتسأله وتنتظر منه جواباً بنفس الهدوء ، وكأنّ ما يحدث بين يديها أمراً مألوفاً لا يدعو إلى الاضطراب وربّما الفزع . . ! !

٣ ـ والأنكى من ذلك أنّ أبا هريرة يعمد إلى استخدام الحركة مع الصوت لإيصال قصصه إلى الناس واستغفالهم والإمعان في خداعهم ، فيتوقّف عن قصّته ليقول لهم : «كأنّي أنظر إلى النبيّ يمصّ إصبعه» ليريهم كيف كان الطفل يمصّ ثدي أُمّه ، فهل من عاقل يصدّق إنّ النبيّ ﷺ كان حريصاً على شرح كيفيّة رضاع الطفل فيقوم بمصّ إصبعه ؟ ! وهل أنّ عمليّة الرضاع لا يمكن فهمها إلّا بالتطبيق العمليّ ووسائل الإيضاح ؟

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾ (١)

مُزارعٌ في الجنّة

لا يتجاوز هدف هذه الرواية حدود الفكاهة التي وردت على لسان الأعرابيّ القادم من البادية ، حين حلّ لغز ذلك المزارع فأوضح بأنّه لا بدّ أن يكون قرشيّاً أو أنصاريّاً ، لأنهم يفهمون في الزراعة ، ولم يكن أعرابيّاً لأنّ الأعراب لا يفهمون إلّا في الرعي . .

وهكذا تختلط الحقيقة بالسخرية ، ويبقى سرّ ذلك الرجل الذي طلب من ربّه أن يسمح له بالزراعة في أراضي الجنّة لغزاً لم نعرف له أيّ تفسير ، فهل هو الرجل الوحيد الذي زرع في الجنّة أم أنّ هناك آخرون ؟

وما الذي دفعه إلى ذلك الطلب ؟ هل هو الملل من طول الجلوس بلا عمل ؟

---

(١) الكهف ١٨ : ٥.

أم أنّ الحاجة إلى المزروعات ، كما يفهم من القول المنسوب لله تعالى في الرواية : « دونك يا ابن آدم فإنّه لا يشبعك شيء » ؟ !

وأخيراً : لم نعرف أين ذهب هذا المزارع بمحصوله الوفير الذي صار كالجبال ، هل صنع منه وليمة لأهل الجنّة ؟ أو تصدّق به على فقرائها ؟ أم تركه لتذروه الرياح ؟

النار تأكل الغنائم

تحدّثت أساطير بعض الأُمم الغابرة عن قيام كهنة المعابد بتقديم النذور والقرابين من أموال أو بنين أو بنات لتأكلها النار فى مناسباتهم الدينيّة أو في الكوارث التي تصيبهم ، لإطفاء غضب آلهتهم ونيل رضاها . .

ونرجّح أن تكون تلك الأساطير هي مصدر الرواية الرابعة ، وقد سمعها أبو هريرة من أحبار اليهود فأسندها إلى النبيّ ﷺ . . ومع ذلك ففي مناقشتنا لهذه الرواية نقول :

١ ـ نصّت الرواية على أنّ الغازي كان نبيّاً ، وأنّه دنا بجيشه من القرية التي أراد غزوها قبل صلاة العصر . . فكونه نبيّ يعني أنّ الحادثة وقعت قبل الإسلام ، وصلاة العصر لم تكن قد سنّت بعد لأنّها من مختصّات الإسلام . . وهذا أوّل الغيث ! !

٢ ـ إيقاف الشمس عن المسير وحبسها لإتمام الغزو يدلّ على ضرورة قصوى في إنجاز ذلك الغزو ، وفي ذلك اليوم حتماً لتبرير إقامة المعجزة وتغيير نظام الكون . . ولكنّنا رأينا أنّ غاية ما نتج عن الغزو هو الحصول على غنائم . . فهل يتناسب الأمران ؟

٣ ـ ما هي تلك النار ؟ ومن أين جاءت ؟ وما هو الهدف من أكلها للغنائم ؟ وكيف أحسّت بالغلول فيها فامتنعت أوّل مرّة ، وعلمت بعودة المسروق منها فأكلتها ؟ وعشرات الأسئلة الأُخرى التي ينبغي على أبي هريرة الإجابة عليها . .

٤ ـ طريقة معرفة السارق بالتصاق يده بيد النبيّ أثناء المصافحة (المبايعة) لا بدّ

أنّها من معجزات ذلك النبيّ الخاصّة به، لأنّها من الخوارق التي لم تحدث لأحد ولم يروِ لنا التاريخ حالة مشابهة..

٥ ـ اتّضح أنّ الله سبحانه كان محتاجاً ـ حاشاه ـ إلى دليل عمليّ يؤكّد له ضعف وعجز الإنسان أمام إغراء الغنائم وحبّه لامتلاكها لكي يُحِلّها له، فلمّا تأكّد من وجود هذا الضعف بسرقتهم لرأس البقرة الذهبيّ، أحلّ لهم الغنائم.. ولا ندري أيّة غنائم تقاسموها بعد أن أكلتها النار..؟!

أين تذهب الشمس؟

إنّنا ندرك اليوم أكثر من أسلافنا كذب هذه الرواية على ضوء ما وصل الإنسان إليه من تطوّر علميّ كشف له العديد من الظواهر والغوامض الكونيّة، فإذا كانوا يعتقدون أنّ الشمس عندما تغرب تذهب إلى مكان آخر تتوارى فيه، فقد علمنا أنّها في حالة حركة ووجود مستمرّ، فلا يسعها التوقّف أو التواري، كما أنّها في حالة غروب دائم وشروق دائم على كلّ جزء من أجزاء الأرض، وأنّ الغروب كما هو الشروق ناتجان عن دوران الأرض حول الشمس وليس العكس، وبذلك فإنّ الشمس لم تذهب إلى أيّ مكان وإنّما الأرض هي التي تتحرّك.. وذلك تقدير العزيز الحكيم..

والنبيّ ﷺ كان يعرف هذه الحقيقة من خلال الوحي وما أخبره الله تعالى به، ولا يمكن أن يتوهّم ما يتوهّمه غيره من الناس، وإذا لم يكن قد أخبرهم فلأنّ عقولهم يومها لا تتحمّل مثل هذه التفاصيل، وبذلك يكون إسناد مثل هذه الأقوال إليه باطلاً وكذباً صريحاً..

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، فإنّ في هذه الرواية ترسيخ لمفهوم كون العرش كيان مادّي محدود يشغل حيّزاً من الوجود، وأنّه يقع غرب الأرض حيث تذهب الشمس لتسجد! وهذا كلام فارغ، لأنّنا علمنا أنّ عرش الله ليس كما ظنّوه كرسيّاً ضخماً يجلس عليه، وإنّما عرشه الكون كلّه وهو محيط به ﴿ **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ**

﴿وَالْأَرْضَ﴾[١].. كما أنّ (المغرب) الذي نراه هو المغرب الخاصّ بالجزء الذي نعيش فيه نحن من الكرة الأرضيّة، وليس للأرض مغرب واحد تختفي فيه الشمس، أو تذهب لتسجد ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾[٢].. وكذلك بالنسبة للشمس، فالكون يضمّ آلاف بل ملايين الشموس تدور كلّ منها في فلك ولغاية سخّرها الجليل سبحانه لها، وليست شمسنا إلّا واحدة من تلك الشموس وربّما أصغرها، ولا ندري ما اقترفت من ذنوب حتّى لم يؤذن لها بالسجود؟ كما لا ندري متى يقال لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها؟ ولماذا؟

وأخيراً: فإنّ الآية الكريمة ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾[٣] التي جعلها أبو هريرة مورداً للاستشهاد لا علاقة لها بما ورد في الرواية من أباطيل، وأنّ سوء فهمهم لها هو مبعث الاضطراب والتخبّط لديهم، حيث اعتبروا أنّ (المستقرّ) هو الموضع الذي تلجأ إليه الشمس حين تغيب فتستقرّ فيه ساجدة حتّى يؤذن لها بالشروق مرّة أُخرى..

طول آدم ستّون ذراعاً!

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[٤]، وخلق معه كلّ موجودات الحياة بما يتناسب مع حجمه وطوله وعرضه، وأبقاه على تلك الخلقة منذ آدم وإلى اليوم، لأنها هي الأحسن، وللمحافظة على التوازن والتناسب بينه وبين المخلوقات والأشياء الأُخرى..

---

(١) البقرة ٢: ٢٥٥.

(٢) المعارج ٧٠: ٤٠.

(٣) يس ٣٦: ٣٨.

(٤) التين ٩٥: ٤.

فإذا كان طول آدم **٦٠** ذراعاً فينبغي أن يكون طول النخلة **٣٠٠** ذراعاً ليكون التناسب بينهما طبيعيّاً ومقبولاً ، وقس على ذلك بالنسبة لبقيّة المخلوقات ، حتّى تنتهي إلى حجم الأرض الذي يجب أن يكون أكبر من حجمها الحالي بـ **٣٠** مرّة لتحقيق ذلك التناسب . .

لقد ورد في إحدى الروايات أنّ « طول آدم كان ستّون ذراعاً ، وعرضه سبعة أذرع »[١] ، وهذا غير ممكن بالمرّة لانعدام التناسب المنطقيّ بين الطول والعرض ، والذي هو من ضرورات تمام الخلقة الذي يستدعي أن يكون العرض **١٧** ذراعاً ليتناسب مع طول **٦٠** ذراعاً ، أمّا عرض الـ **٧** أذرع فلا يحتاج إلى أكثر من **٢٤** ذراعاً فقط . . أفلا يتدبّرون ؟

أمّا بقيّة الرواية ، وهي قوله تعالى لآدم : « اذهب إلى هؤلاء وسلّم عليهم ، وإنّ جوابهم سيكون تحيّتك وذرّيّتك . . . » فنقول : إنّ السلام هو تحيّة الإسلام ، وإنّ تشريعه لأوّل مرّة كان للمسلمين ، ويؤكّد ذلك قول النبيّ ﷺ : « **ما حسدكم اليهود على شيء كما حسدوكم على السلام** » . . ولا اعتبار لما رواه أبو هريرة ونقله البخاريّ لأنّ الاثنين قد نسيا أنّ أحاديثهما حول الإسراء كانت التحيّة فيها بين الأنبياء ، سيّما آدم وبين النبيّ ﷺ هي (مرحباً) وليس (السلام عليكم) **!!**

الوزغ ينفخ على إبراهيم

زيف هذه الرواية ظاهر ، وبطلانها واضح ، وكذبها فاضح . .

فهل كان تكليف الأوزاغ الشرعيّ أن لا تنفخ على الأنبياء ؟ وما هي خطورة نفختها إن نفخت أو لم تنفخ ؟ وإذا كان أحدها قد نفخ على إبراهيم فما ذنب ذراريها تتعرّض إلى القتل إلى يوم القيامة ؟

---

(١) إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري ٧ : ٩٠ ، باب خلق آدم وذرّيّته من كتاب بدء الخلق .

لقد ورد في « صحيح البخاريّ » من الطامّات ما جعلنا موضعاً للسخرية والتندّر من الأُمم الأُخرى ، ونحن أُمّة القرآن ، أُمّة العلم والعقل والحكمة والبلاغة .. إلّا أنّنا قد نجد سبباً معقولاً لهذا الحديث ، وهو أنّه روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال عن مروان بن الحكم (لعنه الله) : « **الوزغ بن الوزغ** »[١] ، فربّما أراد أبو هريرة أن ينحو بما قال منحىً آخر فجعله بهذه الديباجة إنقاذاً لصاحبه ووليّ نعمته مروان .. والله أعلم .

داود وقراءة القرآن

لم يكن لدى داود عليه السلام قرآن ، وإنّما هي (مزامير) يقول عنها صاحب « المنجد » : « هي ما كان يترنّم به من أناشيد ، ويدعى مجموعها (الزبور) .. »[٢] .

ولا أحد يعلم كم هي تلك المزامير ، ولا مقدارها ، ولا الوقت الذي تستغرقه قراءتها ..

لقد دافع البعض عن أبي هريرة بأنّه لم يكن يقصد القرآن الذي بين أيدينا ، وإنّما قصد الزبور أو التوراة باعتبارها مصدر القراءة لا القرآن المنزل على محمّد ﷺ[٣] ..

وهذا العذر مردود بقول أبي هريرة نفسه : « خفّف على داود القرآن » ، حيث إنّه عندما اعتبر التخفيف معجزة لداود كان واضعاً في ذهنه قرآن محمّد الذي لا يمكن إنجاز قراءته في وقت كوقت (إسراج الدابّة) ، ومن هنا حصل الإعجاز في نظره ..

كما احتجّوا على إمكانيّة حصول ذلك بأنّ الله يطوي الزمان لمن شاء من عباده كما يطوي لهم المكان[٤] .

---

(١) و (٣) إرشاد الساري ٨: ٥٠٠.

(٢) المنجد : ٢٩٣ ، ٣٠٥.

(٤) إرشاد الساري ٧: ١٨٢.

وهذا ممّا يزيد الطين بلّة ويقوّي الإشكال ، لأنّ طيّ الزمان سيضاعف استحالة وقوع هذا العمل ، وكان الأجدر بهم أن يقولوا بـ(طيّ الكلام) لا (طيّ الزمان) ، فيكون ذلك أليق بمرادهم وإن كان باطلاً كذلك . .

قُل للذي يدّعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ[١]

وكما يقول الإمام شرف الدين ﷺ : « فإنّ معجزات الأنبياء خارقة للعادة ، إلّا أنّ هذه الرواية خارقة للعقل »[٢] . .

جبل أُحُد يرتجف

نصّت الرواية على قدرة جبل أُحُد على السماع والفهم والوعي وتقدير الأشياء ، ومعرفة أقدار الرجال ، فلا بدّ إذن أن يكون على أحد الحالين : فإمّا أنّه كان يعرف النبيّ ﷺ ومن معه ، وإمّا لا . .

فإن كان يعرفهم ، فلا داعي لتعريف النبيّ لنفسه ومَن معه ، لأنّ الجبل عرف ذلك وارتجف بسببه . .

وإن كان لا يعرفهم ، فلا مبرّر لارتجافه ، لأنّه على هذا الفرض سيرتجف كلّما صعده رجل أو مجموعة من الرجال ، وبذلك ليس في ارتجافه كرامة لأحد . .

إنّ أنس بن مالك الذي صاغ الرواية أو صيغت على لسانه ، لا يقصد طبعاً ارتجاف الجبل خوفاً من النبيّ وصحبه ، وإنّما يريدها كرامة تُعدُّ لهم وفضلاً يتميّزون به ، وقد فاته أنّ هذا المعنى يقتضي ارتجاف الأرض التي يسيرون عليها ، والدابّة التي يركبونها ، والأدوات التي يستعملونها . .

لقد رووا عن النبيّ ﷺ حديثاً آخر عن جبل أُحُد وهو قوله : هذا جبل يحبّنا

---

(١) البيت لأبي نؤاس .

(٢) أبو هريرة ، شرف الدين : ١٥١ .

ونحبّه ، وقد ورد هذا الحديث في « صحيح البخاري » ، وكرّره عدّة مرّات ، وعلى افتراض صحّته فإنّه يجب حمله على المجاز وليس على المعنى الحرفيّ للحبّ ، فليس للجبل إدراك أو عقل أو عاطفة يحبّ بها ويكره ، ولكنّ المقصود هو أنّ هذا الجبل كان ذات يوم ملجأ للمسلمين عندما حمي الوطيس وفرّوا من الميدان محتمين به حيث أنجاهم الله ، فهو يحبّهم بإيوائهم وتحصّنهم به ، وهم يحبّونه لذلك..

يوم الوشاح

مع القطع بأُسطوريّة هذه الرواية ، ووقوع المعجزة في غير محلّها ، فإنّنا نستطيع معرفة مصدرها والقريحة الفذّة التي نسجت خيوطها.. فقد ورد فيها أنّ تلك المرأة السوداء كانت تردّد البيت التالي :

ويوم الوشاحِ من تعاجيب ربّنا   ألا إنّه من بلدة الكفر أنجاني

وإذا ما عدنا إلى أبي هريرة فسنسمعه يقول : لمّا قدمت على النبيّ قلت في الطريق :

يا ليل من طولها وعنائها   على أنّها من دارة الكفر نجّتِ[(١)]

فإنّ نظرة فاحصة لهذين البيتين تضع أيدينا على مكمن الزيف في إحدى الروايتين وعلى الأرجح في كلتيهما ، حيث لا سبيل إلى الاعتقاد بوجود مثل هذا التوارد في الخواطر بين المرأة السوداء وأبي هريرة ، سيّما مع اختلاف الزمان والمكان.. فلاحظ التشابه الكبير بين مفردات البيتين لكي تكون على يقين أنّ أحدهما قد ولد الآخر.. وبلا عناء..

---

(١) صحيح البخاري : ٣ : ١١٩ و : ٥ : ١٢٣ .

قِردة ترجم لأنّها زنت !

إنّ أهمّ ما تضمّنته الرواية :

١ ـ إنّ الراوي (عمرو بن ميمون) كان يعرف لغة القرود ، فتمكّن من معرفة السبب الذي رُجمت تلك القردة من أجله ، وهو الزنى ، ممّا دلّ على أنّ قرية القرود المزعومة كانت تخضع لشريعة وقوانين دينيّة تقتضي رجم الزناة !

٢ ـ لمّا كان لدى القرود زنى ، فسيكون لديهم زواج شرعيّ وطلاق حتماً ، وذلك يتطلّب وجود مأذون وشهود ، ونحسب أنّ الراوي قد ضيّع فرصة ثمينة ساقها الله إليه حيث كان بإمكانه أن يكون مفتياً أو مأذوناً في تلك القرية ، بدلاً من عمله غير المجدي في اختلاق الروايات !

٣ ـ من المؤسف أنّنا لم نعرف الدين الذي كانت عليه تلك القرود وأنبياءها وعلماءها؛ لأنّ الراوي كان على عجلة من أمره فأسرع بالمغادرة بعد أن شارك في الرجم دون أن يسألها عن ذلك !!

أمّا نحن ، فلا يسعنا إلّا أن نُضيف هذه الرواية على ما سبقها من ترّهات وأن نردّد ما قاله سبحانه وتعالى : ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ** ﴾[١].

طعام الجنّ

قد يعجز الإنسان إزاء بعض النصوص عن التمسّك بالعقل والمنطق ، لأنّ تلك النصوص خارجة أصلاً عن كلّ الأُطر العقليّة والمنطقيّة .. فلا يمكنك ـ مثلاً ـ أن تتعامل مع هذه الرواية ـ رواية طعام الجنّ ـ بأُسلوب علميّ رصين ، ومن خلال حوار

---

(١) الرعد ١٣ : ١٧.

حضاريّ ومؤدّب ، فيه فسحة مناسبة للرأي ، والرأي المضادّ ، وللحجّة والدليل ، وصولاً إلى المعلومة المفيدة والخبر النافع الذي ربّما نجد فيه حكمة أو موعظة حسنة نستفيد منها للدنيا أو للدين ..

فهل سأل أنصار هذه الروايات أنفسهم سؤالاً مهمّاً هو : كيف يترك الله عزّ وجلّ أُمّة عظيمة من مخلوقاته ـ وهم الجنّ ـ يعانون من المجاعة إلى الحدّ الذي يضطرّهم إلى الخروج من عالمهم ليتسكّعوا في عالم البشر يستجدون الطعام ؟

وإذا فعلوها ، فهلّا أنصف النبيّ ﷺ ـ وهو العطوف الكريم ـ وفدَ جنّ نصيبين ـ وهم خير الجنّ ـ بطعامٍ غير الروث والعظام ؟ ! وفي الحقيقة إنّه لم يعطهم شيئاً بالمرّة؛ لأنّ هذه المخلّفات موجودة ، بل مبذولة لكلّ راغب دون الحاجة إلى دعوة نبيّ !

وإذا كانت هذه المخلّفات قد أصبحت زاداً للجنّ بعد دعوة النبيّ ، فمن حقّنا أن نعرف ماذا كانوا يأكلون قبل ذلك ؟ !

ثمّ إنّ قيام الجنّ بالأكل يعني امتلاكهم لأجهزة هضم ولواحقها ، وبالضرورة ستكون لهم أجسام مادّيّة ، وهذا ما لم يدّعه أحد لحدّ الآن .. وإذا تنازلنا وأقررنا بوجود تلك الأجهزة وبحكمة تخصّصها لهذا النوع من الطعام على اعتبار أنّها ستساعد البشر على التخلّص من الفضلات ، والمحافظة على النظافة ، وحماية البيئة من التلوّث ، فإنّ ذلك يتنافى مع ما نجده في كلّ مكان من روث وعظام ، إلّا إذا كان الجنّ قد امتنعوا عن أكلها ، أو جرى تعويضهم عنها بطعام آخر !

الموت كبش أحمر

الموت هو اصطلاح معنويّ لعمليّة مفارقة الروح للجسد ، أو انتزاعها منه ، وهو ليس وجوداً مادّيّاً مستقلّاً يمكن تكييفه على شكل كبش أو غيره ..

وقد كان يكفي أهل الجنّة وأهل النار أن يقال لهم : إنّكم خالدون فيهما وينتهي

الأمر ، دون الحاجة إلى تمثيل الموت بصورة كبش وذبحه أمامهم ، لانعدام الضرورة والحكمة من ذلك ، إلّا إذا كان المقصود إقناعهم عمليّاً وبثّ اليأس في نفوسهم ، وهذا أمر غير منطقيّ ، ولا نتصوّر أنّ يوم القيامة ـ يوم الحساب الأكبر ـ سيكون مسرحاً لأمثال هذه التمثيليّات ..

وقد أشارت الرواية إلى أنّ أهل الجنّة والنار قد تعرّفوا على ذلك الكبش الأملح حال رؤيتهم له ، واستدركت أنّهم عرفوه (لأنّ كلّهم قد رآه) ، فأين رأوه ؟ ومتى ؟ ..

إنّ الأرواح ينتزعها ملك الموت عليه‌السلام وهو ليس كبشاً أحمر ولا أزرق ..

وسلام الله على أمير المؤمنين أبي الحسن عليه‌السلام وهو يتحدّث عن ملك الموت فيقول : « **هَلْ تُحِسُّ بِهِ إذا دَخَلَ مَنْزِلاً ؟ أَمْ هَلْ تَراهُ إذا تَوَفَّىٰ أَحَداً ؟ بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّىٰ الْجَنِينَ في بَطْنِ أُمِّهِ ! أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوارِحِها أَمِ الرُّوحُ أَجابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّها ؟ أَمْ هُوَ ساكِنٌ مَعَهُ في أَحْشائِها ؟ كَيْفَ يَصِفُ إِلٰهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ !** »[(١)].

أوَليس هذا الكلام هو ممّا اغترفه أمير المؤمنين من فيض النبوّة ، وما استفاده من علم النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله .. فهل تجد من رأيه مثلَ هذا بملك الموت ، يعود فيشبّهه بكبش أملح .. تنزّه الله ورسوله عمّا يفترون ..

قبضة الله عزّ وجلّ

وهذه الرواية لا تعدو أن تكون من روايات المجسّمة الذين جعلوا لله تعالى يداً وقبضة وأصابع ، وقد أغنانا علماء الإسلام ومفكّروهم عن الخوض في مناقشة مثل هذه الأفكار التافهة التي ليس من ورائها غير الإشراك بالله جلّ شأنه ، والتي لم يتورّطوا فيها لو أحسنوا تدبّر معاني آيات كتاب الله ولم يسيئوا تفسيرها وتأويلها ..

تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً

---

(١) شرح نهج البلاغة ، محمّد عبده ١ : ٢٢١ ، الخطبة ١١٢.

الله هو الدهر

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[١] كلمة وموقف يجب اتّخاذهما هنا، وعدم الخوض في مثل هذه الأقوال الساذجة، فإنّ الأذى بشكليه المادّيّ والمعنويّ لا يمكن وقوعه على الذات الإلٰهيّة.. كما أنّ الدهر لا يعني غير الزمن والمدّة، والله تعالى أبديّ سرمديّ، لا يحدّه كيف.. ولا أين.. ولا متى..

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِن أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾[٢]

الرحم تأخذ بحقو الرحمن

١ ـ للـ(حقو) في اللغة معنيان: الإزار أو الخصر.

فبأيّهما أمسكت الرحم؟

بإزار الرحمن (!) أم بخصره (!؟) تعالى الرحمن عمّا يصفون..

٢ ـ كما أنّ (الرحم) اصطلاح لغويّ يمثّل أحد أنواع العلاقة والروابط الأُسريّة والإنسانيّة بين البشر، ووجوده معنويّ وليس مادّيّ.. فهو موجود في قلب الإنسان وعقله وضميره وليس له وجود خارجيّ مستقلّ بيدين يمسك بهما ولسانٍ يتكلّم به ويشكو..

٣ ـ قد يردّ البعض بالتذرّع بالمجاز، فنقول: ما هكذا هي سياقات المجاز، فإنّ الرواية تحدّثت عن وقائع حدثت، وحركات، وأفعال، وخلق، وشكوى، وحقو.. وغير ذلك ممّا لا يمكن حمله على المجاز..

---

(١) الأنعام ٦: ١٠٦. الأعراف ٧: ١٩٩. الحجر ١٥: ٩٤.

(٢) الكهف ١٨: ٥.

نزول السكينة بقراءة القرآن

١ ـ روى البخاري بسنده عن عبدالله بن عمرو أنّ النبيّ ﷺ قال : « **استقرءوا القرآن من أربعة : من ابن مسعود ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وأُبيّ ، ومعاذ بن جبل** »[١] ، ومع ما لدينا على هذه الرواية ، نقول : ألم يكن من الأوْلى نزول السكينة أو الملائكة لاستماع القرآن من أحد هؤلاء الأربعة الذين أشاد النبيّ ﷺ بهم وأوصى المسلمين بأخذ القراءة عنهم ؟ وقد رأينا أنّ أسيد بن حضير ليس منهم . .

٢ ـ أظهرت الروايتان نتائج عكسيّة لنزول السكينة : ك(نفور الحصان) و (جولة الفرس) ، وكان المفروض أن يكون نزولها مبعثاً للهدوء والطمأنينة والاستقرار . . ، كما أظهرتا أنّ بإمكان الناس رؤية الملائكة بالعين المجرّدة لو أنّ أسيد قد استمرّ بالقراءة حتّى الصباح ، وهذا ما لا دليل عليه إلى يومنا هذا . .

٣ ـ إنّ الدليل الوحيد الذي اعتبرته الروايات علامة لنزول السكينة هو نفور الحصان وجولة الفرس ، ولا يخفى ضعف هذا الدليل ، لعدم وجود علاقة بين الأمرين ، أو قرينة تدلّ عليه . . بل كان طبيعيّاً أن تنفر الفرس كلّما رفع صوته بالقراءة ، وتهدأ كلّما سكت ، وهذا أقرب إلى الصواب والقبول . . لأنّ الحالة الموصوفة ليست معتادة ولم تحصل لغير أسيد ، ولو كانت حقيقيّة لتكرّرت كثيراً ، وخصوصاً أثناء قراءة من هم أفضل منه . .

---

(١) صحيح البخاري : ٤ : ٢١٨ ، ٢٢٨ .

قصص خياليّة طريفة

قصّة أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل

٢ / ٤ / ١٧١

بسنده عن أبي هريرة ، وبعدّة طرق ، أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول :

«إِنَّ ثَلاثَةَ في بَنِي إِسْرائِيلَ: أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمىٰ بَـدا للهِ عَـزَّ وَجَـلَّ أَنْ يَـبْتَلِيَهُمْ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكاً فَأَتَى الأَبْرَصَ فَقالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْك ؟

قالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ ، قَدْ قَذِرَني النّاسُ.

قالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ ، فَأُعْطِيَ لَوْناً حَسَناً ، وَجِلْداً حَسَناً.

فَقالَ: أَيُّ الْمالِ أَحَبُّ إِلَيْك ؟

قالَ: الْإِبِلُ ، فَأُعْطِيَ ناقَةً عُشَراءَ ، فَقالَ: يُبارَكُ لَكَ فيها.

وَأَتَى الأَقْرَعَ فَقالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْك ؟

قالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهَبُ عَنّي هٰذا ، قَدْ قَذِرَني النّاسُ.

قالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ ، وَأُعْطِيَ شَعْراً حَسَناً.

قالَ: فَأَيُّ الْمالِ أَحَبُّ إِلَيْك ؟

قالَ: الْبَقَرُ.

قالَ: فَأَعْطاهُ بَقَرَةً حامِلاً ، وَقالَ: يُبارَكُ لَكَ فِيها.

وَأَتَى الأَعْمىٰ فَقالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْك ؟

قالَ: يَرُدُّ اللهُ بَصَري فَأُبْصِرُ بِهِ النّاسَ.

قالَ: فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ.

قالَ: فَأَيُّ الْمالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قالَ: الْغَنَمُ، فَأَعْطاهُ شاةً والِداً فَأَنْتَجَ هٰذانِ وَوَلَّدَ هٰذا، فَكانَ لِهٰذا وادٍ مِنْ إِبِلٍ وَلِهٰذا وادٍ مِنْ بَقَرٍ، وَلِهٰذا وادٍ مِنْ غَنَمٍ.

ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ في صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ تَقَطَّعَتْ بِي الْحِبالُ في سَفَرِي فَلا بَلاغَ الْيَوْمَ إِلّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذي أَعْطاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمالَ، بَعِيراً أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ في سَفَرِي.

فَقالَ لَهُ: إِنَّ الْحُقوقَ كَثِيرَةٌ.

فَقالَ لَهُ: كَأَنّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النّاسُ فَقِيراً فَأَعْطاكَ اللهُ؟

فَقالَ: لَقَدْ وَرِثْتُ لِكابِرٍ عَنْ كابِرٍ.

فَقالَ: إِنْ كُنْتَ كاذِباً فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلىٰ ما كُنْتَ.

وَأَتَى الْأَقْرَعَ في صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقالَ لَهُ مِثْلَ ما قالَ لِهٰذا، فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ ما رَدَّ عَلَيْهِ هٰذا.

فَقالَ: إِنْ كُنْتَ كاذِباً فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلىٰ ما كُنْتَ.

وَأَتَى الْأَعْمىٰ في صُورَتِهِ فَقالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ وَتَقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبالُ في سَفَرِي، فَلا بَلاغَ الْيَوْمَ إِلّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شاةً أَتَبَلَّغُ بِها في سَفَرِي.

فَقالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمىٰ فَرَدَّ اللهُ بَصَرِي، وَفَقِيراً فَقَدْ أَغْناني، فَخُذْ ما شِئْتَ، فَوَاللهِ لا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ للهِ.

فَقالَ: أَمْسِكْ مالَكَ فَإِنَّما ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلىٰ صاحِبَيْكَ».

قصّة الغار (ثلاثة آخرون)

٢ / ٤ / ١٧٢

بسنده عن عبدالله بن عمر:

«أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: بَيْنَما ثَلاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكُمْ يَمْشُونَ إِذْ أَصابَهُمْ مَطَرٌ فَأَووا إِلىٰ غارٍ فَانْطَبَقَ عَلَيْهِمْ.

فَقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُ وَاللهِ يا هٰؤُلاءِ لَا يُنْجِيكُمْ إِلّا الصِّدْقُ، فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِما يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ فِيهِ.

فَقالَ واحِدٌ مِنْهُمْ: اللّٰهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كانَ لي أَجِيرٌ عَمِلَ لي عَلىٰ فَرَقٍ مِنْ أَرُزٍّ فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ، وَأَنّي عَمَدْتُ إِلىٰ ذٰلِكَ الْفَرَقِ فَزَرَعْتُهُ فَصارَ مِنْ أَمْرِهِ أَنّي اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَراً، وَأَنَّهُ اعْمِدْ إِلىٰ تِلْكَ الْبَقَرِ فَإِنَّها مِنْ ذٰلِكَ الْفَرَقِ فَساقَها، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنّي فَعَلْتُ ذٰلِكَ مِنْ أَتاني يَطْلُبُ أَجْرَهُ فَقُلْتُ لَهُ: اعْمِدْ إِلىٰ تِلْكَ الْبَقَرِ فَسُقْها.

فَقالَ لي: إِنَّما لِيَ عِنْدَكَ. فَقُلْتُ لَهُ: فَرَقٌ مِنْ أَرُزٍّ، مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنّا، فَانْساحَتْ عَنْهُمُ الصَّخْرَةُ.

فَقالَ الآخَرُ: اللّٰهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كانَ لي أَبَوانِ شَيْخانِ كَبِيرانِ، فَكُنْتُ آتِيهِما كُلَّ لَيْلَةٍ بِلَبَنِ غَنَمٍ لي، فَأَبْطَأْتُ عَلَيْهِما لَيْلَةً، فَجِئْتُ وَقَدْ رَقَدا وَأَهْلِي وَعِيالي يَتَضاغَوْنَ مِنَ الْجُوعِ، فَكُنْتُ لَا أَسْقِيهِمْ حَتّىٰ يَشْرَبَ أَبَوايَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُما، وَكَرِهْتُ أَنْ أَدَعَهُما فَيَسْتَكِنا لِشَرْبَتِهِما، فَلَمْ أَزَلْ أَنْتَظِرُ حَتّىٰ طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنّي فَعَلْتُ ذٰلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنّا، فَانْساحَتْ عَنْهُمُ الصَّخْرَةُ حَتّىٰ نَظَرُوا إِلَى السَّماءِ.

فَقالَ الآخَرُ: اللّٰهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كانَ لي ابْنَةُ عَمٍّ مِنْ أَحَبِّ النّاسِ إِلَيَّ، وَأَنّي راوَدْتُها عَنْ نَفْسِها فَأَبَتْ إِلّا أَنْ آتِيَها بِمِائَةِ دِينارٍ، فَطَلَبْتُها حَتّىٰ قَدَرْتُ، فَأَتَيْتُها بِها

فَدَفَعْتُها إِلَيْها فَأَمْكَنَتْنِي مِنْ نَفْسِها، فَلَمّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْها فَقالَتْ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَفُضَّ الْخاتَمَ إِلّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ وَتَرَكْتُ الْمائَةَ دِينارٍ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنّي فَعَلْتُ ذلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنّا، فَفَرَّجَ اللهُ عَنْهُمْ، فَخَرَجُوا».

أبو هريرة والشيطان

١ / ٣ / ١٠١

بسنده عن أبي هريرة، قال:

«وَكَّلَنِي رَسولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكاةِ رَمَضانَ، فَأَتاني آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعامِ، فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلىٰ رَسولِ اللهِ ﷺ.

قالَ: إِنّي مُحْتاجٌ، وَعَلَيَّ عِيالٌ، وَلِي حاجَةٌ شَدِيدَةٌ.

قالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ.

فَأَصْبَحْتُ فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: يا أَبا هُرَيْرَةَ، ما فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبارِحَةَ؟

قُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، شَكا حاجَةً شَدِيدَةً وَعِيالاً، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ.

قالَ: أَما إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسولِ اللهِ ﷺ إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ.

فَجاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلىٰ رَسولِ اللهِ ﷺ.

قالَ: دَعْني فَإِنّي مُحْتاجٌ، وَعَلَيَّ عِيالٌ، لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ.

فَأَصْبَحْتُ فَقالَ لي رَسولُ اللهِ ﷺ: يا أَبا هُرَيْرَةَ، ما فَعَلَ أَسِيرُكَ؟

قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، شَكا حاجَةً شَدِيدَةً وَعِيالاً، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ.

قالَ: أَما إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ.

فَرَصَدْتُهُ الثّالِثَةَ فَجاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلىٰ رَسولِ اللهِ،

وَهـٰذا آخِرُ ثَلاثَ مَرّاتٍ ، أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ.

قالَ: دَعْني أُعَلِّمْكَ كَلِماتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِها.

قُلْتُ: ما هِيَ ؟

قالَ: إِذا أَوَيْتَ إِلىٰ فِراشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ﴿اللهُ لَا إِلـٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حَتّىٰ تَخْتِمَ الْآيَةَ ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حافِظٌ ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطانٌ حَتّىٰ تُصْبِحَ ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ.

فَأَصْبَحْتُ فَقالَ لي رَسولُ اللهِ ﷺ : ما فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبارِحَةَ ؟

قُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُني كَلِماتٍ يَنْفَعُني اللهُ بِها ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ.

قالَ: وَما هِيَ ؟

قُلْتُ: قالَ لي: إِذا أَوَيْتَ إِلىٰ فِراشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِها حَتّىٰ تَخْتِمَ الْآيَةَ ﴿اللهُ لَا إِلـٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ، وَقالَ لي: لَنْ يَزالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حافِظٌ ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطانٌ حَتّىٰ تُصْبِحَ ، وَكانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ.

فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَما إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ، تَعْلَمُ مَنْ تُخاطِبُ مُنْذُ ثَلاثِ لَيالٍ يا أَبا هُرَيْرَةَ ؟

قُلْتُ: لا.

قالَ: ذاكَ شَيْطانٌ».

المناقشة:

لقد كانت القصّة الأُولى قصّة طريفة ، فيها من الحكمة ما يمكن أن يهذّب طباع الأطفال الصغار وتربيتهم وتعليمهم شكر النعمة ، وعدم نسيان ماضيهم ، والتنكّر للناس ، وحبس أفضال الله تعالى عنهم..

وكذلك بالنسبة للقصّة الثانية مع ما فيها من ثغرات كثيرة ظاهرة لا تفوت القارئ اللبيب، فهي قد تنفع في تشجيع الأطفال على الصدق والأمانة والبرّ بالوالدين..

ولكنّ المؤسف أن يُسجّل كلّ ذلك على لسان رسول الله ﷺ كأحاديث موثوقة ذات قيمة استوجبت تدوينها في الصحاح وتداولها من فوق المنابر..

أمّا القصّة الثالثة فإنّ فيها الكثير ممّا لا ينبغي السكوت عنه، فقد كانت سبباً في خلق مناقشات وجدل عقيم بين المشتغلين بالحديث النبويّ الشريف، فمن قائل إنّ أبا هريرة «كان وكيلاً لرسول الله في العطاء» لتبرير تفريطه في المحافظة على مال الزكاة بسماحه لذلك السارق بالحثو من الطعام، حيث أنّه لو لم يكن مخوّلاً بالتصرّف فإنّ موقفه سيكون خيانة للأمانة وتهاوناً في حفظ مال المسلمين، ومن قائل إنّه «لم يكن وكيلاً بالعطاء، بل بالحفظ فقط»، كما صرّح بذلك الزركشي وعلماء آخرون حسب ما ذكره القسطلانيّ في «إرشاد الساري»[(١)].

ولكنّ الحقيقة هي غير ذلك تماماً، فلم يكن أبو هريرة وكيلاً لا بالعطاء ولا بالحفظ، وأنّ كلّ ما في الأمر هو أنّ ما يجلبه المسلمون من زكاة رمضان من حنطة وشعير وتمر وغيرها كان يوضع في زاوية من المسجد ليجري توزيعه على مستحقّيه، وكان أبو هريرة مقيماً في المسجد (في الصفّة) ولا يبرحه، فربّما أمره النبيّ ﷺ يوماً بجمع أو ترتيب أو حراسة ذلك الطعام، وذلك لا يجعله وكيلاً في أيّ شيء، ولكنّه عندما أصبحت له صولة وجولة في عهد الأمويّين أحبّ أن يصنع لنفسه تاريخاً يتفاخر به على بسطاء الناس، فجعل من نفسه وكيلاً في حفظ الزكاة!!

كما تضمّنت روايته أشياء أُخرى:

منها: أنّ النبيّ ﷺ قال له: «أما إنّه كذبك وسيعود» ثلاث مرّات، ولكنّه كان

---

(١) إرشاد الساري ٥: ٢٣١.

في كلّ مرّة يصدّق السارق ويكذّب رسول الله ﷺ .

ومنها : إنّه أقسم بالله ثلاث مرّات بأنّه سيرفعه إلى النبيّ ، ولكنّه حنث بها جميعاً .

ومنها : إنّ الشيطان لمّا وجد نفسه محاصراً في الثالثة ، وأنّ أبا هريرة أمسكه مسكة لا فكاك منها لجأ إلى خيانة قومه (الشياطين) وأفشى سرّهم العظيم لأبي هريرة مقابل تحريره.. وقد استفاد أبو هريرة من هذا السرّ فبقي محفوظاً من الشياطين محفوفاً برعاية الله إلى أن مات ، ولذلك وجب على المسلمين أن يصدّقوا كلّ ما يقول..

أليس هذا هو ما يريدون ؟!

الجنّ والشياطين

الأحاديث:

١ - <u>١ / ١ / ٩٥</u>

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«إنَّ عِفرِيتاً مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبارِحَةَ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَها- **لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاةَ، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبطَهُ إلىٰ سارِيَةٍ مِنْ سَوارِي الْمَسْجِدِ حَتّىٰ تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخي سُلَيْمانَ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِن بَعْدِي﴾**[1]».

٢ - <u>١ / ١ / ١٢١</u>

بسنده عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنّه قال:

«إذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطانُ وَلَهُ ضُراطٌ حَتّىٰ لا يَسْمَعَ التَّأْذينَ، فَإذا قُضِيَ النِّداءُ أَقْبَلَ، حَتّىٰ إذا ثُوِّبَ بِالصَّلاةِ أَدْبَرَ حَتّىٰ إذا قُضِيَ التَّثْويبُ أَقْبَلَ حَتّىٰ يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ: اذْكُرْ كَذا، اذْكُرْ كَذا، لِما لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتّىٰ يَظَلَّ الرَّجُلُ لا يَدْرِي كَمْ صَلّىٰ».

٣ - <u>١ / ٢ / ٥٠</u>

بسنده عن أبي وائل عن عبدالله، قال:

---

(١) ص ٣٨: ٣٥.

«ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ فَقِيلَ: ما زالَ نائِماً حَتَّىٰ أَصْبَحَ، ما قامَ إِلَى الصَّلاةِ، فَقالَ: بالَ الشَّيْطانُ في أُذُنِهِ».

٤ - <u>٢ / ٤ / ١٢٣</u>

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ، قال:

«إِذا مَرَّ بَيْنَ يَدَيْ أَحَدِكُمْ شَيْءٌ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَمْنَعْهُ، فَإِنْ أَبَىٰ فَلْيَمْنَعْهُ، فَإِنْ أَبَىٰ فَلْيُقاتِلْهُ، فَإِنَّما هُوَ شَيْطانٌ».

٥ - <u>٢ / ٤ / ١٢٣</u>

بسنده عن أبي هريرة:

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: إِذا دَخَلَ رَمَضانُ فُتِحَتْ أَبْوابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّياطِينُ».

٦ - <u>٢ / ٤ / ١٢٣</u>

بسنده عن جابر، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«إِذا كانَ جُنْحُ اللَّيْلِ أَوْ أَمْسَيْتُمْ، فَكُفُّوا صِبْيانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّياطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذا ذَهَبَتْ ساعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ فَخَلُّوهُمْ»..

٧ - <u>٢ / ٤ / ١٢٥</u>

بسنده عن أبي هريرة:

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعَنُ الشَّيْطانُ في جَنْبَيْهِ بِإِصْبَعِهِ حِينَ يُولَدُ، غَيْرَ عِيسَىٰ بْنَ مَرْيَمَ ذَهَبَ يَطْعَنُ، فَطَعَنَ في الْحِجابِ».

٨ ـ ٢ / ٤ / ١٢٥

وعن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ ، قال :

«التَّثاؤُبُ مِنَ الشَّيْطان ، فَإِذا تَثاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَرُدَّهُ ما اسْتَطاعَ ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذا قالَ : ها ، ضَحِكَ الشَّيْطانُ» .

وعنه أيضاً في ٣ / ٨ / ٤٩

«إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعُطاسَ وَيَكْرَهُ التَّثاؤُبَ» .

٩ ـ ٢ / ٤ / ١٢٨

وعن أبي هريرة أيضاً :

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ : إِذا سَمِعْتُمْ صِياحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنَّها رَأَتْ مَلَكاً ، وَإِذا سَمِعْتُمْ نَهيقَ الْحِمارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ ، فَإِنَّهُ رَأىٰ شَيْطاناً» .

١٠ـ ٢ / ٤ / ١٢٦

وعن أبي هريرة كذلك :

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ : إِذا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنامِهِ ، فَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلاثاً ، فَإِنَّ الشَّيْطانَ يَبيتُ عَلىٰ خَيْشُومِهِ» .

١١ـ ٢ / ٥ / ٤٨

بسنده عن عبدالله بن عمر ، قال :

«ما سَمِعْتُ عُمَرَ لِشَيْءٍ قَطُّ يَقُولُ إِنّي لَأَظُنُّهُ كَذا إِلّا كانَ كَما يَظُنُّ .

بَيْنَما عُمَرُ جالِسٌ إِذ مَرَّ بِهِ رَجُلٌ جَميلٌ ، فَقالَ : لَقَدْ أَخْطَأَ ظَنّي ، أَوْ إِنَّ هٰذا عَلىٰ دِينِهِ في الْجاهِلِيَّةِ ، أَوْ لَقَدْ كانَ كاهِنَهُمْ ، عَلَيَّ الرَّجُلَ .

فَدُعِيَ لَهُ ، فَقالَ لَهُ ذلِكَ .

فَقالَ : ما رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ اسْتُقْبِلَ بِهِ رَجُلٌ مُسْلِمٌ .

قالَ : فَإِنّي أَعْزِمُ عَلَيْكَ إِلّا ما أَخْبَرْتَنِي .

قالَ : كُنْتُ كاهِنَهُمْ في الْجاهِلِيَّةِ .

قالَ : فَما أَعْجَبُ ما جاءَتْكَ بِهِ جِنِّيَّتُكَ ؟

قالَ : بَيْنَما أَنا يَوْماً في السُّوقِ جاءَتْنِي أَعْرِفُ فِيها الْفَزَعَ ، فَقالَتْ : أَلَمْ تَرَ الْجِنَّ وَإِبْلاسَها وَيَأْسَها مِنْ بَعْدِ إِنْكاسِها وَلُحُوقِها بِالْقِلاصِ وَأَحْلاسِها .

قالَ : عُمَرُ صَدَقَ ، بَيْنَما أَنا نائِمٌ عِنْدَ آلِهَتِهِمْ إِذْ جاءَ رَجُلٌ بِعِجْلٍ فَذَبَحَهُ ، فَصَرَخَ بِهِ صارِخٌ لَمْ أَسْمَعْ صارِخاً قَطُّ أَشَدَّ صَوْتاً مِنْهُ يَقُولُ : يا جَلِيحُ ، أَمْرٌ نَجِيحٌ ، رَجُلٌ فَصِيحٌ يَقُولُ لا إِلـٰهَ إِلَّا اللهُ ، فَوَثَبَ الْقَوْمُ .

قُلْتُ : لَا أَبْرَحُ حَتّىٰ أَعْلَمَ ما وَراءَ هـٰذا ، ثُمَّ نادىٰ : يا جَلِيحُ أَمْرٌ نَجِيحٌ ، رَجُلٌ فَصِيحٌ ، يَقُولُ : لا إِلـٰهَ إِلَّا اللهُ ، فَقُمْتُ فَما نَشِبْنا أَنْ قِيلَ هـٰذا نَبِيٌّ » .

المناقشة :

هل يمكن أن يكون الأنبياء عرضة لنزوات الشياطين ؟

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾(١) .

وقال حكاية عن إبليس : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ

(١) الحجر ١٥ : ٤٢ .

الْمُخْلَصِينَ ﴾[١].

إنّ مخالفة الحديث لكتاب الله هي الدليل الأوّل على بطلانه ، حيث نصّت آياته على أن ليس للشيطان سبيل إلى المخلصين من عباد الله ، وإنّما سلطانه على الغاوين منهم فقط .. وبذلك لم يكن بوسعه أن يتعرّض إلى النبيّ ﷺ ليقطع عليه صلاته ..

ولنا في مناقشة هذا الحديث عدّة ملاحظات :

١ ـ إنّ النبيّ ﷺ كان إذا قام للصلاة اطمأنّت نفسه ، وتجرّدت روحه عن كلّ ما هو دنيويّ ، وأقبل على الله متفرّغاً ، متوجّهاً بعبوديّة خالصة لوحدانيّته جلّ شأنه ، وما أن يُحرِم بالتكبير حتّى يتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم ، عملاً بقوله تعالى : **﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾**[٢] ، والاستعاذة دعاء ، ودعاء النبيّ مستجاب ، وإذا كان أبو هريرة قد جهل هذه الحقيقة ، فإنّ الشيطان يعرفها ولا يتمكّن من تحدّيها ..

٢ ـ أورد البخاري عن أبي هريرة نفسه أنّ الشيطان إذا سمع الأذان للصلاة أدبر هارباً ، وإذا سمع التثويب بها ولّى هلعاً فزعاً ، فكيف إذن يتجرّأ على رسول الله ﷺ فيقتحم عليه خلوته ، ويتسوّر على مقامه الرفيع ، وهو في الحرم المنيع ، بين يدي الله ، عائذاً بعزّته ، متّكلاً على قوّته وجبروته ، لائذاً بحمايته ، منقطعاً إليه عن كلّ شيء ؟! هيهات أن يستطيع الشيطان ذلك لـ **﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾**[٣].

٣ ـ لا زال عجبنا من القوم لا ينقضي ، ويتجدّد مع كلّ موضوع نبحثه ،

---

(١) ص ٣٨ : ٨٢ و ٨٣.

(٢) النحل ١٦ : ٩٨.

(٣) النحل ١٦ : ٩٩ و ١٠٠.

فبقدر حرصهم على تنزيه الصحابة وامتداح دينهم وسلوكهم ، فإنّهم يزهدون بذلك الحرص عندما يتعلّق الأمر برسول الله ﷺ .

فقد مرّ عليك ما رواه البخاريّ عن أبي هريرة نفسه من قول النبيّ ﷺ لعمر : **« إيهاً يابن الخطّاب ، والذي نفسي بيده ، ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً إلّا سلك فجّاً غير فجّك »** ! ! فهل يقبل الضمير الحيّ والقلب المؤمن تصديق قدرة الشيطان على اقتحام مصلّى النبيّ ليقطع عليه صلاته ، وعجزه عن مجرّد سلوك الطريق الذي يسلكه عمر !

إن هذا إلّا وسوسة شيطان رجيم .

هل للجنّ أجسام مادّيّة ؟

قوله في الحديث الأوّل : « **فأمكنني الله منه ، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتّى تُصبحوا وتنظروا إليه** . . » فيه أنّ عفاريت الجنّ أجسام مادّيّة يمكن مسكها وربطها إلى السواري . . واعتقاد ذلك يتعارض مع عدّة ثوابت ، منها :

إنّ كونها تمتلك أجساماً مادّيّة يسهّل على الإنسان محاربتها ومقاتلتها بقواه الجسديّة المادّيّة وأسلحته المعتادة ، في حين نعرف بالضرورة أنّ محاربة الشياطين إنّما تتحقّق بوسائل روحيّة خالصة كعمق الإيمان ، وقوّة العقيدة ، وصدق الإلتجاء إلى الله سبحانه ، وليس بالأسلحة ووسائل الدفاع المادّيّة . .

كما أنّ اعتبارها مادّة يتعارض مع إمكانيّة نفاذها إلى تفكير الإنسان وقلبه وضميره وسريانها في أعماقه سريان الدم في العروق . .

وكذلك ، فقد علمنا أنّ مجال عمل الشياطين وحركتها هو الجانب اللامادّي من الإنسان ، ولم يكن ذلك ممكناً إلّا لكون طبيعتها هي أيضاً غير مادّيّة . .

ولا ندري لماذا لم يسمع أحد من الصحابة هذا الحديث غير أبي هريرة ،

فلم يروه غيره ؟

ولماذا لم يحاول أحد منهم سؤال النبيّ ﷺ عن شكل ذلك الجنّي وخصائصه وهيئته ؟ أوَلَم يكن فيهم واحد على الأقلّ لديه رغبة في الاطّلاع ، أو دفعة من فضول ، وقد رأيناهم يسألوه عن عدد شعرات لحاهم ؟ !

إنّنا لا نعرف ولن نعرف غير ما أخبرنا الله به عن الملائكة والجنّ والشياطين.. وهو لم يخبرنا مِمّ خلقهم.. ولا كيف هم.. ولا هيئاتهم وأشكالهم ، إلّا أنّه قال بأنّه سبحانه قد ﴿ **وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ** ﴾[1] الذي لا نعرف عنه إلّا أنّه « نار لا دخان لها » وحسب..

وإذا كان إيماننا بوجودهم أكيداً ومطلقاً فهو تصديق لله ولرسوله ، ولما ورد في كتابه العزيز.. وإذا لم يكن بوسعنا تصديق إمكانيّتهم على الاختلاط بعالمنا والسياحة في أراضينا بلا ضوابط ولا قوانين ، فلأنّ الله ورسوله لم يخبرانا بذلك.. وإنّ أقصى ما نستطيع تصوّره هو أنّهم يوسوسون في صدور الناس لتخريب أرواحهم ، وإفساد ضمائرهم ، وزعزعة إيمانهم وعقائدهم ، وقد هيّأ الله تعالى لهؤلاء الناس سلاحاً فتّاكاً لمحاربتهم والتخلّص من شرورهم ، هو الإيمان الذي يصون النفس من الهوى والشهوات فلا يبقى للشيطان عليهم من سبيل..

كيف تعمل الشياطين ؟

لقد أصبحت هذه الروايات عبئاً ثقيلاً على كاهل المسلمين ، فقد فرضت عليهم ما ظنّه واضعها وراويها صواباً من ظهور الشياطين للناس عياناً لتفعل بهم ما تريد.. أمّا الله سبحانه وتعالى فقد قال : ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَٰهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ**

---

(١) الرحمن ٥٥ : ١٥.

وَالنَّاسِ﴾[(١)].. فحصر سبحانه دور الشيطان بالوسوسة في الصدور، ولم يقل غير ذلك، فإذا ما أراد قطع صلاة أحد فإنّه سيوسوس له، ويذكّره بما كان قد نساه، ويعرض عليه صوراً لملذّات الحياة وشهواتها، فيشغله بالتفكير فيها ويلهيه عن صلاته ويفسدها، ويجعله يقول:

أُصلّي فما أدري إذا ما ذكرتها اثنتين صلّيتُ الضحى أم ثمانيا

إنّ الشيطان لم يظهر أمام قائل هذا البيت متقافزاً هنا وهناك، وإنّما ذكّره بمن يُحبّ فانتقل إلى عالمها ولم يعُد له في عالم الصلاة عينٌ ولا أثر..

فالشهوات هي سلاح الشيطان في غواية البشر، والهوى وسيلته في إفساد حياتهم، والملذّات سبيله الذي يجتذبهم به إلى حضيرته.. وقد قيل: «**ركّب الله في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في ابن آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومَن غلبت شهوته عقله فهو شرّ من البهائم**»[(٢)].

وقال تعالى: **﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾**[(٣)].

وقال رسوله الكريم ﷺ: «**حُفَّتِ الجنّةُ بالمكاره، وحفَّتِ النارُ بالشهوات**»[(٤)].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أخاف عليكم اثنتين: اتّباع الهوى، وطول الأمل،**

---

(١) الناس ١١٤: ١ ـ ٦.

(٢) علل الشرائع ١: ٥، الحديث ١، عن عليّ عليه السلام.

(٣) النازعات ٧٩: ٤٠ و ٤١.

(٤) مسند أحمد ٢: ٣٨٠ و ٣: ٢٨٤. صحيح مسلم ٨: ١٤٢. سنن الترمذي ٤: ٩٧، الحديث ٢٦٨٤.

فإنّ اتّباع الهوى يصدّ عن الحقّ، وطول الأمل يُنسي الآخرة»[١].

فشيطان كلّ امرئ ضعف إيمانه، وقوّة شهواته، فهو موجود فيه، مغروس في أعماقه.. تدعوه الشهوة، ويضعف إيمانه عن ردعها، فينطلق راكباً هواه، مرتكباً كلّ المحارم والآثام..

ولا يصحّ أن ننسى أنّ الإنسان غاص في أعماق البحار والمحيطات، ورصد وصوّر أدقّ المخلوقات المجهريّة.. وحلّق في الآفاق، وتجوّل فوق السحاب، فاطّلع على المرّيخ والقمر، واكتشف مليارات النجوم والأجرام، راقبها بعدساته، وعرف متى تظهر ومتى تختفي.. ونزل إلى أعماق الأرض ورصد حركتها وصوّر طبقاتها وتراكيبها.. فهلّا تاهَ يوماً جنيّ أو شيطان فجرى تصويره؟

وهلّا اكتشف يوماً ولو صدفةً، وكراً من أوكار الجنّ، أو عشّاً من أعشاش الشياطين؟ وهلّا تمكّن أحد هؤلاء الرواة أن يصف جنّيّاً رآه أو شيطاناً تفلّت عليه، أو تعرّض لأحد ذويه، وقد مضى أكثر من ألف وأربعمائة عام وهم يتحدّثون عنهم، ويتناقلون أخبارهم؟ أوَلم تصْدُق روايةً واحدة ممّا ذكروه؟

الشيطان أخطر أم الإنسان؟

ورد في الآية الكريمة: ﴿**الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾.. أي أنّ الوسوسة والغواية يمكن أن يكون مصدرهما الشيطان أو الإنسان على قدم المساواة..

فأمّا الشيطان، فهو جبان ضعيف، جرّ على نفسه البلاء وغضب الله، فأُخرج من الملائكة، وأُهبط إلى الأرض مطروداً خاسئاً موتوراً..

إنّه يعمل في السرّ والخفاء.. فإن تعوّذت منه بالله صادقاً.. هرب.

---

(١) الكافي ١: ٤٤، الحديث ١ و ٢: ٢٣٦، الحديث ٣.

وإن أيقن أنّك من عباد الله المخلصين.. رحل من ديارك وحِماك..

يكفيك إيمانك بالله والتزامك سبيله للتحصّن من شروره وأذاه..

لا يأتيك من مكامن قوّتك.. بل يستغلّ فيك مواطن وهنك وضعفك.

يقدّم لك كلّ ملذّات الحياة.. ويغريك بالشهوات.. ويترك لك في اتّباعه الخيار..

وصفه شاعر فقال:

عجبتُ من إبليس في نخوته   وخُبثِ ما أظهرَ من نيّته
تاهَ على آدم في سجدةٍ   وصار قوّاداً لذرّيّته[١]

وأمّا الإنسان، فإذا ما خرج من محيط الإيمان، وصدّ عن سبيل الرحمن، وعصى الله، واتّبع نفسه وهواه، فسيقول:

وكنتُ فتىً من جُندِ إبليس فارتقى
بي الحالُ حتّى صار إبليس من جندي[٢]

وعند ذاك سيكون جبّاراً عنيداً.. وطاغية مريداً..

يعمل في السرّ كما هو في العلن..

إنّ رآك من عباد الله الصالحين، غضب عليك وآذاك، وربّما قتلك..

لا يحصّنك من شروره إيمان.. ولا يدفع أذاه عنك دين..

ينازلك في مكامن ضعفك وقوّتك على السواء..

إن رزقك الله من فضله حسدك..

---

(١) البيت لأبي نؤاس. انظر تفسير الآلوسي: ٨: ٩١.

(٢) البيت للخوارزمي. انظر: تفسير الفخر الرازي: ١٨: ١١٧. أضواء البيان، الشنقيطي ٢: ٢٠٧.

وإن رآك خيراً منه .. صار همّه الإساءة إليك ..

كلاهما شرٌّ .. وكلاهما خطرٌ .. ولكنّ شرّ وخطر (الإنسان ـ الشيطان) أكبر ..

هل يصلح المجاز لفهم هذه الأحاديث ؟

قال المدافعون عن هذه الأحاديث : أنّها تضمّنت معانٍ مجازيّة ، وأوّلوها بما راق لهم .. وتكلّفوا بحملها على ما لا علاقة له بنصوصها ، وطلبوا منّا تصديق ما ذهبوا إليه .. ولكن فاتهم أنّ للمجاز ميدان لا يخرج عن أُصوله وشروطه ، وأنّه لا يمدّهم بالعون في جميع الأوقات والأوضاع .. حيث لا مجاز في حديث يغرق حتّى أُذنيه بالمفردات والتفاصيل فيتحدّث عن أسماء وأفعال ووقائع لا يمكن أن يكون لها غير معناها الظاهر ..

أمّا المجاز ، فإنّه أُسلوب بلاغيّ في التعبير عن فكرة أو قضيّة ما لإعطاء الكلام قوّة وتأثيراً وجماليّة تخترق آذان السامع لتنفذ إلى أعماقه فتمتلك لبّه وتسيطر على حواسّه .. ولذلك كان المجاز أحد أساليب السرد القرآنيّ والخطاب النبويّ .

فلو قيل مثلاً : « استنطق العيون تعلم المكنون » ، فالمقصود واضح ، وهو أنّ العيون ستُفصِح عن المكنون بما يظهر فيها من انفعالات ونظرات .. وليس أنّها ستتكلّم وتنطق ..

وإذا قيل : « يابن آدم ، إنّما أنت أيّام مجموعة كلّما ذهب يوم ذهب بعضك » ، فيكون مفهوماً بلا عناء أنّه لا يقصد أنّ ابن آدم مخلوق من « أيّام مجموعة » كلّما ذهب منها يوم نقص بعض جسده ، بل المقصود هو أنّ عمره قصير ومحدود ، وكلّما مرّ منه يوم ذهب بعض ذلك العمر ..

ولكن بالله عليك ماذا سنفهم من الحديث المزعوم : « إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط » ، أو الحديث الآخر الذي فيه : « بال الشيطان في أُذنه » ؟ ! وما هي المعاني الجديدة أو المختلفة التي سنفهمها بعد تطبيق المجاز ؟ !

وماذا سيضيف لنا المجاز في الحديث الرابع الذي ادّعى فيه أبو هريرة أنّه سمع النبيّ ﷺ يقول: «إذا مرّ بين يدي أحدكم شيء وهو يصلّي فليمنعه، فإن أبى فليمنعه، فإن أبى فليقاتله، فإنّما هو الشيطان»؟! وأنت ترى أنّ في الحديث أفعال وأحداث (مرور، صلاة، منع، قتال، شيطان) لا يمكن أن تعطي غير معانيها الظاهريّة.. وهذا هو ما فهمته أُمّ المؤمنين عائشة عندما سمعت بهذا الحديث وأمثاله، ولم تجد فيه أيّ معنى مجازيّ باطن، فقالت: «لطالما كنت أنام معترضةً قبلة النبيّ وهو يصلّي» قاصدةً تكذيب أبي هريرة.. ولو كانت تعتقد أنّ للكلام معنى آخر لما قالت ذلك..

(ضـ.. اط) الشيطان!

لن أكون بعيداً عن الصواب، ولا متجنّياً على أحد، ولا مجانباً للواقع، إذا ما أسميت هذه الرواية: (ملحمة الضراط) وأنا أجده محورها الرئيس..

فإنّ في العالم مئات الآلاف من المساجد، بل الملايين، يتجمّع فيها مئات الملايين من المصلّين خمس مرّات في اليوم لأداء الصلاة، فلو افترضنا أنّ في كلّ موقع منها شيطان يمارس (الضراط) عند الأذان وبعد التثويب لزلزلت الأرض بما سيندلع عليها من ضراط، ولعُزِفت سمفونيّة لم تشهد لها الأرض مثيلاً.. ولن أقول شيئاً أكثر من ذلك، سوى أنّ أُحذّر مَن يجد في نفسه القدرة على تصديق هذه الرواية لمراجعة إيمانه وعقيدته لأنّها إن كانت بهذا الشكل فإنّ ضرطة واحدة من الشيطان ستنسفها نسفاً..

سماع الخليفة عمر رضي الله عنه للجنّي الصارخ

وهو ما نصّت عليه الرواية الأخيرة، ونعتقد أنّ الخليفة لا يحتاج إلى أمثالها لمعرفة مقدار علمه وعبقريّته وطول باعه، فهي لا تثني عليه بقدر ما تُسيء إليه،

وفي تصديقها اتّهام له بما هو بريء منه، لأننا ننظر إليها من خلال ما نفهمه منها والذي هو:

١ ـ كيف علم الخليفة أنّ ذلك الرجل الجميل إمّا أن يكون لا زال على دينه في الجاهليّة، أو أنّه كان كاهن قومه؟ وهاتان الصفتان لا تعرفان بالفراسة إذا كان المقصود إثبات فراسة الخليفة.. لأنّ الفراسة تتعلّق بصفات ومظاهر خارجيّة تطبع الإنسان، أمّا الكفر والكهانة فإنّها أُمور في القلب والجنان، فلا تراهما العينان..

٢ ـ كيف عرف الخليفة أنّ هذا الرجل كانت ترتاده جنّيّة وليس جنّيّاً؟ حين بادره بالسؤال: «ما أعجب ما جاءتك به جنّيّتك؟».

٣ ـ لماذا لم يسمع أحد من العرب غير الخليفة صوت ذلك الجنّي الصارخ الذي «لم يُسمع أشدّ من صوته قطّ» وهو يقول: «يا جليح.. يا نجيح..» فلو كان هنالك من سمعه غيره، لرواه..

٤ ـ لماذا تأخّر الخليفة أكثر من خمس سنوات لكي يُسلم، وقد سمع الجنّ وهم يعلنون ظهور هذا النبيّ الذي لم يكن يبعد عنه سوى أمتار؟

إنّ احترامنا وتقديرنا لأبي حفص يمنعاننا من تصديق هذه الرواية..

بقيّة الأحاديث

١ ـ الحديث الخامس ليس فيه ما نعترض عليه سوى عبارة (وسُلسلت الشياطين)، حيث أننا لا نفهم منها غير أنّ «الشياطين قد سلسلت»، وهذا يعني أنّها سيجري تقييدها طيلة شهر رمضان لمنعها من اختراق حرمة الشهر الفضيل، وغواية الناس فيه لارتكاب الآثام والمحرّمات، فإذا كان هذا هو المقصود، فإنّه لا يمكن إثباته، لمخالفته للواقع، لأنّنا سنجد شيطاناً مع كلّ مفطر، وآخر مع كلّ فاجر وفاسق، أو ظالم وفاحش.. وما أكثرهم حتّى في شهر رمضان..

٢ ـ ما كنّا نعلم أنّ للشياطين (دوام مسائيّ) يبدأ مع ابتداء جنح الليل إلى ما بعد العشاء بساعة.. حتّى اطّلعنا على الرواية السادسة..

٣ ـ أليس معنى طعن الشيطان في جنبي كلّ بني آدم حين يولدون ـ باستثناء عيسى بن مريم ـ هو طعن في جنبي كلّ الأنبياء والمرسلين بما فيهم نبيّنا الكريم ﷺ، وهو فحوى الحديث السابع...؟

فهل يصحّ أن يعتقد ذلك مسلم؟!

٤ ـ إنّ التثاؤب فعّاليّة لا إراديّة تحصل للإنسان عند التعب والاحتياج للنوم، وهو أمر متعلّق بطبيعة خلقة الإنسان، فلا ندري ما المكروه فيه، ولماذا إذا قال أحدنا: ها.. ضحك عليه الشيطان؟!

٥ ـ إنّ نهيق الحمار هو صوته الذي فطره الله عليه، وإنّه لم يختره أو يخترعه، وكونه أنكر الأصوات ليس ذمّاً لخلقته، وإنّما هو إشارة ارتفاعه وما يسبّبه من إزعاج، خصوصاً إذا ألحّ في عرض آرائه!! ولم نجد بينه وبين الشيطان أيّة رابطة.. ولنا عودة لهذا الحديث وللذي قبله في مكان آخر إن شاء الله..

ما هي علاقة النبيّ ﷺ بمُلك سليمان عليه السلام؟

لقد عوّل الراوي على مبرّر واهٍ لا يصحّ بأيّ حال، لكي يخرج نفسه من المأزق الذي وقع فيه، وهو عدم وجود (الجنّي) ليعرضه النبيّ على أصحابه عندما يصبحون، وهو القائل: «فأمكنني الله منه..»..

فإن قال إنّه هرب، فذلك ينافي «التمكّن منه..» فالأفضل إذن أن يجعل النبيّ هو الذي يقوم بإطلاقه.. ولكن: لماذا يطلقه وقد تمكّن منه وأصحابه متشوّقون لرؤيته؟..

فتفتّق ذهنه عن هذه الفكرة العبقريّة!! «تذكّرت قول أخي سليمان ﴿ **رَبِّ اغْفِرْ**

لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِن بَعْدِي﴾»[١]!! فيكون بذلك قد تخلّص من المأزق، وجعل في إطلاق الجنّي مكرمة للنبيّ، ومدحاً له، ولا ضير في كذبةٍ فيها مدحٌ وكرامة للنبيّ[٢]..!!

ونقول في الردّ على هذا الحديث:

١ ـ إنّ تبرير امتناع النبيّ ﷺ عن أسر العفريت بعدم رغبته في استخدام (صلاحيّات) سليمان عليه السلام لا يستند إلى واقع ولا يدعمه سياق الأحداث، لأنّ الله قد أمكنه فعلاً من الإمساك بالعفريت (حسب الرواية)، فيكون سبحانه وتعالى قد حباه واقعيّاً إحدى مزايا سليمان، إذ كانت مزيّة الإمساك بالعفاريت خاصّة بسليمان دون سواه، فإنّ إطلاق النبيّ للعفريت بملء إرادته لا يعني عدم إمتلاكه لتلك (الموهبة) التي وهبها الله لسليمان، فقد حصل عليها فعلاً ومارسها ولم يعد هناك ما يجامل به سليمان..

٢ ـ إذا كان الإمساك بالعفاريت من اختصاص سليمان وحده، واعتبرناه من ضمن (الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده) فكيف تسنّى للنبيّ ﷺ الإمساك بالعفريت إلّا أن يكون قد أُعطي ذلك الملك فعلاً..

٣ ـ إنّ ملك سليمان لم يكن الإمساك بالعفاريت، وإنّما كان في تسخيرهم لخدمته، وكذلك تسخير الريح، وطيّ المسافات، وتكليم الحيوان والطيور، وإظهار كنوز الأرض، وإطلاق يديه على ما بين الأرض والسماء، وهذا ما لم يتيسّر لأحد من بعده من الأنبياء.. والإمساك بعفريت من الجنّ لا يُعدّ مشاركة له في ملكه..

٤ ـ إذا كان النبيّ ﷺ قد تحرّج من مجرّد الإمساك بالعفريت، فكيف سيتسنّى للمسلم العاديّ تطبيق الحديث الرابع الذي يدعوه لمقاتلة الشيطان إذا مرّ بين يديه؟

---

(١) ص ٣٨: ٣٥.

(٢) عندما حوسب بعض الرواة قالوا: إنّنا لم نكذب على النبيّ، وإنّما كذبنا له.

الفصل الخامس

أحاديث العبادات والأحكام

الأذان

الأحاديث:

١ - ١ / ١ / ١٢٠

بسنده عن عبدالله بن عمر، قال:

«كانَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلاةَ لَيْسَ يُنادىٰ لَها، فَتَكَلَّمُوا يَوْماً في ذٰلِكَ، فَقالَ بَعْضُهُمْ: اتَّخِذوا ناقُوساً مِثْلَ ناقُوسِ النَّصارىٰ، وَقالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ بُوقاً مِثْلَ قَرْنِ الْيَهُودِ.

فَقالَ عُمَرُ: أَوَلَا تَبْعَثُونَ رَجُلاً يُنادي بِالصَّلاةِ.

فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: يا بِلالُ، قُمْ فَنادِ بِالصَّلاةِ».

٢ - ١ / ١ / ١٢١

بسنده عن أنس بن مالك، قال:

«لَمّا كَثُرَ النّاسُ قالَ ذَكَرُوا أَنْ يَعْلَمُوا وَقْتَ الصَّلاةِ بِشَيْءٍ يَعْرِفُونَهُ، فَذَكَرُوا أَنْ يُورُوا ناراً، أَوْ يَضْرِبُوا ناقُوساً، فَأُمِرَ بِلالٌ أَنْ يَشْفَعَ الْأَذانَ، وَأَنْ يُوتِرَ الْإِقامَةِ».

٣ ـ ١ / ١ / ١٢٠

بسنده عن أنس ، قال :

« ذَكَرُوا النّارَ وَالنّاقُوسَ ، فَذَكَروا الْيهودَ وَالنّصارىٰ ، فَأُمِرَ بِلالٌ أَنْ يَشْفَعَ الْأَذانَ ، وَأَنْ يُوتِرَ الْإِقامَةِ ».

المناقشة :

من الغريب أن نجد هذه الرغبة العارمة لدى الكثير من ناقلي الحديث ومؤرّخي الإسلام في تجريد الدين الإسلاميّ الحنيف من أروع وأبدع صفاته المتمثّلة بدقّة تخطيطه ، واتقان تنظيمه ، وروعة تشريعه ، وكمال تصميمه ، ولاغرو ، فهو صنعة جبّار قدير مدبّر حكيم جلّت قدرته . .

إنّ الرغبة التي أشرنا إليها تمثّلت في كمٍّ هائل من الروايات والأحاديث طالت كلّ جانب من جوانب الدين ، وامتدّت إلى كلّ ناحية من نواحي العقيدة لتبذر فيها بذرة من ضعف ، أو تمدّ فيها خيطاً من وهم إن هي لم تستطع أن تطعنه الطعنة النجلاء وتضربه في الصميم ، كما فعلت في كثير من الأحيان وفي العديد من القضايا .

فلو اطّلعت ـ مثلاً ـ على الروايات الخاصّة بأسباب نزول آيات القرآن الكريم ، فإنّك ستجد أنّ نصفها ـ أو أكثر ـ قد نزلت استجابةلرأي أحد الصحابة ، أو ردّاً على سؤال سأله أحدهم ، أو تأييداً لمشورة آخر ، أو تعقيباً على حادثة وقعت ، ولو لم يكن كلّ ذلك لما كان هنالك قرآن يُتلى . .

نعم ، لا بدّ أن يكون بين آيات كتاب الله ما نزل لحلّ معضلة أو لتوضيح مشكل أو لتشريع حكم تركه الباري لحين قيام الحاجة إليه ، ولكن أن ينزل القرآن لأبسط الأمور مع وجود رسول الله ﷺ فذلك هو ما لا نعتقده . .

ولو اطّلعت على تفاصيل العبادات والأحكام لوجدت أنّهم أرجعوا مصدر الكثير منها إمّا لمشورة صحابيّ ، أو لاستحسان رأيه ، أو لحلم رآه في منامه ، وغالباً ما يأتوك بالآية التي نزلت لتأييد تلك المشورة وذلك الرأي..

ممّا يجعلك تتساءل عن دور النبيّ ﷺ الذي جعلته تلك الروايات دوراً محايداً في سياقات الأحداث..

فإذا أراد أن يصلّي على ميّت ، سحبوه من ردائه وقالوا له : ماذا تفعل ، ألم يمنعك الله من الصلاة على المنافقين(١)؟!

وإذا شاء أن يناجي ربّه ويدعوه ويتضرّع له ، جرّه أحدهم قائلاً له : قم يا رسول الله ، لقد ألححت على ربّك(٢)!!

وإذا رغب أن يتّخذ مصلّى ، اقترحوا عليه أن يتّخذ مقام إبراهيم مصلّى ، وتنزل الآية لتأييد هذا المقترح(٣)!!

---

(١) ورد في صحيح البخاري : ٢ : ١٠٠ و : ٥ : ٢٠٦ :

«أنّه لمّا مات عبدالله بن أُبيّ دُعيَ له رسول الله ﷺ ليصلّي عليه ، فلمّا قام رسول الله وثب إليه عمر بن الخطّاب وقال له : أتصلّي على ابن أُبيّ وقد منعك الله من الصلاة على المنافقين ؟

يقول عمر : وأخذت أُعدّد عليه ما قاله ابن أُبيّ ، فتبسّم رسول الله وقال : **أَخِّر عنّي يا عمر.**

فلمّا أكثرت عليه ، قال : **إنّي خيّرتُ فاخترت ، لو أعلم إنّي إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها..**».

(٢) ورد في صحيح البخاري : ٣ : ٢٣٠ و : ٦ : ٥٤ : عن عكرمة ، عن ابن عبّاس : «أنّ النبيّ ﷺ قال وهو في قبّة : **اللّهمّ إنّي أُنشدك عهدك ووعدك ، اللّهمّ إن شئت لم تعبد بعد اليوم.**

فأخذ أبو بكر بيده وقال : حسبك يا رسول الله ، فقد ألححت على ربّك»!!

(٣) ورد في صحيح البخاري أيضاً : ١ : ١٠٥ : بسنده عن أنس :

وإذا أحبّ أن يدعو إلى الصلاة، ذكّروه بالنار والناقوس والبوق، لولا أن تبرق فكرة ذكيّة لدى أحدهم فيقول له: ابعث رجلاً ينادي.. فقال: قم يا بلال.

وإن خرجت نساؤه للتبرّز ليلاً (!) قالوا له: احجب نساءك، فيسارع المولى عزّ وجلّ ويؤيّد أمرهم للنبيّ وينزل آية الحجاب[1]!

ولو أردنا أن نذكر كلّ المواقف المماثلة لخرجنا عن القصد، ولتضاعف عجبنا من تلك الروايات التي صوّرت النبيّ ﷺ على هامش الأحداث.. والحقّ هو غير ذلك تماماً، فإنّ الأمور لم تحدث على هذه الشاكلة، ولم تكن مفردات الدين عرضة للرأي والاستحسان، والقبول والرفض، ولا لطلب الزيادة أو النقصان، كما مرّ بمطالبة النبيّ ربّه بتقليل الصلوات المفروضة، فأنزلها من خمسين إلى خمس صلوات، وكذلك بمطالبته جبرئيل عليه السلام بزيادة حروف القرآن حتّى زادها من واحد إلى سبعة أحرف!!

والحقيقة هي أنّ كلّ ما يتعلّق بالله تعالى لم يكن لأحد فيه أيّ خيار، وكذلك أمور العبادة والأحكام، فإنّها لم تكن من وحي أفكار أحد، ولا من نتاج استحساناتهم، وإنّما كانت استجابة للأمر الإلهي الذي حدّد نوعها وكيفيّاتها وكلّ شيء يتعلّق بها.. فحينما قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾[2]، فإنّه وضع لهم

«أنّ عمر قال: وافقت ربّي في ثلاث.

قلت: يا رسول الله، لو اتّخذنا من مقام إبراهيم مصلّى، فنزلت ﴿ **وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ﴾ [البقرة ٢: ١٢٥].

وقلت: يا رسول الله، لو أمرت نساءك أن يحتجبن، فإنّه يكلّمهنّ البرّ والفاجر، فنزلت آية الحجاب...».

(١) ولو صحّ كلام الخليفة فتكون الحقيقة إنّه لم يكن هو الذي وافق ربّه، وإنّما ربّه هو الذي وافقه وأنزل الآيات بناءاً على اقتراحه وحرفيّاً.

(٢) الذاريات ٥١: ٥٦.

الأُطر التي أراد أن يُعبَد بها، فأمر بها في كتابه العزيز إجمالاً، وأوحى إلى نبيّه الكريم كيفيّة أدائها تفصيلاً.. فعندما أمره بالصلاة ـ مثلاً ـ لم يتركه ليختار الطريقة التي يصلّي بها، وإنّما أرسل إليه جبرئيل عليه السلام ليعلّمه كيفيّة أدائها..

فقد روى ابن مسعود: «أنّ النبيّ ﷺ قال: **نزل جبريل فأمّني، فصلّيت معه، ثمّ صلّيت معه، ثمّ صلّيت معه، ثمّ صلّيت معه، ثمّ صلّيت معه، يحسب بأصابعه خمس صلوات**»[1].

وعندما أمره بالوضوء قبل أداء الصلاة، أنزل عليه قرآناً يعلّمه كيفيّة الوضوء، وعزّزه بجبرئيل يفعل ذلك أمامه.. وعندما أمره بالمناداة للصلاة بقوله: ﴿**وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ**...﴾[2] و ﴿**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ**...﴾[3]، علّمه كيفيّة أداء الصحابة، من ضرورة الإتيان بالإقامة بعده، ومن جعل الأذان شفعاً والإقامة وتراً، فذلك أمرٌ لم يكن ليتبادر إلى ذهن أحد غير المشرّع الذي وضع ذلك وحدّد أُسسه ووسائله وطرق تنفيذه..

وهذا ينطبق على كلّ العبادات الأُخرى وعلى جميع مفردات الدين الحنيف..

---

(١) صحيح البخاري: ٤: ٨١.

(٢) المائدة ٥: ٥٨.

(٣) الجمعة ٦٢: ٩.

الوضوء

الأحاديث:

١ - ١ / ١ / ٢٧ و ٤٠

بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، قال :

«تَخَلَّفَ عَنّا النَّبِيُّ ﷺ في سَفْرَةٍ سافَرْناها ، فَأَدْرَكَنا وَقَدْ أَرْهَقَتْنا الصَّلاةُ وَنَحْنُ نَتَوَضَّأُ ، فَجَعَلْنا نَمْسَحُ عَلىٰ أَرْجُلِنا فَنادىٰ بِأَعْلىٰ صَوْتِهِ: وَيْلٌ لِلأَعْقابِ مِنَ النّارِ ، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً» .

٢ - ١ / ١ / ٣٦

بسنده عن عطاء بن يسار:

«أَنَّ ابْنَ عَبّاسٍ أَراهُمْ كَيْفِيَّةَ وُضوءِ النَّبِيِّ ﷺ إلى أن قال: ثُمَّ أَخَذَ غَرْفَةً مِنْ ماءٍ فَرَشَّ عَلىٰ رِجْلِهِ الْيُمْنىٰ حَتّىٰ غَسَلَها ، ثُمَّ أَخَذَ غَرْفَةً أُخرىٰ فَغَسَلَ بِها رِجْلَهُ الْيُسْرىٰ» .

٣ - ١ / ١ / ٤٤

بسنده عن عبدالله بن زيد ـ بعد أن شرح لهم وضوء النبيّ ﷺ حتّى وصل إلى الرجلين فقال ـ:

«ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ» .

٤ - ١ / ١ / ٤٨

بسنده عن عروة بن المغيرة ، عن أبيه ، قال :

«كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في سَفَرٍ، فَأَهْوَيْتُ لأَنْزِعَ خُفَّيْهِ، فَقالَ: دَعْهُما فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُما طاهِرَتَيْنِ، فَمَسَحَ عَلَيْهِما».

٥ - **١ / ١ / ٤٣**

بسنده عن المغيرة بن شعبة:

«أَنَّهُ رَأى النَّبِيَّ ﷺ يَتَوَضَّأُ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ، وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ، وَمَسَحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ».

٦ - **١ / ١ / ٤٨**

بسنده عن جعفر بن عمرو بن أُميّة الضمري:

«أَنَّ أَباهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ رَأى النَّبِيَّ ﷺ يَمْسَحُ عَلَى الْخُفَّيْنِ، وَراَهُ يَمْسَحُ عَلىٰ عِمامَتِهِ وَخُفَّيْهِ».

المناقشة:

١ - حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

إنّ الحديث الأوّل هو من أهمّ ما لدى القائلين بغسل الأرجل من أدلّة، ونحن نراه دليلاً على عكس ذلك.. أي أنّنا نجد فيه تأكيداً على المسح مع عدم دلالته على الغسل...

فلو أخذنا قوله: «فجعلنا نمسح على أرجلنا» وعلمنا أنّنا أزاء جمع غفير من الصحابة لا زال رسول الله ﷺ فيهم، فمن حقّنا أن نسأل:

لماذا مسحوا على أرجلهم؟

هل أنّ المسح كان أمراً قد فعلوه دوماً وهم يفعلوه الآن؟

أم هي بدعة ابتدعوها في ذلك الموقف فقط فناهم عنها النبيّ؟

فإذا قيل: بل هو أمر تعلّموه وفعلوه وهم الآن يكرّروه.

قلنا: فلماذا منعهم رسول الله عنه؟

فإذا كان قد نُسِخ؟ فبأيّ آية كان النسخ، ولِمَ لم يبلّغوا به؟

وإذالم يكن قد نُسِخ، فإنّ قول النبيّ ﷺ لهم: «ويل للأعقاب من النار» لم يكن تأنيباً ولا منعاً للمسح، وإنّما لغاية أُخرى سنبيّنها..

وإذا قيل: بل هي بدعة ابتدعوها تلك اللحظة..

قلنا: فإنّه من الغريب أن يتواطأ كلّ الجمع في ذلك الموقف على تلك البدعة بحيث أنّ النبيّ ﷺ عندما حضر وجدهم جميعاً يمسحون..!!

أفما شذّ منهم واحد.. أو اعترض.. أو غسل رجليه؟!

على أنّ الرواية لم تخبرنا بردّة فعلهم بعد سماع قول النبيّ، هل قاموا بغسلها؟ أم بقيت الأرجل ممسوحة وأُقيمت الصلاة على وضوء صحيح؟

٢ ـ ويلٌ للأعقاب من النار

على فرض صحّة الرواية، وعلى ضوء ما قلناه آنفاً، فإنّ هذه العبارة ما هي إلّا توجيه عامّ قدّمه النبيّ ﷺ لأصحابه ملفتاً أنظارهم إلى ضرورة تطهير أعقاب أرجلهم دون أن يكون لذلك التوجيه أيّة علاقة بالوضوء وكيفيّته..

فالوضوء معروف لديهم، ومنصوص عليه بآية في كتاب الله بتفصيل واضح، وقد فهم الحاضرون في ذلك الموقف مراد النبيّ ﷺ بما لا يحتمل أيّ تأويل..

فعندما حضر النبيّ ﷺ ووجدهم قد وصلوا إلى مسح الأرجل أراد تذكيرهم بأنّهم كانوا على سفر، وربّما تعلّقت بأعقابهم بعض الأوساخ، فعليهم أن ينتبهوا إلى ذلك وأن يطهّروها إن كان قد أصابها شيء من ذلك قبل الشروع بالوضوء..

٣ـ المسح على الخفّين

إنّ كافّة الروايات المتعلّقة بالمسح على الخفّين وأينما وجدت ، مضطربة وبعيدة عن الواقع ، ويكفي في ردّها ما أورده الرازي عن عائشة من أنّها قالت : « لأن تُقطع قدماي أحبّ إليّ من أن أمسح على الخفّين » .

وما أورده أيضاً عن ابن عبّاس من قوله : « لئن أمسح على جلد حمار أحبّ إليّ من أن أمسح على الخفّين »(١) .

فلو كان المسح على الخفّين جائزاً زمن النبيّ ﷺ كما زعموا ، لما خفي ذلك على أقرب الناس إليه ـ زوجته وابن عمّه ـ وعلى المعاند أن يجد لنا مخرجاً من هذه الروايات المتناقضة . .

ولكنّ الأدهى من ذلك هو أن يجيز المسح على الخفّين هو نفسه الذي يمنع ويحرّم المسح على الرجلين . . وذلك من عجائب الأُمور . .

٤ـ هل شرّع الوضوء لأجل الطهارة ؟

يعتقد البعض أنّ الغسل أشمل وأعمّ فائدة من المسح ، وأشدّ مناسبة للقدمين ، إذ لا تتطهّران إلّا بالغسل غالباً ، بخلاف الرأس الذي ينقى عموماً بالمسح ، وقد قالوا : إنّ المصالح المعقولة لا يمتنع أن تكون أسباباً للعبادات المفروضة . .

فنقول : نعم ، إنّ الله سبحانه لم يأمر عباده إلّا بما فيه مصلحتهم ، لكنّه لم يجعل مدارك تلك الأحكام منوطة من حيث المصالح والمفاسد بآراء الناس ، بل بأدلّة قام بتعيينها ، وأوّل تلك الأدلّة كتابه العزيز الذي أمر بمسح الرؤوس والأرجل في الوضوء ، ولا بدّ من الامتثال لأمره . .

---

(١) تفسير الرازي ٣ : ٣٨١ .

أمّا طهارة الأرجل فلا بدّ من إحرازها قبل المسح عليها ، عملاً بأدلّة خاصّة اشترطت الطهارة في أعضاء الوضوء قبل الشروع فيه ، سيّما وأنّ الوضوء لم يشرع لإزالة النجاسات الظاهرة المعروفة ، وإنّما هو عمل تعبّدي أوجبه الشارع المقدّس ليكون شاملاً للطهارة ولتحقيق الكثير من الأسرار والحكم التي وضعها الله سبحانه فيه ، وإذا ما ذكرنا منها شيئاً ، فلنذكر قول النبيّ ﷺ : « **إذا غَضِبَ أحدُكم فليتوضّأ** »[(١)] حيث سنعلم أنّ أحد أسرار الوضوء تطهير النفس قبل أن يكون تطهيراً للجسد .

٥ ـ آية الوضوء ، وحكم الأرجل

نودّ أن نذكر بأنّ بحثنا هذا ليس بحثاً في تفسير القرآن ، ولا هو بحث فقهيّ يناقش الأدلّة الفقهيّة أو أُصولها ، وإنّما هو بحث نناقش فيه بعض الأحاديث المرويّة عن النبيّ ﷺ بعرضها على العقل والمنطق للوقوف على مدى اقترابها من المفاهيم الإسلاميّة وروح الشريعة أو ابتعادها عنها ، وسيظلّ هذا الهدف رائدنا بالرغم من حاجة العديد من المواضيع إلى دراسة أعمق وتحليل أشمل ، ولكنّ عزاءنا هو أنّ بإمكان مَن يرغب بالتوسّع الرجوع إلى المصادر المتخصّصة بكلّ موضوع ، وهي كثيرة ومتوفّرة بحمد الله . .

ومن هنا كانت معالجتنا للأُمور كأنّها إشارات أو إلفاتات نظر للملاحظات الرئيسيّة الهامّة التي سجّلناها على كلّ موضوع ، وستبقى كذلك . .

أمّا بخصوص ما نحن فيه فنقول :

١ ـ إنّ آية الوضوء واضحة جدّاً ، إذ تناولت أربعة أجزاء من الجسد : الوجه ، اليدين ، الرأس ، والرجلين ، ونصّت على أنّ حكم الغسل للوجه واليدين ، والمسح للرأس والرجلين ، فاستمع إلى قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ**

---

(١) مسند أحمد ٤ : ٢٢٦ . سنن أبي داود : ٢ : ٤٣٤ ، الحديث ٤٧٨٤ .

إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[١] وليس في كتاب الله غير هذا يخصّ الوضوء..

٢ ـ إنّ كلّ ما حدث كان نتيجة قراءة بعض الصحابة لـ(اللام) في ﴿ **وَأَرْجُلَكُمْ** ﴾ منصوبة بالفتح، وقراءة بعضهم لها مجرورة بالكسر على اعتبار عطفها على ﴿ **بِرُؤُوسِكُمْ** ﴾.. فكانت تلك (الفتحة) هي الطامّة الكبرى التي وقعت على رؤوس المسلمين، فتناحر المتناحرون، ودُبّجت المطوّلات والبحوث التي بسط فيها علماء الدين براعاتهم، واستنزف فيها علماء اللغة فنونهم، وكلّ منهم يبكي على ليلاه..

٣ ـ لعلّنا نجد عذراً لمن قرأ (أرجلكم) بكسر اللام على ضوء ما بين يديه من أُصول وقواعد اللغة، فقد وجد أمامه جملتين كاملتين في كلّ منهما فعلٌ محدّد لعضو محدّد: ﴿ **فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ** ﴾ و ﴿ **وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ** ﴾، فتكون الأيدي حسب قواعد اللغة معطوفة على الوجوه، فأصبح حكمها الغسل، والأرجل معطوفة على الرؤوس، فكان حكمها المسح.

ولم يكن أمراً جللاً أن يخطئ أحد القرّاء في حينه فيقرأها بالفتح، لأنّ المسلمين قادرون على التقاط الخطأ وتصحيحه، وذلك أمرٌ استوعبه الخليفة عثمان وتقبّله بكلّ هدوء عندما رفعوا إليه المصحف الذي أمر بجمعه حيث قال لهم: «قد أحسنتم وأجملتم، أرى فيه شيئاً من لحن، وستقيمه العرب بألسنتها»[٢].

كما استوعبت ذلك أُمّ المؤمنين عائشة[٣] حين قالت لمن سألها عن اللحن الموجود في قوله تعالى: ﴿ **إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ** ﴾[٤].

---

(١) المائدة ٥: ٦.

(٢) المصاحف، السجستاني: ٤٢. كنز العمّال ٢: ٥٨٦، الحديث ٤٧٨٤.

(٣) مجمع البيان ٣: ٢٣٩.

(٤) طه ٢٠: ٦٣.

وقوله : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾(١).

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ ﴾(٢)، إذ قالت : « هذا عمل الكتّاب أخطأوا في الكتاب »..

فلا غرابة إذن في أن يكون من قرأ (أرجلكم) ـ بالفتح ـ قد أخطأ ، وهذا ليس كفراً ، سيّما وأنّه لم يتعمّده ، وأنّ العديد من الصحابة ـ وربّما أغلبهم أو جميعهم (لا ندري) ـ قد قرأوها بالكسر..

٤ ـ آية التيمّم ، قرينة قويّة تدعم المسح ، ودليل واضح لو أنّ المسلمين قد تُركوا لدينهم ولم يتفرّقوا شيعاً وأحزاباً ، فقد نصّت الآية على مسح ما كان أصله الغسل في الوضوء ، وأهملت ما كان أصله المسح ، فقد قال تعالى : ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾(٣)، ففي غياب الماء يمسح المسلمون وجوههم وأيديهم فقط بالتراب ويتركون الرأس والأرجل..

٥ ـ إنّ الله سبحانه وتعالى لم يُرِد التشويش على عباده لكي يضع لهم ألغازاً في أمرٍ أراد أن يتعبّدوه به ، وليس عسيراً عليه لو أراد غسل الأرجل أن يقول : فاغسلوا وجوهكم وأيديكم وأرجلكم وامسحوا برؤوسكم ، وينتهي الأمر دون أن يُصدر لهم أمراً ظاهره المسح وهو يريد به الغسل..

ولا يصحّ أن يقال : إنّ في ذلك السياق بلاغة أو ما شابه من فنون اللغة ، لأنّ الأمر عكس ذلك تماماً ، بحيث أنّك لو اطّلعت على تخريجات القائلين بالفتح ستجدها غريبة وباردة وعقيمة ، وهي ليست من البلاغة في شيء..

٦ ـ بين يدي الآن أكثر من عشرين رواية وردت في تفاسير : القرطبي ، والطبري ،

---

(١) النساء ٤ : ١٦٢.

(٢) المائدة ٥ : ٦٩.

(٣) النساء ٤ : ٤٣.

وابن كثير، وفي مسند أحمد، وسنن: أبي داود والترمذي وابن ماجة، وفي الدرّ المنثور، وكنز العمّال، والإصابة، وأُسد الغابة.. رويت بالإسناد إلى: عليّ، وعمر، وعثمان، وأنس، وابن عبّاس، وعبّاد بن تميم، وعبدالله بن زيد المازنيّ، وأوس الثقفيّ، والشعبيّ، وقتادة، وعلقمة، والأعمش، والضحّاك، وأبي مالك الأشعريّ..، وكلّها تنصّ على أنّ النبيّ ﷺ كان يمسح رجليه في الوضوء، وهذه معارضة قويّة لروايات الغسل لا يجوز إغفالها، ومن أحبّ التأكّد فليراجع الكتب المذكورة..

٧ ـ مسك الختام:

سبق لنا القول في باب (الأذان) أنّ الله سبحانه لم يهمل تعليم النبيّ ﷺ كيفيّة أداء العبادات والفرائض التي اختطّها لعباده، وذكرنا ما رواه البخاري من إمامة جبرئيل عليه السلام للنبيّ ﷺ في الصلوات الخمس زيادة في تثبيت تعليمه ليقوم هو بتعليم المسلمين، وقلنا أنّ هذا الأُسلوب الإلـهيّ في تدريب النبيّ ينطبق على جميع العبادات والأحكام دون استثناء..

فهل نجد ما يدلّ على أنّ الله تعالى قد علّم النبيّ كيفيّة الوضوء بعد أن أنزل آيته عليه.. أم لا ؟

لنستمع إلى ما رواه السيوطي عند حديثه عن بعثة النبيّ ﷺ الذي نقله عن «سنن البيهقي» وكتاب أبي نعيم، بسنده عن عروة بن الزبير حيث قال: «إنّ جبريل لمّا نزل على النبيّ ﷺ في أوّل البعثة فتح عين ماء بالإعجاز فتوضّأ والنبيّ ينظر إليه، فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، ومسح برأسه ورجليه إلى الكعبين، ففعل النبيّ مثله»[(١)].

ثمّ اسمع ما رواه الحلبيّ في «إنسان العيون» ـ باب وضوئه وصلاته ﷺ،

---

(١) الخصائص الكبرى، السيوطي ١: ٩٤.

حيث قال: «إنّ حديث وضوء جبرئيل في أوّل البعثة ليس فيه إلّا مسحهما ـ أي مسح الرجلين ـ وتفصيله هو أنّ جبرئيل عليه السلام أوّل ما جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وآله بالوحي توضّأ فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، ومسح برأسه ورجليه إلى الكعبين»[1].

فهل بعد هذا من مزيد؟

(١) السيرة الحلبيّة ١: ٢٦٠.

التيمّم

الأحاديث:

١ - ١ / ١ / ٧٠

بسنده عن عائشة، قالت:

«خَرَجْنا مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ في بَعْضِ أَسْفارِهِ حَتّىٰ إِذا كُنّا بِالْبَيْداءِ أَوْ بِذاتِ الْجَيْشِ انْقَطَعَ عِقْدٌ لي، فَأَقامَ رَسولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْتِماسِهِ، وَأَقامَ النّاسُ مَعَهُ وَلَيْسوا عَلىٰ ماءٍ، فَأَتَى النّاسُ إِلىٰ أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَقالُوا: أَلا تَرىٰ ما صَنَعَتْ عائِشَةُ! أَقامَتْ بِرَسولِ اللهِ ﷺ وَالنّاسَ لَيْسُوا عَلىٰ ماءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ ماءٌ.

فَجاءَ أَبو بَكْرٍ وَرسولُ اللهِ واضِعٌ رَأْسَهُ عَلىٰ فَخِذي قَدْ نامَ، فَقالَ: حَبَسْتِ رَسولَ اللهِ وَالنّاسَ، وَلَيْسُوا عَلىٰ ماءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ ماءٌ فَعاتَبَني أَبو بَكْرٍ وَقالَ: ما شاءَ اللهُ أَنْ يَقولَ، وَجَعَلَ يَطْعَنُني بِيَدِهِ في خاصِرَتي فَلَا يَمْنَعُني مِنَ التَّحَرُّكِ إِلّا مَكانُ رَسولِ اللهِ عَلىٰ فَخِذي، فَقامَ رَسولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَصْبَحَ عَلىٰ غَيْرِ ماءٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ فَتَيَمَّمُوا.

فَقالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ: ما هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يا آلَ أَبي بَكْرٍ.

قالَتْ: فَبَعَثْنا الْبَعِيرَ الَّذي كُنْتُ عَلَيْهِ فَأَصَبْنا الْعِقْدَ تَحْتَهُ».

٢ - ١ / ١ / ٧٠

بسنده عن عائشة، قالت:

«أَنَّها اسْتَعارَتْ مِنْ أَسْماءَ قِلادَةً فَهَلَكَتْ (ضاعَتْ)، فَبَعَثَ رَسولُ اللهِ ﷺ رَجُلاً فَوَجَدَها، فَأَدْرَكَتْهُمُ الصَّلاةُ وَلَيْسَ مَعَهُمْ ماءٌ، فَصَلّوا، فَشَكَوْا ذٰلِكَ إِلىٰ رَسولِ اللهِ ﷺ،

فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ فَقالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ لِعائِشَةَ: جَزاكِ اللهُ خَيْراً، فَوَاللهِ ما نَزَلَ بِكِ أَمْرٌ تَكْرَهينَهُ إلّا وَجَعَلَ اللهُ ذٰلِكَ لَكِ، وَلِلْمُسْلِمينَ فيهِ خَيْراً».

٣ ـ ١ / ١ / ٧١

بسنده عن سعد بن عبدالرحمن بن أبزي، عن أبيه، قال:

«جاءَ رَجُلٌ إلىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطّابِ، فَقالَ: إنّي أَجْنَبْتُ فَلَمْ أُصِبِ الْماءَ.

فَقالَ عَمّارُ بْنُ ياسِرَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطّابِ: أما تَذْكُرُ أَنّا كُنّا في سَفَرٍ أَنا وَأَنْتَ، فَأَمّا أَنْتَ فَلَمْ تُصَلِّ، وَأَمّا أَنا فَتَمَعَّكْتُ فَصَلَّيْتُ، فَذَكَرْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّما كانَ يَكْفيكَ هٰكَذا، فَضَرَبَ النَّبِيُّ بِكَفَّيْهِ الْأَرْضَ وَنَفَخَ فيهِما، ثُمَّ مَسَحَ بِهِما وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ».

المناقشة:

لا بدّ من معرفة نصّ آية التيمّم لنضعه نصب أعيننا ونحن نناقش هذه الروايات، فقد قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾**(١).

١ ـ إنّ سياق الآية ونصّها ينفيان ارتباطها بالسبب الوارد في الروايات المذكورة نفياً قاطعاً، لأنّ الآية اشتملت على أحكام عامّة لا تحتمل التأخير لحين وقوع مبرّر للنزول.. فقد تضمّنت الآية ثلاثة أنواع من الحكم:

الأوّل: النهي عن الصلاة في حالة السكر **﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾**.

---

(١) النساء ٤: ٤٣.

الثاني : النهي عن الصلاة في حالة الجنابة بوجود الماء ﴿ **حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا** ﴾ .

الثالث : في حالة فقدان الماء ، فإنّ للمريض والمسافر والمتغوّط ومَن لامس النساء أن يتيمّم صعيداً طيّباً . .

وكما هو واضح ، فإنّ هذه الحالات تدخل في صلب حياة الناس منذ بداية التبليغ بالإسلام ، وفقدان الماء قد لازمها في أغلب الأحيان ، فلا يكون منطقيّاً تأخير نزول التشريع بخصوصها وتعليقه على حدوث الموقف الذي تحدّثت عنه الروايات . .

وفي الحقيقة أنّ الآيات لم تكن لتنزل حسب الحاجة أو الطلب ، وإنّما وفقاً للخطّة والحكمة الإلٰهيّة التي حدّدت كيف ومتى تنزلها ، فلم يكن أمرها متعلّقاً بضياع عقد عائشة أو غيرها واحتباس الناس في الطريق دون ماء للبحث عنه لينزل الله عليهم آية حملت تشريعاً مهمّاً كان ينبغي سنّه قبل ذلك بكثير لقيام الحاجة إليه منذ شُرّعت الصلاة والوضوء . .

إنّ ما قلناه لا يمثّل وجهة نظر خاصّة ، وإنّما هو الحقّ الذي يتغافل عنه الكثير من المسلمين ، ولو أمعنت النظر في الرواية الثالثة وسألت : متى حدثت واقعة عمر وعمّار بن ياسر التي أشارت إليها ؟ فهل وقعت قبل ضياع العقد أم بعده ؟

فإن قالوا : إنّها كانت قبل ضياعه .

قلنا : إذن فإنّ التيمّم كان مشرّعاً بدلالة ما فعله عمّار بن ياسر ومصادقة النبيّ عليه ، وقوله له : «كان يكفيك هذا . .» ، ولا عبرة بعدم معرفة عمر بذلك . .

وإن قالوا : بل كان بعد ضياعه .

قلنا : فلماذا لم يتيمّم عمر وبقي بلا صلاة ؟ في حين تيمّم عمّار وصلّى ؟

ومهما كان الجواب ، فإنّ رواية عمر وعمّار كافية لوحدها لنفي نزول آية التيمّم في السياق المزعوم . . ولا يفوتنا الهدف الأساسيّ لتلك الروايات الذي ما كان يعنيه

تثبيت زمن تشريع التيمّم بقدر عنايته بإثبات فضيلة للسيّدة عائشة وآل أبي بكر عموماً، وبيان بركتهم على الإسلام والمسلمين، وهو ما لا يدّعونه هم أنفسهم.

٢ ـ لقد لاحظنا تناقض الروايتين الأُولى والثانية في جميع التفاصيل ممّا يُضعِفهما معاً:

■ ورد في الأُولى: أنّ النبيّ ﷺ قد أقام بالناس لالتماس العقد فلم يجدوه، ووجدته عائشة فيما بعد تحت البعير..

أمّا في الثانية: فقد بعث رسول الله رجلاً فوجده..

■ في الأُولى: استمرّ البحث طوال الليل حتّى أصبح النبيّ ومن معه..

وفي الثانية: أوضح السياق بأنّها حدثت خلال النهار حيث أدركتهم الصلاة عند عودة الرجل بالقلادة..

■ في الأُولى: اشتكى الناس لأبي بكر فعاتبها وطعنها في خاصرتها..

أمّا في الثانية: فلا شيء من ذلك حدث..

■ في الأُولى: أنّ النبيّ ومَن معه تيمّموا لعدم وجود الماء بعد نزول الآية..

وفي الثانية: إمّا أن يكون مع النبيّ ماء فتوضّأ، وإمّا أن يكون قد تيمّم قبل نزول الآية، والناس هم المعنيّون بنزولها، وهذا ما نفهمه من قوله: «فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء فصّلوا وشكوا ذلك إلى رسول الله، فأنزل الله آية التيمّم»..

■ في الأُولى: قال أسيد لعائشة: ما هي بأوّل بركتكم يا آل أبي بكر.

أمّا في الثانية: فإنّه قال لها: جزاك الله خيراً، فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه إلّا جعل الله ذلك لك، وللمسلمين فيه خيراً..

■ في الأُولى: كان العقد لها؛ إذ قالت: «انقطع عقد لي..».

وفي الثانية: كان العقد لأسماء وقد استعارته منها..

■ في الأُولى: صلّوا بعد نزول الآية..

وفي الثانية: صلّوا قبل نزولها..

٣ ـ تضمّنت الروايات إساءة كبيرة للنبيّ ﷺ، فقد أظهرته بصورة لا تليق به ولا تنسجم مع ما كان عليه من سموّ خلق ورأفة بالمسلمين، فجعلته يحبسهم في الطريق بعد عناء السفر وبلا ماء بدون مبرّر معقول، فحتّى لو كان العقد ثميناً ـ وهذا موضع شكّ، لأنّ بعض الروايات ذكرت أنّه كان من حبّات خشب أو من ثمار ـ فقد كان هنالك الكثير من الحلول وعدم تعطيل القافلة، سيّما وأنّ الماء قد نفد منها، كما أظهرته غير مهتمّ بمن معه، ولا شاعر بحراجة الموقف، فلم يُحسن غير النوم على فخذ عائشة مستغرقاً فيه، على عكس ما أظهره أبو بكر من حميّة بمسارعته إلى معاتبة ابنته طاعناً لها في خاصرتها خجلاً من الناس الذين اشتكوها لديه..

ألا بئس ما يدّعون..

لا نورث ما تركناه صدقة

الأحاديث:

١ - ٢ / ٥ / ١٣٩

بسنده عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة، قالت:

«إِنَّ فاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنها بِنْتَ النَّبِيِّ ﷺ أَرْسَلَتْ إِلىٰ أَبي بَكْرٍ تَسْأَلُهُ مِيراثَها مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ مِمّا أَفاءَ اللهُ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ وَفَدَكٍ وَما بَقِيَ مِنْ خُمُسِ خَيْبَرٍ، فَقالَ أَبو بَكْرٍ: إِنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: لَا نُورَثُ ما تَرَكْنا صَدَقَةٌ، إِنَّما يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ في هٰذَا الْمالِ وَإِنّي وَاللهِ لا أُغَيِّرُ شَيْئاً مِنْ صَدَقَةِ رَسولِ اللهِ عَنْ حالِها الَّتي كانَ عَلَيْها في عَهْدِ رَسولِ اللهِ، وَلَأَعْمَلَنَّ فيها بِما عَمِلَ بِهِ رَسولُ اللهِ.

فَأَبىٰ أَبو بَكْرٍ أَنْ يَدْفَعَ إِلىٰ فاطِمَةَ مِنْها شَيْئاً، فَوَجَدَتْ فاطِمَةُ عَلىٰ أَبي بَكْرٍ في ذٰلِكَ فَهَجَرَتْهُ، فَلَمْ تُكَلِّمْهُ حَتّىٰ تُوُفِّيَتْ، وَعاشَتْ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ أَشْهُرٍ.

فَلَمّا تُوُفِّيَتْ دَفَنَها زَوْجُها عَلِيٌّ لَيْلاً وَلَمْ يُؤْذِنْ بِها أَبا بَكْرٍ، وَصَلّىٰ عَلَيْها، وَكانَ لِعَلِيٍّ مِنَ النّاسِ وَجْهٌ حَياةَ فاطِمَةَ، فَلَمّا تُوُفِّيَتِ اسْتَنْكَرَ عَلِيٌّ وُجوهَ النّاسِ، فَالْتَمَسَ مُصالَحَةَ أَبي بَكْرٍ وَمُبايَعَتَهُ وَلَمْ يَكُنْ يُبايِعُ تِلْكَ الْأَشْهُرَ.

فَأَرْسَلَ إِلىٰ أَبي بَكْرٍ أَنِ ائْتِنا وَلَا يَأْتِنا أَحَدٌ مَعَكَ، كَراهِيَةً لِمَحْضَرِ عُمَرَ.

فَقالَ عُمَرُ: لا وَاللهِ لَا تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ وَحْدَكَ.

فَقالَ أَبو بَكْرٍ: وَما عَسَيْتَهُمْ أَنْ يَفْعَلوا بي، وَاللهِ لَآتِيَنَّهُمْ.

فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ أَبو بَكْرٍ فَتَشَهَّدَ عَلِيٌّ.

فَقالَ: إنّا قَدْ عَرَفْنا فَضْلَكَ وَما أَعْطاكَ اللهُ وَلَمْ نَنفَسْ عَلَيْكَ خَيْراً ساقَهُ اللهُ إِلَيْكَ ، وَلٰكِنَّكَ اسْتَبَدَدْتَ عَلَيْنا بِالأَمْرِ ، وَكُنّا نَرىٰ لِقَرابَتِنا مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ نَصِيباً ، حَتّىٰ فاضَتْ عَيْنا أَبي بَكْرٍ.

فَلَمّا تَكَلَّمَ أَبو بَكْرٍ قالَ: وَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ ، لَقَرابَةُ رَسولِ اللهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرابَتي ، وَأَمّا الَّذي شَجَرَ بَيْني وَبَيْنَكُمْ مِنْ هٰذِهِ الأَمْوالِ ، فَلَمْ آلُ فِيها عَنِ الْخَيْرِ وَلَمْ أَتْرُكْ أَمْراً رَأَيْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَصْنَعُهُ فِيها إِلّا صَنَعْتُهُ.

فَقالَ عَلِيٌّ لأَبي بَكْرٍ: مَوْعِدُكَ الْعَشِيَّةَ لِلْبَيْعَةِ».

٢ - ١٤٧ / ٦ / ٢

بسنده عن الزهريّ ، عن مالك بن أوس بن الحدثان :

«أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ ، قالَ: كانَتْ أَمْوالُ بَني النَّضِيرِ مِمّا أَفاءَ اللهُ عَلىٰ رَسولِهِ ﷺ مِمّا لَمْ يُوجِفِ الْمُسْلِمونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكابٍ ، فَكانَتْ لِرَسولِ اللهِ ﷺ خاصَّةً يُنْفِقُ عَلىٰ أَهْلِهِ مِنْها نَفَقَةَ سَنَتِهِ ، ثُمَّ يَجْعَلُ ما بَقِيَ في السِّلاحِ وَالْكُراعِ عُدَّةً في سَبِيلِ اللهِ».

٣ - ١٤٩ / ٨ / ٣

بسنده عن الزهريّ ، عن عروة ، عن عائشة ، قالت :

«أَنَّ فاطِمَةَ وَالْعَبّاسَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما أَتَيا أَبا بَكْرٍ يَلْتَمِسانِ مِيراثَهُما مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ وَهُما حِينَئِذٍ يَطْلُبانِ أَرْضَيْهِما مِنْ فَدَكَ وَسَهْمَهُما مِنْ خَيْبَرَ ، فَقالَ لَهُما أَبو بَكْرٍ: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: لا نُورَثُ ما تَرَكْنا صَدَقَةٌ ، إِنَّما يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ مِنْ هٰذا الْمالِ.

قالَ أَبو بَكْرٍ: وَاللهِ لا أَدَعُ أَمْراً رَأَيْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَصْنَعُهُ فِيهِ إِلّا صَنَعْتُهُ.

قالَ: فَهَجَرَتْهُ فاطِمَةُ فَلَمْ تُكَلِّمْهُ حَتّىٰ ماتَتْ».

٤ ـ ٣ / ٨ / ١٥٠

بسنده عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«لَا يَقْتَسِمُ وَرَثَتِي دِيناراً وَلَا دِرْهَماً ما تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ نِسائي، وَمَئونَةِ عامِلي فَهُوَ صَدَقَةٌ».

٥ ـ ٣ / ٨ / ١٥٠

بسنده عن عروة، عن عائشة، قالت:

«أَنَّ أَزْواجَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ تُوفِّيَ رَسولُ اللهِ أَرَدْنَ أَنْ يَبْعَثْنَ عُثْمانَ إِلىٰ أَبي بَكْرٍ يَسْأَلْنَهُ ميراثَهُنَّ.

فَقالَتْ عائِشَةُ: أَلَيْسَ قَدْ قالَ رَسولُ اللهِ: لَا نُورَثُ، ما تَرَكْنا صَدَقَةٌ».

المناقشة:

أوّلاً: لقد انفرد أبو بكر برواية هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، ولقد وردت له صورتان:

رواية البخاري: «لا نورث ما تركنا صدقة».

رواية مسلم: «لا نورث ما تركناه صدقة».

وعلى أيّ الفرضين كان، فيمكن الردّ بما يلي:

١ ـ إذا سلّمنا بصحّة صدور هذا القول عن النبيّ ﷺ، فلا يسعنا التسليم بضرورة قراءتها بالرفع، أي (صدقةٌ) على افتراض أنّها خبر الجملة.. فإنّ ذلك ممّا لا يمكن إثباته، ولأنّ القطع بوقوعها مرفوعة هو ترجيح بلا مرجّح..

وعلى عكس ذلك فإنّ المرجّح قائم إذا اعتبرنا الكلمة منصوبة على الحاليّة باعتبار (ما) منصوبة على المفعوليّة، والمرجّح في هذه الحالة هو العودة

بمعنى النصّ إلى النصاب الشرعيّ ، وهو صحّة التوريث . .

إنّ الفرق بين القراءتين كبير ، فقراءتها بالنصب تجعلها منحصرة بأموال الصدقة التي كانت لدى النبيّ ﷺ فقط دون ماله الخاصّ ، حيث سيكون معناها كما لو أنّها قرئت : « لا نورّث ما تركناه من أموال الصدقة » ، وهذا هو الأقرب إلى حيثيّات الشريعة وأحكام الميراث فيها كما سنبيّنه لاحقاً . .

٢ ـ لقد كان على رأس مستحقّي ميراث النبيّ ﷺ ابنته الزهراء عليها السلام وزوجاته أُمّهات المؤمنين ، والنبيّ يعلم أنّهنّ سيطالبن بإرثهنّ منه عقيب وفاته ، وإنّ عمّه العبّاس وأبناء عمومته ـ سيّما عليّ صهره ـ سيطالبون كذلك ، وسيكون لهم موقف؛ لأنّها أحكام القرآن وشريعة الله ، أفما كان الأوْلى بالنبيّ أن يبلّغهم وهم المعنيّون بالأمر بقراره ذاك ؟ حتّى يعرفوا حقوقهم وحدودهم فلا يقع إشكال ولا تحدث فتنة . . بدلاً من اختصاصه بأبي بكر الذي ليس له في الأمر شيء دون سواه ! وقد رأيناه ﷺ قد جمع المسلمين ليخبرهم بأمور أقلّ من هذا مغبّة وخطورة . . أم يقولون أنّ النبيّ تعمّد إيقاع الفتنة وإثارة الحفائظ فجعل ذلك القرار سرّاً بينه وبين أبي بكر ؟ !

لقد نصّت الروايات على أنّ فاطمة هجرت أبا بكر بعد أن منعها حقّها ، وخاصمته على رؤوس الأشهاد ، ثمّ لم تكلّمه حتّى ماتت ، ومنعت حضوره جنازتها ودفنها والصلاة عليها ، كما علمنا أنّ زوجاته بقين يطالبن بحقوقهنّ من الميراث حتّى أردن أن يطلبن وساطة عثمان لولا وقوف عائشة بوجههنّ ، فهل كنّ جميعاً ظالمات فيما يدّعين ؟

٣ ـ على افتراض صحّة الرواية ، وصحّة ما فعله الخليفة بحرمان أهل بيت النبيّ وزوجاته من ميراثه ، فكيف جاز له تمكين عائشة من بيتها الذي هو من ميراث النبيّ وكان المفروض ـ حسب الرواية ـ إلحاقه بالصدقات ؟

إنّ الخليفة الذي حرم فاطمة من حقّها في إرث أبيها ، أباح لابنته هو وراثة بيت النبيّ الذي لم يكن لها فيه أكثر من (تُسْع الثُّمن) لتتصرّف فيه بإرادتها المطلقة ، فتدفنه فيه بعد وفاته ، كما دفنت فيه الخليفة عمر..

فإن قيل : إنّ المال كان مال المسلمين ، وإنّهم لم يكونوا ليمتنعوا عن دفن الشيخين فيه .

قلنا : ألم يكن هو مالهم أيضاً عندما منعه أبو بكر عن فاطمة وبقيّة زوجات النبيّ ، وقد كان بإمكانهم أن يأذنوا لهن فيه إكراماً للنبيّ وبرّاً به في ابنته وزوجاته ؟ سيّما وإنّهنّ حديثات عهد بمصيبتهنّ فيه ، وإنّ الذي طالبن فيه لم يكن ذا بال بالنسبة لبيت مال المسلمين الذي اعتوروه فيما بعد وجعلوه منهلاً لكلّ من هبّ ودبّ حتّى فاض على مَن كان للنبيّ من أعدى الأعداء..

٤ ـ ذكرت فاطمة في معرض احتجاجها على منعها إرث أبيها ، مجموعة من آيات الكتاب المجيد مثل قوله تعالى : ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ** ﴾[(١)].

وقوله : ﴿ **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً** ﴾[(٢)].

وقوله : ﴿ **وأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ** ﴾[(٣)].

وقوله : ﴿ **يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُم لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ** ﴾[(٤)].

وقوله : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ**

---

(١) النمل ٢٧ : ١٦.

(٢) مريم ١٩ : ٥ و ٦.

(٣) الأنفال ٨ : ٧٥.

(٤) النساء ٤ : ١١.

وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[(١)].

ثمّ قالت: **أَفَخَصَّكُمُ اللهُ بِآيَةٍ أَخْرَجَ مِنْها أَبِي ؟ أَمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِخُصُوصِ الْقُرْآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أَبِي وَابْنِ عَمّي ؟ أَمْ هَلْ تَقُولُونَ: أَهْلَ مِلَّتَيْنِ لَا يَتَوارَثانِ ؟**

فاحتجّت أوّلاً بتوريث الأنبياء بآيتي داود وزكريّا الصريحتين بتوريثهما، وهي أعلم بمعاني القرآن من الذين ادّعوا أنّ الإرث هنا هو وراثة الحكمة والنبوّة دون الأموال تقديماً للمجاز على الحقيقة بلا قرينة تصرف اللفظ عن معناه الحقيقيّ المتبادر منه بمجرّد إطلاقه، وهذا ممّا لا يجوز، ولو كان هذا التكلّف صحيحاً لعارضها به أبو بكر أو غيره ممّن حضر من المهاجرين والأنصار[(٢)].

وإذا كان هذا التفسير يفتقر إلى القرينة، فإنّ تفسيره بوراثة الأموال خاصّة، له من القرائن ما يؤكّد إرادة هذا المعنى، وقد ذكر الإمام علم الهدى في كتابه «الشافي» بعض تلك القرائن، منها ما أورده الإمام شرف الدين[(٣)]:

١ - إنّ خوف زكريّا من الموالي هو قرينة على أنه إنّما أراد وراثة الأموال، لأنّ الموالي كانوا وحدهم سيرثونه لأنّه ليس له ولد، وكانوا من سفهاء الفسقة، فلا يمكن أن يكونوا أنبياء ولا حكماء ليخاف أن يرثوا مكانته من العلم والحكم والنبوّة، وإنّما كان يخشى أن يرثوا أمواله فيصرفوها في عبثهم وفسادهم، فسأل ربّه أن يهب له ولداً ليكون أحقّ منهم بوراثة أمواله..

٢ - لقد اشترط زكريّا على ربّه أن يجعل وارثه رضيّاً، وتلك قرينة أُخرى على إرادة إرث المال، فلو كان المراد إرث النبوّة لكان هذا الشرط في غير محلّه، ولكان اشتراطه على الله جهلاً من زكريّا، إذ سيكون فيه كمن يقول: اللّهمّ ابعث لنا نبيّاً

---

(١) البقرة ٢: ١٨٠.

(٢) أبو هريرة، عبدالحسين شرف الدين: ١٤٢.

(٣) الشافي في الإمامة ٤: ٥٧، والمصدر المتقدّم.

واجعله صادقاً غير كاذب .. !!

٣ ـ ذكر البخاريّ حديثين عامّين عن رسول الله ﷺ ، حدّدا بكلّ وضوح أحكام الدين فيما يتعلّق بالإرث ، وليس منطقيّاً أن يقرّر النبيّ أحكاماً يأمر المسلمين بتنفيذها والإلتزام بها ويمتنع هو عن ذلك ، سيّما وأنّ تلك الأحكام مستوحاة من كتاب الله وأوامره وهي ملزمة للنبيّ كإلزامها لغيره ، وهما :

■ بسنده عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ أنّه قال :

« أنا أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن مات وعليه دين ولم يترك وفاءً ، فعلينا قضاؤه ، ومن ترك مالاً فلورثته »(١) .

■ وبسنده عن سعد بن أبي وقّاص ، قال :

« مرضت بمكّة مرضاً فأشفيت منه على الموت ، فأتاني النبيّ ﷺ يعودني ، فقلت : يا رسول الله ، إنّ لي مالاً كثيراً ، وليس يرثني إلّا ابنتي ، أفأتصدّق بثلثي مالي ؟

قال : **لا** .

قلت : فالشطر ؟

قال : **لا** .

قلت : الثُّلُث ؟

قال : **الثلث كبير ، إنّك إن تركت ولدك أغنياء خير من أن تتركهم عالةً يتكفّفون الناس** »(٢) .

فهل بعد هذا يستطيع ذو عقل أن يتصوّر أنّ النبيّ ﷺ الذي لم يرض لغيره أن يتصدّق بثلث ماله قبل موته ويحثّه على أن يترك لابنته ما يجعلها غنيّة حتّى لا تكون عالة تتكفّف الناس ، كيف يرضى أن يحرم ابنته من كلّ ميراثه ؟ ومن هي

---

(١) و (٢) صحيح البخاري ٨ : ٥ .

تلك الإبنة ؟ إنّها منَ قال عنها : « **فاطمة بضعة منّي** . . » فهل كان راغباً أن يترك بضعته عالة تتكفّف الناس فأوصى بكلّ ما تركه صدقة ؟

كلّا وعزّة الله ، ما هكذا كان النبيّ ، ولا هكذا أراد . .

٤ ـ إنّ أبا بكر لم يكن متحفّظاً ومتحرّجاً إلى هذا الحدّ في التصرّف بتركة النبيّ ﷺ ، فقد أعطى هو نفسه إلى الزبير بن العوّام ومحمّد بن مسلمة وغيرهما بعض ما تركه رسول الله .

فلنستمع إلى جابر بن عبدالله حيث يقول : « لمّا مات النبيّ ﷺ جاء أبا بكر مالٌ من قِبل العلاء بن الحضرمي ، فقال أبو بكر : مَن كان له على النبيّ ﷺ دَيْنٌ أو كانت له قِبله عِدَةٌ فليأتنا .

قال جابر : فقلت : وعدني رسول الله أن يعطيني هكذا وهكذا وهكذا ، فبسط يديه ثلاث مرّات .

قال جابر : فعدّ في يديّ خمسمائة ، ثمّ خمسمائة ، ثمّ خمسمائة »[(١)].

وهكذا وجدنا أبا بكر قد صدّق جابراً بلا شهود ، وكذّب الزهراء في قضيّة شهد لها بها كتاب الله وسنّة رسوله وجمع من خيرة المؤمنين . .

٥ ـ لعلّه من الغريب والملفت للنظر أن يحدث كلّ هذا اللغط والأخذ والردّ والمحاججات في أمر فدك وهي ميراث فاطمة من النبيّ ﷺ ، فتنبري أقلام المؤيّدين لأبي بكر وتصدح حناجر المدافعين حرصاً على حفظ مال المسلمين ، والتزاماً بقول ادّعوه على رسول الله ، في حين لم نجد منهم صريحاً يعترض على عثمان عندما أعطى نفس ذلك الميراث الذي منعه أبو بكر عن فاطمة إلى مروان بن الحكم حين زوّجه ابنته أُمّ أبان ومعه مائة ألف نقداً من بيت مال المسلمين **!!**

---

(١) صحيح البخاري ٣: ١٦٣.

٦ ـ لقد أبدى الدكتور طه حسين في كتابه « الفتنة الكبرى » استغرابه من موقف أبي بكر مع فاطمة، واعتبره غريباً لا بدّ أن تكون له أسباب غير الأسباب المعلنة، حيث أوضح أنّه كان بإمكان الخليفة ـ وهو وليّ أمر المسلمين ـ أن يستخدم صلاحيّاته وما تخوّله به سلطته الشرعيّة لإعطاء فاطمة ما طلبت، حتّى لو لم يكن لها فيه حقّ شرعيّ، وإذا كان يتحرّج من التصرّف بأموال المسلمين فقد كان بمقدوره أن يستشيرهم ويحصل على موافقتهم إكراماً لرسول الله، وجبراً لخاطر ابنته وبضعته، ولم يكن ذلك بالأمر العسير، وقد أشار طه حسين إلى وجود علاقة وثيقة بين هذا الموقف وقضيّة الخلافة، سنتجاوزه لأنّنا لا نحبّذ فتح هذا الباب[1]..

٧ ـ إذا ما عدنا إلى الروايات فإنّنا لا نجدها تساعد أبا بكر في إقرار صحّة موقفه، بل إنّها تدينه، فقد ورد في الرواية الأُولى عن عائشة أنّ أبا بكر قال: « وإنّي والله لا أُغيّر شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت عليها ».

وورد في الرواية الثانية عن عمر أنّ النبيّ كان « ينفق على أهله منها نفقة سنته، ثمّ يجعل ما بقي في السلاح والكراع »، فإذا كان أبو بكر لم يغيّر شيئاً ممّا كان يفعله النبيّ، فهل أعطى فاطمة نفقة سنتها منها، ووضع الباقي في السلاح والكراع ؟

ثمّ إنّ النبيّ ﷺ في حياته كان بإمكانه التصرّف بأمواله بالطريقة التي يشاء، فإذا أراد أن يصرف قسماً منها على عياله ويجعل الباقي في أُمور أُخرى، فذلك شأنه وهو حرّ في ما يرى، أمّا بعد وفاته فليس لأحد الحقّ في التصرّف بأمواله، إلّا وفقاً لشريعة الله التي نصّت على تسليمها لورثته، لأنّها أصبحت أموالاً خاصّة بهم وليست بالمتوفّى، فأبو بكر لم يكن مخوّلاً بالتعامل مع أموال النبيّ بالطريقة التي كان النبيّ يمارسها، فذلك من حقوق الورثة وحدهم..

ولكنّنا لو دقّقنا في الرواية الثالثة فسنجد أنّ الحقّ قد جرى على لسان عائشة

---

(١) الفتنة الكبرى ٢: ١٣٥.

دون أن تعلم ، فقد قالت : « إنّ فاطمة والعبّاس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ ، وهما حينئذٍ يطلبان أرضيهما من فدك ، وسهمهما من خيبر » . .

إنّها قالت : « أرضيهما » و « سهميهما » ، وهذا دليل واضح على أنّها كانت تعلم أنّ فدك هي أرض لهما زمن النبيّ كما هو حال حصّتهما في أرض خيبر . .

أمّا حديث أبي هريرة الوارد في الفقرة الرابعة ، فنحن نعلم كيف أنّ وعاءه كان جاهزاً لرفد الجميع بالحديث الذي يريدون وبالكيفيّة التي يشاءون ، وكيف كان حاضراً لمؤازرة السلطان بالحديث الذي يدعم موقفه ، وقد كان في حديثه هذا ملكياً أكثر من الملك نفسه ، حين بالغ وحرم ورثة النبيّ حتّى من اقتسام الدرهم والدينار ، وذلك ما لم يدّعه أبو بكر نفسه ، وسيبقى أبو هريرة متميّزاً ومتفرّداً في أحاديثه . .

٨ ـ هناك قرينة تاريخيّة مهمّة تدلّ على أنّ هذه الروايات كانت موضع شكّ ، بل تكذيب من قِبل الكثير من المسلمين منذ البداية ، فعمر بن الخطّاب أعاد فدكاً إلى عليّ وآل العبّاس ، ثمّ جاء عثمان فصادرها وأعطاها إلى مروان كما بيّنا ، وبقيت في حوزة آل مروان إلى أن جاء عمر بن عبدالعزيز فأمر بردّها إلى بني فاطمة ، وصودرت بعده ، ثمّ جاء المأمون فأمر بردّها إليهم . . وصودرت مرّة أُخرى . .

وفي هذا كفاية . . والحمد لله ربّ العالمين

الصور والمصوّرون

الأحاديث:

١ - <u>٣ / ٧ / ٢٥</u>

بسنده عن عائشة:

«أنّها اشْتَرَتْ نُمْرُقَةً فِيها تَصاوِيرُ، فَلَمّا رَآها رَسولُ اللهِ ﷺ قامَ عَلَى الْبابِ فَلَمْ يَدْخُلْ، فَعَرَفْتُ في وَجْهِهِ الْكَراهِيَةَ، فَقُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، أَتُوبُ إِلَى اللهِ وَإِلىٰ رَسولِهِ ماذا أَذْنَبْتُ؟

فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: ما بالُ هٰذِهِ النُّمْرُقَةِ؟

فَقُلْتُ: اشْتَرَيْتُها لَكَ لِتَقْعُدَ عَلَيْها وَتُوَسَّدَها.

فَقالَ رَسولُ اللهِ: إِنَّ أَصْحابَ هٰذِهِ الصُّورِ يُعَذَّبونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَيُقالُ لَهُمْ: أَحْيُوا ما خَلَقْتُمْ، وَقالَ: إِنَّ الْبَيْتَ الَّذي فِيهِ الصُّوَرُ لَا تَدْخُلُهُ الْمَلائِكَةُ».

٢ - <u>٣ / ٧ / ١٦٧</u>

بسنده عن مسروق، قال:

«سَمِعْتُ عَبْدَاللهَ، قالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ أَشَدَّ النّاسِ عَذاباً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ الْمُصَوِّرُونَ».

٣ - <u>٣ / ٧ / ١٦٧</u>

بسنده عن عبدالله بن عمر:

«أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: إِنَّ الَّذينَ يَصْنَعُونَ هٰذِهِ الصُّوَرَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ، يُقالُ لَهُمْ: أَحْيُوا ما خَلَقْتُمْ».

٤ ـ ٣ / ٧ / ١٦٩

بسنده عن أبي هريرة وقد رأى مصوّراً يصوّر فوق دار بالمدينة أنّه سمع النبيّ ﷺ يقول فيه عن الله سبحانه:

«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً وَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً».

٥ ـ ٣ / ٧ / ١٦٩

بسنده عن سالم بن عبدالله بن عمر، قال:

«وَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ جِبْرِيلُ فَراثَ عَلَيْهِ حَتَّى اشْتَدَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَقِيَهُ فَشَكا إِلَيْهِ ما وَجَدَ، فَقالَ لَهُ: إِنّا لَا نَدْخُلُ بَيْتاً فِيهِ صُورَةٌ وَلَا كَلْبٌ».

ملاحظة:

المقصود بالصورة الرسوم على الأقمشة أو الجدران وغيرها، وكذلك التماثيل.

أمّا المصوّرون فهم الرسّامون والنحّاتون.

المناقشة:

لقد اختلف علماء المسلمين على كافّة مذاهبهم في تقرير حلّيّة أو حرمة عمل المصوّرين (بالمعنى الخاصّ الذي ذكرناه)، فمنهم من ذهب إلى التحريم المطلق للصور والتماثيل، ومنهم مَن أباح الصور وحرّم التماثيل، ومنهم مَن حرّم تماثيل ذوات الأرواح فقط وأحلّ ما سواها.. وقد وجدنا أنّ الأساس الذي قامت عليه تلك التحريمات هو هذه الروايات وأُخرى لا تخرج عن إطارها ومضامينها، ولو كانت هذه الروايات قد جعلت أصل التحريم مرتبطاً بالهدف والغاية من التصاوير

فحرّمت ما كان مداره منها تحدّي قدرة الله سبحانه أو اعتقاد المصوّر بأنّه إنّما يجاري الله في قدرته على الخلق، أو أن يصنع تمثالاً بهدف عبادته، لما كان لنا معهم جدال، ولكن أن يكون التحريم مطلقاً كما مرّ علينا، والعذاب لا محالة واقع.. فإنّ هذا ما لا نراه ولا يمكننا قبوله.. وسنناقش ذلك من خلال ثلاثة محاور:

١ ـ هل نهى الله سبحانه وتعالى عن الخلق وهل حرّمه؟

٢ ـ هل ما يصنعه المصوّرون هو خلق، وهل في نيّتهم ذلك؟

٣ ـ مناقشة متون الأحاديث السالفة..

هل نهى الله سبحانه عن الخلق وهل حرّمه؟

إنّ مَن يقرأ القرآن الكريم لن يجد في آية واحدة تمنع أو تحرّم على الإنسان خلق أيّ شيء، بل على عكس ذلك سيجد فيه الكثير من الآيات التي تدعو الناس إلى الخلق، ولكن لتتحدّاهم، وتُظهر عجزهم وقصورهم عنه، فقد تحدّاهم كتاب الله في خلق أبسط أنواع الحياة: ﴿ **أَفَرَأَيْتُم ما تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ** ﴾(١).

وتحدّاهم في الموت، وفي إنشاء الخلق: ﴿ **نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِأَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾(٢).

وتحدّاهم في الزرع وفي إنزال المطر، وفي إنشاء النار التي يورون.. بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين تحدّاهم في أمر أقلّ شأناً من خلق الإنسان حين قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ**

---

(١) الواقعة ٥٦: ٥٨ و ٥٩.

(٢) الواقعة ٥٦: ٦٠ ـ ٦٢.

اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[١].

ومن هنا فإنّه جلّ شأنه ـ وهو خالق الإنسان، ومانحه قواه وقدراته، والعليم بإمكاناته، والخبير بعجزه وقصوره ـ لم يعتبر قضيّة الخلق ممكنة عند غيره حتّى يحرّمها عليه، فهي ليست قضيّة حلال وحرام، وإنّما هي مسألة قدرة وإمكان، وعجز الإنسان عنها أمر مفروغ منه وسبق فيه القضاء..

ولن نجد كبير فرق بين هذه المسألة وبين التحدّي الذي أطلقه الباري عزّ وجلّ للإنس والجنّ حينما طلب منهم الإتيان بمثل القرآن الكريم، أو بعشر سور مفتريات، أو بواحدة.. ثمّ قطع بأنّهم لن يستطيعوا ذلك ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.. فلو كانوا قادرين لفعلوها، ولن يكون ذلك حراماً ولا ممنوعاً، لأنّه تعالى هو الذي طلب منهم ذلك، ولكنّهم لا يستطيعون وليسوا قادرين، والله يعلم ذلك وهم يعلمون..

وعلى ذلك نقول: لو كان الإنسان قادراً على الخلق لخَلَق وليس عليه إثم، ولكنّه عاجز عن ذلك، لأنّ الله وحده الخالق ولا خالق سواه..

هل إنّ ما يصنعه المصوّرون يعتبر خلْقاً؟

إنّ خلق الشيء يعني إيجاده من العدم، وما عدا ذلك فإنّه ليس خلقاً، وإنّما هو صناعة شيء من أشياء مخلوقة، وكلّ ما جادت يد الإنسان صنعه لا يعتبر خَلْقاً بأيّ حال من الأحوال.. فالصورة ما هي إلّا نقل لما أبدعه الله من خلق، ولم يدّعِ أحدٌ من المصوّرين أنّه استطاع أن يخلق منها شيئاً موازياً لما خلقه الله، أو أنّه قلّده في خلقه، كما لم يخطر على بال أحد من الناس هذا المعنى.. بل إنّ المعروف والمعهود أنّهم إذا رأوا صورةً لشيء جميل قالوا: « تبارك الله أحسن الخالقين »..

---

(١) الحجّ ٢٢: ٧٣.

والتماثيل كذلك ، فإنّ صانعها لم يعتقد أنّه قد خلقها ، لأنّه يعرف من أين أتى بالمواد التي صنعها منها ، كما يعرف مَن خلقها ، وهو لم يقصد غير إجادة التعبير عن نموذج خلقه الله تعالى ، حيث سيكون ذلك النموذج هو الحكَم على مقدار جودة ودقّة ما صنع وليس العكس . .

وقد يكون المصوّر أو النحّات من المؤمنين بالله عزّ وجلّ والموحّدين له ، ولم يقصد سوى تخليد جميل خلقه وبديع صنعته بنقشه على رقعةٍ أو حجر ، فلا يكون من العدل اتّهامه بما لم يقصد ، ومعاقبته على ما لم يقترف . .

وعليه نقول : إنّ العمل بذاته غير خاضع لمعايير الحلال والحرام ، وإنّما ما يستبطنه ذلك العمل من نيّة وقصد وغاية هو ما يعوّل عليه في مجال الحلّيّة والحرمة . . شأنه شأن كلّ الأعمال والأفعال الأُخرى . .

أليس القتل من الكبائر والمحرّمات التي يعاقب الله فاعلها بأشدّ العقاب ؟ فإنّه سيكون مشروعاً إذا ما كان في تنفيذ حكم شرعيّ ، وأكثر مشروعيّة وثواباً إذا كان جهاداً في سبيل الله . . فالقتل واحد ، ولكنّ الهدف والغاية هما اللذان منحاه الحرمة مرّة ، والحلّيّة أُخرى . .

ونفس الشيء نكرّره فيما يخصّ الصور والتماثيل ، فإن كان الغرض منها العبادة أو تحدّي قدرة الله على الخلق ، فحتماً سيكون ذلك من الحرام الموجب للعقاب ، ولن يكون العقاب على صناعة الصورة أو التمثال ، وإنّما على الإشراك بالله أو تحدّيه أو عبادة غيره . .

ولا ندري كيف يحصل التوهّم في أنّ الصورة أو التمثال هما خلق كخلق الله ، وما هما سوى جمادَيْن لا روح فيهما ولا حراك ، كما لم نعرف وجهاً للمقارنة بين تمثال من حجر وبين مخلوق أودع الله فيه من الأسرار وبديع الخلقة ما لا يعلمه إلّا هو ، كما أودع فيه روحاً لا يعرف أمرها سواه ؟ ! !

مناقشة الأحاديث:

١ ـ فأمّا حديث عائشة، فأوّل ما فيه هو: هل أنّ النبيّ ﷺ كان قد أخبرها بحرمة التصاوير أم لا؟ فإن كان قد أخبرها فإنّها قد عصته عندما اشترت النمرقة ووضعتها في بيته، وإن كان لم يخبرها، فقد قصّر ـ وحاشاه ـ في إيصال الحكم الشرعيّ إلى أهل بيته، ممّا أوقعهم في المعصية، وما كان له أن يغضب عليها ويعاتبها على أمر لم يسبق منه التوجيه بخصوصه، وبذلك يكون أوّل القولين إساءة لعائشة، وثانيهما إساءة للنبيّ ﷺ..

وفيه: أن أصحاب الصور سيعذّبون يوم القيامة ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم، وقد تقدّم منّا الحديث في ذلك وقلنا إنّ ما صنعوه لا يعتبر خلقاً بأيّ حال من الأحوال.

وفيه: عدم دخول الملائكة بيتاً فيه صورة، وسنتكلّم عنه لاحقاً..

٢ ـ أمّا حديث أبي هريرة، ففيه: قول الله عزّ وجلّ: «ومن أظلم ممّن ذهب يخلق كخلقي»، وهذا غير جائز على ذاته جلّت قدرته، حيث لا يتصوّر عاقل أنّ الله سبحانه يرى في الصورة والتمثال خلقاً كخلقه.. حتّى لو اعتقد صانعهما ذلك.

٣ ـ أمّا بالنسبة لحديث سالم، ففيه العجب العجاب، فجبرئيل عليه السلام يمتنع عن مقابلة النبيّ ﷺ ويُخلف الموعد المضروب بينهما، ويقلق رسول الله، وتتملّكه الحيرة فيخرج وهو لا يدري ماذا يفعل، فيلقاه جبرئيل في الطريق، ويشكو إليه النبيّ وجده، وعند ذلك فقط يخبره جبرئيل أنّ الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورةً أو كلب..!! وكان يفترض به أن يخبره بذلك قبل الآن ليوفّر على نفسه عناء الذهاب والإياب، ومغبّة النكث بالوعد، كما يوفّر على النبيّ عناء الانتظار والقلق والخشية من الهجران..

ويبقى سرّ هذه الجفوة بين الملائكة والكلاب، وما هي إلّا مخلوقات لله أوجدها

لمصلحة اقتضتها حكمته ، وإذا كان هنالك نهى للإنسان عن معايشتها ، فلحمايته من الأمراض التي تستوطنها ، وذلك حتماً لا ينسحب على الملائكة ..

وختاماً : نرجو من المسلمين أن يرسموا وينحتوا ما شاءوا ، وليعبّروا بفنّهم وإبداعهم عن عظيم صنعة الخالق عزّ وجلّ ، وليجسّدوا جمال خلقته ، على أن لا يكون هدفهم تحدّي قدرة الله أو مجاراته ، لأنّ ذلك سوف لن يكون فنّاً ولا إبداعاً ، وإنّما سيكون إشراكاً بالله يستحقّون به غضبه وعقابه .

أجارنا الله وإيّاهم منه

تخدير الناس وتحييدهم

الأحاديث:

١ - ١ / ١ / ٩

بسنده عن أبي سعيد الخدري، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِها شَعَفَ الْجِبالِ، وَمَواقِعَ الْقِطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ».

٢ - ١ / ١ / ١٣٦

بسنده عن أنس بن مالك، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«اسْمَعوا وَأَطِيعُوا وَإِنِ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ».

٣ - ١ / ١ / ١٣٦

باب إمامة العبد والمولى:

«وَكانَتْ عائِشَةُ يَؤُمُّها عَبْدُها ذَكْوانُ مِنَ الْمُصْحَفِ، وَوَلَدُ الْبَغِي، وَالْأَعْرابِيُّ، وَالْغُلامُ الَّذي لَمْ يَحْتَلِمْ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: يَؤُمُّهُمْ أَقْرَؤُهُمْ لِلْقُرْآنِ».

٤ - ٢ / ٤ / ٥٠

بسنده عن أبي هريرة:

«أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقولُ: مَنْ أَطاعَنِي فَقَدْ أَطاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصاني فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصاني، وَإِنَّما الْإِمامُ جُنَّةٌ يُقاتَلُ

مِنْ وَرائِهِ، وَيُتَّقىٰ بِهِ، فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ وَعَدَلَ، فَإِنَّ لَهُ بِذلِكَ أَجْراً، وَإِن قالَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ».

٥ ـ <u>٣ / ٩ / ٤٧</u>

بسنده عن ابن عبّاس، عن النبيّ ﷺ قال:

«مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئاً فَلْيَصْبِرْ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطانِ شِبْراً ماتَ مِيتَةً جاهِلِيَّةً».

وفي رواية: **«فَإِنَّهُ مَنْ فارَقَ الْجَماعَةَ شِبْراً...»**.

٦ ـ <u>٣ / ٩ / ٥٧</u>

بسنده عن نافع، قال:

«لَمّا خَلَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَزِيدَ بْنَ مُعاوِيَةَ جَمَعَ ابْنُ عُمَرَ حَشَمَهُ وَوُلْدَهُ فَقالَ: إِنّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: يُنْصَبُ لِكُلِّ غادِرٍ لِواءٌ يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَإِنّا قَدْ بايَعْنا هٰذَا الرَّجُلَ عَلىٰ بَيْعِ اللهِ وَرَسولِهِ، وَإِنّي لَا أَعْلَمُ غَدْراً أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يُبايَعَ رَجُلٌ عَلىٰ بَيْعِ اللهِ وَرَسولِهِ ثُمَّ يُنْصَبُ لَهُ الْقِتالُ، وَإِنّي لَا أَعْلَمُ أَحَداً مِنْكُمْ خَلَعَهُ، وَلَا بايَعَ في هٰذَا الْأَمْرِ إِلّا كانَتِ الْفَيْصَلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ».

٧ ـ <u>٣ / ٩ / ٧٧</u>

بسنده عن عبدالله بن دينار، قال:

«شَهِدْتُ ابْنَ عُمَرَ حَيْثُ اجْتَمَعَ النّاسُ عَلىٰ عَبْدِالْمَلِكِ كَتَبَ: إِنّي أُقِرُّ بِالسَّمْعِ وَالطّاعَةِ لِعَبْدِاللهِ عَبْدِالْمَلِكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلىٰ سُنَّةِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسولِهِ ما اسْتَطَعْتُ، وَإِنَّ بَنِيَّ قَدْ أَقَرّوا بِمِثْلِ ذلِكَ».

المناقشة:

الفرار من الفتنة

إنّ لهذا الحديث وجهين:

١ ـ إذا فهمنا أنّ معنى الفتنة: الافتتان بالشيء، فنقول: فتَنَهُ: أي تدلّهَ به أو سلبه ماله وعقله، والحديث على هذا النحو يفيد بأنّ ابتعاد المسلم عن مواطن الفتنة وإغراءات الدنيا وبهارج الحياة يحقّق له صفاء الإيمان والقناعة بالدين.

إلّا أنّنا لم نجد أحداً من المسلمين قد فهم الحديث هذا الفهم واقتدى به على هذا النحو.

٢ ـ إذا قلنا إنّ الفتنة: هي افتتان المسلم بالشيطان وضلاله عن الحقّ، وهذا ما لا يدعمه سياق الحديث، لأنّ نوع مال المسلم والمكان الذي يقيم فيه لا ينجيانه من الشيطان، فسيسعى إليه مهما كان ماله، وأين ما أقام على شعف الجبال أو في المراعي والقفار، فلا ينقذه منه إلّا عمق إيمانه وصدق تقواه وورعه..

فالحديث إذن لا يتعلّق بهذا النوع من الفتن؛ لأنّ المسلم لا يفرّ من الشيطان برجليه وإنّما يفرّ منه بعمله..

إذن ما هو المطلوب من هذا الحديث؟ وكيف سيفهمه المسلم؟ ومتى يطبّقه؟

لقد بادرت السياسة إلى وضع فهم خاصّ لهذا الحديث، تبنّته وأقنعت جماهيرها به لتحييدها وإبقائها خارج دائرة الصراعات السياسيّة تجنّباً (للفتنة)، ولجعل المسلمين (يفرّون بدينهم) إلى شعف الجبال.. وقد مورس هذا الفهم فعلاً في مناسبات ووقائع وأحداث كثيرة شهدها التاريخ الإسلاميّ.. ولكن فقط عندما يكون أحد أطراف الصراع عليّ بن أبي طالب أو أحد أبنائه..

فمعركة الجمل.. فتنة، وحرب صفّين ومعركة النهروان.. فتنة، وواقعة كربلاء..

فتنة، ودفاع أهل المدينة عنها قبل أن يبيحها يزيد لجيشه.. فتنة، وثورة زيدبن عليّ، ومحمّد بن عبدالله بن الحسن، وتمرّد صاحب فخّ.. وحركات العلويّين على امتداد التاريخين الأمويّ والعبّاسيّ، كلّها فتن يجب أن يفرّ المسلم منها بدينه، فذلك هو الدرب الأسلم، وإنّ خير ما يتعكّزون عليه هو إعطاء هذا الحديث الفهم الذي يجعلهم خارج مدار الصراع..

ولقد كان أبو هريرة من أبرز المتأثّرين بهذا الفهم عندما عبّر عنه بقوله الذي رواه عنه الشيخ محمود أبو ريّة: «الصلاة مع عليّ أتمّ، والأكل مع معاوية أدسم، والفرار إلى الجبل أسلم»[(١)].

إذن فقد لعب هذا الفهم دوراً مؤثّراً وكبيراً في عزل كلّ الحركات والثورات ضدّ الظلم والقهر والتعسّف التي حدثت خلال العصرين المذكورين عن الجماهير وحرمتها من إمكانيّة الاستفادة من طاقاتها في التخلّص من الحكّام الظالمين والمنحرفين.. فكانت نتيجة تلك الحركات والثورات الفشل والانتهاء بقياداتها إلى الموت..

فأصبح هذا الفهم عقبة كأداء في طريق تحقيق دولة الإسلام وبناء أُطرها الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة.. فهو بعيد عن إطار (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) حيث أنّ في فرار المسلم بدينه تعطيل لهذا الفعل وتخذيل للطرف المحقّ من طرفي الصراع بعد نصرته ولو بالكلمة.. وهو بعيد عن إطار (العمل الجهادي) كواجب شرعيّ في التصدّي للبغي والظلم عملاً بقوله تعالى: ﴿**فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ**﴾[(٢)].. وهو بعيد عن إطار (الإصلاح) بين الطرفين المتنازعين: ﴿**فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾[(٣)]..

---

(١) شيخ المضيرة أبو هريرة: ٥٦.

(٢) الحجرات ٤٩: ٩.

(٣) الحجرات ٤٩: ١٠.

والحقيقة هي أننا سنجد أنّ هذا الحديث وأمثاله لم يستخدم إلّا لتخذيل المسلمين وتحييدهم وترغيبهم بالسلامة ، وإقناعهم بهذا الموقف الانهزاميّ والانتهازيّ ، وهوما يتعارض مع رسالة الإسلام التي توجب على المسلمين مقاومة ومحاربة المفسدين والظالمين والمارقين الذين كانوا هم وحدهم المستفيدين من هذا الحديث؛ لأنهم استطاعوا أن يجعلوا القاعدة العريضة من المسلمين محايدين وفارّين بدينهم إلى شعف الجبال !!

يؤمّهم أقرؤهم للقرآن

ليس صحيحاً أن تكون الإجادة في قراءة القرآن شرطاً وحيداً لإمامة الناس في الصلاة ، فـ« **ربّ قارئ للقرآن والقرآن يلعنه** »[1] حسب المأثور عن رسول الله ﷺ . .

إنّ صلاة المأموم مقرونة بصلاة الإمام ، وكم من فاسق ، وظالم ، ومجرم يجيدون قراءة القرآن ، فهل تجوز الصلاة خلفهم والاقتداء بهم ، وهم يعصون الله في كلّ يوم ، بل في كلّ ساعة ؟ !

إنّ هذا الحديث هو من المباحث المهمّة في العلوم الفقهيّة ، وقد أشبعه الفقهاء بحثاً وتدقيقاً ، ووضعوا للإمام شروطاً كثيرة اعتمدوا في استخراجها على ما بين أيديهم من حقائق قرآنيّة وسنن نبويّة ، وليس هنا مجال عرضها . . ولكنّنا وبقدر تعلّق الأمر بالرواية التي نناقشها قد نتساءل عن الضرورة التي ألجأت أُمّ المؤمنين إلى الائتمام بعبدها وبغيره ممّن عدّدهم البخاريّ ؟ ومتى حدث ذلك ؟

ومن هم هؤلاء الذين أشار إليهم ؟ وأين ومتى أصبحوا أئمّة للصلاة ؟

ليس هنالك أيّ جواب ، إلّا إذا أُريد من الحديث تصحيح إمامة زياد بن أبيه . . والحجّاج . . ويزيد . . وغلمان آل مروان . . وأضرابهم من أبناء الزنى والفاسقين . .

---

(١) تفسير الآلوسي ٢٢: ١٩٢.

عبدالله بن عمر، ويزيد، وعبدالملك

إنّ عبدالله بن عمر ـ كما علمنا قبل قليل ـ كان من الفارّين بدينهم من الفتن طيلة خلافة عليّ، فلم يبايعه، ولم يشترك معه في جميع حوادث خلافته..

وإذا أصاب في رأيه عن نكث البيعة باعتباره غدراً عظيماً، فقد كان بعيداً جدّاً عن الصواب عندما انتزع تلك البيعة من شروطها وأُطرها الشرعيّة وجعلها بيعة ملزمة تحت كلّ الظروف والأحوال..

فعدالة الخليفة، والتزامه بشريعة الله، وإقامته لحدودها، وأمانته على مال الله وخلقه، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وعمله بكتاب الله وسنّة رسوله، وورعه وتقواه وشجاعته.. وكثير غيرها، هي شروط متلازمة مع صحّة استمرار عقد البيعة، فمتى تخلّى الخليفة عن تلك الشروط أو بعضها سقطت البيعة ولم يبق لها أيّ اعتبار.. وقد أُوثر عن الخليفة عمر قوله: «مَن رأى فيَّ إعوجاجاً فليقوّمه بسيفه»[1]، ومعلوم أنّ التحلّل من البيعة يسبق إشهار السيف..

وأن يكون الخليفة الذي بايعه عبدالله بن عمر «بيع الله ورسوله» هو يزيد بن معاوية.. فتلك قضيّة فيها أكثر من وجهة نظر..

ألم يقم يزيد هذا بعد أن أخذ من المسلمين البيعة على «بيع الله ورسوله» بتخريب المدينة المنوّرة، والفجور بنسائها، وقتل رجالها، والفتك بشيوخها في واقعة (الحَرَّة) الشهيرة التي أعقبها أخذه البيعة من أهلها على «أنّهم خَوَل ليزيد» أي عبيد له بدلاً من «بيع الله ورسوله»؟!

ألم يكن هو (يزيد) الذي قال عنه المسعودي: «كان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب، وجلس ذات يوم على شرابه،

---

(١) عنه في مناقشات ومواضيع في مناهج البحث العلمي عند السنّة والشيعة.

وعن يمينه ابن زياد ، وذلك بعد قتل الامام الحسين عليه‌السلام فأقبل على ساقيه وقال :

اسقني شربةً تروّي فؤادي　　ثمّ صِلْ فاسْقِ مثلها ابن زِيادِ
صاحب السرّ والأمانة عندي　　ولتسديد مغنمي وجهادي

وغلب على أصحاب يزيد وعمّاله ماكان يفعله من فسوق ، وفي أيّامه ظهر الغناء بمكّة والمدينة ، واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب »[١] .

إلى أن يقول : « ولما شمل الناس جور يزيد وعمّاله ، وعمّهم الظلم وما ظهر من فسقه من قتل ابن بنت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وأنصاره ، وما ظهر من شرب الخمور ، وسيره سيرة فرعون ، بل كان فرعون أعدل منه في رعيّته ، لخاصّته وعامّته ، أخرج أهل المدينة عامله عليهم عثمان بن محمّد بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وسائر بني أُميّة ، وذلك سنة ثلاث وستّين للهجرة ، سيّر الجيوش من أهل الشام وعليهم مسلم بن عقبة المرّي الذي أخاف المدينة ونهبها وقتل أهلها ، وبايعه أهلها على أنّهم عبيد ليزيد ، وسمّى المدينة (النتنة) بعد أن سمّاها رسول الله (طيبة) وقال عنها : **مَن أخاف المدينة أخافه الله** »[٢] .

ثمّ يذكر المسعودي قتلى يزيد من أهل المدينة ويسمّي منهم خمسة من آل أبي طالب وبني هاشم و « تسعين رجلاً من سائر قريش ومثلهم من الأنصار وأربعة آلاف من سائر الناس ممّن أدركه الإحصاء دون من لم يعرف » .

ثمّ توجّه إلى مكّة « وأحاط بها ونصب حولها المجانيق والعرّادات فتواردت أحجارها على البيت ورمي مع الأحجار بالنار والنفط ومشاقّات الكتّان وغير ذلك من المحرقات ، وانهدمت الكعبة واحترقت البنية ، ووقعت صاعقة فأحرقت من أصحاب المجانيق أحد عشر رجلاً ، وقيل أكثر من ذلك ، يوم السبت لثلاث

---

(١) مروج الذهب ٣ : ١٥ .

(٢) مسند أحمد ٤ : ٥٦ .

خلون من شهر ربيع الأوّل من السنة المذكورة قبل وفاة يزيد بأحد عشر يوماً » .

والآن ، وبعد كلّ ما جرى ، يأتي عبدالله بن عمر ليعتبر بيعته ليزيد « بيع الله ورسوله » ويعتبر نكثها غدراً !!

فهل يُقرّ الدين البقاء على بيعة رجل كهذا بحجّة الامتثال لقول النبيّ : « ينصب لكلّ غادر لواء يوم القيامة » ؟!

نعم ، وعزّة الله ، سينصب لواء الغدر هذا يوم القيامة ، ولكنّه سينصب ليزيد ولمن بقي على بيعته .. وليس لمن أبى تلك البيعة أو تحلّل منها ..

وهكذا الحال مع عبدالملك بن مروان الذي أقرّ له عبدالله بن عمر وبنوه بالسمع والطاعة .. ولم يفرّ بدينه إلى شعف الجبال كما فعل مع عليّ بن أبي طالب ..

فإنّا لله وإنّا إليه راجعون

٤ ـ أمّا بقيّة الأحاديث ، فالقارئ الكريم سيلاحظ ما فيها من دعوة للناس إلى إيثار السلامة والركون إلى الدعة والخنوع إلى الظالم ، وترك (الأمير) يفعل ما يشاء ، فإن أصاب فله ، وإن أخطأ فعليه .. أمّا الرعيّة فيكفيها أنّها لم تفارق الجماعة ولو شبراً وإنّها لن تموت ميتة جاهليّة ما دامت غير خارجة على السلطان .. !!

كما سيعرف أنّ هذه الأحاديث كانت السبب المباشر لما مرّ على المسلمين من كوارث ونكبات ومصائب ، ومن تسلّط الغلمان والأوغاد من شذّاذ الآفاق على رقابهم ، وتلاعبهم بمقدّرات الإسلام والمسلمين ، وتغييرهم لمسار الدين بحيث لم يتبقّ منه إلّا ما أرادوه ممّا يخدم أغراضهم وتطلّعاتهم السياسيّة ..

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (١)

---

(١) الرعد ١٣ : ٤٢.

الباب الرابع

ابو هريرة في الميزان

الفصل الأول

الأحاديث المتناقضة

صلاة الضحى

١ / ٢ / ٥٨

قال أبو هريرة:

«أَوْصاني خَلِيلي بِثَلاثٍ لَا أَدَعُهُنَّ حَتّىٰ أَمُوتَ: صَوْمِ ثَلاثَةِ أَيّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلاةِ الضُّحىٰ، وَنَوْمٍ عَلىٰ وِتْرٍ».

ويناقضه: ما ورد في نفس الصفحة بسنده عن مورق قال:

«قُلْتُ لابْنِ عُمَرَ: أَتُصَلِّي الضُّحىٰ؟ قالَ: لا.

قُلْتُ: فَعُمَرُ؟ قالَ: لا.

قُلْتُ: فَأَبُو بَكْرٍ؟ قالَ: لا.

قُلْتُ: فَالنَّبِيُّ ﷺ؟ قالَ: لَا أَخالُهُ»[١].

ولا ندري كيف جاز للنبيّ ﷺ أن يوصي أبا هريرة بعمل لا يفعله هو نفسه؟!

ثمّ ألم يكن أبو بكر وعمر أوْلى بتلك الوصيّة من أبي هريرة لو كانت صحيحة،

---

(١) صحيح البخاري ٢: ٥٣. المصنّف لابن أبي شيبة ٢: ٢٩٦.

وها نحن نراهما لم يصلّيا تلك الصلاة ؟!

إذا قاء الصائم

١ / ٣ / ٣٣

روى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ قوله :

«إذا قاءَ فَلا يُفطِرُ ، إنَّما يُخرِجُ وَلَا يُولِجُ».

ويناقضه قول البخاري :

«وَيُذْكَرُ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ يُفطِرُ ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ»[1].

الحجامة والصيام

١ / ٣ / ٣٣

بسنده عن الحسن ، عن غير واحد :

«أنَّ النَّبِيَّ قالَ: أفْطَرَ الْحاجِمُ وَالْمَحْجُومُ».

ويناقضه ما رواه بسنده عن ابن عبّاس :

«إنَّ النَّبِيَّ ﷺ احْتَجَمَ وَهُوَ مُحْرِمٌ ، وَاحْتَجَمَ وَهُوَ صائِمٌ»[2].

صيام يوم عاشوراء

١ / ٣ / ٤٤

قالت عائشة :

«كانَ يَوْمُ عاشُوراءَ تَصُومُهُ قُرَيْشٌ في الْجاهِلِيَّةِ ، وَكانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَصُومُهُ ،

---

(١) صحيح البخاري ٢ : ٢٣٦.

(٢) صحيح البخاري ٢ : ٢٢٧.

فَلَمّا قَدِمَ الْمَدينَةَ صامَهُ وَأَمَرَ بِصيامِهِ ، فَلَمّا فُرِضَ رَمَضانُ تَرَكَ يَوْمَ عاشُوراءَ ، فَمَنْ شاءَ صامَهُ وَمَنْ شاءَ تَرَكَهُ».

يناقضه ما رواه عن ابن عبّاس ، حيث قال :

« ما رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَحَرّىٰ صِيامَ يَوْمٍ فَضَّلَهُ عَلىٰ غَيْرِهِ إلّا هٰذَا الْيَوْمَ ، يَوْمَ عاشُوراءَ ، وهَذَ الشَّهْرَ يَعْني شَهْرَ رَمَضانَ»(١).

وانظر كذلك اختلاف الروايات المتعلّقة بصيام هذا اليوم ، وهي بعض ما ورد في الصحيح :

١ ـ عن ابن عبّاس ، قال :

«قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ فَرَأَى الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عاشُوراءَ ، فَقالَ: ما هٰذا ؟ قالُوا: هٰذا يَوْمٌ صالِحٌ ، هٰذا يَوْمٌ نَجّى اللهُ بَني إسْرائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ فَصامَهُ مُوسىٰ. قالَ: فَأَنا أَحَقُّ بِمُوسىٰ مِنْكُمْ فَصامَهُ وَأَمَرَ بِصِيامِهِ»(٢).

٢ ـ عن أبي موسى ، قال :

«كانَ يَوْمُ عاشُوراءَ تَعُدُّهُ الْيَهُودُ عِيداً. قالَ النَّبِيُّ ﷺ : فَصُومُوهُ أَنْتُمْ»(٣).

٣ ـ عن علقمة ، عن عبدالله ، قال :

« دَخَلَ عَلَيْهِ الْأَشْعَثُ وَهُوَ يُطْعَمُ ، فَقالَ: الْيَوْمُ عاشُوراءُ. فَقالَ: كانَ يُصامُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ رَمَضانُ ، فَلَمّا نَزَلَ رَمَضانُ تُرِكَ ، فَادْنُ فَكُلْ»(٤).

---

(١) صحيح البخاري ٢: ٢٥١.

(٢) صحيح البخاري ٢: ٢٥١.

(٣) صحيح البخاري ٢: ١٣٦.

(٤) صحيح البخاري ٥: ١٥٥.

مال الصدقة

١ / ٢ / ١٢٨

قال أبو هريرة :

«أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ ﷺ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَجَعَلها في فِيهِ ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : كِخْ كِخْ -لِيَطْرَحَها- ثُمَّ قالَ : أَما شَعَرْتَ أَنّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ» .

وفي **١ / ٥ / ١٥٥**

قال أبو هريرة أيضاً :

«كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ إذا أُتِيَ بِطَعامٍ سَأَلَ عَنْهُ أَهَدِيَّةٌ أَمْ صَدَقَةٌ ؟ فَإِنْ قِيلَ : صَدَقَةٌ ، قالَ لأَصْحابِهِ : كُلُوا وَلَمْ يَأْكُلْ ، وَإِن قِيلَ : هَدِيَّةٌ ، ضَرَبَ بِيَدِهِ ﷺ فَأَكَلَ مَعَهُمْ» .

ويناقضها ما رواه في نفس الصفحة عن أنس بن مالك ، وهو قوله :

«أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِلَحْمٍ ، فَقِيلَ : تُصُدِّقَ عَلىٰ بَرِيرَةَ ، قال : هُوَ لَها صَدَقَةٌ وَلَنا هَدِيَّةٌ» .

وهذا تخريج غريب لا يمكن صدوره عن النبيّ ﷺ ، فإنّ كون ذلك اللحم (هديّة) أو (صدقة) لا يحدّده اختيار النبيّ ، وإنّما هو مقيّد بنيّة المصدر الذي هوهنا (المتصدّق) وليس بنيّة (المستفيد) من الصدقة ، فإذا كانت نيّته الصدقة فهو صدقة لا تقبل التأويل ، وإن كانت هديّة فهي كذلك . .

ولو كان هذا التخريج صحيحاً لفعله النبيّ في الروايتين الأُولى والثانية ، فيترك الحسن يأكل تلك التمرة ، كما يأكل هو من ذلك الطعام مع أصحابه ، وينوي أنّها لهما (هديّة) وللآخرين (صدقة) ! !

كسوف الشمس واهتزاز العرش

٢ / ٤ / ١٠٨

روى عن ابن مسعود :

«أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ : إنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النّاسِ ، وَلٰكِنَّهُما آيَتانِ مِنْ آياتِ اللهِ ، فَإذا رَأَيْتُمُوهُما فَصَلُّوا».

ويناقضه ما رواه في **٢ / ٥ / ٣٥** بسنده عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، حيث قال :

« اهْتَزَّ الْعَرْشُ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مَعاذٍ ، فَقالَ رَجُلٌ لِجابِرَ : فَإنَّ الْبَراءَ يَقُولُ : اهْتَزَّ السَّريرُ فَقالَ : إنَّهُ كانَ بَيْنَ هٰذيْنِ الْحَيَّيْنِ ضَغائِنُ ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمٰنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعاذٍ».

وهكذا نرى أنّ الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ، ولكنّ عرش الرحمن الذي هو أجلّ وأسمى منهما يهتزّ لموت سعد بن معاذ **! !**

ولكنّنا فهمنا من الرواية أنّ هنالك ضغائن بين حيّ (البراء بن عازب) وحيّ (سعد بن معاذ) جعلت البراء يسخر ويقول : « اهتزّ السرير » بدلاً من « اهتزّ عرش الرحمن » **!** وهذا يجعلنا نعتقد أنّ الحديث الذي رواه البراء عن مناديل سعد بن معاذ في الجنّة كان أيضاً من باب السخرية منه .

فقد روى البخاري عنه في **٢ / ٥ / ٣٥** قوله : **«أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ حُلَّةُ حَريرٍ ، فَجَعَلَ أَصْحابُهُ يَمَسُّونَها وَيَعْجَبُونَ مِنْ لِينِها ، فَقالَ : أَتَعْجَبونَ مِنْ لِينِ هٰذهِ ! لَمَناديلُ سَعْدِ بْنِ مُعاذٍ في الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْها أَوْ أَلْيَنُ»**..

إنّهم لم يكتفوا بالكذب على رسول الله ، وإنّما أسندوا إليه حتّى سخريّتهم واستهزائهم ببعضهم ، أمّا المسلمون فقد أصبحوا وهم لا يميّزون بين الجدّ والهزل ، فيسارعون إلى قبول الروايات على ما فيها من هنات ، لأنّ المتربّع على رأس سندها أحد الصحابة الكرام حتّى لوكانت قد أُسندت إليه باطلاً..

دعاء النبيّ

٢ / ٥ / ٩٩

قال أنس بن مالك:

«شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ فَقالَ: كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[1]»[2]..

وقال سالم بن عبدالله بن عمر:

«كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو عَلىٰ صَفْوانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرو وَالْحارِثِ بْنِ هِشامٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾».

وعلى ما في هاتين الروايتين من تعارض بينهما، فإنّهما تتعارضان مع العقل والمنطق.. فنحن إذ نسمعهما لا نستطيع إلّا أن نضمّ صوتنا إلى صوت النبيّ ﷺ ونسأل: كيف يفلح قوم شجّوا نبيّهم؟ دون أن يكون في ذلك موجباً لذلك الردّ الإلـهيّ ونزول الوحي به حيث أنّ القرآن مليء بالآيات التي تتوعّد من يؤذي النبيّ وتبشّره بعذاب أليم، وما دعا النبيّ ﷺ في قنوته على هؤلاء الذين عذّبوا وقتلوا أصحابه المؤمنين إلّا لعلمه بإباحة ذلك له..

ولكن ماذا نفعل وقد تبوّأ أبناء هؤلاء الذين دعا عليهم النبيّ المناصب وأصبحت لهم فيما بعد صولة وجولة في تاريخ الإسلام، فأرادوا التخلّص من سُبّة ومغبّة تلك اللعنات أو الدعوات باختلاق أمثال هذه الروايات صوناً لكرامتهم التي هدرها النبيّ على مرّ العصور؟!!

---

(١) آل عمران ٣: ١٢٨.

(٢) صحيح البخاري ٥: ٢٥.

قصّة الحشفة !

٣ / ٧ / ٧٤

قال أبو هريرة:

«قَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْماً بَيْنَ أَصْحابِهِ تَمْراً، فَأَعْطىٰ كُلَّ إِنْسانٍ سَبْعَ تَمْراتٍ، فَأَعْطاني سَبْعَ تَمْراتٍ إِحْداهُنَّ حَشَفَةٌ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهِنَّ تَمْرَةٌ أَعْجَبَ إِلَيَّ مِنْهاَ شَدَّتْ في مَضاغي»[١].

وفي **٣ / ٧ / ٧٩**

قال أبو هريرة:

«قَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَنا تَمْراً، فَأَصابَني مِنْهُ خَمْسٌ، أَرْبَعُ تَمْراتٍ وَحَشَفَةٌ، ثُمَّ رَأَيْتُ الْحَشَفَةَ هِيَ أَشَدُّهُنَّ لِضِرْسي».

وهناك رواية ثالثة لأبي هريرة قال فيها أنّها كانت (تمرتان) أكل منها واحدة، وخبّأ الأُخرى، فقال له النبيّ ﷺ: **لِمَ خَبَأْتها ؟**

قال: لأُمّي.

فقال له: **كُلْها وسنعطيك لأُمّك تمرتين**[٢]..

إنّنا لم نعتبر هذه الرواية الثالثة متناقضة مع ما سبقها لأنّها قد تكون وقعت في ظرف آخر، أمّا الأُولى والثانية فلا مجال لاعتبارهما كذلك بدلالة (الحشفة) وتقويتها لأضراس أبي هريرة، ونعتقد بأنّه إنّما بقي يتذكّر تلك الحشفة لا لكونها قوّت أضراسه ولكن لاستمرار شعوره بالغبن والحيف لوقوعها في حصّته.. والله أعلم.

---

(١) صحيح البخاري ٦: ٢٠٤.

(٢) الطبقات الكبرى ٤: ٣٢٩. سير أعلام النبلاء ٣: ٥٩٢.

التنفّس في الإناء

٣ / ٧ / ١١٢

عن أبي قتادة :

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: إذا شَرِبَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَتَنَفَّسْ في الْإناءِ».

ينقضه ما رواه عن ثمامة بن عبدالله ، وهو قوله :

«كانَ أَنَسٌ يَتَنَفَّسُ في الْإِناءِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً وَزَعَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يَتَنَفَّسُ ثَلاثاً»[١].

الصلاة خلف الإمام

٣ / ٧ / ١١٨

عن عائشة ، قالت :

«قالَ النَّبِيُّ ﷺ : إِنَّ الْإِمامَ لَيُؤْتَمَّ بِهِ ، فَإِذا رَكَعَ فَارْكَعوا ، وَإِذا رَفَعَ فارْفَعوا ، وَإِنْ صَلّىٰ جُلُوساً فَصَلُّوا جُلُوساً».

ينقضه ما أورده في نفس الصفحة بسنده عن الحميدي ، حيث قال :

« إِنَّ هذا الحديث منسوخ؛ لأنّ النبيّ ﷺ آخر ما صلّى ، صلّى قاعداً والناس خلفه قيام »[٢].

نقول : إذا كان الإمام مقعداً بسبب عارضٍ أو مرضٍ ، فإنّ المصلّين خلفه ليسوا كذلك ، وإنّ الحالة التي اضطرّته إلى الصلاة جالساً لم تضطرّ غيره ، وهذه من البديهيّات التي ننزّه النبيّ ﷺ عن مخالفتها .. ولذلك فإنّ الحديث الأوّل موضوع

---

(١) صحيح البخاري ٦: ٢٥١.

(٢) صحيح البخاري ٧: ٦.

قطعاً ولا يوجد هنا نسخ، ولكن الحميديّ وجد أنّ الرواية مسندة إلى السيّدة عائشة فهو بين ورطتين، فإن قَبِل الرواية وسكت، فهو أمام ورطة شرعيّة، وإن اعترض ورفض فهو أمام ورطة سياسيّة، فسلك طريق السلامة والأمان وقال: إنّه منسوخ..

لا عدوى ولا طيرة

٢ / ٧ / ١٢٦

بسنده عن أبي هريرة:

«أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: لا عَدْوىٰ، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هامّةَ».

وفي **٣ / ٧ / ١٢٨** بسنده عنه أيضاً:

«أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: لَا عَدْوىٰ، وَلَا صفر، وَلَا هامَّة، فَقالَ أعْرابِيٌّ: يا رَسولَ اللهِ، فَما بالُ إبِلي تَكونُ في الرَّمْلِ كَأنَّها الظِّباءُ، فَيَأتي الْبَعِيرُ الأجْرَبُ فَيَدْخُلُ بَيْنَها فَيُجْرِبُها؟ قالَ: فَمَنْ أعْدَى الأوَّل؟».

وينقضه ما في **٣ / ٧ / ١٣٨** بسنده عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: « **لا يُورَدَنَّ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ** »، وأنكر أبو هريرة الحديث الأوّل.

قلنا: ألم تُحَدِّث: إنَّهُ لا عَدْوىٰ؟ فرَطَنَ بالْحَبَشِيَّةِ.

وينقضه كذلك ما في **٣ / ٧ / ١٣٠** عن أسامة بن زيد، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«إذا سَمِعْتُمْ بِالطّاعُونِ بِأرْضٍ فَلَا تَدْخُلوها، وَإذا وَقَعَ بِأرْضٍ وَأنْتُمْ بِها فَلَا تَخرجوا مِنْها».

الرجلُ يجرُّ إزاره

٣ / ٧ / ١٤١

بسنده عن سالم بن عبدالله بن عمر:

«أَنَّ أَباهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: بَيْنا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزارَهُ خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَّلُ في الْأَرْضِ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ».

ويروي هذا الحديث أيضاً عن أبي هريرة..

وفي ٣ / ٧ / ١٤٢ بسنده عن شعبة، عن محارب بن دثار، قال:

«سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَر، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يقول: مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ مَخْيَلَةً لَمْ يَنْظُرِ اللهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ.

قالَ: فَقُلْتُ لِمُحارِب: أَذَكَرَ إِزارَهُ؟

قال: ما خَصَّ إِزاراً وَلَا قَمِيصاً».

وقد رأينا أنّ شعبة لم يكن مصدّقاً حديث سالم، لذلك سأل محارب عن الإزار، وكان جواب محارب أنّه لم يذكر إزاراً ولا قميصاً، مبالغة منه في استنكار وتكذيب سالم.. وفيما عدا التناقض فإنّ حديث سالم لا يستفاد منه أيّ معنىً بعكس حديث شعبة الذي يفهم منه أنّ المقصود هو التكبّر والخيلاء.

قضاء الصيام

١ / ٣ / ٣٢

عن أبي هريرة:

«أَنَّ النَّبِيَّ قال: مَنْ أَفْطَرَ يَوْماً مِنْ رَمَضانَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ وَلَا مَرَضٍ لَمْ يَقْضِهِ صيامُ الدَّهْرِ وَإِنْ صامَهُ».

ينقضه قول سعيد بن المسيّب والشعبي وابن جبير وإبراهيم وقتادة وحمّاد:

«يَقْضِي يَوْماً مَكانَهُ»[1].

---

(١) صحيح البخاري ٢: ٢٣٥.

الفصل الثاني

أحاديث متفرّقة

النبيّ يأمر بما يطاق

٩/١/١

«كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ إذا أَمَرَهُمْ أَمَرَهُمْ مِنَ الْأَعْمالِ بِما يُطِيقُونَ.

قالُوا: إنّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يا رَسولَ اللهِ، إنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ، فَيَغْضَبُ حَتّىٰ يُعْرَفُ الْغَضَبُ في وَجْهِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: إنَّ أَتْقاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنا».

إنّ أهمّ ما نؤشّره على هذا الحديث هو:

١ ـ معنى يطيقون: فإمّا هو من الطاقة، أي المقدرة، وإمّا من الإطاقة، أي المقدرة مع بذل غاية الجهد بحيث يعرّض المكلّف نفسه إلى الأذى والضرر.

فإذا كان المعنى الأوّل هو المقصود، أي أنّ النبيّ ﷺ كان يأمرهم من الأعمال بما هم قادرون عليه، فلا نرى وجهاً لاعتراضهم وقولهم له: إنّا لسنا كهيئتك..!!

أمّا إذا كان المقصود المعنى الثاني، أي أنّه كان يأمرهم بما يعجزون عن أدائه أو يتحمّلون الأذى في تنفيذه ـ وهذا هو المفهوم من الرواية ـ فهو غير صحيح ولا يؤيّده الدليل.. لأنّ الله سبحانه قال: ﴿**يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾[1]،

---

(١) البقرة ٢: ١٨٥.

وأنّ النبيّ ﷺ كان حريصاً على التخفيف عن المسلمين في كلّ شيء حتّى في أداء الصلاة حين كان يأمر من يؤمّهم أن يصلّي بصلاة أضعفهم(١).

وقد روى البخاري قوله ﷺ: «**أيّها الناس، إنّكم منفرون، فمن صلّى بالناس فليخفّف، فإنّ فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة**»(٢).. وعلى ذلك يكون القول بأنّه ﷺ كان يأمرهم بما يعجزون عنه أو ما هو فوق طاقتهم قولاً باطلاً لا دليل عليه..

٢ ـ ما هو وجه غضب النبيّ ﷺ «حتّى يُعرف الغضب في وجهه» وهو يعلم صدق مقالتهم، إذ قالوا: «إنّنا لسنا كهيئتك» فهم ليسوا أنبياء وإنّما هم أُناس عاديّون، ولم يُطلب منهم كلّ ما طلب من النبيّ ﷺ.

وقد روى البخاريّ عن عبدالله بن عمر: «أنّ النبيّ ﷺ واصل ـ أي صام أكثر من يوم بلا إفطار ـ فواصلَ الناس فشقّ عليهم، فنهاهم، قالوا: إنّك تواصل.

قال: **لست كهيئتكم، إنّي أظلّ أُطعَم وأُسقى**»(٣).

ومع عدم قناعتنا بهذا الحديث أيضاً إذ لا معنى للصيام مع تحقّق الإطعام والإسقاء، نقول: مع ذلك فإنّ قول النبيّ هنا يناقض فعله هناك، فهو إذ غضب منهم لأنّهم قالوا له: «لسنا كهيئتك» يعود الآن ليقول لهم: «لست كهيئتكم»!! وهذا ما لا يصدر عن النبيّ ﷺ..

٣ ـ الحوار في متن الحديث مضطرب ولا يخلو من تناقض ونقص، فقولهم: «لسنا كهيئتك» إمّا أن يكون متعلّقاً بما قبله، وهو أنّه «أمرهم من الأعمال بما يطيقون» أو متعلّقاً بما بعده وهو قولهم: «قد غفر لك..»، فإن كان الأوّل،

---

(١) المعجم الكبير، الطبراني ٩: ٥٦. كنز العمّال ٧: ٦٠٠، الحديث ٢٠٤٥١.

(٢) صحيح البخاري ١: ٣١.

(٣) صحيح البخاري ٢: ٢٣٢.

فهو يعني إقرارهم بأنّ النبيّ ﷺ كان يلزم نفسه بأعمال كانوا يعجزون هم عن مجاراته فيها ، فلا يبقى معنى لقولهم له : « قد غفر لك »؛ لأنّ المعنى الإجمالي لذلك الحوار سيكون : «أنّك تمارس أعمالاً نعجز عنها لأنّك قد غفر لك» ، وهذا كلام غير متجانس . .

وإمّا أن يكون قولهم متعلّقاً بما بعده ، فيعني اتّهاماً منهم لرسول الله ﷺ بالاتّكال على المغفرة وعدم العمل ، حيث سيكون السياق المفهوم من الكلام : « إنّك تأمرنا بمانعجز عنه ، وإنّنا لسنا مثلك لا تعمل لأنّك مغفور ذنبك » ، وحاشا رسول الله ﷺ أن يكون كذلك . .

٤ ـ الجواب المنسوب إلى النبيّ : « **إنّ أتقاكم وأعلمكم بالله أنا** » غريب جدّاً من عدّة وجوه :

١ ـ أنّه دخيل على سياق الحوار ، فهو ليس جواباً على ما ادّعوه ، وربّما هو تأكيد لقولهم : لسنا كهيئتك ، ممّا لا يبقي مبرّراً للغضب . .

٢ ـ إنّه ينسجم فقط مع تصوّر اتّهام النبيّ بعدم العمل والاتّكال على المغفرة ، على اعتبار أنّه سيكون ردّاً على قولهم الذي افترضناه : إنّك لا تعمل لأنّك قد غفر لك ، فكان ردّه : ومع ذلك فأنا أتقاكم وأعلمكم بالله ، وهذا ما لا يقرّه مؤمن بعظمة النبيّ ﷺ . .

٣ ـ الكلمات المنسوبة للنبيّ تدلّ على الرضا عن النفس والشعور بالزهو ، كما نلمس منها شعور النبيّ بالندية بينه وبين المخاطَبين لذلك راح يفاخرهم بأنّه أتقاهم وأعلمهم . . وكلّ ذلك غير ممكن وغير منطقيّ . .

إلحاح سعد بن أبي وقّاص على النبيّ

١ / ٣ / ١٠

بسنده عن عامر بن سعد بن أبي وقّاص ، عن أبيه ، قال :

«إنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ أَعْطىٰ رَهْطاً وَسَعْدٌ جالِسٌ فَتَرَكَ رَسولُ اللهِ ﷺ رَجُلاً هُوَ أَعْجَبُهُمْ إلَيَّ ، فَقُلْتُ : يا رَسولَ اللهِ ، ما لَكَ عَنْ فُلانٍ ، فَوَاللهِ إِنّي لَأَراهُ مُؤْمِناً .

فَقالَ : أَوْ مُسْلِماً ؟ فَسَكَتَ قَليلاً ثُمَّ غَلَبَني ما أَعْلَمُ مِنْهُ .

فَعُدْتُ لِمَقالَتي ، فَقُلْتُ : ما لَكَ عَنْ فُلانٍ ، فَوَاللهِ إِنّي لَأَراهُ مُؤْمِناً .

فَقالَ : أَوْ مُسْلِماً ، ثُمَّ غَلَبَني ما أَعْلَمُ مِنْهُ .

فَعُدْتُ لِمَقالَتي وَعادَ رَسولُ اللهِ ، ثُمَّ قالَ : يا سَعْدُ ، إِنّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ في النّارِ» .

ولدينا على هذه الرواية مآخذ كثيرة وهفوات أبرزها :

١ ـ كيف تسنّى لسعد أن يلحّ كلّ هذا الإلحاح على النبيّ ﷺ ؟ أما فهم من إعراض النبيّ عنه لثلاث مرّات أنّ له رأياً غير رأيه في أمرٍ هو فيه صاحب القرار والمسؤوليّة التي يجب احترامها وعدم التطفّل عليها ؟ !

٢ ـ إنّ الجواب المزعوم على لسان النبيّ ﷺ أشدّ غرابة من تصرّف سعد ، فهو يعطي الرجل ، وإنّ غيره أحبّ منه إليه ولكنّه لا يعطيه خشية أن يكبّه الله في النار ! فهل يتعمّد النبيّ ﷺ تعريض مَن يعطيهم مغبّة أن يكبّهم الله في النار ؟ ولماذا يعاقبون أصلاً وهم لم يفعلوا شيئاً سوى قبول ما أعطاهم النبيّ ﷺ ؟

٣ ـ ظهر من اعتراضات سعد المتكرّرة أنّ شرط الإعطاء كان الإيمان فقط ، إذ تكرّر قوله : إنّي لأراه مؤمناً ، ولم يقل إنّي لأراه مجاهداً أو مستحقّاً أو ما شابه ، فكيف عرف سعد أنّه مؤمن وهو أمر لا يعرفه إلّا الله تعالى وقد عبّر عنه بقوله : **﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾**[١] .

---

(١) التوبة ٩ : ١٠١ .

وبقوله: ﴿ **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلْكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾[١]..

٤ ـ على أنّ هنالك حديثاً آخر ورد في الصحيح أيضاً يعطي الموضوع شكلاً آخر منطقيّاً وقريباً من الصواب مع ما فيه من مساس ـ لا يفعله النبيّ ـ بالذين يعطيهم، وهو ما رواه عن عمرو بن تغلب وهو قوله: «أنّ رسول الله أُتِيَ بمالٍ أو سبي فقسّمه، فأعطى رجالاً وترك رجالاً، فبلغه أنّ الذين ترك عتبوا. فحمد الله ثمّ أثنى عليه ثمّ قال: **أمّا بعد، فوالله إنّي لأعطي الرجل وأدع الرجل، والذي أدع أحبّ إليَّ من الذي أُعطي، ولكن أُعطي أقواماً لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير**..»[٢].

اليوم أكملت لكم دينكم

١ / ١ / ١٤

بسنده عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطّاب، قال:

«إنَّ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ قالَ لَهُ: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، آيَةٌ في كِتابِكُمْ تَقْرَءُونَها لَوْ عَلَيْنا ـ مَعْشَرَ الْيَهودِ ـ نَزَلَتْ، لَاتَّخَذْنا ذلِكَ الْيَوْمَ عِيداً.

قالَ: أَيُّ آيَةٍ؟

قالَ: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾[٣].

قالَ عُمَرُ: قَدْ عَرَفْنا ذلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكانَ الَّذي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ قائِمٌ

---

(١) الحجرات ٤٩: ١٤.

(٢) صحيح البخاري ١: ٢٢٢.

(٣) المائدة ٥: ٣.

بِعَرَفَةٍ يَوْمَ جُمُعَةٍ».

إنّ السبب الأوّل، بل الأوحد، لوضع هذه الرواية هو تثبيت نزول هذه الآية على النبيّ في عرفة يوم جمعة، وليس في غدير خمّ عند عودة النبيّ من حجّة الوداع.. وقد وضعوها على لسان الخليفة عمر لإعطائها قدراً أكبر من التأثير في السامعين..

ويكفي في ردّ هذه الرواية وإهمالها، أنّ هذه الآية هي من سورة المائدة التي اتّفق جميع علماء المسلمين ومفسّري كتاب الله على أنّها نزلت بأكملها في المدينة وليست فيها آية واحدة مكّيّة(١)، وكما هو معلوم فإنّ عرفة بمكّة..

جبرئيل يعلّم الناس دينهم

١ / ١ / ١٥

بسنده عن أبي هريرة، قال:

«كانَ النَّبِيُّ ﷺ بارِزاً يَوْماً لِلنّاسِ، فَأَتاهُ جِبْرِيلُ فَقالَ: ما الْإِيمانُ؟

قالَ: الْإِيمانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ.

قالَ: ما الْإِسْلامُ؟

قالَ: الْإِسْلامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضانَ.

قالَ: ما الْإِحْسانُ؟

---

(١) راجع: شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني ١: ١٥٧. مناقب عليّ، ابن المغازلي: ١٩. تاريخ بغداد ٨: ٢٩٠. الدرّ المنثور ٢: ٢٥٩. الاتقان ١: ٣١. تفسير الجلالين، السيوطي: ٥٩. روح المعاني، الآلوسي ٦: ٥٥. المناقب، الخوارزمي: ٨٠. تفسير ابن كثير ٢: ١٤. تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٥. ينابيع المودّة، القندوزي: ١١٥. فرائد السمطين ١: ٧٤. تاريخ دمشق، ابن عساكر ٢: ٧٥. تاريخ ابن كثير ٥: ٢١٠، وغيرها.

قالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ.

قالَ: مَتَى السّاعَةُ؟

قالَ: ما الْمَسْئُولُ عَنْها بِأَعْلَمَ مِنَ السّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْراطِها، إِذا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّها، وَإِذا تَطاوَلَ رُعاةُ الْإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيانِ فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ ﷺ: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآيَةَ[١]، ثُمَّ أَدْبَرَ.

فَقالَ: رُدُّوهُ، فَلَمْ يَرَوْا شَيْئاً.

فَقالَ: هٰذا جِبْرِيلُ جاءَ يُعَلِّمُ النّاسَ دِينَهُمْ».

إنّ تبليغ أوامر الله وتعليم الناس دينهم هو من صلب واجبات الأنبياء والرسل ولا علاقة للملائكة بذلك، ولا هو من تكليفهم، ولم نعلم أنّ ذلك قد حصل في تاريخ الأديان، سوى قضيّة الملَكين اللذين ظهرا لسليمان وداود عليهما السلام، وتلك قضيّة خاصّة تعلّقت بالنبيَّيْن فقط ولم يظهر فيها الملَكان علانية أمام الناس..

وإنّ نبيّنا الكريم ﷺ لم يقصّر في تأدية واجبه الرساليّ، ولم يدّخر جهداً في إيصال أحكام الله وشريعته إلى الناس وتعليمهم دينهم.. فلم تكن هنالك ضرورة لتدخّل جبرئيل عليه السلام في هذا الشأن، سيّما وأنّ ما طرحته الرواية من أسئلة ادّعت أنّه سألها النبيّ ﷺ تعتبر من أساسيّات الدين وأوّلياته، وإذا لم يكن النبيّ ﷺ قد علّمهم بها قبل هذا فإنّه لم يكن قد علّمهم شيئاً أصلاً وهذا غير صحيح..

تعقيب حول ظهور جبرئيل للنبيّ بصورة دحية الكلبي

لقد وردت روايات في بعض كتب الصحاح وغيرها تقول أنّ جبرئيل عليه السلام كان يظهر للنبيّ ﷺ بصورة (دحية الكلبي).. ونسعى هنا إلى النظر في إمكانيّة الحصول

---

(١) لقمان ٣١: ٣٤.

على إجابات مقنعة للأسئلة التالية :

لماذا دحية الكلبيّ بالذات ؟

هل إنّ ذلك ممكن عمليّاً ؟

وهل هو جائز منطقيّاً ؟ وما هي الغاية منه ؟

وفي الجواب عليها نقول :

لوكان ذلك صحيحاً فينبغي أن يكون (دحية) من خيرة المؤمنين المتميّزين بالإيمان والعلم والعبادة لكي يكون أهلاً لاختياره كواجهة يتجسّد جبرئيل الأمين عليه السلام من خلالها أمام النبيّ صلى الله عليه وآله..

ولا بدّ أن يكون في ذلك كسب معنوي عظيم لدحية ، ورفع من شأنه بين المؤمنين ، وإعلاء لمقامه.. فالشخص الذي اختاره الله جلّ شأنه ليجعل سيّد ملائكته يتقمّص صورته ، لا بدّ وأن يحظى بين الناس بالمكانة المرموقة والشأن العظيم..

ولكن تلك المقدّمات وهذه النتائج لا تنطبق على دحية الكلبيّ ، ولم نجد لها أثراً في تاريخه ، فلم يكن بين الصحابة متميّزاً ، ولم ينعكس ظهور جبرئيل بصورته على واقعه الاجتماعيّ والدينيّ ، ممّا يدعم اعتقادنا بأنّ هذه الفرية قد ظهرت في عصر متأخّر عن عصر الصحابة..

أمّا من حيث واقعيّة هذه القضيّة ، فقد وجدنا أنّها تفتقر إلى الحكمة ، سيّما وأنّ الله سبحانه قادر على تكييف صورة خاصّة لجبرئيل تكون معروفة ومألوفة من قِبل النبيّ صلى الله عليه وآله وهو غير عاجز عن ذلك..

لقد تصوّر من موضع هذه الفرية أنّ النبيّ سيكون أهدأ نفساً ، وأكثر اطمئناناً إذا ما تعامل مع شخص يعرفه ، وقد فاتهم أنّ هذا بالذات هو أهمّ سبب ينفي صحّة ما ذهبوا إليه.. لأنّه لن يكون بإمكان النبيّ صلى الله عليه وآله التعامل مع جبرئيل بعيداً

عن شخصيّة دحية الحقيقيّة المتمثّلة أمامه، ولن يكون استعداده للتلقّي من رجل عاديّ يعرفه من قومه متلائماً مع الجوّ الإلٰهيّ الذي يفترض أنّه يعيشه، ولا بدّ أن تفرض المفردات والتفاصيل التي يعرفها النبيّ عن دحية الكلبيّ نفسها على أيّ لقاء يجري بينه وبين جبرئيل، وهو ما سيقلّل من أهمّيّة اللقاء وقدسيّته..

والأهمّ من ذلك هو كيف سيميّز النبيّ ﷺ بين دحية الذي هو جبرئيل وبين دحية الحقيقيّ؟ ناهيك عمّا يمكن لهذا الأمر أن يتسبّب به من طعون بالدين وبكتاب الله، حيث سيدّعي المشركون والمعاندون والمتربّصون ـ ولهم الحقّ ـ أنّ هذا الدين قد كان من وحي (دحية الكلبيّ) وليس من وحي إلٰهيّ.

نعوذ بالله من شرور ما يفترون

غسل النبيّ

١ / ١ / ٥٦

بسنده عن أبي بكر بن حفص، قال:

«سَمِعْتُ أَبا سَلَمَةَ يَقُولُ: دَخَلْتُ أَنا وَأَخُو عائِشَةَ عَلىٰ عائِشَةَ، فَسَأَلَها أَخُوها عَنْ غُسْلِ النَّبِيِّ ﷺ، فَدَعَتْ بِإِناءٍ نَحْواً مِنْ صاعٍ، فَاغْتَسَلَتْ وَأَفاضَتْ عَلىٰ رَأْسِها وَبَيْنَنا وَبَيْنَها حِجابٌ».

هل يجد المسلم الغيور في نفسه القدرة على تصديق هذه الرواية؟

إنّنا لا نعتقد ذلك؛ لأنّ ما ورد فيها يرفضه العقل، ويمجّه الذوق السليم، لتعرّضه لحرمة وكرامة أُمّ المؤمنين عائشة..

أفلم يكن بمقدورها أن تشرح للسائل كيفيّة غسل النبيّ باللسان دون الفعل؟

وهل كان الجواب عويصاً إلى الحدّ الذي لا يمكن فهمه إلّا بوسائل الإيضاح؟

ولقد أحسّ الراوي بسقطته فتداركها بإضافة عبارة «وبيننا وبينها حجاب» دون

أن ينتبه إلى أنّ هذه الإضافة قد نسفت روايته ولم تبق لها أيّة قيمة لأنّ هذا (الحجاب) سيمنعهما من رؤية أيّ شيء أرادت أن تبيّنه لهما عمليّاً..

لقد لفت انتباهنا كثرة الروايات التي يذهب فيها الرجال المسلمون إلى السيّدة عائشة ليسألونها عن قضايا يتحرّج حتّى الرجال من الخوض فيها، ولا جدوى من المبالغة في تعميم قاعدة «ليس في الدين حرج» لأنّها لا تصحّ إلّا مع الاضطرار، وإلّا بالكيفيّة التي يقبلها الشرع والعرف، ولم يكن المسلمون في حالة اضطرار عند سؤالهم للسيّدة عائشة، حيث يفترض أن يكون مجتمع المدينة مليئاً بالصحابة الذين سمعوا من النبيّ ﷺ وتعلّموا منه.. وإذا لم يكن فيهم مَن يعرف كيف كان يغتسل النبيّ، فعلام إذن أضفينا عليهم كلّ تلك القدسيّة وملأنا الكتب وصفاً لبراعتهم في علوم الشريعة والفقه وغيرها ؟

إذا رفع المصلّي رأسه قبل الإمام

١ / ١ / ١٣٦

بسنده عن أبي هريرة:

«أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: أَما يَخْشىٰ أَحَدُكُمْ إِذا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الْإِمامِ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمارٍ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمارٍ».

ممّا تتميّز به أحاديث أبي هريرة، احتواؤها على عبارات ومسمّيات رديئة لا تتناسب مع بلاغة النبيّ ﷺ ومتانة عباراته ورصانة مفرداتها..

فمن لم يقم لصلاة الصبح فقد **بال** الشيطان في أُذنه، وعندما يسمع الشيطان الأذان يهرب وله **ضراط**، وإنّ الجنّ يأكلون **الروث** والعظام، وأهل الجنّة **لا يتغوّطون ولا يتمخّطون ولا يبولون**.. إلى الكثير من أمثال هذه الألفاظ، وهو الآن يقول أنّ المصلّي الذي يرفع رأسه قبل الإمام سيجعل الله رأسه **كرأس حمار** أو يجعل صورته

صورة حمار!!

ولنا أن نسأل عن الذنب العظيم الذي ارتكبه ذلك المصلّي برفعه لرأسه قبل الإمام حتّى يعاقبه الله تعالى بمثل هذه العقوبة القاسية وينتقم منه كلّ هذا الانتقام، وهو لم يقف ذلك الموقف إلّا لعبادته وتوحيده وطاعته.. سيّما وأنّ نوع العقوبة لا يتلاءم مع حجم المعصية إن كان هنالك معصية أصلاً..

استجابة الدعاء بأكثر من الحاجة

١ / ٢ / ١٢

بسنده عن أنس بن مالك، قال:

«أصابَتِ النّاسَ سَنَةٌ عَلىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَبَيْنا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ في يَوْمِ جُمُعَةٍ قامَ أَعْرابِيٌّ فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، هَلَكَ الْمالُ، وَجاعَ الْعِيالُ، فَادْعُ اللهَ لَنا.

فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَما نَرىٰ في السَّماءِ قَزَعَةً، فَوَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ، ما وَضَعَها حَتّىٰ ثارَ السَّحابُ أَمْثالَ الْجِبالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتّىٰ رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحادَرُ عَلىٰ لِحْيَتِهِ ﷺ، فَمُطِرْنا يَوْمَنا ذلِكَ، وَمِنَ الْغَدِ، وَبَعْدَ الْغَدِ، وَالَّذي يَلِيهِ حَتّى الْجُمُعَةِ الْأُخْرىٰ.

وَقامَ ذلِكَ الْأَعْرابِيُّ ـ أَوْ قالَ: غَيْرُهُ ـ فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، تَهَدَّمَ الْبِناءُ، وَغَرِقَ الْمالُ، فَادْعُ اللهَ لَنا.

فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقالَ: اللّٰهُمَّ حَوالَيْنا وَلا عَلَيْنا، فَما يُشيرُ بِيَدِهِ إِلىٰ ناحِيَةٍ مِنَ السَّحابِ إِلّا انْفَرَجَتْ وَصارَتِ الْمَدينَةُ مِثْلُ الْجَوبَةِ وَسالَ الْوادي قَناةَ شَهْراً وَلَمْ يَجِئْ أَحَدٌ مِنْ ناحِيَةٍ إِلّا حَدَّثَ بِالْجَوْدِ».

إنّ الله سبحانه وتعالى يستجيب لدعاء النبيّ إظهاراً لكرامته، وتعزيزاً لمكانته،

وتنويهاً بفضله ، وقرّة لعيون المؤمنين ، وإرغاماً لأنوف المعاندين .. ولأنّ النبيّ يدعو ربّه بقلبٍ مؤمن ، ولسان طاهر صادق ، ولا يدعوه بطراً ولا اختباراً ولا إسقاطاً لفرض ، وإنّما يدعوه مع قيام الحاجة ، وإلحاح الضرورة ، وثبوت المصلحة ، ووقوع الظرف الحاكم ..

وعلى هذا ستكون استجابة الله لذلك الدعاء محكومة بتلبية بعض تلك الأهداف أو جميعها ، سيّما تحقيق المراد من الدعاء بإيقاع المصلحة ، وإنزال الخير ، وتغيير الحال ..

أمّا ما ورد في الحديث فإنّه لا ينسجم مع ما قلناه ، فلم تكن الاستجابة مراعيةً لحجم الحاجة ومقدار الطلب ، وإنّما كانت استجابة عشوائيّة لا تدلّ على فضيلة ، ولا تؤدّي إلى خير ، وإنّما جاءت بعكس المطلوب ، فهدّمت البناء ، وأغرقت المال ، وأتلفت الزرع ، وشرّدت العيال .. في حين كان هدف الدعاء إنزال المطر للريّ وإنبات الزرع وغوث الناس ، وفي هذا مساس بحكمة الباري عزّ وجلّ بقرينة عودة النبيّ ﷺ ليطلب منه إيقاف المطر أو تحويله « **حوالينا ولا علينا** » ، وهذا أيضاً لا نتوقّعه من النبيّ ﷺ لأنّه يعني عدم الوثوق بحكمة الله وتقديره ممّا استوجب إرشاده إلى مواقع الضرورة وبيان حدود الحاجة ، وحاشا الله ورسوله أن يحدث كلّ ذلك ..

ثواب من احتبس فرساً في سبيل الله

٢ / ٤ / ٢٨

بسنده عن أبي هريرة ، قال :

« **قالَ النَّبِيُّ ﷺ : مَنِ احْتَبَسَ فَرَساً في سَبِيلِ اللهِ إِيماناً بِاللهِ ، وَتَصْدِيقاً بِوَعْدِهِ ، فَإِنَّ شِبْعَهُ ، وَرِيَّهُ ، وَرَوْثَهُ ، وَبَوْلَهُ في مِيزانِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ** » .

وهذا أيضاً من الغرائب التي تفرّد بها أبو هريرة، فهو يظنّ أنّ الله سبحانه سيزن أعمال الخلق بميزان حقيقيّ فيضع «أكل الفرس، وريّه، وروثه، وبوله» في كفّة ذلك الميزان ليعادلها بالثواب والحسنات!!..

فما هكذا ستجري الأمور يا أبا هريرة..

قبور الأنبياء

٢ / ٤ / ١٦٩

لَمّا نَزَلَ بِرَسولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلىٰ وَجْهِهِ، فَإِذا اغْتَمَّ بِها كَشَفَها عَنْ وَجْهِهِ، فَقالَ وَهُوَ كَذٰلِكَ: لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصارَىٰ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيائِهِمْ مَساجِدَ، يُحَذِّرُ ما صَنَعُوا».

لقد أمضى النبيّ ﷺ بين ظهرانيّ المسلمين ثلاثاً وعشرين سنة يبلّغهم رسالة الله وأوامره ونواهيه، وما يوحى إليه من كتاب الله وشرائعه وتعاليمه، ولم يترك أمراً مهما صغُر إلّا بيّنه وأوضح حكمه، ابتداءً من الأحكام الشرعيّة ومروراً بالعبادات والطاعات، وانتهاءاً بالقصص والأمثال، وعندما نزلت الآية المباركة ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً**﴾ لم يعد هنالك ما يحتاج إلى بيان أو إيضاح..

فلماذا أخّرَ رسول الله إبلاغ المسلمين بأمر إن فعلوه يستحقّون عليه لعنة الله وغضبه ولم يصرّح به إلّا وهو على فراش الموت؟!

ولماذا لم يحدّثهم طيلة السنين المنصرمة عن اتّخاذ اليهود والنصارى قبور أنبيائهم مساجد ويحذّرهم من الاقتداء بهم؟

وأين المشكلة في أداء الصلاة لله وعبادته في أيّ مكان من الأرض أو البحر أو السماء والله هو المقصود بالعبادة وليس المكان؟

أوَلم يرو البخاريّ عن أنس أنّ النبيّ ﷺ كان يصلّي في الزرائب ومرابض الغنم قبل بناء المسجد[١].. فلماذا صحّت الصلاة في الزرائب ولا تصحّ على أرض كرّمت باحتضان رفات نبيّ ؟

وهل يستطيع أحد أن يجد أرضاً لم تكن يوماً قبراً لإنسان أو حيوان ، وقد سكن هذه الأرض الملايين من الأُمم والأقوام ، ودفن فيها المليارات من البشر بحيث لا يضمن أحد شبراً لم يكن يوماً قبراً لأحد.. ؟

أليس الدين قد قرَنَ العمل بالنيّة ، ولم يجعل للمكان أيّة قيمة عندما ذمّ من بنى مسجداً ضراراً وحرّم الصلاة فيه ، بل أمر بهدمه ؟

إنّ مناط قبول العبادات هو الإقرار الصادق بالعبوديّة لله والإيمان به ، والنيّة الخالصة في توجيه العبادة إليه ، وليكن ذلك في أيّ مكان من الأرض.. أمّا بدون ذلك فإنّ الصلاة حتّى لو كانت في الكعبة بيت الله ، فإنّها لن تجدي نفعاً..

وزن الرجل السمين يوم القيامة

٢ / ٦ / ٩٣

بسنده عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ أنّه قال :

«إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ ، وَقالَ: اقْرَءُوا: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً ﴾[٢]» .

مرّ علينا فيما مرّ الكثير من أحاديث أبي هريرة التي يشير فيها إلى آية قرآنيّة يعتقد أنّها تدعم ما يدّعيه ، وكذلك إصراره في أغلب رواياته على إضفاء معانٍ مادّيّة على قضايا معنويّة لا يمكن أن تتجسّد بأيّ حال.. وعلى نفس المنوال يحوك

---

(١) صحيح البخاري ١: ٦٤، ١١١ و ٤: ٢٦٦.

(٢) الكهف ١٨: ١٠٥.

الحديث الذي نذكره الآن، فقد فهم أبو هريرة أنّ قوله تعالى: ﴿**فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً**﴾ متعلّق بميزان وقبّان وأثقال، وأنّ عمليّة وزن حقيقيّة ستجري هناك، وأنّ الرجل «العظيم السمين» سوف لن يزن في ذلك الميزان جناح بعوضة، وقد عجز عن أن يفهم أنّ مضمون الآية الكريمة هو تعبير مجازيّ يقصد به الإشارة إلى القيمة والاعتبار وليس الوزن بالكيلوغرامات.

إنّنا لم نستطع أن نحمل كلام أبي هريرة على المجاز، لأنّه لم يقصد المجاز أصلاً من خلال اختياره لرجل (سمين) وهو يعني به (ثقيل الوزن) وهذا يشير إلى وجهة سيره بالحديث.. ولو كان قد قال: «يأتي الرجل الجبّار أو الطاغية أو المتكبّر يوم القيامة وهو لا يزن عند الله جناح بعوضة» لاستطعنا أن نحمل قوله على المجاز..

السبّ قربة للمسبوب

٣ / ٨ / ٧٧

بسنده عن أبي هريرة، قال:

«سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: اللّٰهُمَّ فَأَيُّما مُؤْمِنٍ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْ ذلِكَ لَهُ قُرْبَةً إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيامَةِ».

وهذا هو نفس الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة أيضاً، ونصّه: «**اللّهمّ إنّما محمّد بشر يغضب كما يغضب البشر، وإنّي قد اتّخذت عندك عهداً لم تخلفنيه، فأيّما مؤمن آذيته أو سببته أو لعنته أو جلدته، فاجعلها له كفّارة وقربة تقرّبه بها إليك**»[١].

نقول:

١ ـ إنّ النبيّ ﷺ وجميع أنبياء الله عليهم السلام كان شعارهم معاملة الناس بالحسنى،

---

(١) صحيح مسلم ٨: ٢٦.

ومقابلتهم بالموعظة الحسنة ، والصبر عليهم ، والإحسان إلى محسنهم ، والتجاوز عن مسيئهم ، ولم يكن النبيّ مأموراً أن يجلد أو يسبّ أو يلعن مَن لا يستحقّ منه ذلك ، في حالة الرضا أو ساعة الغضب ، ولا يمكن للنبيّ أن يغضب بدون حقّ ، وحاشا لله أن يبعث أنبياء يؤدّي بهم الغضب إلى أذى أو لعن أو سبّ مَن لا يستحقّ ، وتقدّس أنبياء الله عن كلّ ما لا يليق بالحكماء ، سيّما وأنّ إتيان مثل هذا العمل يعتبر ظلم قبيح وفسق صريح لا يأتيه عدول المؤمنين ، فكيف يأتيه سيّد النبيّين وخاتم المرسلين ؟ !(١)

٢ - ولقد روي عن النبيّ ﷺ مجموعة كبيرة من الأحاديث تنهى عن السباب واللعن ، منها :

قوله : « **سباب المسلم فسوق** »(٢) .

وقوله : « **لا يكون اللعّانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة** »(٣) .

وقوله ﷺ : « **إنّ خياركم أحاسنكم أخلاقاً** »(٤) .

وقول أنس : « **لم يكن رسول الله فاحشاً ولا لعّاناً ولا سبّاباً** »(٥) .

ثمّ يأتي القول الفصل وهو ما رواه عبدالله بن عمرو ، عنه ﷺ حيث قال : «كنت أكتب كلّ شيء أسمعه من رسول الله أُريد حفظه ، فنهتني قريش وقالوا : أتكتب كلّ شيء تسمعه ورسول الله يتكلّم في الرضا والغضب ، فأمسكت عن الكتاب

---

(١) أبو هريرة ، شرف الدين : ٩٢.

(٢) صحيح البخاري ١ : ١٧ و ٧ : ٨٤ و ٨ : ٩١. صحيح مسلم ١ : ٥٨. سنن ابن ماجة ١ : ٢٧ ، الحديث ٦٩.

(٣) صحيح مسلم ٨ : ٢٤. سنن أبي داود ٢ : ٤٥٨ ، الحديث ٤٩٠٧.

(٤) صحيح البخاري ٧ : ٨٢. صحيح مسلم ٧ : ٧٨ ، سنن الترمذي ٣ : ٢٣٦.

(٥) صحيح البخاري ٧ : ٨٤.

وذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فأومأ بإصبعه إلى فيه وقال : **اكتب فوالذي نفسي بيده ، ما يخرج منه إلّا حقّ »**[١] .

وعن عمر بن شعيب ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : « قلت : يا رسول الله ، أكتب كلّ ما أسمع منك ؟

قال : **نعم** .

قلت : في الرضا والغضب ؟

قال : **نعم ، فإنّي لا أقول في ذلك كلّه إلّا حقّاً »**[٢] .

وقد سئلت عائشة عن خلق النبيّ ﷺ فقالت لسائلها : هل قرأت القرآن ؟

قال : نعم .

قالت : خلُقُه القرآن[٣] .

ومن بعض المأثور عنه ﷺ :

« الرجل من ملك نفسه عند الغضب »[٤] .

« من يُحرَم الرفق يُحرَم الخير »[٥] .

« الرفق لا يكون في شيء إلّا زانه ، ولا ينزع من شيء إلّا شانه »[٦] .

« إنّ الله رفيق يحبّ الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف »[٧] .

---

(١) سنن أبي داود ٢ : ١٧٦ ، الحديث ٣٦٤٦ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١ : ٧١ .

(٣) مسند أحمد ٦ : ٩١ ، ١٦٣ ، ٢١٦ . الأدب المفرد ، البخاري : ٧٤ ، الحديث ٣١١ .

(٤) صحيح مسلم ٨ : ٣٠ .

(٥) صحيح مسلم ٨ : ٢٢ . سنن أبي داود ٢ : ٤٢٨ ، الحديث ٤٨٩ .

(٦) صحيح مسلم ٨ : ٢٢ . السنن الكبرى ١٠ : ١٩٣ .

(٧) صحيح مسلم ٨ : ٢٢ . السنن الكبرى ١٠ : ١٩٣ .

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»(١).

فهل يصحّ بعد هذا أن يقال أنّ النبيّ ﷺ كان يسبّ ويلعن ويجلد ويؤذي على الغضب مَن لا يستحقّ ؟ ثمّ يأتي ليطلب من الله أن يجعل من ذلك قربة لمن اعتدى عليه ؟ كلّا إن ذلك إلّا بهتان عظيم..

٣ - وحيث كان كتاب الله نصب عينيه ﷺ يهتدي بهداه، ويستضيء بنوره، ويتعبّد بأوامره، ويتأدّب بآدابه، ويتّبع آثاره، ويقتفي سوره وآياته، فما كان بإمكانه أن يحيد عن قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً** ﴾(٢).

وقوله: ﴿ **وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ** ﴾(٣).

وقوله: ﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾(٤).

وقوله: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً** ﴾(٥).

وقوله: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾(٦).

وقوله: ﴿ **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾(٧).

---

(١) صحيح البخاري ١: ٨ و ٧: ١٨٦. صحيح مسلم ١: ٤٨.

(٢) الأحزاب ٣٣: ٥٨.

(٣) الشورى ٤٢: ٣٧.

(٤) آل عمران ٣: ١٣٤.

(٥) الفرقان ٢٥: ٦٣.

(٦) الأعراف ٧: ١٩٩.

(٧) فصّلت ٤١: ٣٤.

وقوله: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾[١].

وقوله: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[٢]

وقوله: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣].

وقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِن حَوْلِكَ ﴾[٤].

وبعد كلّ ذلك تصدر شهادة الله وتزكيته لنبيّه الكريم عندما قال له: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٥]

فكيف جوّزوا عليه بعد هذا أن يلعن ويسبّ ويجلد ويؤذي من دون سبب إلّا أنّه قد غضب؟!

نعوذ بالله وبه نستجير، ما قدروا الله حقّ قدره، فصبر جميل،

والله المستعان على ما يصفون..

٤ ـ بيت القصيد: لقد وضع هذا الحديث في زمن معاوية تزلّفاً إليه وتقرّباً إلى آل أبي العاص وبقيّة الأمويّين، ولذلك قصّة سنرويها لك:

فقد رأى رسول الله ﷺ في منامه كأنّ بني الحكم بن أبي العاص ينزون على منبره نزو القردة فيردّون الناس على أعقابهم القهقرى، فما رؤي ﷺ بعدها مستجمعاً ضاحكاً حتّى توفّي[٦]، وقد أنزل الله تعالى في ذلك قرآناً هو قوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا

---

(١) البقرة ٢: ٨٣.

(٢) البقرة ٢: ١٩٠.

(٣) الشعراء ٢٦: ٢١٥.

(٤) آل عمران ٣: ١٥٩.

(٥) القلم ٦٨: ٤.

(٦) المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٨٠. مجمع الزوائد ٥: ٢٤٣.

الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾[(١)]، والشجرة الملعونة في القرآن هي الأُسرة الأمويّة، أخبره الله تعالى بتغلّبهم على مقامه، وقتلهم ذرّيّته، وعيثهم في أُمّته، فلم يرَ بعدها ضاحكاً حتّى لحق بالرفيق الأعلى، وهذا من أعلام النبوّة، وآيات الإسلام، والصحاح فيه متواترة، لا سيّما من طريق العترة الطاهرة[(٢)].

ولكنّنا لن نروي عن أهل البيت، بل سنكتفي برواية ذكرها البخاريّ في صحيحه مع عجبنا كيف رواها وهو الحريص على سمعة الأمويّين، الذائد عنهم، ولكنّ الحقّ أقوى من أن يكتم أو أن يخنق صوته..

فقد روى بسنده عن عمرو بن يحيى بن سعيد بن عمرو بن سعيد، قال: أخبرني جدّي قال: «كنت جالساً مع أبي هريرة في مسجد النبيّ ﷺ بالمدينة ومعنا مروان، قال أبو هريرة: سمعت الصادق المصدوق، قال: هلكة أُمّتي على أيدي غلمة من قريش.

فقال مروان: لعنة الله عليهم غلمة.

فقال أبو هريرة: لو شئت أن أقول بني فلان وبني فلان لفعلت، فكنت أخرج مع جدّي إلى بني مروان حين ملكوا في الشام فإذا رآهم غلماناً أحداثاً قال لنا: عسى هؤلاء أن يكونوا منهم.

قلنا: أنت أعلم»[(٣)].

لقد نوّه رسول الله ﷺ بأمر هؤلاء المتغلّبين **﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ**

---

(١) الإسراء ١٧: ٦٠.

(٢) أبو هريرة، شرف الدين: ٩٥.

(٣) صحيح البخاري ٤: ١٧٨ و ٨: ٨٨.

مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[(١)]، وما على الرسول إلّا البلاغ المبين.. وقد صدرت عن النبيّ ﷺ أقوال كثيرة تعدّ قرائن معتبرة لتأكيد الحديث المذكور وتوضيحه، كما أنّها كانت محاولة صريحة منه ﷺ لإعلان ما أخبره الله به والتحذير منه، وإلقاء الحجّة فيه..

فهذا الحكم بن أبي العاص يسأذن على النبيّ ﷺ ذات يوم، فيعرف النبيّ صوته فيقول: « **ائذنوا له عليه لعنة الله وعلى مَن يخرج من صلبه، إلّا المؤمن منهم، وقليل ما هم، يُشرفون في الدنيا ويوضعون في الآخرة، ذوو مكر وخديعة، يُعطَون في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق** »[(٢)].

وقال ﷺ: « **إذا بلغ بنو العاص ثلاثين رجلاً اتّخذوا مال الله دولاً، وعباد الله خولاً، ودين الله دغلاً** »[(٣)].

وكان أهل المدينة يأتون بمواليدهم إلى النبيّ ﷺ ليدعو لهم، فلمّا أُدخل عليه مروان بن الحكم قال ﷺ: « **هو الوزغ ابن الوزغ، الملعون ابن الملعون** »[(٤)].

وعن السيّدة عائشة من حديث قالت فيه: « ولكنّ رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان في صلبه.. فمروان فَضَض من لعنة الله »[(٥)].

وعن الشعبيّ، عن عبدالله بن الزبير، قال: « إنّ رسول الله ﷺ لعن الحكم وولده »[(٦)].

---

(١) الأنفال ٦: ٤٢.

(٢) مجمع الزوائد ٥: ٢٤٣. كنز العمّال ١١: ٣٥٧، الحديث ٣١٧٢٩.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٨٠. مجمع الزوائد ٥: ٢٤١.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٧٩.

(٥) المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٨١.

(٦) المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٨١.

والصحاح في هذا ونحوه متواترة، وحسبك منها ما أخرجه الحاكم في كتاب الفتن والملاحم من صحيحه «المستدرك»، إذ أخرج منها ما فيه بلاغ لأُولي الألباب، وقد ختم الباب بقوله: «ليعلم طالب العلم أنّ هذا الباب لم أذكر فيه ثلث ما روي، وأنّ أوّل الفتن في هذه الأمّة فتنتهم.. ولم يسعني فيما بيني وبين الله أن أُخلي الكتاب من ذكرهم»[1].

ولا يخفى ما في كلام الحاكم هذا من تخوّف من العامّة وجمهور المسلمين أن ينكروا عليه إخراج هذه الصحاح فاعتذر إليهم بأنّه لم يسعه أن يخلي كتابه منها وجعل الله شهيداً فيما بينه وبينهم على ذلك..

وهنا عرفت معنى قول القائل:

ما المسلمون بأُمّةٍ لمحمّدٍ   كلّا ولكن أُمّةً لعدوّه[2]

والنتيجة: فقد سعينا لإثبات ما ادّعيناه في أنّهم إنّما اختلقوا حديث (السبّ قربة للمسبوب) والكثير من أمثاله تداركاً لهذه اللعنات التي صبّها عليهم رسول الله ﷺ، وممّا نأسف له أنّ الكثير من المسلمين آثروا هؤلاء الملعونين على رسول الله إذ قالوا بصحّة هذه الخرافات صوناً لهم، ولم يلتفتوا إلى ما سيترتّب على ذلك ممّا لا يليق بالنبيّ ﷺ.. «وما كان للأُمّة أن تحتفظ بكرامة من لعنهم نبيّنا لنفاقهم، ونفاهم لفسادهم، فتضيّع على نفسها المصلحة التي توخّاها ﷺ لها في لعنهم وإقصائهم، وهم الذين دحرجوا الدباب ليلة العقبة لينفّروا برسول الله ﷺ فيطرحوه، وكان إذ ذاك قافلاً من غزوة تبوك.. والعجب من المسلم ينتصر لهم وقد جرّعوا النبيّ كلّ غصّة وقعدوا له في كلّ مرصد، ووثبوا عليه وعلى أهل بيته من بعده كلّ وثبة،

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٨٢.

(٢) أبو هريرة، شرف الدين: ٩٧.

وما لعنهم إلّا ليطردهم الله من رحمته، ويتجنّبهم المؤمنون من أُمّته جزاءاً وفاقاً لا ليقرّبهم من الله زلفى كما يخرّفون»[١].

ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

أبو ذرّ في الربذة

١ / ١ / ١١

بسنده عن المعرور بن سويد، قال:

«لَقِيتُ أَبا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلىٰ غُلامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذلِك، فَقَالَ: إنّي سابَبْتُ رَجُلاً فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: يا أَبا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ، إنَّك امْرُؤٌ فيكَ جاهِلِيَّةٌ. إخْوانُكُمْ خَوَلَكُمْ جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ فَإِن كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».

مَن هو أبو ذرّ الغفاريّ؟

قال عنه أبو نعيم:

«العابد الزهّيد، القانت الوحيد، رابع الإسلام، ورافض الأزلام قبل الشرع والأحكام، تعبّد قبل الدعوة بالشهور والأعوام، وأوّل من حيّى الرسول بتحيّة الإسلام، لم يكن تأخذه في الحقّ لومة اللوّام، ولا تفزعه سطوة الولاة والحكّام، أوّل مَن تكلّم في علم البقاء والفناء، وثبت على المشقّة والعناء، وحفظ العهود والوصايا، وصبر على المحن والرزايا، واعتزل مخالطة البرايا، إلى أن حلَّ بساحة

---

(١) أبو هريرة، شرف الدين: ٩٨ و ٩٩.

المنايا ، أبو ذرّ الغفاريّ ﷺ ، خدم الرسول ، وتعلّم الأُصول ، ونبذ الفضول »[١].

لقد كان ﷺ آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، حريصاً على تثبيت عرى الدين ، جريئاً في مقارعة الباطل والبغي ، يتعمّد المجاهرة بآيات الله التي تدين ما كان يمارسه الساسة من تجاوزات على حدود الله وحقوق الناس . .

قال البلاذريّ : « لمّا أعطى عثمان مروان بن الحكم ما أعطاه ، وأعطى الحارث بن الحكم بن أبي العاص ثلاثمائة ألف درهم ، وأعطى زيد بن ثابت الأنصاري مائة ألف درهم ، جعل أبو ذرّ يقول : بشّر الكانزين بعذاب أليم ، ويتلو قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[٢] ، فرفع ذلك مروان بن الحكم إلى عثمان ، فأرسل إلى أبي ذرّ نائلاً مولاه : أن انتهِ عمّا يبلغني عنك .

فقال : أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله . . فوالله لأن أُرضي الله بسخط عثمان أحبّ إليَّ من أن أُسخط الله برضاه .

فأغضب عثمان ذلك وأحفظه ، فتصابر وكفّ .

وقال عثمان يوماً : أيجوز للإمام أن يأخذ من المال ، فإذا أيسر قضى ؟

فقال كعب الأحبار : لا بأس بذلك .

فقال أبو ذرّ : يابن اليهوديّين ، أتعلّمنا ديننا ؟

فقال عثمان : ما أكثر أذاك لي وأولعك بأصحابي ، إلحق بمكتبك ، وكان مكتبه بالشام ، إلّا أنّه كان يَقدِم حاجّاً ويسأل عثمان الإذن له في مجاورة قبر رسول الله ﷺ فيأذن له في ذلك ، وإنّما صار مكتبه بالشام لأنّه قال لعثمان حين رأى البناء قد بلغ سلعاً : إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا بلغ البناء سلعاً فالهرب ، فأذَنْ لي

---

(١) حلية الأولياء ١ : ١٥٦.

(٢) التوبة ٩ : ٣٤.

آتي الشام فأغزو هناك ، فأذِنَ له ، وكان أبو ذرّ ينكر على معاوية أشياء يفعلها . .

يقول البلاذري : وحينما بنى معاوية الخضراء بدمشق قال أبو ذرّ : يا معاوية ، إن كانت هذه الدار من مال الله فهي الخيانة ، وإن كانت من مالِك فهذا الإسراف ، فسكت معاوية .

وكان أبو ذرّ يقول : والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها ، والله ما هي في كتاب الله ولا سنّة نبيّه ، والله إنّي لأرى حقّاً يُطفأ ، وباطلاً يُحيى ، وصادقاً يُكذّب ، وأثرةً بغير تُقى ، وصالحاً مُستأثَراً عليه .

فقال حبيب بن مسلمة لمعاوية : إنّ أبا ذرّ مُفسِدٌ عليك الشام ، فتدارك أهله إن كانت لكم به حاجة .

فكتب معاوية إلى عثمان فيه ، فكتب عثمان إلى معاوية :

أمّا بعد ، فاحمل جُندباً إليّ على أغلظ مركب وأوعره ، فوجّه معاوية من سار به الليل والنهار ، فلمّا قدم أبو ذرّ المدينة جعل يقول : تستعمل الصبيان ، وتحمي الحمى ، وتُقَرِّب أولاد الطلقاء ، فبعث إليه عثمان : إلحق بأيّ أرض شئت .

فقال : بمكّة . قال : لا .

قال : فبيت المقدس . قال : لا .

قال : فبأحد المصرين . قال : لا ، ولكنّي مُسَيِّرك إلى الربذة ، فسيَّره إليها ، فلم يزل بها حتّى مات »[١] .

وجدير بالذكر أنّ عثمان عندما نفاه من المدينة منع الناس من الخروج لتوديعه ، فلم يخرج خلفه إلّا عليّ بن أبي طالب وولده الحسن عليهما السلام ، ممّا أدخلهما في كلام مع عثمان . .

---

(١) أنساب الأشراف ٦ : ١٦٧ و ١٦٨ .

والربذة هذه صحراء قاحلة خالية من معالم الحياة ، قال عنها أبو ذرّ: أعادني عثمان أعرابيّاً بعد هجرتي .. ولم يكن معه غير زوجته في بعض الروايات ، أو ابنته في روايات أُخرى ..

فمن أين جاءه الغلام والحُلل ؟ وكيف ومتى رآه المعرور فتحدّث معه ؟

لماذا نبّه النبيّ ﷺ على صدق أبي ذرّ ؟

لقد كان أبو ذرّ رضي الله عنه صحابيّاً جليلاً ، مؤمناً ، مجاهداً ، عالماً ، زاهداً ، إلى كثير من الصفات التي كان يتمتّع بها المتميّزون من صحابة رسول الله ، وقد كان غريباً أن يتجاوز النبيّ ﷺ كلّ تلك الصفات عندما أراد الثناء عليه ليختار منها (الصدق) ليصفه به ، إذ قال: « **ما أظلّت الخضراء ، ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ** »[(١)].

ولكن تلك الغرابة تزول ، ويصبح واضحاً مرام رسول الله ﷺ عندما وجدنا أنّ المحنة التي تعرّض لها أبو ذرّ كان سببها لسانه ، حيث طعنوه في أسمى كمالاته ، وأنبل خصاله ، وأروع صفاته ، وهو صدقه .. فعرفنا أنّ النبيّ ﷺ قد عَلِمَ ذلك بحسّه النبويّ وإلهامه الإلٰهيّ فأحبّ أن ينصره ويسجّل له هذه الشهادة لعلّها تحميه ..

فقد استدعاه عثمان وقال له: أنت الذي تزعم أنّا نقول: يد الله مغلولة ، وأنّ الله فقير ونحن أغنياء ؟

فقال أبو ذرّ: لو كنتم لا تقولون هذا لأنفقتم مال الله على عباده ، ولكنّي أشهد أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولاً ، وعباده خولاً ، ودينه دخلاً**.

فقال عثمان لمن حضر: أسمعتموها من رسول الله ؟

---

(١) مسند أحمد ٥: ١٩٧. سنن الترمذي ٥: ٣٣٤ ، الحديث ٣٨٩٠.

قالوا: لا.

قال عثمان: ويلك يا أبا ذرّ أتكذب على رسول الله ؟

فقال أبو ذرّ لمن حضر: أما تدرون أنّي صدقت ؟

قالوا: لا والله ما ندري.

فقال عثمان: ادعوا لي عليّاً.

فلمّا جاء قال عثمان لأبي ذرّ: أُقصص عليه حديثك في بني أبي العاص، فأعاده.

فقال عثمان لعليّ: أسمعت هذا من رسول الله ؟

قال: **لا، وقد صدق أبو ذرّ.**

فقال: كيف عرفت صدقه ؟

قال: **لأنّي سمعت رسول الله يقول: ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ.**

فقال مَن حضر: أمّا هذا فسمعناه كلّنا من رسول الله.

فقال أبو ذرّ: أُحدّثكم أنّي سمعت هذا من رسول الله فتتّهموني ؟ ما كنت أظنّ أنّي أعيش حتّى أسمع هذا من أصحاب محمّد ﷺ»[1].

إنّك امرؤ فيك جاهليّة !!

تلك هي العبارة التي ضمّنوها روايتهم، وأسندوها إلى أبي ذرّ نفسه إمعاناً في خداع العامّة والخاصّة، لتشويه صورته في أذهانهم كخطوة مهمّة في إضعاف شأن وتأثير الأحاديث الكثيرة التي رواها عن النبيّ ممّا يفضح ويدين سلوكهم وأفعالهم بعد رسول الله ﷺ، وتلاعبهم بأموال الله وحقوق العباد وظلمهم للرعيّة

---

(١) شرح نهج البلاغة ٨: ٢٥٨.

واستئثارهم بالخيرات..

وليس حديثه عن آل أبي العاص بالحديث الأوّل ولا الأخير، ولذلك كان لا بدّ لهم من إجراء سريع وعلى أكثر من صعيد، إذ لم يكن كافياً نفيه من المدينة وإبعاده وعزله عن الناس؛ لأنّ ذلك وحده لن يؤثّر على ما تركه خلفه من أقوال رواها عن النبيّ.. فتفتّقت أذهانهم (وهم عباقرة الدهاء والمكر) عن فكرة هذا الحديث، فشرعوا في إعداده ونشره بين الناس لتحقيق الغاية التي أشرنا إليها..

ولكنّنا سنجد من غير عناء بين سطور هذا الحديث الموضوع ما ينفي صحّته ويؤكّد زيفه، فنقول:

١ ـ إنّ من دلائل عدم صحّة الحديث تعارضه مع قول النبيّ الذي ذكرناه آنفاً بحقّ أبي ذرّ، والذي هو قول متواتر لا يرتقي إليه الشكّ.

٢ ـ لا تخفى على أحد بلاغة النبيّ ﷺ وسلامة ألفاظه وعباراته، والدقّة التي كان يتوخّاها في صياغة كلماته، وقد وجدنا في هذا الحديث قوله: «**إخوانكم خولكم**» التي يُفهم منها أنّه قد جعل من الإخوان خولاً، أي عبيداً.. وهو مفهوم خاطئ لم يقصده النبيّ ولا يمكن أن يعنيه.. حيث أنّ الشكل الصحيح للعبارة لكي يستقيم المعنى المطلوب هو «خولكم أخوانكم» إذ سيجعل من العبيد إخواناً من باب الإيصاء بمودّتهم والرأفة والرحمة بهم..

٣ ـ إنّ النبيّ ﷺ لم يقل لعبدالله بن أبي سلول، شيخ المنافقين، أنّك منافق.. كما لم يصرّح لأيّ من الذين حاربوه وآذوه وحاولوا قتله بأيّ كلمة جارحة يمكن أن تمسّ مشاعرهم، أو تستثير عداوتهم.. عملاً وإلتزاماً بما يوحيه إليه نبل سلوكه، وكمال شخصه، ورفعة خُلُقه.. فما الذي أخرجه عن منهجه الحكيم ذاك، لكي يوجّه شتيمة قاسية جارحة لرجل يُعَدُّ من خيرة أصحابه وأوائل المؤمنين به والمجاهدين بين يديه مثل أبي ذرّ ﵁؟! ولماذا؟! ألأنّه عيّر رجلاً بأُمّه؟ فما أكثر

الصحابة الذين تعايروا بالأُمّهات فقالوا لبعضهم : يابن السوداء ، ويابن اللخناء ، ويابن الأمَة .. ولم يقل لهم النبيّ كلاماً مثل هذا ..

٤ ـ إنّ سياق الحديث يقتضي أن يكون الرجل الذي تسابب معه أبو ذرّ غلاماً له أو عبداً من عبيده لكي يستقيم المعنى مع السياق ، وهذا يردّه أمران :

الأوّل : أنّه لم يكن لأبي ذرّ غلام أو عبد في يوم من الأيّام حتّى يتسابب معه ويوصيه رسول الله بأن يتّخذه أخاً .. فإنّه (رضوان الله عليه) كان يحيا حياة تقشّف وزهد وقناعة ، هي التي جرّت عليه البليّة فيما بعد ..

والثاني : إنّه قال « سابيت رجلاً » أي أنّ السباب كان صادراً منهما معاً ، ولم يكن معهوداً يومها ولا قبلها ولا بعدها أن يتسابب غلام أو عبد مع سيّده ..

رحمك الله يا أبا ذرّ ، وسلامه عليك يوم ولدت ، ويوم متّ ، ويوم تُبعث حيّاً ، فقد جرّ عليك صدق عقيدتك ، وسموّ سجاياك ، وطهارة قلبك ، وولاؤك لرسول الله ولآل بيته الأطهار خصومة القوم وعداءهم ، ويكفيك أنّك لا زلت مع الدهر علماً شامخاً ، وقدوة رائعة للمؤمنين والمجاهدين .. أمّا أعداؤك فلا زالوا مضغة تلوكها ألسن الناس ..

الفصل الثالث

أبو هريرة يتحدّث عن نفسه

هكذا تحدّث أبو هريرة

١ / ١ / ٣١

قال أبو هريرة: «إِنَّ النّاسَ يَقُولُونَ: أَكْثَر أَبو هُرَيْرَةَ، وَلَوْلا آيَتانِ في كِتابِ اللهِ ما حَدَّثْتُ حَدِيثاً، ثُمّ يَتْلو ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ**﴾ إلىٰ قَوْلِهِ: ﴿**الرحيم**﴾[1]. إِنَّ إِخْوانَنا مِنَ الْمُهاجِرِينَ كانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْواقِ، وَإِنَّ إِخْوانَنا مِنَ الأَنْصارِ كانَ يَشْغَلُهُمُ الْعَمَلُ في أَمْوالِهِمْ، وَإِنَّ أَبا هُرَيْرَةَ كانَ يَلْزَمُ رَسولَ اللهِ ﷺ يُشْبِعُ بَطْنَهِ، وَيَحْضُرُ ما لا يَحْضُرُونَ، وَيَحْفَظُ ما لا يَحْفَظُونَ».

١ / ١ / ٣١

وقال: «قُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، إِنّي أَسْمَعُ مِنْكَ حَدِيثاً كَثِيراً أَنْساهُ.

قالَ: **ابْسُطْ رِداءَكَ**، فَبَسَطْتُهُ، فَغَرَفَ بِيَدَيْهِ ثُمَّ قالَ: **ضُمَّهُ**، فَضَمَمْتُهُ، فَما نَسِيتُ شَيْئاً بَعْدَهُ».

---

(١) البقرة ٢: ١٥٩ و ١٦٠.

١ / ١ / ٣١

وقال: «حَفِظْتُ مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ وِعاءَيْنِ، فَأَمّا أَحَدُهُما فَبَثَثْتُهُ، وَأَمّا الْآخَرَ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هٰذا الْبَلْعُومُ».

١ / ٣ / ١٤٦

وقال: «لَمّا قَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قُلْتُ في الطَّريقِ:

يا لَيْلَةً مِنْ طُولِها وَعَنائِها عَلىٰ أَنَّها مِنْ دارَةِ الْكُفْرِ نَجَّتِ

وَأَبَقَ مِنّي غُلامٌ لي في الطَّريقِ، فَلَمّا قَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بايَعْتُهُ، فَبَيْنا أَنا عِنْدَهُ إِذْ طَلَعَ الْغُلامُ، فَقالَ لي رَسولُ اللهِ ﷺ: **يا أَبا هُرَيْرَةَ، هٰذا غُلامُكَ**.

فَقُلْتُ: هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ، فَأَعْتَقْتُهُ».

٢ / ٤ / ٢٤

وقال: «أَتَيْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِخَيْبَرَ بَعْدَ ما افْتَتَحُوها، فَقُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، أَسْهِمْ لي؟

فَقالَ بَعْضُ بَنِي سَعيدِ بْنِ الْعاصِ: لَا تُسْهِمْ لَهُ يا رَسولَ اللهِ.

فَقُلْتُ: هٰذا قاتِلُ ابْنَ قَوْقَلٍ.

فَقالَ ابْنُ سَعيدِ بْنِ الْعاصِ: واعَجَباً لِوَبْرٍ تَدَلّىٰ عَلَيْنا مِنْ قُدُومِ ضَأْنٍ يَنْعىٰ عَلَيَّ قَتْلَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ أَكْرَمَهُ اللهُ عَلىٰ يَدَيَّ وَلَمْ يُهِنّي عَلىٰ يَدَيْهِ».

٢ / ٤ / ١٩٦

وقال: «صَحِبْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ ثَلاثَ سِنِينَ لَمْ أَكُنْ في سِنِيَّ أَحْرَصَ عَلىٰ أَنْ أَعِيَ الْحَديثَ مِنّي فِيهِنَّ».

٢ / ٥ / ١١٥

وقال: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في غَزْوَةِ نَجْدٍ صَلاةَ الْخَوْفِ».

قال البخاريّ : « وَإِنَّما جاءَ أَبُو هُرَيْرَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَيّامَ خَيْبَرَ » .

٢ / ٥ / ١٣٨

وقال : « افْتَتَحْنا خَيْبَرَ وَلَمْ نَغْنَمْ ذَهَباً وَلَا فِضَّةً ، إِنَّما غَنِمْنا الْبَقَرَ وَالْإِبِلَ وَالْمَتاعَ ، وَالْحوائِطَ » .

٣ / ٧ / ٤

وقال : « قُلْتُ : يا رَسُولَ اللهِ ، إِنّي رَجُلٌ شابٌّ ، وَأَنا أَخافُ عَلىٰ نَفْسي الْعَنَتَ ، وَلَا أَجِدُ ما أَتَزَوَّجُ بِهِ النِّساءَ ، فَسَكَتَ عَنّي .

ثُمَّ قُلْتُ مِثْلَ ذلِكَ ، فَسَكَتَ عَنّي .

ثُمَّ قُلْتُ مِثْلَ ذلِكَ ، فَسَكَتَ عَنّي .

ثُمَّ قُلْتُ مِثْلَ ذلِكَ ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : **يا أَبا هُرَيْرَةَ ، جَفَّ الْقَلَمُ بِما أَنْتَ لاقٍ فَاخْتَصِ عَلىٰ ذلِكَ أَوْ ذَرْ** » .

٣ / ٧ / ٦٣

وقال : « قالَ النَّبِيُّ ﷺ : **أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ ما تَرَكَ غِنًى ، وَالْيَدُ الْعُلْيا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلىٰ ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، تَقُولُ الْمَرْأَةُ : إِمّا أَنْ تُطْعِمَني وَإِمّا أَنْ تُطَلِّقَني ، وَيَقُولُ الْعَبْدُ : أَطْعِمْني وَاسْتَعْمِلْني ، وَيَقُولُ الابْنُ : أَطْعِمْني ، إِلىٰ مَنْ تَدَعُني ؟**

فَقالُوا : يا أَبا هُرَيْرَةَ ، سَمِعْتَ هٰذا مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ ؟

قال : لَا هٰذا مِنْ كِيسِ أَبي هُرَيْرَةَ » .

٣ / ٧ / ٦٨

وقال : « أَصابَني جَهْدٌ شَديدٌ ، فَلَقِيتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ فَاسْتَقْرَأْتُهُ آيَةً مِنْ كِتابِ

اللهِ، فَدَخَلَ دارَهُ وَفَتَحَها عَلَيَّ، فَمَشَيْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ، فَخَرَرْتُ لِوَجْهِي مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ، فَإِذا رَسولُ اللهِ ﷺ قائِمٌ عَلىٰ رَأْسي، فَقالَ: **يا أَبا هُرَيْرَةَ**.

فَقُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ.

فَأَخَذَ بِيَدِي فَأَقامَني، وَعَرَفَ الَّذي بي، فَانْطَلَقَ بي إِلىٰ رَحْلِهِ، فَأَمَرَ لي بِعُسٍّ مِنْ لَبَنٍ، فَشَرِبْتُ مِنْهُ، ثُمَّ قالَ: **عُدْ يا أَبا هِرٍّ**، فَعُدْتُ فَشَرِبْتُ.

ثُمَّ قالَ: **عُدْ**، فَعُدْتُ فَشَرِبْتُ، حَتّى اسْتوىٰ بَطْنِي فَصارَ كَالْقِدْحِ.

قالَ: فَلَقِيتُ عُمَرَ وَذَكَرْتُ لَهُ الَّذي كانَ مِنْ أَمْري، وَقُلْتُ لَهُ: فَوَلّى اللهُ ذٰلِكَ مَنْ كانَ أَحَقَّ بِهِ مِنْكَ يا عُمَرُ، وَاللهِ لَقَدِ اسْتَقْرَأْتُكَ الْآيَةَ وَلَأَنا أَقْرَأُ لَها مِنْكَ.

قال عُمَرُ: وَاللهِ لأَن أَكُونَ أَدْخَلْتُكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لي مِثْلُ حُمْرِ النَّعَمِ».

٣ / ٧ / ٧٧

وقال: «كُنْتُ أَلْزَمُ النَّبِيَّ ﷺ لِشِبَعِ بَطْنِي حِينَ لا آكُلُ الْخَمِيرَ، وَلَا أَلْبَسُ الْحَريرَ، وَلَا يَخْدُمُني فُلانٌ وَلَا فُلانَةٌ، وَأُلْصِقُ بَطْني بِالحَصْباءِ، وَاسْتَقْرِئُ الرَّجُلَ الْآيَةَ وَهِيَ مَعِي كَيْ يَنْقَلِبَ بي فَيُطْعِمَني، وَخَيْرُ النّاسِ لِلْمَساكِينِ جَعْفَرُ بْنُ أَبي طالِبٍ، يَنْقَلِبُ بِنا فَيُطْعِمُنا ما كانَ في بَيْتِهِ حَتّىٰ إِنْ كانَ لَيُخْرِجُ إِلَيْنا الْعُكَّةَ لَيْسَ فِيها شَيْءٌ فَنَشْتَقُّها فَنَلْعَقُ ما فِيها».

٣ / ٨ / ٩٦

وقال: «وَاللهِ الَّذي لَا إِلٰـهَ إِلّا هُوَ، إِنْ كُنْتُ لَأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لَأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلىٰ بَطْني مِنَ الْجُوعِ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْماً عَلىٰ طَرِيقِهِمِ الَّذي يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ أَبو بَكْرٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتابِ اللهِ ما سَأَلْتُهُ إِلّا لِيُشْبِعَني، فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ.

ثُمَّ مَرَّ بي عُمَرُ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتابِ اللهِ ما سَأَلْتُهُ إِلّا لِيُشْبِعَني ، فَمَرَّ فَلَمْ يَفْعَلْ .

ثُمَّ مَرَّ بي أَبُو الْقاسِمِ ﷺ فَتَبَسَّمَ حِينَ رَآني ، وَعَرَفَ ما في نَفْسِي وَما في وَجْهي ، ثُمَّ قالَ : **يا أَبا هِرٍّ**.

قُلْتُ : لَبَّيْكَ يا رَسولَ اللهِ.

قال : **الْحَقْ** ، وَمَضىٰ فَتَبِعْتُهُ ، فَدَخَلَ فَاسْتَأْذَنَ ، فَأَذِنَ لِي فَدَخَلَ فَوَجَدَ لَبَناً في قَدَحٍ ، فَقالَ : **مِنْ أَيْنَ هٰذا اللَّبَنُ ؟**

فَقالُوا : أَهْداهُ لَكَ فُلانٌ أَوْ فُلانَةٌ .

قال : **أَبا هِرٍّ**.

قُلْتُ : لَبَّيْكَ يا رَسولَ اللهِ.

قالَ : **الْحَقْ إِلىٰ أَهْلِ الصُّفَةِ فَادْعُهُمْ لي**.

قالَ : وَأَهْلُ الصُّفَةِ أَضْيافُ الْإِسْلامِ ، لا يَأْوُونَ إِلىٰ أَهْلٍ وَلَا مالٍ ، وَلَا عَلىٰ أَحَدٍ إذا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِها إِلَيْهِمْ ، ولَمْ يَتناوَلْ مِنْها شَيْئاً ، وَإِذا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ وَأَصابَ مِنْها وَأَشْرَكَهُمْ فِيها ، فَساءَني ذلِكَ ، فَقُلْتُ : وما هٰذَا اللَّبَنُ في أَهْلِ الصُّفَّةِ ، كُنْتُ أَحَقُّ أَنا أَنْ أُصِيبَ مِنْ هٰذَا اللَّبَنِ شَرِبةً أَتَقَوّىٰ بِها فَإِذا جاءَ أَمَرَني فَكُنْتُ أَنا أُعطيهِمْ وما عسىٰ أَن يَبْلغني من هذا اللّبن ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طاعَةِ اللهِ وَطاعَةِ رَسولِهِ ﷺ بُدٌّ ، فَأَتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ ، فَأَقْبَلُوا فَاسْتَأْذَنوا ، فَأَذِنَ لَهُمْ ، وَأَخَذُوا مَجالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ ، قالَ : **يا أَبا هِرٍّ**.

قُلْتُ : لَبَّيْكَ يا رَسولَ اللهِ.

قالَ : **خُذْ فَأَعْطِهِمْ** ، فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتّىٰ يَرْوىٰ ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ فَأُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتّىٰ يَرْوىٰ ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ فَيَشْرَبُ حَتّى يَرْوىٰ ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحِ ، حَتّى انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ رَوِيَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ ،

فَأَخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلىٰ يَدِهِ فَنَظَرَ إِلَيَّ فَتَبَسَّمَ، فَقالَ: **أَبا هِرٍّ**.

قُلْتُ: لَبَّيْكَ يا رَسولَ اللهِ.

قال: **بَقِيتُ أَنا وَأَنْتَ**.

قُلْتُ: صَدَقْتَ يا رَسولَ اللهِ.

قال: **اقْعُدْ فَاشْرَبْ**، فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ.

فَقالَ: **اشْرَبْ**، فَشَرِبْتُ، فَما زالَ يَقولُ: **اشْرَبْ**، حَتّى قُلْتُ: لا وَالَّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ما أَجِدُ لَهُ مَسْلَكاً.

قالَ: **فَأَروني**، فَأَعْطَيْتُهُ الْقَدَحَ، فَحَمِدَ اللهَ وَسَمّىٰ وَشَرِبَ الْفَضْلَةَ».

٣ / ٩ / ١٠٤

عن حمّاد، عن أيّوب، عن محمّد، قال:

«كُنّا عِنْدَ أَبي هُرَيْرَةَ وَعَلَيْهِ ثَوْبان مُمَشَّقانِ مِنْ كَتّانٍ فَتَمَخَّطَ فَقالَ: بَخٍ بَخٍ، أَبو هُرَيْرَةَ يَتَمَخَّطُ في الْكَتّانِ، لَقَدْ رَأَيْتُني وَإِنّي لَأَخِرُ فِيما بَيْنَ مِنْبَرِ رَسولِ اللهِ ﷺ إِلىٰ حُجْرَةِ عائِشَةَ مَغْشِيّاً عَلَيَّ فَيَجِيءُ الْجائي فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلىٰ عُنُقي وَيَرى أَنّي مَجْنونٌ وَما بي مِنْ جُنُونٍ، ما بي إِلّا الْجُوعُ».

مَن هو أبو هريرة ؟

لم يعرف لهذا الرجل اسمٌ محدّد، بل اشتهر بهذه الكنية التي لحقته من هرّةٍ كان يعتني بها ويحملها معه أينما ذهب، وقد ارتحل من اليمن إلى المدينة بعد انقضاء معركة خيبر، وأقام في الصُّفَّة في مسجد المدينة إلى أن بعثه النبيّ مع العلاء بن الحضرميّ..

بدأ يتحدّث عن رسول الله ﷺ ويكذب عليه حتّى منعه الخليفة عمر وهدّده

وتوعّده بأشدّ العقاب إن كرّر ذلك ، كما هدّده الخليفة عثمان بنفيه إلى جبال دوس إن استمرّ برواية الحديث..

ولكنّه في أواخر عهد عثمان استغلّ الأزمات التي أحاطت بالخلافة ، فانطلق بحملة تحديثيّة واسعة تضمّنت العجائب والغرائب ، ثمّ انتقل بعدها إلى خدمة معاوية وعموم الأمويّين حسب ما سنطّلع عليه من خلال البحث..

موقف النبيّ ﷺ من أبي هريرة

لقد كان الوافدون على المدينة من الفقراء والمعدمين ممّن ليس لهم فيها من يلجأون إليه ، يأوون إلى (صُفّةٍ) من السعف والجريد وُضعت لهم في المسجد حيث يتصدّق عليهم الصحابة بالطعام والشراب..

ولم يكن عدد هؤلاء ثابتاً ، فإنّه بين مَدٍّ وجَزرٍ مستمرّ حسب الظروف ، وتوفّر فرص العمل التي كان هؤلاء النزلاء يتحيّنونها للخروج من الصُّفَّة بعملٍ يعيلهم ، أو بعودة إلى مواطنهم كي لا يظلّوا عالة يتكفّفون المسلمين.. عدا أبو هريرة الذي ظلّ ملازماً لها طيلة مكوثه في المدينة ، ولم يقم بأيّ عمل يساعده على تركها ، ويكفيه مؤونة استجداء الناس والتعرّض لهم في الطرقات ليُشبعوا بطنه..

ولقد ظهر منه من النهم والشراهة ما جعله مبعث أذى ومضايقة وإحراج لكثير من الصحابة ، سيّما أبو بكر وعمر ، إذ كان يقطع عليهم الطريق ويلاحقهم مبتكراً طريقة جديدة في الاستجداء ، وهي أن يسألهم عن آية في كتاب الله ، ولا يقصد إلّا أن يميلوا به فيطعموه كما اعترف هو نفسه.

وقد تمادى في هذا السلوك إلى حدّ تعرّضه لرسول الله ﷺ ومضايقته وتعمّده التظاهر بالإغماء بين منبره وبيت عائشة ، ممّا أزعج النبيّ ﷺ وآلمه ، وبعث الأسى في نفسه ، وربّما أخجله أن يرى بين أتباعه من يظهر بهذا الشكل المقزّز والمثير

للاشمئزاز.. فحاول منعه من هذا السلوك حين قال له: «**زُر غَبّاً تَزْدَدْ حُبّاً**»[(١)] متوقّعاً منه الارتداع بأُسلوب تربويّ رقيق عملاً بخلقه الكريم وسماحته في تربية الناس وتعليمهم، ولكنّ أبا هريرة لم يزدد إلّا تمادياً في نهجه وسلوكه، فاضطرّ النبيّ ﷺ إلى (إقصائه) عن المدينة بإرساله مع العلاء بن الحضرميّ إلى البحرين، وسنروي لك قصّة ذلك في وقتها ومكانها..

موقف الخليفة عمر منه

لقد كان الخليفة عمر أوّل مَن تنبّه إلى خطورة ما يرويه أبو هريرة وينسبه إلى النبيّ ﷺ، فقد سمع بعد عودة أبي هريرة من البحرين برفقة العلاء بن الحضرميّ، ولقاءاته المتكرّرة مع كعب الأحبار، بأنّه بدأ يحدّث عن النبيّ، فأرسل إليه وزجره «ثمّ لم يلبث أن ضربه بدرّته»[(٢)]، ونهى معلّمه كعب الأحبار من رواية الحديث كذلك..

وقد أخرج ابن عساكر من حديث السائب بن يزيد، أنّه سمع عمر يقول لأبي هريرة: «لتتركنّ الحديث عن رسول الله أو لألحقنّك بأرض دوس»[(٣)]، ويقول لكعب الأحبار: «لتتركنّ الحديث أو لألحقنّك بأرض القِرَدَة»[(٤)].

واهتمّ عمر كثيراً بمراقبة أبي هريرة والتضييق عليه، حتّى أنّه قال له يوماً: «أكثرت يا أبا هريرة، وأحْرَ بك أن تكون كاذباً على رسول الله»[(٥)].

وقد اعترف أبو هريرة نفسه بذلك حين قال: «إنّي لأُحَدِّث أحاديث لو تكلّمت

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ٣٤٧. مجمع الزوائد ٨: ١٢٨.

(٢) شيخ المضيرة أبو هريرة: ١٠٣.

(٣) تاريخ مدينة دمشق ٥٠: ١٧٢.

(٤) تاريخ مدينة دمشق ٥٠: ١٧٢.

(٥) شرح نهج البلاغة ٤: ٦٨.

بها في زمن عمر لشجّ رأسي »[١].

وحين قال، حسب رواية الزهري عن أبي سلمة: « ما كنّا نستطيع أن نقول: قال رسول الله، حتّى مات عمر، كنّا نخاف السياط »[٢].

وكذلك حين قال: « أفكنت محدّثكم بهذه الأحاديث وعمر حيّ؟ أما والله لأيقنت أنّ المخفقة ستباشر ظهري »[٣]..

ولقد اختصر العلّامة محمّدرشيد رضا كلّ ما يمكن أن يقال عن موقف عمر من أبي هريرة وأحاديثه بقوله: « لو طال عُمْرُ عُمَر حتّى مات أبو هريرة لما وصلت إلينا تلك الأحاديث الكثيرة »[٤].

إنّ موقف عمر هذا لهو الدليل القاطع على أنّ أبا هريرة كان ضالعاً في الكذب والتلفيق على رسول الله منذ وقت مبكّر، ساعده فيما بعد على أن يكون الراوية الرسميّ لنظام معاوية والأمويّين..

موقف الخليفة عثمان منه

روي عن السائب بن يزيد قوله: « أرسلني عثمان إلى أبي هريرة، فقال: قل له: يقول لك أمير المؤمنين: ما هذا الحديث عن رسول الله؟ لقد أكثرت، لتنتهينّ أو لألحقنّك بجبال دوس، وإتِ كعباً فقل له: يقول لك أمير المؤمنين عثمان: ما هذا الحديث؟ قد ملأت الدنيا حديثاً، لتنتهينّ أو لألقينّك في جبال القردة »[٥].

ومن المعلوم أنّ عثمان انتهج في بداية عهده نهج الشيخين وتتبّع خطاهما،

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٤٣. سير أعلام النبلاء ٢: ٦٠١.

(٢) و (٣) تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٤٤. سير أعلام النبلاء ٢: ٦٠١.

(٤) مجلّة المنار ١٠: ٨٥١.

(٥) الحدّ الفاصل، الرامهرمزي: ٥٥٤.

فقد روى ابن سعد عن محمود بن لبيد أنّه قال: «سمعت عثمان بن عفّان على المنبر يقول: لا يحلُّ لأحد يروي حديثاً لم يسمع به في عهد أبي بكر ولا في عهد عمر»[١]، وعلى ذلك يكون الأمر الذي أصدره إلى أبي هريرة وكعب الأحبار بمثابة تأكيد لما فعله عمر معهما..

موقف الإمام عليّ منه

كان فيما يقوله أبو هريرة: حدّثني خليلي.. قال خليلي.. رأيت خليلي.. فسمع عليّ عليه السلام بذلك، فأرسل إليه وقال له: **متى كان رسول الله خليلك يا أبا هريرة؟**[٢]، وقد كان عليّ سيّئُ الرأي فيه، إلى حدّ التصريح بكذبه في عدّة مناسبات حيث روي عنه أنّه قال: «**إنّ أكذب الناس على رسول الله لأبو هريرة الدوسيّ**»[٣].

كما قال: «**لا أحد أكذب من هذا الدوسيّ على رسول الله**»[٤]..

مواقفه مع السيّدة عائشة

لقد استنكرت السيّدة عائشة كثيراً ممّا كان يحدّث به أبو هريرة، وأنكرت عليه الكثير ممّا رواه، حتّى قالت له يوماً: «إنّك لتُحدّث حديثاً ما سمعته من النبيّ ﷺ، فأجابها بجواب فجٍّ لا أدب فيه ولا حياء، إذ قال لها: شغلك عنه ﷺ المرآة والمكحلة».

وفي رواية الذهبي: «ما كانت تشغلني عنه المرآة ولا المكحلة ولا المدهن»[٥]..

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢: ٣٣٦. تاريخ مدينة دمشق ٣٩: ١٨٠.

(٢) تأويل مختلف الحديث: ٤٣. شيخ المضيرة أبو هريرة: ١٣٤.

(٣) شرح نهج البلاغة ٤: ٦٨.

(٤) شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٤.

(٥) الحدّ الفاصل: ٥٥٥. تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٥٣. سير أعلام النبلاء ٢: ٦٠٤.

يقول الشيخ محمود أبو ريّة في ردّه على قول أبي هريرة ما نصّه: «ولقد كان لأُمّ المؤمنين أن تردّ عليه قلّة أدبه فتجبهه بقولها: إنّما أنت الذي شغلك بطنك، وألهاك نهمك عن رسول الله، حتّى كنت تعدو وراء الناس في الطرقات تلتمس منهم أن يطعموك من جوعك، فينفرون منك ويهربون، ثمّ ينتهي بك الأمر إلى أن تُصرع مغشيّاً عليك من الجوع أمام حجرتي، فيحسب الناس أنّك مجنون فيطأون عنقك بأرجلهم»[١].

على أنّ أبا هريرة ندم فيما بعد على ما فرط منه في حقّ السيّدة عائشة، فأخذ يعمل على إرضائها والتقرّب إليها، لأنّه لم يكن قادراً على تحمّل غضبها، فما كاد يسمع نبأ حديث نزول جبريل حاملاً صورتها في سُرقَةٍ من حرير وقوله للنبيّ: هذه امرأتك[٢]، حتّى أسرع أبو هريرة فتبرّع بحديث من كيسه يقول فيه: «إنّ طول تلك السُّرْقَة ذراعان وعرضها شبر»..!!

ومع ذلك فإنّ تملّقه لأُمّ المؤمنين لم يجد لديها أُذناً صاغية، فقد نقل أبو حسّان الأعرج تلميذ أبي هريرة البارّ: أنّ رجلين دخلا على عائشة وأخبراها أنّ أبا هريرة يحدّث عن رسول الله أنّه قال: إنّما الطيرة في المرأة والدار والدابّة.

فقالت: كذب، والذي أنزل القرآن على أبي القاسم، من حدّث بهذا عن رسول الله؟ إنّما قال رسول الله: **كان أهل الجاهليّة يقولون: إنّ الطيرة في الدابّة والمرأة والدار**»[٣].

---

(١) شيخ المضيرة أبو هريرة: ١٣٥.

(٢) تاريخ بغداد ٣: ٤٦، الرقم ١٠١٢. شيخ المضيرة أبوهريرة: ١٣٦.

(٣) تأويل مختلف الحديث: ٩٨.

أقوال بعض الصحابة فيه

١ ـ قال طاووس: «كنت جالساً عند ابن عمر، فأتاه رجل فقال: إنّ أبا هريرة يقول: إنّ الوتر ليس بحتم، فخذوا منه ودعوا.

فقال ابن عمر: كذب أبو هريرة[١].

وكذّب هو أيضاً نفسه عندما عاد فروى حديثاً عن النبيّ ﷺ قال فيه: «**من لم يوتر فلا صلاة له**»[٢].

٢ ـ أنكر عليه ابن مسعود قوله: «مَن غسّل ميّتاً ومن حمله فليتوضّأ» وقال فيه قولاً شديداً، ثمّ قال: «أيّها الناس، لا تنجّسوا موتاكم.

فردّ عليه ابن عبّاس بقوله: لا يلزمنا الوضوء من حمل عيدان يابسة»[٣].

٣ ـ رويت بعض أحاديثه يوماً على الزبير بن العوّام، فأخذ يعقّب على كلّ واحد منها بقوله: صَدَقَ.. كَذَبَ[٤]..

٤ ـ عندما روى أبو هريرة حديث: «إذا صلّى أحدكم ركعتي الفجر فليضطجع على يمينه..» قال مروان: أما يكفي أحدنا ممشاه إلى المسجد حتّى يضطجع؟

وقال ابن عمر: أكثرَ أبو هريرة[٥]..

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢: ١٥٥.

(٢) المعجم الأوسط، الطبراني ٤: ٢١٥. مجمع الزوائد ١: ٣٩٢. الجامع الصغير، السيوطي ٢: ٦٤٦، الحديث ٩٠٣٢.

(٣) أُصول السرخسي ١: ٣٤٠. شيخ المضيرة أبو هريرة: ١٤٠.

(٤) تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٥٦. البداية والنهاية ٨: ١١٧. الإصابة ٧: ٣٦٠.

(٥) سنن أبي داود ١: ٢٨٥، الحديث ١٢٦١. السنن الكبرى، البيهقي ٣: ٤٥. صحيح ابن خزيمة ٢: ١٦٨. صحيح ابن حبّان ٦: ٢٢٠. تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٤٩.

٥ ـ روت عائشة حديثه: «لا يدخل الجنّة ولد الزنا[١]. فقالت: ليس عليه من وزر أبويه شيء، ثمّ قرأت: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[٢]»[٣].

٦ ـ وأورد الذهبيّ عن الشعبيّ قوله: «إنّ أبا هريرة حدّث فردّ عليه سعد بن أبي وقّاص حديثه، فوقع بينهما كلام حتّى ارتجّت الأبواب»[٤]..

٧ ـ ولمّا روى أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير من أن يمتلئ شعراً** قالت عائشة: لم يحفظ، إنّما قال رسول الله: لأن يمتلئ جوف أحدكم قيئاً ودماً خير من أن يمتلئ شعراً هُجيتُ به[٥].

٨ ـ ورد في «صحيح البخاريّ» أنّ أبا هريرة حدّث عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة**»[٦]، ثمّ حدّث بعدها أنّ النبيّ ﷺ قال: «**لا يوردنّ ممرض على مصحّ**».

قال أبو سلمة: فقلنا له: ألم تُحدِّث أنّه لا عدوى؟ فرطن بالحبشيّة[٧].

٩ ـ روى عبدالله بن عمر أنّ رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب عدا كلب ماشية أو كلب صيد، فقيل له: إنّ أبا هريرة يقول: أو كلب زرع.

فقال ابن عمر: إنّ لأبي هريرة زرعاً[٨].

---

(١) كنز العمّال ٥: ٣٣٣، الحديث ١٣٠٩٥ و ١١: ١٩، الحديث ٣٠٤٥١.
(٢) الأنعام ٦: ١٦٤. الإسراء ١٧: ١٥. فاطر ٣٥: ١٨. الزمر ٣٩: ٧.
(٣) المستدرك على الصحيحين ٤: ١٠٠. السنن الكبرى، البيهقي ٢: ٩١.
(٤) سير أعلام النبلاء ٢: ٦٠٣.
(٥) فتح الباري ١٠: ٤٥٤.
(٦) صحيح البخاري ٧: ١٧، ٢٧، ٣١.
(٧) صحيح البخاري ٧: ١٧، ٢٧، ٣١.
(٨) صحيح مسلم ٥: ٣٦. السنن الكبرى، البيهقي ٦: ٩. مسند أبي يعلى ٩: ٤٧٩، ◄

وهذا تعريض من ابن عمر بأبي هريرة حيث اتّهمه بزيادة كلب الزرع إلى الحديث لأنّه صاحب زرع..

١٠ ـ عندما روى حديثه: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**» سألوه: هل سمعت ذلك من رسول الله ؟

فأجاب، كلّا، هذا من كيس أبي هريرة[١].. فهو إمّا أن يكون معترفاً بالكذب، وإمّا متهكّماً على مَن سأله، فهو في الحالين متّهم.

وإذا أردنا تقصّي كلّ مواقفه مع الصحابة، وما قالوه فيه فسيطول بنا المقام، ولكنّنا سنكتفي بما ذكرناه..

أقوال بعض التابعين فيه

١ ـ إبراهيم النخعيّ: عالم العراق في زمانه، المولود سنة ٥٠ هـ، يرى أنّه لا يجوز الأخذ بكلّ حديث أبي هريرة، وأنّ أصحابه كانوا يَدَعون منه الكثير، وقال: كانوا يرون في حديث أبي هريرة شيئاً، وكانوا لا يأخذون من حديثه إلّا ما كان من حديث صفة جنّة أو نار أو حثّ على عمل صالح أو نهي عن شرّ جاء القرآن به..

والنخعيّ هذا، كان يوصف بأنّه (صيرفيّ الحديث)، وروى أبو أُسامة عن الأعمش قال: «كان إبراهيم (النخعيّ) صحيح الحديث، فكنت إذا سمعت الحديث أتيته فعرضته عليه، فأتيته يوماً بأحاديث من أحاديث أبي صالح عن أبي هريرة، فقال: دعني من أبي هريرة، إنّهم كانوا يتركون كثيراً من أحاديثه»[٢].

◆ الحديث ٥٦٣٠.

(١) صحيح البخاري ٦: ١٩٠. الإحكام، ابن حزم ٢: ١٩٦.

(٢) يراجع في أخبار النخعي فيما يتعلّق بأبي هريرة: سير أعلام النبلاء، الذهبي ٢: ٣٤٨. البداية والنهاية، ابن كثير ٨: ١٠٩. شرح النهج، ابن أبي الحديد ١: ٣٦٠.

٢ ـ وهذا أبو حنيفة يروي عنه صاحبه محمّد بن الحسن أنّه قال: «أقلّد جميع الصحابة ولا أستجيز خلافهم برأي إلّا ثلاثة نفر: أنس بن مالك، وأبو هريرة، وسَمُرَة.. وعندما سُئل عن ذلك قال: أمّا أنس فاختلط في آخر عمره، وكان يُستفتى فيفتي من عقله، وأنا لا أُقلّد عقله، وأمّا أبو هريرة فكان يروي كلّ ما سمع من غير أن يتأمّل في المعنى ومن غير أن يعرف الناسخ والمنسوخ»[١].

وروى أبو يوسف أنّ أبا حنيفة قال: «الصحابة كلّهم عدول ما عدا رجالاً»، وعدّ منهم أبا هريرة وأنس بن مالك..

٣ ـ والمعتزلة أيضاً لا يثقون بحديث أبي هريرة، فاسمع ما قاله أبو جعفر الإسكافيّ أحد مؤسّسي مذهبهم: «وأبو هريرة مدخول عند شيوخنا، غير مرضيّ الرواية، ضربه عمر وقال: قد أكثرت من الرواية وأحْرَ بك أن تكون كاذباً على رسول الله»[٢].

أبو هريرة يعترف بأنّه كان متّهماً

١ ـ قال أبو رزين: «خرج إلينا أبو هريرة فضرب بيده على جبهته وقال: ألا إنّكم تحدّثون أنّي أكذب على رسول الله لتهتدوا وأضلّ»[٣].

٢ ـ لمّا دخل معاوية الكوفة كان أبو هريرة معه، فلمّا رأى كثرة مستقبليه من الناس جثا على ركبتيه في مسجد الكوفة وجعل يضرب صلعته مراراً ليثير انتباه

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي رواه مسلم عن حفص بن عاصم: «كفى بالمرء كذباً أن يحدّث بكلّ ما سمع».

وعن عمر: «حسب المرء من الكذب أن يحدّث بكلّ ما سمع».

(٢) شرح نهج البلاغة ٤: ٦٧.

(٣) صحيح مسلم ٦: ١٥٣. المصنّف، ابن أبي شيبة ٦: ٤١، الحديث ٢.

الناس، وحين اجتمعوا عليه قال: «يا أهل العراق، أتزعمون أنّي أكذب على الله وعلى رسوله، فأحرق نفسي بالنار..»[١]، إلى آخر كلامه الذي تحامل فيه على أمير المؤمنين عليّ عليه السلام متزلّفاً فيه إلى معاوية..

٣ ـ قوله: «لمّا بلغ عمر حديثي، استدعاني، فقال لي: أكنت معنا يوم كنّا في بيت فلان؟

فقلت: نعم، وإنّ رسول الله ﷺ قال يومئذٍ: مَن كذب علَيَّ متعمّداً فليتبوّء مقعده من النار»[٢].

وفي هذا إشارة إلى أنّ عمر عندما سمع ما يحدّث به استدعاه لينذره بالنار إن هو كذب على رسول الله.. وقد ظهر أنّ كلّ ذلك لم يردعه..

٤ ـ كلّ ما ذكرناه من رواياته في صدر هذا الفصل قد نسجه للدفاع عن نفسه أمام متّهميه، حيث اخترع (نظريّة بسط الثوب) و (نظريّة الوعاءين).. إلى غيرها من ترّهاته وحماقاته..

تدليسه في الحديث

كما أوضحنا، فإنّ التدليس هو الرواية عن شخص لم يسمع منه أو لم يره، دون أن يشير الراوي إلى ذلك، ممّا يوهم السامع بأنّه قد سمع منه مباشرة، وهو صفة ذميمة عند أصحاب الحديث يعتبرون الحديث بسببها بحكم المرسل الذي لا سند له، ويتّهمون راويه بالكذب والادّعاء..

قال شعبة بن الحجّاج ـ إمام أهل الجرح والتعديل ـ: «لأن أزني أحبّ إليَّ من أن

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٦٧.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٤٥. سير أعلام النبلاء ٢: ٦٠٣.

أُدلّس »، ثمّ قال: « التدليس أخو الكذب »(١).

كما نصّ بعض علماء الحديث على أنّ من ثبت عليه التدليس، أصبح مجروحاً وتُرَدّ روايته إطلاقاً(٢).

وقال بعضهم: « المدلّس داخل في قول النبيّ ﷺ: مَن غشّنا ليس منّا »(٣).

ولقد كان أبو هريرة بلا منازع شيخاً للمدلّسين في عالم الحديث، وقد قال عنه شعبة بن الحجّاج: « أبو هريرة كان يدلّس »(٤)، أي يروي ما سمعه من كعب الأحبار، وما سمعه من رسول الله، ويرويها كلّها عن رسول الله، وإذا ما سألوه وأحرجوه قال: لم أسمعه من رسول الله، بل أخبرنيه مُخبر(٥)، أو يحيل سماعه على ميّت حتّى لا يفتضح كما نصّ أكثر العلماء على أنّ أبا هريرة كان مدلّساً لأنّ غالبيّة ما رواه لم يأخذه سماعاً من النبيّ بسبب تأخّر إسلامه..

قال ابن قتيبة الدينوري: «كان أبو هريرة يقول: قال رسول الله كذا، وإنّما سمعه من الثقة عنده فحكاه، وكذلك كان ابن عبّاس يفعل وغيره من الصحابة »(٦).. فنلاحظ أنّ ابن قتيبة قد اعترف بتدليس أبي هريرة، ولكنّه حاول تبريره، ونحن إذ قبلنا بشهادته فلسنا ملزمين بقبول تبريره لأنّ كثرة من يفعلون ذلك لا تبرّر العمل بل تدين الآخرين..

---

(١) الكامل، ابن عدي ١: ٣٣.

(٢) الإمام البخاري وفقه أهل العراق: ١٢١، نقله عن: أسباب ردّ الحديث: ٨٧.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥: ٤٩٣. كشف القناع ٣: ١٩٦.

(٤) تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٥٩. سير أعلام النبلاء ٢: ٦٠٨. الإصابة ١: ٦٧.

(٥) السنن الكبرى، النسائي ٢: ١٨٠. معرفة السنن والآثار ٣: ٣٦٣. الموطّأ ١: ٢٩١، الحديث ١١. اختلاف الحديث: ٥٢٩. عمدة القاري ١١: ٥.

(٦) تأويل مختلف الحديث: ٤٣.

ومن أمثلة تدليسه، روايته عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «مَن أدركه الفجر جُنُباً فلا يصم»، فلمّا علمت عائشة وحفصة قالتا: «كان النبيّ يصبح جنُباً من غير حلم، ثمّ يصوم»[١]، فلمّا أخبروا مروان بذلك وكان والياً لمعاوية على المدينة أرسل إلى أبي هريرة، فقال: أهما قالتا ذلك؟

قيل له: نعم.

قال: هما أعلم، إنّي لم أسمعه من النبيّ إنّما سمعته من الفضل بن العبّاس[٢]، فأحال السماع على ميّت لأنّ الفضل توفّي أيّام أبي بكر، ولو كان الفضل حيّاً ساعتها لما تجرّأ أبو هريرة عليه، ولأحال السماع على غيره..

كذلك قوله: «قال رسول الله لعمّه أبي طالب: قل لا إلـه إلّا الله أشهد لك بها يوم القيامة.

قال: لولا أن تعيّرني قريش، يقولون: إنّما حمله عليها، لأقررت بها عينك..»[٣]..

وممّا لا يخفى أنّ أبا طالب قد مات قبل مجيء أبي هريرة إلى الحجاز بعشر سنين، فكيف ومتى سمعهما يتحدّثان بما رواه؟!

وقوله: «قام رسول الله حين أنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[٤].

فقال: يا معشر قريش، لا أُغني عنكم من الله شيئاً.. إلخ»[٥]. وهذه الآية إنّما

---

(١) صحيح مسلم ٢: ١٣٧.

(٢) صحيح مسلم ٢: ١٣٧.

(٣) مسند أحمد ٢: ٤٢٤ و ٤٤١. صحيح مسلم ١: ٤١.

(٤) الشعراء ٢٦: ٢١٤.

(٥) صحيح البخاري ٣: ١٩٠ و ٤: ١٦١ و ٦: ١٦.

نزلت في بداية الدعوة وقبل ظهورها في مكّة ، وأبو هريرة كان حينها في اليمن لم يُسلِم بعد ، وجاء إلى الحجاز بعد نزولها بعشرين سنة ، فكيف تسنّى له أن يقول : « قام رسول الله عندما نزلت ، و.. » ، وكأنّه قد رآه بعينيه وسمعه بأُذنيه ؟ !

وما ذكرناه ينطبق على القسم الأكبر من رواياته التي تحدّث عنها ، وكأنّه كان حاضراً فيها ، وسمعها بنفسه دون واسطة ، والتي منها روايته عن قنوت النبيّ ﷺ في صلاته بالدعاء للمؤمنين الذين حبسهم المشركون عن الهجرة ، وكان ذلك قبل إسلام أبي هريرة بنحو سبع سنين ، وكذلك روايته قول أبي جهل : هل يعفّر محمّد وجهه بين أظهركم ؟

فقيل : نعم ، وكان ذلك قبل إسلام أبي هريرة بعشرين سنة أيضاً ! !

وروايته عن وقعة الرجيع وأميرها عاصم بن ثابت الأنصاريّ الذي استشهد فيها والتي حدثت في صفر سنة أربع للهجرة ، قبل إسلامه بثلاث سنين ! !

ومن طلب المزيد فعليه بكتاب (أبو هريرة) للإمام عبدالحسين شرف الدين حيث سيجد بغيته هناك..

وقائع تحدّث عنها وهو لم يحضرها

لقد تحدّث أبو هريرة عن وقائع ادّعى حضوره فيها وهو لم يحضرها أصلاً ،منها :

١ ـ قوله : « دخلت على رقيّة بنت رسول الله ﷺ امرأة عثمان وبيدها مشط ، فقالت : خرج رسول الله من عندي آنفاً ، رجّلْتُ شعره ، فقال لي : **كيف تجدين أبا عبدالله** (يعني عثمان) ؟

قلت : بخير .

قال : **أكرميه ، لأنّه من أشبه أصحابي بي خلقاً** »[١] .

---

(١) المعجم الكبير ، الطبراني ١ : ٧٦ . كنز العمّال ١١ : ٥٩٠ ، الحيث ٣٢٨٢١ .

أخرجه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، واهي المتن، فإنّ رقيّة ماتت سنة ثلاث من الهجرة عند فتح بدر، وأبو هريرة إنّما أسلم بعد فتح خيبر!![١].

كما أورده الذهبي في (تلخيص المستدرك)، وقال: «صحيح، منكر المتن، فإنّ رقيّة ماتت وقت بدر، وأبو هريرة أسلم وقت خيبر!!»[٢].

٢ ـ قوله في سهو النبيّ ﷺ: «صلّى بنا النبيّ ﷺ الظهر أو العصر، فسلّم في ركعتين، فقال له ذو اليدين: أنقصت الصلاة أم نسيت؟»[٣].

وذو اليدين كان أحد شهداء بدر قبل إسلام أبي هريرة بزمن طويل كما قدّمنا..

٣ ـ قوله: «افتتحنا خيبر ولم نغنم ذهباً ولا فضّة، إنّما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط»[٤]، والمعلوم أنّه حضر بعد الفتح ولم يحضره إطلاقاً، ولهذا ارتبك شارحو الصحيحين عند وصولهم إلى قوله ذاك، فإن قالوا: لم يحضر فقد كذّبوه، وهذا في عرفهم غير جائز، وإن أمضوا كلامه فقد كذّبوا أنفسهم والتاريخ، فتكلّفوا حلّاً وسطاً فحملوا كلامه على المجاز باعتبار أنّ المراد فيه ليس شخصه وإنّما جنسه من المسلمين[٥]، وهذه سفسطة غريبة..

٤ ـ ونفس الأمر بالنسبة لقوله: «شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبر، فقال لرجل معه ممّن يدّعي الإسلام: هذا من أهل النار.

فلمّا حضر القتال قاتل الرجل أشدّ القتال حتّى كثرت به الجراحة، فكاد بعض الناس أن يرتاب، فوجد الرجل ألماً لجراحه، فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٨.

(٢) تلخيص المستدرك (بهامش المستدرك) ٤: ٤٨.

(٣) مسند أحمد ٢: ٢٣٤. صحيح البخاري ١: ١٢٣.

(٤) صحيح البخاري ٥: ٨١.

(٥) إرشاد الساري ٨: ١٥٤.

منها أسهماً فنحر بها نفسه »[١].

وقصّة هذا الرجل معروفة ومرويّة بلا خلاف ، وهو قزمان بن الحرث حليف ظفر ، وهو من المنافقين ، وكان يقاتل على الأحساب ، وقُتل في معركة أُحُد وليس في خيبر ، وأُحُد وقعت قبل إسلام أبي هريرة بكثير ، ولكن ليس لكذوب حافظة..

٥ ـ قوله : « رأيت سبعين من أهل الصُّفَّة ما منهم رجل عليه رداء ، وإنّما عليه إمّا إزار وإمّا كساء ربطوه في أعناقهم ، فمنها ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين ، فيجمعه بيده كراهيّة أن تُرى عورته »[٢].

إنّ هؤلاء السبعين الذين تحدّث عنهم وادّعى رؤيتهم ووصف حالهم قد استشهدوا جميعهم يوم (بئر معونة) ، فحزن النبيّ ﷺ عليهم وقنت في صلاته شهراً يدعو على قاتليهم ، وكانت هذه الوقعة في شهر صفر سنة أربع للهجرة قبل إسلام أبي هريرة ، بل قبل قدومه من اليمن ، وللهروب من هذه الكذبة قال القسطلاني : « إنّ السبعين الذين رآهم أبو هريرة غير أُولئك السبعين »[٣]،وهذا تكلّف واضح !!

كيف تُروى أمثال هذه الروايات في الصحاح ؟

إنّه لمن العجب أن نجد في الصحاح وغيرها من كتب الحديث روايات وأحاديث واضحة الزيف والبطلان ولا يمكن أن تنطلي على بسطاء الناس ، ناهيك عن علمائهم.. فنوردها على علّاتها وضعفها وتعارضها مع بديهيّات العقل ، وتصادمها مع الوقائع التي استفاضت بها الأخبار..

فعندما نقل البخاريّ أحاديث أبي هريرة عن نفسه في خيبر.. ألم يكن يعلم أنّ

---

(١) صحيح البخاري ٥ : ٧٤.

(٢) صحيح البخاري ١ : ١١٤.

(٣) إرشاد الساري ٢ : ٢٢٠.

أبا هريرة قد أسلم بعد فتحها وأنّه لم يحضرها مطلقاً ؟

وعندما نقل حديثه عن سهو النبيّ بوجود ذي اليدين.. ألم يكن يدري أنّ ذا اليدين استشهد في بدر ولم يره أبو هريرة ؟

وعندما نقل حديثه عن رقيّة زوجة عثمان.. ألم يسمع أنّها كانت قد ماتت وأبو هريرة في اليمن ؟.. والعشرات غير ذلك.

فإن كان يدري، وهو يدري فعلاً من خلال بعض الإشارات التي وردت في الصحيح، فقد شارك في نشر الكذب وتدعيمه.. وإن كان لا يدري فتلك مصيبة نتساءل معها عن سبب لمعان نجمه بين المحدّثين ومكانة صحيحه بين الصحاح ؟!

وكذلك بالنسبة لغير البخاريّ، فخذ هذا المثل الذي استللناه من « صحيح مسلم » يرويه عن عكرمة بن عمّار العجليّ اليمامي : « أنّ المسلمين كانوا لا ينظرون إلى أبي سفيان ولا يقاعدونه..

فقال للنبيّ ﷺ : يا نبيّ الله، ثلاث أعطنيهنّ. قال : **نعم**.

قال : عندي أحسن العرب وأجمله، أمّ حبيبة بنت أبي سفيان أُزوّجكها. قال : **نعم**.

قال : ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك. قال : **نعم**.

قال : وتأمرني أُقاتل الكفّار كما كنت أُقاتل المسلمين. قال : **نعم** »[1]!!

وإنّنا نحمّد الله على أنّ مسلماً لم يجد غير هذه الفضيلة الباطلة لأبي سفيان فلم يذكر غيرها في صحيحه..

ونريد أن نسأل مسلماً : ألم يكن يعلم أنّ أبا سفيان قد دخل الإسلام بعد فتح مكّة وكان قبل ذلك عدوّاً لله ولرسوله وللمسلمين ؟

---

(١) صحيح مسلم ٧ : ١٧١.

ألم يكن يعلم أنّ أُمّ حبيبة كانت ضمن المهاجرين إلى الحبشة حيث أسلمت في مكّة قبل هجرة النبيّ إلى المدينة، وعندما عادت من الحبشة تزوّجها النبيّ، وعندما سمع أبو سفيان بذلك قال: «ذلك الفحل لا يُقدع أنفه»؟!

أوَلم يسمع مسلم بخبر أبي سفيان حينما ذهب إلى المدينة طالباً من النبيّ زيادة أمد الهدنة ودخل على ابنته أُمّ حبيبة فطوت الفراش حتّى لا يجلس عليه، فقال لها: رغبتِ به عنّي؟

قالت: نعم، هذا فراش رسول الله، وأنت امرؤ نجسٌ مشركٌ؟

إنّنا لا نعتب على كثير من العلماء الذين صرّحوا بكذب هذا الحديث وأنكروه وردّوه، كابن حزم والنووي والذهبي.. ولكنّنا نعتب على الإمام مسلم الذي لم يدقّق في مرويّاته ولم يناقشها ليتأكّد من صحّتها فسَوّد بها صحائف صحيحه..

وكذلك نعتب على البخاري وقد أورد من السقطات والأباطيل ما يأنف عنه كلّ ذي عقل وعفّة ودين.. وما ادّعينا عليه بشيء من عندنا، وإنّما أقمنا الحجّة عليه ممّا رواه في صحيحه..

كيف نال أبو هريرة هذه المنزلة الرفيعة؟

لا بدّ لنا قبل الإجابة، أن نعود إلى بدايات أبي هريرة للتعرّف على شخصيّته، وقدراته الذهنيّة والعلميّة، ووضعه الاجتماعيّ، وسلوكه وعلاقاته.. لكي نعرف هل أنّها كانت تؤهّله لنيل ما وصل إليه من المكانة المرموقة والشهرة الذائعة أم لا.. وتوخّياً للاختصار سنحاول تسليط الضوء عليه من خلال عدّة صور التقطناها من زوايا مختلفة لعلّها تفي بالغرض..

١ ـ إنّ المدّة التي قضاها أبو هريرة في المدينة زمن النبيّ لم تتجاوز السنة وتسعة أشهر على أكثر تقدير، وما قاله هو من أنّه صحب النبيّ ثلاث سنين غير صحيح إطلاقاً، ولم يقله غيره، لأنّه أسلم في شهر صفر سنة ٧هـ بعد خيبر مباشرة،

وأرسله النبيّ ﷺ مع العلاء بن الحضرميّ في شهر ذي القعدة سنة ٨هـ، وتلك المدّة لا تؤهّله للاستفادة من النبيّ بحيث يتميّز عن غيره..

٢ ـ لم يعرف عن حياته السابقة إلّا ما قاله هو نفسه من أنّه كان يرعى الغنم، وكان فقيراً معدماً، يخدم الناس بطعام بطنه، وقد روى عنه ابن قتيبة قوله: «نشأت يتيماً، وهاجرت مسكيناً، وكنت أجيراً لبسرة بنت غزوان بطعام بطني وعقبة رجلي، فكنت أخدم إذا نزلوا، وأحدوا إذا ركبوا»(١).

٣ ـ إنّه كان أُمّيّاً لا يقرأ ولا يكتب، وظلّ كذلك حتّى مات.

٤ ـ في أوّل لقاء له برسول الله ﷺ بعد غزوة خيبر وبعد أن رأى كثرة الأموال التي غنمها المسلمون في هذه الغزوة، لم يستطع أن يمنع نفسه من دنيّتين: أُولاهما: حين طمع وطلب من النبيّ ﷺ أن يجعل له سهماً من المغنم مع كونه لم يكن حاضراً الغزوة.

وثانيهما: حين تطفّل وتدخّل فيما لا يعنيه، فطلب من النبيّ أن لا يُسهم لأبان ابن سعيد بن العاص الذي كان مشاركاً في الغزوة، ولكنّ أبان انبرى له وأغلظ له القول وأهانه إذ قال له: «عجباً لوَبرٍ تدلّى علينا من قدوم ضأن»، وقد أهمل النبيّ ﷺ تطفّله وأسهم لأبان، وهذه وقائع رواها أبو هريرة نفسه وأخرجها عنه البخاري وغيره، وذكرناها في محلّها من البحث..

٥ ـ إنّه أقام في الصُّفَّة مرتاح البال والضمير، وهو عالة على المسلمين، ولم يغادرها كغيره ممّن انتهزوا الفرص في الحصول على عمل يعيلهم، كما أنّه لم يكن قانعاً بما يجود به المسلمون عليه، فكان يخرج من الصُّفَّة متسكّعاً في الطرقات مستجدياً المارّة، أو خارّاً بين منبر النبيّ وحجرة عائشة متظاهراً بالجوع

---

(١) المعارف: ٢٧٧.

ليطعموه ، أو قاطعاً الطريق على الصحابة يسألهم عن آية من كتاب الله (يدّعي أنّه يعرفها خيراً منهم) لا لشيء إلّا لينقلبوا به إلى بيوتهم فيطعموه . .

٦ ـ اعترف أبو هريرة بأنّ صحبته للنبيّ ما كانت حبّاً فيه ، أو رغبة في الهداية ، أو تحصيل العلم ، أو ما شابه ، وإنّما كانت لأجل الحصول على طعام يملأ به بطنه ، حيث قال : « كنت ألزم النبيّ لشبع بطني . . وألصق بطني بالحصباء ، وأستقرئ الرجل الآية وهي معي كي ينقلب بي فيطعمني »[١].

ومن الغريب حقّاً أن نجد مثل هذا الانشغال بالطعام لدى أبي هريرة ، فلم تردنا حالة مثل حالته . . !!

نعم ، كان هنالك فقراء ومعدمون ، ولكن كانت تكفيهم معونات المحسنين وتقنعهم ، فلم يفتضح أمرهم كما افتضح أمر أبي هريرة ، وذلك يعني أنّه لم يكن مجرّد فقير يعتمد على المعونات ، وإنّما كان متسوّلاً ممتهناً ممّا جعله موضع زهد وصدود الصحابة . . وإنّ غيره من أهل الصُّفَّة المعدمين كانوا متعفّفين ولديهم عزّة نفس وكرامة لم يكن لدى أبي هريرة شيء منها . .

٧ ـ قال العماد الحنبلي : « وكان أبو هريرة يصلّي خلف عليّ ، ويأكل على سماط معاوية ، ويعتزل القتال ، ويقول : الصلاة خلف عليّ أتمّ ، وسماط معاوية أدسم ، وترك القتال أسلم »[٢].

وقد روى عدد من أصحاب السِّير هذه الرواية ، منهم الزمخشري في « ربيع الأبرار » و « أساس البلاغة »[٣] ، وبرهان الحلبيّ في « السيرة الحلبيّة »[٤] و « روض

---

(١) صحيح البخاري ٦ : ٢٠٨.

(٢) شذرات الذهب ١ : ٦٤.

(٣) ربيع الأبرار ١ : ٢٥٤. أساس البلاغة : ٤٤٧.

(٤) السيرة الحلبيّة ٣ : ٣٩٧.

الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار» لمحمّد بن قاسم بن يعقوب[١].

وقد سمّى أكثر هؤلاء أبا هريرة بـ(شيخ المضيرة) وهي الأكلة التي كان يفضّلها والتي كانت تقدّم باستمرار على سماط معاوية، وقد عقد لها بديع الزمان الهمداني مقامة خاصّة من مقاماته سمّاها (المقامة المضيريّة) غمز فيها أبا هريرة غمزة أليمة حيث قال: «حدّثنا عيسى بن هشام، قال: كنت في البصرة ومعي أبو الفتح الأسكندري، رجل الفصاحة، يدعوها فتجيبه، والبلاغة يأمرها فتطيعه، وحضرنا معه دعوة بعض التجّار، فقدّمت إلينا مضيرة، تثني على الحضارة، وتترجرج في الغضارة، وتؤذن بالسلامة، وتشهد لمعاوية بالإمامة»[٢].

وقد علّق الإمام محمّد عبده في شرحه لهذه العبارة بقوله: «ومعاوية ادّعى الخلافة بعد بيعة عليّ بن أبي طالب ﷺ، فلم يكن مَن يشهد له بها في حياة عليّ، إلّا طلّاب اللذائذ، وبغاة الشهوات، فلو كانت هذه المضيرة من طعام معاوية لحملت آكليها على الشهادة له بالخلافة، وإن كان صاحب البيعة الشرعيّة حيّاً..»[٣].

وواضح أنّ محمّد عبده لم يشأ التصريح بذكر أبي هريرة المعنيّ أصلاً بعبارة الهمداني: «وتشهد لمعاوية بالإمامة» حيث لا معنى لقوله: «فلو كانت هذه المضيرة من طعام معاوية..» لأنّها كانت فعلاً من طعامه، وأبو هريرة كان مولعاً بها دون غيره، ممّا حدا بالشيخ محمود أبو ريّة أن يصنّف كتاباً عنه أسماه «أبو هريرة شيخ المضيرة»..

٨ ـ إنّه كان رجلاً ميّالاً للمزاح وتسلية الناس لاستمالتهم إليه، وقد قالت عنه عائشة في حديث المهراس: «لقد كان رجلاً مهذاراً»[٤].

---

(١) روض الأخيار: ١٢٢.

(٢) و (٣) أضواء على السنّة المحمّديّة: ١٩٨.

(٤) الاحكام، الآمدي ٢: ١٢١.

وقد ورد عن أبي رافع قوله: «كان مروان ربّما استخلف أبا هريرة على المدينة، فيركب حماراً قد شدّ عليه برذعة، وفي رأسه خلبة (حلقة) من ليف، فيلقى الرجل فيقول: الطريق.. قد جاءالأمير، وربّما أتى الصبيان وهم يلعبون بالليل لعبة الغراب، فلا يشعرون حتّى يلقي نفسه بينهم ويضرب برجليه، فينفر الصبيان ويفرّون»[١].

ورواية ابن كثير: «.. كأنّه مجنون يريد أن يضحكهم، فيفزع الصبيان منه ويفرّون هاهنا وهاهنا يتضاحكون»[٢].

٩ ـ قال أبو هريرة: «بعثني رسول الله مع العلاء بن الحضرميّ (إلى البحرين) فأوصاه بي خيراً، فقال لي: ما تحبّ؟

قلت: أُؤذّن لك ولا تسبقني بأذان»[٣].

ومنه عرفنا مقدار علم أبي هريرة ومؤهّلاته، فإنّه لم يكن رجل سياسة، ولا رجل حرب ليبعثه النبيّ مستشاراً سياسيّاً أو عسكريّاً للعلاء بن الحضرميّ، ولا رجل فقه وفتوى وقضاء ليكون مفتياً وقاضياً للجند، ولا حتّى محارباً شجاعاً ليجعله عريفاً أو آمراً لفصيل.. ولكون العلاء يعرف كلّ ذلك عنه، فقد سأله: ما تحبّ؟ فلم يختر غير الأذان لأنّه لا يجيد شيئاً غيره..

يقول أبو ريّة: «يبدو أنّ إحسان أبي هريرة له ـ أي للأذان ـ إنّما جاءه لأنّه كان يجيد الحداء في زمن شبابه أيّام خدمته لابن عفّان وبسرة ابنة غزوان، وبذلك يثبت ثبوتاً قاطعاً صحّة ما حقّقه ابن سعد في طبقاته وغيره من أنّ أبا هريرة لم يظهر بالفتوى

---

(١) المعارف، ابن قتيبة: ٢٧٨. الطبقات الكبرى، ابن سعد ٤: ٣٣٦. تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٧٢. سير أعلام النبلاء ٢: ٦١٤.

(٢) البداية والنهاية ٨: ١٢٢.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٤: ٣٦٠. تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٢٨. سير أعلام النبلاء ١: ٢٦٤.

والتحديث إلّا بعد مقتل عثمان »[(١)].

١٠ ـ إنّ أبا هريرة لم يشترك في أيّة حرب أو معركة في زمن النبيّ ﷺ أو بعده، وقد حاول الخروج مرّة، فذهب مقاتلاً في غزوة مؤتة « فما كاد يسمع صليل السيوف ويرى لمعان الأسنّة حتّى غلب عليه طبعه، فجبن وهلع، وولّى الأدبار ولاذ بالفرار، ولمّا عيّروه بفعلته هذه لم يجد جواباً يدفع به عن نفسه واستخذى »[(٢)].

وقد اعترف هو شخصيّاً بذلك، فقال: « لقد كان بيني وبين ابن عمٍّ لي كلام، فقال: إلّا فرارك يوم مؤتة ؟ فما دريت أيّ شيء أقول له »[(٣)].

وبهذا نكون قد سقنا عشر جوانب تتعلّق بشخصيّة هذا الرجل، اعتمدنا فيها كلّها على أقواله هو عن نفسه، فلم نُبْقِ حجّةً لمعاند أو دليلاً لجاحد، وكانت كلّها ممّا يسيء إليه ويصنّفه ضمن بسطاء الناس إن لم نقل من رعاعهم، مع ما أضافته تلك التفاصيل من صفات سيّئة ومنكرة وقبيحة إليه..

وعلى ذلك فإنّنا نستغرب أن يصبح مَن هذه صفاته وسلوكه، أهلاً لأن يكون من رجالات الإسلام المعدودين ! وأن يتبوّء مناصب الولاية والقضاء والإفتاء..!!

إنّ بداية لمعان نجم أبي هريرة كانت في عهد عمر بن الخطّاب حين أهّله ليكون والياً على البحرين سنة ٢٠هـ، وقد أصبحت هذه التولية حجّة للمدافعين عنه، إذ قالوا أنّه لا بدّ أن تكون لديه صفات محمودة ومؤهّلات جعلت الخليفة عمر يقبل بتوليته.. إلّا أنّنا نرى عكس ذلك تماماً، ولنبدأ من النهاية، حيث كانت نهاية ولايته على البحرين متوّجة بفضيحة قلّ نظيرها بين فضائح الولاة.

فقد روى الطبريّ أنّه بلغ عمر عنه أشياء تخلّ بأمانة الوالي، فعزله وولّى مكانه

---

(١) شيخ المضيرة أبو هريرة: ٦٩.

(٢) شيخ المضيرة أبو هريرة: ٧٢.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٣: ٤٢.

عثمان بن أبي العاص الثقفي ، واستقدمه فوجد معه لبيت المال أربعمائة ألفاً..

فقال له : أظلمتَ أحداً ؟ فقال : لا .

قال : فما جئت لنفسك ؟ قال : عشرين ألفاً .

قال : من أين أصبتها ؟ قال : كنتُ أتّجِرُ.

قال : أُنظر رأس مالك ورزقك فخذه ، واجعل الآخر في بيت المال »[1].

وفي رواية :

أنّ عمر قال له : هل علمت من حين إنّي استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين ، ثمّ بلغني أنّك ابتعت أفراساً بألف دينار وستّمائة دينار ؟

قال : كانت لنا أفراس تناتجت وعطايا تلاحقت .

قال : قد حسبت لك رزقك ومؤونتك ، وهذا فضل فأدّه .

قال : ليس لك ذلك .

قال له عمر : بلى والله وأُوجع ظهرك ، ثمّ قام له بالدرّة فضربه بها حتّى أدماه .

ثمّ قال له : ائتِ بها .

قال : احتسبتها عند الله .

قال عمر : ذلك لو أخذتها (من حلال) وأدّيتها طائعاً ، أجئت من أقصى حجر البحرين يجبي الناس لك.. لا لله ولا للمسلمين ؟ ما رجت بك أُميمة إلّا لرعية الحُمُر[2].

وبعد أن عرفنا مدى بلاء أبي هريرة بولايته تلك ، وما آل إليه مصيره بسبب إساءته واستغلاله لها في منافعه الشخصيّة وإثرائه على حساب مصالح الناس ،

---

(١) الطبقات الكبرى ، ابن سعد ٤ : ٣٣٦. سير أعلام النبلاء ٢ : ٦١٨. تاريخ الإسلام ٤ : ٣٥٦.

(٢) العقد الفريد ١ : ٥٣ ، عنه : شيخ المضيرة أبو هريرة : ٨٠. شرح نهج البلاغة ١٢ : ٤٢.

فكانت الولاية بالنسبة إليه فضحاً لما خفي من بواطن شخصيّته وما اشتملت عليه طويّته.

نعود إلى البداية لنقف على سبب تولية عمر له: إنّ العارف بسياسة عمر بن الخطّاب وفلسفته في تعيين الولاة، سيعرف أنّ خمول أبي هريرة وضموره وبساطته وهوانه على مجتمع المدينة وعلى عمر بالذات هي الأسباب التي كانت وراء توليته له وليس العكس..

فسُنّة عمر في استعمال الولاة كانت لا تتعدّى قناعته بعدم استعمال كبار الصحابة حتّى لا يدنّسهم بالعمل، وحتّى يبقيهم بين يديه في المدينة، ولا يسمح لهم بالخروج منها حتّى لا يكونوا مراكز استقطاب الناس في الأمصار الذين يذهبون إليها باعتبارهم صحابة الرسول، وربّما سوّلت لهم أنفسهم الخروج عليه..

يقول الدكتور طه حسين: «ولم يمت عمر ﷺ حتّى ملّتْهُ قريش، وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم، وقال: إنّ أخوف ما أخاف على هذه الأُمّة انتشاركم في البلاد»[١].

وقال: «إنّ قريشاً كانت تزعم لنفسها ارستقراطيّة متفوّقة، وقد اعترف لها العرب بهذه الارستقراطيّة في جملتهم»[٢].

وليس ببعيد أن يفعل عمر ذلك خشية أن يستأثر كلّ وال بولايته عندما يولّى عليها ويقطع صلته بالمدينة حضرة المُلك، كما فعل معاوية عندما استأثر بحكم الشام وبذلك تتمزّق الدولة[٣].

وعلى هذا الأساس فإنّ عمر قد استعمل مَن لا شأن له ولا قدر من أصحاب

---

(١) الفتنة الكبرى ١: ٧٩.

(٢) الفتنة الكبرى ١: ٨٠.

(٣) شيخ المضيرة أبو هريرة: ٨٥.

رسول الله مثل عمرو بن العاص ، ومعاوية ، والمغيرة بن شعبة ، حتّى إنّه استعمل الموالي ، مثل عمّار بن ياسر ، إذ ولّاه الكوفة ، وسلمان الفارسيّ الذي ولّاه على المدائن ، وكان يدع كبار الصحابة مثل عليّ وعثمان وطلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف ، ونظراءهم[١].

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أسباباً أُخرى ساعدت على استعمال ضعاف الناس أو المغمورين من الصحابة في الولايات ، هي :

١ ـ عزوف الكثير من الصحابة عن منصب الولاية لأسباب كثيرة ، منها التحرّج والخشية من عدم إحراز العدالة وظلم الرعيّة ، ومنها امتلاكهم لمصالح لا يتسنّى لهم تركها والابتعاد عنها ، ناهيك عن كون وجودهم في العاصمة وبالقرب من الخليفة كوزراء أو مستشارين أفضل من خروجهم إلى أمصار بعيدة ومجتمعات لا زال يغلب عليها طابع البداوة والتخلّف .

٢ ـ إنّ الوالي لم يكن متمتّعاً بقدر كافٍ من الاستقلال بالحكم وتحقيق ما تطمح إليه نفسه ، فهو هناك لا يملك غير تمثيل السلطة المركزيّة التي تملي عليه أكثر قراراته ، ممّا يبقيه خاضعاً على الدوام لسيطرتها ومتوقّعاً العزل في أيّة لحظة ، فلم يكن هذا ممّا يحفّزهم على قبول الولاية . .

٣ ـ إنّ عمر كان شديداً على الولاة بحيث أنّه كان يحصي ملكيّة مَن يولّيه قبل رحيله إلى ولايته ، فإذا ما زاد ماله بعد الولاية عمّا كان عليه قبلها ، شاطره فيما زاد على الأصل ، إضافة إلى ما تضمّنته وصيّته من عدم إقرار أيّ عامل في عمله أكثر من سنة[٢].

من كلّ ذلك عرفنا أنّ تولية عمر لأبي هريرة لم تكن لفضلٍ فيه ، أو لمزيّةٍ في علمٍ ،

---

(١) شيخ المضيرة أبو هريرة : ٨٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢ : ٤.

أو كفاءة في إدارة، وإنّما كانت للأسباب الواردة أعلاه، يضاف إليها أنّ أبا هريرة كان مؤذّناً في البحرين لمدّة اثنتي عشرة سنة مع العلاء بن الحضرميّ، وملازماً له في الصلاة، فكان الخليفة عمر يأمل أنّه قد استفاد من أعمال العلاء الصالحة وأحكامه العادلة واكتسب منه بعض الدراية والخبرة، وتوقّع أنه سيتّخذ من العلاء قدوة له في سياسة البحرين، ولما ظهر منه عكس ما أمّله وخلاف ما توقّعه، عزله وضربه وشاطره ماله، وعلى ذلك فإنّنا لا نرى في تولية أبي هريرة على البحرين فضلاً ومكرمة، بل كان في عزله عنها وبتلك الطريقة، فضحاً ومهانة له، وكشفاً لما خفي من بواطن شخصيّته..

أمّا الآن وبعد أن اكتملت الصورة التي أردنا معرفتها عن أبي هريرة، فقد آن لنا أن نعود للإجابة عن السؤال الذي طرحناه، وهو: كيف نال أبو هريرة المرتبة التي نالها؟ ولماذا؟

فنقول: لقد راقب أبو هريرة بني اُميّة وهم يثبون على الحكم، ويقبضون على زمام الدولة الإسلاميّة بعد مقتل الإمام عليّ عليه السلام، ويحوّلون الخلافة الإسلاميّة إلى ملك عضوض، وشاهد كيف أصبح بيدهم الأمر والنهي، والحلّ والعقد، والرفع والخفض، ورأى بأُمّ عينيه ما ناله المتزلّفون لهم والمنافقون، أمثال عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، من الأموال الطائلة والمكانة الرفيعة والمناصب العليّة، وآلمه أنّه لم يكن من أهل الحيلة والدهاء، أو القوّة والمنعة، أو الصيت والشهرة، ما يجعل هذه الدولة الجديدة بحاجة إليه وإلى خدماته.. فما هو السبيل ـ إذن ـ لنيل مبتغاه؟ وكيف سيتمكّن أن يلفت أنظار الساسة الجدد إليه؟

لا بدّ من وجود طريقة.. ولا بدّ له أن يعرفها.. فأجهد نفسه بالتفكير.. وأخذ يبحث مستعيناً بما لديه من معلومات..

فهذه الدولة التي قامت على أُسس المكر والدهاء والظلم والبغي، بحاجة شديدة إلى دعم بنائها حتّى لا ينهار، فيخرج الناس عليها وينفضّوا من حولها، ويخلعوا

طاعتها.. فهي في حاجة إذن إلى نصوص وأسانيد شرعيّة تستطيع أن تفعل ما لا يفعله السلاح ولا الرجال، نصوص عن أعظم شخصيّة في تاريخ الأرض، تعنو لها الجباه وتخضع لها الرقاب، هي شخصيّة نبيّنا الكريم ﷺ..

كما أنّ المجتمع مستعدّ وبكلّ بساطة لقبول كلّ ما يقال، خصوصاً إذا كان من ورائه ولاة الأمر أو إذا وزّعت معه الدنانير، فليعط إذن لهذه الدولة ما تحتاجه من أحاديث لدعم نفوذها وشدّ أزرها وإطلاق يدها في رقاب الناس، سيّما وإنّها طلبت ذلك بقرار رسميّ صدر عن الخليفة ووعدت بالمكافأة عليه، فهي حتماً ستعطيه مقابل أتعابه ما تطمح إليه نفسه ويتوق إليه قلبه..

ثمّ إنّ لهذه الدولة عدوّ، وعدوّ قويّ جدّاً، ليس بسلاحه، وإنّما بتمكّنه من قلوب المسلمين، وبتداول الناس لكثير من أقوال النبيّ ﷺ فيه ممّا يعطيه القوّة ليكون مصدر رعب وخطر على هذه الدولة الناشئة..

وعلى كلّ ذلك، فلا بدّ أن يكون الحديث الذي سيطلقه ذا حدّين: حدّ يدعم الساسة الجدد، ويحسّن صورتهم في أعين الناس، ويؤيّد حكمهم، وينتصر لشعاراتهم، ويمجّد رموزهم.. وحدّ يطعن بعدوّهم، ويشوّه صورته، ويقلّل من شأنه وأهمّيّته، وإذا أمكن بين الحدّين سَلبُه فضائله ومزاياه وتعليقها أوسمة على صدور أعدائه، فسيكون ذلك أقرّ لعين السلطان، وأدعى لزيادة عطاياه..

وبعد أن ترسّخت الفكرة لديه، باشر بإعداد هذا السلاح لصالح الأمويّين، ويكفيهم مؤونته ليكون جديراً بأجره وثمنه، فقرّر أن يمدّهم بالأحاديث التي تؤيّدهم وتدعم دولتهم، وفي ذات الوقت يمدّهم بالأحاديث التي تصرف وجوه الناس عن عدوّهم اللدود، عليّ وبنيه..

ولمّا كان لا بدّ من التمهيد، وعدم مفاجأة الناس بسيلٍ من الأحاديث التي لم يسمعونها، فقد بدأ بنفسه وأخبر الناس أنّه قد ظفر دون غيره من الصحابة بكمٍّ وافرٍ من أحاديث النبيّ ﷺ لا يعرفها غيره، لأنّه الوحيد الذي بسط ثوبه للنبيّ،

فغرف له غَرْفَتَينِ وضعهما فيه فضمّه إلى صدره فلم ينس منه شيئاً أبداً!! وبذلك يكون قد حاز لنفسه مزيّتين: مزيّة الانفراد بأُمور لا يعرفها غيره، ومزيّة عدم النسيان التي ستجعله المرجع الوحيد الصحيح لحديث النبيّ..

وبعد إنجازه لهذه المرحلة، كان لا بدّ له من البدء بمرحلة الحذر والاحتياط لنفسه، فقد يتمرّد عليه الأمويّون ولا يثمّنون جهوده بثمنها الصحيح، فلا بدّ إذن من إيجاد وسيلة يهدّدهم بها ليجبرهم على الانصياع لكلّ طلباته، فتفتّق ذهنه وجاءه الحلّ سريعاً، إنّه حديث الوعاءين، فأطلق قذيفته الثانية إذ ادّعى بأنّه أخذ عن النبيّ ﷺ وعاءين من الحديث، بثّ أحدهما وسيستمرّ ببثّه، واحتفظ بالثاني في نفسه، وأشار بطرف خفيّ إلى أهمّيّة وخطورة ما في هذا الوعاء حين قال: أمّا الثاني فلو بثثته لقطع هذا البلعوم..

وهكذا كان، فكلّما أبطأ عنه معاوية في الأموال والهبات[1]، أخرج حديثاً من ذلك الوعاء الممنوع، فيسرع معاوية برفده بما يشاء من الأموال ليمنعه من إخراج حديث جديد، وما كان في ذلك الوعاء الثاني إلّا أحاديث النبيّ في فضائل عليّ وأهل بيته التي كانت أخطر على معاوية من كلّ الجيوش، مثل حديثه الذي أخرجه له أحمد في مسنده ونصّه: «**نظر رسول الله إلى عليّ والحسن والحسين وفاطمة، فقال: أنا حرب لمن حاربكم، وسلم لمن سالمكم**».

وقد رواه كذلك الترمذيّ من حديث زيد بن أرقم، وأخرجه ابن حبّان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، والطبرانيّ في تاريخه الكبير، ولم يخرّجه البخاريّ في صحيحه[2]..

---

(١) ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢: ٤٤٢ بروايته عن ابن المسيّب، قال: «كان أبو هريرة إذا أعطاه معاوية سكت، وإذا أمسك عنه تكلّم».

(٢) مسند أحمد ٢: ٤٤٢. سنن الترمذي ٥: ٣٦٠، الحديث ٣٩٦٢. صحيح ابن حبّان ◄

إنّ هذا الحديث وأمثاله كانت تخرج إذا كان غضب أبي هريرة على معاوية كبيراً، أمّا إذا كان غضبه قليلاً فإنّه يُخرج حديثاً في ذمّ بني أُميّة، مثل الحديث الذي أخرجه له البخاريّ، والذي يقول فيه: «**هلكة أُمّتي على يد أُغلمة من قريش**»[١]، وقد قال ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: «كان ذلك في زمن معاوية»[٢].

ورواه عمر بن يحيى بن سعيد الآمدي، عن جدّه، قال: «كنت مع مروان وأبي هريرة، فسمعت أبا هريرة يقول: سمعت الصادق المصدوق يقول: **هلاك أُمّتي على يد غلمة من قريش**.

قال مروان: غلمة؟

قال أبو هريرة: إن شئت أسمّيهم بني فلان وبني فلان»[٣].

ولا يفوتنا أن نشير إلى أنّ سبب إطلاق أبو هريرة لهذا الحديث بحضور مروان هو لضمان وصوله إلى معاوية بأسرع وقت..

إنّ من أهمّ ما سوّل لأبي هريرة أن ينطلق بحملته التحديثيّة هذه، وأن يبثّ أخباراً عن نفسه ينسبها إلى رسول الله ﷺ توهِمُ سامعها أنّ أبا هريرة كان ذا منزلة خاصّة عند النبيّ، وأنّه كان يؤثره على غيره من كبار الصحابة.. هو انتقال النبيّ وجلّ صحابته الكبار إلى الرفيق الأعلى، فأمِنَ واطمأنّ أن لا أحد سيكذّبه ويطعن بما يقول، فأطلق لنفسه العنان ولم تمنعه حدودٌ ولا حواجز.. كذلك ساعده اتّساع رقعة الدولة، واستمرار الفتوح، ودخول الكثير من الناس في الإسلام ممّن

← ١٥: ٤٣٤. المستدرك على الصحيحين ٣: ١٤٩. المعجم الكبير، الطبراني ٣: ٤٠، الحديث ٢٦٢٠ و ٢٦٢١.

(١) صحيح البخاري ٨: ٨٨.

(٢) فتح الباري ١٣: ٨.

(٣) صحيح البخاري ٤: ١٧٧ و ٨: ٨٨.

لا يعرفون شيئاً ممّا كان في زمن النبيّ ﷺ وخلفائه الراشدين ، ووراء كلّ ذلك كان السلطان يؤازره ويوسّع له مجال الوضع والتلفيق ، فأصبح (محدّث الدولة الرسميّ) وأصبح حديثه من أصحّ وأصدق الأحاديث ، ويكفي وضع اسمه كـ(ماركة) للحديث ليجد الرواج في سوق المزايدات . .

ولكي لا نبتعد عن الحقيقة ، فإنّ ما قلناه قبل قليل عن الخطّة التي وضعها أبو هريرة للمباشرة في بيع خدماته للدولة الأمويّة ولمعاوية بالذات ، لم تكن ناتجة عن فراغ ، ولم تكن وليدة ساعتها وظرفها ، وإنّما كانت امتداداً لسلوك مكين في نفسه لا يحيد عنه ، سلوك غير منظّم ولا مبرمج ، يتضمّن ردود فعله الظرفيّة بخصوص الأحداث والمستجدّات ، ولكنّها أخذت شكلها المدروس والمنظّم عند استلام معاوية لدفّة الحكم . .

فيروي عنه الإمام أحمد في مسنده عن البيهقي ، عن أبي هريرة : إنّه لمّا دخل دار عثمان وهو محصور ، استأذن في الكلام ، فلمّا أُذن له قال : « إنّي سمعت رسول الله يقول : إنّكم ستلقون بعدي فتنة واختلافاً ، فقال له قائل من الناس : فمن لنا يا رسول الله ؟ أو ما تأمرنا ؟

فقال : عليكم بالأمير وأصحابه ، وهو يشير إلى عثمان »(١)!!

وأُخرى : إنّه لمّا نسخ عثمان المصاحف دخل عليه أبو هريرة فقال : « أصبت ووُفّقت ، أشهد لسمعت رسول الله يقول : أشدّ أُمّتي حبّاً لي قوم يأتون بعدي يؤمنون بي ولم يروني ، يصدّقون بما جاء في الورق المعلّق .

فقلت : أيّ ورق ؟ حتّى رأيت المصاحف » . .

فأعجب ذلك عثمان ، وأمر لأبي هريرة بعشرة آلاف(٢) .

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٢٩ : ٢٦٧ .

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٢٩ : ٢٤٤ . البداية والنهاية ٧ : ١١٦ .

وأخرج ابن عساكر وابن عديّ والخطيب البغدادي عن أبي هريرة أيضاً أنّه قال: سمعت رسول الله يقول: إنّ الله ائتمن على وحيه ثلاثة: أنا وجبريل ومعاوية»[١]..

ومن خدمات أبي هريرة لمعاوية إنّه لمّا اشتدّ إنكار عبادة بن الصامت على معاوية، أرسل معاوية إلى أبي هريرة وكان يومها بالشام، وقال له: ألا تمسك عنّا أخاك عبادة، فأتاه أبو هريرة وقال له: يا عبادة، ما لك ومعاوية؟ ذرْهُ وما حمل..

فقال له عبادة: لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله على السمع والطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن لا تأخذنا في الله لومة لائم، فسكت أبو هريرة[٢].

ومن مواقفه الكثيرة في خدمة معاوية أيضاً أنّه أرسله هو وأبو الدرداء إلى عليّ ليدعوانه إلى الشورى، فقابلهما عبدالرحمن بن غنم الأشعريّ، وكان من أفقه أهل الشام وهو الذي فقّه عامّة التابعين في الشام وكان له جلالة وقدر، فكان ممّا قاله لهما: عجباً منكما! كيف جاز عليكما ما جئتما به؟ تدعوان عليّاً أن يجعلها شورى وقد علمنا أنّه بايعه المهاجرون والأنصار وأهل الحجاز والعراق، وأنّ من رَضِيَه خيرٌ ممّن كرهه، ومن بايعه خيرٌ ممّن لم يبايعه، وأيّ مدخل لمعاوية في الشورى؟ وهو من الطلقاء الذين لا تجوز لهم الخلافة، وهو وأبوه من رؤوس الأحزاب؟! فندما على مسيرهما[٣].

وكذلك من أفضاله الجليلة على معاوية أنه لمّا قامت الحرب بين عليّ ومعاوية، أخذ أبو هريرة بتثبيط الناس بأحاديث يرويها عن النبيّ ﷺ منها: ما رواه عنه الإمام أحمد والبخاريّ: «ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٢٧: ٢٣٥. الكامل في ضعفاء الرجال ١: ١٩٢، الرقم ٣١. تاريخ بغداد ١٢: ٨، الرقم ٦٣٦٣.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٢٦: ١٩٨. سير أعلام النبلاء ٢: ١٠.

(٣) عمدة القاري ٢١: ١٧٥. الاستيعاب ٢: ٨٥٠.

الماشي ، والماشي خير من الساعي ، مَن استشرف لها تستشرفه ، ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذ به »[١].

وروى عنه البخاري ومسلم أيضاً أنّ رسول الله ﷺ قال: « مَن أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني ، ومن عصى الأمير فقد عصاني »[٢].

وكان أبو هريرة أوّل مَن تلقّى بُسر بن أرطأة الذي أرسله معاوية للفتك بأهل المدينة وأخذ البيعة منهم له ، فعاونه في أخذ بيعتهم ، وبعدما قام بُسر بما قام به من تقتيل وتنكيل وتحريق وهتك للحرمات ، ولم يجد فيها مرحِّباً به ولا معيناً له ولا راضياً عن جرائمه سوى أبي هريرة ، نادى في الناس قائلاً: قد استخلفت عليكم أبا هريرة فإيّاكم وخلافه .

فبقي أبو هريرة والياً على المدينة حتّى دخلها جارية بن قدامة السعديّ من قِبل أمير المؤمنين عليّ عليه‌السلام في ألفي فارس ، فما كاد أبو هريرة يسمع بقدومه حتّى ولّى هارباً ، فقال جارية كلمته المشهورة: « لو وجدت أبا سنّور لقتلته »[٣] يعني أبا هريرة ، وبمجرّد أن آل الأمر إلى معاوية بعد مقتل الإمام حتّى عاد أبو هريرة والياً على المدينة .. وقد امتدّت خدمات أبي هريرة لمعاوية إلى كلّ جوانب الحياة ، فهذا العجّاج الراجز يقول: قال لي أبو هريرة: ممّن أنت ؟

قلت: من أهل العراق .

قال: يوشك أن يأتيك بُقعان الشام فيأخذوا صدقتك ، فإذا أتوك فتَلَقَّهُم بها ، فإذا دخلوها فكن في أقاصيها ، وخلّ عنهم وعنها ، وإيّاك أن تسبّهم فإنّك إن سببتهم

---

(١) مسند أحمد ٢: ٢٨٢. صحيح البخاري ٤: ١٧٧.

(٢) صحيح البخاري ٤: ٨، ١٠٤. صحيح مسلم ٦: ١٣.

(٣) الكامل في التاريخ ٣: ٣٨٤.

ذهب أجرك ، وأخذوا صدقتك ، وإن صبرت جاءت في ميزانك يوم القيامة »[١].

فانظر بعين الحقّ ستجده سمساراً ممتازاً لمعاوية ، وفيما يلي بعض من أحاديثه ومواقفه ممّا خدم به معاوية ودولته ممّا لا يحتاج إلى تعليق :

١ - روى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال : « أربع مدائن من مدن الجنّة : فمكّة والمدينة وبيت المقدس ودمشق ، أمّا مدائن النار فالقسطنطينيّة وطبرية وأنطاكية وصنعاء »[٢]!!

٢ - ورد في الصحيحين عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ : « لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحقّ حتّى تقوم الساعة »[٣] قال أحمد وغيره : وهم أهل الشام[٤]..

٣ - نظر أبو هريرة يوماً إلى عائشة بنت طلحة ، وكانت مشهورة بالجمال الفائق ، فقال : سبحان الله ما أحسن ما غذّاك أهلك ، (والله) ما رأيت وجهاً أحسن منك إلّا وجه معاوية على منبر رسول الله ﷺ[٥]!!

٤ - روى الطبري : قال أبو هريرة : رأيت هنداً بمكّة كأنّ وجهها فلقة قمر ، وخلفها من عجيزتها مثل الرجل الجالس ، ومعها صبيّ يلعب ، فمرّ رجل فنظر إليه فقال : إنّي لأرى غلاماً إن عاش ليسودنّ قومه .

فقالت هند : إن لم يسُدْ إلّا قومه فأماته الله »[٦]!!

٥ - كان أبو هريرة هو وسيط معاوية في الاحتيال على عبدالله بن سلّام القرشيّ

(١) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ٢ : ٥٧٢.

(٢) الكامل في ضعفاء الرجال ٧ : ٧٣ ، الرقم ١٩٩٥.

(٣) صحيح مسلم ٦ : ٥٤.

(٤) مسند أحمد ٤ : ١٠١. فتح الباري ١٣ : ٢٥٠.

(٥) العقد الفريد ٦ : ١٠١.

(٦) تاريخ مدينة دمشق ٧٠ : ١٧٤. البداية والنهاية ٨ : ١٢٦ ، ولم نجده في تاريخ الطبريّ.

لتطليق زوجته زينب بنت إسحاق، حتّى يزوّجها لابنه يزيد بعد هيامه بها وبجمالها، فذهب أبو هريرة وأبو الدرداء إلى عبدالله واحتالا عليه بما أمرهما به معاوية، فأبلغاه رغبة معاوية في تزويجه ابنته لورعه، على أن يطلّق زوجته أوّلاً، فلمّا طلّقها عرف بالحيلة، إذ طرده معاوية ورفض أن يزوّجه[1].

٦ ـ لمّا بلغ معاوية استشهاد الإمام عليّ عليه السلام وقت الضحى، قام فصلّى ستّ ركعات، ثمّ أمر بني أُميّة بالتحديث في فضل تلك الصلاة عن النبيّ صلى الله عليه وآله، فتطوّع أبو هريرة بحديث من كيسه قال فيه: «أوصاني خليلي بثلاثٍ لا أدعهنّ حتّى أموت: صوم ثلاثة أيّام في كلّ شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر»[2]، وقد ذكرنا في باب سابق إنكار عبدالله بن عمر لهذه الصلاة وبيانه بأنّها لم يُصلّها لا النبيّ ولا أبو بكر ولا عمر..!!

٧ ـ لو أردنا عدّ خدمات أبي هريرة لمعاوية وبني أُميّة ودولتهم فإنّنا لن نحصيها، ولكن قد يكون فيما ذكرناه عناوين ورموز لما كان يقدّمه لهم من أحاديث وما يحيكه لخدمتهم من روايات كان لها كبير فضلٍ في تدعيم سياستهم وإحكام قبضتهم وإضفاء بعض الشرعيّة على سلوكيّتهم ممّا ترك آثاراً سيّئة ومأساويّة على المجتمع الإسلاميّ إلى يومنا هذا..

مكاسب أبو هريرة من الأمويّين

لقد نال أبو هريرة من معاوية والأمويّين من المكافآت لقاء فضله عليهم وخدماته الجليلة لهم ما لم يخطر له على بال، فقد ولّوه على المدينة، وبنوا له قصراً في العقيق، وأقطعوه أرضاً به، وقصراً آخر بذي الحُليفة، وملأوا قصره بالدنانير

---

(١) معاوية بن أبي سفيان في الميزان، عبّاس محمود العقّاد: ١٥٩.

(٢) صحيح البخاري ٢: ٥٤.

والخيرات، وألبسوه الحرير، وأجلسوه على النمارق، وأذلّوا له رقاب الناس، وزوّجوه من سيّدته ومولاته التي كان يخدمها بشبع بطنه، بُسرة بنت غزوان أُخت القائد عتبة بن غزوان، فأذلّها وتحدّث عنها وفضحها من على منبره لخسّةٍ مستحكمة فيه، وشعور بالنقص لا يملك التخلّص منه..

وبعد كلّ هذا لا يسعنا إلّا أن ننظر بعين الشفقة إلى كلّ من يرى في هذا الرجل صحابيّاً محسوباً على رسول الله ﷺ، أو يعتبره ثقة يأخذ عنه الحديث والسنّة.

ونحمد الله سبحانه وتعالى أن جعلنا ممّن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، ووهب لنا بصيرة نرى بها الحقّ فنتّبعه والباطل فنجتنبه، وبارك لنا في عقولنا فجعلها تدرك الغثّ من السمين والصدق من الكذب..

والحمد لله ربّ العالمين

نكتة الختام

قال أبو هريرة: «إنّ النبيّ ﷺ قال: بين النفختين أربعون.

قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أَبَيْتُ (أي لا أقول).

قالوا: أربعون سنة؟ قال: أَبَيْتُ.

قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أَبَيْتُ».

فها نحن نراه كيف ورّط نفسه بكلمة (أربعين)، فلمّا سألوه عنها امتنع عن الجواب وبقي يكرّر «أبيت.. أبيت» خوفاً من الارتكاس في الورطة أكثر فأكثر، وقد نقلنا هذا الحديث والحوار نصّاً من صحيح البخاريّ[١]، فليراجعه من شاء.

---

(١) صحيح البخاري ٦: ٣٤، ٧٩.

الخاتمة

اطّلعنا من خلال أبواب البحث المختلفة على مجموعة من الأحاديث زادت عن الثلثمائة حديث ممّا أُسند إلى رسول الله ﷺ في كتاب يُعدّ من أشهر وأصدق كتب الحديث عند غالبيّة المسلمين، ألا وهو «صحيح البخاري».. وكان بودّنا لو استطعنا التعليق على كلّ حديث بما يتّصل به من قرائن وأدلّة نافية أو مؤيّدة لولا ما يفرضه ذلك من إطالة وتوسّع يخرجان البحث عن تصميمه وخطّته، سيّما وأنّ هنالك من القضايا والمواضيع ما يحتاج فعلاً إلى دراسات موسّعة وبحوث دقيقة..

وربّما لم يتجاوز ما قمنا به حدود التنبيه أو الإشارة إلى الأحاديث التي رأينا أنّ فيها تصادماً مع العقل والمنطق الصحيح، أو أنّها تتعلّق ببديهيّات اعتقدنا أنّها لن تفوت القارئ المسلم الفطن الذي لديه ثقافة إسلاميّة عامّة.. وقد حرصنا على أن ننأى بأنفسنا عن التعرّض للأمور الفقهيّة الصرفة كونها من اختصاص العلماء والفقهاء، ولسنا منهم، لذلك فقد أبقينا عملنا خارج دائرة اختصاصهم..

لقد عرفنا كيف تمّت عمليّة تدوين الحديث النبويّ الشريف، وما هي العوامل والظروف التي رافقتها وأثّرت فيها، ودور السلطات المتعاقبة في رسم الاتّجاهات التي أرادت أن توجّه السنّة النبويّة نحوها لخدمة أغراضها السياسيّة وتطلّعاتها ومصالحها الشخصيّة، وقد كان أهمّ ما توصّلنا إليه من خلال البحث:

١ ـ إنّ منع الخلفاء الراشدين لتدوين السنن والأحاديث النبويّة، واستمرار ذلك

طيلة قرن كامل من الزمن، كان السبب في حدوث كوارث عظيمة عانى منها المسلمون وما زالوا، لأنها كانت السبب المباشر في ضياع الكثير من تلك السنن والأحاديث أو نسيانها، ممّا فتح باب الوضع والاختلاق على مصراعيه.. وعندما سنحت الفرصة لجمع الحديث، ظهرت على الساحة أحاديث غريبة ومتناقضة، كان من أهمّ نتائجها التأسيس لتمزيق وحدة المسلمين، وتفريق شملهم، وإثارة الفتن والصراعات بينهم.. لأنّ تلك الأحاديث نجحت في تحويل ولاء المسلمين المطلق لله ورسوله وعقيدة الإسلام السمحاء، إلى ولاءات شائكة ومعقّدة للأشخاص والرموز السياسيّة..

ولم يكن ذلك ليحدث لو أنّ الخلفاء الأوائل سارعوا إلى ضبط الحديث والسنن النبويّة وأمروا بتدوينها عملاً بالكثير من النصوص التي دلّت على أنّ النبيّ ﷺ كان يأمر بالكتابة عنه وتدوين كلامه، مثل قوله لأنس: «**قيّدوا العلم بالكتابة**»[١]، وقوله لأحد الأنصار: «**استعن على حفظك بيمينك**»[٢]، إلى غير ذلك من النصوص التي ذكرناها في أماكنها من البحث..

٢ ـ إنّ نظرة فاحصة للأحاديث المتعارضة والغريبة، والتي تعسّف الكثيرون من أجل تأويلها لإضفاء قدر معيّن من العقلانيّة عليها، تؤكّد ما ذهبنا إليه من أنّها لم تكن لتحدث لولا منع التدوين..

لقد كان غالبيّة العرب يعيشون في تجمّعات عشائريّة وقبليّة، ويدينون بالولاء والطاعة لرئيس أو زعيم القبيلة، وكانت تلك القبائل بشكل عام منغلقة على نفسها ومحيطها اجتماعيّاً وثقافيّاً، لبساطة الحياة آنذاك، وعدم اضطرار الناس للسفر

---

(١) المستدرك على الصحيحين ١: ١٠٦. الحدّ الفاصل، الرامهرمزي: ٣٦٥. ناسخ الحديث ومنسوخه، عمر بن شاهين: ٥٧٦. مسند الشهاب ١: ٢٧٠، الحديث ٦٣٧.

(٢) الضعفاء، العقيلي ٣: ٨٣. لسان الميزان ٤: ٢١.

والاختلاط بغيرهم من أبناء القبائل الأُخرى ، إلّا ما يحصل في بعض المواسم كموسم الحجّ ـ مثلاً ـ أو في بعض العلاقات التجاريّة ، وذلك ما لا يتوفّر للجميع ، وربّما توفّر للنخبة منهم فقط . .

وطالما كانت تلك النخبة تحبّ وتكره ، وتدين بالولاء لشخصٍ ما أو لعقيدة أو فكرة ما ، فإنّها ستنقل معها ما يرسّخ ذلك الولاء وما يتلاءم مع تلك العقيدة فقط ، وبذلك ستبقى ثقافة القبيلة منحصرة في اتّجاه واحد لا تحيد عنه ، بل تترسّخ عقيدتها به ويقوى تصديقها له مع كلّ يوم يمرّ ، فتنشأ لديها قناعات وأفكار تؤمن بها ولا تعرف غيرها ، وقد ألمحنا إلى ذلك في مقدّمة البحث . .

وعندما ظهر رجال عملوا على تدوين الحديث ، لم يكن لهم من سبيل سوى الطواف على تلك التجمّعات ـ المدنيّة منها والعشائريّة ـ ليسألوا عمّن يحفظ حديثاً فيدوّنوه ، دون أن يُظهروا حرصاً في تدقيق ما يسمعوه قبل تدوينه أو الانتباه إلى تعارضه مع روايات أُخرى ، أو حتّى إلى وجوب الاطمئنان إلى حياديّة الراوي . . فدوّنوا كلّ ما سمعوه ، حتّى وجدنا فيه الغثّ والسمين ، والحقّ والباطل ، والصادق والكاذب ، والمتناقض والغريب ، والمتعارض مع غيره ، فقد تجد حديثاً لدى بني تيم ينصّ على أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال : « **لو كان بعدي نبيّ لكان أبو بكر** » ، ولدى بني عديّ « ... **لكان عمر** » ولدى بني عبد شمس « . . **لكان عثمان** » ، وكلّها كان دافعها معارضة قول النبيّ : « **عليّ منّي بمنزلة هارون من موسى ، إلّا أنّه لا نبيّ بعدي** » .

٣ ـ سجّلنا على الكثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله انصياعهم دون تدبّر إلى قرار المنع ، مع أنّ الذي كان منتظراً منهم باعتبارهم الخطّ الثاني في قيادة المجتمع الإسلاميّ ، واللائق بهم كتلاميذ لرسول الله ، والحريّ بهم كمؤمنين تلقّفوا الوحي الإلٰهيّ مباشرة من النبيّ دون فاصلة مكانيّة أو زمانيّة . . أن يكونوا بمستوى مكانتهم الحقيقيّة ومسؤوليّاتهم الجسام أمام ما استجدّ من أحداث على الساحة الإسلاميّة فلا يكتمون حقّاً ، ولا يهادنون باطلاً ، ولا يقعدون عن فتنة ، ولا يحابون سلطاناً ،

ولا يمتنعون عن أمر بمعروف أو نهي عن منكر، عملاً بقول رسول الله ﷺ: «**إنّ خير الجهاد عند الله كلمة حقّ عند سلطان جائر**»[١].

وقوله: «**الساكت عن الحقّ شيطان أخرس**»[٢].

وقوله: «**مَن رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[٣].

وأن يفعلوا على الأقلّ ما فعله أبو ذرّ الغفاري وابن مسعود وحجر بن عديّ وأضرابهم من أجلّاء الصحابة الذين لم يمنعهم إرهاب السلطة من قول الحقّ والدفاع عنه..

٤ ـ كما لمسنا بوضوح الدور الذي لعبه معاوية وعموم الأمويّين في التحكّم بالحديث النبويّ، والتخطيط والمساعدة في خلق مجموعة كبيرة من الأحاديث المفتراة للاستفادة منها في تثبيت حكمه، والطعن بأعدائه، والعمل على جعلهم غرباء على السيرة والمجتمع ليبقى صاحب الصولة والجولة في مقدّرات الإسلام والمسلمين، ساعده على ذلك ثلّة من المنحرفين الطامعين بالمال والجاه والمناصب، فوضعوا له ما شاء من أحاديث ونصوص جعلت منه أميراً شرعيّاً للمؤمنين، وبرّرت له سياسته في استعباد واستغلال الرعيّة، وأطلقت يده في التلاعب بمقدّراتها ومصيرها إلى الحدّ الذي حوّل الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض يتسنّمه الفتية والغلمان أمثال يزيد، وصبيان آل مروان، ممّا ترك آثاراً كان لها دورها القويّ والمؤثّر في كلّ الانحرافات الدينيّة والعقائديّة والاجتماعيّة

---

(١) مسند أحمد ٣: ١٩ و ٤: ٣١٥. سنن النسائي ٧: ١٦١. المستدرك على الصحيحين ٤: ٥٠٦.

(٢) شرح مسلم ٢: ٢٠. الأذكار النوويّة: ٢٣٥. فقه السنّة ٢: ٦١١.

(٣) مسند أحمد ٣: ٤٩. صحيح مسلم ١: ٥٠. سنن ابن ماجة ١: ٤٠٦، الحديث ١٢٧٥.

التي شهدها تاريخ الشعوب الإسلاميّة فيما بعد..

٥ ـ ثمّ جاء دور المؤرّخين وكتّاب السِّير، حيث تعرّفنا على طريقتهم في تدوين الأحداث والوقائع، وتداول الحديث، ورأيناهم يتحاشون ذكر الحقيقة التاريخيّة، ويدوّنون خلافها وهم يعلمون، إرضاءً للسلطان، أو استمالة للعامّة، فأصبحوا أدوات رخيصة تتحكّم فيها السياسة والمصالح وليس الدين وقول الحقّ.

وما تجنّينا عليهم، إذ نقلنا ما قالوه هم أنفسهم عن كيفيّة كتابتهم للتاريخ والسِّير، كقول ابن هِشام في مقدّمته وهو يشير إلى ما حذفه من سيرة ابن إسحاق والتي منها: «أشياء يشنّع الحديث عن بعضها» و «بعض ما يسوء بعض الناس ذكره» و «بعض لم يُقّر لنا البكائي بروايته».

وكذلك قول الطبريّ في مقدّمة تاريخه: «ما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين، ممّا يستنكره قارؤه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنّه لم يعرف له وجهاً في الصحّة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم إنّه لم يؤتَ في ذلك مِن قِبلنا، وإنّما أُتي من قِبل بعض ناقليه إلينا».

وقد أوضحنا أنّ هذه الأقوال تعني الاعتراف بوجود أشياء غير صحيحة في تينك التاريخين، وإنّ ابن هِشام والطبريّ لم يكونا مهتمّين بالدفاع عن الحقيقة التاريخيّة بقدر اهتمامهما بالدفاع عن نفسيهما، فهما عندما أشارا إلى اتّهامهما للتاريخ بتزييف الحقائق، أعلنا براءتهما من ذلك، وألقيا تبعته على مَن رواه لهما..

وهكذا أصبح لدينا المبرّر لتعميم هذا السلوك وذلك الاتّجاه الذي نحاه ابن هِشام والطبريّ على غالبيّة ما وصل إلينا من تواريخ وسِير وأحاديث، وبذلك سنحتاج إلى جهود جبّارة وإحساس عالٍ بالمسؤوليّة أمام الله ورسوله والتاريخ لالتقاط الخبر الصادق والحديث الصحيح من بين هذا الكمّ الهائل الذي ورثناه..

٦ ـ توصّلنا إلى عدم جدوى الاعتماد على رجال السند فقط في تمييز الحديث

الصحيح من غيره ، فرُبّ رجلٍ موثوق عند البعض ، لا تجد أكذب منه عند غيرهم ، وذلك أنّ الاتّجاهات السياسيّة والصراعات الطائفيّة والقبليّة لعبت دوراً خطيراً في تقرير وثاقة الرجال من عدمها . .

فمن يروي حديثاً فيه فضلٌ لعليّ عليه السلام أو لأحد آل الرسول ، فإنّه يصبح « متشيّعاً لعليّ » لا يجوز الأخذ منه ، ويُرَدُّ حديثه **!!**

أمّا مَن يروي حديثاً فيه فضلٌ للصحابة أو لأحدهم ، أو فيه طعنٌ بعليّ وآله ، فإنّه الثقة الصدوق الذي لا يُرَدُّ حديثه حتّى لو كانت فيه الطامّات **!!**

فالتشيّع لعليّ أصبح تهمة ، أمّا التشيّع لغيره فهو منقبة . .

وحبّ عليّ وموالاته أصبح نافياً للوثاقة ، في حين أصبح بغضه ومعاداته صكّاً للغفران . . فحتّى مَن لا يجد فيه هؤلاء المؤرّخون وأصحاب الحديث ما يصمونه به من نقص في علم أو ورع أو صدق ، تحفّظوا من الرواية عنه وقالوا : « ولكنّه كان متشيّعاً لعليّ » ، وعلى عكس ذلك فإنّهم يجيزون الرواية عن الفاسق والخارجيّ لمجرّد خروجه عن خطّ عليّ أو بغضه له . . وما ذاك إلّا عناداً لرسول الله الذي خاطب عليّاً بقوله : « **يا عليّ ، لا يحبّك إلّا مؤمن ، ولا يبغضك إلّا منافق** »(١).

هذا من جهة .

ومن جهة أُخرى : فإنّ تلك السلاسل الطوال من رجال السند التي تتصدّر كلّ حديث ، لم تعد سوى وسيلة لخداع الناس والتغرير بهم؛ لأنّ الذين يستطيعون تمييز هؤلاء الرجال إنّما هم الخاصّة من أهل العلم المتخصّصون بعلوم الرواية والدراية ، أمّا السواد الأعظم وغالبيّة أهل المعرفة والاطّلاع ، فإنّهم بعيدون عن معرفة ذلك ، حيث أنّهم يقرأون تاريخاً وحديثاً منتظماً ومسطوراً ، تدفعهم إلى تصديقه نفس تلك

---

(١) مسند أحمد ١ : ٩٥ ، ١٢٨ . سنن الترمذي ٥ : ٣٠٦ ، الحديث ٣٨٢٠ . سنن النسائي ٨ : ١١٦ . مسند الحميدي ١ : ٣١ .

السلسلة الطويلة من رجال السند ، فانقلب دور الأسانيد لتأتي بالنتيجة معكوسةً ..

وقد كان ينبغي والحال هذه ، إمّا التزام القواعد السليمة والصحيحة منذ البداية ، وتحرّي الدقّة ، وإحراز الثقة قبل الشروع بنقل أيّة رواية أو حديث ، أو اعتماد وسائل أُخرى في دراسة وتمحيص الأحاديث وعدم الاكتفاء بالسند لوحده ، وهناك الكثير من الوسائل التي يمكن اعتمادها بهذا الخصوص :

منها : عرضها على كتاب الله ، وأخذ ما يوافقه وردّ ما يخالفه .

ومنها : محاكمة النصوص وفقاً لأُسس علميّة وعقليّة سليمة .

ومنها : الانتباه إلى تعارض الروايات مع بعضها .

ومنها : النظر في الولاءات المنحرفة واللّاشرعيّة والميول السياسيّة والشخصيّة .

ومنها : عرض تلك النصوص على المعروف من سلوك رسول الله ﷺ وعناصر شخصيّته العظيمة وموقعه الرفيع كصاحب رسالة سماويّة عامّة وخاتمة ، للوقوف على مدى توافقها مع الرواية ..

٧ - لم يكن غريباً أن نجد في « صحيح البخاريّ » الكثير من الأحاديث والروايات الموضوعة ، شأنه شأن أيّة مجموعة أُخرى اهتمّت بجمع الحديث والسنن النبويّة ، ويكفي لتصديق ذلك ، الاطّلاع على عموم الكتب التي اهتمّت بجمع الحديث ، حيث ستكون النتيجة هي أن لا وجود لحقيقةٍ مطلقةٍ ولا أثرَ لصحّةٍ كاملةٍ .. وأنّ جميع ما نقلوه ودوّنوه وسوّدوا به الصحائف ، يحتوي على الصحيح كما يتضمّن السقيم ..

ولكنّ الغريب هو ما يظهره بعض المسلمين من حماسٍ غير صحيح في كلّ ما ورد في (الصحيح) ، والادّعاء بأنّ جميع ما ورد فيه هو في قمّة الصحاح ممّا لا يرتقي إليه شكّ أو طعن !! وأنّ مَن روى له البخاريّ حديثاً « فقد جاز القنطرة » ، وأنّه يأتي بعد كتاب الله من حيث الصحّة والقدسيّة ! في حين وجدنا فيه الكثير ممّا

لا يصحّ ولا يصمد أمام التحقيق العلميّ والدليل الموضوعيّ، إضافة إلى ما فيه من تناقضات وتهافتات..

ولو أنّهم اعترفوا بهذه الحقيقة، وقالوا أنّ فيه الصحيح وغيره، لما عادت هناك قضيّة، ولأغنونا وأغنوا غيرنا عن كلّ هذا الكلام..

ولكن لا بدّ وأن يكون لدى القوم سبب آخر يدفعهم إلى كلّ ذلك الحماس.. سببٌ ليست له علاقة بـ(الصحيح) ككتاب، ولا بـ(البخاريّ) كناقل حديث.. إنّما له علاقة بالتراث التربويّ والنفسيّ والثقافيّ الذي وصل إليهم عبر قرون طويلة من الزمان، فكان من أهمّ دوافعهم للاعتزاز به ما أظهره البخاريّ من جفوه لعليّ ولأهل بيته، وتجاهله الكامل لأدوارهم وفضائلهم ومواقفهم في خدمة الإسلام إلى الحدّ الذي يجعلك لا ترى فيهم غير أُناس غرباء عن السيرة والتاريخ الإسلامي، وذلك بالضبط هو ما سعت إليه وغذّته الحكومات المتعاقبة التي تسنّمت مواقع السلطة في الدولة الإسلاميّة.

وهكذا تجد بقيّة كتب ومصادر الحديث: كـ«صحيح مسلم» و«صحيح الترمذي» و«صحيح النسائي» و«سنن ابن ماجة» و«مسند أحمد بن حنبل» و«سنن أبي داود» و«سنن البيهقي» و«مستدرك الحاكم» وغيرها من كتب الحديث تتدرّج في الأهمّيّة والاعتبار بمقدار وحجم اقترابها أو ابتعادها عن عليّ وبنيه، بل عن عموم الهاشميّين، فكلّما اقتربت منهم قلّ حظّها في القبول لدى العامّة، وكلّما ابتعدت عنهم ازدادت وثاقةً وقبولاً..!! وما ذلك إلّا تقليد أعمى موروث عن نعرات طائفيّة، وقناعات شخصيّة أمْلَتها الولاءات للرموز والأفكار التي شهدتها الساحة الإسلاميّة، دون اعتبار لما بذله بعض المحقّقين وعلماء الحديث الأوائل والجدد والمعاصرين من جهود جبّارة في تمييز الحديث النبويّ، وفضح العديد من رواة السوء الذين تعمّدوا الكذب على رسول الله ﷺ، وكان الأوْلى متابعتهم فيما توصّلوا إليه وقرّروه، وخصوصاً الأوائل منهم، لقربهم من تلك

الحقبة ، ولمعرفتهم الأدقّ بالأحداث والوقائع وأحوال الرجال..

وتأسيساً على ما قلناه ، فإنّنا لا نجهل أنّ الكثيرين ممّن سيطّلعون على هذا البحث سيكون همّهم الأوّل ، وهم يقرأون استنكار ما توصّلنا إليه ، والبحث عن الثغرات فيه ، مدفوعين بعاطفة عمياء ، وميل شخصيّ ، ونعرة طائفيّة كانت هي السبب المباشر لما نمرّ به اليوم من ضعف وخمول وتمزّق..

ولكنّنا نأمل بحصول ما لا نتوقّع ، وهو أن يتجرّد هؤلاء من العاطفة والمكابرة ، وأن يحاكموا مايقرأوه ، مستحضرين ضمائرهم وغيرتهم وما يدعوهم إليه دينهم ؛ لأنّ غاية الجميع نصرة دين الله وتبرئة رسوله الكريم ممّا أُسند إليه من غرائب الأُمور..

٨ ـ وقد وقفنا على إحدى السبل التي حاول البعض إنقاذ الأحاديث والروايات ممّا اكتنفها من تناقض وتهافت ، فذهبوا إلى تأويلها وتفسيرها بالطريقة التي يشتهون ، ولكنّهم لم يجنوا ممّا فعلوه شيئاً مفيداً ، لصراحة تلك النصوص ، ووضوح معانيها ، ودقّة ألفاظها بما لم يترك مجالاً لتأويلها أو حملها على المجاز ، ولوجود قرائن تعارض الأصل ولا تدعم التأويل..

٩ ـ إنّ أغلب الأحاديث التي تناولت فضيلة لأحد الصحابة ، لم تخلُ من غمز أو إساءة ، إمّا لشخص النبيّ ﷺ ، وإمّا إلى صحابيّ آخر ، أو إلى جماعة الصحابة ككلّ ، فإنّ روايتهم قول النبيّ ﷺ : « **إنّ الشيطان لا يسلك فجّاً يسلكه عمر** » تعني أنّ الشيطان يستطيع أن يسلك الفجّ الذي يسلكه غيره بما فيهم النبيّ وبقيّة الصحابة ، ولِمَ لا وقد أكّدوا هذا المعنى عندما رووا أنّ الشيطان اعترض النبيّ وأراد أن يقطع عليه صلاته..

وعندما رووا أنّه ﷺ قال : « **رأيت الناس يعرضون علَيَّ وعليهم قُمْصٌ ، منها ما يبلغ الثدي ، ومنها ما دون ذلك ، وعُرض علَيَّ عمر بن الخطّاب وعليه قميص يجرّه**.

قالوا : فما أوّلت ذلك يا رسول الله ؟ قال : **الدين** »..

وفي مناسبة أُخرى أوّله بالعلم.. فهل يعني هذا غير أنّ عمر أكثرهم ديناً وعلماً، فيكون أفضل الناس بعد رسول الله؟ وذلك ما لا يقولون به، لأنّهم اعتبروا أبا بكر هو الأفضل..

وأشباه ذلك كثير في أحاديث البخاريّ ممّا سطّره دون وعي ولا تمحيص، ولم يراعِ فيه كرامة رسول الله، أو يحرص على تنزيهه من ارتكاب المعاصي، حيث طفق يروي أحاديث عن السيّدة عائشة لا ندري الآن على وجه الدقّة هل قالتها فعلاً أم أنّها أُسندت إليها كذباً وبهتاناً، مثل قولها: «كان النبيّ ﷺ يقرأ القرآن ورأسه في حجري وأنا حائض»[١].

وقولها: «كانت إحدانا إذا كانت حائضاً فأراد النبيّ أن يباشرها أمرها أن تتّزر في فور حيضتها ثمّ يباشرها»[٢].

أو قولها: «إنّ رسول الله ﷺ كان يدركه الفجر وهو جُنبٌ من أهله ثمّ يغتسل ويصوم»[٣]، وأقوال كثيرة غيرها نقلنا قسماً منها في محلّه من هذا البحث.

١٠ ـ كما وجدنا كمّاً كبيراً من الأحاديث التي تدعو الناس إلى الدعة، وطلب السلامة، والركون إلى الدنيا، وعدم التعرّض للسلطان ولو كان جائراً.. ولو كان فاسقاً، وبذل الطاعة للأمير مهما فعل، وتخذيلهم ودعوتهم للابتعاد عن (الفتن)، وكلّ ذلك ليمهّدوا السبيل للظلمة والطغاة ويساعدوهم على استعباد الرعيّة، والتسلّط على رقابهم، واغتصاب وانتهاك حقوقهم وحرماتهم، وهو ما يتعارض مع نصوص كتاب الله التي أمرتهم بالجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحقّ، وأوجبت

(١) صحيح البخاري ٨: ٢١٥. صحيح مسلم ١: ٢٠٨. المصنّف، الصنعاني ١: ٣٢٦، الحديث ١٢٥٢.

(٢) صحيح البخاري ١: ٧٨.

(٣) مسند أحمد ٦: ٣١٣. صحيح البخاري ٢: ٢٣٢.

عليهم مقارعة الظالمين ، وحثّتهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . .

١١ ـ ثمّ اطّلعنا على كثرة ولع البخاري بالإسرائيليّات التي طفحت بها الأحاديث التي روى أغلبها أبو هريرة وأنس بن مالك وأبو سعيد الخدريّ .

ولا يفوتنا أن نذكر أنّ في الثلثمائة حديث التي ناقشناها ما يزيد على مائة حديث رواها أبو هريرة لوحده من بين ما يقرب من خمسمائة حديث نقلها عنه البخاريّ في صحيحه ، تضمّنت أكثرها العجائب والغرائب من الأباطيل والخرافات والأساطير التي ما أنزل الله بها من سلطان ، وقد مرّ عليك بعضها خلال فصول البحث . .

١٢ ـ والخلاصة : فإنّه لم يكن يرضينا ، ولا هو من أهدافنا ، الإساءة إلى أحد من المسلمين ، أو الطعن بعقيدته ، فذلك أمر قبيح لا نأتيه ولا نرتضيه ، بل إنّ غاية ما توخّيناه هو الاقتراب قدر المستطاع من الحقيقة التي هي منية كلّ مؤمن صادق لنستخلصها من بين ذلك الكمّ الهائل من الأحاديث والروايات التي أُسندت إلى النبيّ ﷺ والتى تركت آثاراً سيّئة جدّاً على العديد من الأفكار والعقائد لدى الكثير من المسلمين ، فشوّشت عليهم وأبعدتهم عن استلهام المعاني والأفكار العظيمة التي انطوت عليها شريعة الإسلام ، دون أن يقصدوا ذلك أو أن يتعمّدوه ، ولكنّهم تقبّلوه بسلامة نيّة وصدق سريرة معتقدين أنّه الحقّ الصريح . .

ولو كان الأمر متعلّقاً بشخصٍ أو بشريحة صغيرة من الناس لاحتسبنا ذلك عند الله وسكتنا ، معتقدين بأنّ كلّ نفس بما كسبت رهينة ، ولكنّه أصبح قضيّة دين بكلّ وجوده ، يتربّص أعداؤه به ، ويتحيّنون الفرص للانقضاض عليه ، والطعن فيه ، وتشويه معالمه ، وتسفيه أفكاره وشرائعه ، مستعينين بما زوّدتهم به تلك الروايات من مادّة وحجج يجادلون بها ، ويتعكّزون عليها في محاربتهم له . .

لقد رأينا وسمعنا ما يثيره أعداء الإسلام من شبهات حوله ، وما وصموه به من افتراءات ، وما أسندوه إليه من شعوذات ، منطلقين من أُمّهات كتبنا نحن المسلمين وما احتوى عليه بعضها من زيف وأباطيل . .

وقد لا نلقي اللوم عليهم بقدر ما نلقيه على أنفسنا .. فقل لي بربّك :

أيّ نبيّ هذا الذي يعترضه الشيطان ليقطع عليه صلاته .. ؟!

وأيّ رسول ذلك الذي لا يدري أصلّى الظهر ركعتين أم أربع .. ؟!

وأيّ مبعوث هو الذي يحرص على الطواف على تسع نسوة كلّ ليلة ، ولا يكتفي بذلك فيباشرهنّ وهنّ في المحيض .. ؟!

وما قيمة الدين الذي يدعو أتباعه إلى (اعتزال الفتنة) ، فلا يردع ظالماً ولا ينصر مظلوماً ، ولا يصرّح بحقّ ولا يستنكر باطل .. ؟!

وما حاجة الناس إلى شريعة تدعوهم للإقرار بإمامة (كلّ برٍّ وفاجر) بحجّة الحفاظ على وحدة المسلمين وعدم شقّ (صفّ الأُمّة) .. ؟!

وأيّ إنسانٍ يستطيع أن يُقِرَّ ديناً يأمره بـ (طاعة الأمير ولو كان فاسقاً) بحجّة عدم (مفارقة الجماعة) .. ؟!

أو أن يركن إلى دين قالوا أنّ الله أحكمه وأتمّه ، في حين يروون أنّ أغلب تشريعاته إنّما قامت على رأي رآه البعض ، أو عن استحسان صدر من بعض ، أو عن أطيافٍ رأوها وأحلام صنعوها ؟!

وكيف يستطيع أحدٌ إهمال عقله الجبّار ، وذوقه الرفيع لكي يقبل بروايات وقصص أساسها الأوهام والخرافات وهي تريد منه أن يصدّق فرار الشيطان وله ضراط مع كلّ تكبيرة في صلاة ، أو تأمره بقتل الوزغ لأنّه نفخ على أحد الأنبياء ؟!

وكيف يتسنّى له تصديق قيام القِرَدة برجم القِردة الزانية ، أو تكلّم البقرة والذئب بلسان عربيّ مبين ، أو ذهاب الشمس عند مغيبها لتسجد فتُمنَعْ ، أو طول آدم ستّون ذراعاً وعرضه سبعة أذرع ، أو تخصيص العظام والروث كطعام للجنّ الجياع .. إلى آخر هذه الخزعبلات التي لا تنتهي .. !!

وكيف يستسيغ كلّ ما ورد في تلك الروايات من صور مُخجلة عن الأنبياء

والرسل.. فموسى يركض عرياناً وراء الحجر الذي سرق ثيابه، وهو يضربه بعصاه ويطالبه بإعادة ثيابه إليه!!

وأُخرى يلطم ملك الموت لطمةً تُذهبُ عينه!!

وإبراهيم يكذب ويشكّ ويشتم أباه!!

وسليمان يطوف على مائة امرأة كلّ ليلة!!

وأيّوب يغتسل عرياناً فيتساقط عليه جراد الذهب فيغترف منه فيعاتبه ربّه!!

ونبيّ آخر يحرق قرية النمل لأنّ نملة قرصته!!

وغيرها من الطامّات التي أنزلوها على رؤوس أنبياء الله الأطهار وهم منها براء..

ولا نريد أن نكرّر كلّ ما ذكرناه بين طيّات البحث من أباطيل يمجّها العقل، ولا يقبلها الذوق..

أوَلم يكن كلّ هذا هو ما أرادوا منّا تصديقه والإقرار به، وجعله موروثاً دينيّاً وفكريّاً وثقافيّاً؟! ولو فعلنا ذلك فهل سنتمكّن من مواجهة العالم الذي أصبح لا يؤمن إلّا بالحجّة الدامغة، والدليل العقليّ والعلميّ الراسخ؟!

وهل يا ترى هذا هو الإسلام، الدين العظيم، الذي جعله الله خاتماً لرسالاته، وارتضاه لعباده ديناً تامّاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟!

كلّا.. وألف كلّا..

فالإسلام هو دين العلم، ودين العقل، ودين الحضارة، ودين العدل، وهو صنعةُ خبيرٍ عليم أراد به أن يحرّر الناس من عبوديّة الجهل والظلم والظلمات، ويرفعهم إلى عالم الرقيّ والعدل والنور، ليتمكّنوا من تشييد دولته على الأرض، ويسودوا الخليقة لإنقاذها من الضلال وتحقيق السعادة لها في الدارين..

وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

مُحتَويَاتُ الكِتابِ

الباب الثاني: نظرة عامّة إلى صحيح البخاري
٥٩ ـ ١٢٤

الفصل الأوّل:

الباب الثالث: نظرة عابرة في أحاديث البخاري
١٢٥ ـ ٤٤١

الفصل الأوّل:

الفصل الثاني:

الباب الرابع : ابو هريرة في الميزان
٤٤٣ ـ ٥٣٧